مذكرات جورج دبليو بوش

بقلمه



قرارات مصيرية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

«مشوّق من البداية حتى النهاية... على الأطياف السياسية الإسراع في قراءته».
بيل كلينتون

◆◆◆

«يصف رئاسة جورج دبليو بوش الصاخبة في اللحظات المصيرية. بصراحة قلّ نظيرها يكتب الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة عن انتخابات عام ٢٠٠٠ التي اتّصفت بالمنافسة القاتلة، وعن الساعات والأيام والأسابيع بعد ١١ أيلول/سبتمبر، والحروب في أفغانستان والعراق، وإيران وغيرها من النزاعات في الشرق الأوسط، والأزمة المالية الجامعة التي انفجرت في ركود عامي ٢٠٠٧-٢٠٠٨؛ وإعصار كاترينا، وغيرها من أحداث عاصرها وهو في البيت الأبيض».
Barnes&Noble

«مثير لمؤيديه ومعارضيه، من المؤكد أنّ هذا الكتاب سيغدو «الدعامة الأساسية» للمؤرِّخين، أيضاً».

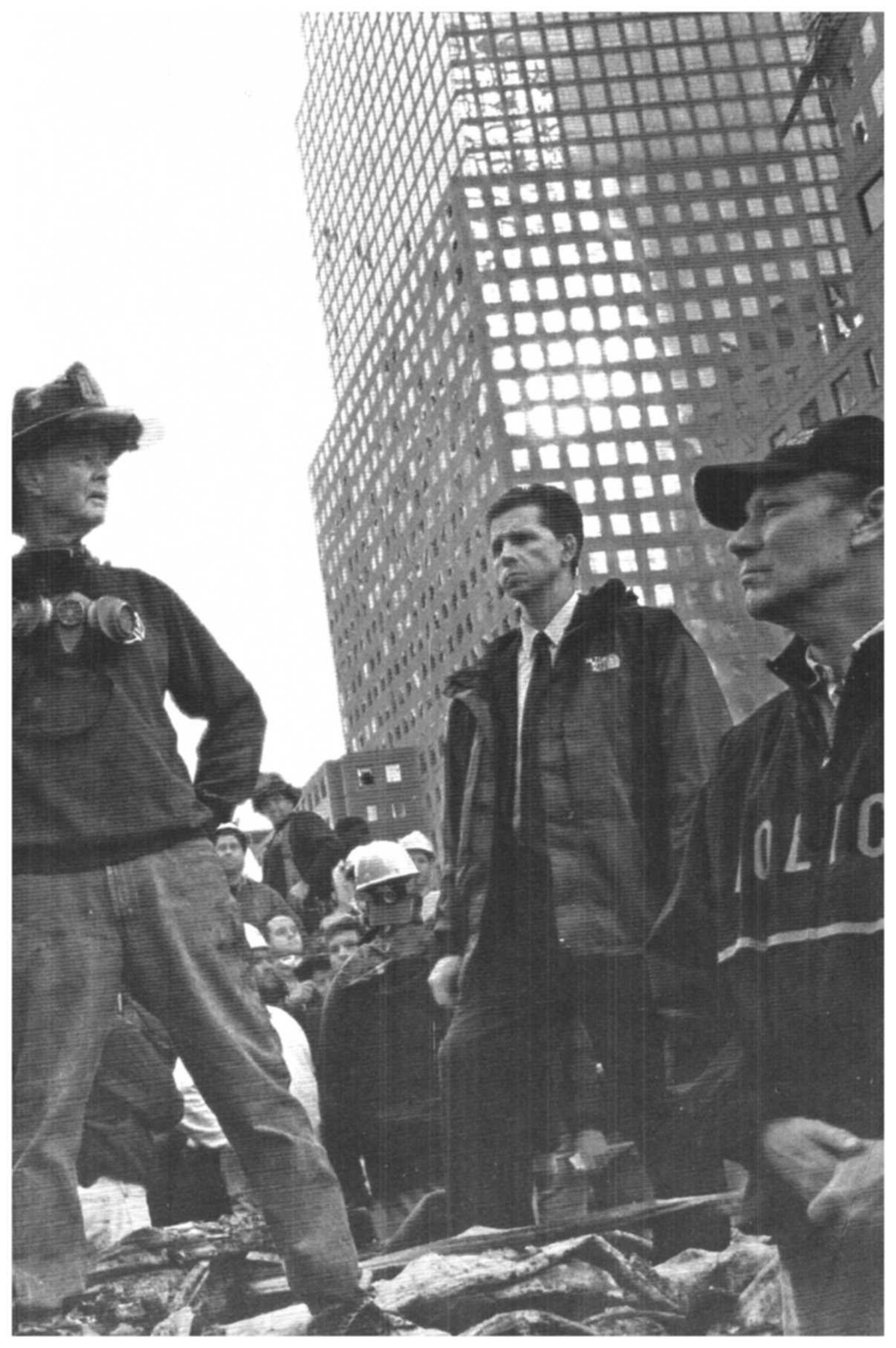
بيتسبرغ تريبيون ريفيو

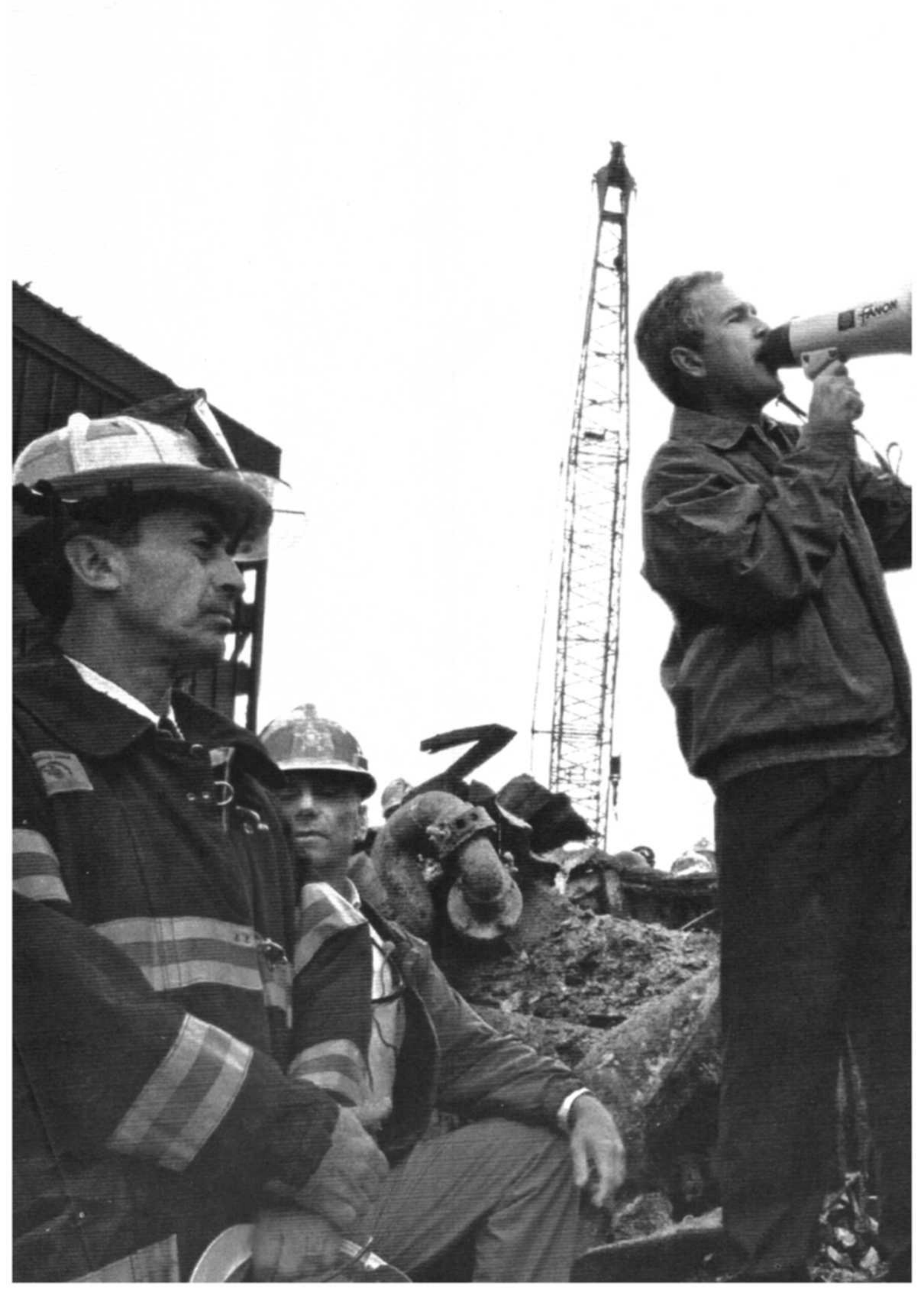
◆ ◆ ◆

«سيرة ذاتية تركِّز في «القرارات الأكثر أهمية» التي اتّخذها في فترة رئاسته وفي حياته الشخصية، من قرار إقلاعه عن الكحول عام ١٩٨٦ إلى قرار غزوه العراق عام ٢٠٠٣ وحتّى قراراته بشأن الأزمة المالية عام ٢٠٠٨».

ميتشيكو كاكوتاني، The New York Times

قرارات مصيرية


OLIC


FANON

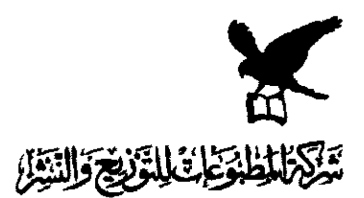


مذكرات

جورج دبليو بوش

قرارات مصيرية





شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١٣

ISBN: 978-9953-88-629-9

Originally published as: **Decision Points.**

ترجمة: سناء حرب

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

الإخراج الفني: فدوى قطيش

صورة الغلاف: White House / Paul Morse

صورة الصفحتين ٢ و٣: White House / Eric Draper

إلى حبيباتي

لورا وباربرا وجينا



المحتويات



المقدّمة

في السنة الأخيرة من رئاستي بدأت أفكّر جدّيّاً في كتابة مذكّراتي. بناءً على توصية من كارل روف، التقيت أكثر من اثني عشر مؤرّخاً متميّزاً. جميعهم قالوا لي إنَّه لديَّ واجب الكتابة حيث أنَّه من المهمّ أن أسجِّل، بكلماتي الخاصّة، وجهة نظري في سنوات الرئاسة.

سألني المؤرّخ جاي وينيك «هل سبق لك أن رأيت الفيلم أبولو ١٣؟» وأردف «الجميع يعرفون أن روّاد الفضاء يعودون أدراجهم في نهاية المطاف. ومع ذلك فأنت كنت على حافّة مقعدك تتساءل كيف يفعلون ذلك». بناءً على اقتراح جميع المؤرّخين تقريباً قرأت مذكّرات الرئيس يوليسيس غرانت التي يسيطر عليها صوته المميَّز. وهو يستخدم الحكايات لإعادة بناء تجربته خلال الحرب الأهليّة. هذه العوامل تفسّر استمراريّة تأثير هذا الكتاب.

قرّرتُ مثل غرانت، ألاّ أكتب قصّة حياتي أو الرئاسة كاملة. بدلاً من ذلك رويت قصّتي في البيت الأبيض مركّزاً على أهمّ جزء من العمل: اتّخاذ القرارات. وكلّ فصلٍ من الكتاب يعتمد على قرارٍ كبيرٍ أو سلسلةٍ من القرارات ذات الصلة.

نتيجةً لذلك، يسيطر على الكتاب تسلسل موضوعيّ عوضاً عن التسلسل الزمنيّ، لهذا أنا لا أغطّي جميع القضايا المهمّة الّتي عبرت مكتبي. كما أنَّ بعضَ أعضاء مجلس الوزراء وبعضَ الموظّفين لديّ مذكورون باختصار أو غير مذكورين على الإطلاق. أنا أقدّر خدماتهم وسوف أكون دائماً ممتنّاً لمساهماتهم.

أهدافي في هذا الكتاب لها شقّان. أوّلاً، آمل أن يرسم هذا الكتاب صورة رئاسةٍ امتدَّت ثماني سنوات متلاحقة. أنا أعتقد أنَّه، ولعدّة عقود، سيكون من المستحيل التوّصل إلى استنتاجات جازمة بشأن رئاستي أو أيّ رئاسة أخرى في الفترة الأخيرة. إنَّ مرور الوقت يسمح بتبريد العواطف، ويوضح النتائج، ويتيح للعلماء المقارنة بين نهوجٍ مختلفة. أملي هو في أنَّ هذا الكتاب سيكون مرجعاً لأيّ شخصٍ يدرس هذه الحقبة من التاريخ الأميركي.

ثانياً، هدفي إعطاء القرّاء نظرةً إلى كيفيّة صنع القرار في بيئة معقّدة. الكثير من القرارات التي تصل إلى مكتب الرئيس تشكّل صعوبةً وتأتي مع حجج قويّة من كلا الجانبين. في كلّ أقسام الكتاب أصف الخيارات الّتي تأمّلتها والمبادئ الّتي اتّبعتها. آمل أن يعطيك هذا فكرةً أفضل عن أسباب اتّخاذي القرارات. قد يفيدك أيضاً في اتّخاذ الخيارات في حياتك الخاصّة.

وتستند محطات القرار، أساساً، إلى ذكرياتي. بمساعدة من الباحثين، أثبتُّ تقريري عن الأحداث من خلال الوثائق الحكوميّة، والملاحظات المعاصرة، والمقابلات الشخصيّة، والتقارير الإخباريّة، ومصادر أخرى، والبعض منها لا يزال سريّاً. وفي بعض الحالات اضطررت إلى الاعتماد على ذاكرتي وحدها. إذا لم يكن هناك دقّة في هذا الكتاب فإنَّ المسؤوليّة تقع عليّ شخصيّاً.

في الصفحات التالية، بذلت قصارى جهدي للكتابة عن القرارات الصحيحة والخاطئة التي اتّخذتها، وماذا كنت لأفعل، ولو بطريقة مختلفة، لو سنحت لي الفرصة. بطبيعة الحال ، في الرئاسة، لا مجال لإعادة عمل الأشياء بطريقةٍ مختلفة. عليك فعل ما تعتقد أنّه حقّ، ومن ثمّ أن تقبل العوائق. حاولتُ أن أفعلَ ذلك كلَّ يوم من عملي في السنوات الثماني من رئاستي. كان شغل منصب الرئيس شرفُ العمر بالنسبة لي. وأقدّر لكم منحي فرصة رواية قصّتي.

١

التخلّي

كان سؤالاً بسيطاً. سألتني لورا بصوتها الهادىء واللطيف: «هل تذكر اليوم الأخير الذي لم تتناول فيه مشروباً؟». لم تكن تهدّد أو تعبّر عن انزعاج، لكنَّها كانت تتوقَّع جواباً. زوجتي شخص يجيد استغلال اللحظات المناسبة، وكانت هذه إحداها.

«بالطبع أستطيع»، جاء ردّي، ساخطاً. بعد ذلك تذكّرتُ الأسبوع السابق، فيوم الاثنين تناولت بضع زجاجات من البيرة (الجِعَة) مع الأصدقاء. يوم الثلاثاء، حضَّرتُ شرابي المفضَّل: B&B، البينديكتينيّ والبرانديّ. وبعد أن وضعتُ باربرا وجينا في الفراش، يوم الأربعاء، شربتُ كأسين من البوربون مع السفن أب. يوما الخميس والجمعة لشرب البيرة. أمَّا يوم السبت، فخرجتُ أنا ولورا مع أصدقاء. كنت قد شربت مارتيني قبل العشاء، والبيرة مع العشاء، وB&B بعده. آه.. أوه، لقد فشلتُ في الأسبوع الأوّل.

حاولتُ جاهداً تذكُّر يومٍ واحدٍ لم أشرب فيه على مدى الأسابيع القليلة الماضية، ثمّ خلال الشهر الماضي، وبعدها عدتُ بالذاكرة إلى ما قبل ذلك. لكنّني لم أستطع أن أتذكّر يوماً واحداً. صرت تحت تأثير عادة الإدمان على الشرب.

في شخصيّتي مَيْلٌ للعادات. دخّنت السجائر لمدّة تسع سنوات، منذ أيّام الكلّيّة. تخلّيت عن التدخين من خلال غمس السعوط، وعن العادة الأخيرة عبر مضغ نبات التبغ طويل الورق. وتوصّلتُ، في نهاية المطاف، إلى تدخين السيجار.

حاولتُ لفترةٍ من الوقت، تفسير عادة الشرب بشكلٍ يجعلها تبدو معقولة. لم تكن حالتي سيّئة مثل بعض المدمنين، في مسقط رأسي ميدلاند في ولاية تكساس. لم أكن أشرب خلال النهار أو في العمل. كنت في حالةٍ جسديّةٍ جيّدة، وأهرول تقريباً، كلّ يوم، بعض الظهر، وهذه عادة أخرى من عاداتي.

مع مرور الوقت، اتّضح لي أنّني لم أكن أركض للمحافظة على رشاقتي فقط، بل أيضاً لتطهير جسدي من السموم. أثار سؤالُ لورا بعضَ الاستفهام في نفسي. هل كنتُ أريد قضاء بعض الوقت في المنزل مع بناتنا أو البقاء خارجاً للشرب؟ أَرَغِبْتُ في أن أقرأ في السرير مع لورا، أو أن أتناول كأساً بمفردي، بعد أن يخلد الجميع إلى النوم؟ هل كان بإمكاني مواصلة التقرّب من الله العليّ القدير، أو كانت الكحول تصيرُ إلهي؟ كنت أعرف الإجابات، ولكن كان صعباً عليّ استجماع إرادتي لإحداث التغيير. في سنة ١٩٨٦، بلغتُ ولورا سنَّ الأربعين، وكذلك بلغها صديقانا دون وسوزي إيفانز. قرّرنا إقامة احتفالٍ مشتركٍ في منتجع برودمور في كولورادو سبرينغز. دعينا صديقيْ الطفولة جو وجان أونيل، وأخي نيل، وصديقاً آخر من ميدلاند اسمه بيني سوير. وكان العشاء، بهذه المناسبة، ليلة سبت. تناولنا وجبةً كبيرةً يرافقها كثير من زجاجات النبيذ من نوع سيلفر أوك وثمن الواحدة ستون دولاراً. تبادلنا الكثير من الأنخاب، لصحّتنا ولأطفالنا وللمربّيات اللواتي كنَّ يراقبن الأطفال في منازلنا. علت أصواتنا وبدأنا تكرار القصص نفسها مراراً وتكراراً، حتّى أنّ دون اعتقد أنّنا ظرفاء وعلينا التجوّل بين الموائد. بعد أن أغلقنا المكان ودفعنا ثمن المشروبات غالياً، خلدنا إلى النوم.

استيقظتُ في الصباح التالي وأنا أعاني من وخمة السكْر. بينما كنت أهرول كعادتي، لم أستطع تذكّر أيّ من أحداث البارحة. وعند منتصف الطريق بدأت

أفكاري تتّضح حول الاتّجاهات الّتي أخذتْها حياتي. منذ شهور سألت اللهَ أن ينير طريقي لتحقيق مشيئته، بينما أوضحت لي قراءاتي في الكتاب المقدّس طبيعة التجربة وحقيقةَ أنّ حُبَّ الملذّات الدنيويّة لا يمكن أن يحلّ محلّ محبّة الله. ومشكلتي لم تكن تُختصر بالكحول، بل كانت تضاف إليها الأنانيّة. جعلتني الخمرة أهتمُّ بذاتي قبل الاهتمام بالآخرين، ولاسيّما عائلتي. كنتُ أحبُّ لورا وبناتي حُبّاً جمّاً يمنعني من الاستمرار بالخطأ. وبقوّة الإيمان وجدت مخرجاً. كنت أعرف أنّ بإمكاني الاعتماد على نعمة الله لمساعدتي في التغيير. على الرغم من الصعوبات حسمت أمري، في نهاية المطاف، وقرّرت الإقلاع عن الكحول.

عندما عدت إلى غرفة الفندق، قلت للورا إنّني لن أتناول الكحول بعد الآن. فنظرت إليَّ وكأنّني لا أزال تحت سيطرة الشراب قائلة: «هذا جيّد، يا جورج».

كنتُ أعرفُ بما كانت تفكّر، إذ أنني كنت قد تحدّثت عن الإقلاع عن التدخين من قبل، ولكني في الواقع لم أقم بذلك. ما لم تكن تعلمُ به هو أنني هذه المرّة قد تغيّرتُ داخليّاً، وهذا مكّنني من تغيير سلوكي إلى الأبد.

استغرق الأمر حوالى يوم لأستوعب قراري جيّداً. حالما بدأتُ أنسى وخمة السكْر صار إغراء الشرب شديداً، فجسدي كان يشتهي الكحول. طلبتُ من الله العليّ القدير أن يمنحني القوّة للتغلّب على رغباتي، ولجأتُ إلى الركض السريع كوسيلةٍ لتأديب نفسي. أكلتُ، أيضاً، الكثير من الشوكولاته لأن جسمي كان يحتاج إلى السكّر، وكان تناول الشوكولاته طريقةً سهلة لإشباع هذه الحاجة، وأعطتني دافعاً، أيضاً، للركض من أجل المحافظة على رشاقتي.

دعمتني لورا بقوّة إذ شعرتْ بأنني جدّيٌّ في مسألة الإقلاع عن الكحول. في كلّ مرّة تحدّثنا بالأمر، كانت تحثُّني على الاستمرار في قراري. أحياناً، كنت أتكلّم عن المشروب لمجرّد سماع كلماتها المشجّعة.

ساعدني أصدقائي، أيضاً، رغم أنَّ معظمهم لم يتوقّف عن الشرب، عندما كنتُ

في صحبتهم. في البداية كان من الصعب رؤية الآخرين يتمتّعون بالكوكتيل أو البيرة. ولكن حالة الوعي جعلتني أُدرك أنّني كنت أبدو قليل العقل عندما كنت أشرب. مع مرور الوقت، شعرت بزخم قراري. صار عدمُ تناول الكحول عادةً، وكنت سعيداً في الاحتفاظ بها.

* * *

شكّل الإقلاع عن الشرب واحداً من أصعب القرارات الّتي اتّخذتها في أيّ وقتٍ مضى.

لو لم أفعل ذلك لاستحالت كلُّ القرارات الأخرى التي سأذكرها في هذا الكتاب. ومع ذلك، فلو لم أختبر تجارب السنوات الأربعين الأولى من حياتي، لما كان الإقلاع عن الشرب ممكناً. ففي تلك العقود تكوّنت مظاهر كثيرة من شخصيّتي ومن قناعاتي. وقد شملت رحلتي تحدّياتٍ وصراعاتٍ بالإضافة إلى الفشل. إنّها شهادةٌ على قوّة الحُبّ، وقوّة الإيمان، وقدرة الإنسان على التغيير. وفوق ذلك، كانت رحلةً شيّقة.

* * *

أنا الابن البِكرُ لجورج وباربرا بوش. شارك والدي في الحرب العالميّة الثانية، وعند عودته إلى الوطن تزوّج حبيبته، مؤسّساً عائلةً بسرعة. مع أنّ قصّته كانت تشبه قصص الكثيرين من شباب جيله، تميّز جورج هـ. و. بوش دائماً عن الآخرين. عندما هوجم بيرل هاربور، كان والدي ينهي دروسه الثانويّة. وعلى الرغم من أنّ جامعة ييل كانت قد قبلته طالباً فيها، انخرط في البحريّة يوم عيد ميلاده الثامن عشر وبذلك كان أصغر طيّار. قبلَ أن يسافر بحراً، باتّجاه المحيط الهادىء، وقع في حُب فتاةٍ جميلةٍ اسمها باربرا يرس. على الفور أخبر أصدقاءه أنّه سيتزوّجها ونقش اسمها على جانب طائرته ليتذكّرها باستمرار.

في صباح أحد الأيّام، في شهر أيلول/سبتمبر، سنة ١٩٤٤ حلّق أبي في مهمّة فوق

شيشيجيما وهي جزيرة كان يحتلّها اليابانيّون. تعرّضت طائرته TBM لنار العدوّ، ولكنّه أكمل مهمّته حتّى دمّر الهدف، بعد أن قام بالهبوط، بسرعة مئتي ميلٍ في الساعة. بعدها، صرخ طالباً من زملائه الهبوط بالمظلّة. ثمّ فعل ذلك بنفسه. سبح باتّجاه الطوف المطّاطيّة الصغيرة التي كانت سادّة مقعده، وحيداً في المحيط الهادىء. عندما أنقذته غوّاصة، قيل له إنّه يمكنه العودة إلى دياره، ولكنّه عاود الانضمام إلى أسطوله البحريّ. أنهى جولته قبل عيد الميلاد، ويوم ٦ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٤٥، تزوّج أمّي في كنيسة عائلتها في راي، نيويورك.

انتقل والداي، بعد انتهاء الحرب، إلى نيو هايفن حتّى يتمكّن أبي من الدراسة في ييل. وكان رياضيّاً من الدرجة الأولى وقائد فريق البيسبول. حضرتْ والدتي أكثر المباريات حتّى خلال فصل الربيع من سنة ١٩٤٦، عندما كانت حاملاً بي. ولحسن حظّها، كان في الملعب مقعدٌ مزدوجٌ واسعٌ، وراء لوحة الفريق، مصمّم لأستاذ القانون السابق وليام هوارد تافت. برع والدي في الدراسة، وتخرّج بدرجة «فاي بيتا كابا»، بعد سنتين ونصف السنة فقط. حضرتُ حفلة تخرّجه، برفقة أمّي، غافياً خلال معظم الاحتفال. لن تكون هذه المرّة الأخيرة التي أنام فيها خلال محاضرةٍ في جامعة ييل.

بعد سنوات صار الملايين من الأميركيّين يعرفون قصّة والدي التي حفظتها من البداية. أذكر، حين جلستُ مع والدتي على أرضيّة المنزل أبحث في سجلات القصاصات، أرتني صوَراً من تدريب الطيّارين في كوربوس كريستي وعشرات من إحصاءات المباريات في دورات البطولة في الكلّيّة وصورة له مع لاعب البيسبول الشهير الملقّب بايب روث، في ميدان جامعة ييل. تمعّنت في صوَر زواجهما، وفيها يظهر ضابطُ البحريّة وعروسه الشابّة مبتسمة. الغرض المفضّل لديّ، بين هذه القصاصات هو قطعة من المطّاط من الطوف الذي أنقذ حياة والدي، في المحيط الهادىء. وكنت أصرُّ عليه ليروي لي قصص الحرب، على الرغم من رفضه التباهي بإنجازاته، على عكس أمّي التي كانت تعشقه مثلي. مع مرور السنوات تطلّعت للتمثّل

بأشخاص آخرين. لكنّ الحقيقة هي أنّني لم أكن بحاجة للبحث عن مثالٍ أعلى إذ كنت ابن جورج بوش.

* * *

عندما تخرّج والدي في سنة ١٩٤٨، خمّن الجميع أنّه سيتوجّه إلى العمل في وول ستريت، بحكم كون والده شريكاً في شركة استثماريّة ناجحة. لكنّه أراد تحقيق ذاته بمثابرته الشخصيّة. قام مع والدتي بتحميل سيّارة الستوديبيكر الحمراء وتوجَّها غرباً. لقد أُعجبتُ بقدرتهما على المخاطرة، وكنتُ دائماً ممتنّاً لأنّهما استقرّا حيث عملا. من أعظم ما ورثت هو أنّي تربّيت في غرب تكساس.

قضينا السنة الأولى في أوديسا، وهي بلدة تقطنها الطبقة العاملة، فيها بضعة شوارع معبّدة، والكثير من العواصف الترابيّة. كنّا نعيش في شقّة صغيرة ونستخدم حمّاماً مشتركاً مع مومس أو اثنتين، ويعتمد العدد على من تسأل. عمل والدي في شركةٍ للخدمات النفطيّة، وشملت مهامُّه، التي كانت تعتبر في أسفل هرم الوظائف، تنظيفَ مستودعاتٍ واسعة، ودهن الرافعات المِضخَّة. أحد زملاء أبي سأله، مرّة، إذا كان حصّل تعليماً جامعيّاً. فأجابه أبي: أنّه، على سبيل الحقيقة، قد درس في جامعة ييل. فعلّق الرجل: «لم أسمع بها».

مع انقضاء المدّة القصيرة التي قضيناها في ولاية كاليفورنيا، انتقلنا مرّةً أخرى إلى غرب تكساس في سنة ١٩٥٠. استقرّينا في ميدلاند، وهو المكان الأوّل الّذي يبادر إلى خاطري عندما أفكّر في نشأتي. تقع ميدلاند على بُعد عشرين ميلاً، شرق أوديسا. الأشجار الأصليّة غير موجودة فيها وأرضها مسطّحة وجافّة ومغبّرة، وتحتها بحر من النفط.

وميدلاند عاصمة الحوض الذي تشكَّلَ في عصرِ تكوُّنِ الجبال في جنوب الولايات المتّحدة، والتي كانت تستأثر، على حوالى عشرين في المئة من انتاج النفط في أميركا في سنة ١٩٥٠. يُسيطر على البلدة روح الاستقلال والتجارة. على

الرغم من وجود منافسةٍ قويّة، ولاسيّما في مجال النفط. سيطر أيضاً، شعور بالتلاحم الاجتماعيّ. كان بإمكان أي شخص إمّا النجاح وإمّا الفشل. أهل أصدقائي كانت لديهم وظائف مختلفة. أحدهم دهّان، وآخر طبيب جرّاح، وآخر كان يعمل في الإسمنت. على مسافة حوالى عشرة أبنية من منزلنا، عاش السيّد هارولد ويلش الذي كان يبني البيوت. مرَّ ربع قرنٍ قبل أن ألتقيه وأتودّد إلى ابنته الجميلة لورا لاين.

كانت الحياة بسيطةً في ميدلاند. كنت أركب درّاجة مع رفاقي، ومنهم مايك بروكتر وجو أونيل وروبرت مكلسكي. ذهبنا في رحلات الكشّافة، وبعتُ الحلوى كعمل خيريّ.كنت وأصدقائي نلعب البيسبول لساعات، ويصارع بعضنا بعضاً، ونسدّد الضربات حتّى تناديني أمّي من فوق السياج في الفناء لآتي لتناول العشاء. كنت أشعر بسعادةٍ غامرةٍ عندما يخرج والدي للّعب، وهو اشتهر بالتقاطه الضربات الآتية من وراء ظهره، وهي حيلة تعلّمها في الكلّيّة. أنا وأصدقائي حاولنا تقليده، لكن انتهى بنا المطاف إلى التعرّض للكثير من اللكمات على أكتافنا.

* * *

حصلت إحدى اللحظات التي أفتخر بها، عندما كنتُ في الحادية عشرة من عمري. بينما كنت ألعب catch مع أبي في الساحة رمى باتّجاهي طابةً سريعةً فالتقطتُها بقفّازي. قال لي: «يا بُني، لقد حقّقت الهدف. أستطيع رمي الكرة لك بالقوّة التي أريدها».

كانت هذه السنوات مريحةً وخاليةً من الهموم، ويمكنني وصفها الآن بالمثاليّة. مساء الجمعة كنّا نذهب لتشجيع فريق البيسبول في ثانويّة ميدلاند. وصباح الأحد كنّا نذهب إلى الكنيسة، ولم يكن أحد يقفل أبواب منزله. في وقتٍ لاحقٍ، عندما كنت أتكلّم عن الحلم الأميركيّ، كانت ميدلاند في بالي.

وسط هذه الحياة السعيدة، حصل أمرٌ محزن جدّاً. في ربيع سنة ١٩٥٣ تمَّ تشخيص مرض شقيقتي روبن، ولها ثلاث سنوات من العمر، بسرطان الدم، وهو

شكل من أشكال السرطان الذي كان في ذلك الحين يتعذّر علاجه. وضعها والداي في مستشفى سلون كيترينج التذكاريّ، في مدينة نيويورك، آملين بمعجزة، وهما يعلمان، أيضاً، أنّ الباحثين سوف يتعلّمون من درس حالتها.

أمضت أمّي شهراً قرب سرير روبن. أمّا أبي فكان يقوم برحلات مكّوكيّة (ذهاباً وإياباً) بين تكساس والساحل الشرقيّ. وأنا بقيت مع أصدقاء والديّ. عندما كان أبي في المنزل بدأ يستيقظ باكراً للذهاب إلى العمل. في وقت لاحق علمتُ أنّه كان يذهب، يوميّاً، إلى الكنيسة في الساعة السادسة والنصف صباحاً، للصلاة من أجل روبن.

وجد والداي صعوبة في التفسير لي أنّ شقيقتي كانت تحتضر، فاكتفيا بالقول: إنّها كانت مريضة، وهي في شرق البلاد. في أحد الأيّام، في مدرسة ميدلاند الابتدائيّة سام هيوستن، طلبت المدرّسة منّي ومن زميلٍ لي نقلَ المسجّلة إلى جناح آخر في المدرسة. بينما كنّا نحمل الآلة الضخمة، صُدمتُ لرؤية أمّي وأبي في سيّارة الأولدز موبيل الخضراء التي تملكها عائلتنا. أُقسم أنّني رأيت شعَر روبن الأشقر والمجعّد من النافذة. ركضت نحو السيّارة، ونظرت باتّجاه المقعد الخلفيّ. لم تكن روبن موجودة هناك. همسَت أمّي «لقد توفّيت». خلال الرحلة القصيرة إلى المنزل، رأيت والديّ يبكيان للمرّة الأُولى، في حياتي.

أحزنتني وفاة روبن، وإن بالطريقة التي يحزن بها الولد في عمر السبع سنوات. كنت حزيناً لفقدان شقيقتي التي كانت ستلعب معي في المستقبل. كنتُ حزيناً لأنّني رأيت والديّ يتوجّعان كثيراً. ومرّت سنوات طويلة قبل أن أتمكّن من فهم الفرق بين حزني والألم الموجع الذي شعر به والداي لفقدان ابنتهما.

* * *

شكّلت الفترة التي تلت وفاة روبن بداية مرحلة تقاربٍ جديدةٍ بيني وبين والدتي. كان أبي يمضي وقتاً كثيراً منشغلاً بالأعمال التجاريّة، بعيداً عن المنزل.

فقضيت كلّ وقتي، تقريباً، معها، مغدقاً عاطفتي عليها، ومحاولاً رفع معنويّاتها، بواسطة الفكاهات. ذات يوم، سمعتُ مايك بروكتور يدقُّ الباب ويسأل إنْ كنتُ أستطيع الخروج واللعب، فامتنعتُ قائلا: «لا بدّ لي من البقاء مع والدتي».

على امتداد فترةٍ قصيرة، بعد وفاة روبن، شعرتُ وكأنّي طفل وحيد. كان أخي جب مجرّد طفل حيث أنّه يصغرني بسبع سنوات. أمّا شقيقاي الأصغر سنّاً نيل ومارفن وشقيقتي دورو، فوُلدوا في وقتٍ لاحق. وقد استمرّت أمّي بأداء دورٍ كبيرٍ في حياتي وأنا أكبر. كانت والدتي تهتم بنا في أشبال الكشّافة، بحيث تقلّنا إلى كهوف كارلسباد حيث كنّا نمشي بين النوازل والصواعد. كما أنّها، في كلّ مباريات المدرسة، كانت تدوّن النتائج. أخذتني إلى أقرب طبيبٍ لتقويم الأسنان في بيغ سبرينغ، وحاولت تلقيني الفرنسيّة في السيّارة. وما زلت أستطيع تصوّر نفسي، ونحن نتجوّل بالسيّارة في الصحراء، وأنا أكرّر: «Ferme la bouche... ouvre la fenêtre». ليت جاك شيراك رآني في تلك اللحظة.

طوال حياتي أخذت الكثير من سمات والدتي .لدينا روح الدعابة نفسها. نحبّ الكيد في التعبير عن عاطفةٍ أو في الجدال. وأحياناً، في التعبير عن رأينا. يمكن أن نغضب بسرعة، وأن نتكلّم بصراحةٍ شديدة، الأمر الذي كان يوقعنا في المتاعب من وقت إلى آخر. عندما ترشّحتُ لمنصب حاكم ولاية تكساس، قلتُ للناس إنّ لديّ عينيْ أبي وفم أمّي. قلت ذلك لأضحك الناس، ولكنّه الواقع.

ترتّبت توقّعات عالية عن كوني ابن جورج وباربرا بوش، ولكنّها لم تكن من النوع الذي افترضه الناس لاحقاً. والداي لم يفرضا أبداً أحلامهما عليّ، إذ كانا يأملان أنّي سوف أصير لاعب بيسبول مشهوراً أو شخصيّةً سياسيّةً أو فنّاناً، (والأمر الأخير مستحيل)، فهما لم يناقشاني مرّةً في هذا الموضوع. كان دورهما يكمن في منحي الحُبَّ وتشجيعي على خطّ مساري الخاصّ، ومع أنّهما وضعا حدوداً للسلوك المقبول، فقد تخطّيتها في بعض الأوقات. وكانت والدتي من يفرض القواعد. كانت تصيرُ عصبيّة أحياناً، وبسبب تماثل شخصيّتينا، عرفتُ طريقة إثارتها. وبّختني حين

كنت أحاول التذاكي. ومتى كنت بذيئاً، على حدّ تعبيرها، كانت تؤدّبني. حدث ذلك أكثر من مرّة. لكن في معظم الأوقات لم أحاول استفزازها. كنت صبيّاً متحمّساً ولي طريقتي الخاصّة، تماماً كما كانت لها طريقتها الخاصّة في التربية. عندما أقول إنّني مسؤول عن شعْرها الأبيض، فأنا أمزح قليلاً.

فهمتُ، مع الوقت، أنّ حُبّ والديّ لي غير مشروط. أنا أعرف ذلك لأنّني امتحنتُه. حطّمت سيّارتين عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، وهي السنّ القانونيّة للقيادة آنذاك، ولم يتأثّر حُبّ والديّ لي بذلك. استعرت من والدي السيّارة، وذهبت بتهوّر في الاتجاه المعاكس فكسرتُ الباب. في مناسبة أخرى سكبتُ الفودكا في حوض السمك فقتلت السمكة الذهبيّة الخاصّة بشقيقتي دورو. في بعض الأحيان كنتُ مشاكساً ومتطلّباً ووقحاً. وعلى الرغم من كلّ ذلك، لم أفقد حُبَّ والديّ.

في نهاية المطاف، تأثّرتُ بحُبّهما الصبور تجاهي. عندما تتأكّد من وجود الحُبّ غير المشروط، لا ترى جدوى في التمرّد، ولا تأبى الفشل.كنتُ حرّاً في اتّباع غرائزي والتمتّع بحياتي ومحبّة والديّ بقدر ما يحبّانني.

ذات يوم، وبينما كان أبي في رحلة عمل، نادتني أمّي إلى غرفة نومها. وكان في صوتها عجلة. طلبت منّي أن آخذها إلى المستشفى، على الفور. سألتُها ما الخطب؟ أجابت: إنّها سوف تخبرني في السيّارة.

بينما كنت أبتعد بالسيّارة عن المنزل، طلبت منّي القيادة بتأنّ وتجنّب المطبّات. فوجئت حين أخبرتني أنّها فقدت جنينها، إذ لم أكن أتوقّع أن أناقش موضوعاً كهذا مع والدتي. كما أنّني لم أتوقّع قطّ أن أرى ما تبقّى من الجنين، والذي كانت قد حفظته في مرطبان لأخذه إلى المستشفى. أتذكّر أنني فكّرت في تلك اللحظة: هذه كانت حياة إنسان، أخٍ أو أخت.

سجّلتْ أمّي نفسَها في سجلّ المستشفى، واقتيدت إلى غرفة الفحص. رحت

وجئت في الممرّ، لتهدئة أعصابي. قالت لي امرأة مسنّة، كنت قد مررت قربها مرّاتٍ عدّة: «لا تقلق، يا عزيزي، ستكون زوجتك بخير».

أكّد لي الطبيب، بعد أن سمح لي بدخول غرفة والدتي، أنّها ستكون بخير، وأنّها بحاجةٍ لقضاء الليل في المستشفى. فردّدتُ لأمّي ما قالته المرأة في القاعة. ضحكَت بقوّة، كما هي عادتها. فعدتُ إلى المنزل بحالةٍ أفضل بكثير مما كنت.

في اليوم التالي عدتُ إلى المستشفى لاصطحابها. شكرتني على حرصي ومسؤوليّتي، وطلبتْ منّي ألاّ أخبر أحداً عن فقدانها الجنين، وهو أمر اعتبرته مسألةً عائليّةً خاصّة. لقد احترمت رغبتها، حتّى أذنَت لي بأن أروي القصّة في هذا الكتاب. ما فعلتُه من أجل أمّي، في ذلك اليوم، كان بسيطاً، ولكنّه كان في غاية الأهمّيّة عندي، إذ أنّه ساعد في تعميق العلاقة المميّزة التي تربطنا.

* * *

بينما كنت أشبُّ في ولاية تكساس، كانت بقيّة عائلة بوش جزءاً من عالم مختلف جدّاً. زرنا أهل والدي في غرينيتش بولاية كونيتيكت حين كان لي حوالى ستُّ سنوات من العمر. وقد دعيتُ لتناول العشاء مع الكبار، واضطُررت إلى ارتداء معطفٍ وربطة عنق، وهو أمر لم أكن أفعله في ميدلاند، خارج مدرسة الأحد. تمّ ترتيب المائدة بأناقة، ولم أكن قد رأيت في حياتي هذا العدد من الملاعق والشوك والسكاكين، وكلُّها منظّمة بدقّة. قدّمت لي امرأة ترتدي ملابس بيضاء ووزرةً سوداء حساءً أحمر غريباً في وسطه نقطة بيضاء .تذوّقت القليل منه فكان فظيعاً، وسرعان ما بدأ الجميع ينظرون إليّ منتظرين حتّى أُنهي هذا الطبق الشهيّ. كانت أمّي قد نبّهتني إلى أن آكل كلَّ شيء من دون تذمُّر. ولكنها نسيَت أن تُعْلِمَ الطاهي بأنّها ربّتني على زبدة الفول السودانيّ والهلام، وليس على حساء الخضر الروسيّة.

سمعتُ الكثير من أبي عن أجدادي. جَدّي بريسكوت بوش كان رجلاً فارع الطول والحضور: طوله متران تقريباً، وضحكته وشخصيّته قويّتان. كان معروفاً جدّاً

في غرينتش كرجُل أعمالٍ ناجح، في غاية الاستقامة، وقد أدار مجلس البلديّة. كما أنّه كان لاعب غولف بارزاً، رئِسَ الرابطة الأميركيّة للغولف، وسجّل ستاً وستين رميةٍ في دورة الولايات المتّحدة المفتوحة للاعبين القدامى. في سنة ١٩٥٠ ترشَّح غامبي، كما كنّا نسمّيه، إلى مجلس الشيوخ، وخسر بفارق أكثر من ألف صوت، وأقسم أن يبقى بعيداً عن السياسة. ولكن بعد عامين، أقنعه جمهوريّو كونيتيكت بإعادة المحاولة، ففاز في هذه الدورة.

عندما كنت في العاشرة من العمر، ذهبتُ لزيارة غامبي في واشنطن. أخذني مع جدّتي إلى اجتماعٍ في أحد المنازل في جورج تاون. تجوّلتُ بين البالغين في حين كان غامبي يمسكُ بذراعي. قال لي: «جورجي، أريدك أن تلتقي شخصاً»، وقادني نحو رجلٍ عملاقٍ وهو الشخص الوحيد في الغرفة الّذي كان بطوله.

توجّه إليه غامبي بالحديث قائلاً: «أمامك، هنا، أحدُ الناخبين في منطقتك». عندها ابتلعتْ يدٌ ضخمة يدي. «مسرور لمقابلتك». قال لي زميل غامبي، وكان زعيم الأغلبيّة في مجلس الشيوخ، ليندون جونسون.

كان جَدّي، أحياناً، رجلاً صارماً جدّاً. يؤمن بأنّ الأطفال ينبغي أن يُنظر إليهم من دون الاستماع إليهم. كان هذا أمراً غريباً لولدٍ مثلي، يحبُّ التحدّث والتذاكي. مال إلى فرض الانضباط بسرعةٍ وبقوّة، كما اكتشفتُ، حين طاردني في جميع أنحاء الغرفة الخلفيّة، بعد أن شددتُ ذنب الكلب المفضَّل لديه. في ذلك الوقت، وجدتُه مخيفاً، ولكن بعد سنوات، أيقنتُ أنّ هذا الرجل له قلب فيّاض بالعطاء: أخبرتني والدتي كيف أنّه حاول أن يخفّف ألمها عن طريق اختيار موقعٍ جميلٍ لدفن روبن في مقبرةٍ في غرينتش. عندما توفّي جدّي سنة ١٩٧٢، دُفن إلى جانبها.

أحبّ أبي والدَه واحترمه، كما أنّه عشق والدته. كانت دوروثي ووكر بوش مثل الملاك. كنّا ندعوها غانّي، ولعلّها أطيب شخصٍ قابلتُه في حياتي. أتذكّر كيف كانت تضعني في السرير عندما كنت صغيراً، وتدغدغ ظهري، بينما نتلو صلاة الليل. كانت

متواضعةٍ وعلّمتنا عدم التباهي. وقد عمّرت لترى أبي رئيساً للبلاد وتوفّيت في سنّ الحادية والتسعين بعد أسابيع قليلةٍ من هزيمته في سنة ١٩٩٢. أبي كان معها في اللحظات الأخيرة. طلبتْ منه أن يقرأ لها في الكتاب المقدّس الذي كانت تضعه إلى جانب سريرها. حين فتحه، انزلقت حزمة من الأوراق القديمة. وكانت رسائل كتبها لها أبي منذ سنوات، وبقيت تعتزُّ بها طَوال حياتها، وأرادتها بالقرب منها في نهاية حياتها.

عاش والدا أمّي في راي، نيويورك. والدتها، بولين روبنسون بيرس توفّيت عندما كنتُ في سنّ الثالثة. وقد قَضَتْ في حادثٍ عندما انحرفت سيّارة جدّي مارفن واصطدمت بحائط من الحجارة، بعد أن حاول منع فنجان القهوة الساخنة من السقوط. وقد سُمّيت شقيقتي الصغرى تيمّناً بجدّتي.

كنتُ مولَعاً جدّاً بجدّي مارفن بيرس المعروف باسم مونك. أجاد أربعة أنواع من الرياضة في جامعة ميامي، ولاية أوهايو، الأمر الّذي أعطاه هالةً أسطوريّةً في عينيّ. رئِس شركة ماكول، وكان على صلة قرابةٍ بعيدةٍ مع الرئيس فرانكلين بيرس. أتذكّر أنه كان رجلاً لطيفاً وصبوراً ومتواضعاً.

علّمتني رحلاتي إلى شرق البلاد درسَيْن مهمّيْن: أوّلاً، وجدتُ نفْسي مرتاحاً في أيّ بيئة تقريباً. ثانياً، أيقنت أنّني أُحبّ العيش في ولاية تكساس. بالطبع، كان للحياة على الساحل الشرقيّ ميزة مهمّة: هناك استطعت مشاهدة البيسبول على مستوى المايجر ليغ. عندما كنت في العاشرة اصطحَبنا عمّي بوكي، الشقيق الأصغر لأبي، لحضور مباراة لفريق نيويورك جاينتس في البولو غراوندز. ما زلت أتذكّر، حتّى اليوم الأول بطلي ويلي مايز وهو يلتقط الطابة من البعيد.

بعد مرور خمسة عقود رأيت ويلي مرّةً أُخرى، عندما شغل منصب مفوّضٍ فخريّ في مباراة T-ball للشباب في الحديقة الجنوبيّة للبيت الأبيض. كان في السبعين من العمر، لكنّه بدا لي كما عُرف دائماً «Say Hey Kid». قلت للاّعبين الشباب في ذلك

اليوم «أردت أن أكون ويلي مايز جيلي لكن لم يمكنني ضرب الكيرفبول. لذا، بدلاً من ذلك، صرتُ رئيساً للجمهوريّة».

* * *

في سنة ١٩٥٩ تركَت عائلتي ميدلاند وانتقلنا مسافة ٥٥٠ ميلاً إلى هيوستن. كان والدي الرئيس التنفيذيّ لشركة في مجال الحفر لاستخراج النفط قبالة الشاطئ، وكانت مصلحة متزايدة الازدهار. الأمر الذي جعل وجوده قريباً من منصّات الحفر في خليج المكسيك أمراً ضرورياً. كان منزلنا الجديد في منطقةٍ خضراء مشجّرةٍ بكثافة، تتعرّض، غالباً، للعواصف، ممّا جعلها مختلفة جدّاً عن ميدلاند، حيث النوع الوحيد من العواصف هو عاصفة الغبار. شعرتُ بالقلق بسبب تغيير مكان إقامتنا. ولكن هيوستن كانت مدينةً مثيرة. تعلّمتُ لعبة الغولف، وأقمت صداقاتٍ جديدة، ودخلت مدرسةً خاصةً تدعى كينكايد. في ذلك الوقت، بدت الفروقات بين ميدلاند وهيوستن كبيرة، غير أنّها كانت بسيطةً بالمقارنة مع ما كان سيأتي بعد ذلك. في أحد الأيّام، بعد المدرسة، كانت أمّي تنتظرني في نهاية الممرّ، وكنت في الصفّ التاسع. لم تكن الأمّهات يخرجن لملاقاة الباصّ، أو على الأقلّ، لم تكن والدتي تفعل ذلك. حماسها كان واضحاً، حين نزلتُ من الحافلة، قالت لي: «تهانينا، يا جورج، لقد تمّ قبولك في أندوفر!» بدا الخبر جيّداً لها. أمّا أنا فلم أكن على يقينٍ من ذلك.

كان أبي قد اصطحبني، الصيف الماضي، لأرى مدرسته، أكاديميّة فيليبس في أندوفر في ماساتشوستس. كانت تختلف، اختلافاً واضحاً، عمّا كنتُ متعوّداً عليه. وكانت معظم المساكن مبنيةً بحجارةٍ كبيرة من الطوب ومنظّمةٍ حول الساحات. بدت وكأنّها جامعة. كنتُ أُفضِّلُ كينكايد، ولكن القرار كان قد اتّخذ. كانت أندوفر تقليداً عائليّاً، وكنت ذاهباً لا محال.

جابهتُ التحدّي الأوّل وهو تفسير قضيّة أندوفر لأصدقائي في تكساس. في تلك الأيّام، كان معظم الذين يذهبون إلى مدارس الثانويّة بعيداً عن تكساس لديهم

مشاكل في الانضباط. عندما أخبرت صديقاً أنّني ذاهب إلى مدرسةٍ داخليّةٍ في ماساتشوستس، ردّ بسؤالٍ واحدٍ فقط: «بوش، بماذا أخطأت؟».

عندما وصلتُ إلى أندوفر في خريف سنة ١٩٦١، اعتقدت أنّه قد يكون يعلم شيئاً ما. أُجْبرنا على ارتداء ربطات العنق في الصفّ، وخلال وجبات الطعام والقداديس التي كان حضورها إلزاميّا. في أشهر الشتاء كنّا نشعر كما لو كنّا في سيبيريا. كرجلٍ من تكساس، بدأت التمييز بين أربعة مواسم جديدة: الثلوج الجليديّة، والثلوج العذبة، وذوبان الثلوج، والثلوج الرماديّة. لم نكن نرى أيّ امرأة، باستثناء اللواتي كنّ يعملن في المكتبة، ومع مرور الوقت، بدَوْنَ لنا مثل نجوم السينما.

شكّلت المدرسة تحدّياً أكاديميّاً كبيراً لي. فالذهاب إلى أندوفر كان أصعب شيء فعلته حتى ترشّحت للرئاسة بعد ما يقرب من أربعين سنة. كنت أضعف من باقي الطلاَب، أكاديميّاً، لذا دأبت على الدرس بجدّيّة كبيرة. في السنة الأُولى كانت تُطفأ الأنوار في غرف النوم عند الساعة العاشرة. لذلك، في الكثير من الليالي، بقيت أقرأ على ضوء القاعة الّذي كان يلمع تحت الباب.

كانت اللغة الإنكليزيّة المشكلة الأساسيّة. في أحد أوّل فروضي، كتبت عن الحزن الذي شعرت به لفقدان أختي روبن. وقررت أنّه عليّ استخدام كلمة أفضل من البكاء. وجودي على الساحل الشرقيّ عنى لي أنّه عليّ أن أحاول أن أكون عالي الثقافة. بعد أن أخرجت قاموس المرادفات الّذي وضعتْه أمّي في حقيبتي كتبت: «مزّق» سرت على خدي (عندما تُستعمل كفعلٍ فإنّ مرادف الكلمة الإنكليزيّة التي تعني دمعة تصير «مزّق»). حصلتُ على علامة صفر كبيرة على فرضي، فشعرتُ بالمفاجأة والمهَانة. كنت أحصل على درجاتٍ جيّدةٍ دائماً في تكساس، هذا كان فشلي الأكاديميّ الأوّل. اتّصلت بوالديّ وأخبرتهما أنّني أشعر بالتعاسة، فشجّعاني على البقاء. قرّرت مجابهة الصعوبات، فأنا ما كنتُ انهزاميّاً.

تكيّفت اجتماعيّاً أكثر مما تكيّفت أكاديميّاً. بعض زملائي في أندوفر كانوا من

تكساس، بمن فيهم زميل من فورت وورث اسمه كلاي جونسون. فهمَ كلّ منّا الآخر، وصرنا صديقيْن مقرّبيْن. وسرعان ما وسّعتُ دائرة الأصدقاء حولي. كشخصٍ يهمّه التعرّف إلى الناس، ناسبتني أندوفر كثيراً.

اكتشفتُ أنّ لديّ حسَّ التنظيم. في السنة الأخيرة لي في أندوفر عيّنتُ نفْسي مفوّضاً دوريّاً للستيكبول، وهو نوع من البيسبول. دعوتُ نفسي تويدز بوش تيمّناً بالزعيم النيويوركيّ السياسيّ الشهير. وعيّنتُ مجلساً من المساعدين، بمن فيهم حاكم رئيسيّ وطبيب نفسانيّ للدوريّ. وضعنا قواعد ونظاماً للتصفيات. ولم نترك أيّ خلل، فأنا أحبّ الدقّة.

جئنا، أيضاً، بمخطّط لطباعة بطاقات الدوريّ التي يمكن أن تُستعمل بسهولةٍ كهويّاتٍ مزوّرة .كشفت سلطات المدرسة خطّتنا، وأصدرت لي تعليمات بالتوقّف عمّا كنت أفعله. في آخر عملٍ لي، كمفوّض، عيّنتُ ابن عمّي كيفن رافرتي خلفاً لي.

في السنة الرابعة لي في أندوفر، كان لي مدرّس تاريخ اسمه توم ليونز.كان يحبُّ جذبَ انتباهنا بضرب اللوح بعكّازه. وكان الأستاذ ليونز قد لعب كرة القدم في جامعة براون قبل أن يُصاب بمرض البوليو، وكنت أعتبره مثالاً يُحتذى. محاضراته تحيي الشخصيّات التاريخيّة ولاسيّما الرئيس فرانكلين روزفلت. أحبَّ السيّد ليونز سياسة روزفلت، وأظنّ أنّه وجد الإلهام في طريقة روزفلت بالانتصار على مرضه.

دفعني السيّد ليونز بقوّةٍ للتقدّم. وكان يتحدّى ويربّي. يناكد ويشيد. كان متطلّبا، وبفضله اكتشفتُ حبّاً لمادّة التاريخ استمرّ سحابة حياتي.

بعد مرور عقود دعوتُ السيّد ليونز إلى المكتب البيضاويّ. كانت لحظةً خاصّة عندي: الطالب الذي صنع التاريخ يقف بجوار الرجُل الّذي كان يدرّسه التاريخ منذ سنواتٍ طويلةٍ خلت.

* * *

مع انقضاء فترة دراستي في أندوفر، جاء وقت تقديم طلبات الدخول إلى

الجامعة. كانت ييل خياري الأوّل، إذ أنّني وُلدتُ هناك. ما استغرق وقتاً طويلاً كان تعبئة الجزء من البطاقة الزرقاء الذي يطلب منك تدوين قائمة الأقرباء الذين تخرّجوا من ييل. في حالتي، كانت القائمة تضمّ جَدّي ووالدي وجميع إخوتي، وأبناء أعمامي، فاضطررت لكتابة أسماء الأقارب الأبعد على ظهر البطاقة. على الرغم من علاقات عائلتي، شكّكتُ بامكانيّة قبولي. وكانت الدرجات ونتائج الاختبارات الّتي حصلتُ عليها مقبولة، ولكنها كانت متأخّرة بالنسبة للباقين في صفّي. كان عميد أندوفر جرينفيل بنيديكت واقعيّاً، فنصحني بالحصول على نوعٍ من التأمين في حال لم أنجح في الدخول إلى ييل. تقدّمت بطلبٍ إلى جامعة أخرى جيّدة، وهي جامعة تكساس في أوستن، وزرتُ الحرَم الجامعيّ مع أبي. بدأت أتصوّر نفسي هناك في إطار برنامج يسمّى الخطّة الثانية.

في أحد الأيّام ذُهلت حين وجدت في علبة البريد مغلّفاً سميكاً يحوي رسالة القبول في ييل. وكان السيّد ليونز كتب توصيةً من أجلي، فأدركت أنّه كتب رسالةً طويلةً ومهمّة. فتح جونسون رسالة القبول خاصّته في الوقت نفسه. عندما اتّفقنا على تشارك السكن، اتُّخذ قرار الدخول إلى ييل.

* * *

كانت مغادرة أندوفر أشبه بتخليص نفسي من قيود السجن. تكوّنت فلسفتي في الجامعة من كليشيهات قديمة: العمل بجدّ، واللعب بجدّ. ثابرتُ على الأمر الأوّل وبرعت في الثاني. انضممت إلى أخويّة دلتا كابا أبسيلون، ولعبت رياضة الركبي وأنواع الرياضة الّتي تُمارَس داخل الجدران، وشاركتُ في رحلاتٍ جماعيّةٍ إلى الجامعات التي ترتادها الفتيات، وقضيت الكثير من الوقت مع الأصدقاء.

وكان طبعي الصاخب مبالغاً فيه، في بعض الأحيان. في السنة الجامعيّة الأخيرة، كنّا في جامعة برينستون للعبة الفوتبول الأميركيّة. على أثر فوز جامعة ييل، وبعد أن شربنا الكحول، قدتُ مجموعةً من اللاعبين، ودمّرنا أعمدة المرمى. لم يجد مشجّعو

برينستون هذا الأمر مُسلّياً. وكنت جالساً فوق العارضة، عندما سحبني حارس أمن إلى الأسفل، ثمّ سار بي في الملعب، ووضعني في سيّارة تابعة للشرطة. بدأ أصدقائي في جامعة ييل يهزّون السيّارة ويصيحون «حرّروا بوش!»

استشعر صديقي روي أوستن الكارثة، وهو رجُل ضخمُ الجثّة، من جزيرة سانت فنسنت، وكان كابتن فريق كرة القدم في ييل. صرخ في الحشد بأن يبتعدوا ثمّ قفز في السيّارة معي. عندما وصلنا إلى مخفر الشرطة، طُلب إلينا مغادرة الحرَم الجامعيّ وعدم العودة أبداً. لم أعد إلى برينستون بعد كلّ هذه السنوات. أمّا روي فقد تابع شحذ مهاراته الدبلوماسيّة، وبعد أربعة عقود عيّنتُه سفيراً للولايات المتّحدة في ترينيداد وتوباغو.

لم يكن لديَّ أيُّ مصلحة في أداء دور سياسيّ داخل حرم جامعة ييل، ولكنّني، أحياناً، تعرّضت لسياسة الجامعة. في خريف السنة الأولى، ترشّح أبي إلى مجلس الشيوخ ضدّ الديمقراطي رالف ياربورو. حصل والدي على عدد أصوات يفوق ما حصل عليه أيّ مرشّح جمهوريّ في تاريخ ولاية تكساس. ولكن صعب عليه مواجهة الفوز الساحق الّذي حقّقه الرئيس جونسون على الساحة الوطنيّة. بعد وقتٍ قصيرٍ من الانتخابات تعرّفت إلى القسيس ويليام سلوان كوفين الذي كان يعرف والدي في جامعة ييل، معتقداً أنّه سوف يحاول مواساتي، وبدلاً من ذلك قال لي: إنَّ والدي كان قد «هُزم على يد رجُلٍ أفضل».

كانت كلماته بمثابة ضربةٍ قاسيةٍ على فتًى في الثامنة عشرة من عمره. حين ذكرتُ القصّة في الصحف، بعد أكثر من ثلاثين سنة، أرسل لي كوفين رسالةً تقول: إنّه يأسف على هذه الملاحظة إذا كان قد أدلى بها فعلاً. قبلت اعتذاره. ولكنّ موقفه أعطاني مجرّد لمحةٍ عن النقد اللاذع الذي تلقّيتُه من كثيرٍ من أساتذة الجامعات خلال فترة الرئاسة. شعرت في ييل بالحرّيّة لاكتشاف اهتماماتي ومتابعتها. اخترتُ مجموعةً واسعةً من الموادّ التي تضمّنت عِلْم الفلك والتنظيم المدنيّ، وعِلْم الآثار، في عصور ما قبل التاريخ، وروائع الأدب الإسبانيّ، وإحدى الموادّ المفضّلة لديّ

وهي الهايكو اليابانيّة. تابعتُ مادّةً في العلوم السياسيّة تختصّ بالإعلام وتركّز على مضمون وسائل الإعلام وتأثيرها. حصلتُ على علامة سبعين، الأمر الذي قد يفسّر علاقاتي الهشّة مع وسائل الإعلام على مرّ السنين.

كان شغفي بالتاريخ الذي صار مجال اختصاصي. استمتعتُ بحضور المحاضرات التي كان يلقيها أساتذة، مثل جون مورتون بلوم، وجاديس سميث، وهنري تيرنر. تركّز أحد أول دروس التاريخ التي تابعتها، على الثورة الفرنسيّة. أحبَّ البروفيسور ستانلي ميلون أن يقول: «عملي هو الماضي». وقدّم وصفاً شيّقاً عن القسم التاريخيّ في ملعب كرة المضرب، في أوائل الثورة، وعن إرهاب روبسبيير وصعود نابليون إلى موقع القوّة. ذهلت كيف أنّ الأفكار، التي ألهمت الثورة، تمّ التخلّي عنها عندما تركّزتْ كلُّ السلطة في أيدي قلّةٍ قليلة.

إحدى الموادّ الأكثر تميّزاً، بالنسبة لي، كانت تاريخ الاتّحاد السوفياتي، وقام بتدريسها محاضر يدعى ليونارد فولفغانغ من ألمانيا الشرقيّة. كان الأستاذ ليونارد قد هرب من ألمانيا النازيّة في طفولته وترعرع في الاتّحاد السوفييتي حيث قُبِض على أمّه أثناء عمليّات التطهير الستالينيّة. تمّ إعداده ليكون مأموراً شيوعيّاً، لكنَّه فرَّ إلى الغرب. وصف بلهجته الألمانيّة الغليظة المحاكمات الصوريّة، والاعتقالات الجماعيّة، والحرمان على نطاقٍ واسع. بعد أن استمعتُ إليه، لم أعد أفكّر بالاتّحاد السوفياتي أو الحركة الشيوعيّة بالطريقة نفسها. شكّل الصفّ مقدّمةً لي لفهم الصراع بين الاستبداد والحرّيّة، وهي معركة حبست انتباهي بقيّة حياتي. في السنة الأخيرة، درستُ مادَةً عن تاريخ الخطابة الأميركيّة وممارساتها، ألقاها الأستاذ رولين.ج. أوسترويز. قرأنا الخطب الأميركيّة الشهيرة، ومنها المواعظ الناريّة الّتي ألقاها واعظ المرحلة الاستعماريّة جوناثان إدواردز، وخطاب الرئيس روزفلت، بعدَ بيرل هاربور، وعنوانه «يوم العار»، وأدهشتني قوّة الكلمات في التأثير بمجرى التاريخ. كتبتُ عن خطاب صحافي ولاية جورجيا هنري و. جرادي عن الجنوب الأميركي الجديد، وحدّدتُ أربع نقاط دعماً لترشيح نجم ريد سوكس «كارل ياسترزمسكي» لمنصب

عمدة بوسطن. علمّنا الأستاذ أوستروِيز كيفيّة بناء الخطبة: مقدّمة، وثلاث نقاط رئيسيّة، وملخّص منمّق، واستنتاج. لقد تذكّرت نموذجه مَدَّ حياتي، الّتي شملت كمّاً لا بأس به من الخطب، كما تبيّن لاحقاً.

لا أبغي الادّعاء أنّني كنتُ طالباً جديراً بالذكْر بصفة خاصّة. بل اعتقد أن من الإنصاف القول أنّني استفدت من تجربتي أكثر ممّا فعل أساتذتي. سُئل مرّةً جون مورتون بلوم إذا كان يتذكّر طالبه الشهير جورج دبليو بوش. فأجاب: «أنا لا أتذكّره أبداً»، ولكنّني أتذكّر الأستاذ بلوم.

* * *

حلّت سنة التخرّج في فترةٍ صاخبةٍ وطنيّاً. اغتيل مارتن لوثر كينغ جونيور، في نيسان/أبريل من تلك السنة. أعقب ذلك أعمالُ شغب على أساسٍ عنصريّ في شيكاغو وواشنطن دي. سي. وقبل أيّامٍ قليلةٍ من بدء تخرّجنا، كنتُ مع أصدقاء في طريق العودة من رحلةٍ إلى شمال ولايةٍ نيويورك، عندما سمعنا في الراديو أنّ بوبي كينيدي قُتِل. لم يتفوّه أحد في السيّارة بكلمة. وشعرنا بأنّ كلّ شيء حولنا يتفكّك.

خلال معظم وقتنا، في جامعة ييل، سيطر موضوع الحقوق المدنيّة على المناقشات داخل الحرم الجامعيّ. في السنة الأخيرة أثقلت مسألةٌ أُخرى عقولَنا. فحرب فيتنام كانت تشتدّ، والرئيس جونسون وضع مشروع انخراطٍ في الجيش. كان لدينا خياران: إمّا الانضمام إلى الجيش وإمّا إيجاد وسيلةٍ للهرب من مشروع القرار. كان قراري سهلاً: الذهاب إلى الحرب. ربّاني أبٌ ضحّى لأجل بلاده، وكان من المعيب تجنّب المهمّة.

كان موقفي تجاه الحرب مشكّكاً، ولكنه كان موافقاً. كنتُ مرتاباً من الاستراتيجيّة والأشخاص في إدارة جونسون الذين كانوا ينفّذونها. ولكنّني قبلتُ الهدف المعلَن للحرب: وقف انتشار الشيوعيّة. في أحد الأيّام، في خريف سنتي الأخيرة في الجامعة،

مررت بالقرب من مركزٍ للتجنيد، عليه مُلصق لطيّار. فكّرت أنّ التحليق بالطائرات سوف يكون وسيلةً مثيرةً للخدمة. تحدّثت مع المسؤول وأخذت طلباً.

عندما عدت إلى المنزل استعداداً لعيد الميلاد، عبّرت لوالديّ عن اهتمامي بسلاح الجوّ. نصحني أبي بالتحدّث مع رجُلٍ يدعى سيد أدجر، وهو طيّار سابق، حافظ على علاقات جيّدة مع مجتمع الطيران. واقترح عليّ الانضمام إلى الحرس الوطنيّ الجوّيّ في تكساس، حيث كانت الوظائف متوفّرة. خلافاً لأفراد الحرس العاديّين، كان يُطلب من الطيّارين إكمال سنةٍ من التدريب، وستّة أشهرٍ من التخصّص. ثمّ المواظبة على الطيران للمحافظة على مركزهم.

كنت مهتمّاً بالعمل كطيّارٍ في الحرس، ما أتاح لي أن أتعلّم مهارةً جديدة. وإذا تمّ استدعائي فسوف أقوم بالطيران في ميدان القتال. وإذا لم يحصل ذلك، فباستطاعتي القيام بأشياء أخرى. في تلك المرحلة من حياتي، لم أكن أبحث عن مهنة. اعتبرتُ العقد الأوّل، بعد انتهائي من الدراسة الجامعيّة، وقتاً للاستكشاف. لم أكن أريد أن أستقرّ. إذا لفت شيء انتباهي، جرّبته. وإن حصل العكس، أكملت طريقي.

هكذا كان النهج الذي اتّخذته بالنسبة لوظائف عطلة الصيف. في سنة ١٩٦٣، عملتُ في مزرعة ماشيةٍ في ولاية أريزونا. وكان رئيس العمّال رجُلٌ أشهب يُدعى ثرمان. كان لديه قولٌ في الناس المتعلّمين الذين كان يعرفهم: «ذكيّ في مجال الكتب، غبيّ على الرصيف». كنتُ مصمّماً على عدم السماح لهذه العبارة بأن تنطبق عليّ. قضيت فصول الصيف الأخرى في العمل على منصّة نفط قبالة الساحل في ولاية لويزيانا، وفي المكتب التجاريّ لشركةٍ ماليّةٍ في مجال البورصة، وكبائع للسلع الرياضيّة في متجر سيرز في روبوك. التقيتُ بعض الشخصيّات الساحرة في تلك المرحلة. كانوا رعاة بقرٍ متحدّرين من كندا الفرنسيّة، وعمّال منصّات النفط، وأشخاصاً عنيفين. شعرت، دائماً، أنّني حصلت على نوعين من التعليم في تلك السنوات: واحد من المدارس المهمّة، وآخر من الأشخاص الصّلاب.

في خريف سنة ١٩٦٨، التحقتُ بالقوّة الجويّة في قاعدة مودي في جورجيا للتدرّب كطيّار. بدأنا نحو مئة متدرّب وتخرّج حوالى خمسين. حصلتْ إخفاقات وانسحابات في وقتٍ مبكّرٍ وبشكلٍ متكرّر. أتذكّر شخصاً من نيويورك عاد من رحلته الأُولى في طائرة سيسنا، ولونه أخضر، مثل بذلة الطيران، ما عدا الجزء الذي أوقع عليه غداءه.

كانت تجربتي الأولى في الهواء أفضل قليلاً. فمدرّبي يستشعر القلق، ولا يؤمن بتقديم المشورة الهادئة. في أحد الأيّام أمسك، فجأة، بالدفّة، وسحَبَ، بكلّ ما أُوتي من قوّةٍ، حتّى توقّفت الطائرة. ارتفع مُقَدّم الطائرة إلى الأعلى، وارتجفت الطائرة. ثمّ هزّ العصا إلى الأمام، فنزل مقدِّم الطائرة إلى الأسفل، واستقرّت الطائرة. هكذا أوضح لي المدرّب كيفيّة القيام بمناورة إعادة إنعاش الطائرة بعد انهيارها. ونظر إليّ قائلاً : «أيّها الشابّ، إذا كنتَ تريد أن تصيرَ طيّاراً، فعليك السيطرة على هذا الجهاز وعدم السماح له بالسيطرة عليك».

أخذتُ نصيحته على محمل الجدّ، وأتقنت أساسيّات الطيران، بما في ذلك الحلقات، واللفّات، والأدوات. عندما تقدّم والدي لوضع النجوم على كتفي عند تخرّجي، شعرت شعوراً هائلاً بقوّة إنجازي. بعد انتهائي من مدرسة الطيران انتقلت إلى هيوستن حيث تعلّمت التحليق بطائرة حربيّة تُعرف بـ«أف ـ ١٠٢» في قاعدة سلاح الجو في إلينغتون. والأف ـ ١٠٢ فيها مقعد واحد، ومحرّك واحد لاعتراض الهواء. حين تحرّكها حتّى نهاية المدرج وتزيد سرعتها، وتشعر بركلة المحرّك، عندها لا يعود يهمّ من أنت أو المكان الذي جئت منه، إذ من الأفضل لك الانتباه في هذه اللحظة.

أحببت الطيران، ولكن بحلول سنة ١٩٧٢، بدأت التململ. صرت أقوم بالطيران خلال المساء أو في عطلات نهاية الأسبوع، والعمل خلال أيّام الأسبوع في مجال الصناعات الزراعيّة. وشملت واجباتي إجراء دراسةٍ على الفطر في ولاية بنسلفانيا وزيارة مشاتل كانت الشركة قد اشترتها. لم يكن العمل آسراً.

في أحد الأيّام، تلقيتُ مكالمةً من صديقي جيمي أليسون، وهو سياسيّ من ميدلاند، أدار حملة والده بنجاح للوصول إلى مجلس النوّاب الأميركيّ في سنة ١٩٦٦. أخبرني عن فرصةٍ للعمل في حملة رد بلاونت لدخول مجلس الشيوخ الأميركيّ في ولاية ألاباما. بدا ذلك مثيراً للاهتمام ، وكنت على استعداد للانطلاق وتغيير سكني.

وافق القائد الآمر لفصيلتي اللفتنانت كولونيل جيري كيليان على نقلي إلى ولاية ألاباما على أساس أنّني سوف أعمل الساعات المطلوبة هناك. أبلغتُ قادة الحرس في ألاباما بأنني مضطرّ للتغيّب عن اجتماعات عدّة خلال الحملة الانتخابيّة، فأجابوني بأنّه يمكنني التعويض بعد الانتخابات، وهذا ما قمتُ به. لم أفكّر كثيراً بهذا الموضوع لمدّة عقود.

للأسف، كان حفظ السجلاّت غير دقيق، والوثائق التي تثبت حضوري لم تكن واضحة. عندما دخلت السياسة استخدم معارضون لي الثغرات الموجودة في النظام للادّعاء بأنّني لم أقُمْ بواجبي. في أواخر التسعينيات، طلبت من مساعدي الموثوق، دان بارتليت، أن يبحث جيّداً في سجلاّتي التي أظهرت أنّني قد أتممت مسؤوليّاتي. في سنة ٢٠٠٤، اكتشف دان بعض سجلاّت الأسنان التي تثبت أنّه تمّ فحصي في قاعدة دانلي للحرس الوطنيّ في مونتغومري بولاية ألاباما، و ذلك خلال الوقت الّذي زعم نقّادي أنّني كنت غائباً فيه. فقدّم ملاحظةً إلى الصحافة متهكّما: إذا كانت أسناني في القاعدة فيمكن التأكيد أنّ بقيّة جسدي كانت هناك أيضاً.

اعتقدت عندها أنّ المسألة أصبحت وراءنا. ولكن حين هبطتُ بطوّافة الرئاسة في الحديقة الجنوبيّة للبيت الأبيض، في وقتٍ متأخّر، ذات يوم، في سبتمبر ٢٠٠٤، لمحت ظلّ دان في غرفة الاستقبال الدبلوماسيّة. كقاعدةٍ عامّة، عندما ينتظر مستشارٌ مروحيّةَ الرئيس، فغالباً لا يكون يحمل أخباراً جيّدة. سلّمني قطعةً من الورق، وكانت مذكّرةً مطبوعةً على قرطاسيّة الحرس الوطنيّ وتزعم أنّ عملي سنة ١٩٧٢ لم يكن بالمستوى المطلوب، وتمّ التوقيع عليها من قِبل قائد فصيلتي، جيري كيليان. أخبرني

دان أنّ مذيع محطّة سي بي أس «دان راذر» سيشعل قنبلةً في تقريرٍ على أساس وثيقةٍ يقدّمها خلال برنامج «ستّون دقيقة».

سألني بارتليت إذا كنت أتذكّر المذكّرة، فقلت له إنني لا أتذكّرها، وطلبت منه التحقّق منها. في الصباح التالي، دخل دان المكتب البيضاويّ، وعلى وجهه علامات الارتياح. قال لي: إنّ هناك مؤشّرات على تزوير المذكّرة. كان الخطّ يعود إلى آلة كمبيوتر حديثة لم تكن موجودة في أوائل السبعينيات. في غضون بضعة أيّام، كان الدليل قاطعاً: المذكّرة كانت مزوّرة.

شعرتُ بالدهشة والاشمئزاز. لقد بثّ دان راذر تقريراً مؤثّراً في الانتخابات الرئاسيّة استناداً إلى وثيقة مزوّرة. بعد فترة قصيرة صار هو ومنتج البرنامج عاطلَيْن عن العمل. بعد سنوات من الادّعاءات الكاذبة، بدأت الأسئلة عن موضوع الحرس بالانحسار. سوف أفتخر دائماً بالوقت الذي قضيته في الحرس. تعلّمت الكثير، واتّخذت أصدقاء مدى الحياة، وافتخرت بارتداء الزيّ الوطنيّ الرسميّ. لديّ احترام وإعجاب كبير بالأشخاص الذين تمّ نشرهم في فيتنام. ما يقرب من ستّين ألفاً منهم لم يعودوا إلى منازلهم. إن خدمتي كانت بسيطةً جدّاً بالمقارنة بخدمتهم في الجيش.

* * *

في سنة ١٩٧٠، قرّر والدي الترشّح لمجلس الشيوخ مرّةً أخرى. شعرنا أنّ لديه فرصة ليهزم رالف ياربورو. لكنّ السيناتور ياربورو كان قد فقد الكثير من شعبيّته، حتّى أنّه خسر المرحلة الأوّليّة أمام الديمقراطيّ المحافظ لويد بنتسن. كانت مشاركة أبي جيّدة، ولكن، مرّةً أخرى، لم تكن كافيةً للفوز. وكان الدرس أنّه لا يزال صعباً جدّاً انتخاب مرشّح جمهوريّ في ولاية تكساس.

بعد فترةٍ قصيرةٍ كان هناك درس آخر. على الرغم من أنّها مؤلمة، فالهزيمة ليست دائماً النهاية. بعد وقتٍ قليلٍ من انتخابات ١٩٧٠ عيّن الرئيس ريتشارد نيكسون أبي سفيراً لدى الأمم المتّحدة. ثمّ في سنة ١٩٧٣، دعا الرئيس نيكسون أبي لرئاسة

اللجنة الوطنيّة الجمهوريّة. شكّل هذا درساً قيّماً في إدارة الأزمات حين قاد أبي الحزب خلال فضيحة ووترغيت.

كان والدي في البيت الأبيض يوم استقال الرئيس نيكسون وأدّى الجنرال جيرالد فورد اليمين الدستورية. وبسرعة أعطى الرئيس فورد أبي حرّيّة الاختيار بين منصب السفير في لندن أو باريس، وهما تقليديّاً المنصبان الأبرز في مجال الدبلوماسيّة. قال له أبي إنّه يفضّل الذهاب إلى الصين، وهناك قضى مع أمّي أربعة عشر شهراً رائعاً في بكين. وعادا إلى الوطن، عندما طلب الرئيس فورد من أبي أن يرأس وكالة الاستخبارات المركزيّة، وهو أمر لا بأس به لرجل هُزِم مرّتين كمرشّح مجلس الشيوخ. وبالطبع فالقصّة لا تنتهي هنا. أُعجبتُ بإنجازات والدي. منذ سنوات مراهقتي، تابعت مساره عن كثب، في أندوفر وييل، ثمّ في الخدمة العسكريّة في سلاح الطيران. ومع الوقت أدركتُ شيئاً مهمّاً: لا أحد كان يتوقّع منّي أن أكرّر إنجازات أبي، كما أنّني لم أكن بحاجةٍ للمحاولة. كنّا في أوضاع مختلفةٍ تماماً. قبل سنّ الثلاثين، كان قد شارك في الحرب وتزوّج وأنجب ثلاثة أولاد، وخسر بنتاً بسبب مرض السرطان. عندما غادرت الحرس في أواخر العشرينات من عمري، لم يكن لديّ أيّ مسؤوليّات مهمّة. كنت عفويّاً، وفضوليّاً، وأبحث عن مغامرة. وكان هدفي أن أنشئ هويّتي الخاصّة وأجد طريقي الشخصيّ.

من جانبهما، اعترف والداي بشخصيّتي القويّة ولم يحاولا إثباطها. ولكنّهما نبّهاني عندما تخطّيت الحدود المعقولة. حصلت واحدة من أصعب المحادثات التي أجريتها مع والدي في أيّ وقتٍ مضى، عندما كان عمري عشرين سنة. عدت إلى المنزل من الجامعة لتمضية فصل الصيف و العمل على منصةٍ نفطيةٍ للتنقيب الدائري بالقرب من ليك تشارلز، بولاية لويزيانا. كنت أعمل أسبوعاً واحداً، وأتوقّف عن العمل أسبوعاً آخر. بعد الكثير من العمل في الحَرّ، قرّرت التغيّب عن العمل في الأسبوع الأخير لقضاء بعض الوقت مع صديقتي في هيوستن.

دعاني أبي إلى مكتبه. قلت له، بلا مبالاة، إنّني قرّرت إنهاء مهمّتي في وقتٍ

مبكر. قال لي: إنّ الشركة وظّفتني على مبدأ حسن النيّة، وأنا وافقت على العمل حتّى تاريخٍ معيّن، وبذلك كنت قد انتهكت العقد الذي بيننا .جلست هناك وشعوري يتحوّل من سيّئ إلى أسوأ. عندما أنهى كلامه بعبارة «يا بُني، أنا أشعر بخيبة أمل»، شعرت بالخجل.

بعد ساعاتٍ قليلة، رنّ جرس الهاتف في المنزل، وكان المتّصل أبي. قلقت من أن أكون على وشك الحصول على محاضرةٍ أخرى. وبدلاً من ذلك، سألني: «ماذا تفعل الليلة، يا جورج؟» أخبرني أنّ لديه تذاكر لمباراة هيوستن أستروس، ودعاني مع صديقتي لحضورها، فقبلت على الفور. هذه التجربة أكّدت لي أهمّيّة الالتزام بوعودي كما أنّها بيّنت لي عمق محبّة والدي.

كان أبي جادّاً عند الحاجة، ولكنّ أسرتنا كانت معروفةً بالهزل. أحبّ أبي قول النكات لنا عندما كنّا أطفالاً: «هل سمعت تلك النكتة عن الطائرة؟ لا تهتمّ، إنّها فوق رأسك». وجاء بألقابٍ للعائلة والأصدقاء. مرّة دعاني «جوني» وهو تصغير لجونيور. أمّا أخي نيل فكان معروفاً بـ«وايتي» وتحوّل بعد ذلك إلى ويتني، بسبب شعره الأشقر، وصار صديقه العزيز جيمس بايكر «بايك». ولتتويج إنجازاته، أطلق على والدتي اسم «الثعلب الفضّيّ».

حافظ والدي على حسّ الدعابة طَوال حياته. عندما كان رئيساً، أنشأ الجائزة المسمّاة سكوكروفت، تيمّناً بمستشار الأمن الوطنّي برنت سكوكروفت، للموظّفين الذين يغفون خلال الاجتماعات. أمّا الآن، وهو في الثمانينات من العمر، فيرسل النكات عبر البريد الإلكترونيّ، ويقوم بتقويمها على مقياسٍ من واحد على عشرة. منذ سنوات قليلة، كان أبي يتعافى من جراحة في الفخذ في مايو كلينيك. عندما جاءت الممرّضة للاطمئنان عليه، سألها: «هل خصيتاي سوداوا اللون؟» صدمت الممرّضة، وقالت: «عفواً، سيّدي الرئيس؟» فكرّر سؤاله: «هل خصيتاي سوداوا اللون؟» حين نظرت في ملفّاتها، قال لها ساخراً: «هل صارت نتائج فحوصاتي جاهزة؟» فانفجر الفريق الطبّيّ ضحكاً.

على مَرّ السنين، كان هناك الكثير من التكهّنات حول علاقتي بأبي. أعتقد أنَّ هذا طبيعيّ في ما يخصّ أب وابنه، شغل كلّ منهما منصب الرئاسة، للمرّة الأولى منذ ١٧٢ سنة. أمّا الحقيقة البسيطة فهي أنّني أعشقه. طوال حياتي أُعجبت به واحترمته، وكنت ممتنّاً لمحبّته. هناك قصّة سيّئة، عن ليلةٍ عدت فيها متأخّراً إلى البيت، فاصطدمتُ بصندوق القمامة الخاص بالجيران، ومن ثمّ تحذلقت على أبي. عندما يتصوّر بعض الناس هذا المشهد، يتخيّلون رئيسيْن يخوضان مواجهةً نفسيّةً ذات أبعادٍ ملحميّة. في الواقع، كنت صبيّاً ثملاً، وهو كان والداً غاضباً لأسباب واضحة. لم نفكّر كثيراً في هذا الموضوع، حتّى ورد حديث عنه في الصحف بعد عشرين سنة.

مثل تلك اللحظات تذكّرني بأنّني لست مجرّد ابن والدي. فطبعي المشاكس والمندفع يشبه طبع باربرا بوش. أحياناً بالغت لإثبات استقلاليّتي. لكنّني ما توقّفت، أبداً، عن محبّة عائلتي. وأعتقد أنّهم فهموا ذلك، حتّى عندما أتعبت أعصابهم.

أخيراً، بدأت أرى الأمور من وجهة نظر والديّ عندما صار لديّ أطفال. فابنتي جينا يمكنها أن تكون وقحةً وحادّة الطباع، تماماً مثلي. عندما كنت أخوض انتخابات الحاكمة في سنة ١٩٩٤، أطلقتُ النار، بطريق الخطأ، على (كيلدير) وهو نوع من الطيور المحميّة المغرّدة، وذلك في اليوم الأوّل من موسم صيد الحمام .احتلّ الخبر عن خطأي العناوين الرئيسيّة، ولكنه سرعان ما تلاشى. قبل بضعة أسابيع من الانتخابات، ذهبت مع لورا والبنتين إلى معرض ولاية تكساس في دالاس، من أجل الحملة الانتخابيّة .فازت جينا، ولها من العمر اثنتا عَشْرَة سنة، بلعبةٍ على شكل طائر، كجائزةٍ في الكرنفال. وبوجود كاميرات التلفزيون، أبرزت جينا الحيوان، وقالت ضاحكةً، «انظر يا أبي»، وأضافت: «إنّه كيلدير».

* * *

في خريف سنة ١٩٧٢، ذهبتُ لزيارة جدّتي، في ولاية فلوريدا. وكان صديقي، من أيّام الجامعة مايك بروكس، في المنطقة، فلعبنا الغولف. وكان مايك قد تخرّج

من كلّيّة هارفارد للأعمال. قال لي إنه عليَّ أن أفكّر في الذهاب إلى هناك. وللتأكّد من أنّني فهمت قصده، أرسل لي، في البريد، طلب دخول. أثار الأمر فضولي إلى حدّ أنّني عبّأت الطلب. وبعد بضعة أشهر، تمّ قبولي.

لم أكن متأكّداً من أنّي كنت أريد العودة إلى المدرسة أو إلى الساحل الشرقيّ. أخبرت أخي جب عن تساؤلاتي. لم أكن قريباً جدّاً من جب، وهو يكبر، إذ كان في الثامنة فقط عندما انتقلتُ إلى المدرسة الداخليّة. لكنّنا تقاربنا لاحقاً.

كان جب دائماً أكثر جدّيّةً ممّا كنت عليه. كان ذكيّاً، يركّز ويندفع في كلّ الأمور. تعلّم الإسبانيّة، وتخصّص في الشؤون الماليّة لأميركا الجنوبيّة، وتخرج «فاي بيتا كابا» من جامعة تكساس. خلال السنة الأخيرة من المدرسة الثانويّة، عاش في المكسيك، ضمن برنامج لتبادل الطلاّب. التقى، هناك امرأةً جميلةً تدعى كولومبا غارنيكا. كانا في أوّل سنّ الشباب، ومع ذلك كان واضحاً أنّ جب وقع في الحُبّ. حين كنّا نذهب إلى الأسترودوم معاً، كنت أراقب المباراة بينما كان جب يكتب رسائل إلى كولو. تزوّجا بعد أسبوعين من عيد ميلاده الحادي والعشرين.

في إحدى الليالي، كنّا، أنا وجب، نتناول وجبة العشاء، مع والدي، في مطعم في هيوستن. كنت، وقتها، أعمل في برنامج التوجيه في القسم الفقير من هيوستن، والمعروف بالجناح الثالث، وأخذتُ أناقش أبي في موضوع المستقبل، فبادر جب قائلاً، «قُبِلَ جورج في جامعة هارفارد».

قال أبي، بعد أن فكّر قليلاً: «يا بُني، يجب عليك أن تنظر بجدّيّة، بإمكانيّة الالتحاق بهذه الجامعة. قد تكون وسيلةً جيّدةً لتوسيع آفاقك». وكان توسيع آفاقي هو ما كنت أحاول القيام به بالضبط، خلال تلك السنوات. كانت طريقة أخرى للقول: «ادفع نفْسك لتحقيق المواهب التي وهبك الله إياها».

للمرّة الثانية، في حياتي، انتقلتُ من هيوستن إلى ماساشوستس. توقّف سائق

الأجرة أمام الحرم الجامعيّ، في جامعة هارفارد، ورحّب بي، قائلا: «أهلاً بك في ويست بوينت الرأسماليّة». كنت قد ذهبت إلى أندوفر لتحقيق التوقّعات وإلى ييل للمحافظة على التقاليد، لكنّي دخلت جامعة هارفارد عن طريق الاختيار. تعلّمت هناك الآليّات الماليّة والمحاسبة والاقتصاد. وتوصّلت إلى فهم أفضل للإدارة، ولاسيّما أهمّيّة إعداد أهدافٍ واضحةٍ لأيّ منظمّة، وتفويض المهام، ومحاسبة الأفراد. اكتسبت أيضاً ثقةً بالنفْس حثّتني على مواصلة حُبّي لمجال الأعمال.

ما عزّز الدروس الّتي تلقّيتها في كلّيّة هارفارد للأعمال أمرٌ يبدو مُستبعَداً تماماً: رحلة لزيارة والديّ في الصين بعد تخرّجي.

وكان الفرق واضحاً. كنت قد ذهبت من ويست بوينت الرأسماليّة إلى المعقل الشرقيّ للشيوعيّة، من جمهوريّة الاختيار الفرديّ إلى بلد يرتدي فيه الناس الملابس الرماديّة نفسها. بينما كنت أركب درّاجتي، في شوارع بكين، كنت أرى، أحياناً، سيّارة ليموزين سوداء، زجاجها معتّم، ويملكها أحد كبار الشخصيّات في الحزب. وكانت هناك سيّارات قليلة من دون علامات وجود سوق حرّة. لقد دهشت حين رأيت كيف يمكن لبلد غنيّ بمثل هذا التاريخ، أن يكون قاتماً جدّاً.

في سنة ١٩٧٥، كانت الصين قد خرجت لتوّها من مرحلة الثورة الثقافيّة، حين حاولت الحكومة تنقية المجتمع وتنشيطه. وضع القيّمون على النظام الشيوعيّ برامج تثقيفيّة لترسيخ العقيدة، وقاموا بالدعاية، عبر البثّ، في كلّ مكان، من خلال مكبّرات الصوت، وسعَوا للقضاء على أيّ أدلّة على التاريخ القديم للصين. هاجم الشبابُ آباءهم، كما هاجموا النخبة الفكريّة. وانقسم المجتمعُ على نفْسَه، ووقع في حالة من الفوضى.

ذكّرتني تجربة الصين بالثورتين الفرنسيّة والروسيّة. وكان النمط نفسه: سيطر الشعب، عبر الوعد بتعزيز مُثلٍ عليا معيّنة، لكنّه أساء استخدامها حين صارت السلطة بيده، فنبذ معتقداته ومواطنيه بوحشيّة. كان الأمر كما لو أن النوع البشريّ يعاني من

مرضٍ يواصل إلحاقه بنفْسه. وهذه الفكرة عمّقت اقتناعي بأنّ الحرّيّات الاقتصاديّة والسياسيّة والدينيّة هي الطريقة الوحيدة العادلة والمنتجة لحكم المجتمع.

* * *

خلال معظم الوقت الّذي قضيته في هارفارد، لم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا كنت سأفعله بشهادة إدارة الأعمال. لكنّني كنت أعرف ما لم أكن أريد القيام به. لم يكن لديّ أيّ رغبة في الذهاب إلى وول ستريت. على الرغم من أنّني كنت أعرف أشخاصاً لائقين وباهرين كانوا يعملون في وول ستريت، بمن فيهم جَدّي بريسكوت بوش. كنت أتحفّظ في مجال الأموال، وأقول لأصدقائي إنّ وول ستريت هو مكان تُشترى فيه أو تُباع، لكن لا أحد يأبه إذا كانوا يجنون الأموال مقابل عملك.

بينما كنت أزن خياراتي، دعاني زميل لي، في جامعة هارفارد، يُدعى ديل مارتنغ، لقضاء عطلة الربيع سنة ١٩٧٥، في مزرعة عائلته، في توسون، في ولاية أريزونا. في الطريق، إلى الغرب، قرّرت أن أتوقّف في ميدلاند. كان صديقي جيمي أليسون، الّذي صار ناشر صحيفة ميدلاند ريبورتر تلغرام، قد أخبرني أنّ المكان يزدهر، وكان على حقّ. فقطاع الطاقة سار على قدمٍ وساق، بعد الحظر على النفط العربيّ سنة ١٩٧٣. وكانت الحواجز التي تتحكّم في الدخول في مجال هذه الصناعة منخفضة. أحببت فكرة إطلاق مشروع تجاريّ خاصّ بي. وقرّرت أن أتوجّه، مرّة أخرى، إلى ولاية تكساس.

وصلت إلى المدينة في خريف سنة ١٩٧٥، مع كلّ ما عندي من ممتلكات كنت قد حمّلتها في سيّارتي الأولدزموبيل صنع ١٩٧٠. كان هناك الكثير لأتعلّمه، لذلك سعيت للحصول على التوجيه. وكان أحد أوائل الناس الّذين زرتهم محامياً محلّيّاً اسمه بويد لافلين، وكان معروفاً باسم «لوبهول» أو الثغرة. نظّم لقاء مع باز ميلز، وهو رجل كبير، شَعْره مقصوص كالجنود، ولديه سنوات من الخبرة في مجال النفط.

قابلت باز وشريكه رالف واي الذي يدخّن السيجار بشراهة، وهما يلعبان الورق. لم يكن باستطاعتي التخمين بكم من الأموال كانوا يراهنون على اللعبة، لكنّها كانت أكثر ممّا كنت أحمل.

كانا يخفيان وراء سلوكهما الودّي معرفةً دقيقةً بقطاع النفط. قلت لباز ورالف إنّني أريد أن أتعلّم كيف أصير رجل أرض، وظيفته السفر إلى محاكم المقاطعة، والبحث عمّن يملك الحقوق المعدنيّة في مواقع الحفر المُحتمَلة. كانت مفاتيح النجاح في هذا العمل هي الرغبة في قراءة الكثير من الوثائق، والانتباه الحادّ للتفاصيل، وسيّارة يمكن الاعتماد عليها. لقد بدأت من خلال ملازمة الذين يعملون في هذا المجال، والذين أوضحوا لي كيفيّة قراءة سجلاّت التملّك. إلى أن قمت ببعض الرحلات بنفْسي، وتحقّقت من سجلاّت المحكمة الخاصة بالرسوم اليوميّة. في نهاية المطاف، اشتريت بعض الامتيازات القليلة، والحصص الصغيرة في الآبار التي تخصّ باز ورالف. وبالمقارنة مع شركات النفط الكبرى، كنت أجمع الفتات. لكنّني كنت أكسب العيش الكريم وأتعلّم الكثير. أبقيت التكاليف منخفضة، من خلال العيش بتقشّف. استأجرت بيتاً، في أحد الأزقّة، مساحته مئة قدم مربّعة، كان يصفه أصدقائي بـ«مكب نفايات سامّة». ربطت إحدى زوايا سريري بواسطة ربطة عنق. ولم يكن لديّ غسّالة، فكنت آخذ غسيلي إلى منزل دون وسوزي إيفانز. وكنت أنا وسوزي نعرف بعضَنا، منذ المدرسة الابتدائيّة. تزوّج دون، وأصله من هيوستن، ولديه درجتان من جامعة تكساس، وانتقل برفقة زوجته إلى ميدلاند للعمل في قطاع النفط. دون رجُلٌ واقعيّ ومتواضع، يتمتّع بحسّ فكاهةٍ رائع. كنّا نركض معاً، ونلعب الغولف، وربطتنا صداقةٌ دامت مدى الحياة.

في ربيع سنة ١٩٧٦ اقترح عليّ دون وصديق مقرّب إليه، يعمل كجرّاح للعظم في ميدلاند ويُدعى تشارلي يونغر، الانضمام إليهما، لحضور حفلةٍ موسيقيّةٍ لويلي نيلسون في أوديسا. بطبيعة الحال، كنّا بحاجة إلى القليل من الكحول للتحضير لهذا الحدث. ابتعنا زجاجات البوربون، وشربنا بضع جرعات من الشراب القويّ في الطريق. عندما

وصلنا إلى استاد مقاطعة أكتر، عرفنا أن تناول الكحول ممنوع. شربنا قليلاً، ورمينا الزجاجات، ثمّ احتللنا مقاعدنا.

رأى تشارلي أنّنا بحاجة إلى مزيدٍ من الكحول للاستمتاع بشكلٍ كامل. وأدهشنا أنّه تمكّن من إقناع مسؤول المسرح أنَّ ويلي نيلسون بحاجةٍ إلى بعض البيرة. فذهب الرجلُ للقيام بواجبه، واشترى البيرة بالمال الّذي أعطاه إيّاه تشارلي. ترك تشارلي صندوقاً لويلي، ومرّر واحداً إلينا. جلسنا منحنين في مقاعدنا، وشربنا كالرّحّالة الّذين يعانون العطش. بعد أن جرع كلّ منّا زجاجات عدّة، اقترح علينا تشارلي أن نتوجّه إلى المسرح، لنشكرَ صديقه الجديد. قرّر دون، بحكمةٍ، البقاء في مكانه. أمّا أنا فلم أفعل ذلك.

على الرغم من الضجيج الذي كانت تحدثه الفرقة، سمعتُ الناس يصرخون باسمي. كانت مجموعة من القاطنين في ميدلاند جالسةً بين القِسم الأماميّ من الحشد، وتعرّفوا علينا أنا وتشارلي. وكانوا يصرخون طلباً للبيرة، فاستجبنا لطلبهم. عندما انتهت الحفلة، أخفى تشارلي زجاجات عدّة تحت قميصه. وبينما كنّا نحن الثلاثة نسير، انزلقت الزجاجات وانفجرت على الأرض، واحدةً تلو الأخرى.كان الأمر كما لو كنّا قد أطلقنا جرس الإنذار للمسؤولين. ثمّ تحوّل مشينا إلى خطى ثابتة، باتّجاه المخارج، متظاهرين بأننا أشخاص أغبياء، في محاولةٍ للحفاظ على سمعتنا.

وفي اليوم التالي، قال لي عشرات من الناس، في ميدلاند، إنّهم شاهدوني على خشبة المسرح مع ويلي. لم يجرِ تعليقٌ على الموضوع، حتّى قال رجل مُسِنٌّ إنّني بَدَوْتُ كالأحمق هناك. وكان على حقّ.

* * *

قضيت عطلة عيد العمّال، سنة ١٩٧٦، في منزل عائلتنا، في كينيبانكبورت في ولاية ماين. ليلة السبت، كنت في حانةٍ مع شقيقتي دورو وبيت روسيل الذي كان المستشار السياسيّ لأبي، منذ فترةٍ طويلة، وصديقين للعائلة، نجم التنس الأستراليّ

جون نيوكومب وزوجته انجي. عرّفني جون بالتقليد الأستراليّ في شرب البيرة، من دون استخدام الأيدي. تضع أسنانك على حافة القدح، وتدير رأسك إلى الوراء، فتدخل البيرة إلى أسفل الحلق. أمضينا وقتاً ممتعاً، حتّى جاء وقت العودة إلى المنزل.

استغرب كالفين بريدجز، وهو شرطيّ محلّيّ، أنّ سرعة سيّارتي وصلت إلى عشرة أميال في الساعة، على الرغم من أنّ اثنتين من العجلات كانتا خارج الطريق، ممّا يبطّىء السيّارة. عندما فشلت في السير في خطّ مستقيم، أخذني إلى المحطّة. كنت مذنباً وأبلغت السلطات بذلك، وشعرت بالإحراج. ارتكبت خطأً فادحاً، وكنت محظوظاً لأنّني لم أتسبّب بأيّ ضرر للركّاب، أو للسائقين الآخرين، أو لنفسي. دفعت ١٥٠ دولاراً غرامةً، وتوقّفت عن القيادة، في ولاية ماين، طوال الفترة المحظورة. صارت القضيّة مغلقة. أو، على الأقلّ، هذا ما ظننته.

* * *

خلال فصل الخريف من تلك السنة، بدأتُ أفكّر، جدّيّاً، في الاستقرار. وشكّل حدث القيادة، تحت تأثير الكحول، جزءاً من ذلك. ولكنّني كنت قد بدأت أحسّ بهذا الشعور منذ عدّة أشهر. كنت قد سئمت الحياة غير المستقرّة، كما كنت أشعر بأنّني لم أعد صبيّاً. وفي فصل الصيف، حصل أمر مهمّ. كنت قد تعهّدت بأنّني سوف أقضي أوّل عشْر سنوات، بعد الجامعة، وأنا أكتسب خبراتٍ كثيرةً، من دون أي ارتباطات. بقيتُ على الوعد، ولكن كان قد مضى ما يقرب من العقد.

في ميدلاند، في تموز/يوليو ١٩٧٧ ، دعاني صديقي القديم جو أونيل، إلى وجبة برغر في منزله. نادراً ما كنت أرفض وجباتٍ محضّرةً في البيت. فمن المؤكّد أنّها كانت أفضل من الوجبات السريعة التي كنت آكلها عادة. وكان جو وزوجته جان قد دعيا شخصاً، أرادوا أن ألتقيَه: إنها واحدة من أفضل صديقات جان، لورا ويلش. وصلتُ متأخراً قليلاً، فوجدت جان ولورا في الفناء الخلفيّ، وكانت لورا ترتدي فستاناً صيفيّاً أزرق.

كانت رائعة الجمال. عيناها الزرقاوان مدهشتان وحركتها رشيقة. كانت ذكيّة وطبعها جليل، وضحكتها دافئة وسلسة. إذا كان هذا هو الحُبّ من النظرة الأولى، فإنّ هذا ما حصل لي.

اكتشفنا أنّنا قد تربّينا بالقرب من بعضنا، في ميدلاند، وفي الصفّ السابع ذهبنا إلى تكميليّة سان جاسينتو. كما أنّنا عشنا حتّى في المجمّع السكنيّ نفسه في هيوستن. عاشت لورا في القسم الهادىء حيث يجلس الناس بالقرب من حوض السباحة ويطالعون. أمّا أنا فعشت في القسم حيث يلعب الناس الكرة الطائرة في المياه، حتّى وقت متأخّر من الليل. ولا عجب، أنّنا لم نلتقِ قط.

اتّصلتُ بلورا في اليوم التالي، واتّفقنا على الاجتماع مرّةً أخرى، في تلك الليلة. سألتها إذا كانت تريد أن تلعب نوعاً من الغولف. عندما وافقت، عرفت أنّها الفتاة التي تعجبني. على الرغم من أنّها لم تكن لاعبةً بارعةً، كان ممتعاً أن أكون قربها. تعزّزت الانطباعات التي كوّنتُها في مساء اليوم السابق. وكان هناك مسألة واحدة فقط سيّئة، إذ توجّب على لورا العودة إلى أوستن، حيث كانت تعمل في مكتبة المدرسة الابتدائيّة في داوسون. اشتقتُ إليها على الفور، وبدأتُ زيارتها هناك بقدر ما أمكنني.

كنّا منسجمَيْن تماماً. فأنا أحبُّ التكلّم، ولورا تجيد الإصغاء. وأنا لا أهدأ، على عكسها. أحياناً أبالغ في أفكاري، بينما هي عمليّة وواقعيّة. قبل كلّ شيء، هي حقيقيّة وطبيعيّة، ولا شيء مزيّف في شخصيّتها. تجذب فوراً وبصورة متواصلة. في شهر آب/ أغسطس، ذهبتُ لزيارة عائلتي في كينيبانكبورت، وقد خطّطت للبقاء لمدّة أسبوع. بعد ليلةٍ واحدةٍ عدتُ إلى تكساس لأكون مع لورا. وبعد بضعة أسابيع على لقائنا، عرّفتني لورا على والديها، هارولد وجينا ويلش. أمّها امرأة طيّبة ولطيفة وصبورة، ورحّبت بي كثيراً. ووالدها يحبُّ الرياضة، وكان يراهن أحياناً على مباريات كرة القدم. كان مكانه المفضّل يدعى باربكيو جوني، المعروف عند السكّان المحليّين باسم الخنزير المريض، بسبب وجود الخنزير الخشبيّ الضخم، على سطح المطعم.

في أحد الأيّام، عرّفني والد لورا بأصدقائه في المطعم، بمن فيهم جوني نفسه. أعتقد أنّني كنت على المستوى المطلوب، لأنّهم قدّموا إليّ شراباً قويّاً فرفضته. كانت الساعة التاسعة صباحاً.

تقدّمت علاقتُنا بشكلٍ سريع. في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، ذهبتُ مع لورا، في رحلةٍ إلى مزرعة آن وتوبين أرمسترونج، في جنوب تكساس. كانت آن سابقاً سفيرة الولايات المتّحدة إلى بريطانيا العظمى، وكان توبين قد دعا الأمير تشارلز للعب البولو. أمضينا عطلة نهاية أسبوع أخرى بزيارة جون وأنجي نيوكومب، في أكاديميّة التنس، في نيو برانفلز، في منطقة التلال الخلاّبة في ولاية تكساس. هذه المرّة أبقيتُ يديّ على قدح البيرة، وبعيداً عن عجلة القيادة. كنت قد أُغرمت بقوّة بلورا. لم أكن أحبّ القِطَط، لكنني تأكّدت أنّ علاقتنا قويّة عندما قدرت على التقرّب من قطّها ذي الشعر الأبيض والأسود القصير، ديوي، والذي اشتقّت اسمه من النظام العشريّ.

لم أكن خائفاً من اتّخاذ قرار، وفعلت ذلك في أواخر أيلول/سبتمبر. في إحدى الليالي، في منزل لورا الصغير المستأجر في أوستن، قلت لها: «هل تتزوجينني»، فوافقت على الفور. تقدّمت علاقتنا بسرعة، لكنّنا كنّا على استعداد للارتباط. بعد الخطبة، سافرنا إلى هيوستن، حيث كان جب وكولومبا يحتفلان بعمادة ابنتهما نويل. تعرّفت لورا على أسرتي، وأُغرم الجميع بها تماماً كما فعلتُ. عرفت أنّ لورا ستنضمّ إلى أسرة كبيرة وناجحة، وكان الأمر يناسبها. كطفلٍ وحيد، تمتّعتْ بوجودها في عائلة بوش الصاخبة.

درس أهلنا جداول أعمالهم، فاخترنا السبت الأوّل المتوفّر والواقع في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧. كان حفل الزفاف صغيراً، ضمّ العائلة والأصدقاء المقرّبين في ميدلاند. وكتبتْ والدة لورا الدعوات بخطّ يدها. لم يكن هناك أيّ حاجب ولا وصيفات شرف، أو رفقاء للعريس. واقتصر الأمر عليّ وعلى لورا ووالدها الذي أوصلها حتى المذبح.

مع أنّني لم أستطع فهم الأمر في ذلك الوقت، أعتقد أن هناك سبباً يفسّر عدم التقائي بلورا في كلّ تلك السنوات السابقة. فقد أرسلها الله إليّ في الوقت المناسب، تماماً، عندما كنت على استعداد لأستقرّ، وكنت منفتحاً على مسألة وجود شريك إلى جانبي. كنت محظوظاً لأنّني أدركت الأمر، وكان هذا أفضل قرارٍ في حياتي.

* * *

بُعَيد زواجنا، قرّرنا أنا ولورا إنجاب أطفال. وبعد بضع سنوات من المحاولة، لم يتحقّق الأمر بسهولة. ناقشنا، وفكّرنا، وصلّينا، وأخيراً اتّخذنا قرار التبنّي. في بادىء الأمر، كنت قلقاً، من مسألة تربية طفلٍ يعود لشخصٍ آخر. ولكن كلّما بحثتُ في موضوع التبنّي، صار مقبولاً أكثر منّي. كان لدينا أصدقاء تبنّوا وأحبّوا أطفالهم كنعمةٍ ثمينة. وكنّا محظوظين لما تعرفنا إلى وكالةٍ رائعةٍ للتبنّي تُسمّى دار «إدنا جلادني»، في فورت وورث.

بعد أن أسّسها مبشّر ميثوديّ، في سنة ١٨٨٧، صارت دار جلادني واحدةً من مؤسّسات التبنّي الرائدة في العالَم. تعرّفنا، عن طريق مكالمة هاتفيّة، إلى من كانت تديرها، وتُدعى روبي لي بيستر. دعتنا للقيام بجولةٍ في المستشفى، حيث التقينا بعض النساء الحوامل اللاتي اقترب موعد إنجابهنّ. وقد تأثّرت بقرارهنّ الغيريّ لإنجاب الأطفال وتقديمهم لأزواج أمثالنا.

استغرقت العمليّة عدّة أشهر. كان هناك مقابلة أوّليّة وتضمّنت استبياناً مطوّلاً، ولحسن الحظّ نجحنا. في المرحلة التالية، قرّرتْ المؤسّسة إرسال ممثّل عنها لزيارة المنزل. وكنّا، أنا ولورا، نقوم بالإعداد، بدقّة، في مطلع سنة ١٩٨١، عندما فاجأتني بالقول إنّها تظنّ أنّها حامل.

بعد بضعة أسابيع، أخذنا موعداً للقاء خبيرة بصور الموجات الصوتية في هيوستن، وكانت امرأة هنديّة أميركيّة لطيفة، اسمها ماليني. كنتُ عصبيّاً، بينما كان الجهاز موجّهاً إلى جسم لورا. نظرتْ في الشاشة وقالت: «هنا الرأس، وهنا الجسم. إنّها

فتاة!» ثمّ انتقلتْ للحصول على رؤية أفضل. عندها صرختْ فجأةً، «أرى طفلتين اثنتين، وهما جميلتان! ستصيران والدين لتوأم». امتلأت عيناي بالدموع. كانت نعمة مزدوجة، نعمة فوق نعمة. وبدأتُ أعتبر صورة الموجات الصوتيّة أوّل صورة عائليّة لنا.

عندما اتّصلنا بمديرة دار جلادني، لإخبارها، أحسسنا بشعور غريبٍ بالذنب، كما لو كنّا قد خدعناها. لكنّها قالت للورا شيئاً لطيفاً جدّاً: «يا عزيزتي، هذا الأمر يحدث أحياناً. يمكن أن تساعد جلادني الزوجين ليصير عندهما طفل بطريقةٍ أو بأخرى. كانت روبي لي على حقّ أكثر ممّا كانت تتصوّر. فعلى الطلب الأصليّ، قامت لورا بوضع علامة في المربّع القائل: نفضّل توأماً.

كان الأطبّاء قد حذّرونا أنّه في حالة التوائم يمكن أن يكون الحمل عالي المخاطر. رفضت لورا تزيين الحضانة بسبب الخرافات. وبعد حوالي سبعة أشهر من الحمل، تمّ تشخيص لورا بالبريكلامبسيا، وهي حالة خطرة، قد تؤدّي إلى تلف الكلى، وتعرّض صحّة الفتاتين للخطر. بعد يوم من تلقّينا الخبر، دخلت لورا مستشفى بايلور، في دالاس، حيث كان عمُّها طبيباً جرّاحاً. قال الأطبّاء للورا عليها أن تبدأ بالراحة في الفراش.

عرفتُ أنّ لورا تتلقّى أفضل رعايةٍ ممكنة، ولكنّني كنت قلقاً. تذكّرت إجهاض أمّي. وقد رأيت والدي حين توفّيت روبن، وعرفت كم يؤذي فقدان طفل. اعترفت بقلقي إلى لورا، ولن أنسى أبداً ردّة فعلها. نظرت إليّ بعينيها الزرقاوين وقالت: «جورج، سوف آتي بهاتين الفتاتين إلى العالم. وسوف يولدان بصحّةٍ جيّدة». دهشتُ بقوّة زوجتي. هذه المرأة الهادئة والمتواضعة، فيها روح صلبة.

بعد أسبوعين، كنت في مكتبي، في ميدلاند – وكنت في تلك الفترة، أقوم برحلات مكّوكيّة، ذهاباً وإياباً، إلى دالاس ـ عندما تلقّيت مكالمة من الدكتور جيمس بويد الذي كان مسؤولاً عن رعاية لورا، ولم يكن يحبّ إطالة الكلام. قال

لي: «يا جورج، ستولد ابنتاك غداً. وسوف أولِّدهما الساعة السادسة صباحاً». سألته عن صحّة لورا، فقال: «إنّها بخير». قلت: «وماذا عن الفتاتين؟» قال: «سيكون الإنجاب سابقاً لأوانه بخمسة أسابيع. ستكونان بخير، لكن وقت التحرّك الآن». اتّصلت بلورا لأعبّر لها عن حماسي. ثمّ اتّصلت بوالديها، في ميدلاند، ووالديّ في واشنطن، وعدد من أصدقائنا، وبالطبع، بشركات الطيران.

حضرت بعض الأحداث المثيرة في حياتي من احتفالات التنصيب الرئاسيّة، والخطب أمام حشودٍ ضخمة، إلى افتتاح المباراة في ملعب فريق اليانكيز، ولكن لم يكن هناك شيء مثل تلك اللحظة حين وُلدت الفتاتان. كانت لورا مخدّرة في السرير. داعبتُ رأسها. وبعد فترة قصيرة، أخرج الطبيب جسماً صغيراً أحمر. صرخ الطفل، فقال الطبيب: إنّها بصحّة جيّدة. قامت ممرّضة بتنظيفها، وأعطتني إيّاها. باربارا الصغيرة. ثمّ الشيء نفسه حدث لجينا. أردنا أن تحمل ابنتانا اسمي امرأتين مميّزتين، لهذا أسميناهما تيمّناً بوالدتينا.

كنت قد فكرت في تينك الفتاتين، لفترةٍ طويلة، إلى حدّ أنّني بالكاد استطعت أن أصدّق أنّهما بين ذراعي. وكان ذلك في اليوم الذي يسبق عيد الشكر سنة ١٩٨١، وكنت أشعر حقّا بالامتنان. شكرت الله على حياتهما، وشكرت الفريق الطبّيّ على رعايتهما الممتازة، وشكرت لورا لعزمها على حمل ابنتينا، لمدّة تكفي، حتّى تولدا بصحّةٍ جيّدة.

كانت اللحظة حين حملت باربارا وجينا، للمرّة الأولى، في غاية الوضوح. فقد أُعطيت نعمةً ومسؤولية. وتعهّدت أن أكون أفضل أبٍ يمكن أن يوجد.

ساهمت تلك الأشهر الأولى في توعيتي. كانت الفتاتان تبكيان، في منتصف الليل، فأحملهما، واحدة على كلّ ذراع، وأمشي في المنزل. أردت أن أغنّي لهما تعويذة، لكنّني لم أكن أعرف أيّاً منها. بدلاً من ذلك، كنت أغنّي أحد أناشيد ييل وهي أغنية «بلدغ بلدغ ، باو واو واو». وكان ذلك يسهم في تهدئتهما، مهما كان

السبب، ربّما لأنّهما لم تريدا أن تسمعاني أغنّي بعد الآن. أيّاً كان السبب، فالأمر يُعتبر ناجحاً. كنت أضعهما في سريرهما، وأعود إلى لورا، كأبٍ سعيد.

* * *

بينما كنّا، أنا ولورا نتكيّف في حياتنا الجديدة كعائلة، بدأتُ مشروعاً تجاريّا جديداً. في سنة ١٩٧٩، أسّست شركةً صغيرةً للتنقيب عن الطاقة في ميدلاند. دبّرت المال، ومعظمه من الساحل الشرقيّ، للتنقيب في آبار النفط والغاز المنخفضة المخاطر، والمنخفضة العائدات كذلك. قمت باكتشافاتٍ جيّدةٍ بما في ذلك بعض الأماكن التي لا تزال تنتج. وكان لي حصّة عادلة من تجارب التنقيب في الأراضي الجافّة. علّمتني إدارة تجارةٍ صغيرةٍ الكثير، ولاسيّما أنّ ظروف السوق يمكن أن تتغيّر بسرعة، لذلك كان من الأفضل أن تكون مستعدّاً دائماً لما هو غير متوقَّع.

عندما بدأتْ أسعار النفط بالهبوط في سنة ١٩٨٣، قرّرت دمج أعمالي مع مقاوليْن من سينسيناتي اسمهما بيل ديويت وميرسر رينولدز. أنا كنت العيون والآذان على الأرض في تكساس، في حين كانا يجمعان الأموال على الساحل الشرقيّ. استمرّت الأعمال بصورةٍ جيّدةٍ لبضع سنوات، وصرنا أصدقاء. ولكن في أوائل سنة ١٩٨٦، انخفض سعر النفط من ستّة وعشرين دولاراً إلى عشرة دولارات للبرميل. كنت أعرف الكثير من الناس الذين اقترضوا بكثرة وصاروا الآن في خطرٍ ماليّ وخيم. لحسن الحظّ، أبقينا ديوننا منخفضة، وتمكنّا من دمج أعمالنا في شركة أكبر للتداول بالطاقة تُدعى هاركن للطاقة.

وكان منتصف الثمانينيات مرحلةً قاتمةً في ميدلاند. سيطر شعور القلق، وبحث الكثيرون عن هدف. وكان الدّين دائماً جزءاً من حياتي، ولكنّني لم أكن مؤمناً حقّاً. وقد تعمّدت في مصلّى ييل غير الطائفيّ دوايت هول تشابل. عندما كنت صغيراً أخذني والدي إلى المشيخة الأولى في ميدلاند، وأسقفيّة سانت مارتن في هيوستن، وأسقفيّة سانت آن في كينيبانكبورت.

ذهبتُ إلى الكنيسة، في أندوفر، لأنّ الأمر كان إلزاميًّا. ولم أذهب أبداً عندما كنت في ييل. عندما كنت أزور والديّ كنت أرافقهما إلى الكنيسة، وكان السبب الرئيسيّ تجنّب غضب أمّي. تزوّجنا أنا ولورا في الكنيسة الميثوديّة الأُولى المتّحدة في ميدلاند. وبدأنا بالذهاب، بانتظام، حين وُلِدت الفتاتان، لأنّنا شعرنا بمسؤوليّة تعريفهما إلى الدين. أحببت قضاء الوقت مع الأصدقاء في جماعة. واستمتعت بفرصة التأمّل، وأحياناً كنت أسمع خطبةً موحية. قرأت في الكتاب المقدّس، بعض الأحيان، معتبراً ذلك درساً في التحسّن الذاتيّ. وكنت أعي حاجتي إلى بعض ذلك التحسّن. ولكن إجمالاً شكّل الدين عندي تقليداً أكثر من كونه تجربةً روحيّة. كنت أصغي ولا أسمع.

في صيف سنة ١٩٨٥، ذهبنا، في رحلتنا السنويّة، إلى ولاية ماين. دعا أبي وأمّي الواعظ الإنجيليّ الكبير بيلي غراهام، وكان قد طلب إليه الإجابة عن بعض الأسئلة من أفراد العائلة عند نهاية العشاء. كعادته، كان أبي على استعدادٍ دائمٍ لمشاركة الآخرين. لو انفرد ببيلي، لكان ذلك إشارة إلى أهمّيّته الشخصيّة. لكن جورج هـ. و. بوش كان شخصاً مختلفاً. فهو رجل كريم، وخالٍ من التكبّر. لذلك جلسنا معاً، حوالى ثلاثين شخصاً: لورا وجدّتي وإخوتي وأختي وأبناء العمّ القريبون والبعيدون، في قاعةٍ كبيرة، آخر المنزل، الواقع على ووكرز بوينت.

جاء السؤال الأوّل من أبي. قال: «يا بيلي، يقول بعض الناس إن عليك اختبار تجربة الولادة الجديدة للذهاب إلى السماء. إنّ أمّي [وعنى الجدّة] هي الشخص الأكثر تديّناً ولطفاً الذي أعرفه، إلاّ أنّها لم يكن لديها تجربة الولادة من جديد. هل ستذهب إلى السماء؟». اندهشنا للسؤال العميق جدّاً من الرجل العجوز، ونظر الجميع إلى بيلي. أجاب بصوته الهادىء والقويّ: «يا جورج، البعض منّا يحتاج إلى تجربة الولادة من جديد لفهم الله، والبعض منّا هم من المسيحيّين المولودين. يبدو أنّ أمك وُلِدت مسيحيّة». أسرني حديث بيلي.كان حضوره قويّاً، مليئاً باللطف والحب، وكان فكره ثاقباً. في اليوم التالي، دعاني للذهاب إلى نزهةٍ في الجوار.

وسألني عن حياتي في تكساس، فأخبرته عن الفتاتين، وقلت له إنّني أعتقد أنّ قراءة الكتاب المقدّس يمكن أن تجعل منّي شخصاً أفضل. فبدأ بيلي، بطريقته اللطيفة والـمُحبّة، بتعميق فهمي الضئيل للإيمان. قال لي: «لا مشكلة باستخدام الكتاب المقدّس مرجعاً لتحسين الذات، فحياة يسوع توفّر مثالاً يُحتذى به. ولكنَّ التحسين الذاتيّ ليس، في الحقيقة، هدف الكتاب المقدّس. مركز المسيحيّة ليس الذات، بل المسيح.

فسّر لي بيلي أنّنا جميعاً واقعون في الخطيئة، ولا يمكن أن نكسب محبّة الله من خلال العمل الصالح. وأوضح أن الطريق إلى الخلاص هو من خلال نعمة الله. والسبيل للحصول على تلك النعمة هو قبول المسيح كالربّ القائم من بين الأموات، الّذي هو ابن الله المحبّ والقويّ جدّاً إلى حدّ أنّه وهب ابنَه الوحيد ليقهر الموت ويهزم الخطيئة.

وجدتُ في كلامه مفاهيم عميقة، ولم أفهمها تماماً في ذلك اليوم. ولكنّ بيلي كان قد غرس البذور، فشرحه الدقيق حرّك التربة وجعل العلّيق أقلّ كثافة.

بعد فترةٍ وجيزةٍ على عودتنا من تكساس، وصلتني حزمة من بيلي، تضمّنت نسخةً من الكتاب المقدّس كان قد دوّن عليها: «إلى صديقي جورج دبليو بوش، أدعو الله أن يباركك ويبارك لورا دائماً». وضمّنها إشارةً إلى فيلبي، الفصل الأوّل، الآية السادسة: «وإنّني على يقين من أنّ الّذي بدأ فيكم عملاً صالحاً، سوف يواصل عمله حتّى يتمّه في اليوم الذي يعود فيه يسوع المسيح». في أوائل الخريف، ذكرت محادثاتي مع بيلي إلى دون إيفانز، فقال لي إنّه مع صديق آخر من ميدلاند يُدعى دون جونز، كانا يحضران صفوفاً جماعيّة لدراسة الكتاب المقدّس. وكان الاجتماع يوم الأربعاء مساء، في الكنيسة المشيخيّة الأولى. قرّرت أن أجرّب الأمر.

كلّ أسبوع كنّا ندرس فصلاً من العهد الجديد. في بادىء الأمر، كنت متشكّكاً قليلاً، وكان لديّ صعوبة في عدم التهكّم. وفي إحدى الليالي، سأل رئيس المجموعة:

«من هو النبيّ؟» فأجبت: «ذلك يحصل حين تتجاوز الإيرادات النفقات (والكلمتان على القافية في اللغة الإنكليزيّة)، لم نشهد أمراً شبيهاً، هنا، منذ النبيّ إيليا».

سرعان ما بدأتُ آخذ الدورات على محمل الجدّ. وكلّما قرأت في الكتاب المقدّس، تأثّرت بالقصص التي تخبرنا عن لطف يسوع تجاه الغرباء وشفائه للأعمى والمشلول، والتضحية القصوى الّتي قام بها حين صُلب. وبمناسبة عيد الميلاد، في تلك السنة، أعطاني دون إيفانز نسخةً من الكتاب المقدّس للقراءة اليوميّة، وقد قسّمت إلى ٣٦٥ جزءاً. قرأت في الكتاب كلَّ صباح، وتوصّلت إلى فهمه بوضوح أكبر. ومع الوقت، بدأ إيماني ينمو.

في البداية أزعجتني شكوكي. كان قبول مفهوم الله الحيّ يتطلّب جهداً كبيراً، ولاسيّما من شخصٍ مثلي، عقله منطقيّ. الاستسلام إلى الله، عزّ وجلّ، هو تحدّ للأنا. ولكنّني توصّلت إلى إدراك أنّ الشكوك هي جزء طبيعيّ من الإيمان. إذا لم تشكّ، فربّما كنت لا تفكّر بعمقٍ بما تؤمن به.

في نهاية المطاف، يُعتبر الإيمان رحلةً نحو مزيدٍ من المعرفة .لا يمكن إثبات وجود الله، ولكن هذا لا يمكن أن يكون معيار الإيمان. فمن المستحيل إثبات أنّه غير موجود. في النهاية، إذا كنتَ تعتقد بوجود الله أو لا، فإنّ موقفك يستند على الإيمان.

هذا الاستنتاج ساعدني في التعرّف إلى علامات وجود الله. رأيت جمال الطبيعة، والمعجزة الكامنة في ابنتيّ، وحُبّ لورا ووالديّ المتواصل والمخلص، والحرّيّة التي تأتي مع الصفح، وهو ما سمّاه الواعظ تيموثي كيلر بـ«القرائن التي تثبت وجود الله». تقدّمت بثقة، والصلاة كانت غذائي.كلّما تعمّقت في فهم المسيح، صرتُ أقرب من هدفي الأصليّ وهو أن أكون شخصاً أفضل. ليس لأنّني كنت أحاول أن أجمع نقاطاً على الجانب الإيجابيّ من المعادلة السماويّة، ولكن لأنّني كنت قد تأثّرت بمحبّة الله.

* * *

أدركتُ شيئاً آخر. عندما بدأ بيلي بالإجابة على الأسئلة، في تلك الليلة، في ماين، كنت أحمل الكأس الثالثة من النبيذ، بعد أن شربتُ زجاجتين من البيرة، قبل العشاء. وقد تغلّبت رسالة بيلي على الخمر، ولكن لم يكن الأمر كذلك دائماً. منذ زمنٍ بعيد، كنت أُحبّ تناول الكحول في المناسبات الاجتماعيّة. أحببت أن أشرب مع الأصدقاء ومع وجبات الطعام، وفي المناسبات الرياضيّة، والحفلات. وعندما صرتُ في منتصف الثلاثينات، صرت أشرب، بشكلٍ روتينيّ، بما في ذلك حالات سكْر عرضيّة. كان لدينا مقولة في غرب تكساس: «الليلة الماضية كان يعتقد أنّه عشرة، إنّما في واقع الأمر كان حماراً». انطبق الأمر عليّ أكثر من مرّة. أحبّ المزاح، ولكن الكحول وسيلة لتحويل المزاح إلى إهانة. ما يمكن أن يبدو مضحكاً مع الخمر يظهر غبيّاً لاحقاً. ذات ليلة صيف، كنّا نتناول وجبة العشاء، في ماين، بعد يوم رائعٍ من الصيد ولعب الغولف. كنت أشعر بالعطش، فشربت البوربون والسفن أب. بينما كنّا نتناول الطعام، التفت إلى صديقة جميلة لوالديّ وسألتها، وأنا سكران: «إذن، كيف هي الحياة الجنسيّة، بعد عمر الخمسين؟» نظر الجميع إلى الطاولة بصمت، ما عدا والديّ ولورا الّذين حدّقوا إلى وجهي، غير مصدّقين ما قلتُه.

ضحكت المرأة الجميلة بعصبيّة، وانتقل الحديث إلى موضوع آخر. عندما استيقظت، في اليوم التالي، ذُكّرت بما قلته، فشعرت، على الفور، بالندم الّذي يأتي في اليوم التالي. بعد أن اتّصلت بالمرأة للاعتذار، بدأتُ أُسائل نفسي إذا كانت هذه حقّاً الطريقة الّتي أردت أن أسيّر بها حياتي. بعد سنوات عدّة، أرسلت المرأة، ذات حسن الدماثة والأخلاق، رسالةً مختصرةً إلى منزل حاكم ولاية تكساس تقول: «إذاً، يا جورج، كيف هي الحياة الجنسيّة بعد عمر الخمسين؟»

اكتشفت لورا نمطاً في تصرّفاتي. فالأمور التي بدت مضحكة أو ذكيّة، بالنسبة لي ولأصدقائي، وجدتْها متكرّرة وصبيانيّة. كانت تعبّر لي عن أفكارها، لكن لم يكن بإمكانها التوقّف بدلاً منّي .كان عليّ القيام بذلك بمفردي. في سنّ الأربعين،

وجدت في نفسي القوّة للقيام بذلك، وهي قوّة جاءت من الحُبّ الذي شعرت به من أوّل حياتي، ومن الإيمان الذي لم أكتشفه تماماً إلاّ بعد سنواتٍ طويلة.

لم أتذوّق قطرةً من الكحول، منذ تلك الليلة، في برودمور سنة ١٩٨٦. لا توجد طريقة لمعرفة مسار حياتي لو لم أتّخذ هذا القرار بالإقلاع عن شرب الكحول. لكنّني متأكّد من أنّه كان من المستحيل عليّ تسجيل هذه الأفكار كحاكمٍ سابق لولاية تكساس ورئيسٍ للولايات المتّحدة.

لقد سُئِلت إذا كنت أعتبر نفسي مدمناً على الكحول. لا أستطيع الجزم.

أنا أعرف أنّ شخصيّتي تميل إلى العادات. كنت أشرب الكثير من الكحول. وبدأ الأمر يسبّب لي المشاكل. قدرتي على التوقّف، من دون الحاجة إلى بديل دفعتني إلى الاعتقاد بأنّه لم يكن لديّ إدمان على الموادّ الكيميائيّة. بعض الأشخاص الّذين يتناولون الكحول، ليسوا محظوظين بهذه الطريقة. وأنا معجب بأولئك الذين يستخدمون وسائل أخرى للتوقّف، مثل عمليّة الاثنتي عَشْرَةَ خطوة التي تتّبعها منظّمة مدمني الكحول المجهولين.

كان مستحيلاً عليّ الإقلاع عن الشرب لو لم أكن مؤمناً. كما أنّني لا أعتقد أنّ إيماني صار بهذه القوّة لو لم أكن قد أقلعت عن الشرب. أعتقد أنّ الله ساعدني لأفتح عينيّ اللتين كانتا قد بدأتا تغمضان بسبب الخمر. لهذا السبب، شعرت، دائماً، بالتأثّر بكلمات «النعمة المذهلة»، وهو نشيدي المفضّل: «مرّة كنت ضائعاً، ولكني وجدت الآن نفسي. كنت أعمى، ولكني الآن أرى».

٢

الترشّح للانتخابات

كان صباح يوم ١٢ حزيران/يونيو ١٩٩٩ جميلاً في ولاية تكساس. فقد حلّ فريق الرينجرز في المركز الأوّل، في الدوريّ الأميركيّ الغربيّ، وبلغ معدّل مؤشّر الداو جونز الصناعيّ ١٠٤٩٠ نقطة. وكان أبي قد احتفل للتوّ بعيد ميلاده الخامس والسبعين، فهبط بنجاحٍ بمظلّة من طائرة. وكنت على وشك تحقيق إنجاز.

بعد أشهرٍ من التأمّل وساعاتٍ لا تُحصى من وزن الإيجابيّات مقابل السلبيّات، توجّهت إلى ولاية أيوا حيث كان موقع التجمّع الحزبيّ الأوّل في الانتخابات الرئاسيّة لسنة ٢٠٠٠. كان من المبكر القلق من اتّخاذ القرار، إنّما كنتُ متلهّفاً لبدء الرحلة. ودّعنا، أنا ولورا، الفتاتين واتّجهنا نحو المطار، فركبنا طائرة TWA متّجهةً إلى سيدار رابيدز.

كانت الطائرة تغصّ بالركّاب، ومعظمهم من الصحفيّين الذين كانوا قد عبّأوا ساعاتٍ من البرامج التلفزيونيّة ورزماً من ورق الصحف للمناقشة وطرح الأسئلة والتحليل إنْ كنت سأترشّح. وكانوا بصدد الحصول على الجواب. قرّرت أن أمازحهم، وكنت قد عمّدت طائرتنا باسم رواية ديكنز «التوقّعات العظمى». بعد فترةٍ قصيرةٍ

من الإقلاع، أمسكت الميكروفون وأعلنت «هذا مرشّحكم. يُرجى وضع توقّعاتكم بأمان في الصناديق العلويّة، فقد يتغيّر موقعها خلال الرحلة، وقد تقع فتصيب شخصاً، ولاسيّما أنا».

أنا أستخدم الفكاهة غالباً لنزع فتيل التوتّر، ولكن كنت أعرف أنّني على وشك الشروع في مهمّةٍ خطيرة. فهمت ما يترتّب على الترشّح للرئاسة، أكثر من أيّ مرشّح آخر تقريباً في التاريخ. وقد شاهدتُ كيف تحمَّل أبي قسوة أشهرٍ من الحملة الانتخابيّة، أمام التصرّفات المتشكّكة للصحافة. وكنت قد رأيت كيف شوّهوا سجلّه وهاجموا شخصيّته وسخروا من مظهره. كما أنّني شهدت كيف تحوّل أصدقاؤه ضدّه وتخلّى مساعدوه له عنه. كنت أعرف كم كان الفوز صعباً، وكنت أعرف كم تؤذي الخسارة.

كنت قلقاً بالأخصّ على ابنتينا باربرا وجينا، وهما في السابعة عشرة من العمر، وكنت أعلم أنّ ما هو أصعب من أن تكون سياسيّاً هو أن تكون ابن سياسيّ. كنت أفهم الألم والإحباط اللذين تشعر بهما عندما يُدعى والدك بأسماء سيّئة، وكنت أعرف ما يعني أن تقلق في كلّ مرّةٍ تقوم بتشغيل التلفزيون، وماهيّة العيش مع فكرة أنّ أيّ زلّة بريئة قد تُحرج رئيس الولايات المتّحدة. كنت قد اختبرت كلّ ذلك في الأربعينات من عمري. لو صرتُ رئيساً، لكانت ابنتاي في الجامعة عندما أتولّى منصبي. أستطيع فقط تخيّل صعوبة الأمر عليهما.

لقد فكّرت في المسائل الكبيرة. هل كنت على استعداد للتخلّي عن كوني غير معروف إلى الأبد؟ هل من العدل تعريض عائلتي للتدقيق الذي يترافق مع حملةٍ وطنيّة؟ هل أستطيع التعامل مع الإحراج الذي تسبّبه الهزيمة، بينما البلد كلّه يراقب؟ هل كنت أملك فعلاً ما تتطلّبه المهمّة؟

اعتقدت أنّني أعرف الأجوبة، ولكن ليس هناك طريقة للتأكّد.

شعرت بدعوةٍ للترشّح، فكنت قلقاً على مستقبل البلد، وكان لديّ رؤية واضحة

عن المكان الذي أردت أخذه إليه. كنت أرغب بخفض الضرائب ورفع المعايير في المدارس الحكوميّة وإصلاح الرعاية الاجتماعيّة والرعاية الطبّيّة، ودعم الجمعيّات الخيريّة التي ترعاها مؤسّسات دينيّة، ورفع تطلّعات الأميركيين عن طريق تشجيع الناس على البدء بحقبة جديدة من المسؤوليّة الشخصيّة. كما قلت في خطاباتي «عندما أضع يدي على الكتاب المقدّس، سأقسم ليس فقط على الحفاظ على القوانين في بلادنا، بل أيضاً على التمسّك بالشرف والكرامة المتّصلين بالمنصب الذي انتُخِبت لأملأه، وليساعدني الله».

أعطاني تعرّضي لتجربة الرئاسة صورةً عن الإمكانات الكامنة في هذا المنصب.

وكان اثنان من الرؤساء الذين عرفتهم بالشكل الأفضل، أبي ورونالد ريغان، قد استخدما وقتهما في الرئاسة لإنجاز الأهداف التاريخيّة. فالرئيس ريغان تحدّى الاتّحاد السوفياتيّ وساعد على الفوز في الحرب الباردة. أمّا أبي فقد حرّر الكويت ووجّه أوروبا نحو الوحدة والسلام.

كنت قد رأيت أيضاً الجانب الشخصيّ للرئاسة. على الرغم من التدقيق والإجهاد اللذين تعرّض لهما، فقد أحبّ أبي المهمّة. عندما غادر منصبه، بقي شرفه وقيمه سليمين. وعلى الرغم من كثير من الضغوط، جعلتِ التجربةُ عائلتنا أكثر تماسكاً.

وكانت عمليّة اتّخاذ القرار متعبة. فكّرت في ذلك وتحدّثت بالأمر وحلّلته وصلّيت. كان لديّ فلسفة أردت أن أتقدّم بها، وكنت مقتنعاً بأنّه يمكنني بناء فريق يستحقّ الرئاسة. وكنت أستطيع تقديم الأمان المادّيّ لعائلتي، في حالتَيْ الفوز أو الخسارة.

في النهاية، كانت العوامل الحاسمة أقلّ وضوحاً. شعرت بزخم لبذل المزيد من الجهد في حياتي، ولدفع ذاتي واختبار قدراتي ومهاراتي على أعلى مستوى. وجدت الوحي في تجربة خدمة والدي وجدّي الوطنيّة. وقد شاهدت والدي يصعد إلى أكبر حلبة وينجح. أردت اكتشاف ما إذا كنت أملك ما هو مطلوب للانضمام إليه.

حتّى لو خسرت، تبقى لديّ حياة رائعة: عائلتي تحبّني، وكنت سأبقى حاكماً

لولاية كبرى، وما كنت سأتساءل عمّا لم يحصل. كنت سأقول للأصدقاء «عندما ينتهي وقتي، سأكون قد قمت بحصّتي من الرقص».

أعلنت ترشّحي في حفل شواءٍ في بلدةٍ صغيرةٍ من ولاية أيوا تدعى أمانا. ألقيت خطابي في الحظيرة، على منصّةٍ مغطّاةٍ بالقشّ، أمام حقلٍ عملاقٍ مزروع بالقمح. عضو الكونغرس جيم نوسل، الذي خدم في وقتٍ لاحقٍ كمديرٍ لمكتب الإدارة والميزانيّة خلال رئاستي، قدّمني بغناء «عنيد أيوا»، من فيلم «رجُل الموسيقى». وبينما كانت لورا إلى جانبي، قلت: «أنا مرشّح لرئاسة الولايات المتّحدة. لا رجوع عن ذلك، وأعتزم أن أكون الرئيس المقبل».

* * *

كان طريقي إلى ذلك اليوم غير تقليديّ. لم أمضِ حياتي في التخطيط للترشّح للرئاسة. ولو كان الأمر كذلك لكنت فعلت بضعة أشياء بطريقةٍ مختلفةٍ عندما كنت أصغر سنّاً. ولكنّني في الطريق كنت قد كوّنت الرغبة والمهارات اللازمة للقيام بحملة الانتخابات الرئاسيّة وكسبها. إن بذور هذا القرار، مثل قراراتٍ أخرى كثيرةٍ في حياتي، كانت مزروعةً في الأرض، الواقعة تحت السماء التي لا حدود لها، والممتدّة فوق ميدلاند بولاية تكساس.

كانت السياسة في ميدلاند محافظة. وكانت منطقة غرب تكساس تميل إلى الاستقلاليّة وانعدام الثقة في الحكومة المركزيّة. وتماماً كالجزء الأكبر من تكساس، كان الحزب الديمقراطيُّ يهيمن على ميدلاند لأجيال عدّة. شمل إقليم ميدلاند المترامي الأطراف سبع عشرة مقاطعة كان يمثّلها، في الكونغرس، الديمقراطيّ جورج ماهون، لمدّة ثلاثة وأربعين عاماً. وكان عضو الكونغرس الأطول خدمةً في أميركا. في ٦ تمّوز/يوليو سنة ١٩٧٧، وكان عيد ميلادي الحادي والثلاثين، أعلن ماهون أنّه سوف يتقاعد في نهاية فترة ولايته.

بحلول تلك السنة كنتُ قد عدت إلى ميدلاند لقضاء سنتين بعد أن أنهيت دراسة

إدارة الأعمال. كنت أتعلّم صناعة النفط وأعيد صِلاتي بالأصدقاء وأتمتّع بالحياة إجمالاً. وكنت أدرس المشهد السياسيّ.

لم يسبق لي أن نظرت إلى السياسة باعتبارها مهنة، لكني قدّمت المساعدة في جميع حملات والدي: في المنافسة لدخول مجلس الشيوخ في سنة ١٩٦٤، ومجلس النوّاب سنة ١٩٦٦، ومحاولته الثانية لدخول مجلس الشيوخ في سنة ١٩٧٠. قبل أن أبدأ التدرّب على الطيران في سنة ١٩٦٨، قضيت أشهراً عدّة أعمل مساعداً لعضو الكونغرس إدوارد غرني، الذي كان مرشّحاً لمجلس الشيوخ في ولاية فلوريدا. وكان أهمّ حدث خلال التجربة مظاهرة ضخمة في جاكسونفيل، حيث حصل غرني على تأييد حاكم ولاية كاليفورنيا الطويل القامة والأسمر، رونالد ريغان. في سنة ١٩٧٢، وكنت مدير الشؤون السياسيّة في حملة رد بلونت الانتخابيّة في ولاية ألاباما. وفي سنة ١٩٧٦ تطوّعتُ في غرب تكساس في حملة الرئيس فورد في تصفيات الحزب الجمهوريّ. وساهمت في حصوله على مجموع صفر من المندوبين.

كان نمط الحياة في الحملات مثاليّاً، بالنسبة لي، في العشرينات من عمري. استمتعت بالتنقّل والالتقاء بأشخاصٍ جدد. ومنحتني قوّة المنافسة شعوراً جيّداً. أحببت حسّ الختام الّذي رافق يوم الانتخاب عندما يختار الناخبون الفائز، وننتقل جميعاً الى مرحلةٍ جديدة. على الرغم من أنّني لم أكن قد خطّطت لتحصل الأمور بهذه الطريقة، حين أعلن عضو الكونغرس ماهون تقاعده، كنت قد صرتُ سياسيّاً محنّكاً، نسبيّاً.

بدأتُ التفكير في الترشّح لموقع في السياسة. كنت أملك خبرةً كافيةً للتعاطي مع الجانب السياسيّ من السباق. وشعرتُ أيضاً بشيء يشدّني. شعرت بالقلق من اتّجاه البلاد. فتجربتي في كلّيّة إدارة الأعمال والصين وقطاع النفط منحتني مجموعةً من القناعات: السوق الحرّة أعدل طريقة لتخصيص الموارد. خفض الضرائب ومكافأة العمل الجادّ تشجّع المبادرة في وجه المخاطر، ممّا يحفّز خلق فرص العمل. إزالة الحواجز أمام التجارة تخلق أسواقاً تصديريّة جديدة للمنتجين الأميركيين، ومزيداً

من الخيارات للمستهلكين عندنا. ويجب على الحكومة احترام حدودها الدستوريّة وإعطاء الناس الحرّيّة في أن يعيشوا حياتهم.

عندما نظرت إلى واشنطن، في عهد الرئيس جيمي كارتر، والمؤتمر الديموقراطيّ، رأيت عكس ذلك. قاموا بالتخطيط لرفع الضرائب، وإحكام سيطرة الحكومة على قطاع الطاقة، وإبدال عمليّة خلق فرص العمل في القطاع الخاص بالإنفاق من ميزانية الحكومة الفدراليّة. كنت قلقاً من انزلاق أميركا باتّجاه اليسار، نحو دولة الرفاهية بحسب النموذج الأوروبيّ، حيث الحكومة المركزيّة تقوم بالتخطيط، وبالتالي تخنق المشاريع الحرّة، وكنت أريد أن أفعل شيئاً بشأن هذا الموضوع. كنت أعيش تجربتي الأولى في السياسة، وكانت شديدة التأثير.

عندما تحدّثت إلى أمّي وأبي عن فكرتي، فوجئوا وأحسّوا كما لو أنّ قراري ليس له أساس، لكنّهم لم يريدوا تهدئة حماستي. سألني والدي إذا كنت مستعدّاً للاستماع إلى نصيحةٍ من صديقٍ له، وهو حاكم ولاية تكساس السابق ألان شيفرز. فأجبته: «بالتأكيد»، وكان شيفرز أسطورة. حكم ولاية تكساس لأطول مدّة في التاريخ. وكان ديمقراطيّاً محافظاً، لذلك تكون نصيحته قيّمة في سباقٍ ضدّ كينت هانس، وهو عضو في مجلس الشيوخ، قريب من اليمين، والمرشّح المُحتمَل للحزب الديمقراطيّ.

عندما ذهبت لرؤية الحاكمة السابق المسنّ، سألني مباشرةً إذا كنت مرشّحاً لمقعد السيّد ماهون. فقلت له إنّني أدرس بجدّيّة هذا الاحتمال. فقال، وهو ينظر في عينيّ: «يا بنيّ، لا يمكنك الفوز». لم أحصل منه على أي تشجيع، لا شيء. قال لي إنّ انتخاب كينت هانس شبه مؤكّد. فتمتمت شيئاً على نحو «أتمنى أن تكون على خطأ إذا قرّرتُ الترشّح»، وشكرته على وقته.

أتذكّر أنّني تساءلت لماذا عرّفني والدي على الحاكم. حين أحلّل ذلك الآن، أخمّن أنّها ربّما كانت طريقته للقول لي، من دون التضييق على طموحي، إنّه ينبغي أن أكون مستعدّاً للخسارة.

كانت المرحلة الأُولى تتطلّب الفوز بترشيح الحزب الجمهوريّ. أوصلتني التصفيات إلى مواجهة جيم ريس، وهو كان سابقاً معلّقا رياضيّاً معسول الكلام وعمدة أوديسا. كان قد ترشّح ضدّ جورج ماهون في سنة ١٩٧٦ ورأى أنّه من حقّه الحصول على ترشيح الحزب في سنة ١٩٧٨. كان مستاءً للغاية من فوزي في الجولة الأُولى من الانتخابات التمهيديّة.

وكان ريس حادّ الطباع، وكذلك كان بعض مؤيّديه. قامت استراتيجيّتهم على وصفي بالليبراليّة وانعدام الواقعيّة والوصوليّة.

سوّقوا جميع أنواع نظريّات المؤامرة. ادّعوا أنّ أبي جزء من حملة لجنة ثلاثيّة لإقامة حكومة عالميّة واحدة. وأنّني أُرسِلت من قِبَل عائلة روكفلر لشراء الأراضي الزراعيّة. قبل أربعة أيّام من الانتخابات، قدّم ريس نسخةً من وثيقة ولادتي للإثبات أنّني ولدت في شرق البلاد. كيف كان من المفترض بي مواجهة ذلك؟ أجبت مستعيناً بجملةٍ كان أبي قد استخدمها في إحدى المرّات: «لا، لم أولد في ولاية تكساس، لأنّني أردت أن أكون على مقربةٍ من والدتي في ذلك اليوم».

حصل ريس على مساهماتٍ وتأييدٍ في الحملة من قِبَل رونالد ريغان، الذي كان يسعى إلى التميّز عن أبي في المرحلة الأوّليّة للانتخابات الرئاسيّة سنة ١٩٨٠. على الرغم من التلميحات التي طالتني، كنت متفائلاً بشأن فرصي. وكانت استراتيجيّتي تقوم على بناء أساسٍ لي في مقاطعة ميدلاند.

حضرت مع لورا لقاءاتٍ في جميع أنحاء المدينة، ونظّمنا المقاطعة شارعاً شارعاً، وأقنعنا الأصدقاء الذين لم يكونوا قد شاركوا في الحياة السياسيّة من قبل بمساعدتنا[1]. وفي ليلة الانتخابات،أنتج جهدنا على مستوى القاعدة في ميدلاند إقبالاً هائلاً. خسرت كلّ محافظة أخرى في المنطقة، ولكنّ فوزي في ميدلاند بفارق ضخم ساعدني على الفوز بالترشيح.

---

(١) كان دون إيفانز رئيس الحملة ؛ وكان جو أونيل أميناً للصندوق؛ وتولّى روبرت مكلسكي المحاسبة.

كان أبي قد توقّع أن يتّصل ريغان لتهنئتي إذا فزت في الانتخابات التمهيديّة، وقد حصل ذلك في اليوم التالي. كان كريماً وعرض عليّ المساعدة في الانتخابات العامّة. كنت شاكراً له على اتّصاله، ولم أشعر بضغينةٍ تجاهه. ولكنّني كنت مصمّماً على خوض الانتخابات بمفردي. لهذا لم أشرك ريغان أو والدي في الحملة.

أسهمت المنافسة ضدّ ريس بتقويتي كمرشّح. تعلّمت كيف أتلقّى ضربةً قويّةً ثمّ أستمر بالكفاح وأفوز. كان خصمي في الانتخابات العامّة كينت هانس، وهو السيناتور الّذي حذّرني منه الحاكمة السابق شيفرز. وكانت استراتيجيّة هانس تتطابق مع تلك التي استعملها ريس: تحويلي إلى دخيلٍ آتٍ من شرق البلاد. ولكنّه نفّذ ذلك بدقّة وسحرٍ أكبر.

أحد أول الإعلانات التلفزيونيّة لي، بيّنني وأنا أركض. اعتقدت أنّ ذلك يؤكّد طاقتي وصباي. فحوّله هانس ضدّي بالقول: «إنّ السبب الوحيد الذي يدفع الناس هنا إلى الركض هو أنّ أحداً يطاردهم».

كما استخدم أيضاً إعلاناً إذاعيّاً: «في سنة ١٩٦١، عندما تخرّج كنت هانس من ثانويّة ديميت في المقاطعة النيابيّة التاسعة عشرة ، كان منافسه جورج بوش يدرس في أكاديميّة أندوفر في ماساتشوستس. في سنة ١٩٦٥، عندما تخرّج هانس في تكساس تك، كان منافسه في جامعة ييل. وحين تخرّج كينت هانس في كلّيّة الحقوق في جامعة تكساس، كان خصمه... حاوِلوا فهم ذلك أيّها الناس... كان يتابع الدراسة في جامعة هارفارد. نحن لسنا بحاجةٍ إلى شخصٍ من شمال شرق البلاد ليقول لنا ما هي مشاكلنا».

كان هانس بارعاً بسرد القصص ويستخدم مهارته ليستغلّ موضوع الدخيل. كانت قصّته المفضّلة عن رجلٍ في سيّارة ليموزين توقّف بالقرب من المزرعة حيث كان هانس يعمل. عندما سأله السائق كيف يصل إلى البلدة المقبلة، قال هانس: «اذهب إلى اليمين عند سياج الماشية ثمّ اتبع الطريق». والمضحك في النكتة هو

أنّ السائق سأل: «عفواً ، ولكن ماذا يرتدي سياج الماشية؟» أحبّ الناس في غرب تكساس هذه النكتة، وقام هانس بأذيّتي حين أضاف: «لم أتمكّن من معرفة ما إذا كانت الليموزين تحمل لوحة تسجيل ماساتشوستس أو كونيتيكت».

انتقلنا، أنا ولورا مؤقّتاً، إلى لوبوك، وهي أكبر مدينة في المنطقة وتقع على حوالى ١١٥ كيلومتراً إلى الشمال من مدينة ميدلاند. وكانت لوبوك محوراً مهمّاً لصناعة القطن ومركز جامعة تكساس تك، واخترناها قاعدةً للحملة في محافظات المنطقة الريفيّة. أمضينا ساعات في السيّارة معاً، نتوقّف في بلدات مثل لفللاند وبلاينفيو وبراونفيلد.

كشخصٍ لا تهمّه السياسة بشكل خاصّ،كانت لورا تقوم بالحملة بسهولة. نقاؤها من أيّ اصطناع سهّل على الناخبين التقرّب منها. بعد زفافنا، ذهبنا في رحلةٍ قصيرةٍ إلى كوزوميل، في المكسيك، لكنّنا كنّا نقول، مازحين، إنّ الحملة كانت شهر عسلنا.

في الرابع من تمّوز/يوليو، قمنا بالحملة الانتخابيّة في ميولشو، في أقصى شمال المقاطعة. في الانتخابات التمهيديّة في أيار/مايو، حصلت على ٦ من أصل ٢٣٠ صوتاً في مقاطعة بايلي. وقد رأيت أنّ عندي مجالاً كبيراً للتحسين. كنّا، أنا لورا، نبتسم ونلوّح للناس من المقعد الخلفيّ لشاحنتنا البيك أب البيضاء. لم يهتف أحد، ولم يلوّح لنا أحد. نظر إلينا الناس كما لو كنّا أجانب أو مخلوقات فضائيّة. وفي النهاية اقتنعت بأن لا أحد يدعمني في ميولشو، وأنّ الشخص الوحيد الموالي لي يجلس بجواري.

وجاءت ليلة الانتخابات، وتبيّن أن المحافظ القديم شيفرز كان على حقّ. فزت بقوّةٍ في مقاطعة ميدلاند وفي الجزء الجنوبيّ من الإقليم، ولكن ليس بما يكفي لتعويض هامش الخسارة أمام لوبوك في كلّ مكان آخر. وكانت النتيجة النهائيّة ٥٣ في المئة بمقابل ٤٧ في المئة.

كنت أكره الخسارة، ولكني كنت سعيداً لأنّني ترشّحت. لقد استمتعت بالعمل

الشاقّ في مجال السياسة والتعرّف على الناس والدفاع عن قضيّتي. تعلّمت أن أحد أكبر الأخطاء في الحملة هو السماح لخصمك أن يحدّد من أنت. واكتشفت أنّ بإمكاني تقبّل الهزيمة والمضيّ قُدُماً. ولم يكن هذا الألم سهلاً لشخصٍ عنده روح المنافسة الذي أملكه. ولكنّه كان جزءاً مهمّاً من نضوجي.

أمّا عضو الكونغرس كنت هانس فقد استحقّ الفوز، وصرنا صديقين حميمين. بعد أن حقّقت انتصارين كحاكم وكرئيس، يبقى هو السياسيّ الوحيد الذي هزمني في أيّ وقتٍ مضى. خدم ثلاثٌ مرّات في مجلس النوّاب قبل أن يخسر في محاولة الفوز بعضويّة مجلس الشيوخ. بعد ذلك صار جمهوريّاً وساهم في حملاتي. كينت هو الآن رئيس جامعة تكساس تك، ويقول إنني من دونه، ما صرتُ رئيساً. إنّه على الأرجح على حقّ.

* * *

بعد مضيّ ستّة أشهر على انتهاء حملتي، كان عليّ التفكير في سباقٍ آخر. أعلن أبي ترشيحه لانتخابات سنة ١٩٨٠ الرئاسيّة. وكانت منافسةً صعبةً في مواجهة رونالد ريغان، لكنّه قام بحملةٍ قويّةٍ في ولاية أيوا وفاز فوزاً كاسحاً في الانتخابات الحزبيّة هناك. للأسف، بعد فترة حاميةٍ من النجاح، واجه شتاءً بارداً على مستوى النتائج في نيو هامبشاير. فاز ريغان عليه هناك واستمرّ حتّى فاز بترشيح الحزب الجمهوريّ.

وكان هناك كثير من التكهّنات حول من سيختار ريغان نائباً للرئيس. في مؤتمر ديترويت أجرى مشاورات مع جيرالد فورد حول نوع من الرئاسة المشتركة. وافقا معاً على أنّ ذلك غير ممكن، وكان هذا قراراً جيّداً. ثمّ اتّصل ريغان بأبي وطلب منه أن يترشّح لمنصب نائب الرئيس وكان هذا القرار أفضل.

ليلة الانتخابات، فاز ريغان وبوش على جيمي كارتر ووالتر مونديل بنتيجة ٤٨٩ ـ ٤٩ في الكلّيّة الانتخابيّة. فسافرنا، أنا ولورا إلى واشنطن لحضور حفلة التنصيب يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨١، وكانت المرّة الأُولى الّتي تتمّ فيها المراسم في

الجهة الغربيّة المهيبة للكابيتول. أشرقنا حين طلب القاضي بوتر ستيوارت من والدي أن يقسم اليمين. وكرّر رونالد ريغان اليمين أمام رئيس المحكمة العليا وارن برغر.

باعتباري كنت متخصّصا في التاريخ، كان الحصول على مقعدٍ في الصفّ الأماميّ شيئاً مميزاً. وكابنٍ شعرت بالفخر. لم يكن يخطر في ذهني أنّني في أحد الأيّام سأقف على المنصّة وأرفع يدي اليمنى في حفل تنصيب رئاسيّ.

حفلت أوائل الثمانينيات باللحظات الصعبة، من الركود الاقتصاديّ المؤلم إلى تفجير ثكنات المارينز في لبنان، ولكن بوش وريغان أنجزا ما كانا قد وعدا به. خفّضا الضرائب واستعادا موقع القوّة في الحرب الباردة، وأعادا إحياء المعنويّات الأميركيّة. عندما قدّم الرئيس ريغان ووالدي سجلّهما للناخبين في سنة ١٩٨٤، فازا بتسعة وأربعين ولاية من أصل خمسين.

كان لوالدي الأفضليّة المنطقيّة للترشّح في انتخابات سنة ١٩٨٨ الرئاسيّة، ولكنّ السباق لن يكون سهلاً. لقد كان موالياً للرئيس ريغان، إلى حدّ أنّه لم يقم بأيّ شيء تقريباً للترويج لنفسه. كان يحارب أيضاً عامل «فان بيورين» الشائن. فمنذ مارتن فان بيورين الذي وصل إلى الرئاسة بعد أندرو جاكسون في ١٨٣٦ لم يتمكّن أيّ نائب رئيس من أن يكون خلفاً للرئيس الذي خدم معه.

في وقتٍ مبكرٍ من فترة ولايته الثانية، سمح الرئيس ريغان، تكرّماً، لأبي باستخدام المنتجع الرئاسيّ في كامب دايفيد، لعقد اجتماع مع الفريق الذي يدير حملته. كان عملاً ذكيّاً أن يدعو والدي جميع أخوته وأولاده، واستمتعت بلقاء فريقه، على الرغم من التحفظّات التي كانت لديّ. مستشار والدي الاستراتيجيّ الأعلى كان شابّاً يُدعى لي أتواتر. كان أتواتر سريع الكلام ويعزف الغيتار، وأصله من جنوب كارولينا. اعتُبر أحد أهمّ المستشارين السياسيّين في البلد. لا شكّ في أنّه كان ذكيّاً، وبدون شكّ أيضاً، كان يملك الخبرة. وكنت أريد أن أعرف ما إذا كان مخلصاً.

عندما سأل والدي إذا كان أيّ من أفراد العائلة لديه تساؤلات، رفعت يدي وسألت: «يا لي، كيف لنا أن نعرف أنّه يمكن أن نثق بك، عِلْماً أنّ شركاءك يعملون لصالح مرشّحين آخرين؟». ودعمني جيب بالقول: «إذا ألقى شخص قنبلةً يدويّةً باتّجاه والدنا، نحن نتوقّع منك أن تقفز لحمايته». وكانت لهجتنا قاسية، لكنّها عكست حبّنا لأبينا وتوقّعاتنا من موظّفيه. وهذا مبنيّ على اعتقادنا أنّ المرشّح يأتي أوّلاً، ثمّ يأتي الطموح الشخصيّ في المرتبة الثانية.

قال لي إنّه كان يعرف والدي من اللجنة الوطنيّة للحزب الجمهوريّ، وأُعجب به كثيراً، وأراد له تحقيق الفوز. وأضاف،إنّه يخطّط لقطع صِلاته التجاريّة التي تتضارب مع عمله في الحملة. ولكن كان واضحاً أنّه اهتزّ بسبب شكوكنا. في وقتٍ لاحقٍ من اليوم نفسه، بحث عنّي وعن جيب، وتساءل: «إذا كنّا قلقين للغاية، فلماذا لا ينتقل أحدنا إلى العاصمة ويساعد في هذه الحملة ويبقي عينه عليه وعلى الموظّفين؟

أثارت الدعوة اهتمامي، وكان التوقيت مناسباً. على أثر الانكماش في أسواق النفط، دمجنا، أنا وشركائي، شركاتنا، وعثرت على وظائف لجميع الموظّفين. أحبّ أبي الفكرة، وكنّا، أنا ولورا، على استعداد للمحاولة. لم يكن لديّ أيّ لقب في مقرّ الحملة الواقع وسط مدينة واشنطن. بتعبير والدي، كنت أملك صفة جيّدة: الابن.

ركّزت على جمع التبرعات، والسفر في أنحاء البلاد لإلقاء خطابات باسم أبي، ورفع معنويّات المتطوّعين بتقديم الشكر لهم نيابةً عن والدي. ومن وقت لآخر، قمت بتذكير بعض الموظّفين رفيعي المستوى بأنّهم كانوا جزءاً من فريق مهمّة دعم جورج بوش، في انتخابات الرئاسة، وليس دعم أعمالهم الخاصّة. تعلّمت درساً قيّماً من واشنطن: القرب من السلطة هو وسيلة للحصول على القوّة. وكنت فاعلاً بشكلٍ خاصّ لأنّ أبي كان يستمع اليّ.

وكانت إحدى مهامّي، فرز طلبات الصحفيين لكتابة مقالات عن سيرة أبي.

عندما قالت لنا مارغريت وارنر، من مجلّة نيوزويك، إنّها تريد إجراء مقابلة، أوصيت بأن نتعاون معها. فقد كانت مارغريت موهوبة وبدت على استعداد لكتابة مقالٍ عادل. ووافق أبي.

اتّصلت بي أمّي في صباح اليوم الذي طُرحت فيه المجلّة في الأسواق، وسألتني: «هل رأيت نيوزويك؟» فأجبتها: «ليس بعد». فدمدمت: «لقد وصفوا أباك بالواهن!»

حصلت على نسخةٍ بسرعة فاستقبلني العنوان الصارخ: «محاربة عامل الوهن». لم أستطع أن أصدّق ذلك. كانت المجلّة تلمّح إلى أنّ والدي، الذي شارك في سلاح الطيران الحربيّ، خلال الحرب العالميّة الثانية، كان واهناً. اشتعلت من الغضب، وتحدّثت مع مارغريت على الهاتف. سألتني بأدب عن رأيي في القصّة. فقلت لها، بقلّة أدب، إنّني أعتقد أنّها جزء من كمين سياسيّ. فتمتمت شيئاً عن أنّ المحرّرين مسؤولون عن الغلاف. لم أتمتم بشيء، بل عيّرت المحرّرين وأقفلت الخطّ. ومنذ تلك اللحظة، لم أعد أثق بالصحفيّين السياسيين والمحرّرين غير المرئيّين.

بعد أن حلّ في المرتبة الثالثة في أيوا، استجمع والدي قواه في نيوهامبشاير وتمكّن من كسب الترشيح. وكان منافسه في الانتخابات العامّة حاكم ماساتشوستس الليبراليّ مايكل دوكاكيس. بدأت الحملة عندما ألقى أبي خطاباً عظيماً في مؤتمر نيو أورلينز. أدهشتني قوّة كلماته المكتوبة بأناقةٍ والمُلقاة بقوّة. تحدّث عن «دولةٍ أكثر لطفاً وكياسة»، يبنيها تعاطف الشعب الأميركيّ وسخاؤه، وهو ما وصفه بـ«ألف نقطة من الضوء. وأوجز جدول أعمال سياسيّاً قويّاً، بما في ذلك تعهّد جريء: «اقرأوا شفتيّ، لا ضرائب جديدة».

أعجبتُ بحسّ التوقيت المناسب عند والدي. فقد تمكّن من الانتقال بطريقة مثاليّة من موقع الموالي لنائب الرئيس إلى المرشّح. وخرج من المؤتمر وهو على قمة الإحصاءات، وبذل الجهد الأكبر في آخر مرحلة من السباق. في ٨ تشرين الثاني/

نوفمبر ١٩٨٨، شاهدت العائلة النتائج في منزل صديقنا الدكتور تشارلز نبلت في هيوستن. عرفت أنّ أبي قد فاز عندما تفوّق في الولايتين المهمّتين: أوهايو ونيو جيرسي. في نهاية الليل، كان قد ربح أربعين ولاية و ٤٢٦ صوتاً انتخابيّاً. وانتخب جورج هـ. و. بوش، الرجل الذي أُعجِبتُ به وعشقتُه، الرئيس الحادي والأربعين للولايات المتّحدة.

* * *

استمتعنا، أنا ولورا، بمدة سنة ونصف سنة قضيناها في واشنطن. ولكن عندما اقترح عليّ الناس أن أبقى في واشنطن وأستخدم معارفي من أجل الحصول على النفوذ، لم أهتمّ للأمر. لم أكن أريد أن أشارك في جماعة ضغطٍ أو أكون عالةً على إدارة والدي. بعد فترةٍ قصيرةٍ من انتهاء الانتخابات، حزمنا أمتعتنا لرحلة العودة إلى تكساس. كان لديّ سبب آخر لتغيير مكان سكني. قرب نهاية حملة والدي، تلقّيت مكالمة هاتفيّة مهمّة من شريكي السابق بيل ديويت. وكان والد بيل المالك السابق لفريق سينسيناتي ردز على اتّصال جيّد بمجتمع البيسبول. قال إنّه سمع أن إدي شيليز، وكان المالك الرئيسيّ لنادي تكساس رينجرز، يريد بيع الفريق. سألني إذا كنت مهتمّاً بالشراء، فكدت أقفز من مقعدي.

كان حلمي أن أملك فريق بيسبول. وكنت مصمّماً على تحقيق ذلك.

وكانت استراتيجيّتي أن أبذل جهدي لأجعل من نفسي المشتري المفضّل. انتقلت، مع لورا إلى دالاس، وزرت إدي وفران زوجته، بشكل متكرّر. وَعَدْتُه أن أكون قيّماً جيّداً على الامتياز الّذي كان يحبّه. قال لي: «عندك اسم مهمّ والكثير من الإمكانات. يا ابني، كنت أودُّ أن أبيع الفريق لك، ولكنّك لا تملك مالاً».

بدأت أبحث عن مستثمرين مُحتمَلين، ومعظمهم من الأصدقاء، في مختلف أنحاء البلد. عندما جادل المفوّض بيتر أوبيروث في أنّنا بحاجةٍ إلى عددٍ أكبر من المالكين المحلّيين، ذهبت لمقابلة المستثمر الناجح للغاية، في فورت وورث ويُدعى

ريتشارد راينووتر. كنت قد حاولت التقرّب من ريتشارد من قبل، ولكنّه رفض طلبي. أمّا هذه المرّة فكان متجاوباً. وافق ريتشارد على جمع نصف الأموال الّتي أحتاجها للحصول على الامتياز، إذا تمكّنت من جمع النصف الآخر. واتّفقنا على أن يكون صديقه راستي روز شريكاً في الإدارة.

ذهبت للقاء راستي في نادي الغولف بروك هولو في دالاس. بدا لي رجلاً خجولاً. لم يكن يتابع لعبة البيسبول، لكنّه كان بارعاً في المسائل الماليّة. وصفناه بالرجل الذي يهتمّ بالأرقام على المستوى الداخليّ، أمّا أنا فكنت الرجل الذي يتعامل مع الجمهور في الخارج.

بعد فترةٍ قصيرة، كنّا، أنا ولورا، في حفلةٍ خيريّةٍ رسميّة. كانت خططنا، للفريق قد تسرّبت، فأخذني أحد معارفي جانباً، وهمس: «هل تعلم أنّ راستي روز مجنون؟ في البداية اعتبرت كلامه بمثابة الثرثرة الغبيّة. ثمّ بدأت أقلق: ماذا عنى بـ«مجنون»؟

اتّصلت بريتشارد وقلت له ما سمعت، فاقترح أن أسأل راستي شخصيّاً. بدا الأمر محرجاً قليلاً. كنت بالكاد أعرف الرجل، فكيف يمكن لها سؤاله عن سلامة عقله؟ التقيت براستي في اجتماع بعد ظهر ذلك اليوم. وحالما دخلت قاعة المؤتمر مشى نحوي وقال «أفهم أنّ لديك مشكلةً مع حالتي العقليّة. يعاينني طبيب نفسانيّ، فأنا مريض. ماذا في ذلك؟»

اتّضح أنّ راستي لم يكن مجنوناً. كانت هذه طريقته المربكة في قول الحقيقة، وهي أنّه كان يعاني من اختلال في التوازن الكيميائيّ، إذا لم يُعالج بشكلٍ صحيح، يمكن أن يدفع عقله المشرق نحو القلق. شعرت بالصغر واعتذرت. أنا وراستي بنينا صداقةً عظيمة. ساعَدني على فهم أنّ الاكتئاب، الذي علمت لاحقاً أنّ أمّي عانت منه لفترة في حياتها، يمكن السيطرة عليه من خلال الرعاية المناسبة. بعد عقدين من الزمن، وقفت في المكتب البيضاويّ، مع عضوَيْ مجلس الشيوخ، بيت دومينيتشي

وتيد كنيدي، للتوقيع على مشروع قانون، يقضي بأنّ على شركات التأمين، أن تغطّي تكاليف علاج المرضى الذين يعانون من مرض عقليّ. فكّرت في صديقي راستي روز وأنا أوقّع. بوجود راستي وريتشارد في المجموعة المالكة، حصلنا على الموافقة لشراء الفريق[1].

اقترح إدي شيليز أن يقدّمنا للمشجّعين، بصفتنا المالكين الجدد، في يوم افتتاح الدوريّ سنة ١٩٨٩. مشينا على الحشائش الخضراء المورقة ومررنا بتلّة الرامي، حيث انضمّ إلينا إدي ومدرّب دالاس كاوبويز الأسطوريّ توم لاندري، الذي رمى أوّل طابة. التفتّ إلى راستي وقلت له: «هذا أفضل ما يمكن أن يحصل».

خلال المواسم الخمسة اللاحقة، حضرنا، أنا ولورا، حوالى خمسين أو ستّين مباراة في السنة. شاهدنا كثيراً من الانتصارات، كما تحمّلنا نصيبنا من الخسائر، وتمتّعنا بعدد لا يُحصى من الساعات الّتي قضيناها جنباً إلى جنب. أخذنا الفتاتين لحضور التدريب في الربيع، وجئنا بهما إلى الملعب قدر الإمكان. سافرت في جميع الأنحاء التي تعتبر سوقاً للرينجرز، وقمت بإلقاء الخطب لبيع التذاكر، والترويج للنادي،في وسائل الإعلام المحلّيّة. مع مرور الوقت، صرتُ مرتاحاً أكثر وراء المنبر، وتعلّمت كيفيّة التواصل مع جمهور، ونقل رسالةٍ واضحة. كما اكتسبت خبرةً قيّمةً في الإجابة على الأسئلة الصعبة الّتي يطرحها الصحفيّون، وفي هذه الحالة كان معظمها يتناول الطريقة غير المجدية التي يعتمدها الفريق في التناوب على رمي الكرة.

ساعدتني تجربة إدارة الرينجرز على شحذ مهاراتي الإداريّة. أنا وراستي، قضينا وقتنا بالاهتمام بالقضايا الماليّة والاستراتيجيّة الرئيسيّة، وتركنا القرارات التي تختصّ بالبيسبول لرجال البيسبول. عندما كان أحدهم لا يحقّق النتائج المرجوّة، كنّا نُجري تغييرات. لم يكن من السهل التخلّي عن أشخاصٍ لائقين، مثل بوبي فالنتاين، وهو مدير ديناميّ صار صديقي. ولكنّني حاولت إخباره ذلك بطريقة مدروسة، وتعامل مع

(١) أنا شاكر، بشكل خاصّ، للمفوّض بيتر أوبيروث، ورئيس رابطة البيسبول الأميركيّة بوبي براون، وجيري راينسدورف، ومن شيكاغو وايت سوكس، لمساعدتهم في مفاوضات عمليّة الشراء.

الأمر بطريقةٍ مهنيّة. كنت شاكراً عندما سمعته يقول، بعد سنوات: «أدليت بصوتي لصالح جورج و. بوش، على الرغم من أنّه صرفني من الخدمة».

عندما تولّينا، أنا وراستي، إدارة الفريق، كان قد سجلّ الرينجرز سبع سنوات من الخسارة من أصل التسع السابقة، بينما حقّق النادي رقماً قياسيًا، في الفوز بأربعة مواسم، من أصل الخمسة الأولى بعد وصولنا.

جلبت التحسينات عدداً أكبر من المتفرّجين إلى المدرّجات. ومع ذلك، كانت الجوانب الاقتصاديّة للعبة البيسبول، صعبة بالنسبة لفريقٍ صغيرٍ في السوق. لم نطلب من المجموعة المالكة زيادة رأس مال الفريق، لكنّنا أيضاً لم نوزّع الأموال نقداً.

أدركنا، أنا وراستي، أنّ أفضل وسيلةٍ لزيادة قيمة الامتياز، على المدى الطويل، تكمن بتطوير الملعب. كان الرينجرز فريقاً في الدوريّ الرئيسيّ يلعب في ملعب من مستوى الدوريّ الثانويّ. فقمنا بتصميم نظام تمويلٍ خاصّ، لبناء مدرّجٍ جديد. لم اعترض على زيادة مؤقتة على ضريبة المبيعات لتمويل الملعب، إذا كان المواطنون المحلّيّون لديهم الفرصة للتصويت على ذلك. مرّ القرار بهامش ما يقرب من اثنين إلى واحد.

بفضل الدور القياديّ لتوم شيفر ـ وهو نائب ديمقراطيّ سابق، قام بالإشراف على مشروع الملعب، ببراعة، ممّا جعلني أطلب منه، لاحقاً، أن يكون سفيراً في استراليا واليابان ـ كان الملعب الجديد والجميل جاهزاً للافتتاح يوم بداية الدوريّ سنة ١٩٩٤. في السنوات التالية، جاء الملايين من سكّان تكساس لمشاهدة المباريات في الملعب الجديد. كان الشعور عظيماً بالإنجاز، وكنت جزءاً من فريق الإدارة الذي جعل ذلك ممكناً. ولكن في ذلك الوقت، بدأتُ أفكّر في نوعٍ آخر من المنافسة.

* * *

بعد أن اشترينا فريق الرينجرز سنة ١٩٨٩، بدأتْ حملات سنة ١٩٩٠ لانتخاب

حاكم ولاية تكساس. اقترح عليّ كثير من الأصدقاء، في السياسة، أن أترشّح، فشعرت بالإطراء، ولكنّني لم أفكّر بالأمر بجدّيّة.

تركّز الجزء الأكبر من عملي السياسيّ على والدي. في غضون بداية ولايته كرئيسٍ للبلاد، واجه تحوّلات زلزاليّة في العالم. فسقط جدار برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩، من دون أيّ مؤشراتٍ تقريباً. وأعجبت بطريقة أبي في إدارة الوضع.

عرف أنّ التدخّل بقوّة يمكن أن يثير السوفييت، وهم في حاجةٍ إلى الوقت والمجال للانتقال من الشيوعيّة سلميّاً. وبفضل دبلوماسيّة والدي المتواصلة عند نهاية الحرب الباردة ـ وردوده القويّة على العدوان في بنما والعراق ـ كان في البلاد ثقة هائلة بسياسة الرئيس جورج بوش الخارجيّة. لكنّني كنت قلقاً على الاقتصاد، الذي صار بطيئاً في سنة ١٩٨٩. بحلول سنة ١٩٩٠، خشيت من حصول ركود، فصفّيت ممتلكاتي الضئيلة وسدّدت القرض الذي حصلت عليه لشراء حصّتي في رينجرز. تمنّيت أن يكون أيّ تراجع مؤقّتاً، من أجل الوطن ومن أجل والدي.

وفي الوقت نفسه، كان على والدي أن يقرّر إذا كان سيترشّح مجدّداً. قال لي، بينما كنّا نصطاد، في ولاية ماين، في صيف سنة ١٩٩١: «يا بُني، لستُ متأكّداً من أنني سأترشح مرّةً أُخرى».

فسألته: «حقّاً؟ لماذا؟»

أجابني: «أشعر بأنّني مسؤول عمّا حدث لنيل».

كان أخي نيل قد عمل كعضوٍ في مجلس سيلفرادو، وهي مؤسّسة للمدّخرات والقروض في ولاية كولورادو وكانت قد أفلست. فاعتقد أبي أنّ نيل تعرّض لهجماتٍ قاسيةٍ من الصحافة لأنه نجل الرئيس. شعرت بالأسى على نيل،كما كنت أتفهّم معاناة والدي. ولكنّ البلاد كانت بحاجةٍ لقيادة جورج بوش. شعرت بالارتياح عندما قال أبي: إنّه سيترشّح للمرّة الأخيرة.

بدأت الحملة لإعادة انتخاب أبي بطريقة سيّئة. الدرس الأوّل في سياسة

الانتخابات هي توطيد القاعدة. ولكن في سنة ١٩٩٢، كانت قاعدة أبي قد تآكلت. وكان السبب الأوّل تراجع والدي عن تعهّده بعدم رفع الضرائب، بما ارتبط بتلك العبارة الشائنة «اقرأوا شفاهي» من خطابه سنة ١٩٨٨. قَبِل أبي زيادة الضرائب من الكونغرس الديمقراطيّ في مقابلٍ لجم الإنفاق. وعلى الرغم من أنّ قراره أفاد الميزانيّة، فقد شكّل ذلك خطأً سياسيّاً.

تحدّى بات بوكانان، وهو المعلِّق اليمينيّ المتطرّف، والدي في انتخابات نيو هامبشاير الأوّليّة، ففاز بـ٣٧ في المئة من الأصوات، وكانت تلك نتيجة خطيرة. وممّا زاد الطين بلّة، أن ملياردير تكساس، روس بيرو، قرّر شنّ حملةٍ خارجيّة. ركّز على المحافظين المصابين بخيبة أمل، مستخدماً حديثه عن مكافحة العجز والتجارة. وكان أحد مراكز حملة بيرو، في الجهة المقابلة من الشارع، حيث يقع مكتبي في دالاس. كان مجرّد النظر من النافذة يشبه مشاهدة استطلاعٍ يومي للرأي. اصطفّت سيّارات الكاديلاك، وسيّارات الدفع الرباعيّ، لأخذ الملصقّات واليافطات الداعمة لبيرو. أدركت أنّ أبي سيخوض معركةً على جبهتين لإعادة انتخابه، ضدّ بيرو، من جهة، وضدّ المرشح الديمقراطيّ، من جهة أخرى.

بحلول ربيع سنة ١٩٩٢، صار واضحاً أنّ المرشّح الديمقراطيّ سيكون حاكم ولاية أركنساس بيل كلينتون. وكان كلينتون يصغر أبي باثنين وعشرين عاماً، ويصغرني بستّة أسابيع. شكّلتِ الحملةُ بدايةَ تحوّل في السياسة الأميركيّة، على مستوى الأجيال. حتّى تلك المرحلة، كان كلّ رئيس، منذ أيّام فرانكلين روزفلت، قد خدم في الحرب العالميّة الثانية، سواء في الجيش أو كقائدٍ للقوّات المسلّحة. وبحلول سنة ١٩٩٢، كوّن جيل الطفرة السكانيّة والجيل الأصغر سنّاً نسبةً هائلةً من الناخبين. وهؤلاء، بطبيعة الحال، مالوا إلى دعم شخصٍ من جيلهم. وكان كلينتون ذكيّاً، بما فيه الكفاية، للابتعاد عن مواطن القوّة في سياسة والدي الخارجيّة. ميّز القلق الاقتصاديّ في البلاد، وترشّح على أساس رسالة منضبطة: «إنه الاقتصاد، يا غبيّ».

بقيتُ على اتّصال وثيق مع أبي، طوال سنة الانتخابات. وبحلول أوائل صيف

سنة ١٩٩٢، كانت الحملة تراوح مكانها. قلت لأبي: إن عليه أن يفكّر في خطوة جريئة لتغيير ديناميّات المنافسة. وكان أحد الاحتمالات أن يبدّل نائب الرئيس دان كويل، بشخص آخر، ليترشّح معه، على الرغم من محبّتي واحترامي لكويل. اقترحت على أبي أن ينظر في إمكانيّة ترشيح وزير الدفاع ديك تشيني. وكان ديك ذكيّاً، وجدّيّاً، وقويّاً وذا خبرة. قام بعملٍ رائع في الإشراف على الجيش، خلال عمليّة تحرير بنما وحرب الخليج. رفض أبي الاقتراح، واعتقد أنّ هذا التحرك سيبدو يائساً ويحرج دان. حين أعيد التفكير بالأمر، لا أعتقد أنّ أبي كان سيحقّق نتيجة أفضل لو ترشّح مع شخص آخر كنائبٍ له. لكنّني لم أتخلَّ تماماً عن فكرتي، بشأن بوش وتشيني.

التغيير الوحيد الذي قام به والدي هو أنّه أعاد وزير الخارجيّة جيمس بايكر إلى البيت الأبيض كرئيس للموظّفين. صارت الحملة أكثر سلاسةً بوجود بايكر، وبدأ الناخبون التركيز على بوش، مقابل كلينتون، فبدأ الفارق في الاستطلاعات يضيق. قبل أربعة أيّام من الانتخابات، قام لورانس والش، وهو المدّعي العام المكلّف بالتحقيق في فضيحة إيران كونترا في إدارة ريغان، باتّهام وزير الدفاع السابق كاسبار واينبرغر، فسيطر الاتّهام على الأخبار وخفّف زخم الحملة. لاحقاً وصف المحامي الديمقراطيّ روبرت بينيت، الذي دافع عن كاسبار، الاتّهامَ «كإحدى أعظم الإساءات لسلطة الادّعاء التي واجهها في أيّ وقت مضى». وعبّر ذلك عن عدم استقلاليّة القضاء المستقلّ.

في الأيّام الأخيرة، قبل الانتخابات، اقترح عليّ أخي مارفن أن أقوم بالحملة، مع أبي، للمساعدة في الحفاظ على معنويّاته عالية. وافقت على القيام بذلك، رغم أنّني لم أكن متفائلاً. وما أثار حفيظتي، بشكل خاصّ، هو السلك الصحفيّ الذي اعتبرته هيئة تشجيع لبيل كلينتون. في إحدى آخر محطّات الحملة، اقترب منّي اثنان من الصحفيّين، بالقرب من طائرة الرئيس، وسألاني عن الأجواء على متن الطائرة الرئاسية. الجواب المتوقّع من المخضرمين سياسيّاً، من المفترض أن يأتي على نحو

تفاهة، مثل «يشعر أنّ بإمكانه تسلّق هذا التلّ». بدلاً من ذلك، أطلقت العنان لنفسي وقلت للصحفيّين إنني أظنّ أنّ مقالاتهم متحيّزة. بالإضافة إلى كون لهجتي قاسية، كنت وقحاً. ولم يكن هذا القول المفاجئ الغاضب هو التعليق الوحيد الصادر عنّي خلال الحملة.

لقد صار لي في السلك الصحفيّ سمعة شخص متهوّر، وكنت أستحقّ ذلك. ما لم يفهمه الصحفيّون هو أنّ حالات الثوران الّتي كنت أمرّ بها سببها المحبّة، وليس السياسة.

جاءت ليلة الانتخابات، ولم يربح والدي. فاز بيل كلينتون بـ٤٣ في المئة من الأصوات، أمّا أبي فحصل على ٣٧,٤ في المئة، وحصل روس بيرو على ١٨,٩ في المئة، بما في ذلك الملايين من الأصوات التي كان من الممكن أن يحصل عليها جورج بوش. تعامل أبي مع الهزيمة بنبله المميّز. في وقتٍ مبكّرٍ من مساء ذلك اليوم اتّصل ببيل لتهنئته، واضعاً حجر الأساس لإحدى أغرب الصداقات في التاريخ السياسيّ الأميركيّ.

تربّى أبي على الروح الرياضيّة. لم يرمِ اللوم على أحد، ولم يشعر بالمرارة. ولكنني كنت أعرف أنّه كان يتألّم. وكانت المَسألة كلّها تجربةً بائسة. مشاهدة رجلٍ طيّبٍ يخسر، جعل سنة ١٩٩٢ واحدة من أسوأ سنوات حياتي. في اليوم الذي تلا الانتخابات، قالت أمّي: «حسناً، الآن صار الأمر وراءنا. وحان الوقت للمضيّ قُدُماً». لحسن حظي كان موسم البيسبول قد اقترب. في غضون ذلك، تدرّبتُ للمشاركة بماراثون هيوستن، الذي جرى في ٢٤ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٩٣، أي أربعة أيّام، بعد أن غادر أبي الرئاسة رسميّاً. كنت محافظاً على وتيرة ٨:٣٣ لكلّ ميل عندما مررت بالكنيسة الّتي يذهب إليها والداي، وكنت قد ركضت تسعة عشر ميلاً تقريباً. وكان قدّاس الساعة التاسعة والنصف قد انتهى للتوّ، وكانت عائلتي مجتمعةً على الرصيف. شعرت بقوّةٍ إضافيّةٍ عزّزت تقدّمي، وشجّعني أبي بطريقته المعتادة فصاح: «هذا ابني!» أمّا أمّي فكان أسلوبها مختلفاً. صرخت: «تابع الركض، يا جورج!

بعض البدناء يسبقونك!». أنهيتُ السباق في ثلاث ساعات وأربع وأربعين دقيقة. وشعرت بأنّني أصغر بعشر سنوات عند النهاية، وأكبر بعشر سنوات في اليوم التالي.

* * *

ساعد الماراثون على تخليصي من خيبة الأمل التي شعرت بها سنة ١٩٩٢، تماماً كما ركضت في السابق لتخليص جسدي من الكحول. بينما بدأ الألم يتلاشى، حلّ شعور جديد محلّه: الحماس لخوض الانتخابات مجدّداً. بدأت تدريجاً. عندما عدنا، أنا ولورا، إلى ولاية تكساس، سنة ١٩٨٨، صرتُ أكثر وعياً للتحدّيات التي تواجه الدولة. كان نظامنا التعليميّ في ورطة. وكان الأطفال الذين لا يستطيعون القراءة، أو لا يفهمون الرياضيات، يمرّون عبر المؤسّسة التعليميّة من دون أن يبذل أحد جهداً للتحقّق ممّا تعلّموه، أو حتّى إذا كانوا قد تعلّموا شيئاً.

وكان الوضع القانونيّ، في دولتنا، مزحةً وطنيّة. ففي تكساس، كان المحامون الذين يعملون على قضايا الإصابة الشخصيّة، يحصلون على أحكام هائلة، بالنسبة للتعويضات. وبالتالي يبعدون الوظائف عن الولاية. كذلك تزايدت جرائم الأحداث. وكنت قلقاً من ثقافة «إذا كان الأمر يشعرك بالارتياح، فافعل ذلك»، «وإذا كان عندك مشكلة، فألقِ اللوم على شخصٍ آخر».

كانت انعكاسات هذا النهج مثيرة للقلق. فمزيد من الأطفال يولدون خارج نطاق الزواج. ومزيد من الآباء يتنحّون عن مسؤوليّاتهم. وحلّ الاعتماد على الرعاية الاجتماعيّة محلّ حافز العمل.

كانت خبراتي التي اكتسبتها من حملات والدي وإدارة الرينجرز قد شحذت مهاراتي السياسيّة والإداريّة، وقدرتي على التواصل. أمّا الزواج وإنشاء أسرة، فساهما في توسيع وجهة نظري .وكان أبي الآن خارج السياسة. تحوّلت خيبة أملي لخسارته إلى إحساس بالتحرّر. وصار بإمكاني وضع سياسات خاصّة بي من دون الحاجة للدفاع عن سياساته. اضمحلّ قلقي من أنّ قراراتي ستعطّل رئاسته، وأصبحت حرّا للترشّح بمفردي.

لم أكن الوحيد في العائلة الذي توصّل إلى هذا الاستنتاج. ففي ربيع سنة ١٩٩٣، قال لي جيب إنّه يفكّر جدّياً بالترشّح لمنصب حاكم ولاية فلوريدا. ولسخرية القدر، قدّمت لنا هزيمة والدي المسؤول فرصاً. وما بدا أوّلاً، نهايةً محزنةً لقصّةٍ عظيمة، صار بدايةً غير متوقّعةٍ لسيرتين مهنيّتين جديدتين. لو فاز أبي في سنة ١٩٩٢، أشكّ في أنني كنت سأخوض الانتخابات سنة ١٩٩٤، وكان من شبه المؤكّد أنّني ما كنت سأصير رئيساً.

وكان السؤال الكبير هو كيفيّة المشاركة. طلبتُ المشورة من صديقٍ مقرّب، وهو خبير السياسة الاستراتيجيّة كارل روف. التقيت كارل، للمرّة الأولى، في سنة ١٩٧٣، عندماكان أبي رئيساً للّجنة الوطنيّة للحزب الجمهوريّ، وكان كارل رئيساً للجمهوريّين في الجامعات. افترضت أنّه من نوع سياسيّي الحرم الجامعيّ الذين لم يروقوا لي في جامعة ييل. ولكنّني اكتشفت بسرعة أنّ كارل مختلف. لم يكن متعجرفاً أو متكبّراً، كما كان من المؤكّد أنّه خارج نمط مدير الحملة الظريف. كان كارل مثل العالِم السياسيّ المجنون، مفكّراً ومضحكاً، ومليئاً بالطاقة والأفكار.

لا أعرف أحداً قرأ أو استوعب، في مجال التاريخ، أكثر من كارل. أقول ذلك بثقة لأنّني حاولت مواكبته. فمنذ بضع سنوات، تنافسنا في مسابقة قراءة كتب. أحرزت تقدّماً مبكّراً. فاتّهمني كارل بكسب تقدّم غير عادل عن طريق اختيار أعمال قصيرة. بعد ذلك، لم نعد نقيس التقدّم بعدد الكتب فقط، ولكن أيضاً بعدد الصفحات والمساحة الإجماليّة. قبل نهاية السنة، كان صديقي قد فاز في جميع الفئات[1].

لم يقم كارل بجمع المعرفة فقط. فقد درس استراتيجيّة ويليام ماكينلي لانتخابات سنة ١٨٩٦. في سنة ١٩٩٩ أشار عليّ بتنظيم حملة شعبيّة مماثلة. اتّضح أنّ هذا النهج حكيم وفاعل. أسفتُ لأنّني لم أتعاون مع كارل خلال حملتي لدخول الكونغرس سنة ١٩٧٨. ولم أكرّر هذا الخطأ مرّةً أخرى.

(١) كان الرصيد النهائيّ ١١٠ مقابل ٩٥ في الكتب، و٤٠٣٤٧ مقابل ٣٧٣٤٣ في الصفحات، و٢٢٧٥٢٩٧ مقابل ٢٠٣٢٠٨٣ في مجموع الإنشات المربّعة.

في سنة ١٩٩٣، وجدنا، أنا وكارل، فرصةً سياسيّة. وكان هناك اعتقاد بأنّ إعادة انتخاب حاكم ولاية تكساس، آن ريتشاردز، في تشرين الثاني/نوفمبر المقبل، مضمونة. كأوّل امرأةٍ تحكم تكساس منذ الثلاثينيات، كانت آن ريتشاردز رائدةً في السياسة. وكان لديها مؤيّدون كثُر بين الديمقراطيّين في البلاد، واعتقدَ كثير من الناس أنّ لديها فرصةً لتصير رئيساً أو نائباً للرئيس، يوماً ما.

على الرغم من أنّ الجميع كان مقتنعاً بشعبيّة الحاكم،كان رأيي ورأي كارل أنّها لم تحقّق الكثير. أخبرني كارل أنّ تحليله يفيد بأنّ كثيراً من مواطني تكساس ـ وحتّى بعض الديمقراطيّين ـ قد يكونون منفتحين لفكرة مرشّح لديه برنامج جادّ لتحسين حال الولاية.وكان ذلك ما ظننته بالضبط.

في انتخابات ربيع ١٩٩٣ الخاّصة، وضعت الحاكمة ريتشاردز مشروعاً لتمويل المدارس قيد الاقتراع. وهدفت خطّتُها الّتي عُرفت بـ«روبن هود» إلى إعادة توزيع الأموال من المناطق الغنيّة إلى الفقيرة. أحبط الناخبون تلك الخطّة بهامش لا بأس به. بينما كنّا، أنا ولورا، نشاهد نتائج الانتخابات في تلك الليلة، استمعنا إلى مقابلة أجرتها آن ريتشاردز. كانت مُحبَطة بسبب الهزيمة، وقالت ساخرة: «نحن جميعاً ننتظر، بفارغ الصبر، أيّ اقتراحات وأفكارٍ واقعيّة».

التفتّ إلى لورا وقلت: «لديّ اقتراح. قد أترشّح لمنصب الحاكم.»فنظرت إليّ كأنّني مجنون وسألتني: «هل أنت تمزح؟» فأخبرتها أنّني جادّ. قالت: «لكن لدينا حياة عظيمة». فأجبتها: « هذا صحيح». كنّا مرتاحين جدّاً في دالاس، وكنت أحبُّ عملي مع الرينجرز، وكانت ابنتانا ناجحتين.ولكنّ العدوى السياسيّة أصابتني مرّة أخرى، وعرفنا ذلك

* * *

كلّما تحدّثت عن موضوع انتخابات الحاكم، سمعت الشيء نفسه: «شعبيّة آن ريتشاردز أكيدة». استشرتُ بعض الاستراتيجيين السياسيّين الذين عملوا مع والدي

سابقاً، فاقترحوا عليّ، بلباقةٍ، أن أنتظر بضع سنوات. عندما حسمت أمري وقرّرت الترشّح، قالت لي أمّي: «يا جورج، لا يمكنك الفوز».

الأمر الجيّد هو أنّ المجال كان مفتوحاً لي بين الجمهوريّين. لا أحد يريد تحدّي ريتشاردز، لذلك كان بإمكاني أن أنقل انتباهي فوراً إلى الانتخابات العامّة. اتّخذت مقاربةً منهجيّةً وعرضت رؤيةً محدّدةً ومتفائلةً للدولة. ركّزت على أربع قضايا: التعليم، وقضاء الأحداث، وإصلاح نظام الرعاية الاجتماعيّة، وإصلاح قانون التعويض عن الأضرار.

كوّنّا فريقاً ماهراً وقادراً للحملة[1]. وقمت بتعيين شخصين مهمّين. الأوّل جو أولبو، وهو رجل مهيب طوله حوالى مترين، شعره قصير، ويتصرّف كقائدٍ مدرّب، كان قد شغل منصب رئيس الموظّفين لحاكم أوكلاهوما هنري بلمون. أحضرت جو لتشغيل هذه الحملة، وقام بعمل رائع في الإدارة.

كذلك وظّفت مديرة اتّصالات جديدة، تُدعى كارين هيوز. التقيت كارين أوّل مرّة خلال المؤتمر الوطنيّ للحزب سنة ١٩٩٠. قالت لنا: «سوف أعطيكم التعليمات حول واجباتكم». ثمّ ألقت الأوامر. لم يكن عندي شكّ في أنّ هذه المرأة كانت مسؤولة. عندما أخبرتني أنّ والدها كان جنرالاً بنجمتين، توضّح كلّ شيء.

بقيت على اتّصال بكارين بعد المؤتمر. كانت شخصيّتها دافئة وضحكتها كبيرة. كمراسلة سابقة في التلفزيون، فهمتْ وسائل الإعلام وأجادت فن الكلام. كانت علامة جيّدة لي عندما جاءت لسماع خطابي في خريف سنة ١٩٩٣، وكان سهلاً عليّ إيجادها لأنّ ابنها روبرت كان جالساً على كتفيها. أعجبتني كارين لأنّها من

(١) شمل الفريق صديقي جيم فرانسيس رئيساً؛ دون إيفانز مديراً ماليّا؛ كارل روف مخطّطاً استراتيجيّاً أعلى؛ فانس ماكماهون المحامي المتخرّج من ستانفورد مديراً للسياسة؛ المسؤولة السابقة في رابطة مجالس المدارس في تكساس، مارغريت لاموتانيو، مديراً سياسيّاً؛ دان بارتليت، وهو خرّيج حديث في جامعة تكساس في فريق الاتّصالات؛ وإسرائيل هيرنانديز، وهو متخرّج دؤوب من جامعة تكساس، وقد تولّى المساعدة في السفر، وتخفيف الضغط عنّي وعن لورا.

الأشخاص الذين يضعون أسرتهم في المرتبة الأولى. وكان اليوم الذي التزمت فيه بالحملة أحد أفضل الأيّام في مسيرتي السياسيّة.

بدأت حملتي بتوليد الحماس، ممّا أثار اهتمام وسائل الإعلام المعنيّة بالأخبار الوطنيّة. عرف الصحفيّون سمعتي كشخصٍ متحمّس، وسيطر نقاش حول متى سأنفجر. عملت آن ريتشاردز ما بوسعها لاستفزازي. دعتني «أحمق ما» و«شجيرة»، لكنّني لم أستدرج إلى الانفعال. فشل معظم الناس أن يفهموا أنّ هناك فرقاً كبيراً بين حملة أبي وحملتي. كنجل مرشّح، تصرّفتُ عاطفيّاً ودافعتُ عن جورج بوش مهما كان الثمن. وكمرشّح، أدركت بأنّني يجب أن أقيس تصرّفاتي وأكون منضبطاً. فالناخبون لا يريدون زعيماً ينفجر غضباً ويجعل لهجة النقاش فظّة. وكانت أفضل طريقة ردّ على الانتقادات هي الفوز في الانتخابات.

في منتصف تشرين الأول/أكتوبر، التقينا أنا وآن ريتشاردز، في أحد نقاشاتنا المتلفزة. كنت قد درست التعليمات وتمرّنت على مناقشاتٍ وهميّة. قبل أسبوع من الليلة الكبيرة، فرضت حظراً على النصائح. فقد شهدت على بعض التحضيرات للنقاشات التي شارك فيها والدي. كنت أعرف أنّه يمكن أن يغرق المرشّح بسهولة في اقتراحات اللحظة الأخيرة. وكانت عبرتي القديمة المفضّلة «كن نفسك، ببساطة». أنا لا أمزح. أمرت بأن تمرّ كلّ النصائح الخاصّة بالنقاش عبر كارين. إذا وجدت إحداها ضروريّة، توصلها إليّ. وخلاف ذلك، حافظت على ذهني واضحاً ومركّزاً.

في ليلة النقاش كنّا، أنا وكارين، في المصعد عندما دخلت آن ريتشاردز. صافحتها وقلت: «حظّاً سعيداً، أيّها الحاكم». فقالت لي بصوتٍ هادرٍ: «ستكون الليلة صعبة عليك، يا صبيّ».

كانت لعبة كلاسيكيّة في المنافسة، ولكنّ تأثيرها كان عكس المقصود، إذا كانت تحاول تخويفي، فخمّنت أنّها تشعر بالقلق. ابتسمتُ لها ابتسامةً عريضة، ومرّت المناقشة على خير. كنت أعرف ما يكفي عن السياسة، لأعرف أنّه لا يمكن الفوز حقّاً بنقاش. يمكن أن نخسر إذا تفوّهت بشيء تافهٍ أو بدوت مرهقاً أو عصبيّاً.

في هذه الحالة، لم أكن لا متعباً ولا عصبيّاً. دافعت عن رأيي بثقة وتجنّبت أيّ أخطاء كبيرة.

كالعادة، جلبتْ الأسابيع الأخيرة بعض المفاجآت. قام روس بيرو بالتأثير على المناقشة عبر تأييد آن ريتشاردز. ولم تزعجني المسألة، فقد كنت دائماً أعتقد أنّ هناك مبالغةً في تأثير التأييد في السياسة. فنادراً ما يساعد، وأحياناً يؤذي. قلت لأحد الصحفيّين: «يمكنها أن تحتفظ بروس بيرو. أنا عندي نولان ريان وباربرا بوش». لم أضف أنّ والدتي كانت لا تزال تعتقد بأنّه لا يمكنني الفوز.

عندما جاءت النتائج، في ليلة الانتخابات، كنت مبتهجاً. حقّقنا ما سمّته صحيفة دالاس مورنينغ نيوز «ما كان مستحيلاً تصوّره في السابق»، واعتبرت صحيفة نيويورك تايمز الأمر «مفاجأة مذهلة». اتّصل بي أبي في أوستن ماريوت، حيث كان يتجمّع أنصاري. قال لي: «تهانيّ، يا جورج، على فوزٍ عظيم، لكن يبدو أنّ جيب سيخسر». شعرت بالحزن على أخي، الذي كان قد عمل بجدّ واستحقّ الفوز. ولكن لا شيء أزال الفرح الذي شعرت به وأنا في طريقي إلى قاعة فندق ماريوت لتقديم خطاب النصر.

* * *

كان موعد تولّي الحكم يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩٥. بينما كنت أستعدّ، في غرفة الفندق، قبل الحفل، سلّمتني أمّي مغلّفاً احتوى على زوجٍ من أزرار الأكمام، ورسالة من والدي يقول فيها:

> *عزيزي جورج، هذه الأزرار هي أغلى ما عندي. أعطاني إيّاها أمّي وأبي في ٩ حزيران/يونيو سنة ١٩٤٣، عندما أصبحت ضابط بحرية في كوربوس كريستي. أريدك أن تحصل عليها الآن لأنك، على الرغم من حصولك على رتبة ضابط طيران في الحرس الوطني الجوي، أنت تحصل عليها مجدّداً، مرّةً أخرى، حين تقسم اليمين الدستورية كحاكمٍ لولايتنا.*

وعبّر عن مدى فخره، وكتب أن بإمكاني دائماً أن أعتمد على حُبّه وحُبّ أمّي. واختتم قائلاً:

أعطيتنا أكثر ممّا استحققنا في أيّ وقتٍ مضى. ضحّيت من أجلنا. أعطيتنا ولاءك وتفانيك الذي لا يتزعزع. والآن جاء دورنا.

أبي ليس من النوع الذي يقول شيئاً من هذا القبيل مجاملة. كانت الرسالة المكتوبة بخطّ يده أسلوبه في التعبير، وكلماته عنت الكثير. في ذلك الصباح شعرت بصلةٍ قويّة بالتقاليد العائليّة لخدمة الوطن، والّتي كنت أكملها الآن، بطريقتي الخاصّة.

* * *

لم أكن بحاجةٍ إلى وقتٍ لتنظيم جدول أعمالي كحاكم. فقد قضيت السنة السابقة وأنا أخبر الجميع بما كنت أرغب في تحقيقه بالضبط. كثيراً ما اعتقدت أنّ الحملة ليست منبراً يُستخدم للحصول على الأصوات الانتخابيّة فحسب، بل هي أيضاً الأساس لما تفعله حين تتولّى المنصب.

كان لديّ سبب آخر للتحرّك بسرعة. في ولاية تكساس يجتمع المجلس التشريعيّ ١٤٠ يوماً فقط كلّ سنتين. كان هدفي تمرير مبادراتي السياسيّة الأربع عبر المجلسين في الدورة الأولى.

ولتحقيق ذلك، كنت بحاجة إلى علاقاتٍ جيّدةٍ مع السلطة التشريعيّة. وبدأ ذلك بنائب الحاكمة الذي يشغل منصب رئيس مجلس شيوخ الولاية ولجان المقاعد، كما يقرّر مسار الفواتير. يُنتخَب النائب بشكلٍ منفصلٍ عن الحاكم، وهذا يعني إمكانية أن يكون المسؤولان الأعلى رتبة من أحزاب معارضة، كما كانت حالي وحال نائب الحاكم بوب بولوك.

كان بولوك أسطورةً في عالم السياسة في ولاية تكساس. خدم في المنصب القويّ الخاصّ بمراقب الولاية لمدّة ستّ عشرة سنة، قبل انتخابه نائباً للحاكم سنة ١٩٩٠. أدار مجلس الشيوخ بيد حديديّة، وأبقى موظّفين سابقين عنده وأصدقاء له

في وكالات في جميع المراكز الحكومية، الأمر الذي وفّر له معرفةً جيدةً بكلّ ما يجري. كان عند بولوك القدرة على جعل حياتي بائسة. من ناحية أخرى، إذا تمكّنت من إقناعه بالتعاون معي، سيصير حليفاً لا يُقدّر بثمن.

قبل بضعة أسابيع من الانتخابات، اقترح عليّ جو أن أجتمع سرّاً مع بولوك. فانسحبتُ عصر أحد الأيّام الهادئة وسافرتُ إلى أوستن. فتحت لي الباب زوجة بولوك، وتدعى جانّ. هي امرأة جميلة وابتسامتها دافئة، ثمّ ظهر بولوك. كان رجلاً مريراً ومتعباً. تزوّج خمس مرّات بأربع نساء، وكانت جانّ زوجته الأخيرة وحُبّ حياته. كان قد تزوّجها مرّةً واحدةً فقط. في الماضي كان بولوك يشرب كثيراً من الكحول. وهناك قصّة مشهورة عن إحدى المرّات حين سكِر وأطلق بندقيّته في مبولة في مكانٍ عامّ. كان يدخّن بلا انقطاع، على الرغم من أنّه فقد جزءاً من رئة واحدة. عاش هذا الرجل بالطريقة الصعبة. مدّ يده وقال: «أنا بولوك. تفضّل».

أخذني إلى مكتبه. بدا المكان مثل مكتبة للأبحاث مليئة بأكوام من الوثائق والتقارير والبيانات. وضع بولوك ملفّاً ضخماً على الطاولة أمامي، وقال: «هذا تقرير عن قضاء الأحداث». كان يعلم أنّ حملتي تستند جزئيّاً على إصلاح قضاء الأحداث، واقترح أن أدرس بعض أفكاره. ثمّ أخرج تقارير مماثلةً لإصلاح التعليم والضمان الاجتماعيّ. تحدّثنا لمدّة ثلاث أو أربع ساعات. كان بولوك يؤيّد آن ريتشاردز، لكنّه أوضح أنّه سيتعاون معي إذا فزت.

كان الشخص الآخر المؤثّر بالقرارات التشريعيّة رئيس مجلس النوّاب، بيت لايني. كان بيت مثلي من غرب تكساس، ومزارع قطن، من هايل سنتر، وهي بلدة ريفيّة بين لوبوك وأماريلو، وكنت قد زرتها خلال حملتي سنة ١٩٧٨. كان بيت رجُلاً رزيناً، في حين مال بولوك إلى اظهار استراتيجيّته ــ وبقوّة في بعض الأحيان ــ كان لايني حذراً. كان ديمقراطيّا، وله حلفاء في الحزبين على حدّ سواء.

بعد أن تولّيت منصبي بوقتٍ قليل، اتّفقت مع بيت وبوب على أن نتناول وجبةً،

مرّةً أسبوعيّاً. في بادىء الأمر، كانت وجبات الطعام فرصة لتبادل القصص ومساعدتي على فهم السلطة التشريعيّة. وعندما بدأت أتقدّم بمشاريع القوانين الجديدة، صارت وجبات الفطور اجتماعات استراتيجيّة مهمّة. بعد شهرين من بداية الدورة التشريعيّة، كان بولوك قد مرّر عدداً من مشاريع القوانين المهمّة من خلال مجلس الشيوخ. وكان معظمها لا يزال ينتظر في مجلس النوّاب.

أراد بولوك تحريك القضايا، وأحاط لايني عِلماً بالأمر. بينما كنت أتناول بهدوء طعام الفطور، المؤلّف من الفطائر ولحم الخنزير المقدّد والقهوة، قال بيت لنائب الحاكمة إنّ إقرار مشاريع القوانين سيُنجز. كان بولوك يتّقد غضباً، وبعد فترةٍ قصيرةٍ بدأ يغلي، ثم نظر في وجهي مباشرةً وصرخ: «أيّها الحاكم، سوف... وسأجعلك تبدو مثل الأحمق».

فكّرت للحظة ووقفت، وسرت نحو بولوك، وقلت: «إذا كنت... فمن الأفضل أن تقبّلني أوّلاً».

واحتضنته مازحاً، لكنّه تملّص وخرج من الغرفة. فضحكنا، أنا ولايني. لقد فهم كلّ منّا أنّ خطبة بولوك لم تكن موجّهة إليّ. كانت طريقته في القول للايني إن الوقت قد حان للحصول على إقرار مشاريع القوانين في مجلس النوّاب.

لن أعرف أبداً إذا كان لرسالة بولوك تأثير على لايني. ولكن بفضل سعينا الجادّ نحن الثلاثة، بدأتْ التشريعات المتعلّقة بالتعليم وقضاء الأحداث والإصلاح الاجتماعيّ تتحرّك بسرعة. أمّا البند الأكثر تعقيداً، المدرج في جدول الأعمال، فكان يتعلّق بإصلاح مسألة التعويض عن الأضرار. كان كبحُ جماح الدعاوى الفاسدة ضروريّاً كي لا تنتقل الوظائف من الولاية. ولكن كانت هناك معارضة قويّة من جماعة محامي المحاكم التي كانت تملك نفوذاً وتمويلاً جيّدا. وفي ما يخصّ هذه المسألة كان لي حليف هو دايفيد سيبلي، وهو سيناتور جمهوريّ في الولاية، أصله من واكو، ويشغل منصب رئيس اللجنة المشرفة على القضيّة.

في إحدى الليالي، في أوائل الدورة التشريعيّة، دعوتُ دايفيد لتناول العشاء. كنّا قد بدأنا للتوّ بتناول الطعام عندما تلقّى دايفيد مكالمةً هاتفيّةً من بولوك. أصغيتُ خلال المحادثة التي كانت من جهة واحدة. وانتقل دايفيد من الإيماء الى التحديق بصمت، بينما كان نائب الحاكمة يفرغ غضبه. ثمّ قال: «إنّه يجلس هنا. هل ترغب في التحدّث إليه؟». أراد بولوك أن يتكلّم معي، فتناولت الهاتف.

«لماذا تعرقل إصلاح قانون الأضرار؟ كنت أظن أنّك ستكون جيّداً. لكن لا، أنت حاكم...». أطلق بولوك العنان للسباب ثمّ أقفل الخطّ. وعرف دايفيد ما حدث، وكان قد شهد على ذلك من قبل، ولم يكن متأكداً كيف سيكون ردّي. ضحكت كثيراً. كان بولوك صعب المراس، ولكنني شعرت أنّ العاصفة سوف تمرّ.

حين أدرك دايفيد أنّني سأحتمل هذا الانفجار، بدأنا بدراسة مشروع إصلاح قانون الأضرار، وكان الاختلاف الرئيسيّ حول الحدّ الأقصى للجزاءات. كنت أريد أن يكون الحدّ ٥٠٠ ألف دولار بينما أراد بولوك مليون دولار. قال لي دايفيد إذا حصل اتّفاق حول هذا التشريع، يصير من الممكن تحريك مشاريع القوانين الّتي كانت جزءاً من حزمة إصلاح قانون الأضرار بسرعة. واقترح حلاً وسطاً: ماذا عن مشروع قانون مع عتبة ٧٥٠ ألف دولار؟ كان مؤكّداً أنّ ذلك من شأنه أن يحسّن النظام، فوافقت.

اتّصل دايفيد ببولوك وأخبره عن الصفقة. كانت المكالمة هذه المرّة أقصر، ولكنّ سيبلي قام بتمرير الهاتف لي مجدّداً. بدأ بولوك الكلام بطريقته الرسميّة: «أيّها الحاكمة بوش، أنت ستكون حاكماً مميّزاً للغاية. ليلة سعيدة».

* * *

في سنة ١٩٩٦، فاجأتني لورا بحفلةٍ بمناسبة عيد ميلادي الخمسين، في قصر الحاكم. دعت العائلة والأصدقاء، من ميدلاند ودالاس، والزملاء من أندوفرويال وهارفارد، ورجال سياسة من أوستن، بمن فيهم بولوك ولايني. ولم تأتِ المفاجآت

من لورا وحدها. عند غروب الشمس، بدأنا تبادل الأنخاب. توجّه بولوك إلى الميكروفون، وقال، مبتسماً: «عيد ميلاد سعيد. أنت حاكم مميّز». وتابع: «أيّها الحاكم بوش، سوف تكون الرئيس المقبل للولايات المتّحدة».

صُدِمت بتنبّؤ بولوك لي. كنت حاكماً لمدّة ثمانية عَشَرَ شهراً فقط. وكان الرئيس كلينتون لا يزال في فترة ولايته الأولى. كنت، بالكاد، قد فكّرت في إمكانيّة إعادة انتخابي في سنة ١٩٩٨. وإذا ببولوك يتكلّم عن انتخابات سنة ٢٠٠٠. لم آخذه على محمل الجدّ، فبولوك يسعى دائماً إلى الاستفزاز. ولكنّ تعليقه أوحى لي بفكرةٍ مثيرةٍ للاهتمام. قبل عشر سنين، احتفلت بعيد ميلادي الأربعين في برودمور وأنا سكران. أمّا الآن فكنت في حديقة قصر حاكم ولاية تكساس، يُشرب نخبي بصفة الرئيس المقبل. كان هذا عقداً مميّزاً من الزمن.

وفي الوقت نفسه، كانت تجري حملة رئاسيّة فعليّة. وقد رشّح الحزب الجمهوريّ السيناتور بوب دول، وهو بطل الحرب العالميّة الثانية، وكان قد أنشأ سجّلاً مميّزاً على المستوى التشريعيّ. أُعجبت بالسيناتور بوب دول، واعتقدت أنّه سيكون رئيساً جيّداً، وقمت بحملةٍ قويّةٍ لصالحه في ولاية تكساس. ولكنّني كنت أخشى من أنّ حزبنا لم يأخذ درس سنة ١٩٩٢ في ما يخصّ سياسة الأجيال: فبمجرّد انتخاب رئيس من جيل الطفرة السكّانيّة، صار من غير المُحتمَل الرجوع إلى الوراء. كما كان متوقّعاً، فوز عضو مجلس الشيوخ بوب دول في تكساس، ولكن الرئيس كلينتون انتُخِب رئيساً، مجدّداً.

اتّجهت إلى انتخابات سنة ١٩٩٨ وأنا أشعر بالثقة في سجلّ إنجازاتي. كنت قد حقّقت كلّ واحدة من الأولويّات الأربع الّتي حدّدتها في حملتي الأولى لمنصب الحاكم. وقد مرّرنا أيضاً قانون خفض الضرائب الأكبر في تاريخ ولاية تكساس، وسهّلنا تبنّي الأطفال الذين يربّيهم غير أهلهم، من الأسر المحِبَّة. حصل عدد من هذه القوانين على دعم ديمقراطيّين. وشعرت بالفخر عندما قام بوب بولوك، الذي دعم

المرشّحين الديمقراطيّين لنصف قرن، تقريباً، بتأييد إعادة انتخابي علناً. وقد فوجِئتُ قليلاً إذ كان بولوك عرّاب أحد أبناء خصمي.

كنت مصمّماً على عدم اعتبار أيّ شيء أمراً مسلّماً به، وبذلت جهداً ضخماً في سبيل الحملة. ليلة الانتخابات، حصلت على أكثر من ٦٨ في المئة من الأصوات، بما في ذلك ٤٩ في المئة من اللاتينيّين، و٢٧ في المئة من الأميركيّين الأفارقة، و٧٠ في المئة من المستقلّين. كنت أوّل حاكم لتكساس يُنتخب مرّتين على التوالي، لمدّة أربع سنوات.

وكانت عيني على سباق آخر في تلك الليلة أيضاً. صار جيب حاكماً لفلوريدا بهامشٍ مقنع. وذهبتُ إلى حفل تنصيبه في كانون الثاني/يناير سنة ١٩٩٩، الأمر الذي جعلنا أوّل شقيقين يشغلان في الوقت نفسه، منصب الحاكم، بعد نيلسون ووين روكفلر، منذ أكثر من ربع قرن. كانت لحظة رائعة لعائلتنا. كان، أيضاً، وقتٌ للتفكير في المستقبل. وكان يشغل ذهني سؤالٌ كبير.

* * *

تبلور قرار الترشّح للانتخابات الرئاسيّة على مرّ الزمن. حثّني كثير من الناس على الترشّح، بعضهم من أجل مصلحة البلد، والبعض الآخر لأنّهم كانوا يأملون مواكبة السباق حتّى المجد. غالباً ما سمعت التعليق نفسه: «يمكنك الفوز بهذا السباق. يمكنك أن تكون رئيساً للبلاد». أشعرتني ثقتهم بالإطراء، لكنّ قراري ما كان ليعتمد على ما يظنّه الآخرون في احتمال فوزي. في النهاية، قال لي الجميع: «لا يمكن أن تفوز على آن ريتشاردز». لكن السؤال الرئيسيّ كان إنْ كنت أشعر برغبة في الترشّح.

فيما كنت أُمعن النظر في القرار، واجهتني معضلة. فبسبب حجم حملة الانتخابات الرئاسية وتعقيدها، كان ضرورياً البدء بالتخطيط باكراً، حتّى لو كنت غير متأكّدٍ ما إذا كنت أُريد الترشّح. أعطيت لكارل الإذْن بالبدء في إعداد الأوراق، وتجنيد شبكةٍ من الناس لجمع المال، والاهتمام بالعمليّة السياسيّة الشعبيّة. منذ أن بدأت العمليّة،

نشأ شعور بالحتميّة. في أكتوبر ١٩٩٨، قلت للصحافيّ، في واشنطن بوست، دايفيد برودر: «أشعر بأنني مثل الفلّين في نهر هائج.» عندما فزت مجدّداً، بعد شهر، كان التيّار قد صار أقوى.

كنت مصمّماً على عدم الانجراف. إذا كنت متّجهاً إلى خوض السباق، أردت أن يكون ذلك للأسباب الصحيحة. لا أستطيع تحديد متى اتّخذت قراري بالضبط، ولكن كانت هناك لحظات من الوضوح على طول الطريق، كانت إحداها خلال حفل تنصيبي للمرّة الثانية كحاكم. في صباح ذلك اليوم، حضرنا قدّاساً في الكنيسة الميثودية المتّحدة الأولى، في وسط مدينة أوستن. دعونا، أنا ولورا، القس مارك كريغ، وهو صديق لنا، وقسّيس من دالاس، لإلقاء العظة.

حاولتُ، جاهداً، التركيز على حفل التنصيب، لكنّني لم أستطع. بينما كنّا ندخل الكنيسة، أخبرتُ أمي أنّي كنت أجهد لأقرّر ما إذا كنت سوف أترشّح للرئاسة.

قالت لي: «يا جورج، تجاوزْ ذلك. قرّر وامضِ قُدُماً». كانت نصيحةً جيّدة، ولكنها لم تكن مفيدةً جدّاً، في ذلك الوقت.

ثمّ سدّد مارك كريغ ضربته. تحدّث، في خطبته، عن سفر الخروج، عندما دعا الله موسى، ردّ موسى، غير مصدّق، في بادىء الأمر: «مَن أنا، لأذهب إلى فرعون وأخرج الإسرائيليّين من مصر؟». كانت عنده كلّ الأعذار. فلم يعش حياة مثاليّة، ولم يكن متأكّداً ما إذا كان الناس سيتبعونه، كما أنّه صعب عليه التحدّث بوضوح. بدا ذلك لي مألوفاً بعض الشيء.

وصف مارك كيف طمأن الله موسى بأنّ يكون عنده القوّة لأداء هذه المهمّة الّتي دُعي للقيام بها. ثمّ حثّ مارك الجماعة على العمل، وأعلن أنّ بلاده تتوق للقيادة على المستويين المعنويّ والأخلاقيّ. وختم مثل موسى: «لدينا الفرصة، كلّ واحد منّا، على فِعْل الشيء الصحيح، وللسبب الصحيح».

تساءلتُ إذا كان هذا هو الجواب على سؤالي. لم أسمع أصواتاً غامضةً تهمس

في أذني. كانت هناك فقط رنّة صوت مارك كريغ القادمة من المنبر. انحنت أمّي إلى الأمام، في الطرف الآخر من مقعدها في الكنيسة، ولفتت انتباهي وتمتمت: «إنّه يتحدّث إليك».

بعد القدّاس، تغيّر شعوري. زال الضغط عنّي، وشعرت بالهدوء.

* * *

كنّا، أنا ولورا، قد ناقشنا موضوع الرئاسة خلال الثمانية عشر شهراً التي سبقت. كانت توجّهني وأنا أتحدّث عن الإيجابيّات والسلبيّات. لم تحاول أن تجادلني في الخروج من المنافسة، ولم تحاول العكس. استمعتْ، بصبر، وعبّرت عن آرائها. أعتقد أنّها أحسّت دائماً بأنّني سوف أترشّح. على حدّ تعبيرها، كانت السياسة مجال عملِ أسرتنا. وكان هدفها التأكّد من أنّني اتّخذت قراري للأسباب الصحيحة، وليس لأنّ الآخرين كانوا يدفعونني للترشّح.

لو كان لديها اعتراض، لعبّرت عن ذلك، وكنت سأتراجع. قلقت من الضغوط التي ستواجهني كرئيسٍ، لكنها شاركتني آمالي، ووثقت بقدرتي على قيادة البلاد. ابتسمت لي في إحدى الليالي، وقالت: «أنا أدعمك».

كان صعباً علينا أن نخبر ابنتينا. كانت باربرا وجينا في السابعة عشرة من العمر، وكانت شخصيتاهما المستقلّتان تذكّرانني بنفسي. منذ البداية طلبتا منّي عدم الترشّح للانتخابات، بمزاحٍ في بعض الأحيان وبجدّيّةٍ في أحيانٍ أخرى، وبأعلى صوت. كان أحد التعليقات المفضّلة لديهما: «يا أبي، سوف تخسر. لستَ ظريفاً كما تظنّ». وأحياناً أُخرى سألتاني: «لماذا تريد أن تدمّر حياتنا؟»

هذا كلام قاسٍ على الأب الّذي يسمعه. لا أعلم إذا كانتا قد فكّرتا حقّاً بأنّني سأخسر، لكنّني عرفت أنّهما لا تريدان التخلّي عن حياتهما الخاصّة البعيدة جزئيّاً عن الإعلام. في إحدى الليالي طلبتُ من جينا الخروج إلى الشرفة الخلفيّة من قصر

الحاكم. كانت ليلةً جميلةً في تكساس، فتحدّثنا نحن الاثنين لفترةٍ من الوقت. قلت لها: «أنا أعلم أنّكِ تظنّين أنّني أدمّر حياتك من خلال الترشّح للرئاسة. ولكن في الواقع، أنا وأمّك نعيش حياتنا، تماماً كما ربّيناكما، أنت وباربرا، لتعيشا حياتكما».

أخبرتني أنّها لم تفكّر مطلقاً في الأمر بهذه الطريقة. راقت لها فكرة عيش الحياة على أكمل وجه، تماماً كما كان الأمر دائماً بالنسبة لي. لم تتحمّس. ولكن منذ تلك اللحظة، أعتقد أنّها، وباربرا، تفهّمتا الأمر.

بعد مرور عقد من الزمن، أعتقد أنّ ابنتينا قدّرتا الفرص التي رافقت رئاسة الجمهوريّة. رافقتانا في الرحلات الدوليّة، والتقتا أشخاصاً رائعين وملهَمين، مثل فاتسلاف هافل وإيلين جونسون سيرليف، وأصبح لديهما معرفة في مجال الخدمة العامّة.

في نهاية المطاف، على الأرجح، أنّني ولورا، قضينا وقتاً أكثر مع باربرا وجينا، أثناء فترة الرئاسة، ممّا كنّا سنفعل لو مكثنا في تكساس.

كان كامب دايفيد أحد الأماكن المفضّلة عندنا لقضاء بعض الوقت مع الفتاتين. في أحد الأيّام في نهاية الأسبوع من صيف سنة ٢٠٠٧، دعونا، أنا ولورا، جينا وصديقها هنري هاجر، وهو شابّ ممتاز، من ولاية فرجينيا، كانت قد تعرّفت إليه في إطار حملة سنة ٢٠٠٤. خلال العشاء ليلة الجمعة، ذكر لي هنري أنّه يودّ التحدّث إليّ في اليوم التالي. فقلت له: «سوف أكون عند الساعة الثالثة في المقصورة الرئاسيّة».

وصل هنري في الوقت المحدّد، وكان واضحاً أنّه قام بالتحضير للقاء. قال لي: «سيّدي الرئيس، أنا أحبُّ ابنتك»، ثمّ بدأ حديثاً مؤثّراً. قاطعته، بعد بضع دقائق، وقلت له: «يا هنري، إنّ الجواب نعم، لقد حصلتَ على إذن منّي. الآن دعنا نذهب إلى لورا». بدا على وجهه أنّه يريد أن يقول: «انتظر، لم أنتهِ بعد!»

شعرت لورا بسعادةٍ غامرةٍ مثلي. كما طلب هنري بحكمةٍ إذن باربرا. وبعد أسابيع قليلةٍ، طلب يد جينا في حديقة أكاديا الوطنيّة في ولاية ماين. تزوّجا في

مزرعتنا في كراوفورد في أيار/مايو ٢٠٠٨. كان لدينا مذبح مصنوع من الحجر الجيري، على شبه جزيرة في بحيرتنا، واحتفلَ بالذبيحة عند مغيب الشمس صديقُ عائلتنا كيربيجون كالدويل، وهو قسّ رائع من هيوستن. كانت العروس مذهلة، أمّا لورا وباربرا فكانتا تلمعان. كانت إحدى أكثر اللحظات فرحاً في حياتي حين أوصلت جينا إلى المذبح. بعد ثماني سنوات في الرئاسة، صارت عائلتنا، ليس أقوى فحسب، بل أكبر أيضاً.

* * *

بعد أن أعلنتُ ترشيحي في ولاية إيوا في حزيران/يونيو ١٩٩٩، ذهبت، برفقة لورا، لزيارة أمّي وأبي. أعلمتهما بآخر المستجدّات في الحملة، ثمّ خرجنا إلى الحديقة معاً. كان المحيط الأطلسيّ الجميل خلفنا، وأمامنا كانت مجموعة كبيرة من المصوّرين. فاستعملتْ أمّي إحدى جملها المقتضبة الكلاسيكيّة. نظرتْ إلى ممثّلي الصحافة، وقالت: «أين كنتم عام ٩٢؟» فضحكت.

أدهشتني هذه المرأة الرائعة. كانت مسؤولةً عن كثيرٍ من الإيجابيّات في حياتي. ثمّ التفتّ إلى أبي. تذكّرت مرّةً أخرى كيف قضيت طفولتي وأنا أنظر إلى صوره في سجلاّت القصاصات. مثل تلك الصور القديمة، كان وجهه متعَباً. ولكنّ روحه ما زال قوياً. قلت للصحافة ما عرفته طوال حياتي: إنّها ميزة كبيرة أن تكون نجل جورج وباربرا بوش. كانت رحلتنا في الحياة معاً مدهشة. قبل سبع سنوات، انتهت حملة والدي بالهزيمة. وأنا الآن واقف بفخرٍ إلى جانبه، وأمامي فرصة لأصير الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتّحدة.

* * *

عندما عدت إلى تكساس، زرت أوّلاً بوب وجان بولوك. أنهكتْ سنوات الإساءة جسد بوب الذي كان ينازع. بدأ جلده يفقد لونه، وكان طريح الفراش ويرتدي قناع الأوكسجين. عانقته بلطف، فرفع قناعه والتقط نسخةً من مجلّة نيوزويك عن الطاولة،

بجانب سريره. كانت صورتي على الغلاف. قال: «لماذا لم تبتسم؟» فضحكت. جاء التعليق معبّراً.

ثمّ فاجأني على حين غرّة: « أيّها الحاكم، هل ستؤبّنني في جنازتي؟».

أعاد قناع الأوكسجين إلى مكانه على وجهه، وأغمض عينيه. أخبرته عن زيارتي لأيوا، وخطابي خلال حفل الشواء. لست متأكّداً من أنّه سمع أيّ كلمة قلتها. بعد تعاوننا الاستثنائيّ، ذهبنا، أنا وصديقي،كلّ في طريقه.

* * *

٣

فريق الموظّفين

كانت قراءة تعابير وجه ديك صعبة، فهو لم يكن يظهر أيّ عاطفة. حدّق إلى الأبقار، وهي ترعى تحت الشمس الحارقة، في مزرعتنا، في كراوفورد، في ولاية تكساس، وكان التاريخ هو ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٠. قبل عشرة أسابيع، وبعد أن أمّنت ترشيح الحزب الجمهوريّ للرئاسة، بعثتُ مدير حملتي، جو ألبو، لزيارة ديك تشيني في دالاس. وطلبت منه أن يحصل على أجوبةٍ على سؤالين. أوّلاً، هل هو مهتمّ في أن يكون مرشّحًا لمنصب نائب الرئيس؟ وإذا لم يكن كذلك، هل هو على استعداد لمساعدتي على إيجاد شخص؟

قال ديك لجو: إنّه كان سعيدًا في حياته، وقد انتهى من التعاطي بالسياسة. لكنّه قال إنّه على استعداد لقيادة لجنة بحثٍ عن نائب للرئيس.

كما توقّعت، قام ديك بدراسةٍ دقيقةٍ وعميقة. في اجتماعنا الأوّل، وضعتُ أمامه المعايير الأساسيّة عندي لاختيار نائب الرئيس. أردت شخصًا أرتاح معه، وعلى استعداد للعمل كجزءٍ من فريق، ويملك تجربة العمل في واشنطن، التي أفتقر إليها. والأهمّ أن يكون على استعداد للعمل كرئيسٍ في أيّ لحظة. عيّن ديك فريقًا صغيرًا

من المحامين، وجمع، بتكتّم، كمًّا هائلاً من الوثائق عن المرشّحين المُحتمَلين. عندما جاء لرؤيتي، في مزرعتي، في تمّوز/يوليو، كانت القائمة قد تقلّصت إلى تسعة أشخاص. ولكن، في رأيي، كان هناك دائمًا شخص عاشر.

بعد أن تناولنا وجبة الغداء مع لورا، باسترخاء، خرجتُ، أنا وديك إلى الساحة، وراء بيت المزرعة الخشبيّ القديم. استمعت بصبرٍ، إلى ديك وهو يفصّل لي التقرير النهائيّ للجنة البحث. بعدها، نظرت إليه وقلت: «يا ديك، لقد حسمتُ أمري».

* * *

كرجل أعمالٍ صغير، ورئيسٍ تنفيذيّ لفريق بيسبول، وحاكم ولاية، وشاهدٍ على رئاسة والدي، تعلّمتُ أهمّيّة هيكلة أيّ منظّمة وتعيين موظّفيها. الأشخاص الذين تختارهم ليحيطوا بك يحدّدون نوعيّة المشورة التي تتلقّاها، والطريقة التي يتمّ فيها تنفيذ أهدافك. على مدى ثماني سنوات، في منصب الرئيس، أثارت قراراتي بشأن الموظفين، بعض المسائل الأكثر تعقيدًا وحساسيةً التي دُرست في المكتب البيضاويّ: كيفيّة تأليف فريقٍ متماسكٍ، وإعادة هيكلة منظّمة، وإدارة النـزاعات، والتمييز بين المرشّحين المؤهّلين، وكيفيّة إيصال الأخبار السيّئة لأهل الخير.

بدأتُ عمليّة اختيار الموظّفين بتوصيف معايير المرشّح المثالي. قمتُ ببحثٍ واسعٍ، ونظرتُ في مجموعةٍ متنوّعةٍ من الخيارات. بالنسبة للتعيينات الرئيسيّة، قابلت المرشّحين وجهًا لوجه، واستخدمت وقتي لتقييم الشخصيّة والسمات.

كنت أبحث عن النـزاهة والكفاءة والتفاني والقدرة على التعامل مع الضغط. وكنت دائمًا أُعجب بالأشخاص الذين لديهم حسّ النكتة، وهي علامة على التواضع والوعي الذاتي.

كان هدفي تأليف فريقٍ من الأشخاص الموهوبين الذين يملكون خبراتٍ ومهاراتٍ متكاملة، والذين شعرت بالراحة في تفويضهم المهامّ. أردت أفرادًا يوافقون على توجّه الإدارة، لكنهم يشعرون بالحرّيّة في التعبير عن اختلاف رأيهم في أي قضيّة.

تركّز جزء مهمّ من عملي على خلق ثقافة العمل الجَماعيّ، التي شجّعت على تعزيز الولاء، ليس لي، بل للبلد ولمثلنا.

أنا فخور بالكثير من الشرفاء والأشخاص الموهوبين والمجتهدين الذين خدموا في إدارتي. حصلَت عندنا تغييرات ونزاعات قليلة في مقابل التعاون الوثيق خلال بعض أصعب التحدّيات في تاريخ أمّتنا. سأكون دائمًا ممتنًّا لخدمتهم المتفانية.

لم أكن على حقّ في كلّ قرارٍ يخصّ الموظّفين. قالت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر ذات مرّة: «أنا، في العادة، أُكوّن فكرتي عن الشخص خلال عشر ثوانٍ، ونادرًا جدًّا ما أغيّره». لم أكن أعمل بهذه السرعة، ولكنّني كنت دائمًا قادرًا على قراءة شخصيّات الناس. في أغلب الأحيان، أعطاني ذلك أفضليّة. ولكن في بعض الأوقات كنت مخلصًا أو بطيئًا أكثر من اللزوم، حين حلّ وقت التغيير. أخطأت في الحكم على ردّ الفعل على خياراتي .أحيانًا، بكلّ بساطة، كنت أختار الشخص الخطأ لمنصب معيّن. وكانت القرارات المتعلّقة بشؤون الموظّفين، من أوّل القرارات وأهمّها التي أخذتها كرئيس.

* * *

يأتي أوّل قرار أساسيّ، يأخذه الرئيس، بشأن فريق الموظّفين قبل تولّيه الحكم. إن اختيار المرشّح لمنصب نائب الرئيس، يعطي الناخبين فكرةً عن أسلوب المرشّح للرئاسة في صنع القرار. فهو يكشف دقّته وإتقانه اتّخاذ القرارات في المستقبل، كما يشير إلى أولويّاته المُحتمَلة في ما يخصّ الوطن.

عندما انتزعت ترشيح الحزب الجمهوريّ، في آذار/مارس ٢٠٠٠، كانت معرفتي بمنصب نائب الرئيس لا بأس بها. كنت قد تابعت عن كثبٍ عمليّة الاختيار حين نُوقِش احتمال ترشيح أبي نائباً لريتشارد نيكسون، في سنة ١٩٦٨، وجيرالد فورد، في سنة ١٩٧٦. شهدتُ عمله، مدّة ثماني سنوات، إلى جانب الرئيس ريغان. كما راقبت علاقته بدان كويل. وتذكّرت القصّة المرعبة حين كنت شابّا، عندما اختار المرشّح

الديمقراطيّ جورج ماكغفرن، توم إيغلتون ليكون رفيقه في السباق، وعلم في وقتٍ لاحقٍ أنّ إيغلتون عانى انهياراتٍ عصبيّةً عدّة، وخضع لعلاجٍ بالصدمات الكهربائيّة.

كنت مصمّمًا على عدم تكرار هذا الخطأ، ولهذا السبب اخترت شخصًا متأنّيًا، مثل ديك تشيني، للتدقيق في العمليّة. بحلول أوائل الصيف، ركّزنا على الذين وصلوا إلى المرحلة النهائيّة. أربعة من المرشّحين كانوا حكّامًا حاليّين أو سابقين: لامار الكسندر، من ولاية تينيسي، وتوم ريدج، من ولاية بنسلفانيا، وفرانك كيتينغ، من أوكلاهوما، وجون أنجلر، من ميشيغان. أمّا الخمسة الآخرون فكانوا أعضاء حاليّين أو سابقين في مجلس الشيوخ: جاك دانفورث، من ميسوري، وجون كيل، من أريزونا، وتشاك هاغل، من نبراسكا، وبيل فريست وفريد تومبسون، من تينيسي.

بحثتُ في الخيارات مع ديك ولورا وكارل وكارين، وبعض مساعديّ الموثوقين. كارين أوصت بتوم ريدج، وهو من قدامى المحاربين في فيتنام وينتمي إلى إحدى الولايات المتأرجحة الرئيسيّة انتخابيًّا. كزميلٍ في موقع السلطة، كان توم قادرًا على إدارة البلاد في حال حدث أيُّ شيء لي. هو كان، أيضًا، مؤيّدًا لحرّيّة الاختيار، الأمر الذي يفضّله المعتدلون في كلا الطرفين، بينما سيغضب البعض في قاعدة الحزب الجمهوريّ. أيّد آخرون تشاك هاغل، الذي كان يشغل منصبًا في لجنة العلاقات الخارجيّة في مجلس الشيوخ، وبإمكانه أن يجلب الخبرة إلى السياسة الخارجيّة. وكنت مقرَّبًا من فرانك كيتينغ وجون انجلر، وعرفت أنّ بإمكاني أن أعمل بشكلٍ جيّدٍ مع أيّ واحدٍ منهما. وكان بإمكان الحاكمة الصلب جون كيل أن يساعد على دعم القاعدة. أمّا لامار الكسندر وبيل فريست وفريد تومبسون فكانوا رجالاً جيّدين، ويمكن أن يتمكّنوا من مساعدتي في تحقيق فوزٍ مفاجىء في ولاية تينيسي، وهي موطن آل غور المرشّح الديمقراطيّ لمنصب نائب الرئيس.

أثار جاك دانفورث فضولي. كرجُلِ دينٍ، كان جاك صادقًا وصريحًا وذا أخلاقٍ عالية. وكان سجلّ التصويت لصالحه على مدى ثلاث دورات في مجلس الشيوخ صلبًا. وقد احترمته لدفاعه عن كلارنس توماس، خلال جلسة الاستماع لتثبيت قاضي

المحكمة التمييزيّة في سنة ١٩٩١. كانت سياسته المبدئيّة محافظة، وبإمكانه أيضًا عبور الخطوط الحزبيّة للحصول على أصوات الآخرين. وما يزيد أهمّيّته هو قدرته على أن يجعلنا نفوز في ولاية ميسوري، التي ستكون ساحة منافسةٍ رئيسيّة.

فكّرت جدّيًّا بعرض المركز على دانفورث، ولكنّني وجدت نفسي، مرّةً أخرى، أعود إلى ديك تشيني، كخيار. كانت تجربة ديك أوسع نطاقًا وأكثر تنوّعًا من أيّ شخص آخر على قائمتي. ككبير موظّفي البيت الأبيض، ساعد الرئيس فورد في توجيه الأمّة، بعد فضيحة ووترغيت. وكان قد أمضى أكثر من عقدٍ من الزمان في الكونغرس، ولم يخسر الانتخابات. وكان وزير دفاع قويًّا، كما أدار شركة عالميّة وفهم القطاع الخاصّ. وعلى عكس أيّ من أعضاء مجلس الشيوخ أو الحكّام على قائمتي، وقف بجوار رؤساء للولايات المتّحدة خلال فترات اتُّخِذت فيها قرارات حسّاسة جدًّا في المكتب البيضاويّ، بما في ذلك إرسال الأميركيين إلى الحرب. وجدت أنّ ديك لن يكون مجرّد مستشار قيّمٍ، بل سيكون قادرًا تمامًا على تولّي الرئاسة.

عرف ديك سياسة واشنطن أفضل من أيّ شخص، تقريبًا. ولكنه لم يتصرّف وكأنّه عالِم ببواطن الأمور. بل سمح لمرؤوسيه بأن يُكافأوا على ما أنجزوه. عندما كان يتحدّث خلال الاجتماعات، اتّسمت كلماته المختارة بعناية، بالصدقيّة والقدرة على التأثير.

كان ديك من غرب البلاد، وكان يحبّ الصيد وقضاء الوقت في الهواء الطلق. تزوّج لين فنسنت من وايومنغ، وهي حبيبته منذ المدرسة الثانويّة. وكرّس نفسه لابنتيهما ليز وماري. عقله عمليّ ويملك حسّ فكاهةٍ معقّدًا. أخبرني أنّه كان قد بدأ دراسته في جامعة ييل، قبل سنوات قليلة منّي، ولكنّ الجامعة طلبت منه عدم العودة، مرّتين. وقال إنّه خضع مرّةً لاختبارٍ صُمّم لتحديد الوظيفة التي تناسب شخصيّته. وعندما ظهرت النتائج، قيل له إنّ ما يلائمه هو أن يكون مدير جنّازات.

حين كنت أدرس القرار، اتّصلتُ بأبي لأحصل على رأيٍ آخر. قرأت له الأسماء الّتي كنت أفكّر فيها، وكان يعرف معظم المرشّحين، فقال: إنّهم جميعًا أشخاص جيّدون. فسألته: «وما رأيك في ديك تشيني؟». فأجابني: «ديك سيكون خيارًا رائعًا». وأضاف: «سيعطيك مشورةً صريحةً وصلبة. ولن تقلق من أن يعمل في الخفاء».

عندما جاء ديك إلى المزرعة لتقديم تقريره النهائيّ، كنت قد قرّرت أن أحاول مرّةً أخرى معه. بعد أن أنهى الملخّص، قلت له: «يا ديك، أنت الشخص المثاليّ لذلك».

في حين لـمّحت له من قبل، عرف أنّني كنت جادًّا هذه المرّة. أخيراً قال لي: «أنا بحاجة إلى التحدّث إلى لين»، فاعتبرت ذلك علامة إيجابيّة. قال لي إنّه عانى من ثلاث نوبات قلبيّة، وإنّه ولين كانا راضيين عن حياتهما في دالاس. ثمّ قال: «إنّ ماري مثليّة»، وفهمت قصده من طريقة تعبيره. من الواضح أنّ ديك أحبّ ابنته. شعرت أنّه يتأكّد من عدم تعصّبي. فما كان يحاول قوله، أساسًا هو: «إذا كان لديك مشكلة مع هذا الأمر، فأنا لست الشخص الذي تبحث عنه».

ابتسمت له وقلت: «خذ وقتك يا ديك. وأرجوك، تحدّث مع لين. وأنا لا أهتمّ لتوجّه ماري الجنسيّ».

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، تحدّثت إلى بعض مساعديّ الموثوقين، ولم أكن أريد أن أعبّر صراحة عن رأيي في ذلك الوقت. قلت لهم إنّني فقط أفكّر جدّيًّا بتشيني كمرشّح. ذُهِل معظمهم وعارض كارل. طلبت منه أن يأتي إلى قصر الحاكمة للدفاع عن رأيه، ودعوت شخصًا واحدًا للاستماع، وهو ديك. أنا أؤمن بضرورة التعبير بصراحةٍ عن الخلافات، وأردت أيضًا تعزيز علاقة الثقة بين كارل وديك في حال انتهى بهما الأمر إلى البيت الأبيض.

ألقى كارل حججه ببسالة: لن يضيف وجود تشيني شيئًا إلى الخريطة الانتخابيّة،

لأنّه يمكن التأكّد من أنّ أصوات وايومنغ الانتخابيّة الثلاثة ستذهب إلى المرشّح الجمهوريّ، أكثر من أيّ مكان آخر في البلاد. وأضاف إنّ سجلّ تشيني في الكونغرس محافظ للغاية ويحوي بعض المسائل الساخنة التي سوف تُستخدم ضدّنا، كما أنّ وضع ديك الصحّيّ سيثير تساؤلات حول قدرته على خدمة الوطن. ورأى أنّ اختيار الشخص الذي شغل منصب وزير الدفاع، حين كان والدي رئيسًا، قد يجعل الناس تشكّ في استقلاليّتي. أخيرًا، فإنّ ديك كان يعيش في ولاية تكساس، بينما يحظر الدستور حصول اثنين من سكّان الولاية على أصوات الهيئة الانتخابيّة.

أصغيت إلى اعتراضات كارل. قال ديك إنّه وجدها مقنعةً جدّاً. أمّا أنا فظننت العكس. لم يزعجني سجلّ ديك السابق في الكونغرس، واعتبرت تجربته في الكابيتول هيل ميزةً مربحة، ولم أنزعج من عدم قدرته على التأثير على الخريطة الانتخابيّة. أعتقد أنّ الناخبين يستندون، في قرارهم، إلى المرشّح لمنصب الرئيس، وليس نائب الرئيس[1] .

أمّا في ما يتعلّق بالقلق الّذي أبداه كارل حول مسألة شغل ديك منصب وزير الدفاع عند أبي، فكنت مقتنعًا أنّ فوائد اختيار شخصٍ جدّيّ أنجز الكثير، تعوّض عن مضارّ أيّ تصوّر بأنّني أعتمد على مساعدة أبي.

ولكن، كان هناك مشكلتان يتعيّن علينا معالجتهما: صحّة ديك وموضوع الإقامة. وافق ديك على الخضوع لفحص طبّيّ، وأرسل النتائج إلى الدكتور دينتون كولي، وهو طبيب قلب محترم في هيوستن. قال الطبيب إنّ قلب ديك سوف يصمد في مواجهة ضغوط الحملة ومنصب نائب الرئيس. كما أنّ بإمكان ديك ولين تحويل مكان تسجيلهما الانتخابيّ إلى وايومنغ، وهي الولاية الّتي مثّلها ديك سابقاً في الكونغرس، وكان لا يزال يعتبرها موطنه.

(١) يمكن القول إنّ ولايتي كانت مغايرة لسنة ١٩٦٠، عندما اختار جون كنيدي ليندون جونسون كمرشّح لمنصب نائب الرئيس. ولكن لم يكن هناك فائدة مماثلة في سنة ١٩٨٨، عندما راهن مايكل دوكاكيس على سيناتور تكساس لويد بنتسن.

عمّقت طريقة تعامل ديك مع تلك الأسابيع الحسّاسة اقتناعي بأنّه الخيار الصحيح. لم يدفعني مرّة لأقرّر. في الواقع، أصرّ على أن أجتمع بجاك دانفورث قبل أن أقرّر نهائيًّا. ذهبت برفقة ديك لزيارة جاك وزوجته سالي، في شيكاغو يوم ١٨ تموز/يوليو. كان لقاء مريحًا، وامتدّ لثلاث ساعات، وترسّخت انطباعاتي الإيجابيّة عن جاك. ولكن كنت قد قرّرت أنّني أريد ديك.

وبعد أسبوع، تقدّمتُ بعرضي رسميًّا. كما كانت عادتي، استيقظت حوالى الساعة الخامسة صباحًا. بعد أن شربت كوبين من القهوة، كنت متأهّبًا للقيام بخطوتي. تمكّنت من الانتظار حتّى الساعة ٦:٢٢ لأتّصل بديك. كان يتمرّن على آلة المشي، واعتبرت ذلك علامةً جيّدة. جاء مع لين إلى أوستن، من أجل الإعلان الرسميّ بعد الظهر.

بعد مرور عشر سنوات، لم أندم قط على قراري الترشّح مع ديك تشيني. ساعدت سياسته المؤيّدة للحياة وخفض الضرائب على تقوية قاعدتنا. وكانت صدقيّته كبيرة عندما أعلن للجيش: «إنّ التعزيزات آتية». أمّا إجاباته الثابتة والفاعلة خلال النقاشات العلنيّة بين المرشّحين لمنصب نائب الرئيس، حين واجه جو ليبرمان، فقد طمأنت الناخبين إلى صلابة ترشّحنا. كما أراحتني معرفتي أنّه سيكون مستعدًّا للتدّخل إذا حدث لي شيء.

اتّضحت الفوائد الحقيقيّة لاختياري ديك، بعد أربعة عشر شهرًا. في صباح أحد أيّام أيلول/سبتمبر سنة ٢٠٠١، استيقظ الأميركيّون، وواجهوا أزمة لا يمكن تصوّرها. حينها وقف الرجل الهادىء الذي وظّفته في ذلك اليوم الصيفيّ في كراوفورد، قويّاً كشجرة السنديان.

* * *

قمت باختيار نائب الرئيس في نهاية موسم الانتخابات التمهيديّة الطاحنة. إن مسار الحملة يجرّد المرشّحين من كلّ القشور، إذ تُكشف نقاط القوّة والضعف

للناخبين. وما لم أكن أدركه في ذلك الوقت، هو أنّ ضغط الحملة يساعد المرشّح ويعدّه للضغوط الرئاسيّة. تلك الأيّام المملوءة بالعمل والأحداث، كشفت لي أيضاً، شخصيّات الناس من حولي، وكوّنت الأساس الذي سمح لي باتّخاذ القرارات المتعلّقة بالموظّفين التي واجهتها في وقتٍ لاحقٍ، في البيت الأبيض.

بدأت الحملة بحقّ مع انعقاد المؤتمر الحزبيّ في أيوا، حيث تجري التجربة الأقوى في التواصل مع القاعدة الشعبيّة. سافرت، مع لورا، عبر الولاية، وصافحنا أيدي الآلاف من الناس، واستهلكنا غالونات لا تُحصى من القهوة. وعلى الرغم من أنّنا خطّطنا بدقّة، جاءت واحدة من اللحظات الأكثر دلالةً في الحملة مرتجلة.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، شاركتُ في نقاش علنيّ، بين المرشّحين الجمهوريّين في دي موين. وكان المشرفون على النقاش توم بروكاو من محطّة أن بي سي، والمذيع المحلّي جون باكمان. بعد أن غطّى بعض المواضيع المتوقّعة، فاجأنا باكمان بالسؤال: «من هو الفيلسوف السياسيّ أو المفكرّ السياسيّ الذي تتمثّل به، ولماذا؟». كنت ثالث شخص عليه الردّ، فتبصّرت في ذكر شخصٍ مثل ميل أو لوك الّذي اخترع نظريّة القانون الطبيعيّ التي أثّرت في مؤسّسي الولايات المتّحدة. كما كان هناك لينكولن، والخطأ صعب إذا ذكرت أيب في نقاش جمهوريّ. كنت لا أزال أفكّر عندما التفت إليّ باكمان وقال: «وأنت، أيّها الحاكم بوش؟». كان قد انتهى وقت دراسة خياراتي، فخرجت الكلمات من فمي: «المسيح، لأنّه عمل تغييراً في قلبي».

بدا الجميع مذهولاً. من أين جاء ذلك؟ في رحلة العودة إلى الفندق، اتّصلت بي أمّي وأبي للاطمئنان. وكانا دائماً يتّصلان بي، بعد الأحداث الكبرى. قال أبي: «أحسنت يا بنيّ، لا اعتقد أنّ جوابك سوف يضرّ بك كثيراً». فسألته: «أيّ جواب؟ فقال: «أنت تعرف، ذلك المتعلّق بيسوع».

في بادىء الأمر لم أفكّر في إمكانيّة أنّ الإجابة قد تؤذيني. تفوّهت بكلّ بساطة بما كان في قلبي. ولكن بعد أن حلّلت الموضوع، فهمت سبب الحذر. لم أكن أثق

بالسياسيّين الذين يستخدمون الدين وسيلةً للحصول على أصوات. لم أكن أؤمن بنهجٍ سياسيّ أساسه الديانة الميثوديّة أو اليهوديّة أو الإسلاميّة. ولم يكن دور الحكومة الترويج لأيّ دين. لم أفعل ذلك عندما كنت حاكماً لولاية تكساس، وبالتأكيد لم أُرد القيام بذلك وأنا رئيس للبلاد. كما كان متوقّعاً، أثارت كلماتي غضباً، وكتب أحد الصحفيّين: «في الأمر استغلال خاطىء للدين». وخلص آخر: «إنّ دبليو يقوم بالتحقّق من الأرقام الّتي يحقّقها يسوع، ويسوع ناجح انتخابيّاً في ولاية إيوا».

لم تكن ردّات الفعل كلّها سلبيّة. جاء ردّي متواصلاً مع كثير من الناس الذين مرّوا بتجاربَ مماثلةٍ في حياتهم الخاصّة، وقدّروا حديثي الصريح عن الإيمان.

ليلة المؤتمر الحزبيّ، فزت بـ٤٠ في المئة من الأصوات في أيوا. وبعد احتفال وجيز بالنصر، اتّجهنا إلى نيو هامبشاير. كنت أعرف أنّ ولاية الغرانيت قد تكون غدّارة بالمتنافسين المتقدّمين، فناخبو نيو هامبشاير لديهم سوابق في إسقاط المرشح الأوفر حظّاً. تفاءلت بعمليّاتنا في الولاية، بقيادة صديقي السناتور جاد غريغ. وقضيت كثيراً من الوقت في نيو هامبشاير، وسرت في المواكب واتقنت مهاراتي في صنع فطيرة «البنكايك». ويوم الانتخابات الأوّليّة، مكثت مع لورا، في فندقنا في مدينة مانشستر، لمشاهدة النتائج. في وقت مبكر من بعد الظهر، أطلَعنا كارل على الاستطلاعات الأولى: كنت متّجهاً صوب خسارةٍ كبيرة.

تحدّثت لورا معي سائلة: «يا جورج، هل تريد أن تكون رئيساً؟» هززت رأسي. فقالت: «إذاً، من الأفضل ألاّ تدع الآخرين يحدّدون من أنت، مرّةً أخرى».

كانت على حقّ، فقد اقترفت الخطأ الكلاسيكيّ للمرشّح الأوفر حظّاً. سمحت للسيناتور جون ماكين من ولاية أريزونا، وهو المنافس القويّ الآخر للفوز بترشيح الحزب، بأخذ زمام المبادرة في نيو هامبشاير. حملتُه النشيطة جذبت كثيراً من المستقلّين، فتغلّبت على قاعدتي الصلبة بين الجمهوريّين. نجح ماكين، وهو عضو في الكونغرس منذ سنة ١٩٨٣، بتقديم نفسه على أنّه آتٍ من الخارج، على عكسي،

بصفتي من الداخل. وتحدّث عن الإصلاح في كلّ مرحلة من الحملة، على الرغم من أنني كنت الشخص الذي قام بإصلاح في النظام المدرسيّ، والقوانين المتعلّقة بالتعويض عن الأضرار، كما قمت بتجديد نهج تكساس في التعاطي مع الرعاية الاجتماعيّة. اضطررت للاعتراف بأنّ حملة جون كانت ذكيّة وفاعلة. وكان عليّ أن أتعلّم من خطأي.

ذهبت إلى صالة الرياضة لأتمرّن بقوّة. وعلى آلة المشي، فكّرت في ما يجب القيام به بعد تلك المرحلة. واجهت أكبر قرار بشأن الموظّفين في حملتي. هنا قواعد اللعبة التقليديّة تملي عليّ صرف عددٍ قليلٍ من الناس، والدعوة إلى بدايةٍ جديدة. وقرّرت أن أذهب في الاتّجاه المعاكس. جمعت كبار الموظّفين، وقلت لهم إنّني أرفض التخلّي عن أحد لتلبية الأصوات الصاخبة على شاشة التلفزيون. إن شخصاً واحداً يستحقّ اللوم، وهو أنا. في حالتَيْ الفوز والخسارة، سننهي هذا السباق، كفريقٍ واحد. ثمّ أعطيت الجميع فرضاً. اتّصل كارل بالمديرين السياسيّين في الولايات التي ستحصل فيها الانتخابات الأوّليّة، بعد هذه المرحلة. وطمأن جو موظّفي الحملة. أمّا كارين فتواصلت مع أعضاء وسائل الإعلام الأساسيّين. وقام دون إيفانز بجمع التبرّعات.

دعوت مدير السياسة جوش بولتن، الذي كان مع أغلبيّة الموظّفين في مقرّ الحملة الانتخابيّة في مدينة أوستن، وسألته: «كيف حال الجميع؟». فاعترف بأنّ معظمهم في حالة صدمة.

كنت أعرف أنّ الفريق ينتظر إشارة منّي، فقلت لجوش: «اجمعهم، وقُلْ لهم إنّ عليهم أن يرفعوا رؤوسهم عاليةً لأنّنا سننتصر».

بالرجوع إلى الماضي، أرى أنّ الخسارة في نيوهامبشاير شكّلت فرصة. فالناخبون ينظرون إلى تفاعل المرشّح مع الشدائد. أظهر ريغان وأبي مرونةً بعد خسارة ولاية إيوا في سنة ١٩٨٠ و١٩٨٨ على التوالي. وحوّل بيل كلينتون حملته الانتخابيّة، بعد

هزيمته في نيو هامبشاير سنة ١٩٩٢، كما فعل باراك أوباما سنة ٢٠٠٨. في سنة ٢٠٠٠، اعتبرت الهزيمة فرصةً لأثبت أنّ بإمكاني تلقّي ضربةٍ والتعافي منها. والعبرة هي أنّه في بعض الأحيان، تكون أفضل قرارات الموظّفين، هي تلك التي لا تؤخذ.

في ولاية كارولينا الجنوبيّة، اخترنا موضوعاً جديداً لتسليط الضوء على إنجازاتي المتعلّقة بالحزبين معاً، في ولاية تكساس: المصلح الذي يحقّق النتائج. نظّمنا اجتماعات في قاعة المدينة، حيث كنت أجيب على أسئلة الجمهور، حتّى نفدت الأمور التي يمكنهم أن يسألوا عنها. قمت باتّصالاتٍ كثيرةٍ وحشدت دعم القادة في جميع أنحاء الولاية. ثمّ استخدم ماكين إعلاناً يضع شخصيّتي موضع شكّ عبر مقارنتي ببيل كلينتون، وبتلك الخطوة تخطّى ماكين حدوده. ردّيت عليه على الهواء. وأسهم ردّي، بالإضافة إلى حملةٍ شعبيّةٍ منظّمةٍ تنظيماً جيّداً في تحقيق نتائج إيجابيّة. فزت في ولاية كارولينا الجنوبية بـ٥٣ في المئة من الأصوات، وحقّقت الفوز في تسع مراحل من أصل ثلاث عشرة مرحلة من الانتخابات التمهيديّة يوم الثلاثاء الكبير، وزاد الزخم لترشيحي.

في أوائل شهر أيار/مايو، اجتمعتُ أنا وجون، لمدّة ساعة ونصف الساعة، في بيتسبرغ. وكان على حقّ لاستيائه من الكلام المهين الّذي أطلقه بعضُ المؤيّدين، في ولاية كارولينا الجنوبيّة. تفهّمت غضبه وأوضحت أنّني أحترم شخصيّته. بعد اجتماعنا بالصحفيّين، قال إنّ قدرتي على استعادة نزاهة البيت الأبيض «أكثر من كافية». لم يكن هذا التأييد، الأكثر تألّقاً، الذي تلقّيته، في أيّ وقت مضى فحسب، ولكنه كان أيضاً بدايةً للمصالحة بيننا. في آب/أغسطس، استضافنا جون وزوجته سيندي، في مزرعته الجميلة، في سيدونا، في ولاية أريزونا. استمتعت برؤية ماكين وراء آلة للشواء، مسترخياً، وهو يشوي الأضلاع. عملنا معاً، خلال حملتي الانتخابيّة سنة ٢٠٠٠، ومرّة أخرى في سنة ٢٠٠٤. أنا أحترم جون، وكنت مسروراً لوجوده إلى جانبي.

* * *

كان آل غور رجلاً موهوباً، وسياسيّا حقّق إنجازات كبيرة. تخرّج مثلي من جامعة أيفي ليغ، كما كان والده سياسيّا. ولكنّ شخصيّتينا كانت مختلفة جدّاً. ظهر جامداً وجدّيّاً وبعيداً، وبدا الأمر وكأنّه ترشّح للرئاسة طوال حياته. أنشأ ائتلافاً قويّاً من الليبراليّين المؤيّدين للحكومة الكبيرة والنُخَب الثقافيّة والنقابات العماليّة. وكان قادراً جدّاً على استعمال سياسة الشعبويّة على أساس صراع الطبقات. كما أنّه كان نائباً للرئيس. خلال فترة ازدهار اقتصاديّ. عرفت أنّه من الصعب إلحاق الهزيمة به.

عندما أعود بذاكرتي إلى حملة سنة ٢٠٠٠، أرى صورةً غير واضحةٍ من المصافحات وجمع الأموال والتبارز، للفوز بعناوين الصباح. توقّف الحراك السياسيّ في ذهني مرّتين. حصل ذلك لأوّل مرّة، في المؤتمر الوطنيّ الجمهوريّ في فيلادلفيا، الذي أداره إدارةً جيّدةً أندي كارد، وهو الذي شغل سابقاً، منصب نائب أكبر الموظّفين ووزير النقل. كنت قد حضرت كلّ مؤتمر منذ سنة ١٩٧٦، ولكن لا شيء يشبه شعوري عندما أخذت مركز الصدارة.

انتظرت في الظلام وراء الكواليس، واستمعت إلى العدّ التنازليّ: «خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد». ثمّ خرجت إلى الساحة المليئة بالناس. في بادىء الأمر، كان المشهد مربكاً. انفجرت الأضواء والأصوات من حولي، وشعرت بحرارة الأجساد، وشممت رائحة الناس، ثمّ بدأتُ أرى الوجوه. رأيت لورا وابنتيّ وأمّي وأبي. طوال حياتي شاهدت جورج بوش يتكلّم، فأدهشني انعكاس الأدوار.

قلت: «إنّ فرصنا كبيرة للغاية، وحياتنا قصيرة جدّاً لتضيع هذه اللحظة. لذلك نتعهّد هذه الليلة لأمّتنا بأنّنا سوف نغتنم هذه اللحظة من الوعد الأميركيّ. سوف نستخدم هذه الأوقات الجيّدة لأهدافٍ عظيمة... لقد حصلت الإدارة السابقة على فرصتها، لكنّها لم تنجح في القيادة. الآن نحن سنقوم بذلك».

بعد شهرين توقّفت الحملات مجدّداً، وهذه المرّة من أجل النقاشات العلنيّة. أشرفت كارين هيوز على فريق التحضير، بينما تولّى جوش بولتن، زمام المبادرة

في السياسة. يجمع جوش بين عقل مذهلٍ وتواضعٍ ملطِّفٍ للأجواء وروح مرِحة. لن أنسى أبداً حين وقفتُ، خلال استطلاع في آميس في أيوا في آب/أغسطس ١٩٩٩، وشاهدتُ مئاتٍ من الدرّاجات الناريّة تدخل البلدة. كان بين الدرّاجين حاكم ويسكونسن تومي تومبسون والسيناتور بن نايتهورس كامبل من ولاية كولورادو. عندما نزل الرجل الذي يقود المجموعة عن درّاجته الفيكتوري الزرقاء الكروم اللامعة من صنع أيوا، ورفع خوذته عن رأسه، ذُهلت لرؤية جوش، يرتدي باندانا مع شعار حملتنا. قال لي: «أيّها الحاكم، تعرّف إلى مجموعة سائقيك».

كان النقاش الأوّل في بوسطن. اتّصلت من غرفتي، وراء الكواليس، بكيربيجون كالدويل وصلّينا عبر الهاتف. طلب كيربيجون من الله تعالى أن يعطيني القوّة والحكمة. منحني صوتُه الراحةَ والهدوء، فجعلتُ الصلاة عبر الهاتف مع كيربيجون، تقليداً قبل الأحداث الرئيسيّة لبقيّة الحملة وخلال عهدي.

بعد ذلك، سمعت صوت الوسيط في النقاش، ويدعى جيم ليرر، من محطّة بي بي أس التلفزيونيّة، وهو يقوم بتقديم المرشّحين. خرجنا من زوايا المسرح والتقينا في الوسط. استخدم غور المصافحة القويّة جدّاً، وظننت بأنّه يحاول أن يلعب لعبة القوّة في المنافسة، تماماً مثل آن ريتشارْد في سنة ١٩٩٤.

ركّزتُ على الإجابة عن الأسئلة، على الرغم من أنّني شعرت، في بعض الأحيان، أنّني مثل الطيّار الآلي. عندما ألقيت نظرةً على ساعتي ـ والتي كنت قد وضعتها على المنصّة أمامي لتفادي تكرار الخطأ الّذي اقترفه أبي في أحد النقاشات ـ كنّا على وشك الانتهاء. قدّمنا بياناتنا الختاميّة، وصافح كلّ منّا الآخر مرّة أخرى ـ هذه المرّة بقبضة عاديّة ـ وتشاركنا في مرحلة ما بعد المناقشة التي تعجّ بأفراد الأسرة والأصدقاء والمساعدين.

وعلى الفور، قالت لي كارين: إنّ غور ارتكب خطأً فادحاً. فقد تنهّد مراراً وتكراراً، وتلوّى حين كنت أتحدّث.

كان ذلك خبراً جديداً، بالنسبة لي. فقد ركّزت على أدائي إلى حدّ أنّني لم ألاحظ ذلك.

اتّخذ النقاش الثاني والثالث أشكالاً مختلفة، لكنهما أتيا بنتائج مماثلة.

لم يقترف أيٌّ منّا خطأً فادحاً. وحدث أمر مثير للاهتمام خلال المناظرة الثالثة في جامعة واشنطن في سانت لويس حيث أعطانا شكل القاعة حرّيّة التجوّل. دار السؤال الأوّل حول مشروع قانون حقوق المرضى. وبينما كنت أجيب، رأيت غور يتّجه نحوي. هو رجل ضخم ووجوده ملأ بسرعة الفسحة الّتي كنت أقف فيها. هل كان نائب الرئيس على وشك أن يصدمني بصدره؟ أو بساعده؟ لجزء من الثانية تصوّرت نفْسي، مجدّداً، على ملعب مدرسة سام هيوستن الابتدائيّة. نظرت إليه بازدراء، مازحاً.

شعرت بالرضا عن النقاشات، واعتقدت أنّ أدائي قد تجاوز التوقّعات وأنّ اللحظات الدراماتيكيّة في الحملة قد ولّت. لكنني كنت مخطئاً.

* * *

قبل خمسة أيّام من الانتخابات، وخلال محطة توقُّف روتينيّة، في ولاية ويسكونسن، أخذتني كارين هيوز جانباً. وبعد أن اتّجهنا إلى غرفة هادئة، قالت لي: «اتّصلَ مراسل، من نيو هامبشاير ليسأل عن مسألة قيادة سيّارة في حالة سكْر»، فاضطربت. إن مثل هذه الأخبار السلبيّة تسبّب ما يشبه الانفجار في نهاية حملة انتخابيّة.

كنت قد فكّرت بجدّيّة أن أكشف الأمر قبل أربع سنوات، عندما دُعيت للمشاركة في هيئة المحلّفين، وكانت القضيّة تتعلّق بقضية قيادة في حالة سكْر. أعتذرت من هيئة المحلّفين، آنذاك، لأنّني كنت أشغل منصب الحاكم، وبالتالي ربّما سيتعيّن عليّ في وقت لاحق الحكم في قضيّة المتّهم، باعتبار ذلك جزءاً من عمليّة العفو. وفي طريق الخروج من قاعة محكمة أوستن، صاح أحد الصحفيّين، «هل سبق أن أُلقي القبض عليك بسبب القيادة في حالة سكْر؟» فأجبت: «أنا لا أملك سجلاً مثاليّاً

كشابّ. قمت بكثيرٍ من الحماقات حين كنت شابّاً. ولكنني سأقول لكم هذا، أنا أحثّ الناس على عدم القيادة بعد تناول الكحول».

لم يكن هناك مشكلة من الناحية السياسيّة في الكشف عن مسألة القيادة تحت تأثير الكحول في ذلك اليوم. كانت الانتخابات المقبلة تبعد سنتين، وكنت قد توقّفت عن الشرب. قرّرت عدم التحدّث في الأمر لسببٍ واحد هو ابنتاي. كانت باربرا وجينا ستبدآن القيادة قريباً، وخشيت أنّ يقوّض الكشف عن الموضوع أثر محاضراتي الصارمة عن الشرب والقيادة. لم أكن أريدهما أن تقولا: «أبي فعل ذلك، وانتهى به الأمر إلى خير، إذاً يمكننا نحن أيضاً القيام بذلك».

كانت لورا تسافر معي ذلك اليوم، حين كشفت الصحافة مسألة القيادة تحت تأثير الكحول. اتّصلت بباربرا وجينا لتخبرهما، قبل أن تسمعا ذلك في التلفزيون. ثمّ خرجتُ أمام الكاميرات وأدليتُ ببيان: «أوقفني الشرطيّ، فاعترفت له بأنّني كنت أشرب، ودفعت الغرامة. يؤسفني أنّ الأمر حدث، ولكن هذا هو واقع الأمر. لقد تعلّمتُ الدرس».

إن عدم الكشف عن مسألة القيادة تحت تأثير الكحول، قد يكون الخطأ السياسيّ الأكثر كلفةً لي، في أيّ وقتٍ مضى. في وقتٍ لاحق، قدّر كارل أنّ أكثر من مليوني شخص، وبينهم كثيرون من المحافظين اجتماعيّاً، بقوا في منازلهم، أو غيّروا اتّجاه تصويتهم. كانوا يأملون برئيسٍ مختلف، وبشخصٍ يكون قدوة في تحمّل المسؤوليّة الشخصيّة.

لو أمكنني إعادة فعل الأشياء بطريقة مختلفة، لاعترفت بمسألة القيادة في حالة سكْر، في ذلك اليوم، خارج قاعة المحكمة، ولشرحت خطأي لابنتيّ، ونظّمت لقاءً مع هيئة «أمّهات ضدّ القيادة في حالة سكْر»، لإصدار تحذيرٍ قويّ من تناول الكحول والقيادة. مرّت كلُّ تلك الأفكار في ذهني، بعد أن أويت إلى الفراش، في تلك الليلة في ويسكونسن، وفكّرت بشيء آخر. ربّما تكون كلفة خطأي الرئاسة نفسها.

* * *

بعد خمسة أيّام، تبخّر فارق الأربع نقاط الذي كنت أملكه، قبل أن تُكشف مسألة القيادة في حالة السكْر. قمت بحملةٍ محمومةٍ في الأسبوع الأخير، ووصلت إلى يوم الانتخابات وأنا في سباقٍ حام مع غور. في تلك الليلة، اجتمعتْ عائلتنا الكبيرة، لتناول العشاء، في مطعم شورلّاين، في مدينة أوستن. تبادَلنا الأنخاب، حتّى بدأ نشر استطلاعات الرأي. أعلنتْ شبكات الإعلام فوز غور في بنسلفانيا وميشيغان وفلوريدا. وأكّد مذيع سي بي أس دان راذر لمشاهديه: «دعونا نوضّح شيئاً واحداً منذ البداية: إذا قلنا إنّ مرشّحاً فاز في ولايةٍ معيّنة، يمكنكم اعتبار ذلك شبه مؤكّد. اعتمدوا على ذلك»!

واصل ضيوفُنا الذين لا يعرفون الكثير عن السياسة الثرثرة: «إنّ الليلة ما زالت في أوّلها، وأيُّ شيء يمكن أن يحدث...». أمّا الّذين كانوا يفهمون الخريطة الانتخابيّة، فعرفوا أنّني كنت قد خسرت للتوّ. غضبنا أنا وجيب، لأنّ شبكات التلفزة أعلنت الإحصاءات في فلوريدا، قبل إغلاق مراكز الاقتراع، في بانهاندل، وهو الجزء الكبير من الولاية التي تقع في وسط المنطقة الزمنيّة، ومعظم ناخبيها يؤيّدون الحزب الجمهوريّ. من يعرف كم من المؤيّدين لي قد سمعوا هذا النبأ وقرّروا عدم التصويت؟ انسحبتُ، مع لورا، من حفل العشاء، من دون أن نتذوّق طعامنا.

كانت رحلة العودة في السيّارة إلى قصر الحاكمة هادئة. لا يمكن قول الكثير في حالة الخسارة. كنت محبطاً ومصاباً بخيبة أمل تحت وقع المفاجأة. لم أشعر بمرارة، وكنت على استعداد لقبول حكم الشعب وتكرار كلمات أمّي سنة ١٩٩٢ : «لقد حان الوقت للمضي قُدُماً».

رنّ جرس الهاتف بعد فترةٍ وجيزةٍ من عودتنا إلى المنـزل. تصوّرت أنّ هذه أولى مكالمات التعزية: «أنت أعطيت الحملة أفضل ما لديك...». وبدلاً من ذلك، كان المتّصل كارل. لم يكن مكتئباً، بل متحدّياً، وكان يتحدّث بسرعة. بدأ يقذف المعلومات بأن إحصاءات صناديق الاقتراع، في ولاية فلوريدا، قد ألقت بثقلها على إحدى المقاطعات أو الدوائر الانتخابيّة.

قاطعتُه وطلبت منه أن يعطيني الخلاصة. فقال إنّ التوقّعات، في فلوريدا، خاطئة. ثمّ بدأ الاتّصال بشبكات التلفزة معلناً الحقائق. وخلال ساعتين كان قد أثبت، بصورة منهجيّة، أنّ كبرى شبكات التلفزة كانت على خطأ. في الساعة ٠٨:٥٥ مساء، قامت شبكة سي أن أن وشبكة سي بي أس بإزالة ولاية فلوريدا من العمود الخاصّ بغور، وتبعتهما الشبكات الأخرى.

تابعنا لورا وأنا، النتائج من القصر مع أمّي وأبي وجيب وكثيرٍ من كبار مساعديّ. في نهاية المطاف وصلتْ عائلة تشيني ودون إيفانز ومجموعة من الأصدقاء المقرّبين الآخرين. ومع تقدّم الليل، صار واضحاً أنّ نتيجة الانتخابات سوف تتركّز على ولاية فلوريدا. في الساعة ١:١٥ بعد منتصف الليل، أعلنت شبكات التلفزة نتائج ولاية فلوريدا مرّة أخرى، وهذه المرّة، لمصلحتي. بعد ذلك بقليل اتّصل غور، وهنّأني بشهامةٍ، وقال «بالتأكيد إنّنا شوّقناهم». شكرته وقلت له إنّني على وشك الخروج لتوجيه كلمةٍ إلى حوالي عشرين ألف مؤيّد تجمّدوا تحت المطر والعاصفة. طلب منّي أن أنتظر حتّى يتحدّث مع أنصاره بعد حوالى خمس عشرة دقيقة فوافقت. مرّ بعض الوقت حتّى استوعبتُ الأنباء. فقبل بضع ساعات كنت أستعدّ للمضي قُدُماً في حياتي. أمّا الآن فكنت أستعدّ لأصير رئيساً للولايات المتّحدة.

مرّت خمس عشرة دقيقة ثمّ خمس عشرة دقيقة أخرى، من دون أيّ خطاب إقرار بالهزيمة من غور. كان هناك مشكلة. بدأ جيب العمل على حاسوبه المحمول، لرصد نتائج فلوريدا. قال إنّ الهامش بدأ يضيق. عند الساعة ٢:٣٠ صباحاً، اتّصل بيل دايلي، وهو رئيس حملة غور بدون إيفانز. تكلّم دون مع دايلي باختصار، وأعطاني الهاتف. كان نائب الرئيس على الخطّ. قال لي: إنّ الأرقام، في ولاية فلوريدا، قد تغيّرت منذ آخر مكالمة، وبالتالي هو يتراجع عن إقراره بالهزيمة.

لم يسبق لي أن سمعت عن مرشّح يتراجع عن إقراره بالهزيمة. قلت له: «في تكساس، عندما يتعهّد الشخص بأن يفعل شيئاً، يلتزم ذلك». فأجابني: «لست بحاجةٍ إلى التصرّف النـزق حيال ذلك». بُعيد ذلك، وضعتْ شبكات التلفزة فلوريدا

في فئة غير المحسومة، للمرّة الرابعة خلال ثماني ساعات، وجعلت نتيجة الانتخابات موضع شكّ.

أنا لا أعرف عن موضوع النـزق، لكنّني كنت عصبيّاً. عندما اعتقدت أنّ السباق انتهى، عدنا مرّةً أخرى إلى نقطة الانطلاق. نصحني كثير من الناس الذين كانوا في غرفة الجلوس بالخروج وإعلان النصر. فكّرت بالأمر، حتّى أخذني جيب جانباً، وقال: «لا تفعل ذلك يا جورج. إنّ الأرقام متقاربة جدّاً». وكان الهامش في ولاية فلوريدا قد تراجع إلى أقلّ من ألفي صوت.

كان جيب على حقّ. فأيّ محاولة لفرض نتيجة حاسمة كانت متهوّرة. قلت للجميع إنّ نتيجة الانتخابات لن تقرّر في تلك الليلة. خلد معظمهم إلى النوم، أمّا أنا فمكثت مع جيب ودون اللذين قاما باتّصالات عديدة بفلوريدا. مرّة اتّصل دون بوزيرة خارجيّة ولاية فلوريدا، كاترين هاريس، للحصول على آخر المعلومات. سمعته يصرخ: «ماذا تقصدين بأنّكِ نائمة؟ هل تفهمين أن الانتخابات هي على المحكّ؟ ماذا يحدث»

وبذلك انتهت ليلة غريبة، وبدأت خمسة أسابيع أكثر غرابة.

* * *

من أصل المئة وخمسة ملايين صوت المُدلى بها في كل أنحاء الوطن، اعتمدت نتائج انتخابات سنة ٢٠٠٠ على مئات من الأصوات في ولاية واحدة، وتحوّلت فلوريدا فوراً إلى ساحة معارك قانونيّة. علم دون إيفانز، حوالي الساعة الرابعة والنصف صباحاً أنّ حملة غور أرسلت فريقاً من المحامين لتنسيق عمليّة الفرز، ونصحني أن أفعل الشيء نفسه. واجهت أغرب قرارٍ بالنسبة لاختيار الموظّفين في حياتي في السلك العامّ: مَن أرسل إلى فلوريدا لأضمن حماية تقدّمنا؟

لم يتوفّر أيّ وقتٍ لتشكيل لائحةٍ أو إجراء مقابلات. اقترح دون اسم جيمس بايكر. وكان بايكر الخيار المثاليّ، فهو رجل دولةٍ، ومحامٍ قدير، ويجذب الأشخاص

الموهوبين. اتّصلت بجيم وسألته إذا كان سيتولّى هذه المهمّة. وبعد وقت قصير، توجّه إلى تالاهاسي.

كنّا، لورا وأنا مرهقَين عقليّاً وجسديّاً. وكنّا قد استهلكنا كلّ طاقتنا في السباق. عندما صار واضحاً أنّنا سنواجه عمليّة قانونيّة طويلة، قضينا معظم وقتنا في مزرعتنا في كراوفورد.

رأيت مزرعة بريري تشابل لأوّل مرّة في شباط/فبراير سنة ١٩٩٨. ولطالما أردت أن أملك مكاناً يكون ملاذاً لي من الحياة المزدحمة، كما فعل أبي، في كينيبانكبورت. عندما بعت حصّتي في الرينجرز حصلنا، لورا وأنا، على ما يكفي من المال لإجراء عمليّة شراء.

انجذبت منذ أوّل لحظة شاهدت فيها مزرعة بيني إنجلبرخت الّتي تمتدّ على مساحة ١٥٨٣ فدّاناً، في مقاطعة ماكلينن، تقريباً، في منتصف الطريق بالضبط بين أوستن ودالاس. كانت المزرعة مزيجاً من الأرض الريفيّة المسطّحة الملائمة لرعي الماشية، والوديان الوعرة الّتي تمتدّ إلى مفترق الطرق بين نهر بوسكي وراينى كريك. منظر الحجر الجيريّ من أسفل الأخاديد الّتي تمتدّ إلى عمق تسعين قدماً كانت مذهلة. كذلك كانت الأشجار الضخمة من بقّانٍ وسنديانٍ وأرْزٍ وأشجار متنوّعةً تحمل فاكهةً خضراء. كان المكان يحتوي إجمالاً على أكثر من عشرةٍ أصناف من الأخشاب، وهو أمر نادر في وسط ولاية تكساس.

للفوز برضى لورا، وعدتها ببناء منـزلٍ وطرقٍ جديدةٍ مؤدّيةٍ إلى الأجزاء الأكثر روعةً من المزرعة. وجدت مهندساً شابّاً من جامعة تكساس، يُدعى دايفيد هيمان، صمّم لنا منـزلاً مريحاً مؤلّفاً من طابقٍ واحد، مع نوافذ كبيرة، تُقدّم كلٌّ منها مشهداً فريداً من مزرعتنا. واستخدم الحرارة الجوفيّة وأعاد تدوير المياه لتخفيف التأثير على البيئة. تمّت أكثرية مراحل البناء خلال سنة ٢٠٠٠. وكوننا تخطّينا بنجاحٍ حملة انتخاباتٍ رئاسيّة، وبناء منـزلٍ في السنة نفسها، يدلّ على زواجٍ قويّ، كما يدلّ على صبر لورا بوش ومهارتها.

كانت المزرعة المكان المثاليّ للاستراحة من العاصفة التي أعقبت الانتخابات. اتّصلتُ، بشكلٍ منتظم، بجيم بيكر، للحصول على آخر المعلومات وتقديم التوجيهات حول الاستراتيجيّة. قرّرت، باكراً، أن أجتنب التغطية التلفزيونيّة المتواصلة والمنهكة. وبدلاً من ذلك ركضت مسافات طويلة، الأمر الذي منحني فرصةً للتفكير بالمستقبل وحرق طاقةٍ عصبيّةٍ بنزع أشجار الأرْز التي تستهلك المياه التي تحتاجها الأشجار المحلّيّة. كما مشيت، مع لورا، قرب الغور. إذا صرتُ رئيساً، سأكون نشيطاً وجاهزاً للمرحلة الانتقاليّة.

كانت هناك لحظات دراماتيكيّة قويّة على طول الطريق. في الثامن من كانون الأول/ديسمبر، أي بعد مرور شهرٍ ويوم واحدٍ على الانتخابات، كنت ولورا قد عدنا إلى أوستن. بعد ظهر ذلك اليوم، كانَ من المفترض أن تُصدر المحكمة العليا في فلوريدا، قراراً كان جيم بيكر واثقاً من أنّه سيجعل انتصاري رسميّاً.

قمنا، لورا وأنا، بدعوة أصدقائنا بن وجولي كرينشو، لمشاهدة الإعلان. بن هو أحد أبرع لاعبي الغولف في عصره، وواحد من أكثر الناس شعبيّةً في مهنة الرياضة. انضمّ بن اللطيف إلى الجماهير التي احتشدت طَوال الأسابيع القليلة الماضية للاحتجاج، خارج قصر الحاكم. وكان بعضهم من أنصار آل غور، ولكنّ الكثيرين دعموني. حملتْ إحدى بنات بن وجولي الثلاث لافتةً كُتب عليها عبارة «سور-لوزرمان» (التي تعني: المحتقن والفاشل) وهو لعب على اسم تحالف غور ليبرمان. وكان بن قد صنع لافتةً ورديّةً عليها عبارة «يا ولاية فلوريدا، لا نقبل بتكرار الأمر نفسه لمنح الآخرين فرصة غير مستحَقَّة» اجتمعنا أنا وبن وجولي ولورا في غرفة الجلوس بانتظار الحكم. كسرتُ قاعدة عدم مشاهدة التلفزيون على أمل أن أتمكّن من اختبار النصر مباشرة. حوالي الساعة الثالثة، توجّه المتحدّث باسم المحكمة نحو المنبر. استعددت لاحتضان لورا. ثمّ أعلن أنّ المحكمة حكمت لصالح غور بتصويت ٤-٣. شرّع القرار إعادة فرز يدويّة للأصوات على مستوى الولاية، وهي عمليّة تكرارٍ أخرى.

اتّصل بي جيمس بايكر بعد برهة، ليسأل عمّا إذا كنت أريد أن آخذ قضيّتي إلى المحكمة العليا. وشعر مع تيد أولسون، وهو محامٍ بارز وظّفه جيم، بأنّ لدينا حجّةً قويّة. وأوضحا أنّ الاستئناف خطوة محفوفة بالمخاطر. قد ترفض المحكمة العليا النظر في القضيّة، أو قد تصدر حكماً ضدّنا. طلبت من جيم أن يقوم بالاستئناف، وكنت مستعدّاً لقبول قدري. وكانت البلاد بحاجةٍ للوصول إلى ختام المسألة أيّاً كانت النتيجة.

في ١٢ كانون الأول/ديسمبر، وكان اليوم الثلاثين بعد الانتخابات، كنت أرقد مع لورا في الفراش، عندما اتّصل كارل وأصرّ على أن أشاهد التلفزيون. أصغيت باهتمام إلى بيت وليامز من أن بي سي نيوز وهو يقوم بإيضاح حكم المحكمة العليا. وجد القضاة بأغلبيّة ٧-٢ أنّ عمليّة إعادة فرز الأصوات، في ولاية فلوريدا، اتّسمت بالفوضى، وبالتالي انتهكت بند الدستور المتعلّق بالحماية المتساوية. وبأغلبيّة ٥-٤، قضت المحكمة بأن ليس هناك أيّ وسيلة عادلة لإعادة فرز الأصوات في الوقت المناسب، حتّى تشارك فلوريدا في Electoral College. إذاً ستبقى نتائج الانتخابات على حالها. فزت في فلوريدا بنتيجة ٢٩١٢٧٩٠ مقابل ٢٩١٢٢٥٣. وبذلك صرتُ الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتّحدة.

ردّ فعلي الأوّليّ كان الشعور بالفرح. ألقت حالة التأرجح بثقلها على البلاد، وبعد كلّ مراحل الصعود والهبوط، لم يكن لديّ القدرة العاطفيّة على الابتهاج. كنت آمل أن أتشارك بانتصاري مع العشرين ألف شخصٍ في العاصفة، ليل الانتخابات. وبدلاً من ذلك، صرتُ على الأرجح الشخص الأوّل، الذي يعرف أنّه فاز بالرئاسة وهو يرقد في الفراش ويشاهد التلفزيون مع زوجته.

* * *

طوال السنوات المئة والأربعين الأولى من التاريخ الأميركي، جرت احتفالات التنصيب الرئاسيّة يوم ٤ آذار/مارس. وكان لدى الرئيس المنتخَب، في مطلع تشرين

الثاني/نوفمبر حوالى ١٢٠ يوماً للتحضير. في سنة ١٩٣٣، جعل التعديل العشرون للدستور يوم التنصيب في ٢٠ كانون الثاني/يناير، وبالتالي تمّ تقصير متوسّط الفترة الانتقاليّة إلى حوالى ٧٥ يوماً. عندما حُلّت مشكلة انتخابات سنة ٢٠٠٠ بصدور قرار المحكمة العليا في قضيّة بوش ضدّ غور، كان لديّ ٣٨ يوماً.

كان القرار الكبير الأوّل الّذي اتّخذته يتعلّق بكيفيّة إدارة البيت الأبيض وعمله، وهو سؤال كنت قد فكّرت فيه من قبل. ففي سنة ١٩٩١، طلب منّي والدي القيام بدراسة عن البيت الأبيض. بعد إجراء مقابلاتٍ مع جميع كبار الموظّفين، برز موضوع مشترك: كانوا غير راضين. شعر معظمهم بأنّ كبير موظّفي البيت الأبيض جون سنونو حرمهم من الوصول إلى المكتب البيضاويّ وحدّ من وصول المعلومات إلى والدي. لطالما أحببت جون، ولكنّ وظيفتي لم تكن مناقشة القضيّة، بل تقديم تقريرٍ عن النتائج. وقد فعلت ذلك قبل أيّام عدّة من عيد الشكر سنة ١٩٩١. وخلص أبي إلى أنّ هناك حاجةً لإجراء تغيير. طلبً منّي إبلاغ جون، وهو ما قمت به من خلال محادثةٍ صعبة، قدّم استقالته بعدها بقليل.

كنت مصمّماً على تجنّب هذه المشكلة في البيت الأبيض. سعيت إلى هيكليّة تضمن تدفّقاً منظّماً للمعلومات وفي الوقت نفسه تسمح لي الحصول على المشورة من مصادر متنوّعة. كان مهمّاً أن يشعر المستشارون عندي بالحرّيّة في التعبير مباشرةً عن شواغلهم، دون المرور عبر أيّ وسيط. وسيكون من الأسهل إقناع كبار أعضاء أسرتي السياسيّة في تكساس بالانتقال إلى واشنطن، إذا كان بإمكانهم الوصول إليّ بشكلٍ منتظم.

وكان المفتاح لإنشاء هذه الهيكليّة هو أن يكون كبير الموظّفين ذا خبرة، واثقاً من نفسه، وبالتالي لا يشعر بأنّه مهدّد من علاقاتي مع مرؤوسيه. ومن المفارقات أنّني وجدت الرجل المثاليّ في نائب جون سنونو، آندي كارد. عندما كنت أزور البيت الأبيض، خلال رئاسة والدي، اعتدت على المرور بمكتب آندي للحصول على موجزٍ صريحٍ عن مسار الأمور. وكان آندي واسع الإدراك ومتواضعاً ومخلصاً، ويعمل

بشكل دؤوب. خدم مع كلّ من كبار الموظّفين خلال عهد ريغان وبوش. وكان يملك الرأي الحكيم، والطبع الثابت اللذين كنت بحاجة إليهما بالإضافة إلى قلبٍ محبّ وروح دعابة. كنت مقتنعاً أنّه الشخص المناسب لقيادة مكتبنا في البيت الأبيض.

قبل أسبوعين من الانتخابات، التقيت بآندي، في السرّ، في فلوريدا. كان واضحاً أنّه يعتقد أنّني سوف أطلب منه أن يقود المرحلة الانتقاليّة. قلت له: «لا، أنا أتحدّث عن المركز الكبير». وشرحت أنه سيكون كبير الموظّفين الوحيد، ولكنّني سأعتمد أيضاً اعتماداً كبيراً على أشخاص من تكساس أمثال كارل وكارين وآل غونزاليس وهارييت مايرز وكلاي جونسون ودان بارتليت، للحصول على المشورة. وافق آندي على تولّي المهمّة مادمت أبلّغه أيّ قرارات تُتّخذ في غيابه. أعلنت اختياري له في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ممّا جعله أوّل عضو رسميّ في فريقي في البيت الأبيض.

وكان المنصب المهمّ الآخر هو مستشار الأمن القوميّ. كنت أعرف، من خلال مراقبتي علاقة والدي الوثيقة ببرنت سكوكروفت، أنّ إيجادَ شخصٍ ذي قدرةٍ عاليةٍ وموثوقٍ تماماً أمرٌ بالغ الأهمّيّة.

في رحلةٍ إلى ولاية ماين في صيف سنة ١٩٩٨، عرّفني والدي بكوندوليزا رايس التي كانت تشغل منصب الاختصاصيّ في شؤون الاتّحاد السوفياتي في مجلس الأمن الوطنيّ عنده. كوندي ابنة قسّيس أميركيّ من أصل أفريقيّ من برمنغهام في ولاية ألاباما، تحمل شهادة الدكتوراه من جامعة دنفر، وصارت عميد جامعة ستانفورد في سنّ الثامنة والثلاثين. أعطتني انطباعاً على الفور بأنّها امرأة ذكيّة وحسّاسة ومملوءة حيويّة.

على مدى عامين ونصف العام، اجتمعت بكوندي في كثيرٍ من الأحيان لمناقشة السياسة الخارجيّة. في أحد الأيّام في صيف سنة ١٩٩٩، كنّا، أنا ولورا وكوندي نمشي مسافاتٍ طويلةً في مزرعتنا. عندما بدأنا بتسلُّق مرتفع حادّ، انطلقت كوندي

في خطابٍ عن تاريخ منطقة البلقان، بينما كنّا أنا ولورا نتنفّس بصعوبة. استمرّت كوندي بالكلام وهي توضح تفكّك يوغوسلافيا وتقدّم ميلوسوفيتش. فصار هذا الدرب معروفاً الآن بتلّ البلقان. قرّرتُ أنّه إذا انتهى بي الأمر إلى المكتب البيضاويّ، أريد كوندي رايس إلى جانبي.

أمّا اختيار العضو الأوّل في مجلس الوزراء فكان سهلاً. كولن باول سيصير وزيراً للخارجيّة. التقيت به لأوّل مرّة في كامب دايفيد في سنة ١٩٨٩، عندما كان رئيس هيئة الأركان المشتركة. أتى مع ديك تشيني لإطلاع والدي على استسلام الديكتاتور البنميّ مانويل نورييغا، وكان يرتدي زيّه العسكريّ. على عكس لباسه الرسميّ، كان كولن حسن المحيّا وودّيّاً. تحدّث إلى الجميع في الغرفة ومن ضمنهم أولاد الرئيس.

كان كولن موضوع إعجاب على نطاقٍ واسعٍ في الداخل وتأثيرٍ عظيمٍ في جميع أنحاء العالم. وجدتُ أنّ بإمكانه أن يدافع عن مصالح الولايات المتحدة وقيمها بصدقيّة، من تقوية حلف شمال الأطلسيّ إلى تأمين حرّيّة أكبر في التجارة العالميّة. اعتقدت أن بإمكان كولن أن يكون جورج مارشال الثاني: عسكريّ يتحوّل إلى رجُل دولة.

بقي منصبان رئيسيّان على مستوى الأمن القوميّ، وهما وزير الدفاع ومدير المخابرات المركزيّة. كان قد مرّ أكثر من عقد من الزمان على سقوط جدار برلين، وما زالت أجزاء كثيرة من وزارة الدفاع مصمّمة خصّيصاً لخوض الحرب الباردة. كنت قد أسّست حملتي الانتخابيّة على رؤيةٍ طموحةٍ لإعادة إنشاء الجيش. خطّطت لإعادة تنظيم قوّتنا العسكريّة والاستثمار في تقنيّات حديثة، مثل الأسلحة الدقيقة والدفاع الصاروخيّ. كنت أتوقّع مقاومة داخل البنتاغون، لذا كنت بحاجةٍ إلى وزير دفاعٍ عنيدٍ ومبتكرٍ لقيادة المهمّة.

وكان المرشّح الأوّل فريد سميث وهو المؤسّس والرئيس التنفيذيّ لشركة

فيديكس. تخرّج فريد من جامعة ييل قبل تخرُّجي بسنتين، وحصل على النجمة الفضّيّة في سلاح مشاة البحريّة في فيتنام، وبنى شركته لتصير واحدةً من أنجح الشركات في العالم. كان يحبّ الجيش ويمكنه أن يكون عقلاً تنظيمياً في البنتاغون. اتّصل آندي كارد بفريد وعلم أنّه مهتمّ بهذا المنصب، فدعاه إلى أوستن. كنت مستعدّاً لإيقاف عرض المنصب على فريد، ولكن قبل أن يقوم بالرحلة، وجد أنّه مصاب بمرض في القلب. كان عليه أن يعتذر من أجل التركيز على حالته الصحّيّة.

درسنا مجموعة من الأسماء الأخرى لمنصب وزير الدفاع، ومن ضمنهم دان كوتس، وهو عضو مجلس الشيوخ من ولاية أنديانا. ثمّ عرضَت كوندي فكرةً مثيرةً للاهتمام: وماذا عن دونالد رامسفيلد؟

شغل دون منصب وزير الدفاع قبل خمسٍ وعشرين سنة، حين كان فورد رئيساً. ومنذ ذلك الحين عمل ضمن عددٍ من لجان الأمن القوميّ المؤثّرة. كنت قد فكّرت في رامسفيلد مديراً لوكالة الاستخبارات المركزيّة، وليس وزيراً للدفاع. عندما قابلته، وضع دون تصوّراً آسراً لتحويل وزارة الدفاع. وتحدّث عن تحويل قوّاتنا أخفّ وزناً، وأكثر مرونةً، وأكثر قدرةً على الانتشار السريع. كما دعم، بقوّةٍ، فكرة نظام الدفاع الصاروخيّ في وجه الدول الخارجة عن القانون الدوليّ مثل كوريا الشماليّة وإيران.

أثار رامسفيلد إعجابي. كان صاحب معرفةٍ واسعةٍ، وواثقاً بنفسه، وقادراً على التعبير بوضوح. كوزيرٍ سابقٍ للدفاع، كان يملك القوّة والخبرة لإحداث تغييرات رئيسيّة في البنتاغون. سيتمكّن من أن يدير لا أن يُدار. وقد أوصى به بقوّة ديك تشيني، الذي كان نائباً لدون عندما شغل منصب كبير الموظّفين في البيت الأبيض أيّام فورد.

كان هناك قضيّة دقيقة واحدة. اعتقد البعض أنّ دون استخدم نفوذه لإقناع الرئيس فورد بتعيين أبي مديراً لوكالة الاستخبارات المركزيّة سنة ١٩٧٥ كوسيلةٍ

لإخراجه من المنافسة على منصب نائب الرئيس. لم يكن عندي وسيلة لمعرفة ما إذا كان هذا صحيحاً. ولكن مهما كانت خلافاته مع أبي قبل خمسٍ وعشرين سنة لم أشعر بالقلق ما دام بإمكان دون القيام بهذه المهمّة. صار دون أصغر وأقدم شخصٍ يعمل كوزيرٍ للدفاع على حدّ سواء.

بتعيين رامسفيلد وزيراً للدفاع، لم يعد لديّ مرشّح بارز لإدارة وكالة الاستخبارات المركزيّة. كان لديّ احترام كبير للوكالة نتيجة عمل والدي السابق هناك. فيما كنتُ أعمل على تلقّي معلومات استخباراتيّة، بصفتي الرئيس المنتخَب لبضعة أسابيع، التقيت المدير جورج تينيت. وكان على عكس نمط مدير وكالة المخابرات المركزيّة الذي تقرأ عنه في روايات التجّسس: ينتمي إلى النخبة، وقد تخرّج من أكبر الجامعات، ويلبس لباساً رسميّاً طوال الوقت. كان تينيت من الطبقة العمّاليّة وهو ابن مهاجرين يونانيّين من مدينة نيويورك. يتحدّث بصراحة ويستخدم كلاماً بذيئاً أحياناً، وكان واضحاً أنّه يهتمّ كثيراً لأمر الوكالة.

إن الإبقاء على مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة من عهد كلينتون يعطي انطباعاً بالاستمراريّة ويبيّن أنّني أعتبر الوكالة فوق السياسة. طلبت من أبي الاتّصال ببعض معارفه في وكالة الاستخبارات المركزيّة، فقال لي إنّ تينيت يحظى باحترامٍ كبيرٍ في صفوف أعضاء الوكالة. عندما تعارفنا، أنا وجورج، جيّداً، قرّرت التوقّف عن البحث عن بديل. وقرّر المدير اليونانيّ مدخّن السيجار، إلى العمق، البقاء.

* * *

إجمالاً، عمل فريق الأمن القوميّ بسلاسةٍ في السنوات الأولى من مدّة الرئاسة على عكس الفريق الاقتصاديّ. نتجت المشكلة جزئيّاً من عدم تطابق الموظّفين. بصفتي رئيساً، كان عندي ثلاثة مستشارين اقتصاديّين رئيسيّين وهم: مدير المجلس الاقتصاديّ الوطنيّ ورئيس مجلس المستشارين الاقتصاديّين ووزير الخزينة. اخترت لاري ليندسي، وهو اقتصاديّ بارز ومستشار أساسيّ في حملتي، لقيادة

المجلس الاقتصاديّ الوطنيّ. أمّا جلين هوبارد وهو أيضاً اقتصاديّ جيّد، فترأّس مجلس المستشارين الاقتصاديّين. وقد نجح في تصميم التخفيضات الضريبيّة التي كنت قد اقترحتها خلال الحملة الانتخابيّة. فصدرت التشريعات بأغلبيّة واسعة من الحزبين.

لكنّ وزير الخزينة لم يشاركنا الحماس نفسه للتخفيضات الضريبيّة. جاء بول أونيل، بناءً على توصياتٍ من ديك وكلاي جونسون وغيرهما في الفريق. تضمّنت سيرته الذاتيّة القويّة النجاح في مديريّة الإدارة والميزانيّة وكرئيسٍ تنفيذيّ لشركة ألكوا، وهي شركة مدرجة في فورتشن ١٠٠. شعرت أنّ خبرته العمليّة في مجال التجارة ستحظى بالاحترام في وول ستريت والكابيتول هيل.

للأسف، سارت الأمور بشكلٍ خاطئ منذ البداية. قلّل بول من أهمّيّة التخفيضات الضريبيّة، الأمر الذي أساء إليّ بالطبع. التقينا بانتظام لكنّنا لم ننسجم أبداً. لم يكسب ثقتي كما أنّه لم يبنِ صدقيّة لنفسه مع المجتمع الماليّ أو الكونغرس أو زملائه في الإدارة. كنت آمل إيجاد وزير خزينة قويّ ـ زعيم مثل جيمس بيكر وبوب روبين ـ يدعم سياساتي الاقتصاديّة في الخطَب وعلى شاشة التلفزيون. في أواخر سنة ٢٠٠٢، كان ما يقارب مليوني أميركيّ قد فقدوا وظائفهم في العام السابق، ولم يكن بول ينقل تصميمنا على إعادتهم إلى العمل. بدلاً من ذلك، استخدم اجتماعاته في المكتب البيضاويّ للحديث عن مواضيع عرضيّة، مثل خطّته لتحسين سلامة العاملين في مصانع العملة الأميركيّة.

لم أكن أريد أن أكرّر خطأ والدي سنة ١٩٩٢ عندما اعتُبر غير مهتمّ بالاقتصاد. قرّرت أنّ هناك حاجةً لإجراء تغييرات في الفريق الاقتصاديّ كأفضل وسيلةٍ للإشارة إلى أن حكومتي جادّة في مواجهة التباطؤ الاقتصاديّ الذي يؤثّر على حياة الأميركيّين العاديّين. وحتّى يكونَ التغييرُ ذا صدقيّة، كان عليه أن يكون شاملاً. وكان لاري ليندسي قد حقّق نجاحاً، وبالتالي لم يكن سهلاً أن أطلب منه ترك منصبه. تفهّم الحاجة إلى بدايةٍ جديدةٍ وتعامل مع الخبر مهنيّاً. أمّا بول فلم يكن ردّ فعله جيّداً. لقد

شعرت بخيبة أمل أنّ غادر بطريقةٍ سيّئةٍ، ولكنّني سررت لأنّني أخذت القرار عندما فعلت.

* * *

في الصيف التالي تلقّيت دعوةً غير متوقّعةٍ لإجراء تغيير آخر. كلّ أسبوع، كنت أتناول وجبة غداء مع ديك تشيني لوحدنا. جيمي كارتر ووالتر مونديل بدآ هذا التقليد الّذي استمرّ منذ ذلك الحين. أحببت إطار الاسترخاء وفرصة سماع أفكار ديك. وفي حين كان لي لقاءات مماثلة مع كبار مساعديّ الآخرين، كان الغداء الأسبوعيّ مع ديك اللقاء المنتظم الوحيد. ولم أكن أعتبر نائب الرئيس مستشاراً أساسيّاً فحسب. فقد ترشّح معي وانتُخِب معي. أردته أن يكون مرتاحاً في جميع القضايا التي أعالجها إذ يمكن أن تصير ضمن مسؤوليّته في أيّ لحظة.

كنّا، أنا وديك، نتناول الطعام في غرفة الطعام الصغيرة قبالة المكتب البيضاويّ. شملت زينة الغرفة منحوتة ثورٍ برونزية أهداني إيّاها أصدقاء من شرق تكساس، ولوحةً عليها مناظر طبيعيّة تذكّرني بساحل ولاية ماين. وكانت اللوحة الفنّيّة المهيمنة في الغرفة صورة لجون كوينسي آدامز، الشخص الآخر الوحيد الذي تولّى الرئاسة كما فعل أبوه. وقد علّقتها على الحائط كمزحةٍ بيني وبين أبي. في أحد الأيّام في أوائل فترة رئاستي، حاول إغاظتي بالتعليق على القرابة بين كوينسي أدامز وأبيه. وأردت أن يضطرّ إلى النظر في وجه كوينسي في المرّة القادمة حين يشعر بالرغبة في إثارة غيظي. كنت قد قرأت الكثير عن كوينسي، وأُعجبت بمبادئه حول إلغاء العبوديّة، على الرغم من أنني لم أكن أحبّذ حملته لاستبعاد ولاية تكساس من اتّحاد الولايات الأميركيّة. ومع ذلك، أبقيت صورته طوال فترة وجودي في البيت الأبيض.

في منتصف سنة ٢٠٠٣، افتتح ديك إحدى الوجبات الأسبوعيّة بتعليقٍ مذهل. قال: «سيّدي الرئيس، أريد منك أن تعرف أنّه يجب عليك ألاّ تتردّد في اختيار شخصٍ آخر ليترشّح معك لإعادة انتخابك. ليس عندي مشكلة في ذلك». سألته

عن صحّته، فقال: «إنّ حالة قلبي جيّدة. أعتقد ببساطة أنّه يجب أن يكون عندي خيار إعادة تشكيل التحالف»، فترك عرضه انطباعاً جيّداً لديّ. خرج ذلك عن نمط المتعطّشين إلى السلطة في واشنطن، كما أثبت الأسباب التي جعلتني أختار ديك في بادىء الأمر.

فكّرت في عرضه، وتحدّثت مع آندي وكارل وآخرين عن إمكانيّة الطلب من بيل فريست، وهو السيناتور المدهش من تينيسي الذي صار زعيم الأغلبيّة، ليترشّح معي بدلاً من ديك، إذ كنا نتوقّع جميعاً أن تكون انتخابات ٢٠٠٤ دقيقةً أيضاً. ساعد ديك في بناء أجزاء مهمّة من قاعدتنا، لكنه صار مثار انتقادات من وسائل الإعلام واليسار. وكان يُنظر إليه على أنّه مظلم وبلا قلب، وهذا ما يشبه دارث فادر (شخصيّة في أفلام ستار وورز) الإدارة. لم يهتمّ ديك كثيراً بأمر الصورة التي كُوّنت عنه ـ وقد قدّرت ذلك ـ ولكنّ ذلك سمح بتثبيت الصورة الكاريكاتوريّة عليه. ادّعت إحدى الخرافات أنّ ديك كان يدير فعليّاً البيت الأبيض. وكان الجميع حولي بمن في ذلك نائب الرئيس يعرف أنّ هذا ليس صحيحاً، لكنّ هذا الانطباع كان موجوداً. كانت موافقتي على عرض ديك إحدى الطرائق لإثبات أنّني المسؤول.

كلّما فكّرت في ذلك، اقتنعت بأنّ ديك يجب أن يبقى. لم أختره ليعطيني رصيداً سياسيّاً بل لمساعدتي في القيام بهذه المهمّة، وكان ذلك ما قام به بالضبط. قبل أيّ مهمّة طلبت منه تولّيها، أعطاني آراءه الصريحة، كما فهم أنّني من يأخذ القرارات. وعندما اختلفنا، بقي الأمر طيّ الكتمان. الأهمّ من ذلك هو أنّني وثقت بديك. قدّرت ثباته، واستمتعت برفقته، وصار صديقاً مقرّباً منّي. خلال إحدى وجبات الغداء بعد أسابيع قليلة، طلبت من ديك البقاء فوافق.

* * *

مع اقتراب انتخابات سنة ٢٠٠٤، بدأت أشعر بالقلق من تزايد الشقاق داخل فريق الأمن القوميّ. في معظم الإدارات يكون هناك احتكاك طبيعيّ بين الدبلوماسيّين

في وزارة الخارجيّة والمحاربين في وزارة الدفاع. وزير الخارجيّة جورج شولتز ووزير الدفاع كاسبار واينبرغر خاضا معارك شهيرة بمواجهة بعضهما خلال رئاسة ريغان.

استبدل الرئيس فورد وزير الدفاع جيمس شليسنجر أساساً لأنّه لم يتّفق مع هنري كيسنجر. لم يكن عندي مشكلة مع بعض التوتّر الخلاّق في المنظّمة. فالاختلافات في الرأي بين المستشارين تساعد في توضيح القرارات الصعبة. الأمران الضروريّان هما التعبير عن هذه الاختلافات باحترام واعتبار قراراتي نهائيّة.

بعد تحرير أفغانستان، بدت المشاحنات بين وزير الخارجيّة ووزير الدفاع مقبولة. ولكن عندما اشتدّ النقاش حول العراق، بدأ الموظفون الرسميّون داخل الإدارات المعنيّة أعمال القنص بشراسةٍ، بعضهم على بعض. وكان كولن ودون يتصرّفان دائماً باحترام أحدهما الآخر في حضوري. مع مرور الوقت أدركت أنّهما كانا مثل زوجٍ من المبارزين القدامى اللذين يحتفظان بمسدّسيهما في حافظتيها ولكنّهما يدعان معاونيهما يتراشقان بالرصاص.

المثال على ذلك، مرّةٌ لا تنسى، حين كان دون رامسفيلد يقدّم موجزاً للصحافة وهو ما كان يقوم به يوميّاً تقريباً منذ بداية الحرب في أفغانستان. كانت مشاهدة دون وهو تعامل مع الصحافة، متعة. كان خبيراً في تحاشي الأسئلة التي يطرحها الصحفيّون، وفي المناظرة بذوقٍ وحماسة. استمتعت بإغاظته بذكر نجوميّته في برامج التلفزيون في فترة ما بعد الظهر. قلت له: «أنت معشوق المتفرّجين فوق الستّين». وكان ردّ فعله مرحاً.

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، سأل مراسل التلفزيون الهولنديّ دون سبب عدم تلقّي أميركا دعماً أكبر من حلفائها الأُوروبيّين لمحاسبة صدّام حسين. قال دون: «أنت تفكّر في أوروبا المتمثّلة بألمانيا وفرنسا، وأنا لا. أعتقد أنّ تلك أوروبا القديمة».

اتّفقت مع دون على تلك النقطة. لقد عانت الديمقراطيّات الجديدة في وسط أوروبا وشرقها من كابوس الطغيان من تجربتها المباشرة معه، وبالتالي فهي تدعم

الحرب ضدّ صدّام حسين. لكنّ الصحافة لم تتبنّ هذا التفسير المنطقيّ. إن طريقة وصف دون ألمانيا وفرنسا بـ«أوروبا القديمة» أشعلت موجةً من الاحتجاج.

كان كولن غاضباً. فهو كان يحاول إقناع الألمان والفرنسيّين بالانضمام إلينا في مسعانا في الأمم المتّحدة ، وشعرت بأنّ دون قد تخطّى حدوده بطريقة تعقّد مهمّته الدبلوماسيّة. كما كان واضحاً أنّ مرؤوسيه شعروا الشعور نفسه. بدأت النزاعات السياسيّة الّتي كانت تحصل سابقاً وراء أبوابٍ مغلقةٍ تتسرّب إلى الصحافة.

غضبتُ حين قرأت عناوين مثل «البيت الأبيض مقسّم: إدارة بوش في حالة حرب أهليّة»، و«دور بوش التالي: وسيط في خلافات بشأن إدارة عراق ما بعد الحرب». أعلنت في اجتماعات مجلس الأمن القوميّ أنّ تلك المشاحنات والتسريبات تضرّ بصدقيّتنا وتساعد منتقدينا. تحدّثت مع كولن ودون، كلّ على حدة. كما طلبت من ديك وكوندي العمل وراء الكواليس. وأصدرت تعليماتي لنائب كوندي الماهر، ستيف هادلي، أن يطلب من المعاونين تبريد الأجواء. لكن الأمر لم ينجح.

* * *

في ربيع سنة ٢٠٠٤، جاءني دون بأنباء خطيرة. قام عدد من الجنود الأميركيّين بإساءة معاملة المُعتقَلين في سجن أبو غريب العراقيّ مزدرين بذلك أوامرهم والقانون العسكريّ. شعرت بالقرف لأن هذا التصرّف عكس ما تمثّله قوّاتنا العسكرية أو بلدنا. تمّت محاكمة الجناة عسكريّاً، لكن سمعة الولايات المتّحدة تلقّت ضربة قاسية. اعتبرت هذا الحدث مرحلةً سيّئةً من عهدي.

وشعرت أيضاً بالصدمة لأن دون كان قد أخبرني أنّ الجيش يحقّق بشأن تقارير عن انتهاكات في السجن، ولكن لم يكن لديّ أيّ فكرة عن مدى بشاعة الصوَر. شاهدت الصوَر، لأوّل مرّة، عندما تمّ بثّها عبر برنامج «٦٠ دقيقة»، ولم أكن راضياً عن الطريقة الّتي تمّ التعامل بها مع الوضع، وكذلك كان الفريق في البيت الأبيض. بدأ الناس بالحديث إلى الصحافة وتوجيه الاتّهامات إلى أفراد، وبخاصةٍ إلى وزير الدفاع.

عندما علم دون، أعطاني ملاحظةً مكتوبةً بخطّ اليد :

«سيّدي الرئيس، سأقدّم استقالتي كوزيرٍ للدفاع في أي وقت تشعر أنّه سيكون مفيداً لك».

«اتّصلت بدون تلك الليلة وقلت له إنّني لن أقبل استقالته. لم أُوجّه أيّ ملامةٍ على سوء سلوك الجنود في أبو غريب، ولم أكن أريد أن أجعله كبش محرقة. كنت بحاجةٍ لحلّ المشكلة، وكنت أريد أن يفعل ذلك بنفسه. بعد أربعة أيّام بعث دون رسالةً أخرى أطول كتب فيها:

خلال الأيّام الأخيرة، فكّرت كثيراً في الوضع، وقدّمت إفادتي أمام الكونغرس، وأخذت وجهة نظرك بعين الاعتبار. أحترمك احتراماً كبيراً، وأحترم قيادتك البارزة في الحرب العالميّة على الإرهاب، وآمالك في وطننا. ومع ذلك، فقد خلصتُ إلى أنّ استقالتي هي أفضل طريقة للتصرّف حيال الأضرار الناجمة عن الاعتداءات الّتي حصلت على يد أفراد، أتحمّل مسؤوليّة أفعالهم في النهاية.

لقد احترمتُ دون لتكرار عرضه. كان واضحاً أنّ رسالته لم تكن مجرّد إجراء شكليّ، وكان جادّاً في الرحيل. كان تصرّفه شاهداً على شخصيّته وولائه لمركزه وفهمه الضرر الّذي نتج عن حادثة أبو غريب. فكّرت بجدّيّة بقبول مشورته. كنت أعرف أنّ تبديل رئيس البنتاغون، بعد هذا الخطأ الفادح، سيرسل إشارةً قويّة. ولكن، كان ثمة عامل كبير يمنعني من فعل ذلك: فلا بديل واضح لدون، وأنا لا يمكنني أن أسمح بوجود فراغٍ على رأس وزارة الدفاع.

في حين قرّرت رفض استقالة دون، اتّسم ربيع سنة ٢٠٠٤ بنهاية فترة تسامحي في الخلافات داخل فريق الأمن الوطنيّ. فما بدأ على شكل توتّر خلاّق صار مدمّراً. كانت القصص عن الخلافات تزيد الانطباع بوجود الفوضى داخل الإدارة وبذلك تغضبني. واستنتجت أنّ العداء عميق إلى حدّ أن الحلّ الوحيد هو تغيير فريق الأمن الوطني برمّته بعد انتخابات سنة ٢٠٠٤.

كولن باول وضع الأمر أمامي، فخلال الربيع نفسه من تلك السنة، قال لي إنّه على

استعداد للرحيل. كان قد أمضى ثلاث سنواتٍ صعبةً ممّا جعله يشعر بالإرهاق. وكان أيضاً رجُلاً حسّاساً، تأثّر بالصراع الداخليّ وأُثبطت عزيمته بسبب الفشل في إيجاد أسلحة الدمار الشامل في العراق. طلبت من كولن البقاء خلال فترة الانتخابات، وكنت شاكراً لأنّه وافق.

أعطاني الإنذار المبكّر متّسعاً من الوقت لأفكّر في خلف. أعجبني كولن، ولكن كان يبدو لي أحياناً أنّ وزارة الخارجية التي يقودها لا تدعم فلسفتي وسياساتي. كان مهماً عندي ألاّ يكون هناك اختلاف في الآراء بين الرئيس ووزير الخارجيّة. بعد أن قضينا ستّ سنوات معاً في البيت الأبيض وفي الحملة الانتخابيّة، صرت قريباً جدّاً من كوندي رايس. كان بإمكانها فهم أفكاري ومزاجاتي. تشاركنا الرؤية نفسها للعالمَ كما لم تكن تخشى إخباري عندما تختلف معي في الرأي.

تملك كوندي مجموعةً من المواهب المثيرة للإعجاب. شاهدتها تُطلع أعضاء الكونغرس والصحافة على قضايا الأمن القوميّ الحساسّة. كانت عازفة بيانو موهوبة وعزفت مع يويوما، وكانت مصدر وحي للناس الذين سمعوا قصّة نشأتها في الجنوب المنفصل. كما أنّها عرفت كيفيّة التعامل مع بعض أكبر الشخصيّات في العالم.

رأيت ذلك في آذار/مارس ٢٠٠١، عندما عقدت اجتماعاً حول سياسة كوريا الشماليّة لتحضير لقائي في اليوم التالي مع الرئيس الكوري الجنوبيّ كيم داي جونغ، وهو الأوّل مع رئيس دولة آسيويّة. كانت الإدارة السابقة قدّمت تنازلات للدكتاتور الكوريّ الشماليّ كيم جونغ إيل في مقابل تعهّده بالتخلّي عن برنامجه لتصنيع الأسلحة النووية. لم تنجح تلك السياسة، وقلت للفريق أنّه علينا تغييرها. إنّ كوريا الشماليّة يجب أن تغيّر سلوكها قبل أن تقدّم أميركا أيّ تنازلات.

في الساعة ٥:١٥ من صباح اليوم التالي، قرأت صحيفة واشنطن بوست. افتتحت إحدى المقالات بجملة: «صرّح وزير الخارجيّة كولن باول أمس بأنّ إدارة بوش

تعتزم إكمال المفاوضات التي بدأتها إدارة كلينتون مع كوريا الشماليّة بشأن برنامج الصواريخ».

ذُهلتُ وتصوّرتُ أنّ الصحفي قد حرّف ما قاله كولن، لأنّ القصّة كانت عكس ما كنّا ناقشناه في الاجتماع، فاتّصلت بكوندي. هي تستيقظ باكراً مثلي، لكنّها لم تكن قد قرأت الصحيفة بعد. لخّصتُ القصّة لها وقلت: «أريد أن تُعالج المسألة قبل وصول كولن إلى البيت الأبيض لحضور الاجتماع».

بهذا أعطيت كوندي مهمّة شاقّة. كان عليها أن تعطي التعليمات إلى وزير الخارجيّة، وهو جنرال سابق ومشهور عالميّاً ويكبرها بجيل، بتصحيح ما اقتُبِس عنه. في وقتٍ لاحقٍ من صباح ذلك اليوم، جاء كولن مسرعاً إلى المكتب البيضاويّ، وقال لي: «سيّدي الرئيس، لا تقلقْ، لقد تمّ توضيح كلّ شيء».

طلبت من كوندي بعد سنة، أن تقوم بمهمّةٍ مماثلة مع نائب الرئيس. كنّا في شهر آب/أغسطس ٢٠٠٢، وكنت أدرس قراري حول ما إذا كنت سأسعى للحصول على قرارٍ من الأُمم المتّحدة بعودة المفتّشين إلى العراق. خطب ديك في مؤتمر المحاربين القدامى في الحروب الخارجيّة، وقال: «إنّ عودة المفتّشين سوف تقدّم... راحة زائفة بأن السيطرة على صدّام قد تمّت مجدّداً». تصريحه جعل الأمر يبدو وكأنّني قد اتّخذت قراري، بينما الحقيقة أنّني كنت لا أزال أدرس الخيارات المتاحة أمامي. سألت كوندي أن توضح لِديك أنّه قد استبق موقفي، ففعلت ذلك. وللأمانة، فإنّ الأمر لم يحدث مرّةً أخرى مع ديك.

كنت مستعداً لإعلان ترشيح كوندي وزيرةً للخارجيّة بعد انتخابات سنة ٢٠٠٤ بوقتٍ قصير. ولملء منصب مستشار الأمن القوميّ، قرّرت ترقية نائبها ستيف هادلي، وهو محامٍ متواضع وفطن ويقدّم دائماً المشورة الواضحة والمدركة وغير المتأثّرة بأيّ جدول أعمال شخصيّ. عندها فوجئتُ حين أبلغني أندي بأنّ كولين ليتردّد حول

مغادرته منصبه. كنت أعتبر كولن صديقاً وأقدّر إنجازاته، ولاسيّما عمله من أجل حشد تحالفٍ قويّ في الحرب على الإرهاب، وإرساء الأسس لمستقبل السلام بين الإسرائيليّين والفلسطينيّين، ولكنّني كنت قد اخترت كوندي. لقد تساءلت دائماً ما إذا كان أحد أسباب تردّد كولن بشأن الرحيل هو أنّه توقّع أن يرحل دونالد رامسفيلد أيضاً، وكان له الحقّ في التفكير بذلك. كنت قد خطّطت لإحداث تغيير في وزارة الدفاع كجزءٍ من إنشاء فريقٍ جديدٍ للأمن الوطنيّ. في أواخر سنة ٢٠٠٤، طلبتُ من أندي الاتّصال بفريد سميث مرّةً أخرى لنرى ما إذا كان قد يقبل بتولّي هذا المنصب. رأيت فريد، وبدا لي بخير. هذه المرّة لم تكن المشكلة صحّة فريد بل صحّة ابنته الأكبر سنّاً. وُلدت ويندي مصابةً بمرضٍ وراثيّ في القلب، وكان بحاجة لقضاء بعض الوقت معها. للأسف، توفّيت سنة ٢٠٠٥.

فكّرت ببدائل أخرى ممكنة لمنصب وزير الدفاع. فكّرت بإرسال كوندي إلى البنتاغون، لكنّني قرّرت أنّها ستكون أفضل وزيرةً للخارجيّة. ثمّ فكّرت بالسيناتور جو ليبرمان من كونّيتيكت، لكنّني وجدت أنّه غير مناسب. في إحدى المراحل، فكّرت في اختيار جيم بايكر. لو قبل لاستحقّ جيم التاج الثلاثيّ التاريخيّ كأول شخص تولّى في أيّ وقت مضى حقائب الخارجيّة والخزينة والدفاع. لكنّه كان يتمتّع بتقاعده ولم يكن يريد العودة إلى واشنطن.

الواقع هو أنّه لا يوجد كثير من الناس القادرين على قيادة الجيش أثناء حربٍ عالميّةٍ معقّدة. وكان دونالد رامسفيلد واحداً من هؤلاء القلّة. فهو يملك خبرةً قيّمة، ويشاطرني وجهة النظر بشأن الحرب على الإرهاب كنضالٍ أيديولوجيّ طويل الأمد. في بعض الأحيان، أشعرني دون بالإحباط بسبب تصرّفاته الفظّة تجاه القادة العسكريّين وبعض موظّفي البيت الأبيض. شعرت بأنّه ارتكب خطأً عندما تغيّب عن حفل تقاعد الجنرال الحاصل على أربع نجوم إريك شينسكي، قائد الجيش ذو الأربع نجوم والّذي استقال في سنة ٢٠٠٣، بعد مسارٍ مهنيّ شريف. وساهم قرار دون

في زيادة الانطباع الخاطىء بأنّ الجنرال قد صُرف بسبب الخلافات السياسيّة حول العراق[1].

على الرغم من ذلك، أحببت دون. فهو يحترم التسلسل القياديّ. وقد كرّس، هو وزوجته جويس، حياتهما لقوّاتنا العسكريّة، كما كانا يزوران المستشفيات مراراً دون السعي إلى الحصول على اهتمام الصحافة بالموضوع. وكان يقوم بعملٍ رائع في تحويل المؤسّسة عسكريّة، وهي المهمّة الّتي استدعت اهتمامي به منذ البداية. وقد زاد ترسانتنا من المركبات الجويّة بدون طيّار، كما جعل قوّاتنا أكثر قدرةٍ على التدخّل السريع، ووسّع نطاق قوة الجيش حتّى نتمكّن من الاستفادة بشكلٍ أفضل من وصلات البيانات والصور، وبدأ إعادة قوّاتٍ إلى الوطن من مراكز الحرب الباردة السابقة، مثل ألمانيا. واستثمر بكثافةٍ في القوّات الخاصّة ولاسيّما لتحقيق التكامل بين الاستخبارات والعمليّات الخاصّة.

وعلى الرغم من مظهره الخارجي القاسي، كان دونالد رامسفيلد رجلاً لائقاً وحريصاً على الآخرين. في أحد الأيّام كنّا في المكتب البيضاويّ، بعد أن أطلعني على مجريات عمليّة عسكريّة، كان ما يزال عندي بضع دقائق قبل الاجتماع المقبل. سألته، في مجرى الحديث، عن أحوال عائلته وما كان يقوم به. في بداية الأمر لم يجبْني، ثمّ في نهاية المطاف، تفوّه ببعض الكلمات، ولكنّه بعد ذلك أجْهَشَ بالبكاء. ثم أوضح لي أنّ ابنه نيك يحاول التخلّص من حالة إدمان على المخدرات. كان ألمُ دون عميقاً وحُبّه حقيقيّاً. بعد أشهر، سألته عن وضع نيك. فأشرق وهو يوضح لي أنّ ابنه أنهى مرحلة إعادة التأهيل وتعافى. تأثّرت لرؤية فخر دون بشخصيّة ابنه وقوّته.

تعاطفت مع دون مرّة أخرى، في ربيع سنة ٢٠٠٦، عندما قامت مجموعة من الجنرالات المتقاعدين بإطلاق وابلٍ من الانتقادات العلنيّة ضدّه. على الرغم من أنّني كنت لا أزال أفكّر في تغيير الموظّفين، لم أكن سأسمح لمجموعةٍ من الضبّاط

(١) علمتُ لاحقاً أنّ فريق الموظّفين عند الجنرال شينسكي لم يقمْ بدعوة دون لحضور الحفلة. أعتقد بأنّه كان من الأفضل لو حضر على أيّ حال.

المتقاعدين بالضغط عليّ للتخلّص من وزير دفاع مدنيّ. لكان الأمر بدا وكأنّه انقلاب عسكريّ وشكّل سابقةً كارثيّة.

خلال سنة ٢٠٠٦ كان الوضع في العراق يتدهور تدهوراً كبيراً. فالعنف الطائفيّ كان يمزّق البلاد. في أوائل الخريف، قال لي دون إنّه يعتقد بأنّنا قد نحتاج إلى «أعين جديدة» بشأن هذه المشكلة. لقد وافقت على أنّ هناك حاجة إلى تغيير، ولاسيّما أنّني كنت أُفكّر جدّيّاً باستراتيجيّةٍ جديدةٍ تدور حول زيادة عدد المقاتلين. لكنّني كنت لا أزال أصارع لإيجاد بديلٍ قادرٍ على المهمّة.

وفي إحدى الليالي في خريف سنة ٢٠٠٦، كنت أتحدّث مع صديق وزميل من أيّام المدرسة الثانويّة والجامعة، يُدعى جاك موريسون، وكنت قد عيّنته في (المجلس الاستشاريّ لرئيس الجمهوريّة الخاصّ بالاستخبارات الأجنبية PFIAB). كنت قلقاً بسبب تدهور الأوضاع في العراق، وذكرت تعليق دون رامسفيلد حول الحاجة إلى أعينٍ جديدة.

قال لي جاك: «لديّ فكرة، ماذا عن بوب غيتس؟» وأخبرني أنّه التقى غيتس مؤخّراً في إطار عمله مع PFIAB.

لماذا لم أفكّر في بوب؟ لقد شغل بوب منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة عندما كان والدي رئيساً، وكان نائب مستشار الأمن القوميّ للرئيس ريغان. كما أدار بنجاحٍ مؤسّسةً كبيرةً هي جامعة تكساس A&M. وهو خدم في لجنة بايكر ـ هاملتون التي كانت تدرس المشاكل في العراق. وبالتالي سيكون مثاليّاً لهذه المهمّة. اتّصلت، على الفور، بستيف هادلي، وطلبت إليه أن يكتشف إذا كان بوب مهتمّاً. فنحن حاولنا تجنيده في منصب مدير الاستخبارات الوطنيّة في السنة السابقة، لكنّه رفض لأنّه يحبّ وظيفته كرئيس A & M. أفادني ستيف، في اليوم التالي، بأنّ بوب مهتمّ.

كنت متأكّداً من أنني وجدت الشخص المناسب لهذا المنصب. لكنّني كنت أشعر بالقلق من التوقيت. كنّا على مسافة أسابيع من موعد الانتخابات النصفيّة

في ٢٠٠٦، ولو قمتُ بتغيير وزير الدفاع في تلك المرحلة لبدا الأمر وكأنّني أتّخذ القرارات العسكريّة آخذاً السياسة بعين الاعتبار. فقرّرت أن أقوم بهذه الخطوة بعد الانتخابات.

خلال عطلة نهاية الأسبوع، قبل الانتخابات النصفيّة، جاء بوب من كوليج ستيشن في تكساس إلى مزرعتي في كراوفورد. التقينا في مكتبي الواقع في مبنًى منعزلٍ مؤلّفٍ من طابقٍ واحد، على بعد حوالى نصف كيلومتر من المنزل الرئيسيّ. شعرت بالراحة في التعاطي مع بوب، فهو رجل متواضع ويتّسم بقوّةٍ هادئة. وعدتُه أن بإمكانه التواصل معي في أيّ وقت يحتاجني فيه. ثمّ قلت له إنّ هناك شيئاً آخر كان يحتاج إلى معرفته قبل الالتزام بهذه المهمّة: كنت أفكّر جدّيّاً في زيادة عدد القوّات في العراق. وكان بوب منفتحاً بالنسبة لهذه الفكرة. وقلت له إنّني أعرف أنّه يعيش حياةً رائعةً في A&M، لكنّ بلاده بحاجة إليه. فقبِل المهمّةَ على الفور.

عرفت أنّ ديك لن يعجبه قراري، فهو كان صديقاً مقرّباً من دون. وكعادته، عبّر لي ديك عن رأيه: «أنا لا أتّفق معك بشأن القرار. أعتقد أنّ دون قام بعمل جيّد، لكنّ القرار يعود إليك. أنت الرئيس». طلبت من ديك إيصال الخبر إلى صديقه، وكنت آمل أن يخفّف ذلك من وقع الخبر.

تعامل دون مع هذا التغيير بمهنيّة. بعث لي برسالةٍ مؤثّرة كتب فيها: «أترك منصبي، وأنا أكنّ احتراماً كبيراً لك وللقيادة الّتي تولّيتُها خلال إحدى الفترات الأكثر تحدّياً بالنسبة لبلادنا. إن خدمة وطننا في مثل هذا الوقت الحاسم من تاريخنا هو أعظم شرفٍ لي في حياتي الطويلة».

* * *

كان استبدال وزير الدفاع واحداً من تغييرين قمت بهما في سنة ٢٠٠٦، وكان الآخر تغيير كبير موظّفي البيت الأبيض. كان المحيط الإداري حولي في واشنطن قد أصبح بغيضاً، فذكّرني آندي كارد بأنّه لم يكن هناك سوى بضعة مناصب حيث أن

استبدال الأشخاص الذين يشغلونها سيبدو تحرّكاً ذا دلالة، وكانت وظيفته إحداها. في أوائل سنة ٢٠٠٦، ذكر لي آندي إمكانيّة رحيله. قال لي: «يمكنك أن تفعل ذلك بسهولة وبذلك تبدّل إطار النقاش، أنت تدين لنفسك بالتفكير في الأمر».

في الوقت نفسه، تقريباً، طلب كلاي جونسون رؤيتي. عمل كلاي معي كلّ يوم، منذ أن صرت حاكماً في سنة ١٩٩٥. عندما جلسنا لتناول طعام الغداء في ذلك اليوم، سألني عن رأيي في أوضاع البيت الأبيض، فقلت له إنّني كنت مضطرباً قليلاً. لأنني سمعت شكاوى من الموظّفين. وعلى الرغم من ذلك، كان صعباً، من موقعي كرئيس، معرفة ما إذا كانت الشكاوى تافهةً أو أدلّةً على وجود مشكلةٍ خطيرة.

نظر إليّ كلاي بطريقة تدلّ على أنّه كان شبه مقتنع بالأمر. ثمّ أخرج قلماً من جيبه والتقط منديله ورسم الهيكل التنظيميّ للبيت الأبيض. كانت فوضى متشابكة تمرّ عبرها خطوط السلطة بشكلٍ غير واضح. بدت وجهة نظره جليّة: كانت المسألة مصدراً رئيسيّاً للاضطرابات. بعدها قال: «أنا لست الشخص الوحيد الّذي يشعر بهذه الطريقة»، وأخبرني أنّ كثيراً من الناس استخدموا المصطلح المهين نفسه لوصف هيكليّة البيت الأبيض: يبدأ بـ«بكتلة» وينتهي بأربعة أحرف.

كان كلاي على حقّ. فالمنظّمة الرئاسيّة تنجرف. صار الموظّفون جامدين، النشاط الذي اتّسمت به عمليّاتنا سابقاً. والطريقة الأكثر فاعليّة لحلّ المشكلة هي إجراء تغيير في القمّة. فقرّرت أنّ الوقت قد حان لقبول عرض آندي.

أما تحقيق تلك الخطوة فكان مؤلماً. آندي كارد رجُل مخلص وشريف، قاد البيت الأبيض بفاعليّة خلال الأيّام العصيبة. خلال رحلة إلى كامب دايفيد في ذلك الربيع، ذهبت لرؤية آندي وزوجته كاثي في مركز البولينغ. هما من هؤلاء الأزواج الذين يظهر حبّهم الكبير، بعضهم لبعض، بوضوح. عرفا أنّني لم أكن هناك من أجل لعبة البولنغ، فلا بدّ أنّ سبب مجيئي بدا على وجهي. بدأت بشكر آندي على

خدماته، فقاطعني قائلاً: «سيّدي الرئيس، أنت تريد أن تحدث تغييراً». حاولت أن أشرح موقفي لكنّه لم يسمح لي. تعانقنا وقال إنّه يقبل قراري.

لم أُرد خلق أيّ شواغر كبيرة دون وجود بديل. لذلك قبل أن أتحدّث مع آندي، كنت قد طلبت من جوش بولتن أن يأتي لمقابلتي. احترمت جوش كثيراً، وكذلك فعل زملاؤه. منذ تولّيه منصب مدير السياسات في حملتي، كان قد شغل منصب نائب كبير الموظّفين للشؤون السياسيّة ومدير مكتب الإدارة والميزانيّة. عرف أولويّاتي وكانت ثقتي فيه تامّة.

عندما سألت جوش إذا كان يقبل أن يكون رئيس كبير الموظّفين المقبل، لم يتحمّس كثيراً. فمثل معظم الأشخاص في البيت الأبيض، كان معجباً بآندي كارد، كما كان يعلم مدى صعوبة هذه المهمّة. بعد أن فكّر بالأمر، وافقني الرأي بأنّ البيت الأبيض بحاجةٍ إلى إعادة الهيكلة والتجديد. وقال لي إنّه إذا تولّى هذه المهمّة، فهو يتوقّع أن أعطيه الضوء الأخضر لإجراء تغييرات على مستوى الموظّفين ولتوضيح خطوط السلطة والمسؤوليّة، فأشرت إليه أنّ هذا ما أريده منه بالضبط. قبل المهمّة وبقي حتّى النهاية، الأمر الذي جعل منه أحد أوائل الموظّفين الذين عيّنتهم في حملتي، وآخر شخصٍ رأيته في المكتب البيضاويّ، وبين الحدثين مدّة عشر سنوات كاملة. بُعَيد تولّيه منصبه، قام جوش بعددٍ من التغييرات، بما في ذلك الاستعاضة عن السكرتير الصحفيّ للبيت الأبيض بتوني سنو وهو مضيف التلفزيون والإذاعة السابق الذي صار صديقاً حميماً، حتى خسر معركته الباسلة مع السرطان سنة ٢٠٠٨. أمّا الخطوة الأصعب فكانت إعادة تحديد دور كارل. بعد انتخابات سنة ٢٠٠٤، جعل آندي كارل نائب رئيس الموظّفين لشؤون السياسة، وهو المركز الأعلى في مجال السياسة في البيت الأبيض. فهمتُ لماذا فعل آندي ذلك. فكارل هو أكثر من مجرّد مستشار سياسيّ. إنه عالم بأدقّ تفاصيل السياسة، وعنده شغف المعرفة وتحويل الأفكار إلى حقيقة. وافقت على ترقيته لأنّني أردت الاستفادة من خبرات

كارل وقدراته. ولتجنّب أيّ سوء فهم، أوضح آندي أنّ كارل لن يكون موجوداً في الاجتماعات الأمنيّة الوطنيّة.

بحلول منتصف سنة ٢٠٠٦، كان الجمهوريّون في وضع سيّئ، بخصوص الانتخابات النصفيّة، وقام اليسار باستغلال دور كارل الجديد بشكل غير عادلٍ لاتّهامنا بتسييس القرارات المتعلّقة بالسياسة العامّة. طلب جوش من كارل التركيز على الانتخابات النصفيّة ومواصلة تقديم مساهمات استراتيجيّة. ولتولّي عمليات السياسات اليوميّة، جلب جوش نائبه من مكتب الإدارة والميزانيّة ـ جويل كابلان ، وهو شخص رائع متخرّج في جامعة هارفارد باختصاص في القانون، وكان قد عمل معي منذ سنة ٢٠٠٠.

شعرت بالقلق من ردّ فعل كارل. ففي الوقت الذي صار فيه صلباً في واشنطن، كان رجلاً شامخاً وحسّاساً، استوعب الهجمات الوحشيّة التي طالتني، نيابةً عنّي. وإثباتاً لولاء كارل ومهارات جوش الإداريّة، جعلا الترتيب الجديد ينجح حتّى غادر كارل البيت الأبيض في آب/أغسطس ٢٠٠٧.

* * *

تشكّل التعيينات في البيت الأبيض ومجلس الوزراء قرارات حاسمة، لكنها في الوقت نفسه، قرارات مؤقّتة. أمّا التعيينات القضائيّة فتدوم مدى الحياة. عرفت أنّ أبي كان فخوراً بتعيين كلارنس توماس، وهو رجل حكيم ومبدئيّ وإنسانيّ. كما عرفت أيضاً أنّه أُصيب بخيبة أملٍ عندما تحوّل مرشّحه الآخر، دايفيد سوتر، إلى نوعٍ مختلفٍ من القضاة عمّا كان يتوقّعه.

التاريخ مليء بحكايات مماثلة. فالمعروف عن جون آدامز أنّه دعا القاضي جون مارشال ـ الذي خدم لمدّة ثلاثين سنة بعد رحيل آدامز ـ أعظم هديّةٍ تركها للشعب الأميركيّ. من ناحيةٍ أخرى، عندما سُئِل الرئيس دوايت إيزنهاور عن الأخطاء الأكبر

بالنسبة له كرئيسٍ، أجاب: «أنا اقترفت خطأين اثنين وهما موجودان في المحكمة العليا».

بعد فترة وجيزة من انتخابات سنة ٢٠٠٠، طلبتُ من مستشاري القانونّي في البيت الأبيض، ألبرتو غونزاليس، ومعه فريق من المحامين، وضعَ قائمةٍ من المرشّحين لعضويّة المحكمة العليا. كان آل مثيراً للإعجاب وهو من الجيل الثاني من الأميركيّين، درس في جامعة رايس وكلّيّة الحقوق في هارفارد، وربح ثقتي عندما كنت حاكماً. قلت له إنّ لائحة المرشّحين للمحكمة العليا ينبغي أن تشمل نساءً وأقلّيّات وأشخاصاً لا يملكون أيّ خبرة سابقة في هذا المنصب. وأوضحت بأنّني لا أريد أن يكون هناك شروط سياسيّة في هذا الإطار. فالشروط الوحيدة، في رأيي الشخصيّ، كانت الكفاءة والنـزاهة الفكريّة، وضبط النفس على المستوى القضائيّ. كنت قلقاً من القضاة النشيطين الذين استبدلوا نصّ القانون بما يفضّلونه شخصيّاً. وكنت أؤمن بمبادىء المدرسة البنائيّة الصارمة: أردتُ قضاةً يعتقدون بأنّ الدستور يعني ما يقول.

عمل القضاة التسعة أنفسهم في المحكمة لأكثر من إحدى عَشْرَةَ سنة، وهي أطول مدّة من هذا النوع في التاريخ الحديث. يوم ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٥، علمت هارييت مايرز، الّتي حلّت محلّ آل غونزاليس كمستشارة قانونيّة في البيت الأبيض عندما صار الأخير المدّعي العام، أنّ المحكمة العليا ستبعث برسالة موجّهة لي من أحد القضاة. افترض الجميع أنّها ستأتي من القاضي ويليام رينكويست الذي كان في الثمانين من العمر ويعاني من المرض. ولكن في صباح اليوم التالي اتّصلت بي هارييت حاملةً مفاجأة. قالت: «إنّها أوكونور».

كنت قد التقيت بالقاضية ساندرا داي أوكونور مرّاتٍ كثيرةً على مرّ السنين. كانت أوّل امرأة في تاريخ المحكمة، وشخصيّتها جذّابة ومستقيمة. وكنت أحبّ ساندرا كثيراً، واتّصلتُ بها فور تلقّي رسالتها. قالت لي إنّ الوقت قد حان لأن ترحل من أجل رعاية زوجها الحبيب، جون، الذي كان يعاني من مرض الزهايمر.

في حين لم أكن أتوقّع أن يشغر هذا المنصب بالتحديد، كنّا على استعداد لملئه. أعدّ فريق هارييت ملفّاً سميكاً احتوى السِيَرَ الذاتيّة لأحدَ عَشَرَ مرشّحاً، وكذلك تحليلات مفصّلة لكتاباتهم وخطبهم وفلسفاتهم القضائيّة. كنت مرتبطاً برحلة إلى أوروبا في أوائل تموز/يوليو، فانتهزت ساعات السفر الطويلة في طائرة الرئيس لقراءة الوثائق. بعد دراسة الملفّ، قمت بتصغير القائمة لتتضمّن خمسة قضاة بارزين: صامويل أليتو وإديث براون كليمنت ومايكل لوتغ وجون روبرتس وجاي هارفي ويلكنسون.

جاء كلّ منهم لمقابلتي في منـزل البيت الأبيض. حاولت أن أجعلهم مرتاحين من خلال اصطحابهم في جولةٍ في القسم الخاصّ بالسكن. ثمّ أخذتهم إلى غرفة جلوس الأسرة الّتي تطلّ على الجناح الغربيّ. كنت قد قرأت ملخّصات عن آرائهم القانونيّة، وفي تلك المقابلات أردت أن أقرأ الناس. كنت أبحث عن شخصٍ يشاركني فلسفتي القضائيّة القائمة على قيم لا تتغيّر مع مرور الوقت. ذهبت إلى المقابلات آملاً أن أجد شخصاً مميّزاً، وقد تميّز أحدهم.

جاء جون روبرتس من لندن حيث كان يدرّس خلال فترة الصيف. كنت أعرف سجلّ روبرتس: الأوّل في صفّه في جامعة هارفارد وفي كلّيّة الحقوق في هارفارد، وهو عمل كموظّف قانونيّ عند القاضي رينكويست، كما رافع في العشرات من القضايا أمام المحكمة العليا. وكان روبرتس قد رُشّح لمحكمة الاستئناف في دائرة واشنطن دي سي في سنة ١٩٩٢، لكنّه لم يعيّن قبل الانتخابات. وقد رشّحته لشغل مقعدٍ في المحكمة نفسها سنة ٢٠٠١ وتمّ تعيينه سنة ٢٠٠٣ حيث بنى سجلاً قويّاً. ووراء السجلّ المهنيّ المتألّق كان هناك رجُل حقيقيّ لطيف، يبتسم غالباً، ويتكلّم بشغف عن الطفلين اللذين تبنّاهما مع زوجته جاين. وكانت معرفته في مجال القانون جليّة، كما كانت شخصيّته أيضاً واضحة.

تحدّثت عن قراري مع هارييت وآندي وآل وكارل. كانوا جميعاً معجبين بروبرتس، لكنّه لم يكن المفضّل عند الجميع. أيّد آل وديك لوتغ الذي شعرا بأنّه

الحقوقيّ المحافظ الأكثر التزاماً. أمّا هارييت فأيّدت أليتو لأنّه كان يملك السجلّ القضائيّ الأكثر صلابة. بينما شاركني آندي وكارل ميلي لروبرتس. طلبت آراء آخرين، بمن في ذلك بعض المحامين الشباب في البيت الأبيض. أحدهم كان بريت كافانا الذي كنت قد رشّحته لمحكمة الاستئناف في دائرة العاصمة. قال لي بريت إنّ لوتغ وأليتو وروبرتس بإمكانهم جميعاً أن يكونوا قضاةً صلاباً. واقترح أن يكون السؤال الفاصل هو: أيّ رجل سيكون الزعيم الأكثر فاعليّة في المحكمة، وسيتمكّن من إقناع زملائه عن طريق الاستمالة والتفكير الاستراتيجيّ.

اعتقدت أنّ عند روبرتس القدرة الطبيعيّة ليكون زعيماً. لم أقلق من أنّه قد ينجرف بعيداً عن مبادئه مع مرور الوقت. وهو وصف فلسفته في التواضع القضائيّ بتشبيهٍ مأخوذٍ من لعبة البيسبول، لا أنساه: «القاضي الجيّد هو بمثابة الحكَم. ولا يوجد حكَم يعتقد أنّه أهمّ شخصٍ في الملعب».

يوم الثلاثاء ١٩ تمّوز/يوليو، اتّصلت بجون لأعرض عليه الوظيفة. وقمنا بالإعلان الرسميّ عن تعيينه تلك الليلة في الغرفة الشرقيّة للبيت الأبيض. وحصل كلّ شيء وفقاً للخطّة، إلى أن هرب جاك روبرتس، البالغ من العمر أربع سنوات، من قبضة والدته وبدأ بالرقص حول الغرفة خلال خطابي المتلفز. علمنا في وقتٍ لاحقٍ أنّه كان يقوم بتقليد الرجل العنكبوت. وكنت قد رأيته بطرف عيني، فاستعملت كامل تركيزي لإنهاء التصريح. في نهاية المطاف تمكّنتْ جاين من استعادة جاك الصغير. ضحك الجمهور، وحصلتْ عائلة جاك على صورٍ تذكاريّةٍ لمدى الحياة.

في أوائل أيلول/سبتمبر، وقبل ثلاثة أيّام من بدء جلسات الاستماع لتثبيت روبرتس، اتّصل بي كارل في وقت متأخّر من ليل السبت. كنّا، أنا ولورا، في الفراش، ولا أحد يتّصل حاملاً أخباراً جيّدة في تلك الساعة. أخبرني كارل أنّ رئيس المحكمة العليا قد توفّي للتوّ. كان رينكويست أحد العظماء. خدم ٣٣ سنة في المحكمة العليا، تسع عشرة منها في مركز الرئاسة. وقد ترأّس حفل أداء أبي اليمين الدستوريّة سنة ١٩٨٩ وأدائي اليمين سنة ٢٠٠١. عندما اقترب موعد تنصيبي للمرّة الثانية، كان

رينكويست مريضاً بسرطان الغدّة الدرقيّة. ولم يكن قد ظهر في العلن منذ أسابيع عندما علا صوته بوضوح حين جاء وقت قراءة اليمين: «كرّر بعدي: أنا، جورج ووكر بوش، أقسم..».

صار هناك مقعدان شاغران في المحكمة. فارتأيت أنّ قدرة جون روبرتس على القيادة تجعله مثاليّاً لرئاسة المحكمة العليا. برع جون في جلسة الاستماع، وتمّ تثبيته بأغلبيّة واسعة، ثمّ عاد إلى الغرفة الشرقيّة لأداء اليمين. وأظهرت تلك اللحظة ما يمكن أن تخبّئه الحياة من تحوّلات غير مرجّحة. فجون روبرتس الذي ظنّ منذ ثلاث عشرة سنة أنّ فرصته ليصير قاضياً قد انقضت، صار رئيساً للمحكمة العليا للولايات المتّحدة.

* * *

كان مقعد أوكونور لا يزال شاغراً، فشعرت بقوّةٍ بأنّه يجب أن تملأه امرأة. لم أكن أحبّ فكرة وجود امرأةٍ واحدةٍ فقط في المحكمة العليا، وهي القاضي روث بادر غينسبورغ. وافقتني لورا وعبّرت عن وجهة نظرها للصحافة.

كانت هذه إحدى المناسبات النادرة التي تصل فيها نصيحة لورا إلى الصحافة ولكنّها لم تكن المرّة الوحيدة التي اعتمدتُ فيها على مشورتها الحكيمة. عند لورا إحساس غريزيّ بنبض البلاد. لم تشارك في كلّ القضايا، ولم ترد أن تفعل. لكنّها اختارت مجالات تهمها، بما في ذلك التعليم وصحّة المرأة، وإعادة بناء ساحل خليج المكسيك بعد إعصار كاترينا، والإيدز والملاريا، والحرّيّة في بورما وأفغانستان.

أصدرتُ تعليماتي إلى هارييت ولجنة البحث لوضع قائمةٍ جديدةٍ تتضمّن مزيداً من النساء، وكانت المرشّحات اللواتي اخترتهن مثيرات للإعجاب. ولكن ظهرت بعض الحواجز المحبطة. فعندما طلبتُ دراسةً أكثر دقّةً عن إحدى القاضيات

المؤهّلات، تبيّن أنّ زوجها كان واقعاً في مشكلةٍ ماليّةٍ من شأنها أن تعرّض تثبيتها للخطر. كان أحد أوّل الخيارات على اللائحة اسم بريسيلا أوين، وهي قاضية سابقة في المحكمة العليا في تكساس. وبريسيلا كانت أوّل الأشخاص الذين رشّحتهم لمنصب في محكمة استئناف فدراليّة سنة ٢٠٠١. وللأسف، فإنّ الديمقراطيّين جعلوها هدفاً. وتمّ تثبيتها في نهاية المطاف في ربيع سنة ٢٠٠٥ كجزءٍ من حلّ وسط بين الحزبين الجمهوريّ والديمقراطيّ. اعتقدت أنّها ستكون عضواً ممتازاً في المحكمة. لكنّ عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ، وبينهم جمهوريّون، قالوا لي إنّ الصراع سيكون دامياً، وفي نهاية المطاف لن يتمّ تثبيتها.

استخلصت أمرين آخرين من المشاورات التي أجريناها في الكابيتول هيل. أوّلهما أنّه يجب أن أفكّر في اختيار محامٍ من خارج هيئة القضاء. وثانيهما هو ضرورة أن أدرس جدّيّاً إمكانيّة اختيار مستشارتي القانونيّة في البيت الأبيض، هارييت مايرز. وكان كثير من أعضاء مجلس الشيوخ معجبين جدّاً بهارييت وبطريقة مواكبتها جون روبرتس خلال مقابلاته في الكابيتول هيل.

أعجبتني فكرة ترشيح هارييت. فهي رائدة قانونيّة في تكساس، كونها المرأة الأولى التي ترأّست شركة قانونيّة كبيرة في تكساس، كما ترأّست نقابة المحامين في دالاس ونقابة المحامين في ولاية تكساس. وقد انتُخبت عضواً في مجلس بلديّة مدينة دالاس، ولجنة اليانصيب في تكساس. كما خدمت خمس سنوات تقريباً في مناصب عليا في البيت الأبيض. ولم يكن عندي شكّ بأنّها تشاركني فلسفتي القضائية وبأنّ نظرتها لن تتغيّر. وبالتالي ستكون قاضياً بارزاً.

سألت هارييت إذا كانت مهتمّةً بهذا المنصب. فوجِئت، لا بل صُدِمت، ولكنّها قالت إنها ستقبل إذا طلبت منها. طرحت الفكرة أمام أعضاء آخرين في فريق البحث. زملاء هارييت أحبّوها واحترموها، واعتقد بعضهم أنّها ستكون خياراً جيّداً، فيما جادل آخرون في أن اختيار شخصٍ لا يملك سجلاًّ راسخاً في هيئة القضاء سيكون

مخاطرةً كبيرةً جدّاً، أو أنّنا سوف نُتّهم بالمحسوبيّة. وقال لي كثيرون منهم: بصراحة، إنّها ليست خياراً جيّداً. ولكن لم يقل لي أحد إنّ عليّ أن أتوقّع ما يمكن توقّعه من وابل الانتقادات من مؤيّدينا.

انحصر الخيار بين هارييت وبريسيلا أوين، فقرّرت أن أختار هارييت. كنت أعرفها معرفةً جيدة، واعتقدت أنّ عندها فرصةً أفضل. كما أنّها ستجلب رؤيةً فريدةً إلى المحكمة كشخصٍ من خارج الأخويّة القضائيّة. في البداية، قام عدد من أعضاء مجلس الشيوخ بالإشادة بخياري. ولكنّ أصواتهم، للأسف، ضاعت بسرعةٍ في الضجيج. فمن جهة اليمين، تحوّلت همسات عدم التصديق إلى عويل: كيف يمكن لي تسمية شخصٍ عنده خبرة قليلة جدّاً؟ كيف لهم أن يثقوا بالفلسفة القضائيّة لشخصٍ لا يعرفونه؟

بدا لي أنّ هناك حجّةً أخرى ضدّ هارييت، وهي بقيت غير معلنةٍ إلى حدّ كبير: كيف يمكنني تسمية شخص لا يظهر في أوساط النخبة القانونيّة؟ هارييت لم تدرس في إحدى جامعات الأيفي ليغ النخبويّة. وأسلوبها الشخصيّ ضاعف الشكوك. إنّها ليست سطحيّة ولا مبهرجة. تفكّر مليّاً قبل أن تتكلّم، وهي سمة نادرة جدّاً في واشنطن، إلى حدّ أنّها تُفسَّر بطريقةٍ خاطئةٍ على أنّها بطء فكريّ. بتعبير أحد النقّاد المحافظين: «على الرغم من أنّها لطيفة ومفيدة وسريعة ومرتّبة، فإنّ هارييت مايرز ليست مؤهّلة للعب دور قاضٍ في محكمة العدل العليا في مسلسل الجناح الغربي، ناهيك عن أن تكون كذلك في الواقع».

جاءت كلّ هذه الانتقادات من أشخاصٍ يُعتبرون أصدقاء. عندما بدأ اليسار بانتقاد هارييت أيضاً عرفت أنّ الترشيح محكوم عليه بالفشل. بعد ثلاثة أسابيع رهيبة، تلقّيت مكالمةً في مكتبي في غرفة المعاهدة، حيث كنت أعمل في وقتٍ متأخّرٍ من المساء. قال لي عامل الهاتف في البيت الأبيض إنّ هارييت هي المتّصلة. وبصوتٍ ثابتٍ أبلغتني بأنّها تظنّ أنّ من الأفضل أن تنسحب من مجال الترشيح للمحكمة العليا. بقدر ما آلمني ذلك، فإنّي وافقتها الرأي.

كنت أعرف أنّ هاربيت يمكنها أن تصير قاضياً ممتازاً، لكني لم آخذ بعين الاعتبار بما فيه الكفاية كيف سيفسّر الآخرون ذلك. لقد وضعت صديقةً لي في وضعٍ مستحيل، ولو كان بإمكاني فعل الأمور مجدّداً، لما كنت ألقيت بهاربيت أمام ذئاب واشنطن.

في اليوم الذي أعقب الإعلان، جاءت هاربيت إلى العمل كما في أيّ يوم آخر. انتقلت من مكتبٍ إلى آخر في الجناح الغربيّ، لترفع معنويّات كثيرٍ من الزّملاء، الحديثين والقدامى، الّذين شعروا بالحزن لرؤية الشخص الذي يقدّرون يعامَل بطريقةٍ خاطئةٍ جدّاً. عندما جاءت إلى المكتب البيضاويّ، قلت: «الحمد للّه أنّك انسحبت. لا يزال لديّ محامٍ رائع». فابتسمت وقالت: «سيّدي الرئيس، أنا مستعدّة لقيادة فريق البحث عن مرشّحك المقبل».

* * *

كان عليّ أن أقوم بالخيار الصحيح هذه المرّة. إنّ فكرة اختيار امرأة ما زالت تروق لي، لكنني لم أستطع أن أجد أحداً عنده مؤهّلات سام أليتو. سام متحفّظ جدّاً. عندما جلسنا، في أوّل المقابلة، بدا غير مرتاح. حاولت كسر الجليد بالطريقة المعهودة، في مناسبةٍ كهذه، في هذه المناسبة، عبر الحديث عن لعبة البيسبول. سام من أكبر مشجّعي فريق فيلادلفيا فيليز. حين تحدّثنا عن اللعبة، تغيّرت لغة جسده. فبدأ يعبّر قليلاً عن آرائه في الحياة والقانون. كان عالماً، ولكن عمليّاً أيضاً. شغل منصب المدّعي العامّ في ولاية نيو جيرسي قبل أن ينتقل إلى الدائرة الثالثة لمحكمة الاستئناف سنة ١٩٩٠. كانت آراؤه صلبةً ومبنيّةً بإحكام على الحجج، لم يكن عندي شكّ في أنّه سوف يلتزم بالدستور بصرامة.

بعد مضي أربعة أيّام على انسحاب هاربيت، التقيتُ بسام في المكتب البيضاويّ، وعرضت عليه الوظيفة، فقَبِل. فرح مؤيّدونا، أمّا النقّاد فعرفوا أنّهم لن يكونوا قادرين على عرقلة تثبيت سام، لكنّهم أزعجوه في جلسة الاستماع على أيّ حال. فقد حاولوا

تصويره عنصريّاً ومتطرّفاً ومتعصّباً، وأيّ شيء أمكنهم تأليفه، وكلّها لا ترتكز على أيّ أدلّة. اشمأززتُ من الديماغوجيّة في المسألة. وبينما كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يعدّد هذه الاتّهامات الكاذبة، انفجرتْ زوجة سام، مارثا آن، بالبكاء. وكان ردّ فعلها حقيقيّاً لدرجة أنّ بعض الديمقراطيّين أدركوا أنّهم قد تمادوا كثيراً.

بعد أن ثبّت مجلس الشيوخ سام في المحكمة، دعوتُه مع عائلته إلى البيت الأبيض لأداء اليمين. قبل أن نخرج إلى الحفل، انفردتُ بسام للحظة. فشكرته على احتمال جلسات الاستماع وتمنّيت له التوفيق في المحكمة. ثمّ قلت له: «سام، عليك أن تشكر هارييت مايرز لأنها جعلت هذا الأمر ممكناً»، فأجابني: «سيّدي الرئيس، أنت على حقّ تماماً».

* * *

أكثر القرارات عاطفيّة هو آخر قرار اضطررت إلى اتّخاذه خلال عهدي. امتدّت جذور المعضلة إلى صيف سنة ٢٠٠٣. لم يتمكّن جنودنا في العراق من العثور على أسلحة الدمار الشامل التي كنّا نتوقّعها جميعاً، وبدأت وسائل الإعلام تتبارى لإيجاد كبش محرقة. في خطابي السنويّ سنة ٢٠٠٣، استشهدت بتقرير للمخابرات البريطانيّة يقول إنّ العراق يسعى لشراء اليورانيوم من النيجر. ولم تكن تلك الجملة الوحيدة في خطابي المؤلّف من خمسة آلاف نقطة رئيسيّة بالنسبة للقضيّة ضدّ صدّام. المخابرات البريطانيّة لم تتراجع عن التقرير[1].

في تمّوز/يوليو ٢٠٠٣، كتب السفير السابق، جوزيف ويلسون، في صحيفة نيويورك تايمز مقالةً يزعم فيها أنّ الإدارة تجاهلت خلاصاته المشكّكة عندما سافر إلى أفريقيا للتحقيق في علاقة بين العراق والنيجر. كان هناك أسئلة جدّيّة حول مدى دقّة تقرير ويلسون وشموليّته، لكنّ اتّهاماته صارت موضوع حديث نقّاد الحرب. بعد

(١) في سنة ٢٠٠٤، خلص تقرير بتلر المستقلّ عن الأحزاب إلى أنّ الجملة كانت مبرّرة. غير أنّ تلك الكلمات الستَّ عَشْرَةَ صارت موضعَ جدلٍ سياسيّ وملهاةً واسعة النطاق.

مدّة قصيرة من كتابة ويلسون افتتاحيّته في الصحيفة، ذكر الصحفيُّ المخضرم في واشنطن بوب نوفاك أنّه تمّ إرسال ويلسون إلى النيجر، ليس من قبل ديك تشيني أو أي عضو بارز في الإدارة، كما زعم ويلسون، بل بناءً على توصيةٍ من زوجته، فاليري بلايم، الّتي كانت تعمل في وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة، السي آي أي.

ثمّ ظهر أنّ وضع زوجة ويلسون كان سرّيّاً. ادّعى النقّاد أنّ شخصاً في إدارتي ارتكب جريمةً عبر تسريب هويّة عميلة المخابرات المركزيّة. فعيّنتْ وزارةُ العدل مدّعياً خاصاً للتحقيق.

كنت مشكّكاً، أصلاً، بالمدّعين في القضايا الاستثنائيّة. تذكّرت كيف قام لورنس والش بتسييس التحقيق في قضيّة إيران ـ كونترا خلال حملة سنة ١٩٩٢. ولكنّ تسريب معلومات عن المخابرات مسألة خطيرة، فقمت بتوجيه العاملين معي ليتعاونوا بشكلٍ كامل. قابل وكيل النيابة باتريك فيتزجيرالد أكثريّة أعضاء الفريق، وكنت أنا من بينهم. في مرحلةٍ مبكّرةٍ من العمليّة، قام نائب وزيرة الخارجيّة الأميركيّة ريتشارد أرميتاج بإعلام فيتزجيرالد بأنّه زوّد نوفاك بالمعلومات عن بلايم. ومع ذلك، واصل المدّعي الخاصّ التحقيق.

على مدى أكثر من عامين، أحضر فيتزجيرالد كثيراً من الرسميّين أمام هيئة محلّفين كبرى، بمن فيهم رئيس الموظّفين عند ديك، ويدعى سكوتر ليبي. بعد مثول سكوتر مرّتين، قدّم فيتزجيرالد لائحة اتّهام بالحنث باليمين وعرقلة العدالة وتقديم تصريحاتٍ كاذبة. ذهب سكوتر إلى المحاكمة وتمّت إدانته. في حزيران ٢٠٠٧، حُكِم عليه بالسجن مدّة ثلاثين شهراً.

واجهتُ قراراً مؤلماً للغاية. كان بإمكاني أن أدع سكوتر يذهب إلى السجن، كما كنتُ أستطيع استخدام صلاحيّتي بموجب الدستور لمنحه العفو. وكان يمكنني أيضاً تخفيف مدّة عقوبته، وهذا يعني أنّ إدانته تبقى ولكنّ عقوبة السجن تُلغى. بعض من في البيت الأبيض، وعلى رأسهم نائب الرئيس، ضغطوا بقوّةٍ للحصول على

عفو. وكانت حجّتهم أنّه كان يجب إيقاف التحقيق بعد أن حدّد فيتزجيرالد مصدر معلومات نوفاك. من ناحية أخرى، اعتقد معظم المستشارين أنّ حكم هيئة المحلّفين كان صائباً ويجب أن يبقى.

قرّرت أنّ العفو عن موظّف سابق أُدين بعرقلة سير العدالة سيبعث رسالةً سيّئة، ولاسيّما بعد أن كنتُ قد أوعزت إلى الموظّفين بالتعاون مع التحقيق. ولكنّ العقاب الّذي تلقّاه سكوتر لم يتناسب مع الجريمة. وكان التحقيق والمحاكمة اللذان طال أمدهما سبّبا أضراراً شخصيّة ومهنيّة ومادّيّة لسكوتر وأسرته. في أوائل شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٧، أعلنت قراري: «أنا أحترم حكم هيئة المحلّفين. ولكنّني خلصت إلى أنّ عقوبة السجن التي حُكِم فيها السيّد ليبي مفرطة. لذلك، سأخفّف من الحكم على السيّد ليبي الجزء المتعلّق بإمضائه ثلاثين شهراً في السجن».

كان ردّ فعل اليسار عنيفاً. قال أحد أعضاء الكونغرس: «إنّ خطوة الرئيس بوش اليوم تُفهِم أميركا أن لا بأس بالكذب والتضليل وعرقلة العدالة طالما كنتَ مخلصاً لإدارته». وقال آخر: «إنّني أدعو الديمقراطيّين في مجلس النوّاب إلى إعادة النظر في إجراءات الإقالة». لم يرق القرار للجميع في البيت الأبيض، وواصل ديك الدعوة إلى عفوٍ كامل.

كانت إحدى أكبر المفاجآت خلال عهدي العدد الهائل من طلبات العفو في الفترة الأخيرة. لم أستطع أن أصدّق عدد الأشخاص الذين أخذوني جانباً للإشارة إلى أنّ صديقاً أو زميلاً سابقاً يستحقّ العفو. في بادىء الأمر أُصبت بالإحباط، ثمّ شعرت بالاشمئزاز. توصّلت لرؤية الظلم الكبير في النظام. إذا كنت قريباً من الرئيس، استطعت إدراج قضّيتك ضمن جنون اللحظات الأخيرة. خلاف ذلك، كان عليك أن تنتظر إجراء وزارة العدل مراجعةً وتقديم توصية. في الأسابيع الأخيرة، قرّرت أنّني لن أمنح العفو إلى أيّ شخص تحرّك خارج القنوات الرسميّة.

في الأيّام الأخيرة للإدارة، جادل ديك بقوّة في أنّه ينبغي منح سكوتر عفواً. كان

سكوتر رجلاً محترماً وموظّفاً مخلصاً، وأنا فهمت تشعّبات المسألة بالنسبة لعائلته. طلبت من محامين موثوقين إعادة النظر في القضيّة كاملةً، بما في ذلك الأدلّة المقدّمة في المحاكمة لصالح أو ضدّ سكوتر. كما أذنت لهما باللقاء مع سكوتر لسماع موقفه من القصّة. بعد أن أجريا تحليلاً دقيقاً، قالا إنّهما لا يجدان أيّ أسباب موجبة لنقض حكم هيئة المحلّفين.

قضيت عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في كامب دايفيد في صراع مع هذا القرار. قالت لي لورا: «قرّر ببساطة، فأنت تجعل الأمر سيّئاً للجميع». في نهاية المطاف، وصلت إلى النتيجة نفسها التي خلصت إليها سنة ٢٠٠٧: ينبغي احترام حكم هيئة المحلّفين. في أحد اجتماعاتنا أبلغت ديك أنّني لن أصدر عفواً. حدّق في وجهي عميقاً. وقال: «لا أستطيع أن أصدّق أنّك ستتخلّى عن جندي على أرض المعركة»، فأذاني تعليقه. لم أكن قد رأيت ديك في هذه الحالة أو ما يقرب إليها في السنوات الثماني الماضية. خشيت من أنّ الصداقة التي كنّا قد بنيناها على وشك أن تتصدّع بشدّة، في أحسن الأحوال.

بعد بضعة أيّام، تحدّثت إلى شخصٍ آخر عن عمليّة العفو. بينما كنّا نمشي في جادة بنسلفانيا في يوم التنصيب، أخبرتُ باراك أوباما عمّا يحبطني في نظام العفو. واقترحت عليه التالي: أن يعلن سياسة العفو في وقتٍ مبكر، ويتشبّث بها.

بعد حفل تنصيب الرئيس أوباما، أقلّتنا، أنا ولورا، مروحيّة إلى قاعدة أندروز للقوّات الجويّة. وكان الحدث الأخير قبل الصعود إلى الطائرة للعودة إلى تكساس حفلاً أمام ثلاثة آلاف فردٍ من الأصدقاء والعائلة والموظّفين السابقين. كان ديك قد وافق على تقديمي. وهو كان قد ألحق الأذيّة بظهره بينما كان يجرّ الصناديق، لذا قامت لين بدفعه على خشبة المسرح بواسطة كرسيّ متحرك. أخذ ديك الميكروفون، ولم يكن لديّ أيّ فكرة عمّا سيقوله. أملت في أن يكون قادراً على تجاوز خيبة أمله. جاءت كلماته لطيفة ومن القلب: «منذ ثماني سنوات ونصف السنة، بدأتُ شراكةً مع جورج بوش وكانت حقّاً شرفاً خاصّاً... أسفي الوحيد هو أنّ هذه الأيّام

قد انتهت وأنّ جميع أعضاء هذا الفريق يجب أن يذهبوا في طريقهم الخاصّ». بقي الرجل الذي اخترته في ذلك اليوم الحارّ من تموز/يوليو ثابتاً حتّى النهاية. واستمرّت صداقتنا.

٤

الخلايا الجذعيّة

ارتفع في وسط لندن بناء رماديّ مؤلّف من ثلاثة وأربعين طابقاً. احتوى أحد الطوابق مساحةً مفتوحةً وواسعةً معروفةً باسم غرفة التسميد. وقام الفنّيّون داخل تلك الغرفة بخلط البويضات والحيوانات المنويّة بدقّة في أنابيب اختبار لإنتاج الجيل المقبل. وشكّل مكان التفريخ شريان حياة الحكومة العالميّة الجديدة، الّتي كانت قد أتقنت صيغة هندسة مجتمعٍ منتجٍ ومستقرّ.

لم يكن هذا المشهد من ابتكار جاي ليفكويتز، وهو المحامي الذكيّ الذي كان يقرأ لي بصوتٍ عالٍ في المكتب البيضاويّ سنة ٢٠٠١. بل هو مشهد من رواية هكسلي التي نُشرت سنة ١٩٣٢ بعنوان «عالم جديد شجاع». بوجود الاختراقات الّتي حدثت مؤخّراً في التكنولوجيا الحيويّة وعلم الوراثة، فإنّ الكتاب يعنينا الآن إلى حدّ تقشعرّ له الأبدان. وكذلك الحال بالنسبة لعبرة الكتاب: على الرغم من فاعليّته، فإنّ عالم هكسلي اليوتوبيّ بدا عقيماً وتعيساً وفارغاً من المعنى. إنّ سعي البشريّة لتصير مثاليّة انتهى بخسارة الإنسانيّة.

في نيسان/أبريل من ذلك العام نفسه، وصلت كتابة أخرى إلى المكتب

البيضاويّ. بينما ذكرت ما وصفته بـ«رحلة العائلة الموجعة» حثّتني الكاتبة على دعم «الاحتمالات العجائبيّة» الناتجة عن أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة لتوفير العلاج للناس مثل زوجها، الذي كان يعاني من مرض الزهايمر. وأنهت رسالتها بالقول: «سيّدي الرئيس، لديّ بعض الخبرة الشخصيّة بشأن كثيرٍ من القرارات التي تواجهها كلّ يوم.... سوف أكون ممتنّة جدّاً إذا أخذت أفكاري وصلواتي بعين الاعتبار في هذه القضيّة الحرجة. خالص الشكر، نانسي ريغان».

جاء قراري بشأن أبحاث الخلايا الجذعيّة في إطار خطاب السيّدة ريغان ورواية هكسلي. رأى كثيرون أنّ الحكومة الفدرالية تتحمّل مسؤوليّة تمويل البحوث الطبّيّة التي قد تساعد في إنقاذ حياة أشخاص مثل الرئيس ريغان، في حين جادل آخرون في أنّ دعم تدمير أجنّة بشريّة تأخذنا إلى هاوية أخلاقيّةٍ باتّجاه مجتمع غير مكترثٍ بتدنّي قيمة الحياة. وكان التباين صارخاً، فواجهت قراراً صعباً.

* * *

قلت في خطابي الافتتاحيّ في ٢٠ كانون الثاني/يناير: «في بعض الأحيان تمتدّ خلافاتنا عميقاً بحيث يبدو أنّنا لا نتقاسم بلداً بل قارّة. إنّنا لا نقبل هذا الأمر، ولن نسمح به. وحدتنا واتّحادنا الوطنيّ نتيجة عمل جادّ قام به القادة والمواطنون في كلّ جيل. وهذا تعهّدي الرسميّ: سأعمل لبناء أمّةٍ واحدةٍ توفّر العدالة والفرص».

بعد مأدبة غداء مع كبار الشخصيّات، في مبنى الكابيتول، ذهبنا، أنا و لورا، في طريقنا إلى البيت الأبيض كجزء من الاستعراض الافتتاحيّ الرسميّ للرئاسة. وقد اصطفّ المهنّئون على جانبَي جادة بنسلفانيا، تجاورهم جيوب قليلة من المحتجّين. وقد حملوا لوحاتٍ كبيرةً دُوّن عليها كلام بذيء، كما ألقوا البيض على سيّارات الموكب، وصرخوا بأعلى أصواتهم. قضيت معظم الرحلة في سيّارة الرئاسة وراء زجاج النوافذ السميك، فكان صراخهم بالنسبة لي إيماء. في حين أنّني لم أستطع

فهم كلماتهم، فإنّ حركة أصابعهم الوسطى كانت معبّرة بوضوح: مرارة انتخابات سنة ٢٠٠٠ لن تخف في وقتٍ قريب.

شاهدنا أنا ولورا باقي الاستعراض من شرفة البيت الأبيض. لوّحنا للمشاركين في المسيرة الذين أتوا من مختلف الولايات، وشعرنا بسعادةٍ غامرةٍ لرؤية الفرق العازفة التابعة لثانويّات ميدلاند وكراوفورد. بعد الاستعراض، ذهبت لرؤية المكتب البيضاويّ. بينما كنت أمشي من مركز الإقامة باتّجاهها، بدت الغرفة متوهّجة. كما بدت أضواؤها الساطعة والستائر المذهّبة على تباين قويّ مع سماء الشتاء المظلمة.

كلُّ رئيس يزيّن المكتب البيضاويّ بأسلوبه الخاصّ. علّقت عدّة لوحات متّصلة بولاية تكساس، بما في ذلك تلك التي ينقل فيها جوليان أوندردونك الألامو، بالإضافة إلى منظر طبيعيّ في غرب تكساس وحقل من أزهار bluebonnet تذكّرني يوميًا بمزرعتنا في كراوفورد. كما أحضرت لوحةً تعرف بـ«ريو غراندي» رسمها فنّان من إلباسو وهوصديق توم لي، ومشهد فارس يمتطي حصانه مسرعاً نحو تلّة، بريشة و. هـ. د. كورنر. اسم اللوحة A Charge to Keep أشبه بصدى النشيد الميثوديّ الّذي كتبه تشارلز ويزلي وغنّيناه خلال حفل تنصيبي حاكماً لأوّل مرّة. كلّ من الرسم والنشيد يعكسان أهمّيّة خدمة قضيّةٍ أكبر من الذات.

* * *

قرّرت أن أُبقي صورة جورج واشنطن التي رسمها رمبراندت بيل والتي كان والدي وبيل كلينتون قد وضعاها على الرفّ فوق الموقد. أضفت تماثيل نصفيّة لأبراهام لينكولن ودوايت إيزنهاور ونستون تشرشل، والأخير مستعار من الحكومة البريطانيّة كهديّة من رئيس الوزراء توني بلير. كنت قد أخبرت توني أنّني معجب بشجاعة تشرشل ومبادئه وروح الدعابة التي امتلكها، والتي اعتبرتُها ضروريّة للقيادة. (وكان المثال المفضّل لديّ على الطرافة عند تشرشل ردّه على فرانكلين روزفلت حين وجده الأخير مرّةً خارجاً من حوض الاستحمام، في أثناء زيارة إلى البيت الأبيض في كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٤١. فقال: «ليس لديّ أيّ شيء أخفيه عن

رئيس الولايات المتّحدة!»). بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، أدركت أنّ في التماثيل الثلاثة شيئاً مشتركاً: فجميعها تعود إلى قادة في زمن الحرب. أنا بالتأكيد لم آخذ ذلك بعين الاعتبار، عندما اخترتها.

وكان على الجدار مساحة خاصّة بالرئيس الأسبق الذي كان أكثر تأثيراً بالرئيس الحاليّ. أنا اخترت لينكولن. كانت مهمّته الأصعب هي الحفاظ على الاتّحاد. سألني بعضُ الناس عن سبب عدم وضع صورة والدي في تلك البقعة. فقلت «صورة الرئيس الحادي والأربعين معلّقة في قلبي، أمّا صورة الرئيس السادس عشر فمعلّقة على الحائط». وكانت قطعة الأثاث الرئيسيّة هي مكتب يعرف بـResolute (حازِم). اخترت المكتب بسبب دلالته التاريخيّة. بدأتْ قصّته سنة ١٨٥٢، عندما أرسلَت الملكة فيكتوريا سفينة Resolute للبحث عن المستكشف البريطانيّ جون فرانكلين، الذي كان قد ضاع أثره وهو يبحث عن الممرّ الشماليّ الغربيّ. حوصرت Resolute بالجليد قرب القطب الشماليّ وهجرها طاقمها. في سنة ١٨٥٥ تمّ اكتشافها من قِبَل سفينة صيد للحيتان أميركيّة أبحرت بـ Resolute إلى كونيتيكت. اشترت الحكومة الأميركيّة السفينة التي تمّ إصلاحها وإعادتها إلى إنكلترا كهديّةٍ للتعبير عن حسن النيّة تجاه الملكة. عندما توقّف استعمال السفينة رسميّاً، بعد عقدين، أمرت صاحبة الجلالة بصنع مكاتب عدّة من خشبها وأهدت أحدها الرئيس روثرفورد بي. هايز.

استخدم معظم الرؤساء، منذ هايز، هذا المكتب بطريقةٍ ما. طلب الرئيس فرانكلين روزفلت صنع لوحةٍ أماميّة على شكل بابٍ منحوتٍ عليها ختم الرئاسة، ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ القصد كان إخفاء كرسيّه المتحرّك. وقد ظهر جون أف كنيدي جونيور الصغير، وهو يخرج رأسه من هذا الباب في الصورة الأكثر شهرة الّتي أُخذت في المكتب البيضاويّ في أيّ وقت مضى. وقد استخدم أبي ذلك المكتب في الطابق العلويّ من مركز الإقامة في البيت الأبيض، في حين أعاده بيل كلينتون إلى المكتب البيضاويّ. الجلوس وراء هذا المكتب التاريخيّ ذكّرني - في أوّل يوم وفي كلّ يوم - بأنّ مؤسّسة الرئاسة أهمّ من الشخص الذي يشغلها.

كان آندي كارد معي حين جلست خلف مكتب الـResolute لأوّل مرّة. وكان أوّل قرار لي في المكتب البيضاويّ تغيير كرسيّ المكتب – وهو أداة غريبة تهتزّ عندما توصل بالقابس ـ بشيء أكثر عمليّة. ثمّ فتح الباب المؤدّي إلى حديقة الورد. فنظرت ورأيت أبي.

قال: «سيّدي الرئيس». وكان يرتدي بدلةً داكنة، وشعْره لا يزال مبتلاً من حمّام ساخن ليذوّب الجليد عنه.

فأجبته: «سيّدي الرئيس».

دخل المكتب البيضاويّ، ومشى في جميع أنحائه. التقينا في منتصف الغرفة. لم يتفوّه أيٌّ منّا بالكثير. لم نكن بحاجة إلى ذلك. فتلك اللحظة كانت مؤثّرة إلى حدّ أنّ كلاًّ منّا لم يستطع التعبير.

* * *

في اليوم التاسع، جمعت فريق السياسة الداخليّة في المكتب البيضاويّ. وصل الجميع في الوقت المحدّد، وهذا ما كنت أتوقّعه. فالتقيّد بالمواعيد يضمن حسن سير المنظّمة. وفي ذلك اليوم أطلعتنا على المسائل المطروحة مارغريت سبلنغز، وهي أمّ لولدين وتتمتّع بالذكاء والجرأة. كانت مارغريت قد عملت معي في أوستن، وانتقلت إلى واشنطن لتكون كبيرة مستشاري السياسة الداخليّة عندي. غطّت مجموعة متنوّعة من المواضيع في ذلك اليوم، بما في ذلك مبادرة جديدة تتعلق بالأشخاص المعوّقين وإنشاء لجنة لإصلاح النظام الانتخابيّ برئاسة الرئيسين الأسبقين فورد وكارتر. ثمّ انطلقت في مناقشة أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة: «أصدرت إدارة الرئيس بيل كلينتون مبادئ توجيهيّة قانونيّة جديدة تفسّر «تعديل ديكي» للسماح بتمويلٍ فدرالي لأبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. لدينا خيارات عدّة حول طريقة المضي قدُماً».

قاطعتُها سائلاً: «أوّلاً، وقبل أيّ شيء، ما هي الخلايا الجذعيّة بالضبط؟». أنا أتعلّم بطريقةٍ أفضل من خلال طرح الأسئلة. في بعض الحالات، أستفسر لفهم مسألة معقّدة. وفي مرّات أخرى، أستخدم الأسئلة باعتبارها طريقة لاختبار معرفة الشخص الذي يطلعني على معلومة. إذا عجز عن الإجابة بإيجاز وبلغةٍ إنجليزيّةٍ سهلة، فذلك ينذرني بإمكانية عدم فهمه هذا الموضوع تماماً.

كالعادة، كانت مارغريت قد استعدّت جيّداً. بدأت بشرح الناحية العلميّة. فالخلايا الجذعيّة الجنينيّة هي مورد طبّيّ مميّز لأنّها يمكن أن تتحوّل إلى مجموعةٍ واسعةٍ من أنواع مختلفة من الخلايا. مثلما ينمو جذع الكرمة مشكّلاً فروعاً مختلفة كثيرة، فالخلايا الجذعيّة الجنينيّة لديها القدرة على النموّ وتكوين خلايا عصبيّة للدماغ وأنسجة عضليّة للقلب أو غيرها من الأجهزة. توفّر هذه الخلايا وسيلةً ممكنةً لعلاج أمراضٍ مختلفةٍ، من السكّريّ عند الأطفال إلى مرض الزهايمر ومرض باركنسون. يعتمد ذلك الأمر على تكنولوجيا جديدة وعِلْم لا يقوم على برهان، ولكنّه يتضمّن إمكانات كبيرة. ومع ذلك، فإنّ الطريقة الوحيدة لاستخراج الخلايا الجذعيّة الجنينيّة هي تدمير الجنين ممّا يخلق معضلةً أخلاقيّة: هل يمكن تبرير تدمير حياة إنسانيّة أملاً بإنقاذ آخرين؟

بدا جواب الكونغرس واضحاً. كلّ سنة منذ ١٩٩٥، شرّع مجلسَا النوّاب والشيوخ حظر استخدام أموال الدولة للبحوث التي تتضمّن تدمير أجنّة بشريّة. عُرف القانون بـ«تعديل ديكي» تيمّناً بعضو الكونغرس جاي ديكي من أركنساس.

في سنة ١٩٩٨، قام باحث في جامعة ويسكونسن بعزل خليّة جذعيّة جنينيّة للمرّة الأولى. حين انقسمت الخليّة، كوّنت عدداً وافراً من الخلايا ـ تعرف بالخطّ ـ يمكن استخدامها لأغراض البحث. بعدها اعتمدت إدارة كلينتون تفسيراً جديداً لتعديل ديكي. جادل المحامون في أنّ دولارات دافعي الضرائب يمكن استخدامها لدعم أبحاث الخلايا الجذعيّة على خطوط مُستخرَجة من أجنّة مدمّرة ما دام التدمير نفسه مموّلاً من خلال مصادر خاصّة. وكانت معاهد الصحّة الوطنيّة على استعداد

لإصدار المنح في إطار تلك الشروط، لكنّ ولاية الرئيس كلينتون انتهت قبل توزيع أي أموال. وبذلك كان عليّ أن أقرّر مباشرة ما إذا كنت سأسمح بتقديم تلك المنح.

* * *

كان واضحاً أنّ هذا أكثر من مجرّد نزاع بشأن التمويل. فالأسئلة الأخلاقيّة كانت عميقة : هل الجنين المجمّد هو حياة إنسانيّة؟ إذا كان الأمر كذلك، ما هي مسؤوليّاتنا لحمايتها؟

قلت لمارغريت وكبير الموظّفين جوش بولتن إنّني أعتبر هذا القرار مهماً جدّاً. وقد نظّمت عمليّة لتحقيق ذلك: أوضّح المبادئ التوجيهيّة الخاصّة بي، ثمّ أستمع إلى الخبراء من الجهتين، وأتوصّل إلى استنتاج مؤقّت، أعرضه على أهل العِلم. بعد أن أتوصّل إلى القرار الأخير، أفسّره للشعب الأميركيّ. وأخيراً أحدّد الخطوات لضمان تنفيذ سياستي.

ولهذه الغاية اتّصل جوش بجاي لفكوفتز وهو المستشار القانونيّ العامّ لمكتب الإدارة والميزانيّة، وهي الوكالة التي ستشرف على سياسة التمويل. وكان جاي محامياً مفكّراً وحيويّاً من نيويورك وهو ملتزم بجدّيّة بدينه اليهوديّ ويمتلك حسَّ فكاهةٍ جافاً. أحببته على الفور. وهذا كان أمراً جيّداً لأنّنا سنقضي الكثير من الوقت معاً.

زوّدني جاي بكتابات عن الموضوع شملت مقالاتٍ من مجلاّت طبّيّة وكتابات في الفلسفة الأخلاقيّة وتحليلاتٍ قانونيّة. وقد غطّت وجهات نظر مختلفة. في مجلّة العلوم Science، قال الأخصائيّ في أخلاق الطبّ الحيويّ الدكتور لويس غنن: «إذا رفضنا [أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة]، ليس من المرجّح أن يولد طفل إضافيّ. إذا أجرينا الأبحاث، قد نخفّف العذاب».

أمّا الآخرون، على الجانب الآخر من النقاش، فقد جادلوا في أنّ دعم الحكومة لتدمير الحياة البشريّة سيشكّل تخطّياً لحدود الأخلاق. وكتب خبير أخلاقيّات عِلْم الأحياء ويسلي سميث في «National Review» إنّ أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة،

يأخذنا في مسار، من شأنه أن يحوّل نظرتنا إلى الحياة البشريّة بشكلٍ يجعلها مورداً طبيعيّا ليّناً وقابلاً للتسويق، وأشبه بقطيع الماشية أو منجم النحاس يمكن استغلاله لإفادة الأحياء.

تعود مسألة الخلايا الجذعيّة في جوهرها، إلى الصدام الفلسفيّ بين العِلْم والأخلاق. شعرتُ أنّني مشدود إلى كلا الاتّجاهين. لم يكن لي مصلحة في الانضمام إلى جمعيّة الأرض المسطّحة. تعاطفت مع الآملين بعلاجاتٍ طبّيّةٍ جديدة، فقد فقدت شقيقةً بسبب مرض لوكيميا الأطفال. كما كنت في السابق عضواً في مجلس إدارة مؤسّسة كينث والدريب الوطنيّة للشلل، وهي جماعة بقيادة لاعب كرة قدم سابقٍ في جامعة تكساس المسيحيّة أُصيب بضررٍ في الحبل الشوكي. آمنت بإمكانات العِلْم والتكنولوجيا لتخفيف المعاناة والمرض. وخلال حملتي لانتخابات الرئاسة، تعهّدت بمتابعة الالتزام الذي التزم به الكونغرس في أواخر التسعينيات لمضاعفة تمويل معاهد الصحّة الوطنيّة.

في الوقت نفسه، شعرتُ أنّ التكنولوجيا يجب أن تحترم الحدود الأخلاقيّة. خشيت من أن تأخذنا الموافقة على تدمير الأجنّة البشريّة لأغراض الأبحاث، من الخيال العلميّ إلى الواقع الطبّي. تصوّرت باحثين يقومون باستنساخ الأجنّة لتكوين أعضاء بشريّة احتياطيّة في المختبر. وتوقّعت إغراء فكرة الأطفال المصمّمين حسب الطلب بحيث يتمكّن الأهل من هندسة لاعب كرة سلّة أشقر خاصّ بهم. وكابوس الاستنساخ البشريّ على نطاقٍ واسع ليس بعيداً عن تلك الفكرة. كنت أعرف أنّ هذه الاحتمالات قد تبدو خياليّة لبعض الناس، ولكن متى بدأ العِلْم السير في هذا الطريق، ستكون العودة إلى الوراء صعبة جداً.

* * *

تداخلت مسألة الخلايا الجذعيّة مع النقاش بشأن الإجهاض. يبدو صعباً تصديق الأمر الآن، ولكنّ الإجهاض لم يكن قضيّة سياسيّة كبرى عندما كنت شابّا. لا أذكر أنّ

الموضوع نوقش كثيراً خلال الحملات الأولى لأبي أو في الأحاديث في أندوفر أو ييل. تبدّلت الأمور سنة ١٩٧٣ عندما أصدرت المحكمة العليا قراراً اعتبر الإجهاض حقّاً يحميه الدستور، وهو ما وصفه القاضي بايرون وايت بأنّه «مثال على ممارسة السلطة القضائيّة بطريقةٍ غير ناضجة».

إن مسألة الإجهاض صعبة وحسّاسة وشخصيّة، وإيماني وضميري جعلاني أستنتج أنّ الحياة البشريّة مقدّسة. فقد خلق الله الإنسان على صورته ومثاله، وبالتالي فكلّ شخص له قيمة في عينيه. شعرت أنّ الطفل الّذي لم يولد بعد، في حين أنّه يعتمد على أمّه، هو مخلوق منفصل ومستقلّ يستحقّ الحماية بحدّ ذاته. عندما رأيت باربرا وجينا في صورة الموجات الصوتيّة (السونوغرام) للمرّة الأولى، لم يكن عندي شكّ في أنّهما كانتا متميّزتين وعلى قيد الحياة. وواقع أنّهما لم تستطيعا الدفاع عن نفسيهما جعل الدفاع عنهما من مسؤولية المجتمع.

لم يوافقني الرأي كثير من الأشخاص اللائقين والمهتمّين، بمن فيهم أفراد من عائلتي. فهمتُ الأسباب واحترمت وجهات نظرهم. وبصفتي رئيساً، لم يكن لديّ أيّ رغبة في إدانة الملايين أو حقن أجواء الصراعات الثقافيّة المستعرة. لكنّني شعرت بمسؤوليّة التعبير عن قناعاتي المؤيّدة للحياة، وقيادة البلاد نحو ما سمّاه البابا يوحنّا بولس الثاني «ثقافة الحياة». وكنت على قناعة أنّ معظم الأميركيّين يتّفقون على فكرة أنّنا أفضل حالاً بوجود عددٍ أقلّ من حالات الإجهاض. لذا كانت إحدى أولى خطواتي، في البيت الأبيض، إعادة ما يسمّى وثيقة مدينة مكسيكو، التي منعت التمويل الفدراليّ عن الجماعات التي تشجّع الإجهاض في الخارج. كما دعمت قوانين الولايات التي توجب إبلاغ الأهل عندما تلجأ فتاة قاصر إلى الإجهاض. ودعمت مشروع قانون يحظّر الممارسة المروّعة للإجهاض في المراحل المتقدّمة من الحمل، ووقّعت عليه ودافعت عنه.

كنّا أنا ولورا أيضاً من أشد المؤيّدين للتبنّي. بعد أن واجهنا الصعوبات لإنجاب الأطفال، كان صعباً علينا أن نتصوّر أنّ أي شخص قد يرفض ما اعتبرناه هديّة ثمينة.

ولكن كأبٍ لابنتين، يمكنني أن أتصوّر المعضلة التي تواجه مراهقةً خائفةً من حمْلٍ غير مخطّطٍ له. لذا كان التبنّي بديلاً إيجابيّاً عن الإجهاض، فهو وسيلة لإنقاذ حياة إنسان واحدٍ وجعل حياة اثنين أكثر إشراقاً: حياة الوالدين بالتبنّي. وقد سرّني أن أوقّع تشريعاتٍ تسمح بزيادة التمويل للمراكز التي تقدّم النصح في حالات الحمل المتأزّمة، وكذلك لزيادة الإعفاءات الضريبيّة لتخفيض تكاليف التبنّي.

وكنت آمل، على المدى الطويل، أن يحصل تغيير في القلوب من شأنه أن يؤدّي إلى تغيير في القانون، فتساعد التكنولوجيا الجديدة مثل الموجات فوق الصوتيّة ذات الأبعاد الثلاثية عدداً أكبر من الأميركيّين على الاعتراف بإنسانيّة الأجنّة. كما كنت آمل أن يواصل القادة السياسيون التحدّث باسم الثقافة التي تقي الحياة البشريّة البريئة. وقد عبّر عن هذه الفكرة تعبيراً جيّداً حاكم ولاية بنسلفانيا الديمقراطيّ بوب كيسي: «عندما ننظر إلى الطفل الذي لم يولد بعد، لا تكون القضيّة الحقيقيّة متى تبدأ الحياة، ولكن متى يبدأ الحُبّ».

* * *

في بداية ربيع سنة ٢٠٠١، قامت مارغريت وجاي وكارل روف ـ الذي كان على اتّصال وثيق بمجموعاتٍ مدافعةٍ على كلا الجانبين من القضيّة ـ بدعوة علماء مرموقين ومتخصّصين بعِلْم الأخلاق ومفكّرين دينيّين ومؤيّدين، لمناقشة أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. ذهلتُ بالمحادثات، وكلّما اتّسعت معرفتي بالمسألة، زادت أسئلتي. عندما ألقيتُ خطاباً في حفل تخرّج في جامعة نوتردام، تحدّثت عن أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة مع رئيس الجامعة الأب إد مالوي المعروف بـ«مونك». وعندما خطبت في جامعة ييل في اليوم التالي، ناقشت هذا الموضوع مع الدكتور هارولد فارمس من مركز ميموريال سلون كيترينج لعلاج السرطان. وخلال حفل عيد ميلاد أحد الأطبّاء في الوحدة الطبّيّة في البيت الأبيض، سألتُ جميع الأطبّاء هناك عن رأيهم. حين انتشر خبر سعيي إلى سماع الآراء المختلفة، جاءتني

كمّيات هائلة من الردود من أمناء مجلس الوزراء، والموظّفين، ومستشارين من خارج الإدارة، وأصدقاء.

بطبيعة الحال، طلبتُ نصيحة لورا. كان والدها قد توّفي من مرض الزهايمر وعانت والدتها من سرطان الثدي، فأمِلت بقوّة في إمكانيّة إيجاد علاجاتٍ جديدة. ولكنّها قلقت من أنّ الجماعات الداعية إلى تلك الأبحاث قد تبالغ في وعودها بشأن ما يمكن أن تحقّقه أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة، فتتلاشى آمال العائلات اليائسة.

قدّم أعضاء المجتمع العلميّ حجّتين رئيسيّتين دعماً لتمويل أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. أولاهما تتعلّق بالاحتمالات الطبّيّة المترتّبة عن ذلك. أخبرني باحثون أنّ هناك الملايين من الأميركيّين الّذين يعانون من الأمراض التي يمكن تخفيفها من خلال العلاجات المستمدّة من الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. ويعتقد الخبراء أنّ ما من حاجةٍ إلاّ إلى عددٍ قليلٍ من خطوط الخلايا الجذعيّة لاستكشاف هذا العِلم وتحديد قيمته. وصرّح إيرف فايزمان، وهو باحث بارز من جامعة ستانفورد، لصحيفة نيويورك تايمز: «إذا كان لدينا عشرة إلى خمسة عشر خطّاً، فلن يشكو أحد».

وقال لي فريق أبحاث من المعاهد الوطنيّة للصحّة إنّ عشراتٍ من خطوط الخلايا الجذعيّة هي قيد التطوير. وذكروا أيضاً بعض الأبحاث الأوّليّة عن وسائل بديلةٍ لاشتقاق الخلايا الجذعيّة دون تدمير الأجنّة. وكان رأيهم جميعاً أنّ منع الدعم الفدراليّ لأبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة سيساهم بإضاعة فرصة. وشرحوا لي أنّ أموال دافعي الضرائب مهمّة، ليس كمصدر تمويلٍ فحسب، ولكن أيضاً باعتبارها خاتم الموافقة على الابتكار العلميّ.

أمّا الحجّة الثانية التي استعملها العلماء فكانت عمليّة: معظم الأجنّة الّتي ستُستخدم لاستخلاص الخلايا الجذعيّة من المرجّح أن يتمّ التخلّص منها على أيّ

حال. المصدر الرئيسيّ لهذه الأجنّة في المختبر هو عيادات التلقيح الاصطناعيّ. عندما يوافق الزوجان على إجراء تلقيحٍ اصطناعي، يقوم الأطبّاء في العادة بتخصيب عددٍ أكبر من البويضات من تلك التيّ تزرع في الأمّ. ونتيجة لذلك، تُترك بعض الأجنّة بعد انتهاء العلاج وتجمّد عادة ليتمّ تخزينها في عيادة الخصوبة. ويسأل العلماء: بما أنّ هذه الأجنة لن يتمّ استخدامها لإنجاب الأطفال، أليس من الأفضل استخدامها في الأبحاث الّتي يمكن أن تنقذ الأرواح؟

أكثر الجماعات الناشطة في دعم أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة هي مؤسّسة أبحاث السكّري للأطفال. في تمّوز/يوليو ٢٠٠١ دعوتُ ممثّلين عن المنظّمة إلى المكتب البيضاويّ. وكان بين أعضاء الوفد صديقان لي، وودي جونسون ومايك أوفرلوك. كان الرجُلان من الداعمين السياسيّين، وعندهما أطفال يعانون من مرض السكّري. وكانا من المؤيّدين الشغوفين والمقنعين، ولا لبس في محبّتهما لأولادهما. ولكنّني تفاجأت بقناعتهما الثابتة بإمكانيّة تحقيق اختراق علميّ في مجال الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. عندما أشرت إلى أن لا براهين على نتائج هذا العِلْم ويمكن أن يكون هناك بدائل عن تدمير الأجنّة، كان واضحاً أنّ جماعة دعم الأبحاث لم تترك أيّ مجال للشكّ في عقولهم. أعطاني الاجتماع فكرةً عمّا يمكن أن تولّد هذه القضيّة من عواطف.

في اليوم نفسه، التقيتُ بممثّلي الجمعيّة الوطنيّة للحقّ في الحياة. لقد عارضوا أيَّ بحث يدمّر الأجنّة، وأشاروا إلى أنّ كلّ خليّة جذعيّة صغيرة يمكن أن تنمو لتصيرَ شخصاً. في الحقيقة، إنّ كلّ واحد منّا بدأ حياته في هذه الحالة المبكّرة. وكبرهانٍ، أشاروا إلى برنامج جديدٍ تديره مؤسّسة النور المسيحيّة للتبنّي. قامت الوكالة بتأمين رخصة للمشاركينَ بعمليّات التخصيب الاصطناعيّ بمنح أجنّتهم غير المستخدمة والمجمّدة للتبنّي. هكذا تتمكّن أمّهات مليئات بالحُبّ من حمل تلك الأجنّة، المعروفة باسم المصطلح «ندف الثلج» في أحشائهن. وكانت الرسالة لا لبس فيها: في كلّ جنين مجمّد بدايات طفل.

عبّر كثير من أخصّائيي الأخلاقيّات البيولوجيّة عن الموقف نفسه. اعترفوا أنّ معظم الأجنّة المجمّدة في عيادات أطفال الأنابيب لن تصير أطفالاً. إلاّ أنّهم أكّدوا أنّ هناك فرقاً معنويّاً بين السماح بموت الأجنّة طبيعيّاً وإنهاء حياتها استباقياً. فهُما اعتبرا أنّ الموافقة على تدمير حياةٍ لإنقاذ حياةٍ أخرى أمر خطير أخلاقيّاً. قال أحدهم إنّ «واقع حتميّة موت مخلوق لا تخوّلنا استغلاله كموردٍ طبيعيّ».

سمعت بعض الآراء التي فاجأتني. قال لي الدكتور دان كالاهان، وهو عالم أخلاق ذكيّ، إنّه كان يؤيّد حرّيّة الخيار بالنسبة للإجهاض ولكنّه يعارض أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. فهو يعتقد أن هناك فرقاً على المستوى الأخلاقيّ بين إجهاض الجنين لإفادة أمّه مباشرة، وتدمير الجنين، لأغراض الأبحاث العلميّة الغامضة وغير المباشرة. وقال لي الدكتور بنجامين كارسون، أحد أهمّ الجرّاحين في العالم، إنّ أبحاث الخلايا الجذعيّة يمكن أن تكون ذات قيمة، ولكن ينبغي أن يركّز العلماء على بدائل لتدمير الجنين، مثل جمع الخلايا الجذعيّة من دم الحبل السرّيّ. من ناحية أخرى، أيّد أورين هاتش وستروم ثرمند، وهما من أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر تأييداً لثقافة الحياة، تمويلاً فدراليّاً لأبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة لأنّهما كانا يظنّان أنّ فوائد إنقاذ الأرواح تفوق تكلفة تدمير الأجنّة.

* * *

قمتُ في تموز/يوليو سنة ٢٠٠١، بزيارة البابا يوحنّا بولس الثاني في مقرّ إقامته الصيفيّ الجميل، كاستل غاندولفو. اصطحبنا الحرس السويسريّ في زيّه الرسميّ، عبر سلسلةٍ من الغرف، وداخل منطقة الاستقبال. وكان البابا يوحنّا بولس الثاني أحد أعظم الشخصيّات في التاريخ الحديث. كأحد الناجين من النازيّة والشيوعيّة في مسقط رأسه بولندا، صار أوّل بابا غير إيطاليّ منذ ٤٥٥ سنة. بواسطة دعوته «لا تخافوا»، شدّ ضمير أوروبا الوسطى والشرقيّة لإسقاط الشيوعيّة. وقد كتب المؤرّخ المرموق جون لويس جاديس في وقتٍ لاحق: «عندما قبّل يوحنّا بولس الثاني

الأرض في مطار وارسو في ٢ حزيران/يونيو ١٩٧٩، بدأت عمليّة انهيار الشيوعيّة في بولندا وفي كلّ مكانٍ آخر في أوروبا».

بحلول سنة ٢٠٠١، أصبحت حماسة الأب الأقدس وطاقته هشّتين. صارت حركته صعبة وكلماته بطيئة وخفيفة، لكنّ عينيه استمرّتا باللمعان. ملأته روحٌ لا لبس فيها. مشى بحذرٍ معنا، أنا ولورا وابنتنا باربرا إلى الشرفة حيث ذُهلنا بمنظر بحيرة ألبانو الرائعة . بعدها انفرد بي في غرفة بسيطة، حيث ناقشنا مجموعةً متنوّعةً من القضايا، بما في ذلك بحوث الخلايا الجذعيّة. لقد فهم ما يعد به العلم. فالأب الأقدس نفسه كان يعاني من مرض الشلل الرعاشي (باركنسون)، ولكنّه كان حازماً في رأيه أن من الضروريّ حماية الحياة الإنسانيّة في جميع أشكالها. شكرته على تقديمه مثالاً في القيادة الثابتة على مبادئها، وأوضحت أنّ ثبات الكنيسة الكاثوليكيّة يمنح أساساً أخلاقيّاً يعتمد عليه السياسيّون المؤيّدون لثقافة الحياة مثلي. وقلت له إنني آمل أن تبقى الكنيسة دائماً صلبةً في الدفاع عن كرامة الإنسان.

عندما توفّي الأب الأقدس سنة ٢٠٠٥، سافرتُ، برفقة لورا وأبي وبيل كلينتون، لحضور جنازته في روما .كانت المرّة الأولى التي يحضر فيها رئيس أميركيّ جنازة بابا، ناهيك عن اصطحاب اثنين من أسلافه. بعد فترةٍ وجيزةٍ من وصولنا، ذهبنا لوداع الأب الأقدس وهو يرقد. بينما كنّا نركع للصلاة على جسده، نظرت إليّ لورا وقالت: «الآن هو الوقت المناسب لنصلّي من أجل تحقيق المعجزات». فشعرت باندفاعٍ غير متوقّع. صلّيت من أجل بيتر جينينغز، مذيع آي بي سي نيوز الذي كان يحتضر من مرض السرطان.

كان الحشد في الجنازة مؤثّراً بشكلٍ لا يصدّق. الجموع في ساحة القدّيس بطرس هلّلوا وغنّوا وحملوا لافتاتٍ تمجّد حياة الحبر الأعظم . بعد أن تلا العظة الكاردينال جوزف راتسينغر ـ الذي بعد أحد عشر يوماً سيخرج من الاجتماع السرّيّ بصفته الجديدة البابا بنديكتوس السادس عشر ـ قام بعض ممثّلي الكنيسة بحمل نعش الأب الأقدس صاعدين الدرج باتّجاه كاتدرائيّة القدّيس بطرس. قبل اجتياز

الأبواب التفتوا لمواجهة الحشود ورفعوا التابوت للمرّة الأخيرة. فتفرّقت الغيوم ولمعت الشمس على المربّع الخشبيّ البسيط.

* * *

بعد أشهر عدّة من الاستماع والتأمّل، اقتربتُ من مرحلة اتّخاذ قرارٍ بشأن أبحاث الخلايا الجذعيّة. وجاءت اللحظة الحاسمة خلال محادثة مع ليون كاس يوم ١٠ تموز/يوليو. كان ليون طبيباً وأستاذ فلسفةٍ في جامعة شيكاغو يحظى باحترام كبير. وكان قد كتب ودرّس في مجالات مختلفة متنوعة مثل البيولوجيا التطوّريّة والأدب والكتاب المقدّس، وجدتُه رجُلاً حكيماً ومفكّراً.

أخبرت ليون أنّني كنت في صراعٍ مع هذا القرار. بدا أنّ أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة تحمل كثيراً من الأملِ، ومع ذلك كانت تثير قلقاً على المستوى الأخلاقيّ. تساءلتُ إذا كان ممكناً اعتماد سياسة مبدئيّة تدعم تقدّم العِلْم وتحترم كرامة الحياة.

بدأ عقل ليون المنطقيّ يعمل، فجادل في أنّ الأجنّة، بما في ذلك تلك المجمّدة لفترةٍ طويلة، لديها القدرة على الحياة، وبالتالي تستحقّ شكلاً من أشكال الاحترام. قال: «إذا استخدمنا هذه الأشياء سنشعر بالتعاسة»، وأضاف: «إنّنا مدينون لهم على الأقلّ بالاحترام المتمثّل بعدم التلاعب بها لأغراضنا الخاصّة. فنحن نتعامل مع بذور الجيل القادم».

عرضتُ عليه فكرتي: ماذا لو أذنتُ بالتمويل الفدراليّ لأبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة، ولكن فقط لخطوط الخلايا الجذعيّة الموجودة حاليّاً؟ فالأجنّة التي استُخدمت لإنشاء تلك الخطوط قد دُمِّرت ولا توجد طريقة لاستعادتها. بدا منطقيّاً السماح للعلماء باستخدامها لمتابعة البحث عن علاجات قد تنقذ حياة الآخرين. لكنّ تلك الفكرة أثارت سؤالاً آخر: لو سمحتُ بالتمويل الفدراليّ للبحوث التي تعتمد على تدمير الأجنّة، هل أكون أشجّع، ضمناً، مزيداً من التدمير؟

قال ليون إنّه يعتقد أنّ تمويل الأبحاث على الأجنّة المدمّرة سيكون أخلاقيّاً، إذا احترمنا شرطين: عليّ إعادة تأكيد المبادىء الأخلاقيّة التي تمّ انتهاكها، وفي هذه الحالة، الأمر يتعلّق بكرامة الحياة البشريّة. ولا بدّ لي من أن أوضح أنّ الأموال الفيدراليّة لن تُستخدم في مواصلة تدمير الأجنّة. قال: إذا قمتَ بهذين الأمرين، فإنّ هذه السياسة ستجتاز الاختبار الأخلاقيّ. وأضاف «إذا موّلتَ أبحاثاً على مواضيع تمّ تطويرها سابقاً، فلن تكون شريكاً في تدميرها».

تبلور تفكيري بعد محادثتي مع ليون. وقرّرتُ أنّ تقوم الحكومة بتمويل الأبحاث على خطوط الخلايا الجذعيّة المشتقّة من الأجنّة الّتي سبق أن تمّ تدميرها. في الوقت نفسه، سأطلب من الكونغرس زيادة التمويل الفدراليّ لإيجاد مصادر بديلة عن الخلايا الجذعيّة لا تسبّب جدلاً أخلاقيّاً. وسأضع حدوداً أخلاقيّة ثابتة: لن تُستخدم دولارات الضرائب الفدراليّة لدعم تدمير الحياة لتحقيق مكاسب طبّيّة .كما أنشأتُ أيضاً مجلساً رئاسيّاً جديداً لأخلاقيّات عِلْم الأحياء، يتألّف من خبراء من جميع الخلفيّات، ويرأسه ليون كاس.

كانت الخطوة اللاحقة إعلان القرار إلى الشعب الأميركيّ. اقترحتْ كارين أن ألقي خطاباً استثنائيّاً للأمّة خلال فترة الذروة .عندما يتوجّه الرئيس بخطابٍ إلى الأمّة في فترات الذروة، فهو يتحدّث عادةً كقائد للقوّات المسلّحة. أمّا في هذه الحالة، فكنت سأتكلّم كقائدٍ مربّ. أعجبتني الفكرة، فأبحاث الخلايا الجذعيّة قضيّة خطيرة عند الأمّة، ولكنّها غامضة لمعظم المواطنين، كما كانت الحال بالنسبة لي في كانون الثاني/يناير. سيكون شرحُ قراري بأهمّيّة أخذه تقريباً.

في ٩ آب/أغسطس ٢٠٠١، وجّهت خطابي إلى جمهورٍ واسعٍ علي شبكة التلفزة من كراوفورد في ولاية تكساس، وهو بالتأكيد أمر يحصل للمرّة الأولى في تاريخ رؤساء الولايات المتّحدة. وفي الليلة التي سبقت خطابي، تناولنا، أنا ولورا، طعام العشاء مع جاي وكارين وابنها روبرت، وصديق الأسرة مهندس الديكور كين بلايزينغايم. طلبتُ من جاي أن يتلو صلاةً قبل أن نبدأ تناول الطعام، فقال كلاماً

قليلاً مدروساً. حين أنهى كلامه، أبقينا رؤوسنا منحنيةً بانتظار «آمين». بعد بضعة ثوانٍ، قال لنا جاي: إنّ الصلوات اليهوديّة لا تنتهي دائماً بآمين. وبذلك اختُتم مسار تعلّمت، خلاله، الكثير.

بدأتُ خطابي بالقول: «مساء الخير، أنا أقدّر لكم إعطائي بضع دقائق من وقتكم هذه الليلة حتىَ أستطيع أن أناقش معكم مسألةً معقّدةً وصعبة، وهي من أعمق القضايا في عصرنا». أوجزت هذه المعضلة: «على الرغم من أنّنا يجب أن نكرّس طاقةً هائلةً لقهر المرض، من المهمّ أيضاً أن نولي اهتماماً للشواغل الأخلاقيّة التي أثارتها الآفاق الجديدة لأبحاث الخلايا الجنينيّة البشريّة. حتى أنبل الغايات لا تبرّر استعمال أيّ وسيلة».

قرب نهاية الخطاب، انتقلتُ إلى تحديد قراري:

إنّ أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة توفّر وعوداً كبيرة وخطراً عظيماً على حدّ سواء، ولذا فإنّني قرّرت أنّه علينا المضيّ قُدُماً، بحذرٍ شديد.... وقد استنتجت أنّه ينبغي السماح باستخدام الأموال الفدراليّة للأبحاث على خطوط الخلايا الجذعيّة الموجودة حاليّاً، حيث تمّ سابقاً اتّخاذ قرار الحياة والموت بشأنها. أبرز العلماء يقولون لي إنّ الأبحاث على هذه الخطوط قد تؤدّي إلى اختراق على مستوى العلاجات الشافية، ممّا سيسمح لنا باستكشاف وعود الأبحاث الجذعيّة وإمكاناتها، دون تجاوز خطّ أخلاقيّ أساسيّ باستخدام أموال دافعي الضرائب، وهو الأمر الذي يشكّل موافقةً أو تشجيعاً على مزيدٍ من تدمير الأجنّة البشريّة الّتي لديها إمكانيّة الحياة على الأقلّ... لقد توصّلتُ إلى هذا القرار بعنايةٍ فائقة، وأدعو أن يكون القرار الصائب.

شعرت بالقلق لأسابيع قبل إلقاء الخطاب. تساءلت دائماً عن افتراضاتي، وقيّمت خياراتي مرّة أخرى. وبعد أن أخذت القرار شعرت بالهدوء.لم أكن أعرف كيف سيكون ردّ الفعل. لم نقم بدراسة مركّزة على مجموعة أو باستطلاع للرأي. فانتظرنا الردّ تماماً كما انتظرنا «آمين» في نهاية صلاة جاي.

* * *

جاء ردّ الفعل على قراري، بشأن الخلايا الجذعيّة، بسرعة. أشاد به كثير من السياسيّين والناشطين من الطرفين على أساس أنّه معقول ومتوازن. وبينما ردّ بعض العلماء والجماعات المؤيّدة بالتعبير عن خيبة الأمل، رحّب كثيرون بالتمويل الفدراليّ غير المسبوق، معتبرين أنه بمثابة تصويتٍ بالثقة بعملهم. أصدر رئيس مؤسّسة أبحاث سكّري الأطفال بياناً قال فيه: «إنّنا نحيّي الرئيس لدعمه أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة». أما صديقي المشلول كينت والدرب، وهو لاعب كرة القدم في جامعة تكساس المسيحيّة، وكنت قد شاركت في مجلس الدعوة إلى الأبحاث الذي ينتمي اليه، فقد صرّح لأحد المراسلين «إنّ الخطوة تحقّق كلّ شيء يحتاجه المجتمع العلميّ، وأعتقد أكثر قليلاً».

أمّا الانتقادات فجاءت من اليمين. أحد الناشطين المحافظين قارن قراري بالتصرّف النازيّ أثناء المحرقة. وقال آخر، «أشعر بالخجل برئيسنا الذي يقدّم تنازلات ويمنح جيلي... العقليّة التي تعتبر أنّ الحياة الإنسانيّة يمكن تفكيكها وإساءة معاملتها وتدميرها». وقال المتحدّث باسم المؤتمر الأميركيّ للأساقفة الكاثوليك: «يبدو لي أنّني الرجُل الوحيد في أميركا الذي يعارض سياسة الرئيس».

لم تدم وحدته طويلاً، فسرعان ما صارت لهجة النقاش حامية وقاسية. وبالعودة إلى الوراء، كان واضحاً أن هناك عاملين في المسألة: المال والسياسة.

وكان العلماء بين أوائل الّذين تحوّلوا ضدّ هذه السياسة. وبتوفير بعض التمويل الفدراليّ، شحذت شهيّتهم لمزيد. في ربيع سنة ٢٠٠٢، عالجتُ شكوى رئيسيّة عن طريق السماح بإجراء الأبحاث على الخلايا الجذعيّة الجنينيّة التي يموّلها القطاع الخاصّ في المرافق المموّلة فدراليّاً. كانت خطوة مهمة، لكنّها لم ترضِ العلماء، الذين طالبوا بمزيدٍ باستمرار.

وسرعان ما تبعتهم الجماعات المؤيّدة للأبحاث. فآمالهم العالية في إيجاد علاجات جديدة قادتهم إلى تقديم وعود غير واقعيّة. بدا أنّهم شعروا بأنّ عدد الخلايا

الجذعيّة المتوفّرة لإجراء البحوث سيؤخّر تحقيق اختراقات. كما وظّفوا بعض نجوم هوليوود، من أصحاب النيّات الحسنة، لتجييش العواطف. واكتشفوا أيضاً أنّ المسألة يمكن أن تساعدهم على جمع كثيرٍ من المال. تحوّل بعض الذين أيّدوا قراري في البداية إلى أشدّ المنتقدين.

كذلك رأى السياسيّون أنّ بإمكانهم، أيضاً، الاستفادة من هذه القضيّة. في سنة ٢٠٠٤، خلص الديمقراطيّون إلى أنّ موضوع أبحاث الخلايا الجذعيّة ورقة سياسيّة رابحة. وهذا سمح لهم بفتح جبهة جديدة في النقاش حول الإجهاض، فيما كانوا يدّعون أيضاً الرحمة. ووضع المرشّحون في جميع أنحاء البلاد الإعلانات التلفزيونيّة الّتي سلّطت الضوء على فوائد أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة، دون الإشارة إلى أنّه لم يتمّ إثباتها علميّاً، كما توجد شكوك أخلاقيّة حولها، وتتوفّر بدائل تتوافق مع المبادىء الأخلاقيّة.

قام المرشّح الرئاسيّ الديموقراطيّ السيناتور جون كيري بحملةٍ شرسةٍ حول هذه المسألة. انتقد كيري مراراً ما وصفه «الحظر» على أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. وأوضحتُ أن ليس هناك أيّ حظر من هذا القبيل. على العكس، كنت أوّل رئيس، في التاريخ، يموّل أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن هناك قيود على التمويل من قِبَل القطاع الخاصّ.

ومع ذلك، استخدمتْ حملةُ كيري أبحاث الخلايا الجذعيّة كأساسٍ لهجومٍ أوسع، عبر وصف مواقفي بـ«المناهِضة للعِلم». كانت الاتّهامات كاذبة. إذ كنتُ قد دعمت العِلْم عن طريق تمويل أبحاثٍ بديلةٍ على الخلايا الجذعيّة، وتعزيز تطوير الطاقة النظيفة، وزيادة الإنفاق الفدراليّ على البحوث والتكنولوجيا، وإطلاق المبادرة العالميّة لمكافحة الإيدز. على الرغم من ذلك، استمرّت الغوغائيّة حتّى موعد الانتخابات. وكانت الساعة البائسة في تشرين الأوّل، عندما قال السناتور جون إدواردز، وهو المرشّح لمنصب نائب الرئيس مع كيري، لتجمّع سياسيّ في ولاية

أيوا: «إذا صار كيري رئيساً، فسيغادر أشخاص مثل كريستوفر ريف[1] ذلك الكرسيّ المتحرّك ويعاود المشي من جديد».

* * *

كان النقاش حول الخلايا الجذعيّة مدخلاً لظاهرة شهدتُها طَوال فترة عهدي: انتقادات شخصيّة إلى حدّ كبير. فبعض المعارضين من الحزب الآخر والمعلّقين شكّكوا في شرعيّتي وذكائي وإخلاصي. سخروا من مظهري ولهجتي ومعتقداتي الدينيّة. ووُصفت بالنازيّ، ومجرم الحرب، والشيطان نفسه. أطلقَ عليّ النعتَ الأخير زعيم أجنبيٌّ، هو الرئيس الفنزويليّ هوغو تشافيز. كما وصفني نائبٌ بالخاسر والكذّاب. وهو صار زعيم الأغلبيّة في مجلس الشيوخ الأميركيّ.

لم أفاجأ لأنّني كنت قد تحمّلت الكثير من التعامل السياسيّ القاسي في ولاية تكساس. ورأيت كيف تعرّض أبي وبيل كلينتون للسخرية، من قِبَل خصومهم، ووسائل الإعلام. قورن إبراهام لنكولن بقرد البابون. حتّى جورج واشنطن فقد شعبيّته إلى حدّ أنّ رسوماً كاريكاتوريّةً سياسيّةً أظهرت بطل الثورة الأميركيّة مأخوذاً إلى المقصلة. لكنّ دوّامة التعدّي على اللياقة خلال عهدي تفاقمت مع بدء بثّ أنباء الكابل أربع وعشرين ساعة متواصلة وظهور المواقع الإلكترونيّة المفرطة في الحزبيّة السياسيّة، الأمر الذي كان مخيباً للآمال للغاية. فالأجواء السامّة في السياسة الأميركيّة لا تشجّع الناس الطيّبين على الترشّح للرئاسة.

بمرور الوقت، تحوّلتْ الإهانات والشتائم إلى قناعات عامّة. قال لي بعضهم إن عليَّ أن أردّ بقوّةٍ أكبر على الرسوم الكاريكاتوريّة. ولكنّني شعرت بأنّني سأحطّ من قدر الرئاسة لو انحدرت إلى مستوى النقّاد. كنت قد وعدت في حملتي بتغيير اللهجة

(١) ريف هو الممثّل الشهير الّذي لعب دور سوبرمان، وكان يلازم الكرسيّ المتحرّك بعد حادث ركوب خيل. وللأسف، فقد توفّي في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، قبل يوم واحد من بيان إدواردز.

في واشنطن. وقد أخذتُ النُذُرَ على محمل الجدّ وحاولت القيام بدوري، ولكنّني نادراً ما نجحت.

لم يؤثّر النقاش الصاخب على قراراتي. قرأت الكثير من كتب التاريخ، وأدهشني كم من الرؤساء عانوا من انتقادات قاسية. وتمّ قياس شخصيّاتهم، وغالباً نجاحهم، بطريقة ردّهم. هؤلاء الذين استندوا عند أخذ قراراتهم على المبادىء، وليس على تصوّر الرأي العامّ، وبرّرتْ مواقفهم مع مرور الوقت.

كتب جورج واشنطن، ذات مرّة، إنّ القيادة على أساس الاعتقادات الراسخة منحته «عزاءً داخليّاً، لا يمكن لأيّ جهودٍ معاكسةٍ حرماني منه». وتابع قائلاً: «سهام الحقد، وإن كانت شائكةً ومصوّبةً بدقّة، فلا يمكن أن تصل أبداً حتّى إلى الجزء الأكثر ضعفاً منّي».

قرأت هذه الكلمات في كتاب «الشجاعة الرئاسيّة»، الذي كتبه المؤرّخ مايكل بيشلوس سنة ٢٠٠٧. كما قلت للورا، إذا كان الناس لا يزالون يقيّمون إرث جورج واشنطن، بعد أكثر من قرنين على تركه الرئاسة، فلا داعيَ لأن يقلق جورج دبليو هذا من عناوين صحف اليوم.

* * *

بعيداً عن الصراخ على أجهزة التلفزيون والحملة الانتخابيّة، حقّقتْ سياستي، بشأن الخلايا الجذعيّة، تقدّماً في المختبرات. للمرّة الأُولى في التاريخ، حصل العلماء على منح فدراليّة لدعم بحوث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. واستخدم العلماء أيضاً تمويلاً فدراليّاً جديداً لأبحاثٍ بديلةٍ عن الخلايا الجذعيّة لاستكشاف الإمكانات المتوفّرة في النخاع العظميّ عند الراشدين، وخلاص الجنين، والسائل السلويّ، وغيرها من المصادر غير الجنينيّة. قدّمت الأبحاث الجديدة علاجاتٍ لمرضى يعانون من عشرات الأمراض، دون أن تتّسم هذه الأبحاث بأي عيوبٍ أخلاقيّة. على سبيل المثال، اكتشف الأطبّاء وسيلةً جديدةً لجمع الخلايا الجذعيّة من دم الحبل السرّيّ

لعلاج المرضى الذين يعانون من سرطان الدم وفقر الدم المنجلي دون التسبّب بأيّ أذى.

أشرف على جزءٍ كبيرٍ من هذه الأبحاث الدكتور إلياس زرهوني، وهو باحث موهوب أميركيّ، من أصل جزائريّ، عيّنتُه لرئاسة المعاهد الوطنيّة للصحّة. وضعتُ إلياس في موقفٍ صعب، فهو كان محاصَراً بين الرئيس الذي وافق على خدمته، والمجتمع العلميّ الذي كان ينتمي إليه. لم يتّفق معي بشأن السياسة المتعلّقة بالخلايا الجذعيّة الجنينيّة. ولكنّه كان أكثر اهتماماً بالعلاجات الجديدة، ممّا كان عليه بالنسبة للسياسة. عمل بجهدٍ هائلٍ على مصادر الخلايا الجذعيّة البديلة، ويعود قدرٌ كبير من الفضل في تحقيق اختراقاتٍ في هذا المجال إلى الدكتور زرهوني وفريقه من المتخصّصين في المعاهد الوطنيّة للصحّة.

للأسف، كرّس معظم أعضاء الكونغرس القدر الأكبر من اهتمامهم للسياسة بدلاً من الاكتشافات العلميّة. ومع اقتراب موعد انتخابات سنة ٢٠٠٦، أوضح الديمقراطيّون أنّهم سوف يستخدمون، مرّةً أخرى هذه القضيّة، سلاحاً سياسياً. فأقنعت مرشّحة لعضويّة مجلس الشيوخ الأميركيّ في ولاية ميسوري، الممثّلَ مايكل جي فوكس، الّذي يعاني من مرض باركنسون، بالهجوم على خصمها من خلال إعلانات بُثّت على شاشة التلفزيون في كل أنحاء البلاد. فخشي بعض الجمهوريّين، الذين أيّدوا سياستي في البداية، خسارة مقاعدهم وبدّلوا رأيهم. في تمّوز/يوليو ٢٠٠٦، درس مجلسُ النواب ومجلسُ الشيوخ مشروع قانون من شأنه أن يقلب سياستي بشأن الخلايا الجذعيّة من خلال السماح بالتمويل الفدراليّ للأبحاث التي تدمّر حياة الإنسان.

بعد خمس سنوات ونصف السنة في الرئاسة، لم أكن قد استعملت حقّ الفيتو على أيّ تشريع، في حين أنّني عملت بشكلٍ وثيقٍ مع الأغلبيّات في الكونغرس لإقرار قوانين أقبلها. وحين كان مشروع قانون الخلايا الجذعيّة يتبلور في الكونغرس، أوضحت أنّني سوف أقوم بإسقاطه، وفعلت ذلك عندما وصل إلى مكتبي.

أصابتني كلّ أنواع التسميات، و«العنيد» كانت أكثرها تهذيباً. ولكنّني رفضت تغيير موقفي. إذا تخلّيت عن مبادئي في قضيّة مثل أبحاث الخلايا الجذعيّة، فكيف يمكنني الحفاظ على صدقيّتي في أيّ قضيةٍ أخرى؟

فكّرت كثيراً في كيفية إرسال الإشارات الصحيحة بشأن حقّ النقض. أردت وسيلةً حيّةً لأبيّن أنّ موقفي ينبثق من تقديسي للحياة، وليس نفوراً من العلم. عندما اقترح عليّ مستشار السياسة الداخلية كارل زينسمايستر دعوة مجموعةٍ من الأطفال المعروفين بـ«ندف الثلج» إلى البيت الأبيض، وجدت الفكرة مثاليّة. وكان كلّ منهم قد وُلد نتيجة زرع جنينٍ مجمّد في الأمّ بالتبنّي بدلاً من تدميره لأغراض البحث.

ألقيت خطابي المتعلّق بالنقض في الغرفة الشرقيّة بحضور أربعة وعشرين طفلاً متحمّساً برفقة أهلهم. كان أحدهم يُدعى تراي جونز ويبلغ أربعة عشر شهراً من العمر. بدأ حياته جنيناً مخصَّباً من قبل ديف وهيذر رايت من ماكومب في ولاية ميشيغان. كان الزوجان قد خضعا لعلاج التخصيب في المختبر، وساعدهم ذلك على إنجاب ثلاثة أطفال جميلين. وقد أعطيا الإذن بمنح الأجنّة المجمّدة المتبقّية للتبنّي، بدلاً من تدميرها لأغراض البحث. في سايبرس في ولاية تكساس، كان ج. ج. وتريسي جونز يصلّيان لإنجاب طفل. فتمّ ربطهما بعائلة رايت من خلال مؤسّسة النور المسيحيّة للتبنّي. وكانت النتيجة صبياً أشقر الشعْر، بشوشاً، يُدعى تراي، حملتُه بين ذراعيّ في البيت الأبيض. بفضل معجزة العِلم وعطف عائلتين، كان لتراي منزل محبّ وحياة مليئة بالأمل.

بعد أسابيع قليلة على انتهاء الحدث، تلقّيت رسالةً مؤثّرةً من ج. ج. جونز وصف فيها «ألم العقم»، وكم يشعر هو وتريسي بالنعمة لأنّ لديهما «تراي الثمين الذي يصفه البعض بأنّه بقايا، إمّا تُدمّر وإما تُستخدم لأغراض البحث». كما أبلغني أنّ تراي سيحصل قريباً على شقيق، وهو نتاج لجنينٍ مجمّدٍ آخر تبنّاه مع تريسي.

لم يكن ردّ فعل الكونغرس على استخدامي حقّ النقض لطيفاً. أصدر النائب الديمقراطيّ الذي قدّم مشروع القانون بياناً يدّعي فيه أنّني استخدمت حقّ النقض «لتحقيق مكاسب سياسيّة رخيصة». كان صعباً فهم ذلك الادّعاء لأنّ معظم استطلاعات الرأي أظهرت أنّ موقفي من موضوع الخلايا الجذعيّة كان لا يحظى بشعبيّة. ولمعاقبتي على استخدامي حقّ النقض، رفض الديمقراطيّون تمرير تشريعات تدعم الأبحاث عن مصادر خلايا جذعيّة بديلة. وكانت الرسالة التي أرادوا إيصالها إليّ: إذا لم يتمكّنوا من تمويل أبحاث الخلايا الجذعيّة التي تدمّر الأجنّة، فإنّهم يفضّلون عدم تمويل أي أبحاث. هذا الأمر يثير الشكّ في صدق رغبتهم بوجود علاجاتٍ جديدة.

عندما تمكّن الديمقراطيّون من السيطرة على مجلسَي النوّاب والشيوخ، قرّروا القيام بمحاولةٍ أخرى لقلب سياستي. أعلنت رئيسة المجلس نانسي بيلوسي أنّ المسألة هي من أولويّاتها القصوى. أرسلوا إليّ مشروع قانونٍ آخر في حزيران/يونيو ٢٠٠٧، فرددتُه مجدّداً مستخدِماً حقّ النقض. بفضل شجاعة كثير من الجمهوريّين في الكابيتول هيل ثبت النقض.

* * *

بعد خمسة أشهر، استيقظ الأميركيّون على عنوانٍ غير متوقّع على الصفحة الأُولى من صحيفة نيويورك تايمز: «العلماء يتجاوزون الحاجة إلى الأجنّة للحصول على الخلايا الجذعيّة». وصفت المقالة كيف قام فريقان من الباحثين، أحدهما في ويسكونسن والآخر في اليابان، بإعادة برمجة خليّة جلد مُستخرَجة من شخصٍ بالغٍ لتتصرّف مثل الخلايا الجذعيّة الجنينيّة. بإضافة أربعة جينات فقط لتلك الخليّة، تمكّن العلماء من تكرار الوعد الطبّيّ للخلايا الجذعيّة الجنينيّة دون جدلٍ أخلاقيّ.

تردّدت أصداء الاكتشاف في أنحاء المجتمع العلميّ، وأشاد أنصار أبحاث الخلايا الجذعيّة الجنينيّة بالإنجاز واصفين إيّاه بـ«تقدّم باهر» و«غير معقّد من

الناحية الأخلاقيّة». وقال إيان ويلموت، وهو العالِم الاسكتلنديّ الذي استنسخ النعجة دوللي، إنه سوف يتوقّف عن استنساخ أجنّة بشريّة، وبدلاً من ذلك سيستخدم هذه التقنيّة الجديدة. فرحتُ كثيراً بهذه الأنباء. فهذا هو الإنجاز الّذي تمنّيته عندما أدليت ببياني في سنة ٢٠٠١. كتب تشارلز كراوتهامر، وهو أحد أذكى الصحفيّين في أميركا، منتقداً بلياقة، قراري في مسألة الخلايا الجذعيّة في سنة ٢٠٠١: «الحكم واضح: نادراً ما يبرّأ رئيس كان قد افتُري عليه لتعبيره عن موقفٍ من موضوع أخلاقيّ». في السنوات اللاحقة، ستواجه أمّتنا معضلاتٍ إضافيّةً تتعلّق بأخلاقيّاتٍ عِلْم الأحياء، من الاستنساخ إلى الهندسة الوراثيّة. سيحكم التاريخ على بلدنا على أساس الطريقة التي نتعامل بها مع هذه التحدّيات لكرامة الإنسان. أنا أؤمن، كما فعلتُ حين أعلنتُ عن قراري بشأن الخلايا الجذعيّة في سنة ٢٠٠١، بأنّ العِلم والأخلاق يمكن أن يوجدا معاً، جنباً إلى جنب. بواسطة السياسة المدركة، يمكننا التوصّل إلى العلاجات الجديدة التي أملت فيها نانسي ريغان، دون الانجراف نحو العالم الذي تنبّأ به ألدوس هكسلي.

* * *

بعد أن ألقيتُ خطابي إلى الأمّة في مسألة أبحاث الخلايا الجذعيّة في آب/ أغسطس ٢٠٠١، وصف كثير من المعلّقين الأمر بأهمّ القرارات التي اتّخذتها خلال عهدي. كان الأمر صحيحاً في ذلك الوقت، ولكنّه لم يبقَ كذلك فترةً طويلة.



٥

يوم النار

يوم الثلاثاء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، استيقظت قبل الفجر في الجناح الخاصّ بي، في منتجع كولوني بيتش، قرب ساراسوتا، في ولاية فلوريدا. بدأت نهاري بقراءة الكتاب المقدّس، وبعد ذلك ذهبت لأمارس رياضة الركض. عندما بدأت أهرول حول ملعب الغولف كان الظلام لا يزال يخيّم على المكان. تعوّد العملاء السرّيون على روتين تمريني، لكن السكّان المحلّيين وجدوا هرولتي في الظلام أمراً غريباً.

عندما عدت إلى الفندق، استحممت على عجل وتناولت وجبة إفطار خفيفة، ثمّ نظرت بسرعة إلى الصحف الصباحيّة. كانت القصّة الأكبر تتعلّق بعودة مايكل جوردان من الاعتزال للمشاركة مجدّداً في الدوريّ الأميركيّ للمحترفين. أمّا العناوين الأخرى فركّزت على الانتخابات الأوّليّة لمنصب عمدة نيويورك، وعلى حالةٍ تشبه جنون البقر في اليابان.

حوالى الساعة الثامنة صباحاً، تلقّيت الموجز الرئاسيّ اليوميّ، الذي يجمع معلومات استخباراتيّة سرّيّة جدّاً مع تحليل معمّق لسياسة العوامل الجغرافيّة

والاقتصاديّة والبشريّة (الجيوبوليتيك)، وكان هذا الموجز اليوميّ من أفضل فترات النهار عندي. يوم الحادي عشر من سبتمبر قدّم لي هذا الموجز محلّل ذكيّ في وكالة المخابرات المركزيّة سي أي آي، يُدعى مايك مورل. شمل الموجز روسيا والصين والانتفاضة الفلسطينيّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة.

بعد الموجز، توجّهنا لزيارة مدرسة إيما أي بوكر الابتدائيّة لتسليط الضوء على الإصلاحات في مجال التعليم.

فيما كنت أقطع المسافة القصيرة من الموكب إلى الصفّ، ذكر كارل روف أنّ طائرة تحطّمت في مركز التجارة العالميّ.

بدا الأمر غريباً. تصوّرت أنّها طائرة مروحيّة صغيرة تاهت بشكل مريع. ثمّ اتّصلت كوندي، فتحدّثت معها من هاتف آمن في أحد الصفوف التي تمّ تحويلها إلى مركز للاتّصالات لموظّفي البيت الأبيض الذين كانوا يرافقونني. قالت لي إنّ الطائرة التي ضربت مركز التجارة لم تكن طائرة خفيفة بل طائرة تجاريّة.

ذهلت. لا بدّ أنّ الطيّار كان الأسوأ في العالم.

كيف أمكنه الاصطدام بناطحة سحاب في يوم قليل الغيوم؟ ربما أُصيب بنوبةٍ قلبيّة. طلبت من كوندي السيطرة على الوضع وطلبت من مدير الاتّصالات، دان بارتليت، تحضير بيانٍ يعد بالدعم الكامل لإدارة الطوارئ.

ألقيت التحيّة على مديرة مدرسة بوكر، وهي امرأة لطيفة اسمها غوين ريغل. عرّفتني على المدرّسة، وتدعى ساندرا كاي دانيلز، وطلاّب الصف الثاني المحتشدين في الغرفة. أشرفت السيّدة دانيلز على تمرين القراءة. بعد بضع دقائق، طلبت من الطلاّب إحضار كتب الدرس، وأحسست بوجود شخص ورائي. وضع آندي كارد رأسه بجوار رأسي وهمس في أذني: « طائرة ثانية ضربت البرج الثاني»، لافظاً كلّ كلمةٍ عمداً بلهجة ماساتشوستس، وأضاف: «إنّ أمريكا تتعرّض للهجوم».

* * *

كان ردّ فعلي الأوّل هو الغضب. لقد تجرّأ أحدهم على مهاجمة أميركا. سيدفعون الثمن. ثمّ نظرت في وجوه الأطفال أمامي، وفكّرت في التناقض بين وحشيّة المهاجمين وبراءة هؤلاء الأطفال. قريباً سيعتمد عليّ الملايين مثلهم لحمايتهم. كنت مصمّماً على عدم تخييب أملهم.

رأيت صحفيّين في القسم الخلفيّ من الغرفة، وكانت الأخبار تصلهم عبر الهواتف المحمولة وأجهزة الاستدعاء (البايجر). حرّكتني غريزتي فأيقنت أنّ ردّ فعلي سوف يسجّل ويبثّ في جميع أنحاء العالم. ستكون الأمّة في حالة صدمة، ولكن لا يجوز أن يكون الرئيس كذلك. لو انسحبت على عجل، لخاف الأطفال وتردّدت موجات من الذعر في جميع أنحاء البلاد.

استمرّ درس القراءة، ولكنّ ذهني ابتعد عن الصفّ. مَن فعل ذلك؟ ما مدى سوء الأضرار؟ ماذا يجب أن تفعل الحكومة؟

وقف وزير الإعلام آري فليشر بيني وبين الصحفيّين، ورفع لافتةً كُتب عليها «لا تقل أيّ شيء الآن». لم أكن أريد الكلام. كنت قد قرّرت أن أفعل التالي: عندما ينتهي الدرس، أخرج من الصفّ بهدوء، ثمّ أجمع الحقائق وأتحدّث إلى الأمّة.

بعد دخول آندي الصفّ بحوالي سبع دقائق، عدت إلى غرفة الانتظار، وقد أدخل إليها أحدهم آلة تلفزة. شاهدت مرعوباً لقطات بطيئة من اصطدام الطائرة الثانية بالبرج الجنوبيّ. وكانت كرة النار الضخمة ودخان الانفجار أسوأ ممّا تصوّرت. ستهتزّ البلاد، وأنا في حاجة للتكلّم على التلفزيون مباشرة. كتبت البيان بسرعة. كنت أرغب في أن أؤكّد للشعب الأميركيّ أنّ الحكومة تتفاعل مع القضيّة وأنّنا سنجلب الجناة أمام العدالة . بعدها أردت العودة إلى واشنطن في أسرع وقتٍ ممكن. بدأت كلامي: «سيّداتي، سادتي، هذه لحظة صعبة على أميركا... لقد تحطّمت طائرتان في مركز التجارة العالميّ في ما يبدو أنّه هجوم إرهابيّ على بلادنا». سمعت الحاضرين من الأهل وأفراد المجتمع يلهثون، وهم كانوا يتوقّعون كلمةً حول موضوع التعليم.

قلت: «لن نسمح بالإرهاب ضدّ أمّتنا». وختمت بالدعوة إلى لحظة صمت حداداً على الضحايا.

في وقتٍ لاحق، علمت أنّ في كلامي صدى للوعد الذي أعلنه والدي بعد غزو صدّام حسين للكويت: «لن نسمح بهذا العدوان». التكرار لم يكن مقصوداً. في ملاحظاتي، كنت قد كتبت: «الإرهاب ضدّ أميركا لن ينجح». لا بدّ أنّ كلمات والدي كانت مدفونةً في اللاوعي عندي، بانتظار ظهورها لحظة الأزمة.

* * *

أراد العملاء السرّيون الذين يتولّون حماية الرئيس إيصالي إلى الطائرة الرئاسيّة، وبسرعة. اتّصلت بكوندي من هاتف آمن في سيّارة الليموزين، فيما كان الموكب يتحرّك مسرعاً على طريق فلوريدا ٤١. قالت لي إنّ طائرة ثالثة قد تحطّمت، وهذه المرّة مستهدفة وزارة الدفاع. جلست في مقعدي، واستوعبت كلماتها: كان من الممكن أن يكون تحطّم الطائرة الأولى حادثاً. أمّا الثانية فكانت هجوماً بالتأكيد. والثالثة كانت إعلان حرب.

كان دمي يغلي. كنّا سنكتشف من فعل هذا ونهزمه.

في المطار كان واضحاً أنّنا صرنا في حالة حرب. قام عملاء مسلّحون بمحاصرة الطائرة. وقف فردان من طاقم الطائرة في أعلى الدرج، وظهر على وجهيهما الخوف والحزن. كنت أعرف أنّ الملايين من الأميركيين يشعرون بالطريقة نفسها. فاحتضنتهما وقلت لهما إنّ الأمور ستكون بخير.

صعدت إلى المقصورة الرئاسيّة، وطلبت الانفراد بنفسي. فكّرت في الخوف الذي لا بدّ أنه استولى على الركّاب في تلك الطائرات، والأسى الّذي سيحلّ بأسر القتلى. لقد فقد الكثير من الناس أحبّاءهم دون سابق إنذار. صلّيت من أجل أن يمنح الله الراحة للذين يتألّمون، ويوجّه البلاد خلال هذه المحنة. فكّرت في كلمات أحد

التراتيل المفضّلة لديّ، «إله النعمة، إله المجد: أعطنا الحكمة، وامنحنا الشجاعة لمواجهة هذه الساعة».

كانت عواطفي مماثلةً لما شعر به معظم الأميركيّين، لكن واجباتي كانت مختلفة. سوف يحين وقت الحزن، كما ستأتي فرصة تحقيق العدالة. لكن كان عليّ أوّلاً أن أدير الأزمة وأعالجها. كان هذا الهجوم المفاجئ الأكثر تدميراً منذ بيرل هاربور. وقد ضرب عدوٌّ عاصمتنا للمرةّ الأولى منذ الحرب سنة ١٨١٢. خلال صباحٍ واحد، اتّضح الغرض من رئاستي: حماية شعبنا والدفاع عن حريّتنا التي تعرّضت للهجوم.

الخطوة الأولى للتعاطي مع أزمة هي نشر أجواء هادئة. هذا ما حاولت القيام به في فلوريدا. بعدها، كنّا في حاجة لفرز الحقائق، واتّخاذ الإجراءات اللازمة لحماية البلاد ومساعدة المناطق المصابة على التعافي. لاحقاً، كان علينا وضع استراتيجيّة لجلب الإرهابيّين إلى العدالة حتّى لا يشنّون هجمات جديدة.

اتّصلت بديك تشيني بينما كانت الطائرة الرئاسيّة تعلو بسرعة إلى ارتفاع خمسة وأربعين ألف قدم، وهو أعلى بكثير من الارتفاع العاديّ لها. كان تشيني قد نُقل إلى المركز الرئاسي لعمليّات الطوارئ PEOC الواقع تحت الأرض حين ظنّ جهاز الأمن السرّي أنّ هناك طائرةً متّجهةً إلى البيت الأبيض. قلت له إنّني سوف أتّخذ قراراتٍ من الجوّ، وسأعتمد عليه لتنفيذها على الأرض.

اتّخذت قرارين كبيرين بسرعة. كان الجيش قد أرسل دوريّات جوّيّة مقاتلة ـ وهي فرق من الطائرات الحربيّة مهمّتها اعتراض الطائرات التي لا تستجيب للتعليمات ـ فوق واشنطن ونيويورك. كنت قد تدرّبت على الاعتراض الجوّيّ كطيّار أف-١٠٢ في الحرس الوطنيّ الجوّيّ في تكساس منذ ثلاثين عاماً. في تلك الحقبة، افترضنا أنّ الطائرات المُستهدَفة ستكون مقاتلات سوفياتيّة. أمّا الآن فالهدف سيكون طائرةً تجاريّةً مليئةً بالناس الأبرياء.

كنّا في حاجة لتوضيح قواعد الاشتباك. قلت لديك إنّ على الطيّارين الاتّصال بالطائرات المشبوهة ومحاولة جعلهم يحطّون على الأرض بسلام. إذا فشل الأمر، كنت أمنحهم الإذن بإطلاق النار عليهم. فالطائرات المخطوفة هي أسلحة حرب. على الرغم من الكلفة المؤلمة، فإن إسقاط طائرة يمكن أن ينقذ أرواحاً لا تُحصى على الأرض. كان هذا أوّل قرار أتّخذه كقائدٍ للقوّات المسلّحة في زمن الحرب.

اتّصل ديك بعد بضع دقائق، وقد انضمّت إليه كوندي وجوش بولتن وكبار أعضاء فريق الأمن القوميّ في المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارئ. كانوا قد أُبلغوا أنّ طائرةً كانت متّجهةً نحو واشنطن لا تستجيب، فطلب منّي ديك أن أؤكّد أمر إسقاط الطائرات غير المتجاوبة. ففعلت ذلك. علمت لاحقاً أنّ جوش بولتن ضغط للحصول على إيضاحات لضمان احترام التسلسل القياديّ. فكّرت مرّةً أخرى بماضيّ كطيّار. قلت لآندي كارد: «لا يمكنني أن أتخيّل ما سيكون عليه تلقّي مثل هذا الأمر». كنت آمل بالتأكيد ألاّ يضطرّ أحد لتنفيذه.

أمّا القرار الثاني فكان يتعلّق بالمكان الذي يجب أن تحطّ فيه طائرة الرئيس. كنت مقتنعاً بأنّه ينبغي أن نعود إلى واشنطن. أردت أن أكون في البيت الأبيض لقيادة الردّ. ستطمئنّ الأمّة لرؤية الرئيس في العاصمة التي تعرّضت للهجوم.

بعد أن أقلعت الطائرة من ساراسوتا، حاول تغيير رأيي آندي وأدي مارينزل وهو العميل السّرّي النحيف والرياضيّ من بيتسبرغ الذي قاد فرقة حمايتي يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. قالا إنّ الأوضاع في واشنطن متقلّبة جدّاً، وإن خطر وقوع هجوم عليها كبير. اعتقدت وكالة الطيران FAA أنّ هناك ستّ طائرات مخطوفة، وهذا يعني أن تكون ثلاث طائرات في الجو. قلت لهم إنّني لن أدع الإرهابيّين يبعدونني بسبب الخوف. قلت بحزم: «أنا الرئيس» وأضفت: «سنذهب إلى واشنطن».

لم يغيّرا رأيهما. وكرهت فكرة أنّ الإرهابيّين جعلوني أهرب. ولكن بقدر ما كنت أريد العودة، رأيت أنّ جزءاً من مسؤوليّتي هو ضمان استمراريّة الحكومة، فقتل

الرئيس سيكون نصراً إعلامياً هائلاً لصالح العدوّ. أوصى مساعدي العسكريّ والعملاء السرّيّون بتوجيه الطائرة إلى قاعدة باركسدايل الجويّة في لويزيانا، حيث يمكن أن نتزوّد بالوقود. تردّدت وبعد بضع دقائق، شعرت أنّ الطائرة تتّجه بقوّةٍ إلى الغرب.

* * *

كان أحد أكبر مصادر إحباطي يوم ١١ أيلول/سبتمبر هو تكنولوجيا الاتّصالات التعيسة على متن طائرة الرئيس. لم تتوفّر أيّ قناة تلفزيونيّة فضائيّة على الطائرة، فاعتمدنا على المعلومات الواردة محلّيّاً والّتي استطعنا التقاطها. بعد بضع دقائق من البثّ على محطّة معيّنة، أصبحت الصورة على الشاشة ثابتة.

رأيت ما يكفي من التغطية التلفزيونيّة لفهم رعب ما كان يشاهده الشعب الأميركيّ. فالناس الذين تقطّعت بهم السبل كانوا يقفزون ويلقون حتفهم من أعلى برجي مركز التجارة العالميّ. وتعلّق آخرون بالنوافذ، على أمل أن يتمّ إنقاذهم. شعرت بألمهم ويأسهم. كان مركزي الأكثر نفوذاً في العالم، ومع ذلك شعرت بأنّني عاجز عن مساعدتهم.

في مرحلةٍ معيّنة، استقرّت إشارة التلفزيون لفترة كافية حتّى أشاهد البرج الجنوبيّ لمركز التجارة العالميّ ينهار. ثمّ انهار البرج الشمالّي بعد أقلّ من ثلاثين دقيقة. كنت قد عقدت الأمل على أنّ تلك النفوس اليائسة المحاصرة في الطوابق العليا ستجد الوقت للفرار. لكنّ الفرصة قُضي عليها.

انهيار البرجين جعل الكارثة أضخم. كان حوالى خمسين ألف شخصٍ يعملون في البرجين خلال يوم عمل عاديّ. تمّ إجلاء بعضهم، ولكنّني تساءلت عن العدد الّذي بقي في الداخل. آلاف؟ عشرات الآلاف؟ لم يكن لديّ أيّ فكرة. ولكنّني كنت على يقين من أنّني شاهدت في تلك اللحظة أميركيّين يموتون، يفوق عددهم ما شاهده أيّ رئيس في التاريخ.

بقيت مطّلعاً على أحدث التطورات من خلال الاتّصال بديك وكوندي في

المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارئ. حاولنا إقامة خطّ مفتوح، لكنّه استمرّ بالانقطاع. في السنوات اللاحقة، أشرف نائب كبير الموظّفين جو هايغن على تطويرٍ كبيرٍ لأنظمة الاتّصالات في المركز الرئاسي لعمليات الطوارئ وغرفة العمليّات وطائرة الرئيس.

عندما كنّا نتلقّى المعلومات، كانت غالباً متناقضة وأحياناً خاطئة تماماً، وكنت أعاني من ضباب الحرب. فقد وردت تقارير عن انفجار قنبلة في وزارة الخارجيّة، واندلاع حريق في الميدان الوطنيّ في واشنطن، وخطف طائرة ركّاب كوريّة باتّجاه الولايات المتّحدة، واتّصال يهدّد طائرة الرئيس. وقد استخدم المتّصل رمز الطائرة، الملاك، والذي يعرفه القليل من الناس. وجاء التقرير الأكثر غرابة عندما أُبلغت بأنّ هناك جسماً غريباً متّجهاً نحو مزرعتنا في كراوفورد.

تبيّن لاحقاً أنّ كلّ هذه المعلومات كاذبة. ولكن نظراً للظروف، أخذنا كلّ تقرير على محمل الجدّ. ثبتت صحّة أحد التقارير التي وصلتني. فقد تحطّمت طائرة رابعة في مكان ما في ولاية بنسلفانيا. سألت ديك تشيني: «هل أطلقنا النار عليها، أم أنّها تحطّمت بنفسها؟». لا أحد كان يعرف. وشعرت بالغثيان. هل أمرت بموت أولئك الأميركيّين الأبرياء؟

عندما اتّضحت الأمور، علمت عن البطولات على متن الرحلة رقم ٩٣. بعد أن سمعوا عن الهجمات السابقة في مكالمات هاتفيّة مع أحبّائهم على الأرض، قرّر الركّاب اقتحام قمرة القيادة. في بعض الكلام الأخير المسجّل من الرحلة الهالكة، يمكن سماع صوت رجل يُدعى تود بيمر يدفع الركّاب إلى أخذ المبادرة قائلاً: «لنتحرّك». خلصت لجنة ٩ /١١في وقتٍ لاحقٍ إلى أنّ ثورة الركّاب على متن الرحلة رقم ٩٣ قد تكون أنقذت مبنى الكابيتول أو البيت الأبيض من الدمار. لقد شكّل تصرّفهم أحد أكثر الأعمال شجاعةً في التاريخ الأميركي.

* * *

كنتُ أحاول الاتّصال بلورا منذ الصباح. وكان من المقرّر أن تشهد أمام لجنة

مجلس الشيوخ لدعم مبادرة التعليم في الوقت نفسه تقريباً الذي ضربت فيه الطائرات برجَيْ مركز التجارة العالمي. اتّصلت مرّاتٍ عدّة، ولكن الخطّ استمرّ بالانقطاع. لم أستطع أن أصدّق أنّ رئيس الولايات المتّحدة لا يستطيع الاتّصال بزوجته في مبنى الكابيتول. صرخت في آندي: «ماذا يجري، بحقّ الجحيم؟».

أخيراً تمكّنت من التكلّم مع لورا فيما كانت الطائرة تحطّ في باركسدايل. صوت لورا يهدّئني دائماً، ولكنّه أراحني بشكل خاصّ في ذلك اليوم. أخبرتني أنّ أعضاء جهاز الأمن السرّيّ أخذوها إلى مكانٍ آمن. ارتحت جدّاً عندما أخبرتني أنّها تحدّثت مع باربرا وجينا، وأنهما بخير. سألتني لورا متى سأعود إلى واشنطن، فأخبرتها أنّ الجميع يحثّني على عدم العودة، ولكنّني سأكون هناك في وقتٍ قريب. لم يكن لديّ أيّ فكرةٍ عمّا إذا كان ذلك صحيحاً، لكنّني كنت آمل ذلك بالتّأكيد.

كان الهبوط في باركسدايل مثل الوصول إلى مكان تصوير فيلم. قامت طائرات أف ـ 16 من وحدتي السابقة في قاعدة سلاح الجوّ ألينغتون في هيوستن بمواكبتنا فيما كنّا ندخل، واصطفّت الطائرات قاذفة القنابل على جانبي الممرّ. كان مشهداً مذهلاً، يظهر قوّة سلاح الجوّ الجبّار عندنا. كنت أعرف أنّها ليست إلاّ مسألة وقتٍ قبل أن أستخدم هذه القوّة ضدّ الذين أمروا بهذا الهجوم. لم يكن هناك موكب رئاسيّ جاهز في باركسدايل، وبالتالي اضطرّ القائد، الجنرال توم كيك، إلى الارتجال. اصطحبني العملاء السرّيّون بسرعة إلى أسفل درج الطائرة ثمّ إلى داخل السيّارة التي تحرّكت على المدرّج بسرعة شعرت بأنّها ثمانون ميلاً في الساعة. عندما بدأ السائق الجالس وراء عجلة القيادة بالدوران بتلك السرعة، صحت قائلاً: «أبطىء، يا بُني، ليس هناك إرهابيّون في هذه القاعدة!» ربّما كان هذا أقرب ما وصلت فيه إلى الموت في ذلك اليوم.

اتّصلت بدونالد رامسفيلد على هاتف آمن في مكتب الجنرال كيك في باركسدايل. كان من الصعب تعقّب دون لأنّه صار المجيب الأوّل على الأزمة في

البنتاغون. بعد أن ارتطمت الطائرة بمبنى البنتاغون، خرج وساعد عمّال الطوارئ على وضع الضحايا على نقّالات.

قلت لدون إنّني أعتبر الهجمات عملاً حربيّاً، ووافقت على قراره رفع مستوى الاستعداد العسكريّ إلى ديفكون ثلاثة للمرّة الأولى منذ الحرب العربيّة الإسرائيليّة في سنة ١٩٧٣. زادت المنشآت الأميركيّة العسكريّة في جميع أنحاء العالم احتياطاتها الأمنيّة، واستعدّت للاستجابة الفوريّة لأوامر لاحقة. قلت لدون إنّ أولويّتنا هي تخطّي الأزمة الحاليّة، أمّا بالنسبة للخطوة اللاحقة، فكنت أخطّط لردّ عسكريّ جدّيّ. قلت له: «سوف تكون الكرة في ملعبكم وملعب ديك مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة».

بحلول الساعة ١١:٣٠ بتوقيت لويزيانا، كان قد مرّ ما يقارب ثلاث ساعات منذ أن تحدّثتُ إلى الشعب. كنت قلقاً من أن يكوّن الناس انطباعاً بأنّ الحكومة لا تتحرّك، وقد أعربت لورا عن القلق نفسه. سجّلت رسالةً قصيرةً، موضحاً أنّ الحكومة تتفاعل وأنّ الأمّة ستنجح في الاختبار. كان الشعور صحيحاً، ولكنّ المكان ـ قاعة مؤتمرات كئيبة في قاعدة عسكريّة في ولاية لويزيانا ـ لا توحي بالكثير من الثقة. كان الشعب الأميركيّ يحتاج إلى رؤية الرئيس في واشنطن.

ضغطت على آندي لأعلم متى سنتمكّن من العودة إلى البيت الأبيض. ورأى عملاء الأمن السرّيون أنّ الأمور لا تزال ضبابيّة، وعبّر ديك وكوندي عن الشيء نفسه. أوصوا بأن أذهب إلى مركز القيادة الاستراتيجيّة في قاعدة أوفّت للقوّات الجويّة في نبراسكا، فهي تتضمّن مسكناً آمناً ونظام اتّصالات موثوقاً. قبلت بتأخير عودتي مرّة أخرى. بينما كنّا نصعد إلى الطائرة في باركسدايل، قام سلاح الجوّ بتحميل منصّات نقّالة من الغذاء والماء في بطن الطائرة. كان علينا أن نكون مستعدّين لكلّ احتمال.

* * *

بعد أن وصلنا إلى أوفّت، نُقلت إلى مركز القيادة، الذي امتلأ بضبّاط الجيش الذين كانوا يشاركون في تمرين. فجأة، تردّد صوت على المذياع: «سيّدي الرئيس،

هناك طائرة آتية من مدريد لا تتجاوب. هل لدينا سلطة إطلاق الرصاص عليها لإسقاطها؟»

كان ردّ فعلي الأوّلي: متى سينتهي هذا الأمر؟ أوجزت قواعد الاشتباك التي كنت قد وافقت عليها في وقتٍ سابق، وتسارعت أفكاري نحو أسوأ السيناريوهات المُحتمَلة. ما هي النتائج الدبلوماسيّة لإطلاق النار على طائرة أجنبيّة؟ أو إذا تأخّرنا جدّاً وأصاب الإرهابيّون هدفهم؟

عاد الصوت على المكبّر: «الرحلة الآتية من مدريد حطّت في لشبونة في البرتغال».

الحمد لله. كان هذا مثال آخر على ضباب الحرب.

انتقلنا إلى مركز الاتّصالات حيث كنت قد دُعيت لاجتماع أمنيّ عن طريق الفيديو. فكّرت مليّاً بما أردت أن أقوله. بدأت بإعلان واضح: «نحن في حالة حرب ضدّ الإرهاب. من اليوم فصاعداً، هذه هي الأولويّة الجديدة للإدارة». تلقّيت موجزاً على ردّ الطوارئ، ثمّ التفتّ إلى جورج تينيت سائلاً: «مَن فعل هذا؟».

أجاب جورج بكلمتين: تنظيم القاعدة.

* * *

قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لم يعرف معظم الأميركيّين أيّ شيء عن تنظيم القاعدة. اطّلعت لأوّل مرّة على موجزٍ عن الشبكة الإرهابيّة حين كنت مرشّحاً رئاسيّاً. فتنظيم القاعدة شبكة إرهابيّة إسلاميّة أصوليّة استضافتها ودعمتها حكومة طالبان في أفغانستان. زعيمها أسامة بن لادن، وهو سعوديّ متطرّف من عائلة ثريّة، وقد طُرِد من المملكة عندما عارض قرار الحكومة السماح للقوّات الأميركيّة بالتواجد هناك أثناء حرب الخليج. والمجموعة لها وجهات نظر متطرّفة وتعتبر واجبها قتل الذين يعترضون طريقها.

مال تنظيم القاعدة إلى شنّ هجماتٍ بارزة. قبل ثلاث سنوات، نفّذ الإرهابيّون تفجيرين في وقتٍ واحدٍ في سفارتين أميركيّتين في شرق أفريقيا، ممّا تسبّب بمقتل أكثر من مئتي شخص وجرح أكثر من خمسة آلاف. وكانوا أيضاً وراء الهجوم على يو أس أس كول الذي أودى بحياة سبعة عشر بحّاراً أميركيّاً قبالة ساحل اليمن في تشرين الأول/أكتوبر سنة ٢٠٠٠. بعد ظهر الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كانت الاستخبارات قد اكتشفت أسماء أعضاء معروفين من تنظيم القاعدة على لائحة ركّاب الطائرات المختطفة.

كانت وكالة المخابرات المركزيّة، السي أي آي، قلقة من تنظيم القاعدة قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ولكنّ معلوماتهم الاستخباراتيّة كانت تشير إلى هجوم في الخارج. خلال أواخر ربيع وأوائل صيف سنة ٢٠٠١، كنّا قد جعلنا الإجراءات الأمنيّة أكثر صلابةً في السفارات في الخارج، وقمنا بزيادة التعاون مع أجهزة الاستخبارات الأجنبيّة، وأصدرنا تحذيراتٍ من خلال إدارة الطيران من احتمال اختطاف طائرات على الخطوط الدوليّة. في أوّل تسعة أشهر من رئاستي، ساعدنا في تعطيل تهديدات إرهابيّة في باريس وروما وتركيّا وإسرائيل والمملكة العربيّة السعوديّة واليمن وأماكن أخرى.

خلال فصل الصيف، كنتُ قد طلبتُ من وكالة المخابرات المركزيّة إعادة النظر في قدرات تنظيم القاعدة على الهجوم داخل الولايات المتّحدة. وفي أوائل آب/أغسطس، أصدرت الوكالة موجزاً رئاسيّاً يوميّاً كرّر الإشارة إلى نيّة بن لادن ضرب أميركا، لكنّه لم يستطع تأكيد أي خططٍ ملموسة. وذكر الموجز أنّ الوكالة «لم تكن قادرة على التحقّق من صحّة التقارير الأكثر إثارة للعواطف عن تهديدات مثل تلك الّتي تفيد أنّ... بن لادن يريد خطف طائرات أميركيّة»[1].

في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان واضحاً أنّ أجهزة الاستخبارات قد

(١) مصدر هذا التقرير، وهو جهاز استخبارات أجنبيّ، لا يزال سرّيّاً.

فاتتها مسألة كبيرة. أزعجني الخطأ وكنت أتوقّع الحصول على تفسير، ولكني لم أعتقد أنّه من المناسب الإشارة إلى مذنبين أو إلقاء اللوم في وسط الأزمة. كان قلقي المباشر يتعلّق باحتمال وجود أعضاء آخرين من تنظيم القاعدة في الولايات المتّحدة.

نظرت إلى شاشة الفيديو في قبو مركز أوفّت وطلبت من جورج تينيت أن يبقي أذنيه مفتوحتين، وهو مصطلح معناه الاستماع إلى جميع المعلومات الاستخباراتيّة ومتابعة كلّ الدلائل.

كذلك أوضحت أنّني أخطّط لاستخدام الجيش في هذه الحرب عندما يحين الوقت المناسب. لن يكون ردّنا ضربة محدّدة بواسطة صاروخ كروز. كما عبّرت لاحقاً، سوف نفعل أكثر من إطلاق «صاروخ بقيمة مليون دولار على خيمة ثمنها خمسة دولارات». عندما تردّ أميركا على هذه الهجمات، سيكون ردّاً مدروساً وقويّاً وفاعلاً.

* * *

كانت هناك قضيّة أخرى يجب التحدّث عنها عبر الفيديو: متى أعود إلى واشنطن؟ قال لي مدير جهاز الأمن السرّيّ بريان ستافرد إنّ العاصمة لا تزال غير آمنة. وهذه المرّة أصررت على رأيي. لقد قرّرت التحدّث إلى الأمّة، ولم أكن أنوي القيام بذلك إطلاقاً من قبوٍ تحت الأرض في ولاية نبراسكا.

خلال رحلة العودة، جاء آندي وممثّل وكالة الاستخبارات المركزيّة مايك موريل لرؤيتي في قاعة المؤتمرات. قال لي مايك إنّ المخابرات الفرنسيّة زوّدتنا بتقارير عن ناشطين آخرين، يُعرفون بالخلايا النائمة، موجودين في الولايات المتّحدة ويخطّطون لموجةٍ ثانيةٍ من الهجمات، فاقشعرّ بدني لسماع تلك العبارة «موجة ثانية». اعتقدت أنّ أميركا قادرة على تخطّي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دون ذعرٍ إضافيّ،

ولكن سيصعب تحمّل ضربةٍ لاحقة. كانت تلك اللحظة إحدى المراحل الأكثر ظلاماً في ذلك اليوم.

فيما كنت أشاهد التغطية على التلفزيون في رحلة العودة، رأيت صورة باربرا أولسون. كانت باربرا معلّقة تلفزيونيّة موهوبة وهي زوجة المحامي العام تيد أولسون، الذي تولّى الدفاع لصالحي أمام المحكمة العليا في قضيّة إعادة فرز الأصوات في فلوريدا. كانت على متن طائرة تابعة للخطوط الجوّيّة الأميركيّة في الرحلة ٧٧ التي ضربت البنتاغون. كانت باربرا أول الضحايا الذين تربطني بهم علاقة شخصيّة. اتّصلت بتيد على الهاتف. كان هادئاً، لكنّ الشعور بالصدمة والانهيار كان واضحاً في صوته. عبّرت له عن أسفي الشديد. وأخبرني أنّ باربرا اتّصلت به من الطائرة المخطوفة وزوّدته بالمعلومات بهدوء. كانت وطنيّة حتّى النهاية. وتعهّدت لتيد بأنّنا سنجد المسؤولين عن وفاتها.

رحلة العودة أتاحت لي أيضاً فرصة الاطمئنان على والديّ. كان أبي وأمّي قد أمضيا ليلة العاشر من سبتمبر في البيت الأبيض، ثمّ غادرا في وقتٍ مبكرٍ صباح يوم الحادي عشر. وكانا في الجوّ عندما وصلت أنباء الهجمات. وصلني عامل الهاتف بوالدي، فشعرت أنّه كان قلقاً. لم يقلق بشأن سلامتي، فهو واثق بقدرة جهاز الأمن السرّيّ على حمايتي، ولكنّه أعرب عن قلقه من التوتّر الذي لا بدّ أنّي كنت أشعر به. حاولت طمأنته: «أنا بخير». أعطى أبي الهاتف إلى أمّي لأتحدّث معها فسألتها: «أين أنتم؟»

أجابتني: «نحن في موتيل في بروكفيلد في ويسكونسن».

قلت: «ماذا تفعلون هناك؟»

فردّت عليّ: «يا بُني، أنت أرغمت طائرتنا على الهبوط!»

حقّق وزير النقل نورم مينيتا إنجازاً غير عاديّ فأشرفت وكالة الطيران FAA على

الهبوط الآمن لأربعة آلاف رحلة في ما يقارب ساعتين. كنت آمل أنّ الإرهاب الجوّيّ قد انتهى.

بدأت التفكير في ما ينبغي عليّ أن أقوله للشعب عندما أتحدّث من المكتب البيضاويّ في تلك الليلة. أحسست أوّلاً أنّه عليّ إخبار الشعب الأميركيّ بأنّنا أمّة في حالة حرب. ولكن حين شاهدت المجزرة على شاشة التلفزيون، أدركت أنّ البلد لا يزال في حالة صدمة. قد يسهم إعلان الحرب في مزيدٍ من القلق. فقرّرت الانتظار يوماً واحداً.

لم أكن أريد إعلان القرار الكبير الذي كنت قد اتّخذته: ستعتبر الولايات المتّحدة أي دولة تؤوي إرهابيّين مسؤولة عن أفعال هؤلاء الإرهابيّين. هذه العقيدة الجديدة قلبت النهج المعتمد في الماضي، والذي كان يميّز الجماعات الإرهابيّة عن حاميها ومموّليها. كان علينا أن نجبر الدول على الاختيار بين محاربة الإرهابيّين أو المشاركة في مصيرهم. وكان علينا أن نشنّ هذه الحرب كردّ مباشرٍ على العدوان، من خلال مهاجمة الإرهابيّين في الخارج قبل أن يتمكّنوا من مهاجمتنا مرّة أخرى في وطننا. أردت أيضاً أن يعبّر خطابي عن شعوري بالغضب الأخلاقيّ. القتل المتعمّد للأبرياء هو فعل شرّ محض. وقبل كلّ شيء، أردت أن أعبّر عن الاطمئنان والعزم. الاطمئنان لأنّنا سوف نتعافى من هذه الضربة، والعزم على جلب الإرهابيّين الى العدالة.

هبطت الطائرة الرئاسيّة في قاعدة أندروز الجويّة في ميريلاند بعد الساعة ١٨:٣٠ بقليل. انتقلت بسرعة باتّجاه مروحيّة الرئيس، التي ارتفعت بسرعةٍ لرحلة العشر دقائق باتّجاه الحديقة الجنوبيّة. تحرّكت المروحيّة يساراً ويميناً في نمط من المراوغة. لم أشعر بالخوف، إذ كنت أعرف أنّ الطيّارين على متن المروحيّة HMX -1 سيوصلونني إلى البيت.

نظرت إلى واشنطن وهي مهجورة ومغلقة. رأيت في المدى البعيد دخاناً يتصاعد من البنتاغون. رمز قوّتنا العسكريّة كان يحترق. أدهشتني مهارة وقساوة الطيّار المنتمي

إلى تنظيم القاعدة الذي تمكّن من توجيه الطائرة نحو البناء المنخفض مباشرة. شردت أفكاري في التاريخ. كنت أشاهد بيرل هاربور العصر الحديث. وكما حشد فرانكلين روزفلت الأمّة للدفاع عن الحرّيّة، سيكون من واجبي قيادة جيلٍ جديدٍ لحماية أميركا. التفتّ إلى آندي وقلت: «أنت تنظر إلى الحرب الأولى في القرن الحادي والعشرين».

* * *

بعد هبوط المروحيّة في الحديقة الجنوبيّة، توجّهت مباشرة إلى المكتب البيضاويّ. قرأت مسودّة عن خطابي وعدّلت بضعة أسطر. ثمّ ذهبت إلى المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارىء، وهو جزء من هيكل صلب تحت الأرض، تمّ بناؤه خلال أوائل الحرب الباردة للتصدّي لهجوم كبير. يشغل القبو عسكريّون على مدار الساعة ويحتوي على ما يكفي من الغذاء والماء والطاقة الكهربائيّة لتأمين مقوّمات حياة الرئيس وأسرته لفترات طويلة من الزمن. وفي وسط المرفق قاعة مؤتمرات فيها طاولة خشبيّة كبيرة، وهي عبارة عن غرفة عمليّات مبنيّة تحت الارض. كانت لورا تنتظرني هناك. لم يكن لدينا الكثير من الوقت للحديث، ولكنّنا لم نكن في حاجة إلى ذلك. فعناقها كان أقوى من أي كلمات.

عدت إلى الطابق العلويّ، وتمرّنت على خطابي، ثمّ توجّهت إلى المكتب البيضاويّ.

بدأت بالقول: «اليوم ، تعرّض إخوتنا المواطنون وطريقة عيشنا، وحتّى حرّيّتنا، للهجوم في سلسلة من الأعمال الإرهابيّة المتعمّدة والقاتلة». وصفت وحشيّة الهجوم وبطولة أولئك الّذين قاموا بالردّ. وتابعت: «لقد وجّهت الموارد الكاملة لأجهزة الاستخبارات والأمن لايجاد المسؤولين وجلبهم إلى العدالة. لن نميّز بين الإرهابيّين الذين ارتكبوا هذه الأعمال وأولئك الّذين يأوونهم».

وختمت بالمزمور ٢٣: «إنّني أمشي في وادي ظلال الموت، لا أخاف شرّاً،

لأنّك أنت معي». شعرت بأنّ هذا الخطاب كان أفضل بكثير من البيانات الّتي أدليت بها في فلوريدا ولويزيانا. مع ذلك، أيقنت أنّني سأضطرّ إلى بذل مزيدٍ من الجهد لحشد الأمّة في الأيّام المقبلة.

بعد أن أنهيت خطابي، عدت إلى المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارىء للاجتماع بفريق الأمن الوطنيّ. كنت أرغب بمعرفة آخر التطوّرات والتخطيط لخطوات اليوم التالي. قلت لهم إنّنا أُعطينا مهمّة لم يكن أحد منّا يسعى إليها أو يتوقّعها، ولكنّ البلاد ستكون بمستواها. وقلت: «الحرّيّة والعدالة ستسودان». انتهت الجلسة حوالى الساعة العاشرة مساء. وكنت قد استيقظت قبيل الفجر واستمرّيت بالعمل بأقصى سرعة طوال اليوم. قال لنا كارل تراسكوت، وهو رئيس شعبة الحماية الرئاسيّة، إنّنا سننام في الغرفة الصغيرة قبالة قاعة المؤتمرات في المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارىء. مقابل الحائط كانت هناك أريكة قديمة مع سرير في داخلها. بدا الأمر كما لو أنّ هاري ترومان نفسه قد وضعها هناك. تصوّرت أنّني سأمضي ليلة من القلق وأنا أصارع الفراش الضيّق والقضبان الداعمة الفولاذيّة. سيحمل اليوم التالي قرارات مهمّة، وكنت بحاجة للنوم لأتمكّن من التفكير بوضوح. قلت لكارل: «لن أنام أبداً هناك».

كان يعلم أنّني لن أتزحزح. فقال: «نَمْ في مسكنك، سوف نأتي لإحضارك إذا كان هناك أي مشاكل». لم أستطع النوم بسهولة. وعادت صور اليوم تتردّد في ذهني: اصطدام الطائرات بالمباني وانهيار البرجين واندلاع الحريق في البنتاغون. فكّرت في الحزن الّذي يشعر به كثير من الأسر. فكّرت أيضاً في أعمال البطولة: المضيفات على الطائرات المختطفة يتّصلنَ بهدوء بالمسؤولين للإفادة عن وضعهن، وأوائل الناس الذين تسابقوا باتّجاه مركز التجارة العالميّ والبنتاغون.

فيما كنت على وشك أن أغفو، رأيت ظلّ أحدهم عند باب غرفة النوم. كان يتنفّس بصعوبة ويصرخ: «سيّدي الرئيس، سيّدي الرئيس، إنّ البيت الأبيض يتعرّض لهجوم! لِنرحلْ!»

قلت للورا إنّنا بحاجة إلى التحرّك بسرعة. لم يكن لديها الوقت لوضع العدسات اللاصقة، فتمسّكت بي. أمسكت رداءها ووجّهتها بذراع واحدة في حين حملت بارني، الكلب الإسكتلنديّ، على الذراع الأخرى. ناديت سبوت، الكلب الإنكليزيّ، للحاق بنا. كنت حافي القدمين وأرتدي سروال الركض وقميصاً. لا بدّ أنّنا بدونا غريبي الشكل.

جعلنا أعضاء الأمن السّرّي نجري بسرعة لنخرج من مركز السكن باتّجاه الملجأ تحت الأرض. سمعت باباً ثقيلاً يغلق وصوت قفل مضغوط حين دخلنا النفق. همّ بنا العملاء عبر باب آخر. ضربة مدوّيّة فهسهسة. تحرّكنا إلى أسفل الممرّ، مروراً بالموظّفين الجالسين في الخارج، حتّى وصلنا إلى المركز الرئاسيّ لعمليّات الطوارىء.

بعد بضع دقائق، دخل جنديّ متطوّع إلى قاعة المؤتمرات. تكلّم عمليّاً: «سيّدي الرئيس، إنّها تخصّنا». فالطائرة المقاتلة من طراز أف ـ ١٦ حلّقت فوق نهر البوتوماك وهي ترسل إشارة خاطئة. هذا اليوم الذي بدأ بالهرولة على ملعب الغولف، انتهى بتدافعٍ باتّجاه المخبأ للهرب من هجومٍ مُحتمَلٍ على البيت الأبيض.

* * *

عندما استيقظت صباح الثاني عشر من أيلول/سبتمبر، كانت أميركا مكاناً مختلفاً. الطيران المدنيّ مشلول، وجابت شوارع واشنطن العربات المسلّحة، وتحولّ جناح من البنتاغون إلى أنقاض، وأُغلقت بورصة نيويورك، واختفى برجا نيويورك. توقّعت أن أركزّ خلال رئاستي على السياسة المحلّيّة، وصار تركيزي الآن على الحرب. أظهر هذا التحوّل إمكانيّة تغيّر المصير بسرعة، وكيف تكون أصعب مهامّ الرئيس في بعض الأحيان غير متوقّعة.

اهتزّت نفسيّة الأمّة، وبدأت الأسر تكديس الأقنعة الواقية من الغاز وقناني المياه. كما هرب بعض الناس من المدن متّجهين نحو الريف خوفاً من أن تكون المباني في وسط المدينة أهدافاً. أمّا الّذين كانوا يعملون في ناطحات السحاب فتردّدوا في

الذهاب إلى العمل. ورفض كثيرون السفر على متن طائرة على مدى أسابيع أو أشهر. بدا من شبه المؤكّد أنّه سيحصل هجوم آخر.

لا يوجد نصّ يفسّر كيفيّة تهدئة أمّة هزّها عدوّ مجهول الهويّة. اعتمدت على حسّي وخلفيّتي، فالتفاؤل الذي أخذته من غرب تكساس ساعدني على نشر الثقة. أحياناً، تحدّثت بصراحة مبالغ فيها قليلاً، عندما قلت إنّني أريد بن لادن «حيّاً أو ميتاً». ساعدني الّذين كانوا من حولي كثيراً في تلك الأيّام العصيبة. بقي فريق البيت الأبيض ثابتاً ومصدراً للإلهام، ومنحتني لورا الاستقرار والمحبّة باستمرار. وجاء شقيقي مارفن وشقيقتي دورو، وكلاهما كان يقطن في منطقة واشنطن، جاءا غالباً لتناول الطعام معنا. أمّا أمّي وأبي فكانا مصدر دعم مستمرّ. منحتني عائلتي الراحة وساعدتني على تنقية ذهني، كذلك استمدّيت القوّة من إيماني ومن التاريخ. لقد وجدت العزاء في قراءة الكتاب المقدّس، الذي وصفه إبراهام لينكولن بأنه «أفضل هديّة وهبها الله للإنسان». أعجبت بحسّ لينكولن الأخلاقيّ الواضح وبعزمه. وهو قال إنّ الصراع بين الحرّيّة والاستبداد «مسألة لا يمكن امتحانها إلاّ بواسطة الحرب ولا يمكن تقرير مصيرها إلاّ بالنصر». هكذا ستكون الحرب على الإرهاب.

وضعت ثلاثة أهداف في الأيّام الّتي تلت الهجمات. أوّلاً، منع الإرهابيين من الهجوم مرّة أخرى. ثانياً، التوضيح للبلاد والعالم أنّنا نواجه نوعاً جديداً من الحرب. وثالثاً، مساعدة المناطق المصابة على التعافي والتأكّد من أنّ الإرهابيّين لن ينجحوا في شلّ اقتصادنا أو تقسيم مجتمعنا.

ذهبت إلى المكتب البيضاويّ يوم ١٢ أيلول/سبتمبر في وقتي المعتاد، حوالي الساعة السابعة صباحاً. أصدرت الأمر الأوّل لليوم وهو الردّ على جميع المكالمات الهاتفيّة من قادة العالم الكثيرين الذين عبّروا عن تعاطفهم . تحدّثت أوّلاً مع رئيس وزراء بريطانيا توني بلير. بدأ توني بالقول إنّه كان «في حالة صدمة» وإنّه سوف يساند أميركا «مئة في المئة» في محاربة الإرهاب. لم يكن هناك أي مواربة في صوته. ساعد الحديث على تمتين أقرب صداقة أقمتها مع أيّ زعيم أجنبيّ. ومع مرور

السنوات وازدياد صعوبة قرارات زمن الحرب، تردّد بعض حلفائنا، أما توني بلير فلم يفعل ذلك أبداً.

أعرب كلّ زعيم اتّصل عن دعمه. قال رئيس الوزراء الكنديّ جان كريتيان ببساطة: «نحن هنا لمؤازرتكم»، وهو الوعد الّذي كان قد حافظ عليه المواطنون الكنديّون الذين استقبلوا آلاف الأميركيّين الّذين تقطّعت بهم السبل بعد تحويل طائراتهم إلى كندا. وقال رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني إنّه «بكى مثل الطفل الصغير ولم يستطع التوقّف»، كما تعهّد بالتعاون. جيانغ تسه مين من الصين وجيرهارد شرودر من ألمانيا وجاك شيراك من فرنسا، كلّهم وعدوا بالمساعدة بأي وسيلة ممكنة. أمّا جونيتشيرو كويزومي رئيس وزراء الأمّة التي ضربت أميركا في بيرل هاربور، فقد قال إنّ أحداث ١١ أيلول/سبتمبر «ليست هجوماً ضدّ الولايات المتّحدة فحسب، بل هي هجوم على الحرّيّة والديمقراطيّة». للمرّة الأولى في تاريخ حلف الناتو البالغ اثنين وخمسين سنة، صوّت أعضاء التحالف لاستخدام المادّة ٥ من الميثاق: أيّ هجوم على دولة عضو هو هجوم على الجميع. بدأ تحالف الراغبين في الحرب ضدّ الإرهاب يتشكّل، وفي ذلك الوقت، كان الجميع يريدون الانضمام.

* * *

بعد أن أنهيت مكالماتي الهاتفيّة، اطّلعت على تقريرٍ موجزٍ من وكالة المخابرات المركزيّة وعقدت اجتماعاً لمجلس الأمن القوميّ في قاعة مجلس الوزراء. أكّد جورج تينيت أنّ بن لادن مسؤول عن الهجمات. وكانت المخابرات قد اعترضت مكالمات بين أعضاء من تنظيم القاعدة في شرق أفغانستان وفيها يهنّئون بعضهم بعضاً. أوضحت أنّ هذا نوع جديد من الحرب، فنحن نواجه عدوّاً لديه عاصمة وطنيّة أو جيش يمكن تعقّبه على أرض المعركة. إن إلحاق الهزيمة بهم سيتطلّب الموارد الكاملة للسلطة الوطنيّة، من جمع المعلومات الاستخباراتيّة، وتجميد حسابات الإرهابيّين المصرفيّة، إلى نشر القوّات العسكريّة.

أعطاني الاجتماع فرصة التحدّث إلى الصحافة. كنت على استعداد للقيام بالإعلان الذي كنت قد أجّلته في الليلة السابقة. قلت: «إنّ الهجمات المتعمّدة والقاتلة التي نفّذت أمس ضدّ بلدنا فاقت حدود أفعال الإرهاب، هي كانت أفعال حرب».

وبعد نصف ساعة، التقيت مع قياديّين في الكونغرس من كلا الحزبين. عبّرت عن سببين للقلق. الأوّل هو التهاون. بدا تصوّر الأمر صعباً في ذلك الوقت، عندما كان الألم المترتّب عن هجمات ٩/١١ لا يزال في بدايته، ولكنّني عرفت أنّ الشعب سيتجاوز المحنة في النهاية. بصفتنا قادة مُنتخَبين، كانت لدينا مسؤوليّة الاستمرار في التركيز على التهديد وخوض الحرب حتّى النصر.

تمحور قلقي الثاني حول إمكانيّة حدوث ردّ فعل عنيف ضدّ الأميركيّين العرب والمسلمين. كنت قد سمعت تقارير عن مضايقات كلاميّة ضدّ أشخاص تبدو ملامحهم شرق أوسطيّة. وضعت في عين الاعتبار الجوانب القبيحة لتاريخ أميركا خلال الحروب. فخلال الحرب العالميّة الأولى، نُبِذ الأميركيّون من أصل ألمانيّ وسُجِنوا في بعض الحالات القصوى . وخلال الحرب العالميّة الثانية، أيّد الرئيس روزفلت وضع أعدادٍ ضخمةٍ من الأميركيّين اليابانيّين في مخيّمات الاعتقال. كان أحد هؤلاء نورم مينيتا، الّذي اعتُقِل حين كان عمره عشر سنوات. ذكّرتني رؤيته في قاعة مجلس الوزراء في ذلك الصباح بمسؤوليّة الحكومة في منع الهستيريا والتحدّث علناً ضدّ التمييز. وخطّطت لنقل تلك الرسالة من خلال زيارة أحد المساجد.

اتّحد أعضاء الكونغرس في تصميمهم على حماية البلد. ووردت ملاحظة تحذيريّة من عضو مجلس الشيوخ توم داشل، وهو زعيم الأغلبيّة الديمقراطيّة. قال إنّه يجب أن أكون حذراً بشأن كلمة حرب لمضامينها القويّة. استمعت إلى مخاوفه، ولكنّ رأيي كان مختلفاً. إذا لم تكن أربع هجمات منسّقة من قِبَل شبكة إرهابيّة تتعهّد بقتل أكبر عددٍ من الأميركيّين عملاً من أعمال الحرب، فماذا تكون؟ هل تكون خرقاً للبروتوكول الدبلوماسيّ؟

كان أحد آخر المتكلّمين روبرت بيرد، وهو السيناتور الديمقراطيّ من ولاية وست فرجينيا والبالغ من العمر ثلاثاً وثمانين سنة. كان قد خدم خلال أزمة الصواريخ الكوبيّة وحرب فيتنام ونهاية الحرب الباردة وغيرها من التحدّيات التي لا تُعدّ ولا تُحصى. كلماته البليغة كانت موحية للموجودين في القاعة. قال: «على الرغم من وجود هوليوود والتلفزيون، هناك حشد من الناس يؤمنون بالتوجيه الإلهيّ والخالق... سوف تؤازرك قوى جبّارة».

* * *

في ساعةٍ متأخّرةٍ من بعد ظهر يوم ١٢ أيلول/سبتمبر، قمت برحلةٍ قصيرةٍ إلى الجانب الآخر من البوتوماك باتّجاه البنتاغون. كان المبنى لا يزال مشتعلاً، وكانت لا تزال هناك جثث في الداخل. مشيت مع دون رامسفيلد في موقع الحادث، وشكرت طواقم العمل على تفانيهم. في أحد الأماكن، قام فريق من العاملين في أعلى المبنى برفع علم أميركيّ عملاق. كان ذلك دليلاً على التحدّي والعزم، وهو ما كانت الأمّة بحاجة لرؤيته بالضبط. إحدى آخر المجموعات المشاركة التي التقيتها كانت مجموعة المشرحة. جلبهم جو هاغين، وكان الغبار يغطّيهم بعد أداء أتعس واجب إطلاقاً. عبّرت لهم عن تقديري الكبير لعملهم الكريم.

أقنعتني رحلتي إلى البنتاغون بأنّني بحاجةٍ للذهاب إلى نيويورك في أقرب وقتٍ ممكن. قال لي جو إنّ هناك بعض المشاكل الخطيرة في هذا المجال. لم يكن جهاز الأمن السرّيّ متأكّداً من أنّ المنطقة آمنة. والفِرق المختصّة لم يكن لديها الوقت للتحضير للحدث الرئاسيّ. لم يكن أحد يعرف ما هي الأوضاع في غراوند زيرو. وكانت المخاوف منطقيّة، لكنّني كنت قد حسمت أمري، وأردت أن يعرف سكّان نيويورك أنّهم ليسوا وحدهم. اعتبرت الهجوم شخصيّاً بقدر ما فعلوا، ولم يكن هناك بديل عن قول ذلك لهم وجهاً لوجه.

قرّرت إعلان الخبر صباح الخميس. اقترح آري فلايشر أن ندعو الصحافة إلى المكتب البيضاوي ليشهدوا مكالمتي الهاتفيّة مع حاكم ولاية نيويورك جورج باتاكي وعمدة المدينة رودي جولياني. قلت: «لا أستطيع أن أعبّر لكم كم أنا فخور بالمواطنين الصالحين في منطقتكم، وبالعمل الاستثنائيّ الذي تقومون به جميعاً». ثمّ فاجأتهم مضيفاً: «لقد دعوتموني لآتي إلى مدينة نيويورك. أنا أقبل الدعوة الكريمة؛ وسأكون هناك غداً بعد الظهر».

وافقت على الإجابة على بعض الأسئلة بعد انتهاء المكالمة. سُئِلت عن سلامة الطيران ونظامه، ومكان وجود بن لادن، وماذا طلبت من الكونغرس. وجاء السؤال الرابع من مراسل صحيفة كريستيان ساينس مونيتور: «هل يمكنك أن تعطينا فكرة عن الصلوات الّتي تفكّر فيها وعن أحاسيسك؟»

كنت قد تمكّنت من السيطرة على عواطفي خلال اليومين الماضيين، إلاّ أنّ هذا السؤال جعلها تظهر. كنت أفكّر بصوت تيد أولسون الحزين. وتصوّرت أعضاء فريق المشرحة المرهقين. فكّرت بالأطفال الأبرياء الذين ماتوا، وهؤلاء الذين فقدوا أمّهم أو أباهم. انفجر حزني المتراكم. امتلأت عيناي بالدموع واشتعلت حنجرتي. توقّفت هنيهة عن الكلام، فيما كانت الكاميرات تلتقط الصور بسرعة. ثمّ استعدت رباطة جأشي ووضعت يديّ على مكتبي، وانحنيت إلى الأمام. «حسناً، أنا لا أفكّر في نفسي الآن. أفكّر في الأسر والأطفال. إنّني رجل محبّ، وأنا أيضاً شخص لديه مهمّة يقوم بها. وأنا أعتزم القيام بذلك».

* * *

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، ذهبتُ برفقة لورا إلى المركز الاستشفائي في واشنطن لزيارة ضحايا من البنتاغون. بعضهم احترقت أجزاء ضخمة من أجسادهم. سألت أحدهم ما إذا كان حارساً، فأجابني مباشرة: «لا، يا سيّدي، أنا من القوّات الخاصّة. معدّل ذكائي عالٍ جدّاً إلى حدٍّ لا يسمح لي بأن أكون حارساً». انفجر

جميع الموجودين بالضحك، بمن فيهم زوجته وأطبّاؤه ولورا وأنا. أراحنا الضحك، وغادرت المستشفى مستلهماً من شجاعة الجرحى وتعاطف الأطبّاء والممرّضات.

كان آندي كارد ينتظرني في ممرّ الحديقة الجنوبيّة عندما عدنا من المستشفى. قبل أن أتمكّن من الخروج من الليموزين، فتح الباب ودخل إلى السيّارة. قال لي: «إن هناك تهديداً بوجود قنبلة في البيت الأبيض». وكان جهاز الأمن السرّيّ قد نقل نائب الرئيس إلى مكان آخر، وكانوا يريدون نقلي أيضاً.

طلبت من العملاء التحقّق مجدّداً من المعلومات الاستخباراتيّة وإرسال أكبر عددٍ ممكنٍ من موظّفي البيت الأبيض إلى منازلهم. ولكنّني كنت سأبقى. لم أكن أريد إسعاد العدوّ برؤيتي أتحرّك في جميع الجهات مرّةً أخرى. وسّع جهاز الأمن السرّيّ محيط أمن البيت الأبيض، وتجاوزنا اليوم بنجاح. وعندما أوينا إلى الفراش، قلت في نفسي: «يوم آخر دون هجوم. الحمد لله».

* * *

قُتِل حوالى ثلاثة آلاف من الرجال والنساء والأطفال يوم ١١ أيلول/سبتمبر. شعرت بأهمية إعلان الحداد في كل أرجاء البلاد، لذلك عيّنت نهار الجمعة يوماً وطنيّاً للصلاة والذكرى. كنت أعلم أنّ ١٤ أيلول/سبتمبر سيكون قاسياً ومشحوناً بالعواطف، ولكنّني لم أكن أتوقّع أن يكون اليوم الأكثر إلهاماً في حياتي. حوالى الساعة ٧:٠٠ صباحاً، التقى بي آندي كارد في المكتب البيضاويّ لإطلاعي على موجز الأمن القوميّ. اعتقدَت وكالة المخابرات المركزيّة السي آي أي أنّ هناك أعضاء آخرين من تنظيم القاعدة في الولايات المتّحدة، وأنّهم كانون ينوون الهجوم على أميركا بواسطة أسلحة بيولوجيّة أوكيميائيّة أو نوويّة. كان صعباً تخيّل أيّ شيء أكثر تدميرًا من ٩/١١، ولكنّ هجوماً إرهابيّاً بأسلحة الدمار الشامل كان كذلك.

طلبت من مدير مكتب التحقيقات الفدرالي الأف بي أي بوب مولر والمدّعي العامّ جون أشكروفت تزويدي بآخر المعلومات عن تحقيق الأف بي أي بشأن

الخاطفين. قال لي بوب: إنّهم حدّدوا هويّة معظم الإرهابيّين وتاريخ دخولهم البلاد ومكان إقامتهم وكيفيّة تنفيذهم المؤامرة. كان تحقيقاً مذهلاً، لكنّ ذلك لم يكن كافياً.

سألت: «ماذا تفعلون لوقف الهجوم المقبل؟». بدأوا بالحراك بعصبيّة في مقاعدهم. قلت لبوب إنّني أريد أن تتّخذ الأف بي أي عقليّة زمن الحرب. نحن في حاجة لتعطيل الهجمات قبل وقوعها، وليس مجرّد التحقيق فيها بعد وقوعها. في نهاية الاجتماع، شدّد بوب بالقول: «لدينا مهمّة جديدة، وهي منع الهجمات». على مدى السنوات اللاحقة، أنجز بوب وعده وحقّق تغييراً جوهريّاً في مكتب التحقيقات الفدراليّ في تاريخه الممتدّ على مدى قرن.

بعد أن أجريت مكالمةً هاتفيّةً مع رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون، وهو زعيم يفهم ما يعنيه الإرهاب، بدأت أوّل اجتماع وزاريّ منذ وقوع الهجمات الإرهابيّة. حين دخلت الغرفة، هبّ الفريق بالتصفيق المتواصل. فوجئت وتأثّرت بدعمهم الصادر من صميم القلب، وانهمرت دموعي للمرّة الثانية خلال يومين.

بدأنا جلسة مجلس الوزراء بصلاةٍ. طلبت من دون رامسفيلد تلاوتها. قال كلاماً مؤثّراً عن ضحايا الهجمات وطلب «الصبر بمقدار اندفاعنا للتحرّك». منحتني لحظة الصمت بعد الصلاة الوقت الكافي للسيطرة على مشاعري .فكّرت في الخطاب الّذي كنت سأتلوه قريباً في الكاتدرائيّة الوطنيّة، وبدا أنّ كولن باول كان يفكّر في ذلك أيضاً. أعطاني وزير الخارجيّة رسالةً مختصرةً دوّن عليها: «عزيزي سيّدي الرئيس، عندما يكون عليّ إلقاء خطاب مثل هذا، أتجنّب الكلمات التي أعرف أنّها ستثير عواطفي، مثل أمي وأبي». كانت لفتة مؤثّرة. كان كولن قد شهد معارك كثيرة؛ وهو يعرف العواطف المتأجّجة الّتي كنّا نختبرها جميعاً وأراد التخفيف عنّي. بدأت الاجتماع وأنا أمسك بالرسالة وقلت مازحاً: «اسمحوا لي أن أقول لكم ماذا قال لي وزير الخارجيّة. «عزيزي سيّدي الرئيس، اصمدْ!».

* * *

الكاتدرائيّة الوطنيّة هيكل رهيب: سقف يعلو مئة قدم وقدمين ودعامات متينة وزجاج ملوّن برّاق. في ١٤ أيلول/سبتمبر، كانت المقاعد تعجّ بالناس. الرؤساء السابقون فورد وكارتر وبوش وكلينتون كانوا هناك مع زوجاتهم. وكذلك حضر تقريباً كلّ عضو من أعضاء الكونغرس ومجلس الوزراء بأكمله ورئيس هيئة الأركان المشتركة وقضاة المحكمة العليا وأعضاء السلك الدبلوماسيّ وأسر الضحايا. الشخص الذي لم يكن موجوداً هو ديك تشيني. كان في كامب دايفيد لضمان استمراريّة الحكومة، وعدم حضوره كان تذكيراً بالتهديد المستمرّ.

كنت قد طلبت من لورا وكارين هيوز تصميم البرنامج، فأنجزا ذلك بشكلٍ ممتاز. ضمّت مجموعة المتحدّثين زعماء دينيّين من مختلف الأديان: مزمّل صدّيقي إمام الجمعية الإسلاميّة لأميركا الشماليّة والحاخام يشوع هابرمان وبيلي غراهام والكاردينال ثيودور ماك كاريك وكيربيجون كالدويل. قرب نهاية القدّاس، جاء دوري، فيما كنت أخطو باتّجاه المنصّة، همست صلاة : «يا ربّ، دع نورك يلمع من خلالي».

كان الخطاب في الكاتدرائيّة أهمّ الخطابات الّتي ألقيتُها في أوّل رئاستي. كنت قد طلبت من كاتبي خطاباتي ـ مايك غيرسون وجون ماككونيل وماثيو سكالي ـ التركيز على ثلاثة أهداف هي: الحداد، وتذكير الناس بمحبة الله، وإيضاح أنّ أولئك الّذين هاجموا بلادنا سيواجهون العدالة. بدأت: «نحن هنا في وسط حزننا. الكثيرون تكبّدوا خسارة عظيمة جدّاً. واليوم، ونحن نعرب عن خالص أسف أمّتنا. جئنا أمام الله للصلاة من أجل المفقودين والقتلى وأولئك الذين يحبّونهم... لأطفال وآباء وأزواج وأسر وأصدقاء المفقودين، نقدّم تعاطف الأمّة العميق. وأؤكد لكم، لستم وحدكم».

جلت نظري في الحشد. كانت الدموع تجري على وجوه ثلاثة جنود جالسين إلى يميني، وكذلك فعلت المرأة المسؤولة عن فريق التحضير وتدعى تشاريتي والاس.

كنت مصمّماً على عدم الوقوع فريسةً لعدوى البكاء، وكان هناك مكان واحد لم أتجرّأ على النظر باتّجاهه: المقعد حيث يجلس أبي وأمّي ولورا. تابعت:

بعد ثلاثة أيّام فقط من هذه الأحداث، لا يمكن للأميركيين فهم ما حصل على مستوى التاريخ. لكنّ مسؤوليّتنا تجاه التاريخ واضحة: الردّ على هذه الهجمات وتخليص العالم من الشرّ. لقد شُنّت الحرب ضدّنا خلسةً وبواسطة الخداع والقتل. هذه الأمّة سلميّة، ولكنها شرسة عندما يُثار غضبها. بدأ هذا الصراع بناءً على توقيت وشروط الآخرين، ولكنه سينتهي بالطريقة وعند الساعة التي نختارها...

الإشارات التي يعطينا إيّاها الله ليست دائماً ما نبحث عنه. نحن نتعلّم في المأساة أنّ قصد الله ليس دائماً مطابقاً لأهدافنا. ولكنّ الصلوات على نيّة المعاناة الشخصيّة، سواء في منازلنا أو في هذه الكاتدرائيّة العظيمة، معروفة ومسموعة ومفهومة.... إنّ العالم الذي خلقه الله مصمّم حسب خطّة أخلاقيّة. الحزن والمأساة والكراهية لا تستمرّ سوى لبعض الوقت. أمّا الخير والذكرى والحبّ فلا نهاية لها. وربّ الحياة يحضن كل الذين يموتون وكل الّذين يحزنون.

عندما عدت إلى مقعدي بجانب لورا، اقترب أبي وضغط برفقٍ على ذراعي. قال البعض إنّ تلك اللحظة تمثّل انتقالاً رمزيّاً للشعلة من جيلٍ إلى آخر. أنا رأيت أنّها لمسة مطمئنة من الأب الذي يعرف تحدّيات الحرب. استمدّيت قوّةً من مثاله ومحبّته .كنت بحاجة إلى هذه القوّة في المرحلة المقبلة من الرحلة: الزيارة إلى موقع الهجوم، مانهاتن السفلى.

* * *

كانت الرحلة باتّجاه الشمال هادئة، وطلبت من كيربيجون كالدويل أن يرافقني في الرحلة. كنت قد شاهدت لقطات من نيويورك على شاشة التلفزيون، وعرفت أنّ الدمار كبير. وكان مريحاً أن يكون صديق ورجل دين بجانبي.

استقبلني المحافظ باتاكي وعمدة المدينة جولياني في قاعدة ماغواير الجوّيّة في نيو جيرسي، وبدا عليهما الإرهاق. كان المحافظ يعمل بلا كللٍ منذ صباح يوم الثلاثاء، لتوزيع موارد الدولة وحشد القوّات تحت قيادته. ونادراً ما واجه رجل لحظته التاريخيّة بطريقة أكثر طبيعيّة من طريقة رودي جولياني يوم الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. تحدّى في الأوقات الصحيحة، وحزن في الأوقات الصحيحة، وتولّى القيادة طوال الوقت.

أقلّتني المروحيّة مع جورج ورودي. وخلال الرحلة باتّجاه المدينة، حلّق الطيّارون فوق غراوند زيرو. شرد ذهني مرّة أخرى إلى رحلتي في المروحيّة مساء يوم ١١ أيلول/سبتمبر. كان البنتاغون مصاباً، ولكنّه لم يدمّر، لكن الأمر لم يكن كذلك في البرجين. لقد اختفيا، ولم يبقَ سوى كومةٍ من الأنقاض. كان الدمار مريعاً وكلّيّاً.

ما رأيناه من الجوّ لا يمكن مقارنته مع ما شاهدته على الأرض. دخلت أنا وجورج ورودي في سيّارة الـSuburban، وكنّا قد بدأنا للتوّ الرحلة باتّجاه موقع الكارثة عندما لفت انتباهي شيء على جانب الطريق، بدا كأنّه كتلة رماديّة. نظرت مرّة ثانية. كانت مجموعة من المستجيبين الأوائل يغطّيهم الرماد من الرأس إلى أخمص القدمين.

طلبت من السائق أن يتوقّف، وتقدّمت باتّجاههم وصافحتهم وشكرتهم على كلّ ما فعلوه. كانوا قد عملوا دون توقّف، وكانت الدموع تنهمر على وجوههم، راسمةً خطّاً في السخام مثل النهير في الصحراء. كانت العاطفة التي اتّسم بها اللقاء نذيراً لما سيلحق.

مع اقترابنا من غراوند زيرو، شعرت كأنّني أدخل كابوساً.لم يكن هناك الاّ القليل من الضوء. انتشر الدخان في الهواء واختلط بجسيمات معلّقة من الحطام، مشكّلاً ستاراً رماديّاً رهيباً. مشينا في برك خلّفتها الأمطار في الصباح والمياه المستخدمة في إخماد الحرائق. تناقلت أحاديث بين مسؤولين محلّيين: «هنا موقع المقرّ القديم...

هناك أعادت الوحدة تنظيم صفوفها». حاولت أن أستمع ، ولكنّ فكري استمرّ بالعودة إلى الدمار وإلى أولئك الّذين أمروا بالهجمات. لقد أذونا أكثر ممّا تصوّرت.

بينما كنّا نمشي لبضع دقائق، قادنا جورج ورودي إلى حفرة حيث كان عمّال الإنقاذ يبحثون عن ناجين وسط الأنقاض. إذا كانت الأجزاء الأخرى من الموقع كابوساً، فهذا كان جحيماً خالصاً. بدا أكثر قتامةً من المنطقة العلويّة. بالإضافة إلى السخام الثقيل في الهواء، كان هناك أكوام من الزجاج المهشّم والمعادن.

عندما رآني العمّال، وقفوا في صفّ، فصافحتهم جميعاً. كانت وجوه العمّال وملابسهم قذرة، واحتقنت عيونهم بالدم، أمّا أصواتهم فكانت مبحوحة، وتنوّعت عواطفهم بين الحزن والتعب والقلق والأمل والغضب والكبرياء. قال كثير منهم بهدوء: «شكراً» أو «ليبارككم الله» أو «نحن فخورون بكم». قلت لهم: «إنّ العكس صحيح. أنا فخورٌ بكم».

بعد بضع دقائق، بدأ المزاج بالتحوّل. قال لي إطفائيّ إنّ مركزه فقد عدداً من الرجال. حاولت أن أهدّىء باله، ولكنّ هذا لم يكن ما يريده. نظر في عينيّ مباشرة وقال: «يا جورج، ابحث عن هؤلاء الأوغاد الذين فعلوا هذا واقتلهم». نادراً ما ينادي الناس الرئيس باسمه الصغير، ولكن لم يكن عندي مشكلة في هذه القضية. كانت المسألة شخصيّة.

كلّما قضيت وقتاً مع العمّال، ظهرت عواطف بريئةً أكثر. ففي نظر معظم هؤلاء الرجال والنساء، كنت وجهاً شاهدوه على شاشة التلفزيون. لم يعرفوني، ولم يكونوا قد اختبروني، وأرادوا أن يتأكّدوا من أنّني أشاركهم تصميمهم. صاح أحد الرجال: «لا تخذلني!»، وصاح آخر في وجهي: «مهما كان الثمن». كان حسّ الانتقام واضحاً ومفهوماً.

سألني آندي كارد إذا كنت أريد أن أقول شيئاً للجمهور، ووجدت أنّه يجب فعل ذلك. لم تكن هناك منصّة ولا ميكروفون ولا تصريحات معدّة سلفاً. لفت آندي

انتباهي إلى كومة من المعدن. نظرت إلى عميل الأمن السرّيّ كارل تراسكوت، الذي أومأ بأنّه من الآمن تسلّقها. كان إطفائيّ كبير في العمر يقف أعلى الكومة. مددت يدي فسحبني إلى جانبه. كان اسمه بوب بكويث.

وجدت نينا بيشوب، وهي عضو في فريق التحضير، بوقاً يمكنني استخدامه لمخاطبة الجمهور فرمته بين يديّ. كان الحشد قادراً على رؤيتي على قمّة الكومة، التي علمت في وقتٍ لاحقٍ أنّها شاحنة إطفاء محطّمة. دفعني إحساسي الأوّل إلى تعزيتهم، فقلت لهم إنّ أميركا كانت منحنيةً في الصلاة من أجل الضحايا ورجال الإنقاذ والعائلات.

صاح الناس: «لا يمكننا سماعك». فقمت بالردّ عليهم: «أنا يمكنني سماعكم!» فهتفوا لي. كنت آمل في حشد العمّال والتعبير عن العزم الوطنيّ، وفجأة عرفت كيف أفعل ذلك، فقلت: «أستطيع سماعكم. وبقيّة العالم يسمعكم»، فقوي الضجيج... «وقريباً سيسمعنا جميع الناس الذين حطّموا هذه المباني!» فانفجر الحشد. شعرت بطاقةٍ تنطلق منّي لم يسبق لي أن شعرت بها من قبل. بدأوا بالهتاف .USA. USA .USA.

* * *

كنت قد أمضيت قدراً كبيراً من الوقت في نيويورك على مرّ السنين. لكن في ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، شعرت لأوّل مرّة بطابع المدينة الحقيقيّ. بعد زيارة غراوند زيرو، اتّجهنا ثلاثة أميال شمالاً نحو مركز جافيتس. دهشت بعدد الناس المصطفّين على طريق وست سايد السريع وهم يلوّحون بالأعلام ويهتفون. فقال لي رودي مازحاً: «أكره أن أكون أوّل من يخبرك بذلك، سيّدي الرئيس، ولكن لا أحد من هؤلاء الناس صوّت لصالحك».

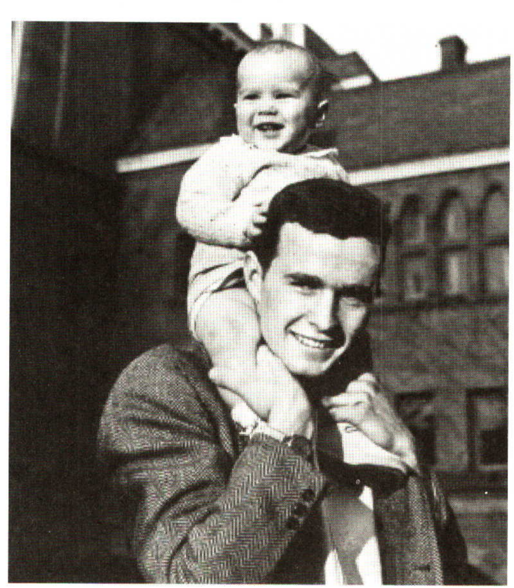
في مركز جافيتس، مشيت نحو منصّة المستجيبين الأوائل من جميع أنحاء البلاد. ألقيت التحيّة على رجال الإطفاء ورجال الإنقاذ الذين أتوا من ولاياتٍ بعيدةٍ مثل

جدي وجدتي، «بريسكوت و«دوروثي ووكر بوش»، خلال حملته الانتخابية لمجلس الشيوخ الأميركي في ولاية كونيتيكت.





ضابط البحرية وعروسه الشابة الجميلة. عندما ذهب والدي إلى الحرب، رسم كلمة «بربارة» على جانب طائرته.



على كتف والدي في ييل، كان عمري تسعة أشهر.



في رحلةٍ مع أمي إلى الصحراء.



يوم نموذجي في ميدلاند، ألعب البيسبول حتى غياب الشمس.



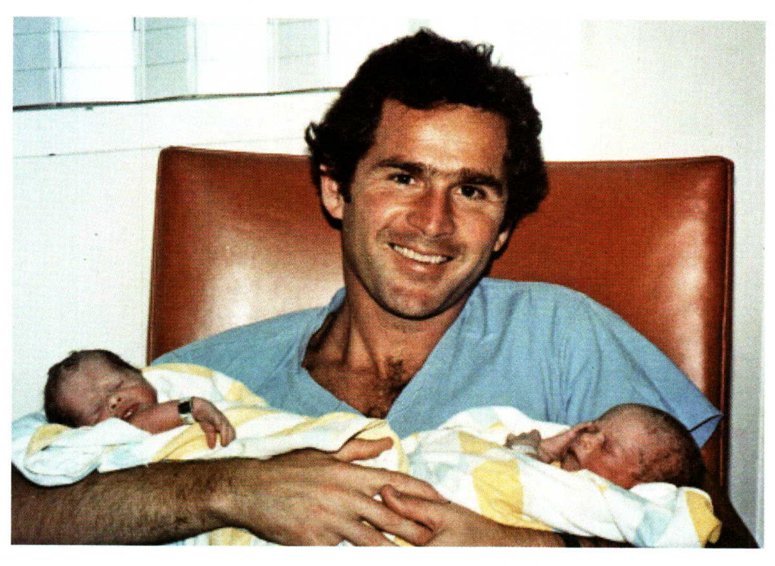
مع أختي، روبن، في عيد ميلادها الأخير، عام ١٩٥٢.



منزل في هيوستن، في استراحة من أندوفر. بسبب فارق السن، في تلك الأيام، شعرت وكأنني عم، أكثر من كوني شقيقاً لإخوتي.



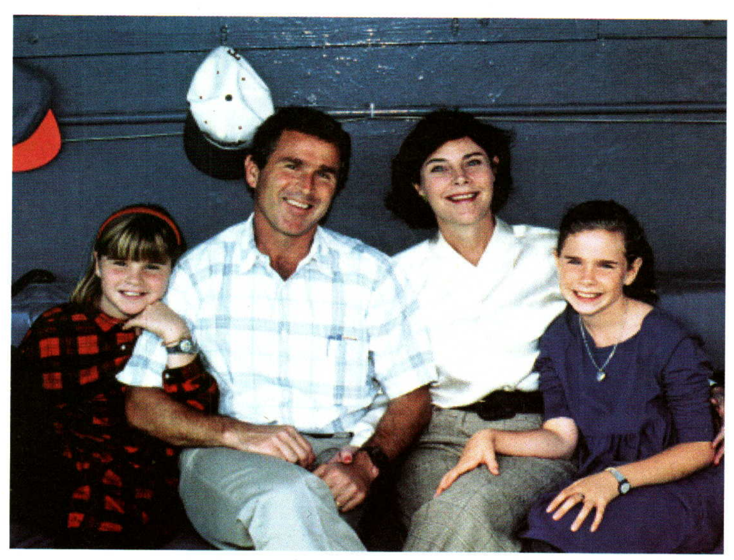
تزوجنا، أنا «لورا» بعد حفل الشواء لدى «جو» و«جان أونيل» بثلاثة أشهر؛ وكان هذا الزواج أفضل قراراتي المصيرية.



كنا نستعد للتبنّي عندما علمنا أن «لورا» حامل بتوأم.



باربرا بوش وجينا ولش تحملان الاسم نفسه.



في ملاذ رينجرز مع ابنتينا. كان حلمي امتلاك نادٍ للكرة، وأنا على يقينٍ لو أنه تحقّق أفضل عمل تولّيته في حيات..



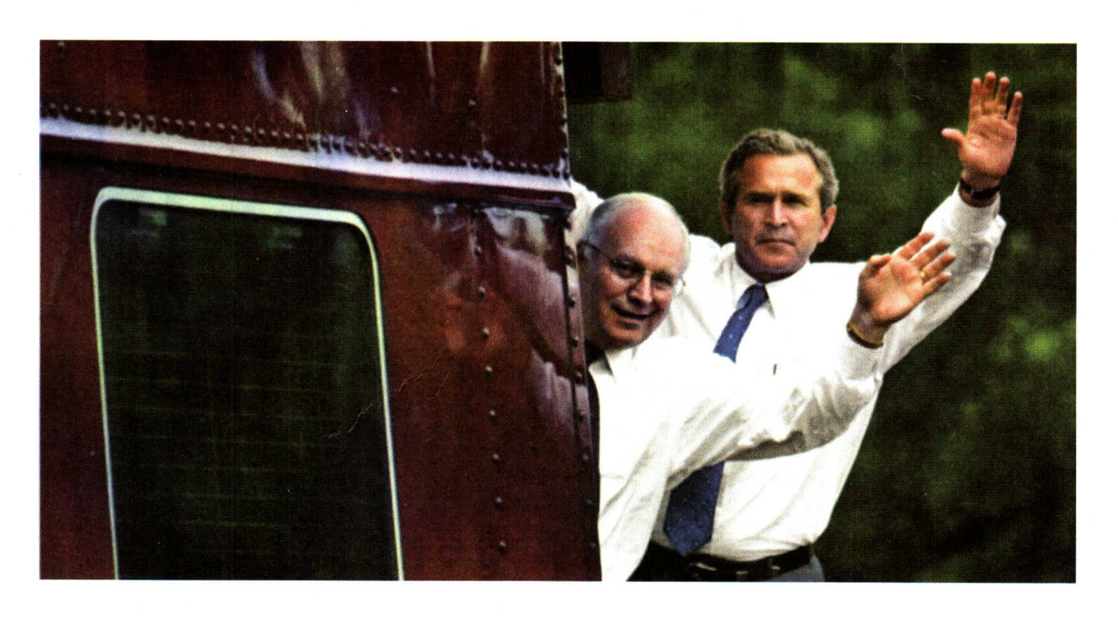
قبل تنصيبي حاكماً، قدّم إليّ والدي أزرار أكمام كان قد قدّمها إليه والداه عندما نجح كطيارٍ في البحرية.
دالاس مورنينغ نيوز/ دايفيد وو



مع المحافظ، العقيد «بوب بولوك»، شريكي الديمقراطي غير المُحتمَل في أوستن.
أسوشييتد برس/ هاري كابلاك



وأنا أقبّل سيدة تكساس الأولى خلال ثاني تنصيب لي كحاكم.



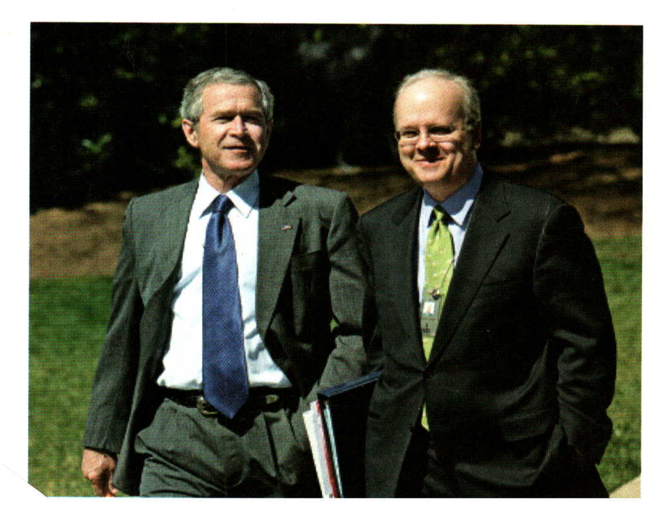
الحملة الانتخابية مع ديك تشيني، وهو بمثابة قيمة إضافية للحملة ونائب رئيس رصين وذو مبادئ.

أسوشيتد برس/إريك دبابر



مع أخي «جيب» عشية الانتخابات عام ٢٠٠٠، عندما كانت الأمور مبشّرة.

مجلة تايم/ بروكس كرافت



كان «كارل وف»، مثل عالم سياسي مجنون، مثقفاً ومضحكاً، وكأن يفيض طاقةً وأفكاراً.

البيت الأبيض / أريك درابر



أقرب مستشاريّ في السياسة الخارجية، مستشار الأمن القومي «ستيف هادلي» ووزيرة الخارجية «كوندوليزا رايس».

البيت الأبيض/ بول مورس



مع فريق الاتصالات في إدارتي (من اليسار): «دان بارتليت»، «دانا بيرونو»، و«توني سنو»

البيت الأبيض/ أريك درابر



أرتشف القهوة مع «جون روبرتس» في القاعة الغربية صباح يوم ترشيحه، عام ٢٠٠٥.

البيت الأبيض/ أريك



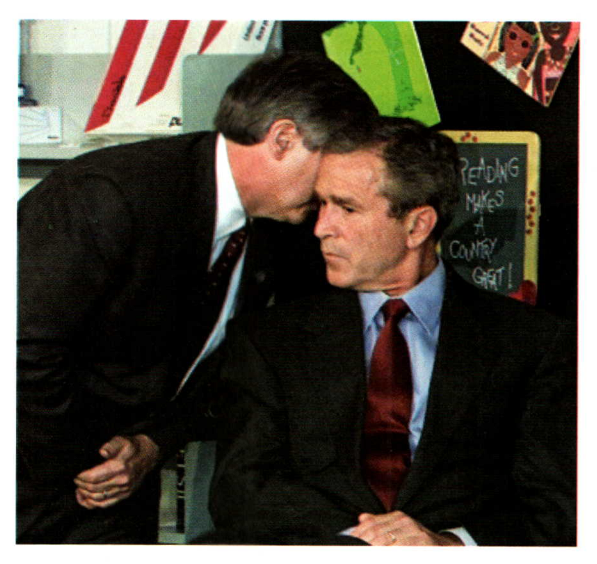
في حديث مع القس «بيلي غراهام»، الذي عمّق فهمي للإيمان.
البيت الأبيض/ بول مورس



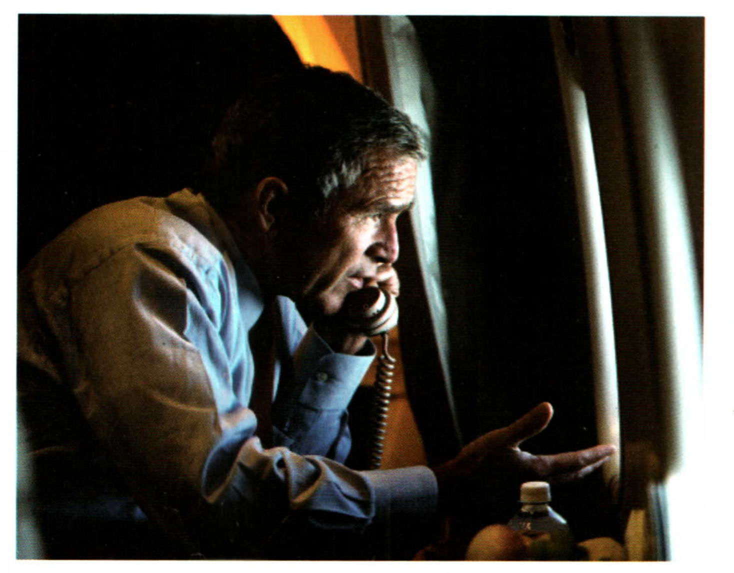
زيارة البابا «يوحنا بولس الثاني» إلى كاستل غاندولفو عام ٢٠٠١. دعاني الأب الروحي إلى الدفاع عن قدسية الحياة.
البيت الأبيض/أريك درابر



حاملاً «تيري جونز»، وهو كندفة الثلج من الأجنة المجمّدة التي يمكن، خلاف ذلك، أن يتم تدميرها لأغراض البحث.



خلال تمرين قراءة للصف الثاني في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، همس كبير الموظفين في أذني ليخبرني بأن: «طائرة ثانية قصفت البرج الثاني. أميركا تتعرّض للهجوم».
أسوشيتد بريس/ داف ميلز



على الهاتف مع ديك تشيني على متن طائرة الرئاسة في ١١ أيلول/ سبتمبر. أمرت بإسقاط طائرة تجارية مخطوفة لكنني صليت ألاّ ينفذ طيارونا تعليماتي.
البيت الأبيض/ أريك درابر



بعد عودتي إلى البيت الأبيض على أثر أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، أعدل خطابي للأمة وإلى (يساري) مستشار البيت الأبيض «آل غونزالس»، «كوندي رايس»، المستشارة «كارين هيوز»، السكرتير الصحفي «آري فلايشر»، «وآندي كارد».
البيت الأبيض/بول مورس



في زيارة للبنتاغون في ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، مع وزير الدفاع «دون رامسفيلد». *البيت الأبيض/ أريك درابر*

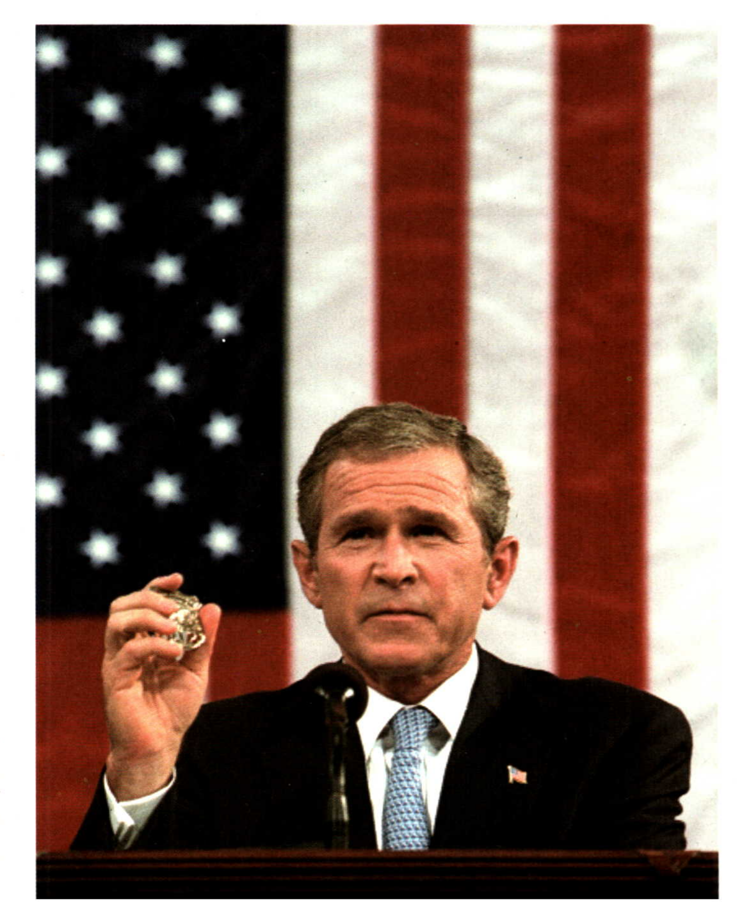


في الكاتدرائية الوطنية يوم ١٤ أيلول/سبتمبر، ٢٠٠١. قلت: «بدأ هذا الصراع بناء على توقيت الآخرين وشروطهم، إلا أنه في نهاية المطاف، سينتهي عندما نقرّر نحن ذلك». *البيت الأبيض/ أريك درابر*

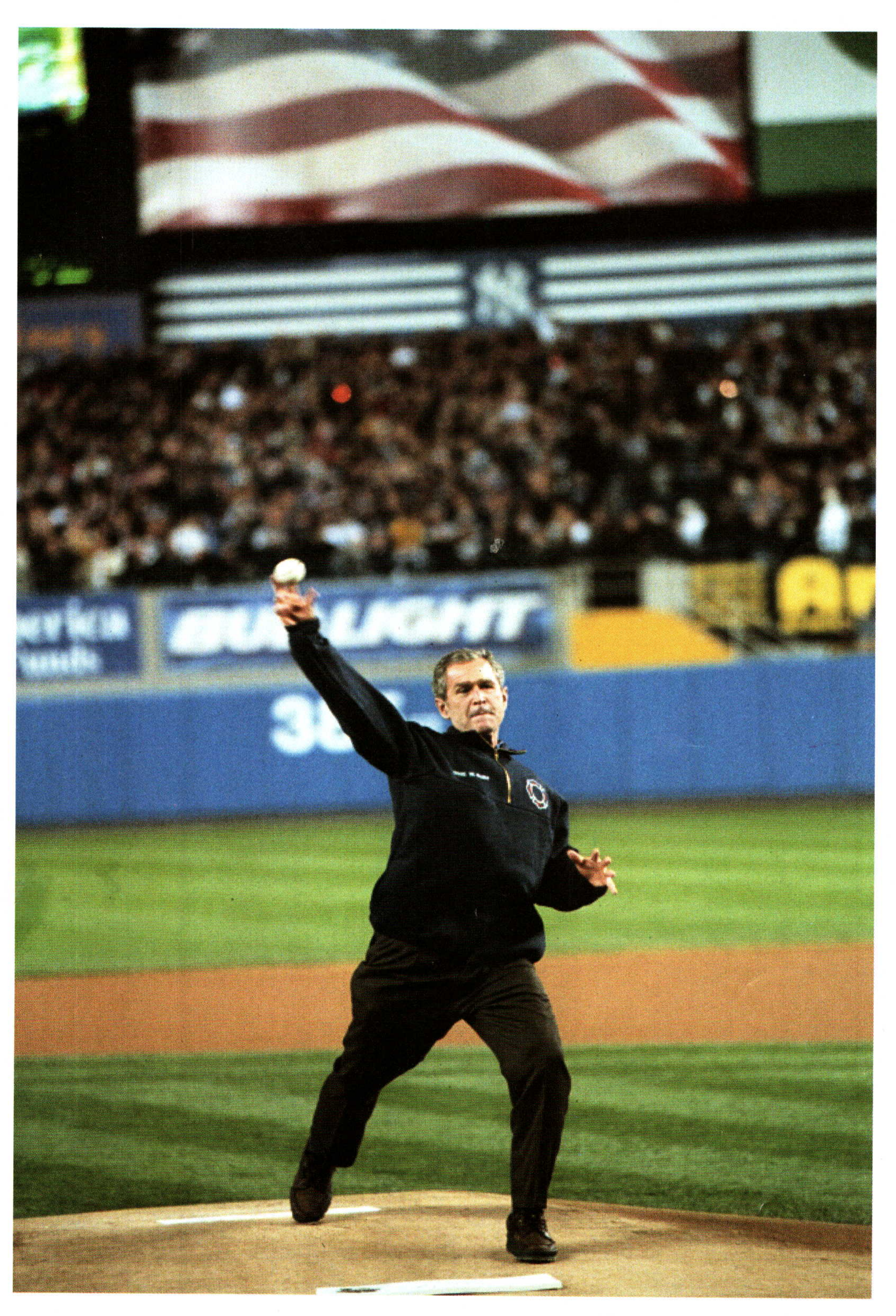


مع عمدة مدينة نيويورك «رودي جولياني (إلى اليسار) وحاكم ولاية نيويورك «جورج باتاكي» في قاعدة سلاح الجو «ماغواير قبل أن نقطع نقطة الصفر. *البيت الأبيض/ بول موريس*

مع عمال الإغاثة وسط الخراب الذي خلفه انفجار البرجين. صرخ أحدهم: «جورج، أعثر على الأوغاد الذين فعلوا ذلك واقتلهم»، وقال آخر: «مهما يكن الثمن» *البيت الأبيض/أريك درابر*



حاملاً شارة «جورج هوارد» من إدارة شرطة الحدود، الضابط الذي توفي في مركز التجارة العالمي.



افتتاح المباراة الثالثة لبطولة العالم ٢٠٠١ في ملعب يانكي. «لا تجعلها ترتد، سوف يسخرون منك،» كان

أجتمع مع «ديك شيني»، «كولين باول»، «دون رامسفيلد» وفريق مجلس الأمن القومي في كامب دايفيد، السبت بعد أحداث ٩/١١. *البيت الأبيض/ أريك درابر*



في الغرفة الزرقاء، أخبر رئيس وزراء بريطانيا «توني بلير» بأننا قد ننشر قواتنا على أرض أفغانستان.
البيت الأبيض/ أريك درابر

أعمل في غرفة المعاهدة، حيث أعلنت بدء الحرب على أفغانستان في 7 تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.
البيت الأبيض/ جويس بوغوسيان



بحلول عام ٢٠٠٦، كان رئيس الباكستان «برويز مشرّف» (إلى اليسار) ورئيس أفغانستان «حميد قرضاي» بالكاد يتحادثان. حاولت جهدي عن طريق استخدام الدبلوماسية التقريب بينهما.
البيت الأبيض/أريك درابر.

متوجهاً إلى الفرقة الجبلية العاشرة، التي ساهمت في طرد تنظيم القاعدة وحركة طالبان من السلطة في أفغانستان، في فورت درام عام ٢٠٠٢. *البيت الأبيض/بول مورس*

أقدّم إلى كل من «دان» و «مورين ميرفي» ميدالية الشرف التي استحقها ابنهما، الملازم في البحرية «مايكل ميرفي»، الذي ضحى بحياته وهو يطلب المساعدة لرجاله في أفغانستان. *البيت الأبيض/جويس بوغوسيان*

في المزرعة مع الجنرال «تومي فرانكس»، الذي قاد عملية تحرير أفغانستان والعراق.
البيت الأبيض/ سوزان ستيرنر



في محادثة مع والدي حول العراق أواخر العام ٢٠٠٢، قال لي: «عليك محاولة كل وسيلة ممكنة لتفادي الحرب؛ ولكن إذا لم يمتثل الآخر، فلن يكون لديك خيار آخر».
البيت الأبيض/أريك درابر

أوهايو وكاليفورنيا. أتوا إلى المدينة ليقدّموا المساعدة دون أن يُطلب منهم ذلك. شكرتهم نيابةً عن الأمّة وحثثتهم على مواصلة عملهم الجيّد.

تمّ تحويل مرأب المبنى إلى مكانٍ اجتمع فيه مئتا فردٍ من أسر المستجيبين الأوائل المفقودين. كان الناس في الغرفة موزّعين على جميع الأعمار، من الجدّات المسنّات إلى الأطفال حديثي الولادة. كان كثير منهم يعيشون كابوساً: شُوهِد أو سُمِع أحبّاؤهم لآخر مرّة بالقرب من مركز التجارة العالميّ .أرادوا أن يعرفوا ما إذا كانوا قد نجوا من الحادث.

كنت قد رأيت للتوّ حطام البرجين، وكنت أعرف أنّها ستكون معجزة لو ظهر أحد. لكنّ العائلات رفضت التخلّي عن الأمل. صلّينا معاً وبكينا معاً، وطلب كثير من الناس منّي الحصول على صور أو تواقيع. شعرت بالإحراج بالتوقيع في مناسبة حزينة، ولكنّني أردت أن أفعل أيّ شيء للتخفيف من آلامهم. طلبت من كلّ عائلة أن تخبرني قليلاً عمّن فقدت. ثمّ قلت لهم: «سوف أوقّع على هذه البطاقة، وعندما يعود أباكم أو أمّكم أو ابنكم أو ابنتكم، سوف يصدّقون أنّكم التقيتم الرئيس».

عندما اتّجهت نحو الزاوية الأخيرة من الغرفة، رأيت أسرةً تجمّعت حول امرأةٍ جالسة. جلست بجانب المرأة، الّتي أخبرتني لاحقاً أنّ اسمها أرلين هوارد، وأن ابنها شرطيّ في سلطة المرفأ، وكان ١١ أيلول/سبتمبر يوم عطلة له لكنّه تطوّع للمساعدة عندما عرف بالهجمات. وقد شوهد لآخر مرّة مندفعاً وسط الغبار والدخان قبل ثلاثة أيّام.

بينما كنت أستعدّ لوداعهم، وضعت أرلين يدها في حقيبتها ومدّت يدها. كانت تحمل غرضاً معدنيّاً. قالت لي، وهي تضع شارةً في يدي، «هذه شارة ابني. اسمه جورج هوارد. أرجوك تذكّره»، فوعدتها أن أفعل ذلك.

* * *

خدمت ٢٦٨٥ يوماً كرئيس بعد أن أعطتني أرلين تلك الشارة. بقيت معي في كلّ

يوم من تلك الأيّام. مع مرور السنوات، عاد معظم الأميركيّين إلى العيش كالمعتاد، وكان ذلك طبيعيّاً ومرغوباً فيه. هذا يعني أنّ البلاد كانت في طريق الشفاء وأن الناس يشعرون بأنّهم أكثر أماناً. فيما أسجّل هذه الأفكار، يبدو يوم النار ذكرى بعيدةً بالنسبة لبعض مواطنينا. أصغر الأميركيّين ليس لديهم معرفة مباشرة بذلك اليوم. في نهاية المطاف، سيصير ١١ أيلول/سبتمبر مثل ذكرى بيرل هاربور، يوماً مكرّماً سنويّاً ولحظةً مهمّةً في التاريخ، وليس ندبةً في القلب، ولا سبباً لمتابعة القتال.

بقناعتي، سيكون الأسبوع الذي بدأ في ١١ أيلول/سبتمبر دائماً أكثر من ذلك. فأنا لا أزال أرى البنتاغون مغلّفاً بالدخان، والبرجين مشتعلين، وتلك الكومة من الفولاذ الملتوي. ما زلت أسمع أصوات الذين يبحثون عن الناجين من أحبّائهم والعمّال يصرخون: «لا تخذلني!» و«مهما كان الثمن». وما زلت أشعر بحزن الأطفال، وعذاب ضحايا الحروق، وعذاب الأسر المفكّكة. ما زلت مذهولاً بشجاعة رجال الإطفاء وتعاطف الغرباء وشجاعة الركّاب المنقطعة النظير حين أسقطوا الطائرة.

أعاد ١١ أيلول/سبتمبر تحديد معنى الشجاعة، وأعاد تحديد حسّ الواجب، وأعاد تحديد وظيفتي. قصّة هذا الأسبوع هي المفتاح لفهم رئاستي. إن عدداً كبيراً من القرارات تلا ذلك اليوم، وكثير منها كان مثيراً للجدل ومعقّداً.

بعد ٩/١١، شعرت أنّ مسؤوليّتي واضحة. لم أتمكّن طوال رئاستي من نسيان ما حدث لأميركا في ذلك اليوم. وجّهت عاطفتي وروحي لحماية الوطن، مهما كان الثمن.

٦

التأسيس للحرب

في ١٧ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١، قمت برحلتي الأولى خارج البلاد في الطائرة الرئاسيّة منذ ٩/١١. كنّا متّجهين إلى شنغهاي للمشاركة في قمّة التعاون الاقتصاديّ لمنطقة آسيا والمحيط الهادىء، وهو تجمّع لقادة واحدٍ وعشرين بلداً، من دول حوض المحيط الهادىء. وكان جهاز الأمن السرّيّ قلقاً على الرحلة. فطوال أسابيع عدّة، وصلتنا تقارير استخباراتيّة تقشعرّ لها الأبدان، حول احتمال هجمات جديدة. لكنّ تعزيز علاقات أميركا مع الشرق الأقصى كان من أولويّاتي، وأردت أن يرى زملائي، من زعماء الدول، إصراري على المعركة ضدّ الإرهابيّين.

عند هبوط طائرة الرئيس في مطار شنغهاي، عدت بفكري إلى المدينة المتربة المليئة بالدرّاجات والتي زرتها برفقة أمّي في سنة ١٩٧٥. هذه المرّة قمنا برحلة الخمس وأربعين دقيقة في السيّارة إلى وسط مدينة شنغهاي على الطريق السريع. مررنا بسرعة بالقسم الجديد البرّاق من المدينة والمعروف ببودونغ. وعلمت لاحقاً أنّ الحكومة نقلت ما يقرب من ١٠٠ ألف شخص من هذه الأرض لإنجاز البناء. ذكّرتني ناطحات السحاب وأضواء النيون بلاس فيغاس، فبالنسبة لشنغهاي، كانت قد حصلت القفزة الكبرى إلى الأمام.

في الصباح التالي، اجتمعت في خيمة زرقاء ضيّقة في فندق ريتز كارلتون، بكولن باول وكوندوليزا رايس وآندي كارد وعميل في وكالة المخابرات المركزيّة. صمّم هيكل الخيمة لحماية اجتماع الأمن القوميّ من أيّ تنصّت محتمل. نظرنا في شاشة الفيديو حيث ظهر وجه ديك تشيني من مدينة نيويورك، وكان يرتدي ربطة عنق بيضاء وبذلة رسميّة بذيل لأنّه كان سيلقي خطابا في حفل عشاء مؤسّسة ألفريد أي سميث التذكاريّة، وهو حدث خيريّ سنويّ تنظّمه الأبرشيّة الكاثوليكيّة.

عندما رأيت ديك، أحسست مباشرة بوجود مشكلة. فقد كان وجهه أبيض مثل ربطة عنقه.

قال: «سيّدي الرئيس، إحدى كاشفات العوامل الحيويّة أعطت إنذاراً في البيت الأبيض. لقد تمّ العثور على آثار لتوكسين البوتولينوم، ومن المحتمل أن نكون قد تعرّضنا جميعاً لها».

كانت وكالة الاستخبارات المركزيّة السي آي أي قد أطلعتني على توكسين البوتولينوم. إنّها إحدى أقوى الموادّ السامّة في العالم. لم يتفوّه أحد بكلمة واحدة. وأخيراً، سأل كولن: «ما هي مدّة التعرّض؟» هل كان يجري حسابات ذهنيّة، محاولاً معرفة متى كان في البيت الأبيض أخيراً؟

أوضح نائب مستشار الأمن القوميّ ستيف هادلي أنّ مكتب التحقيقات الفدرالي الأف بي أي يجري اختباراً على الفئران لفحص المادّة المشبوهة. ستكون الساعات الأربع وعشرين المقبلة حاسمة. إذا استمرّت الفئران بالحركة، واتّجاه أقدامها إلى الأسفل، سنكون على ما يرام. ولكن إذا كانت الفئران مستلقية على ظهورها وأقدامها إلى الأعلى، فنحن لا بُدّ هالكون. حاولت كوندي تلطيف الأجواء فقالت: «حسناً، هذه طريقة للموت من أجل الوطن».

ذهبت إلى اجتماعات القمّة وانتظرت نتائج الاختبار. في اليوم التالي، وصلت

كوندي رسالة تقول إنّ ستيف كان يحاول الاتّصال بها. قالت: «أعتقد أنّ هذا هو الاتّصال المتوقّع». بعد بضع دقائق، جاءت كوندي حاملةً الخبر.

قالت: «الأقدام إلى الأسفل، وليس إلى الأعلى». كان إنذاراً كاذباً.

* * *

بعد مرور سنوات، يمكن أن تبدو حادثة توكسين البوتولينوم خياليّة وذات احتمال ضعيف. من السهل الضحك عند تصوّر كبار المسؤولين في أميركا يصلّون من أجل بقاء فئران المختبر على قيد الحياة. لكن في ذلك الوقت، كانت التهديدات ملحّة وحقيقيّة. صباح ستّة أيّام في الأسبوع، قام جورج تينيت ووكالة المخابرات المركزيّة بإطلاعي على ما يسمّى قالب التهديدات، وهو ملخّص عن الهجمات المحتملة على الوطن. أيّام الآحاد، كنت أتلقّى موجزاً استخباراتيّاً مكتوباً. بين ١١ / ٩ ومنتصف سنة ٢٠٠٣، كان يردني من وكالة الاستخبارات المركزيّة تقارير بحوالي ٤٠٠ تهديد في الشهر. تتبّعت وكالة المخابرات المركزيّة ما يزيد على عشرين مؤامرة مزعومة للقيام بهجوم واسع النطاق، بدءاً من عمليّات مُحتمَلة بالأسلحة الكيميائيّة والبيولوجيّة في أوروبا ممكنة داخل الوطن بمشاركة راقدين. بعض التقارير ذكر أهدافاً محدّدة، بما في ذلك معالم رئيسيّة وقواعد عسكريّة وجامعات ومراكز تسوّق . على مدى شهور بعد ٩/١١، كنت أستيقظ في منتصف الليل وأنا أشعر بالقلق مما قرأته.

طرحت أسئلةً كثيرةً على الذين كانوا يزوّدونني بالمعلومات: ما مصداقيّة التهديد؟ ماذا فعلنا لمتابعة الدلائل؟ كلّ معلومة كانت تشبه جزءاً من فسيفساء. في أواخر أيلول/سبتمبر، أضاف مدير مكتب التحقيقات الفدراليّ بوب مولر جزءاً كبيراً عندما قال لي إنّ هناك ٣٣١ عضواً محتملاً في القاعدة داخل الولايات المتّحدة. كانت الصورة الإجماليّة لا لبس فيها: إن احتمال وقوع موجةٍ ثانيةٍ من الهجمات الإرهابيّة ضد أميركا حقيقيّ جدّاً.

قبل ٩/١١، كان الكثيرون يعتبرون الإرهاب جريمةً يجب محاكمتها، كما فعلت

الحكومة بعد تفجير مركز التجارة العالميّ في سنة ١٩٩٣. أمّا بعد ٩/١١، فكان من الواضح أنّ الهجمات على سفاراتنا في شرق أفريقيا، وعلى المدمّرة كول، كانت أكثر من مجرّد جرائم معزولة. كانت جزءاً من التحضير لهجمات أيلول/سبتمبر، ومن خطّة رئيسيّة صمّمها أسامة بن لادن، الذي كان قد أصدر فتوى دينيّة، تصف قتل الأميركيّين «واجباً فرديّاً على كلّ مسلم يستطيع أن يفعل ذلك في أيّ بلد تتوفّر فيه الفرصة لفعل ذلك».

في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، كان واضحاً فشل نهج تنفيذ القانون ضدّ الإرهاب. فالانتحاريّون المستعدّون لهجوم على المباني، بواسطة طائرات مدنيّة، ليسوا مجرمين عاديّين. لن يردعهم التهديد بالملاحقة القضائيّة. لقد أعلنوا الحرب على أميركا. ولحماية البلاد، كان علينا خوض الحرب ضد الإرهابيّين.

ستختلف هذه الحرب عن أيّ حربٍ خاضتها أميركا في الماضي. كان علينا كشف مؤامرات الإرهابيّين وتعقّب تحرّكاتهم وتعطيل عمليّاتهم، وقطع الأموال عنهم، وحرمانهم من الملاذات الآمنة. وكان علينا أن نفعل كلّ ذلك تحت تهديد هجومٍ آخر. جعل الإرهابيّون جبهتنا الداخليّة ساحةً للقتال، فكان تركيز أميركا على أساسٍ الحرب أحد أهمّ قرارات رئاستي.

استمدّيت سلطتي لإدارة الحرب على الإرهاب من مصدرين. أحدهما المادّة الثانية من الدستور، التي تعهد إلى الرئيس صلاحيّات زمن الحرب كقائدٍ عامّ للقوّات المسلّحة. أمّا الآخر فكان قراراً للكونجرس تمّ إقراره بعد ثلاثة أيّام من ٩/١١. بتصويت ٩٨ مقابل صفر في مجلس الشيوخ و ٤٢٠ مقابل واحد في مجلس النوّاب. أعلن الكونغرس:

يُمنح الرئيس الإذن باستخدام كلّ القوّة الضروريّة والمناسبة ضدّ الدول أو المنظّمات أو الأشخاص الّذين يجد أنّهم خطّطوا أو أذنوا أو ارتكبوا أو ساعدوا في الهجمات الإرهابيّة التي وقعت يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أو آووا تلك

المنظّمات أو أولئك الأشخاص، من أجل منع أي أعمال للإرهاب الدوليّ ضدّ الولايات المتّحدة في المستقبل، من قِبَل تلك الدول أوالمنظّمات أو الأشخاص.

في السنوات اللاحقة، نسي البعض في الكونغرس تلك الكلمات. أمّا أنا فلم أنسَ قط. كنت أستيقظ صباح كلّ يوم وأنا أفكّر بالخطر الذي كنّا نواجهه والمسؤوليّات الّتي كنت أتحمّلها. وكنت أيضاً على علم تامّ بأنّ للرؤساء تاريخاً في المبالغة بالتصرّف خلال الحرب. وقّع جون آدامز الحكمً المتعلّق بالغرباء والتحريض على الفتنة، والذي حظّر المعارضة العلنيّة. وعلّق أبراهام لنكولن حقّ المثول أمام القضاء أثناء الحرب الأهليّة. وأمر فرانكلين روزفلت باعتقال الأميركيّين من أصل يابانيّ خلال الحرب العالميّة الثانية. عندما أقسمت اليمين الدستورية، تعهّدت «صون الدستور وحمايته والدفاع عنه».

كان أكثر واجباتي أهمّيّة، ودعوتي في الرئاسة، حماية أميركا ضمن حدود السلطة الممنوحة لي بموجب الدستور.

* * *

كانت المهمّة الفوريّة بعد ٩/١١ تعزيز دفاعات أمّتنا في وجه هجوم ثان. كان المشروع شاقّاً. فلردع العدوّ، كان علينا أن نكون على حقّ بنسبة مئة في الًمئة دائماً. ولإلحاق الأذى بنا، كان عليهم أن ينجحوا مرّة واحدة فقط.

نفّذنا دفعة من التدابير الأمنيّة الجديدة. وقد وافقتُ على نشر قوّات الحرس الوطنيّ في المطارات، ووضعتُ مزيداً من ضبّاط أمن الجوّ على الطائرات، وألزمت شركات الطيران بتدعيم أبواب قمرة القيادة. وشدّدت الإجراءات الضروريّة لمنح تأشيرات الدخول وتفتيش المسافرين. بالتعاون مع الولايات والحكومات المحلّيّة والقطاع الخاصّ، زدنا الأمن في الموانئ البحريّة والجسور ومحطّات الطاقة النوويّة وباقي البنية التحتيّة المعرّضة للاعتداء.

بُعَيد ٩/١١، عيّنت حاكم ولاية بنسلفانيا توم ريدج في مركزٍ كبيرٍ جديدٍ في البيت الأبيض للإشراف على عمليّة حفظ الأمن الوطنيّ. جلب توم خبرةً إداريّةً قيّمة، ولكن بحلول أوائل عام ٢٠٠٢، أصبح واضحاً أنّ المهمّة أكبر من أن تنسّق انطلاقاً من مكتب صغير في البيت الأبيض. تقاسمت العشرات من الوكالات الفدراليّة المسؤوليّة في تأمين أمن الوطن، وكان هذا النهج عاجزاً بحيث قد يندسّ شيء بين الثقوب. وجاء أحد الأمثلة الصارخة في آذار/مارس ٢٠٠٢، عندما أرسلت دائرة الهجرة والتجنيس (INS) رسالةً تبلغ فيها مدرسة تمرين على الطيران أنّها منحت تأشيرات دراسة لمحمّد عطا ومروان الشحّي. لا بدّ أنّ الشخص الذي فتح الرسالة قد صُدم، فهذان الشخصان هما الطيّاران اللذان قادا الطائرتين اللتين اصطدمتا بالبرجين التوأمين في ٩/١١.

صُدمت أنا أيضاً. كما قلت للصحافة في ذلك الوقت، «بالكاد تمكّنت من وضع فنجان القهوة على الطاولة». فالخطأ المتراخي يدلّ على ضرورة القيام بإصلاح أوسع.

إن دائرة الهجرة والتجنيس، وهي فرع من وزارة العدل، ليست الوكالة الوحيدة التي كافحت للتأقلم مع مسؤوليّاتها الجديدة على مستوى الأمن الداخليّ. فدائرة الجمارك، المتّصلة بوزارة الخزينة، واجهت مهمّة ضخمة بخصوص أمن الموانئ في البلاد. وهي تقاسمت هذه المسؤوليّة مع خفر السواحل، وهو جزء من وزارة النقل.

كان السيناتور الديموقراطيّ جو ليبرمان من كونيتيكت يعمل جاهداً لإنشاء قسم فدراليّ جديد يوحّد خطتنا في الحفاظ على أمن الوطن. أحببت واحترمت جو، فقد كان مشرّعاً صلباً تخطّى مرارة انتخابات عام ٢٠٠٠، وفهم الحاجة الملحّة للحرب على الإرهاب. في البداية كنت متردّداً تجاه فكرة إنشاء إدارة جديدة، فالبيروقراطيّة الواسعة مرهقة. قلقت أيضاً من عمليّة إعادة تنظيم كبيرة في خضمّ الأزمة. بتعبير ج. د. كراوتش دينار، الذي صار في وقت لاحق نائب مستشار الأمن القوميّ: «عندما تضرب المحراث بالسيف، لا يمكنك أن تقاتل ولا أن تحرث».

غيّرت رأيي لاحقاً. فقد أدركت أنّ وجود إدارة واحدة تركزّ على أمن الوطن سيجمع السلطة والمسؤوليّة. وبوجود الوكالات المسؤولة عن حماية البلاد تحت سقف واحد، تقلّ الثغرات والتكرار. كنت أعرف أيضاً أنّ هناك سابقةً ناجحةً لإعادة هيكلة الحكومة في زمن الحرب. في فجر الحرب الباردة في سنة ١٩٤٧، قام الرئيس هاري ترومان بتعزيز الوزارات البحريّة والحربيّة في وزارة جديدة هي وزارة الدفاع. وقد ساهمت إصلاحاته بتقوية الجيش لعقودٍ عدّة لاحقة.

قرّرت أنّ إعادة التنظيم تستحقّ المخاطرة. في حزيران/يونيو ٢٠٠٢، وجّهت خطاباً للأمّة من البيت الأبيض للطلب من الكونغرس إنشاء وزارة جديدة للأمن الوطني.

على الرغم من دعم كثيرٍ من المشرّعين، واجه مشروع القانون صعوباتٍ كبيرة. فأخّر الديمقراطيّون القرار بإصرارهم على منح موظّفي الإدارة الجديدة حقوق مفاوضةٍ واسعة النطاق وغير مطبّقةٍ في أي وكالةٍ حكوميّةٍ أخرى. أصبت بالإحباط بسبب تأخير الديمقراطيّين إجراءً أمنيّاً عاجلاً لاسترضاء النقابات العماليّة.

قدّم المرشّحون الجمهوريّون القضيّة إلى الناخبين في الانتخابات النصفيّة سنة ٢٠٠٢، وانضممت إليهم. في يوم الانتخابات، حصل حزبنا على ستّة مقاعد إضافيّة في مجلس النوّاب، واثنين في مجلس الشيوخ. ذكّرني كارل روف بأنّ الرئيس الآخر الوحيد الذي حصل على مقاعد إضافيّة في مجلسَيْ النوّاب والشيوخ في أوّل انتخابات نصفيّة هو فرانكلين روزفلت.

في غضون أسابيع من الانتخابات، تمّ تمرير مشروع قانون الأمن الداخليّ. لم أكن بحاجة للبحث طويلاً لإيجاد شخص أعيّنه على رأس الوزارة الجديدة. رشّحت توم ريدج.

* * *

يوم ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، أُدخل محرّر صحيفة تحوي موضوعات مختصرة اسمه بوب ستيفنز إلى مستشفى في فلوريدا وهو يعاني من ارتفاع في درجة

الحرارة والقيء. عندما فحصه الأطبّاء، اكتشفوا أنّه استنشق بكتيريا قاتلة، هي الجمرة الخبيثة. وفارق الحياة بعد ثلاثة أيّام.

أُصيب مزيد من الموظّفين في الصحيفة بالمرض، بالإضافة إلى الأشخاص الذين فتحوا البريد في أن بي سي وآي بي سي وسي بي أس نيوز. وصلت مغلّفات ملوّثة بمسحوق أبيض إلى مكتب عضو مجلس الشيوخ توم داشل، ومرض عدّة موظّفين وعمّال بريد في الكابيتول هيل. كذلك أُصيب عامل في مستشفى مدينة نيويورك وامرأة في ولاية كونيتيكت تبلغ أربعاً وتسعين سنة. في نهاية المطاف، أُصيب سبعة عشر شخصاً ومات خمسة بشكلٍ مأساوي.

إحدى الرسائل الّتي تحتوي على الجمرة الخبيثة ورد فيها ما يلي:

٢٠٠١/١١/٩

لا يمكنكم إيقافنا

لدينا هذه الجمرة الخبيثة

ستموتون الآن

هل أنتم خائفون؟

الموت لأميركا

الموت لإسرائيل

الله أكبر

فكّرت بأمرٍ مروّع: هل كانت الموجة الثانية تتمثّل بهجومٍ بيولوجي؟

اطّلعت على العواقب المروّعة لهجوم بالأسلحة البيولوجيّة. وخلص تقييم إلى أنّ «هجوما منفّذاً بدقّة بمرض الجدري في منطقة نيويورك العاصمة يمكن أن يصيب ٦٣٠ ألف شخصٍ على الفور، وحوالي مليونين أو ثلاثة ملايين شخص قبل السيطرة

على تفشّي المرض. وتصوّر سيناريو آخر استخدام أسلحة بيولوجيّة على خطوط مترو الأنفاق في أربع مدن رئيسيّة خلال ساعة الذروة. يمكن إصابة ٢٠٠ ألف شخصٍ في البداية وصولاً إلى مليون ضحيّة عموماً. والكلفة الاقتصاديّة يمكن أن تتراوح بين ٦٠ مليار دولار إلى مئات مليارات الدولارات، حسب ملابسات الهجوم».

حين عُمّمت أخبار الجمرة الخبيثة، انتشرت حالة من الذعر في أنحاء البلاد. خاف الملايين من الأميركيّين من فتح علب البريد الخاصّة بهم، أُغلقت مراكز البريد في المكاتب، وهرعت الأمّهات إلى المستشفيات لإجراء فحوصات الجمرة الخبيثة على أطفالهم الذين كانوا يعانون من نزلات البرد. وقام مخادعون مختلّون بإرسال حزمٍ في البريد ملوّثةٍ ببودرة «التلك» أو الطحين، ممّا جعل مخاوف الناس تتفاقم.

أجرت دائرة البريد اختبارات على عيّنات من الجمرة الخبيثة في أكثر من مئتي موقع فى جميع أنحاء البلاد. أمّا البريد الوارد إلى البيت الأبيض فتمّ تعديل مساره ومعالجته بالإشعاع طوال الفترة المتبقّية من رئاستي. ونُصح الآلاف من المسؤولين في الحكومة، بمن فيهم أنا ولورا، بأخذ المضادّ الحيوي القويّ سيبرو.

كان السؤال الأكبر خلال الهجوم بالجمرة الخبيثة يتعلّق بمصدرها. قالت لنا إحدى أفضل إدارات الاستخبارات في أوروبا إنّها تشتبه بالعراق. فنظام صدّام حسين واحد من الأنظمة القليلة في العالم التي سبق أن استخدمت أسلحة الدمار الشامل، كما أنّهم اعترفوا بحيازة الجمرة الخبيثة في عام ١٩٩٥. واشتبه آخرون بتورّط تنظيم القاعدة. لكن الأمر المحبط هو أنّنا لم نمتلك أي أدلّة ملموسة، وحصلنا على دلائل جيّدة قليلة جدّا[1].

بعد شهر من ٩/١١، عقدتُ مؤتمراً صحافيّاً في البيت الأبيض بُثّ في فترات

(١) في سنة ٢٠١٠، خلصت وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدراليّ إلى أنّ الدكتور بروس إيفينز، وهو عالِم يعمل في الحكومة الأمريكيّة وقد أقدم على الانتحار سنة ٢٠٠٨، قام بالهجوم بالجمرة الخبيثة بمفرده.

الذروة. في وقت سابق من ذلك اليوم، رفعنا مستوى التحذير من الإرهاب تلازماً مع تقارير حول تحذيرٍ من مسؤولٍ كبيرٍ في طالبان بهجومٍ كبيرٍ آخر على أميركا.

قالت آن كومبتون من آي بي سي نيوز: «أنت تتحدّث عن التهديد العامّ ضدّ الأميركيّين. إلى ماذا يجب أن يتنبّه الأميركيّون؟»

كان تقرير لوكالة الاستخبارات المركزيّة حول تهديد رشّ الإرهابيّين الجمرة الخبيثة على إحدى المدن انطلاقاً من طائرة صغيرة ما زال ماثلاً في ذهني. فقلت لها: «يا آن، إذا وجدتِ شخصاً لم يسبق أن رأيتهِ من قبل يركب طائرةً لرشّ المحاصيل بالمبيدات وهي لا تخصّه، عليكِ التبليغ عن ذلك».

قوبل ردّي بالضحك، ولكن وراء النكتة كان هناك واقع يدفع إلى الجنون: اعتقدنا أنّ مزيداً من الهجمات سيحصل، ولكن لم نكن نعرف متى وأين ومَن سيقوم بها. إن تحقيق التوازن الصحيح بين تنبيه الشعب وجعله يقلق بقي تحدّياً حتّى النهاية. مع مرور الزمن، اتّهمنا بعض النقّاد بأنّنا بالغنا بوصف التهديد أو تلاعبنا بمستويات التحذير لتحقيق مكاسب سياسيّة، وكانوا ببساطة على خطأ. لقد أخذنا المعلومات الاستخباراتيّة على محمل الجدّ وبذلنا قصارى جهدنا ليبقى شعب أميركا مطّلعاً وآمناً.

* * *

قال جورج تينيت بنبرةٍ جدّيّة: «هذا أسوأ ما شهدناه منذ ٩/١١»، وأخرج النصف المتبقّي من سيجار وهو يطلعني على المعلومات الاستخباراتيّة في أواخر تشرين الأول/أكتوبر. استشهد بمصدر موثوق جدّاً يحذّر من هجوم يوم ٣٠ أو ٣١ تشرين الأول/أكتوبر أكبر من الهجوم على مركز التجارة العالميّ.

بعد إنذارات عدّة كاذبة، اعتقدنا أنّه يمكن أن يكون هذا حقيقيّاً. اتّفقت مع ديك تشيني أنّه يجب عليه الانتقال إلى مكان سرّي آمن خارج واشنطن لضمان استمراريّة الحكم. وقد أوصى جهاز الأمن السّرّي بأن أغادر أنا أيضاً. قلت لهم إنّني

باق. ربّما كان في الأمر قليل من التبجّح من قبلي، وعلى الأغلب كان إيماناً بالقضاء والقدر. شعرت بسلام داخليّ. إذا كانت إرادة الله أن أموت في البيت الأبيض، فأنا أقبل بذلك. شعرت لورا بنفس الطريقة. كنّا على ثقة بقدرة الحكومة على تجاوز الهجوم، حتّى لو لم نفعل نحن ذلك.

كان عندي سبب وجيه لمغادرة واشنطن لبضع ساعات، فقد كان فريق نيويورك يانكيز قد دعاني لافتتاح المباراة الأولى لبطولة العالم بالرمية الأولى. بعد سبعة أسابيع من ٩/١١، كان ظهور الرئيس في ملعب اليانكيز سيرسل إشارة قويّة، وكنت آمل أن تسهم زيارتي برفع معنويّات سكّان نيويورك.

سافرنا إلى نيويورك على متن طائرة، ووصلنا إلى الملعب على متن مروحيّة. ذهبت إلى قفص الضرب لترخية ذراعي، وربط عميل سرّيّ سترة مضادة للرصاص حول صدري. بعد قليلٍ من التحمية، مرّ لاعب يانكيز العظيم ديريك جيتر للتمرين على الضربات. تحدّثنا قليلاً. ثمّ سألني: «أيّها الرئيس، هل ستقوم بالرمي من التلّ أو من أمامه؟».

فطلبت رأيه. قال ديريك: «ارمِ من التلّ والاّ ستقابلك صيحات الاستهجان»، ووافقت على القيام بذلك. في طريقه للخروج، نظر خلفه وقال: «ولكن لا تقفز بها وإلاّ سيصيحون استهجاناً». بعد تسعة أشهر من بداية عهدي، تعوّدت على تقديمي إلى الحشود. ولكن لم يكن قد سبق لي أن شعرت مثلما فعلت عندما قام بوب شيبارد، وهو المذيع الأسطوريّ لفريق اليانكيز بالقول بصوتٍ عالٍ: «أهلاً وسهلاً برئيس الولايات المتّحدة». تسلّقت التل ولوّحت إشارة النصر بإصبعي، وحدّقت باللاعب الّذي سيتلقّف الطابة، تود غرين. بدا أبعد من ستّين قدماً وستّ بوصات. ارتفعت نسبة الأدرينالين في جسمي، وشعرت وكأنّ الكرة من رصاص. تحرّكتُ وجعلتها تطير.

بدت الضوضاء في الملعب مثل دويّ قويّ. U.S.A. U.S.A. U.S.A. فكّرت

مرةً أخرى بالعاملين في البرجين. صافحت تود غرين، وتصوّرت مع جو توري مدير اليانكيز وبوب برنلي مدير أريزونا دايموند باكس، ثمّ ذهبت باتّجاه المقاعد الخاصّة بالمالك جورج ستاينبرنر.كنت مثال اللاعب الذي يشعر بالارتياح. شعرت بسعادةٍ غامرةٍ لرؤية لورا وابنتنا باربارا التي عانقتني بقوّة وقالت لي: «يا أبي، لقد رميت الطابة!»

عدنا إلى واشنطن، في وقت متأخّر من تلك الليلة وانتظرنا اليوم اللاحق. مرّ يوم ٣١ تشرين الأول/أكتوبر دون وقوع هجوم.

* * *

تطلّب وضع البلاد في حالة حربٍ أكثر من مجرّد تشديد دفاعاتنا المادّيّة. كنّا بحاجة إلى أدواتٍ قانونيّةٍ وماليّةٍ واستخباراتيّة، لاكتشاف الإرهابيّين وإيقافهم قبل فوات الأوان.

وكانت إحدى الثغرات الرئيسيّة في قدرات مكافحة الإرهاب تُعرف باسم «الجدار». مع مرور الوقت، تبنّت الحكومة مجموعة من الإجراءات تمنع موظّفي الشرطة والمخابرات من تقاسم المعلومات الرئيسيّة. سألت خلال اجتماعٍ بعد الهجمات بوقتٍ قصير: «كيف يمكننا أن نطمئن مواطنينا أنّنا نقوم بحمايتهم في حين أنّ موظّفينا لا يمكنهم حتّى التحدّث إلى بعضهم البعض؟». وأضفت: «علينا معالجة المشكلة». تولّى المدّعي العامّ جون اشكروفت زمام المبادرة في كتابة اقتراح القانون. وكانت النتيجة قانون باتريوت الأميركيّ[١].

قضى مشروع القانون على «الجدار» وسمح بتقاسم المعلومات بين الشرطة والمخابرات. كما ساهم بموجز قدراتنا في مكافحة الإرهاب من خلال إعطاء المحقّقين قدرة الحصول على أدوات مثل وسائل جوّالة للتنصّت على المكالمات

(١) سمّاه الكونغرس قانون توحيد أميركا وتعزيزها من خلال توفير الأدوات الملائمة المطلوبة لاعتراض قانون الإرهاب وعرقلته.

الهاتفيّة، ممّا سمح لهم بتعقّب المشتبه فيهم، الذين يغيّرون أرقام هواتفهم المحمولة، وهي سلطة استُخدمت لفترةٍ طويلةٍ لاكتشاف تجّار المخدّرات وزعماء العصابات. كما أعطت الإذن باتّخاذ تدابير قاسية لتجميد أموال الإرهابيّين وتضمّنت رقابةً قضائيّةً وتشريعيّةً لحماية الحرّيات المدنيّة.

تسبّب أحد أحكام القانون بالقليل من الإزعاج في البلاد. فقد سمح قانون باتريوت للحكومة بالسعي للحصول على تفويضات للتدقيق في سجلات أعمال المُشتبَه بتورّطهم في الإرهاب، مثل إيصالات بطاقات الائتمان، وعقود إيجار الشقق، وسجلاّت المكتبات. بوصفها أمينة مكتبةٍ سابقة، لم تكن لورا تحبّذ فكرة تجسّس عملاء أف بي أي على المكتبات، ولم أحبّذ ذلك أيضاً. ولكنّ المجتمع الاستخباراتيّ كان لديه مخاوف جدّيّة من استخدام الإرهابيّين أجهزة كومبيوتر المكتبات لإجراء اتّصالات. فسجلاّت المكتبات أدّت دوراً في كثيرٍ من القضايا الشهيرة، مثل جرائم القاتل زودياك في ولاية كاليفورنيا. لم أكن أريد السماح لتنظيم باستخدام حرّيّة الحصول على المعلومات، التي توفّرها المكتبات الأميركيّة، ضدّناً.

اعترف المشرّعون بإلحاح التهديد وأُقرّ قانون باتريوت بنتيجة ٩٨ إلى ١ في مجلس الشيوخ و ٣٥٧ إلى ٦٦ في مجلس النوّاب، ووقّعت على المشروع ليصبح قانوناً في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. قال السناتور الديمقراطيّ باتريك ليهي من فيرمونت: «أمضينا وقتاً ندرسه، وأمضينا وقتاً نقرأه، وأمضينا وقتاً لإزالة الأقسام غير الدستوريّة، وتلك الأقسام التي من شأنها أن تنتهك حرّيّات جميع الأميركيّين». وأضاف زميله الديمقراطيّ، السيناتور تشاك شومر من نيويورك: «إذا كان هناك كلمة واحدة تصف هذا القانون، فإنّها (التوازن). في مجتمع مرحلة ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر التي نواجهها، سيكون التوازن أساسياً.... وقد ساد التوازن والتعقّل».

على مدى السنوات الخمس اللاحقة، ساعدنا قانون باتريوت في تفريق خلايا إرهابيّة مُحتمَلة في نيويورك وأوريغون وفرجينيا وفلوريدا. في أحد الأمثلة، تقاسمت الشرطة والمخابرات معلومات أدّت إلى اعتقال ستّة أميركيّين من أصل يمني في

لاكاوانّا، نيويورك، كانوا قد سافروا إلى معسكر لتدريب الإرهابيّين في أفغانستان، والتقوا أسامة بن لادن. أقرّ خمسة بذنب تقديم دعمٍ ماديّ لتنظيم القاعدة، أمّا الآخرون فاعترفوا بالتعامل غير الشرعيّ مع تنظيم القاعدة.

ادّعى بعض الأشخاص أنّ الرجال الستّة في لاكاوانا، وآخرين قاموا باعتقالهم، كانوا مجرّد «مغفّلين من بلدة صغيرة» مؤامراتهم خياليّة «وليس لديهم أي نيّة في القيام بأعمال إرهابيّة». تساءلت دائماً كيف يمكنهم أن يكونوا على يقين من ذلك. ففي آب ٢٠٠١، بدا خياليّاً قيام إرهابيّين يتلقّون الأوامر من كهوف في أفغانستان بمهاجمة مركز التجارة العالميّ والبنتاغون بواسطة طائرات مدنيّة أميركيّة. بالنسبة لي، كانت العبرة من٩/١١ بسيطة: لا تخاطر. عندما تجد الشرطة والاستخبارات أشخاصاً لهم علاقات مع شبكات إرهابيّة داخل الولايات المتّحدة، أفضّل أن أُنتقد على اعتقالهم باكراً، على الانتظار حتّى فوات الأوان.

كلّما صار الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بعيداً في الزمن، تلاشى دعم الكونغرس الساحق لقانون باتريوت. فالمدافعون عن الحرّيّات المدنيّة والمعلّقون من الحزبين قدّموا صورة مشوّهة عن القانون، معتبرين أنّه يمثّل كلّ شيء لا يحبّونه في الحرب على الإرهاب. وكانت صلاحيّة بعض الأحكام الرئيسيّة في قانون باتريوت، مثل سلطة إجراء التنصت المتنقّل، ستنتهي في سنة ٢٠٠٥، فضغطت بقوّة لتجديد التفويض. كما قلت للكونغرس، ما دام التهديد موجوداً، فإنّ القانون يجب أن يكون موجوداً.

شكا المشرّعون وتأخّروا، وعندما صوّتوا أخيراً، جدّدوا قانون باتريوت بهامش ٨٩ إلى ١٠ في مجلس الشيوخ و ٢٥١ إلى ١٧٤ في مجلس النوّاب. وفي أوائل عام ٢٠١٠، جدّد الكونغرس الديموقراطيّ الأحكام الأساسيّة لقانون باتريوت.

إن أسفي الوحيد، بشأن قانون باتريوت، يتعلّق باسمه. عندما أرسلنا مشروع القانون إلى كابيتول هيل، كان اسمه في باديء الأمر «قانون مكافحة الإرهاب

لسنة ٢٠٠١». فتذاكى الكونغرس وأعاد تسميته. فأوحى ذلك أنّ الأشخاص الذين يعارضون القانون هم غير وطنيّين، ولم يكن ذلك ما أردته. كان عليّ دفع الكونغرس إلى تغيير اسم مشروع القانون، قبل أن أوقّع عليه.

* * *

كجزءٍ من التحقيق في هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، اكتشفنا أنّ اثنين من خاطفي الطائرات اللذين تسلّلا إلى الولايات المتّحدة، وهما خالد المظهر ونوّاف الحازميّ، أجريا اتّصالات مع زعماء تنظيم القاعدة في الخارج أكثر من عشر مرّات قبل الهجوم. وكان سؤالي المباشر: لماذا لم نعترض تلك المكالمات؟ لو سمعنا ما قاله المظهر والحازميّ، لكان يمكن تفادي هجمات ٩/١١.

كانت الأجوبة عند مايك هايدن، وهو الجنرال الحاصل على ثلاث نجوم في القوّات الجويّة وكان يرأس وكالة الأمن القوميّ. إذا كان مجتمع الاستخبارات هو العقل المدبّر للأمن القوميّ، فوكالة الأمن القومي هي المادّة السنجابيّة. غصّت الوكالة بخبراء أذكياء وبارعين في المسائل التقنية وفكّ الرموز بالإضافة إلى محلّلين ولغويّين. أخبرني مايك أنّ وكالة الأمن القوميّ كان لديها القدرة على رصد المكالمات الهاتفيّة بين تنظيم القاعدة وأشخاص داخل الولايات المتّحدة قبل ١١/ ٩. ولكن لم يكن لديها السلطة القانونيّة للقيام بذلك دون تلقّي أمرٍ من المحكمة، وهي عمليّة يمكن أن تكون صعبةً وبطيئة.

وكان السببَ قانونٌ يُعرف بقانون مراقبة المخابرات الخارجيّة. صدر القانون سنة ١٩٧٨، قبل انتشار استخدام الهواتف المحمولة وشبكة الإنترنت، وحظر على وكالة الأمن القوميّ مراقبة اتّصالات أحد أطرافها موجود داخل الولايات المتّحدة بدون مذكّرة توقيف من محكمة مراقبة المخابرات الخارجيّة. على سبيل المثال، إذا اتّصل إرهابيّ في أفغانستان بإرهابيّ في باكستان، يمكن لوكالة الأمن القوميّ اعتراض حديثهما. ولكن إذا اتّصل الإرهابيّ نفسه بشخص في الولايات المتّحدة، أو أرسل

رسالة بريد الكترونيّ وصلت إلى شبكة كمبيوتر أميركيّة، فعلى وكالة الأمن الوطنيّ التقدّم بطلب للحصول على أمرٍ من المحكمة.

كان الأمر سخيفاً. لماذا ينبغي أن نقوم برقابة أكثر صرامةً على اتّصالات تنظيم القاعدة مع إرهابيّين داخل الولايات من تلك المعتمدة في اتّصالاتهم مع شركاء لهم في الخارج؟ على حدّ تعبير مايك هايدن، كنّا «محدودي القدرة بسبب عدم وجود نظام للإنذار المبكر».

بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لم يعد بوسعنا دفع ثمن ذلك التصرّف. إذا اتّصل ناشطو تنظيم القاعدة بأشخاصٍ داخل الولايات المتّحدة أو خارجها، كنّا بحاجة إلى معرفة بمن يتّصلون وماذا يقولون. ونظراً لإلحاح التهديدات، كان مستحيلاً أن نسمح لأنفسنا بالغرق في مستنقع انتظار موافقة المحكمة على العمليّة. طلبت من مكتب المستشار القانونيّ للبيت الأبيض ووزارة العدل دراسة ما إذا كان بإمكاني أن أعطي الإذن إلى وكالة الأمن القوميّ بمراقبة اتّصالات تنظيم القاعدة داخل البلاد وخارجها دون الحصول على مذكّرات، على أساس قانون مراقبة المخابرات الخارجيّة.

كان جوابهما على حدّ سواء أنّه يمكنني أن أفعل ذلك. فقد خَلُصا معاً إلى أنّ حقّ رصد تحرّكات أعدائنا وأحاديثهم في الحرب تقع ضمن السلطات التي يمنحها قانون الكونغرس للحرب والسلطة الدستوريّة لقائد القوّات المسلّحة. وكان أبراهام لنكولن قد استخدم آلات التنصّت على ماكينات التلغراف خلال الحرب الأهليّة. وأمر وودرو ويلسون باعتراض كلّ اتّصال هاتفيّ ورسالة تلغراف تأتي من داخل الولايات المتحدة أو من خارجها خلال الحرب العالميّة الأولى. أمّا فرانكلين روزفلت فسمح للقوّات المسلّحة بقراءة وفرض الرقابة على الاتّصالات خلال الحرب العالميّة الثانية.

قبل أن أوافق على برنامج مراقبة الإرهابيين TSP، أردت أن أتأكّد من وجود ضماناتٍ لمنع التجاوزات. لم يكن لديّ أيّ رغبة في تحويل وكالة الأمن القوميّ إلى

أخٍ أكبر على طريقة جورج أورويل. كنت أعرف أنّ الإخوة كنيدي تعاونوا مع ج. إدغار هوفر للاستماع إلى محادثات أشخاصٍ أبرياء بصورة غير مشروعة، بمن فيهم مارتن لوثر كينغ، وقد استمرّ ليندون جونسون في هذه الممارسة. اعتبرت ذلك فصلاً حزيناً في تاريخنا، ولم أكن أنوي تكراره.

في صباح يوم ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، جاء مايك هايدن والفريق القانونيّ إلى المكتب البيضاويّ، وأكّدوا لي أنّ برنامج مراقبة الإرهابيّين صمّم بعنايةٍ لحماية الحرّيّات المدنيّة للأشخاص الأبرياء. كان هدف البرنامج رصد ما يُعرف بالأرقام القذرة الّتي اعتقد خبراء الاستخبارات أنّها تنتمي لناشطين من القاعدة. وقد تمّ العثور على كثيرٍ منها في الهواتف المحمولة أو أجهزة الكمبيوتر العائدة إلى الإرهابيّين الّذين قُبض عليهم على أرض المعركة. إذا اعترضنا، عن غير قصدٍ، أي اتّصالات محلّيّة بحتة، تُبلَّغ وزارة العدل للتحقيق في الانتهاك، وللتأكّد من استخدام البرنامج حين يكون ذلك ضروريّاً فقط، يجب إعادة تقويمه والمصادقة عليه بشكلٍ منتظم.

أعطيت الأمر بالمضيّ قُدُماً في البرنامج، ودرسنا إمكانيّة اللجوء إلى الكونغرس للحصول على تشريع. ولكنّ أعضاء من كلا الطرفين الذين تلقّوا معلومات سرّيّة جدّاً عن البرنامج رأوا أنّ المراقبة ضروريّة وأنّ المناقشة التشريعيّة ليست ممكنة دون فضح أساليب عملنا للعدوّ.

كنت أعرف أنّ برنامج مراقبة الإرهابيين من شأنه أن يثير الجدل في أحد الأيّام، لكنّني اعتقدت أنّه ضروريّ. فالأنقاض في مركز التجارة العالميّة كان لا يزال يتصاعد منها الدخان. وكانت تصلني كلّ صباح تقارير استخباراتيّة حول هجوم مُحتمَلٍ آخر. لذلك كان رصد اتّصالات الإرهابيّين مع أشخاص داخل الولايات المتّحدة ضروريّاً لإبقاء الشعب الأميركي آمناً.

* * *

في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، حاول أحد الركّاب البريطانيّين، ويُدعى ريتشارد

ريد، تفجير طائرة أميركان إيرلاينز تقلّ ١٩٧ شخصاً، من باريس إلى ميامي، بواسطة متفجّرات في حذائه. لحسن الحظّ، لاحظ مضيف طيران تصرّفاته المشبوهة، وسيطر الركّاب عليه قبل أن يتمكّن من إشعال الفتيل. تمّ تحويل مسار الطائرة إلى بوسطن، حيث تمّ تكبيل ريد الذي قال لاحقاً إنّ هدفه كان شلّ اقتصاد الولايات المتّحدة بهجوم خلال عطلة الموسم. أقرّ بارتكاب ثمانية أفعال إرهابيّة اتّهم بها، ممّا أدى إلى الحكمً عليه بالسجن مدى الحياة في سجن تطبّق فيه الإجراءات الأمنيّة القصوى في فلورنس في ولاية كولورادو.

وكان للهجوم الذي أُحبط تأثير كبير عليّ. فبعد ثلاثة أشهر من ٩/١١، كان تذكيراً حيّاً بأنّ هذه التهديدات حقيقيّة بشكلٍ مخيف، وبدأ يُطلب من الركّاب خلع أحذيتهم عند نقاط التفتيش. أدركتُ أنّ الإجراء مزعج، ولكني شعرت بأنّه يستحقّ العناء لمنع وقوع هجوم مماثل. كنت أعرف أنه يتمّ تطبيق سياستي بالكامل عندما طُلِب من والدة لورا البالغة من العمر ٨٢ سنة خلع حذائها قبل رحلة عيد الميلاد من ميدلاند إلى واشنطن. بالتأكيد أملتُ ألاّ أكون موجوداً إذا طُلب من أمّي أن تفعل الشيء نفسه.

تلك الحادثة فوق المحيط الأطلسيّ بيّنت هوّةً واسعةً في النهج الذي اتّبعناه في الحرب على الإرهاب. عندما أُلقي القبض على ريتشارد ريد، أُودع بسرعةٍ ضمن نظام العدالة الجنائيّة في الولايات المتّحدة، الّذي يعطيه الحقّ بالحصول على الحماية الدستوريّة التي يحصل عليها أيُّ مجرم عاديّ. ولكنّ صاحب الحذاء المتفجّر لم يكن لصّاً أو سارق مصارف. كان بالأحرى جنديّاً في حرب تنظيم القاعدة ضدّ أميركا. وقد راسل والدته بواسطة البريد الإلكترونيّ قبل محاولته الهجوم بيومين، فكتب قائلاً: «ما أقوم به هو جزء من الحرب المستمرّة بين الإسلام والكفر». من خلال إعطاء هذا الإرهابيّ الحقّ في البقاء صامتاً، حرمنا أنفسنا من الفرصة لجمع معلومات مخابراتيّة حيويّة عن خطّته والمسؤولين عنه.

بيّنت قضيّة ريد حاجتنا إلى سياسة جديدة للتعامل مع الإرهابيّين الذين يُلقى

القبض عليهم. في هذا النوع الجديد من الحرب، لا يوجد مصدر أكثر قيمةً للمعلومات الاستخباراتيّة حول الهجمات المُحتمَلة من الإرهابيّين أنفسهم. وسط الدفق المستمرّ للتهديدات بعد ٩/١١، واجهت ثلاثة من أهمّ القرارات الحاسمة الّتي اتّخذتها في إطار الحرب على الإرهاب: مكان اعتقال الإرهابيّين الذين يتمّ إلقاء القبض عليهم، وكيفيّة تحديد وضعهم القانونيّ وضمان مثولهم للعدالة في نهاية المطاف، وكيفيّة الحصول على المعلومات التي يملكونها بشأن الهجمات المستقبليّة حتّى نتمكّن من حماية الشعب الأميركي.

في البداية، تمّ احتجاز معظم المحاربين في تنظيم القاعدة لاستجوابهم في سجونٍ على أرض المعركة في أفغانستان. في تشرين الثاني/نوفمبر، ذهب عملاء في وكالة المخابرات المركزيّة لاستجواب سجناء من طالبان والقاعدة مُحتجَزين في قلعة أفغانيّة بدائية من القرن التاسع عشر، قلعة جانغي. أعقب ذلك أعمال شغب. قتل جنود العدوّ، بواسطة أسلحةٍ مهرّبةٍ إلى داخل المجمّع، أحد ضبّاطنا ويدعى جوني «مايك» سبان، ممّا جعله أوّل ضحيّة أميركيّة تُقتل على أرض المعركة في هذه الحرب.

أبرزت المأساة الحاجة إلى منشأةٍ آمنةٍ لاعتقال الإرهابيّين الذين يتمّ اعتقالهم. ولم يكن أيّ من الخيارات القليلة المتوفّرة فاعلاً كما يجب أن يكون. وضعنا سجناء القاعدة على متن سفن بحريّة في بحر العرب لفترةٍ قصيرة، ولم يكن ذلك الحلّ مجدياً على المدى الطويل. وقضى الحلّ الآخر بإرسال الإرهابيّين إلى قاعدة آمنة على جزيرةٍ بعيدةٍ أو على أراضٍ تابعة للولايات المتّحدة، مثل غوام. ولكنّ سجن الإرهابيّين على الأراضي الأميركيّة يؤدّي إلى تفعيل حمايةٍ دستوريّةٍ، مثل الحقّ في التزام الصمت، ممّا يعرقل الحصول على معلومات استخباراتيّة نحتاجها بسرعة.

قرّرنا احتجاز المعتقَلين في محطّة بحريّة نائية على الحدود الجنوبيّة لكوبا، وتعرف بخليج غوانتانامو. كانت قاعدة على الأراضي الكوبيّة، ولكنّ الولايات المتّحدة تسيطر عليها بموجب عقد إيجار أبرمته بعد الحرب الإسبانيّة الأميركية.

أفادتني وزارة العدل بأنّ السجناء هناك ليس لديهم الحقّ باللجوء إلى العدالة الجنائيّة الأميركيّة. ولا يمكن الوصول إلى المنطقة المحيطة بمعتقل غوانتانامو، وهي قليلة الكثافة السكانيّة. لم تُرْق لأحد فكرة احتجاز الإرهابيين في كوبا التي يرأسها فيدل كاسترو. ولكن، على حدّ تعبير دون رامسفيلد، كانت غوانتانامو الخيار المتاح الأقلّ سوءاً.

في غوانتانامو، حصل المُعتقَلون على مأوى نظيفٍ وآمنٍ وثلاث وجباتٍ في اليوم ونسخةٍ شخصيّةٍ من القرآن الكريم وفرصةٍ للصلاة خمس مرّات يوميّاً والرعاية الطبّيّة نفسها التي حصل عليها حرّاسهم. كذلك توفّر لهم مجال لممارسة الرياضة ومكتبة مليئة بالكتب وأقراص الفيديو الرقمية. كان أحد الأفلام الأكثر شعبيّة «هاري بوتر» بالعربيّة.

على مرّ السنين، دعونا أعضاء من الكونغرس وصحفيّين ومراقبين دوليّين لزيارة غوانتانامو والاطّلاع على الأوضاع بأنفسهم، وعاد كثير منهم وهم يشعرون بالدهشة ممّا رأوا. قام مسؤول بلجيكيّ بزيارة غوانتانامو خمس مرّات ووصفه بالسجن النموذجيّ الذي يؤمّن للمعتقَلين معاملةً أفضل من السجون البلجيكيّة. وصرّح: «لم أشهد أيّ أعمال عنفٍ أو أشياء تصدم في غوانتانامو. ينبغي عدم الخلط بين هذا المركز وسجن أبو غريب».

حين كانت معاملتنا الإنسانيّة للمعتقَلين في غوانتانامو تحترم اتّفاقيّات جنيف، لم يكن تنظيم القاعدة يلبّي المواصفات المطلوبة على المستوى القانونيّ للحصول على حماية الاتفاقيات. فالغرض من اتّفاقيّات جنيف كان توفير حوافز للدول القوميّة لخوض الحروب طبقاً لمجموعة من القواعد المتّفق عليها والتي تحمي كرامة الإنسان وحياة الأبرياء، ومعاقبة المحاربين الذين لا يحترمون تلك القواعد. لكنّ الإرهابيّين لا يمثّلون دولة قوميّة، وهم لم يوقّعوا على اتّفاقيّات جنيف. فكامل نشاطهم ـ استهداف الأبرياء ـ ازدرى مبادئ جنيف. وإذا أسر تنظيم القاعدة مواطناً أميركيّاً، كان هناك احتمال ضئيل بأن يعاملوه معاملةً إنسانيّة.

تأكّد الأمر بوضوح بشع في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، عندما قام إرهابيّون في باكستان بخطف مراسلٍ صحيفة وول ستريت جورنال «دانييل بيرل». زعموا أنّه كان جاسوساً يعمل لصالح وكالة المخابرات المركزيّة، وحاولوا ابتزاز الولايات المتّحدة للمساومة من أجل إطلاق سراحه. كان لدى أميركا سياسة قديمة بعدم التفاوض مع الإرهابيّين، وأنا واصلتُ تطبيقها. كنت أعرف أنّه إذا قبلت بمطالب الإرهابيّين، فسوف يشجّع ذلك المزيد من عمليّات الخطف. وكانت قوّاتنا العسكريّة والاستخباراتيّة تبحث عن بيرل بعجلة، لكنّها لم تجده في الوقت المناسب. في لحظاته الأخيرة، قال داني بيرل: «والدي يهوديّ، والدتي يهوديّة، أنا يهوديّ». ثمّ قام خاطفوه من تنظيم القاعدة بذبحه.

في حين اتّخذتُ قراري بشأن اتّفاقيّة جنيف، قرّرتُ أيضاً إنشاء نظام قانونيّ لتحديد ذنب المعتقلين أو براءتهم. وقد واجه جورج واشنطن وأبراهام لنكولن ووليام ماكينلي وفرانكلين روزفلت معضلاتٍ مشابهةً بالنسبة لكيفيّة جلب المقاتلين الأعداء إلى العدالة في زمن الحرب. وقد توصّلوا إلى النتيجة نفسها: محكمة عسكريّة.

في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، وقّعتُ أمراً تنفيذيّاً بتأسيس محاكم عسكريّة لمحاكمة الإرهابيّين الذين يتمّ القبض عليهم. استند النظام بقوّةٍ على المحاكم العسكريّة التي أنشأها فرانكلين روزفلت في عام ١٩٤٢، والتي حاكمت وأدانت ثمانية جواسيس نازيّين تسلّلوا إلى الولايات المتّحدة. وقد أثبتت المحكمة العليا بالإجماع شرعيّة هذه المحاكم.

كنت واثقاً بقدرة المحاكم العسكريّة على توفير محاكمةٍ عادلةٍ إذ يحقّ للمحتجَزين بافتراض البراءة حتّى إثبات العكس، والتمثيل من قبل محامٍ مؤهّل، وتقديم الأدلّة التي من شأنها أن تمتلك «القيمة الثبوتيّة لشخصٍ اعتباري». لأسباب متعلّقة بالأمن القوميّ، ولم يُسمح لهم الاطلاع على المعلومات التي من شأنها كشف المصادر والوسائل الاستخباراتيّة. كانت إدانة المتّهم تتطلّب موافقة ثلثي المحكمة. ويمكن

للمعتقَل الطلب من المحكمة استئناف القرار أو الحكم أمام وزير الدفاع ورئيس الجمهوريّة.

كانت قراراتي بشأن المحاكم ـ والقرارات الكثيرة الأخرى في الحرب الجديدة ـ متجذّرة في السعي إلى إيجاد التوازن بين حماية الشعب الأميركيّ والتمسّك بالحرّيات المدنيّة. وكان الحفاظ على قيمنا ضروريّاً للمحافظة على موقعنا في العالم. لا يمكننا أن نتزعّم العالم الحرّ ولا أن نجنّد حلفاء جدداً لدينا إذا لم نمارس ما كنّا ندعو إليه. اعتقدت أنّ المحاكم العسكريّة تخلق التوازن الصحيح بين تثبيت سيادة القانون وحماية البلد.

* * *

في ٢٨ آذار/مارس ٢٠٠٢، لاحظت حماسةً في صوت جورج تينيت. ذكر أنّ الشرطة الباكستانيّة ـ بمساعدة مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزيّة ـ شنّت عمليّة هجومٍ على منازل سرّيّةٍ لتنظيم القاعدة في مدينة فيصل أباد الباكستانيّة. واعتقلت أكثر من أربعة وعشرين ناشطاً تقريباً، بمن فيهم أبو زبيدة.

كنت قد استمعت إلى تقارير عن أبي زبيدة على مدى أشهر. اعتقدت الاستخبارات أنّه زميل موثوق لبن لادن ومن كبار المجنّدين والناشطين، وكان يدير معسكراً في أفغانستان حيث تدرّب بعض خاطفي ٩/١١. اشتُبِه بتورّطه في مؤامرات سابقة لتدمير أهداف في الأردن وتفجير مطار لوس أنجلوس الدولي. واعتقدت وكالة المخابرات المركزيّة أنّه كان يخطّط لمهاجمة أميركا مرّةً أخرى. أصيب أبو زبيدة، قبل اعتقاله، بجروحٍ خطرةٍ في معركة بالأسلحة الناريّة، وقامت وكالة المخابرات المركزيّة بجلب طبيبٍ ماهرٍ أنقذ حياته، ثمّ سلّمه الباكستانيّون لنا. بدأ مكتب التحقيقات الفيدراليّ باستجواب أبي زبيدة، الذي كان واضحاً أنّه تمّ تدريبه على كيفيّة مقاومة الاستجواب، وكشف معلومات جزئيّة كان يعتقد أنّنا كنّا نعلم بها مسبقاً. الأمر المخيف هو أنّنا كنّا

نعرف القليل. على سبيل المثال، تلقّينا معلوماتٍ أكيدةً عن الاسم المستعار الجديد لخالد الشيخ محمّد، الذي أكّد أبو زبيدة أنّه خطّط لهجمات ٩/١١.

ثمّ توقّف أبو زبيدة عن الإجابة على الأسئلة. قال لي جورج تينيت إنّ المحقّقين يعتقدون أنّ لدى أبي زبيدة المزيد من المعلومات. إذا كان يخفي شيئاً أكثر من ذلك، ماذا يمكن أن يكون؟ كان عند أبي زبيدة المعلومات التي تجنّبنا هجوماً كارثيّاً آخر. أعطيت توجيهاتي للفريق: «نحن بحاجةٍ إلى معرفة ما يعرفه. ما هي خياراتنا؟»

كان أحد الخيارات أن تتولّى وكالة المخابرات المركزيّة استجواب أبي زبيدة ونقله إلى مكان سرّيّ في بلد آخر حيث يمكن للوكالة السيطرة الكاملة على محيطه. وشرع خبراء في وكالة المخابرات المركزيّة بإعداد قائمة أساليب استجواب تختلف عن تلك التي قاومها أبو زبيدة بنجاح. وأكّد لي جورج أنّ جميع عمليّات الاستجواب سيقوم بها مهنيّون ذوو خبرة خضعوا لتدريب واسع النطاق. وسوف يكون أطبّاء موجودين في الموقع لضمان عدم تعرّض المعتقل إلى أذى جسديّ أو عقليّ.

أجرت وزارة العدل ووكالة الاستخبارات المركزيّة، بتوجيهٍ مني، مراجعةً قانونيّةً دقيقةً خلصت إلى أنّ برنامج الاستجواب المتطوّر يتوافق مع الدستور وجميع القوانين المعمول بها، بما في ذلك تلك التي تحظّر التعذيب.

نظرتُ إلى قائمة التقنيّات، ووجدت أنّ اثنتين منها تجاوزتا الحدود، حتّى لو كانتا قانونيتين. أعطيتُ توجيهاتي إلى وكالة المخابرات المركزيّة بعدم استخدامهما. كان ثمة أسلوب آخر هو عمليّة محاكاة الغرق. لا شكّ أن هذا الإجراء قاسٍ، لكنّ الخبراء الطبّيّين أكّدوا لوكالة الاستخبارات المركزيّة أنّه لا يتسبّب بضررٍ مستمرّ.

علمتُ أنّ برنامج استجواب مثيراً للجدل وحسّاساً كهذا لن يبقى سرّيّاً. عندما يحصل ذلك، سنتعرّض لانتقادات بأنّ أميركا قد ساومت على قيمها الأخلاقيّة. وكنت أفضّل أن نحصل على المعلومات بطريقة أخرى، لكنّ الخيار بين الأمن

والقيم كان حقيقيّاً. لو لم أعطِ الإذن باستخدام عمليّة محاكاة الغرق على كبار قادة تنظيم القاعدة، لكان عليّ قبول احتمال أكبر بأن تُهاجم البلاد. في أعقاب ٩/١١، كانت تلك مجازفة لا أريدها. وكانت مسؤوليّتي العظمى، كرئيس، هي حماية البلاد. فوافقت على استخدام أساليب الاستجواب.

ثبتت الفاعليّة الكبيرة للتقنيات الجديدة. كشف أبو زبيدة عن قدرٍ كبيرٍ من المعلومات عن هيكليّة تنظيم القاعدة وعمليّاته. كما أنّه قدّم دلائل ساعدت في الكشف عن مكان رمزي بن الشيبة، وهو المخطّط اللوجستيّ لهجمات ٩/١١. فاعتقلته الشرطة الباكستانيّة في الذكرى الأولى لـ٩/١١.

في وقتٍ لاحقٍ أوضح أبو زبيدة للمحقّقين لماذا عاود الإجابة عن الأسئلة. كان فهمه للإسلام يقضي بمقاومة الاستجواب حتّى نقطة معينة. سمحت له عمليّة محاكاة الغرق بالوصول إلى تلك العتبة والقيام بواجبه الدينيّ والتعاون. قال: «يجب القيام بذلك من أجل جميع الأشقّاء».

في ١ آذار/مارس ٢٠٠٣، روى جورج تينيت قصّةً جاسوسيّةً تشبه روايةً لجون لو كاريه. ساعدتنا معلومات استقيناها من استجواب أبي زبيدة ورمزي بن الشيبة، بالإضافة إلى معلومات استخباراتيّة أخرى على التصويب باتّجاه قائدٍ رفيع المستوى لتنظيم القاعدة. ثمّ قادنا عميل أجنبيّ شجاع جنّدته وكالة الاستخبارات المركزيّة إلى باب مجمّع سكنيّ في باكستان. قال العميل لاحقاً: «أريد أن أخلّص أطفالي من هؤلاء المجانين الّذين يشوّهون ديننا ويقتلون الناس الأبرياء».

داهمت قوّات باكستانيّة المجمّع وحصلت على الهدف الذي كان رئيس الناشطين في تنظيم القاعدة وقاتل داني بيرل والعقل المدبّر لهجمات ٩/١١ : خالد الشيخ محمّد.

شعرت بالارتياح لإبعاد أحد كبار القادة في تنظيم القاعدة عن أرض المعركة. لكنّ شعوري لم يدم طويلاً. فالعملاء الذين فتّشوا مجمّع خالد الشيخ محمّد اكتشفوا

ما وصفه مسؤول في وقتٍ لاحقٍ بـ«كمّيّة هائلة» من المعلومات الاستخباراتيّة القيّمة. كان واضحاً أنّ خالد الشيخ محمّد يخطّط لمزيدٍ من الهجمات. ولم يبدُ أنّه كان على استعداد ليقدّم لنا أي معلومات عنها. قال: «سأتحدّث إليكم لاحقاً، بعد أن أصل إلى نيويورك وأتكلّم مع المحامي».

سألني جورج تينيت إذا كنت سأعطيه الإذن لاستخدام تقنيّات الاستجواب المتطوّرة، بما في ذلك الإيهام بالغرق، على خالد الشيخ محمد. فكّرت في لقائي بأرملة داني بيرل التي كانت حاملاً بابنه عندما تمّ قتله. فكّرت في الـ٢٩٧٣ شخصاً الّذين سُلبوا من أسرهم من قبل تنظيم القاعدة يوم ٩/١١، وفكّرت في واجبي بحماية البلاد من عملٍ إرهابيّ آخر.

فأجبت: «بالتأكيد».

أثبت خالد الشيخ محمّد أنّه لا ينكسر بسهولة. لكن عندما فعل، قدّم لنا كثيراً من المعلومات. كشف خططاً لمهاجمة أهدافٍ أميركيّةٍ بالجمرة الخبيثة، ودلّنا على ثلاثة أشخاص متورّطين في برنامج تنظيم القاعدة للأسلحة البيولوجيّة. وقدّم معلومات أدّت إلى اعتقال حنبلي، رئيس أخطر فرع لتنظيم القاعدة في جنوب شرق آسيا ومهندس الهجوم الإرهابيّ في بالي الذي أُودى بحياة ٢٠٢ شخص. وزوّدنا بمزيدٍ من التفاصيل التي قادت العملاء إلى شقيق حنبلي، الذي كان يمرّن ناشطين لتنفيذ هجومٍ آخر داخل الولايات المتّحدة، ربّما نسخة عن٠٩/١١ على الساحل الغربيّ، بحيثٌ يقوم إرهابيّون بخطف طائرةٍ يصدمون بها برج المكتبة في لوس أنجليس.

بعد سنوات، نشرت صحيفة واشنطن بوست قصّة على صفحتها الأُولى عن تحوّل خالد الشيخ محمّد. تحت عنوان «كيف صار المُعتقَل مورداً؟»، وصف المقال كيف بدا أنّ محمد استمتع بفرصة مناقشة ما يدور داخل تنظيم القاعدة وخطط الجماعة وإيديولوجيّتها وناشطيها، أحياناً لساعات متواصلة.. واستخدم السّبورة في بعض الأحيان». وكان من المؤكّد تقريباً أنّ المعلومات الاستخباراتيّة التي قدّمها، والتي

ثبت أنّها حيويّة لإنقاذ حياة الأميركيّين، ما كانت لتظهر لولا برنامج الاستجواب المتطوّر لوكالة المخابرات المركزيّة.

من بين الآلاف من الإرهابيّين المقبوض عليهم في السنوات التي تلت ٩/١١، وُضع حوالي مئة في برنامج وكالة المخابرات المركزيّة. واستُجوب حوالى ثلثهم بواسطة التقنيّات المتطوّرة. تعرّض ثلاثة منهم للإيهام بالإغراق، وشكّلت المعلومات الّتي كشف عنها المعتقلون ضمن برنامج وكالة المخابرات المركزيّة أكثر من نصف ما عرفته وكالة الاستخبارات المركزيّة عن تنظيم القاعدة. وساعدت عمليّات الاستجواب في شلّ مؤامرات لمهاجمة العسكريّين الأميركيّين والمراكز الدبلوماسيّة في الخارج، ومطار هيثرو وكناري وارف في لندن، وأهدافٍ متعدّدةٍ في الولايات المتّحدة. أخبرني خبراء في الاستخبارات أنّه لولا برنامج وكالة المخابرات المركزيّة، لحصل هجوم آخر على الولايات المتّحدة.

بعد أن قمنا بتنفيذ برنامج وكالة المخابرات المركزيّة، أطلعنا عدداً صغيراً من المشرّعين من كلا الحزبين عليه. في ذلك الوقت، كان بعض المعنيّين قلقاً من أنّنا لا نضغط بما فيه الكفاية. ولكن في السنوات اللاحقة، حين بدا التهديد أقلّ إلحاحاً والرياح السياسيّة بدأت تتحوّل، انبرى كثير من المشرّعين لانتقاد البرنامج. اتّهموا الأميركيّين بارتكاب أعمال تعذيبٍ غير مشروعة، ولم يكن الأمر صحيحاً. كنتُ قد طلبتُ من كبار القانونيّين في حكومة الولايات المتّحدة إعادة النظر في أساليب الاستجواب، فأكّدوا لي أنّها لا تشكّل تعذيباً. التلميح إلى أنّ عمّال الاستخبارات انتهكوا القانون من خلال اتّباع الإرشادات القانونيّة الّتي تلقّوها هو إهانة وخطأ.

أدّى برنامج الاستجواب لوكالة المخابرات المركزية إلى إنقاذ الأرواح. ولو أنّنا ألقينا القبض على ناشطين آخرين من تنظيم القاعدة، قادرين على تزويدنا بمعلومات استخباراتيّة ذات دلالة، كنت سأستخدم البرنامج معهم أيضاً.

* * *

في صباح يوم ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٤، استقبلني ديك تشيني وآندي كارد بخبر مذهل: ستنتهي صلاحيّة برنامج مراقبة الإرهابيّين في نهاية اليوم.

سألت: «كيف يمكن أن تنتهي؟ البرنامج ضروريّ لحماية البلاد». كانت قد مرّت سنتان ونصف السنة منذ أن أذنت بتطبيق البرنامج في أكتوبر ٢٠٠١. خلال تلك الفترة، استخدمت وكالة الأمن القومي البرنامج للكشف عن تفاصيل رئيسيّة متعلّقة بمؤامرات إرهابيّة ومواقعها. وقد صرّح مدير وكالة الأمن القوميّ مايك هايدن علناً في وقتٍ لاحقٍ بأنّ البرنامج «نجح في كشف، ومنع هجمات داخل الولايات المتّحدة».. وكان بإمكاننا الكشف عن البعض من منفّذي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر من ناشطين تنظيم القاعدة في الولايات المتّحدة» لو استُخدم البرنامج قبل الهجمات.

أوضح لي آندي الوضع. في حين كان جون أشكروفت قد أوصى باستمرارٍ بتجديد البرنامج منذ سنة ٢٠٠١، كان عند وزارة العدل اعتراض قانونيّ على عنصرٍ واحدٍ منه.

سألت: «لماذا لم أعرف بالأمر؟» كان آندي مصدوماً مثلي. قال لي إنّه قد علم بالاعتراض في الليلة السابقة. لا بدّ أنّ الفريق القانونيّ قد ظنّ أنّه يمكن تسوية الخلاف دون تدخّل رئاسيّ. طلبت من آندي العمل مع أشكروفت ومستشار البيت الأبيض القانونّي ألبرتو غونزاليس على حلّ المشكلة. في غضون ذلك، كان عليّ السفر إلى كليفلاند لإلقاء خطابٍ حول السياسة التجاريّة.

تحدّثت مع آندي عندما عدت. تمّ إحراز تقدّم ضئيلٍ جدّاً، إذ كانت وزارة العدل متمسّكة باعتراضها، ولم يتزحزح محامو البيت الأبيض عن موقفهم لأنهم كانوا مقتنعين أنّ البرنامج قانونيّ.

سألت: «أين هو أشكروفت بحقّ الجحيم؟».

فردّ آندي: «إنّه في المستشفى».

لم أكن أعرف ذلك. اتّصلت بجون، الذي اكتشفتُ أنّه قد تعافى من جراحةٍ طارئةٍ للمرارة. قلت له إنّني سأرسل آندي وآل للتحدّث معه حول مسألةٍ عاجلة. فذهبا إلى المستشفى حاملين التفويض على البرنامج عند عودتهم، قالوا لي إنّ أشكروفت لم يوقّع. كانت الطريقة الوحيدة للسماح بمواصلة البرنامج هي تجاوز اعتراض وزارة العدل. لم تُرقْ لي الفكرة، ولكنّني لم أرَ بديلاً آخر. وقّعتُ على أمر الحفاظ على الـ TSP بناءً على السلطات المخوّلة لي بصفتي رئيس السلطة التنفيذيّة.

أويت إلى الفراش غاضباً وكنت أشعر بأنّني لا أعرف القصّة الكاملة، وكنت أريد الحصول عليها.

* * *

قال لي آندي عندما وصلت إلى المكتب البيضاويّ صباح ١٢ آذار/مارس: «سيّدي الرئيس، نحن نواجه مشكلةً كبرى. جيم كومي هو النائب العامّ بالوكالة، وسيستقيل لأنّك مدّدت برنامج مكافحة الإرهابيين، وكذلك سيفعل عدد من المسؤولين في وزارة العدل».

فذهلت لأن أحداً لم يخبرني أنّ كومي، وهو نائب جون أشكروفت، قد تولّى مسؤوليّات أشكروفت عندما خضع الأخير للجراحة. ولو عرفتُ ذلك، لما أرسلت آندي وآل إلى غرفة جون في المستشفى.

طلبت التحدّث إلى كومي على انفراد بعد الموجز الصباحيّ لمكتب التحقيقات الفدراليّ، والذي حضره عوضاً عن جون أشكروفت. لم أمضِ الكثير من الوقت مع جيم، لكنّني كنت أعرف أنّ له سجلاً مميّزاً كمدّعٍ في نيويورك. أوضحت أوّلاً أنّه عليّ واجب القيام بما يلزم لحماية البلاد. وقد شعرت بأنّ البرنامج ضروريّ لتحقيق الأمر. فأوضح مخاوفه عن الجانب الإشكاليّ للبرنامج. فقلت له: «لا أفهم لماذا تثير هذه المسألة في اللحظة الأخيرة».

بدا مصدوماً، وقال: «سيّدي الرئيس، الموظّفون عندك على علمٍ بالأمر منذ

أسابيع عدّة»، ثمّ رمى قنبلةً أخرى. لم يكن الشخص الوحيد الذي يعتزم الاستقالة، فمولر مدير مكتب التحقيقات الفدراليّ كان سيفعل ذلك أيضاً. كنت على وشك أن أشهد أكبر استقالةٍ جماعيّةٍ في التاريخ الحديث للرئاسة، وكنّا في منتصف الحرب.

طلبتُ من بوب أن يأتي إلى المكتب البيضاويّ. صرت أعرفه جيّداً على مدى السنتين ونصف السنة الماضية. كان رجلاً كريماً، ونجم هوكي سابقاً في برنستون، وكان قد خدم في قوّات المارينز وترأّس مكتب المدّعي العامّ للولايات المتّحدة في سان فرانسيسكو. بدون تردّد، قال إنّه متّفق مع كومي. وقال لي إنّني لو استمرّيت في البرنامج على الرغم من اعتراض وزارة العدل، فإنه سيغادر إدارتي.

اضطررتُ إلى اتّخاذ قرارٍ كبيرٍ وسريع. اعتقد البعض في البيت الأبيض أنّه ينبغي عليّ أن أتمسّك بسلطاتي بموجب المادّة الثانية من الدستور وأتحمّل الانسحابات. ونصحني آخرون بأن أقبل اعتراضات وزارة العدل، وأعدّل البرنامج، وأحافظ على سلامة الإدارة.

كنتُ على استعداد للدفاع عن صلاحيّات الرئاسة بموجب المادّة الثانية. ولكن ليس بأيّ ثمن. فكّرت في ليلة السبت «المجزرة» في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٧٣، حين أدّى طرد الرئيس ريتشارد نيكسون للمدّعي في قضيّة ووترغيت أرشيبالد كوكس إلى استقالة المدّعي العام ونائب المدّعي العامّ، وكنت حريصاً على عدم تكرار تلك الأزمة التاريخيّة. لم أكن سأرضى بأن يعرف أنّني على حقّ بشأن المبادئ القانونيّة في حين تنفجر إدارتي وتتعرّض برامجنا الرئيسيّة في الحرب على الإرهاب إلى هجومٍ عنيفٍ حتميّ في وسائل الإعلام.

قرّرتُ أن أستوعب قلق وزارة العدل عن طريق تعديل الجزء من البرنامج الذي وجدوه مُشْكِلاً، وأن أبقي على البرنامج. تخلّى كومي ومولر عن تهديداتهما بالاستقالة. واستمرّ برنامج المراقبة بتحقيق نتائج، وهذا أهمّ شيء.

شعرتُ بالارتياح عند انتهاء الأزمة، ولكنّني انزعجتُ بسبب حصولها أصلاً. وأوضحت لمستشاريّ أنّني لا أريد أن أُفاجأ بتلك الطريقة مرّةً أخرى. لم أشتبه بوجود

نوايا سيّئة عند أيّ شخص، فأحد أصعب التساؤلات التي يواجهها البيت الأبيض خلال أيّ عهد يتعلّق بكيفية إدارة وقت الرئيس ومتى يجب جلب الخلافات السياسيّة إلى مكتبه. كان الخلاف على برنامج المراقبة مثالاً على الحكم السيّئ. ولم تنقص الخلافات في السنوات التالية، ولكن لم يحدث شيء مماثل مرّةً أخرى.

* * *

كان أحد كتبي المفضّلة هو سيرة الرئيس هاري ترومان بقلم المؤرّخ المميّز دايفيد مكولوغ. أعجبتني صلابة ترومان ومبادئه ورؤيته الاستراتيجيّة. عندما تولّى الحكم فجأةً في الأشهر الأخيرة من الحرب العالميّة الثانية، قال: «شعرت كأنّ القمر والنجوم، وجميع الكواكب سقطت عليّ». لكنّ ذلك الرجُل من ولاية ميسوري عرف كيفيّة اتّخاذ قرار صعب والتمسّك به. قام بما اعتقد أنّه صحيح ولم يهتمّ كثيراً بما قاله النقّاد. عندما غادر الرئاسة سنة ١٩٥٣، كانت شعبيّته حوالى عشرين في المئة. أمّا اليوم فيُعتبر أحد رؤساء أميركا العظماء.

بعد أن صارت كوندي وزيرةً للخارجيّة، أهدتني سيرة وزير الخارجيّة في عهد ترومان، دين أتشيسون. ذكّرني الكتابان كيف وضعت قرارات ترومان في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات حجر الأساس لتحقيق النصر في الحرب الباردة وساعدت على تشكيل العالَم. أنشا ترومان حلف الناتو، ووقّع سنة ١٩٤٧ على قانون الأمن القوميّ الذي أسّس وكالة الاستخبارات المركزيّة ومجلس الأمن القوميّ ووزارة الدفاع؛ كما خاض حرباً لم تحظَ بالتأييد أبرزت كوريا الجنوبيّة كحليفٍ ديمقراطيّ، وتعهّد بتقديم مساعدة لجميع البلدان التي تقاوم سيطرة الشيوعيّة، وقد عُرِف ذلك بعقيدة ترومان.

كما كانت الحال في عهد ترومان، كنّا في السنوات الأولى من كفاح طويل. أنشأنا مجموعةً متنوّعةً من الأدوات للتعامل مع التهديدات. وجعلتُ إحدى أهمّ أولويّات ولايتي الثانية تحويل هذه الأدوات إلى مؤسّسات وقوانين لتكون في متناول خلفائي.

كنّا بدأنا بطريقةٍ جيّدةٍ في بعض المجالات. على الرغم من كونها عرضة أحياناً لمشاكل بيروقراطيّة، فإنّ دائرة الأمن القوميّ كانت أفضل من اثنتين وعشرين وكالةً غير منسّقة. وأنشأ مكتب التحقيقات الفدراليّ فرعاً جديداً لجهاز الأمن القوميّ يركّز على منع الهجمات الإرهابيّة. وأسّست وزارة الدفاع القيادة الشمالية الجديدة لتتحمّل مسؤوليّة الدفاع عن الوطن. أمّا وزارة الخزينة فاعتمدت نهجاً قويّاً جديداً لتعطيل تمويل الإرهاب. كنّا قد جنّدنا أكثر من تسعين بلداً في مبادرة تهدف إلى تهريب الموادّ ذات الصلة بأسلحة الدمار الشامل. وبناء على توصية من لجنة ٩/١١ بشكل جزئيّ، تمكّنّا من إيجاد مركزٍ وطنيّ جديدٍ لمكافحة الإرهاب، وعيّنّا مديراً للاستخبارات الوطنيّة، وهو أكبر إصلاح لأجهزة الاستخبارات منذ أنشأ ترومان وكالة الاستخبارات المركزيّة.

في مجالات أخرى، كان علينا أن نقوم بجهدٍ أكبر. البعض من أهمّ أدواتنا في الحرب على الإرهاب، بما في ذلك برنامج مكافحة الإرهابيين TSP وبرنامج وكالة المخابرات المركزيّة للاستجواب، استندت إلى السلطة الواسعة التي تمنحها المادّة الثانية وقرار الحرب الصادر عن الكونغرس. وكانت أفضل طريقة لضمان استمرارها بعد أن أغادر منصبي هي العمل مع الكونغرس لتصير تلك البرامج قوانين. كما عبّر القاضي روبرت جاكسون في رأي مهمّ سنة ١٩٥٢، يملك الرئيس أوسع سلطةٍ عندما يعمل بدعمٍ واضحٍ من الكونغرس.

وكان التحدّي كيفيّة تقديم برنامج TSP وبرنامج وكالة المخابرات المركزيّة للاستجواب إلى الكونغرس دون الكشف عن التفاصيل للعدوّ. اعتقدت أنّ الأمر ممكن، ولكن كان سيتعيّن علينا أن نعمل عن كثبٍ مع أعضاء الكونغرس لهيكلة المناقشة بطريقة لا تكشف عن أسرارٍ خطيرة. كنّا بصدد وضع استراتيجيّةٍ للقيام بذلك. ثمّ أجبرنا حدثان على التحرّك بطريقةٍ لم نكن نرغب فيها.

* * *

قال لي ستيف هادلي في كانون الأول/ديسمبر سنة ٢٠٠٥: «النيويورك تايمز مهتمّة بمسألة المراقبة مجدّداً». في السنة السابقة، درست التايمز إمكانيّة نشر قصّة تفضح برنامج مكافحة الإرهابيين. أقنعت كوندي ومايك هايدن الصحيفة بعدم الكشف عن العناصر الرئيسيّة للبرنامج.

طلبتُ من ناشر الصحيفة آرثر سولزبيرغر جونيور ومحرّرها بيل كيلر المجيء لمقابلتي يوم ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥. كان طلباً نادراً، وأنا قدّرت استعدادهما للتّحدّث وجهاً لوجه. وصلا حوالي الساعة ١٧:٠٠. وقمت أنا وستيف هادلي وآندي كارد ومايك هايدن باستقبالهما في المكتب البيضاويّ. وجلسنا قرب موقد التدفئة تحت صورة لجورج واشنطن. قلت لهما إنّ الأمة لا تزال في خطر، وإنّ صحيفتهما على وشك زيادة هذا الخطر من خلال الكشف عن برنامج مكافحة الإرهابيين بطريقة يمكن أن تنبّه أعداءنا. ثمّ أذنت للجنرال هايدن أن يطلعهما على البرنامج.

مايك شخص يهدّئ الآخرين، وليس رجلاً مفتول العضلات يحاول تخويف الناس بواسطة النجوم المعلّقة على كتفيه. تحدّث عن مهنته الطويلة في الاستخبارات والشكّ الطبيعيّ الذي يساوره بشأن أيّ برنامج يمكن أن يؤدّي إلى جمع المعلومات عن المواطنين الأميركيّين، وأوجز الضمانات الموجودة والدراسات القانونيّة ونتائج البرنامج.

استمرّ الموجز الذي قدّمه مايك حوالي ثلاثين دقيقة. نظرت إلى رجُلَي التايمز عن كثب، فكان وجهاهما كالحجر. قلت لهما إنّ باستطاعتهما أن يطرحا على مايك أيّ سؤال، ولم يكن عندهما أسئلة كثيرة. نظرت مباشرة إلى سولزبيرغر وحثثته بقوّة على حجب القصّة لأسبابٍ تتعلّق بالأمن القوميّ، فقال إنّه سيدرس طلبي.

بعد عشرة أيام، اتّصل بيل كيلر بستيف ليقول إنّ التايمز ستنشر القصّة. لم يكن لدينا فرصة لتقديم حجّة ختاميّة. فقد نشروا القصّة على موقعهم على الإنترنت قبل اتّصال كيلر.

شعرت بخيبة أملٍ في الصحيفة والغضب على من خانوا بلدهم بتسريب القصة. أجرت وزارة العدل تحقيقاً جنائيّاً في الكشف عن معلومات سرّيّة، وحتّى صيف سنة ٢٠١٠، لم تجرِ محاكمة أحد.

ردّ اليسار بهستيريا. عصف عضو في مجلس الشيوخ: «إنّه الرئيس جورج بوش، وليس الملك جورج بوش». وقال آخر: «إنّ إدارة بوش تعتقد أنّها فوق القانون». كانت إحدى النتائج الفوريّة للتسريب عرقلة تجديد قانون باتريوت، الذي كان من المقرّر أن يجدّد التفويض به من قِبَل الكونغرس. وتبجّح زعيم الأقليّة في مجلس الشيوخ هاري ريد، الذي كان قد صوّت لصالح القانون سنة ٢٠٠١، في اجتماع سياسيّ حاشد، قائلاً: «لقد قتلنا قانون باتريوت».

في النهاية تمّ تجديد قانون باتريوت، ولكنّ التسريب خلق مشكلةً أكبر. واجهت شركات الاتّصالات السلكيّة واللاسلكيّة الّتي اشتُبِه في تقديمها المساعدة للحكومة في تشغيل برنامج مكافحة الإرهابيين، كمّاً هائلاً من الدعاوى القضائيّة. لم يكن الأمر عادلاً، فالشركات الّتي وافقت على القيام بواجبها الوطنيّ لمساعدة الحكومة على إبقاء أميركا آمنة تستحقّ التقدير لا المقاضاة. الشيء المؤكّد هو أنّ الأمل في التعاون في المستقبل مع شركات الاتّصالات تبخّر ما دمنا غير قادرين على توفير الحصانة القانونيّة.

في أوائل سنة ٢٠٠٦، بدأتُ في التواصل مع كبار المشرّعين بشأن مشروع قانونٍ لموجز قانون مراقبة المخابرات الأجنبيّة. شرّعت القوانين الجديدة للمراقبة حسب برنامج مكافحة الإرهابين، وكذلك حمت شركات الاتّصالات من المسؤوليّة القانونيّة.

استمرّ النقاش المتقطّع لمدّة عامين. لحسن الحظّ، كان عندي محاميان مقنعان: مدير الاستخبارات الوطنيّة مايك ماكونيل، وهو أميرال سابق في البحريّة صافي الذهن، والنائب العامّ مايك موكاسي وهو قاضٍ فدراليّ صلب من نيويورك. أمضيا ساعاتٍ

في الكابيتول هيل موضحين الحاجة إلى سدّ الثغرات في قدراتنا االاستخباراتيّة والضمانات التي أوجدناها لمنع التجاوزات.

أخيراً، صوّت أعضاء كلّ من مجلسَي النوّاب والشيوخ في صيف سنة ٢٠٠٨. فأقرّ مجلس النوّاب القانون بنتيجة ٢٩٣-١٢٩. وفي مجلس الشيوخ، صوّت ٦٩ عضواً لصالح القانون. أنهى القانون الجدل حول شرعيّة أنشطة المراقبة التي نقوم بها، وبذلك أظهر الكونغرس تأييد الحزبين لقانون وفّر مرونةً أكثر ممّا وفّره برنامج مراقبة الإرهابيين.

* * *

الحدث الثاني الّذي أجبرنا على التحرّك بطريقةٍ لم نكن نرغب فيها حصل في حزيران/يونيو سنة ٢٠٠٦، عندما حكمت المحكمة العليا في قضيّة حمدان ضدّ رامسفيلد.

جاء القرار تتويجاً لأكثر من أربع سنوات من المنازعات بشأن المحاكم العسكريّة الّتي فوّضتها في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. أمضت وزارة الدفاع سنتين ونصف السنة لإيضاح الإجراءات وبدء أوّل محاكمة. لا شك أنّها مسألة قانونيّة ولوجستيّة معقّدة. ولكنّني لمست انعدام الحماس بالنسبة للمشروع. بوجود كلّ الضغوط في أفغانستان والعراق، لم يبدُ أنّ المحاكم كانت على رأس الأولويّات.

تحرّك محامو الدفاع عن المعتقلين بسرعةٍ أكبر. في عام ٢٠٠٤، اعترض على نزاهة المحكمة المحامي الذي عيّنته البحريّة لسليم حمدان، وهو سائق أسامة بن لادن وكان قد اعتُقل في أفغانستان. أيّدت محكمة الاستئناف صلاحيّة المحاكم بوصفها نظاماً للعدالة في وقت الحرب. ولكن في حزيران/يونيو سنة ٢٠٠٦، نقضت المحكمة هذا الحكم. قرّرت المحكمة أنّه على عكس فرانكلين روزفلت وأسلافي الآخرين، كنت بحاجةٍ إلى إذنٍ صريحٍ من الكونغرس لإنشاء هذه المحاكم.

أثّر الحكم أيضاً في برنامج وكالة المخابرات المركزيّة للاستجواب. بسلطة

الأغلبيّة الّتي يملكها، قرّر القاضي جون بول ستيفنز أنّ جزءاً من اتّفاقيّة جنيف، المعروف باسم المادّة الثالثة المشتركة ـ وهي تتعلّق خصّيصاً «بالنـزاعات المسلّحة ذات الطابع غير الدوليّ» على نحو ما يطبّق على حرب أميركا مع تنظيم القاعدة ـ «الاعتداء على الكرامة الشخصيّة»، وهي عبارة غامضة يمكن أن تفسّر على أنّها تعني أيّ شيء. نتيجة لذلك، شعر محامو وكالة المخابرات المركزيّة بالقلق من إمكانيّة مواجهة موظّفي الاستخبارات الذين يقومون باستجواب الإرهابيّين أخطاراً قانونيّة. فأبلغتني وكالة المخابرات المركزيّة أن موظّفيها اضطرّوا إلى تعليق برنامج الاستجواب الّذي وفّر الكثير من المعلومات التي أنقذت حياة الناس.

كان رأيي مختلفاً بشدّة عن قرار المحكمة، الذي اعتبرته مثالاً على تصرّف القضاء الناشط. ولكنّني قبلت دور المحكمة العليا في ديمقراطيّتنا الدستوريّة. لم أكن أنوي تكرار مثال الرئيس أندرو جاكسون، الّذي قال: «اتّخذ جون مارشال قراره، دعوه الآن يفرضه!» إن قبل الرؤساء بذلك أم لا، فإنّ قرارات المحكمة نهائيّة.

تماماً كتسريب برنامج مكافحة الإرهابيين، أوضح قرار المحكمة العليا أنّ وقت السعي لإصدار قانونٍ لنظام المحاكم العسكريّة ولبرنامج وكالة المخابرات المركزيّة للاستجواب قد حل. عرضت هذه القضيّة على الشعب من خلال سلسلة من الخطب والبيانات، كان أكثرها دراماتيكيّة حديثي في القاعة الشرقيّة من البيت الأبيض في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦. كوسيلةٍ لتسليط الضوء على أهمّيّة تمرير مشروع القانون، أعلنت بأنّنا سننقل خالد الشيخ محمّد وآخرين من كبار معتقلي القاعدة من مراكز الاعتقال التابعة لوكالة المخابرات المركزيّة إلى غوانتانامو، حيث سيُحاكمون أمام المحاكم الجديدة الّتي سينشئها الكونغرس.

أعلن أحد أعضاء الكونغرس: «إنّ مشروع القانون يجعل الرئيس دكتاتوراً». وقارن مشرّعون آخرون سلوك قوّاتنا العسكريّة وموظّفي وكالة المخابرات المركزيّة بتصرّفات طالبان وصدّام حسين.

كنت واثقاً من أنّ حكم الشعب الأميركيّ أفضل. فهم معظم الأميركيّين ضرورة امتلاك خبراء الاستخبارات أدواتٍ للحصول على معلوماتٍ من الإرهابيّين الّذين يخطّطون لهجمات على بلادنا. كما أنّهم لم يكونوا يريدون سوْق معتقلي غوانتانامو إلى الولايات المتّحدة ومحاكمتهم أمام محاكم مدنيّة تعطيهم الحقوق الدستوريّة نفسها المعطاة للمجرمين العاديّين.

في غضون شهر من خطابي في القاعة الشرقيّة، أقرّ الكونغرس قانون اللجان العسكريّة لسنة ٢٠٠٦ بأغلبيّة مريحة من الحزبين. ورد فيه كلّ شيء طلبناه، بما في ذلك تفويض بإعادة إنشاء المحاكم، وللرئيس باستخدام تقنيّات الاستجواب المتطوّرة، إذا قرّر القيام بذلك.

* * *

ممّا استمعت إلى التقرير الأخير من وكالة الاستخبارات المركزيّة في الصباح الذي سبق تنصيب الرئيس أوباما، فكّرت في كلّ ما حدث منذ ٩/١١: التنبيهات من الأخطار، والإنذارات الكاذبة، وتوكسين البوتولينوم الذي ظننا أنّه سيقتلنا، والمؤامرات التي عطّلناها. مرّت سنوات ولكنّ التهديد ما زال موجوداً. هاجم الإرهابيّون بالي وجاكرتا والرياض واسطنبول ومدريد ولندن وعمّان ومومباي. تقارير الاستخبارات الّتي أتلقّاها في الصباح أوضحت أنّ الإرهابيّين عقدوا العزم على مهاجمة أميركا مجدّداً.

بعد صدمة ٩/١١، لم يعد هناك خطّة قانونيّة أو عسكريّة أو سياسيّة لمواجهة العدوّ الجديد الذي رفض جميع القواعد التقليديّة للحرب. عندما انتهت ولايتي، كنّا قد أسّسنا جهازاً من البرامج الفعّالة في مكافحة الإرهاب تستند على أساسٍ قانونيّ وتشريعيّ متين.

من المؤكّد أنّ هناك أشياء وددت لو حصلَت بطريقة مختلفة. أنا أشعر بالإحباط لأنّ المحاكم العسكريّة تحرّكت ببطء شديد. حتّى بعد إقرار قانون اللجان العسكريّة،

أدّت دعوى قضائيّة أخرى إلى تأجيل العمليّة مرّة أخرى. حين غادرت منصبي، كانت قد جرت محاكمتان فقط.

إن صعوبة إجراء المحاكمات جعلت تحقيق هدفٍ كنت قد وضعته في وقت مبكر من فترة ولايتي الثانية صعباً: إغلاق سجن غوانتانامو بطريقة مسؤولة. كنت أعتقد أنّ إنشاء غوانتانامو بعد ٩/١١ كان أمراً ضرورياً، لكن المعتقَل أصبح أداة دعايةٍ لأعدائنا وملهاةً لحلفائنا. جهدت لإيجاد وسيلة لإغلاق السجن دون تعريض الأمن للخطر. عندما انتهت ولايتي، كان عدد المعتقلين في غوانتانامو قد انخفض من ٨٠٠ إلى أقلّ من ٢٥٠، وأملي هو أنْ يُحاكم الباقون على جرائمهم. قد يكون من الصعب جدّاً محاكمة بعض الإرهابيّين القاسين والخطرين في غوانتانامو. كنت أعرف أنّني إذا أفرجت عن قاتلي أميركيّين، فإنّ يديّ ستتلطّخان بتلك الدماء. إن البتّ في كيفيّة التعامل مع هؤلاء الإرهابيّين هو أصعب جزء من عمليّة إغلاق سجن غوانتانامو.

بالعودة إلى الماضي، أرى أنّه ربّما كان بإمكاني تجنّب بعض الجدل والانتكاسات القانونيّة لو سعيتُ إلى تشريعاتٍ بخصوص المحاكم العسكريّة وبرنامج مكافحة الإرهابيين وبرنامج الاستجواب المتطوّر لوكالة الاستخبارات المركزيّة عند إنشائها. لو كان أعضاء الكونغرس مُلزَمين باتّخاذ القرار في الوقت نفسه الذي اتّخذته بعد ٩/١١ فوراً، فأنا متأكّد من أنّهم كانوا سيوافقون بأغلبيّةٍ ساحقةٍ على كلّ ما طلبت. أما في ما يتعلق ببرنامج مكافحة الإرهابيين وبرنامج وكالة المخابرات المركزيّة للاستجواب، فلم يكن بإمكاني المخاطرة بكشف التفاصيل التنفيذيّة للعدوّ قبل تحسّن سيطرتنا على الوضع الأمنيّ.

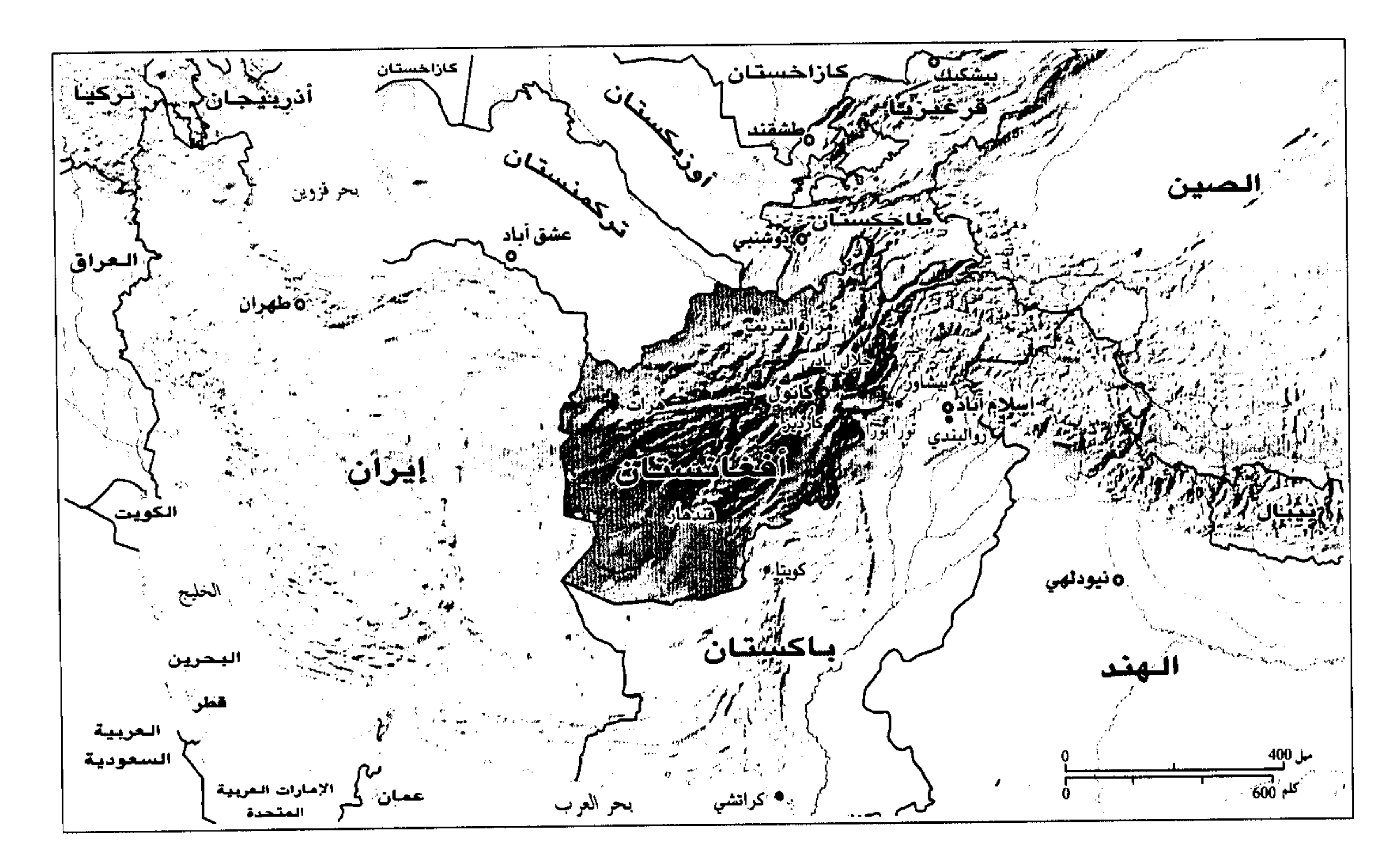
اضطربتُ بسبب ردّ الفعل السلبيّ ضدّ جماعة الاستخبارات ووزارة العدل لدورهم في برامج المراقبة والاستجواب. قام ضبّاط مخابراتنا بتنفيذ الأوامر بمهارةٍ وشجاعة، وهم يستحقّون شكرنا لأنّهم حموا أمّتنا. وبذل المسؤولون القانونيّون، في

حكومتي، قصارى جهدهم لحلّ قضايا معقّدة فيما كان بلدنا يواجه خطراً استثنائيّاً. يحقّ لمن يخلفهم أن يعارض استنتاجاتهم، لكن تجريم الاختلاف بالرأي القانونيّ يشكّل سابقةً رهيبةً في وطننا الديمقراطيّ.

من البداية، كنت أعرف أنّ ردّ فعل الرأي العامّ على قراراتي سوف يتأثّر بما إذا كان هناك هجوم آخر. إذا لم يحدث شيء، سيبدو أيّ شيء أقوم به ردَّ فعلٍ مبالغاً فيه. أمّا إذا هوجمنا مرّةً أخرى، سيطالب الناس بمعرفة لماذا لم أفعل المزيد.

هذه هي طبيعة الرئاسة، تتشكّل المفاهيم حين تتّضح الأمور بمرور الوقت. في لحظة اتّخاذ القرار، لا نمتلك ذلك الامتياز. يوم ٩/١١، تعهّدت بالقيام بأيّ شيء لحماية أميركا في إطار الدستور وقوانين أمّتنا. يمكن للتاريخ الحكم على القرارات التي اتّخذتُها والسياسات التي اخترتها والأدوات التي تركتها.

لكن يمكن أن يكون هناك أيُّ نقاش حول حقيقة واحدة: بعد كابوس الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، مرّت سبع سنوات ونصف السنة من دون حدوث أيّ هجوم إرهابيّ آخر على أرضنا. إذا كان لي أن ألخصّ إنجازي الأبرز كرئيسٍ في جملةٍ واحدة، فهذا هو.



تركيا
أذربيجان
كازاخستان
كازاخستان
أوزبكستان
قرغيزيا
بيشكيك
طشقند
تركمنستان
طاجكستان
دوشنبي
الصين
بحر قزوين
عشق آباد
العراق
طهران
مزار الشريف
جلال آباد
كابول
بيشاور
إسلام آباد
روالبندي
إيران
أفغانستان
الكويت
نيبال
كويتا
نيودلهي
الخليج
باكستان
البحرين
الهند
قطر
العربية
السعودية
الإمارات العربية
المتحدة
عمان
بحر العرب
كراتشي
0
400 ميل
0
600 كلم



٧

أفغانستان

كانت قاعة المعاهدة أحد الأماكن المفضّلة لديّ في البيت الأبيض. هي فسيحة وفخمة، وتقع في الطابق الثاني بين غرفة نوم لينكولن والقاعة البيضاويّة الصفراء. قبل بناء الجناح الغربيّ، كانت قاعة المعاهدة تُستخدم كمكتبٍ للرئيس. يعود تاريخ تسميتها إلى سنة ١٨٩٨، عندما قرّر الرئيس وليام ماكينلي توقيع معاهدة إنهاء الحرب الإسبانيّة الأميركيّة.

قطعة الأثاث المهيمنة هي مكتب مصنوع من الجوز الغامق. هناك تمّ التوقيع على المعاهدة واجتمع مجلس وزراء الرئيس يوليسيس س. غرانت. لقد استخدمتُ المكتب لكتابة الخطب وقراءة التقارير وإجراء المكالمات الهاتفيّة مساء، بعد عودتي من المكتب البيضاويّ.

توجد قبالة المكتب لوحة زيتيّة كبيرة عنوانها «صانعو السلام»، وتبيّن الرئيس لنكولن على متن باخرة «ملكة النهر»، مع الجنرال غرانت والجنرال وليام شيرمان والأميرال دايفيد بورتر، في الشهر الأخير من الحرب الأهليّة. يظهر لينكولن وهو يتشاور مع قادة جيشه على استراتيجيّة لهزيمة الكونفدراليّة وإقامة سلامٍ عادلٍ ودائم.

قبل ٩/١١، اعتبرتُ المشهد لحظةً مدهشةً من التاريخ، وبعد الهجوم، صار للمشهد معنى أعمق. ذكّرتني اللوحة بوضوح هدف لينكولن: شنّ الحرب من أجل قضيّة ضروريّة ونبيلة.

بعد ظهر يوم الأحد ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، مشيتُ في قاعة المعاهدة لأخاطب الأمّة. قبل ساعات، كانت قاذفات القنابل البعيدة المدى قد أقلعت من قاعدة وايتمان الجويّة في ميسوري، وكانت الغوّاصات الأميركيّة والبريطانيّة في الخليج العربيّ قد أطلقت صواريخ توماهوك، كما انطلقت طائرات سلاح البحريّة من السفن «يو أس أس كارل فينسون» «ويو أس أس أنتربرايز».

قلت: «بناء على أوامري، بدأ الجيش الأميركيّ ضرباتٍ عسكريّةً ضدّ معسكرات تدريب الإرهابيّين التابعة لتنظيم القاعدة والمنشآت العسكريّة لنظام طالبان في أفغانستان».

أيقنتُ خطورة هذا القرار. كنت أعرف أنّ الحرب سوف تجلب الموت والحزن. كلّ نفس تُبذل ستدمّر عائلة إلى الأبد. في نهاية خطابي، استشهدتُ برسالةٍ تلقّيتها من فتاةٍ في الصفّ الرابع، والدها في الجيش. كتبت: «بقدر ما لا أريد أن يحارب والدي، أنا على استعداد لمنحه لك».

ما خفّف قلقي من التضحيات هو السبب الداعي إليها. كان ضرورياً إزالة الملاذ الآمن لتنظيم القاعدة في أفغانستان لحماية الشعب الأميركيّ. لقد خطّطنا للأمر بعناية، وكنّا نتصرّف بدافع الضرورة والدفاع عن النفس، وليس الانتقام.

تطلّعتُ إلى الخارج من نافذة قاعة المعاهدة، فرأيت في البعيد نصب جفرسون التذكاريّ، حيث نُقِشت عبارات إعلان الاستقلال: «نحن نعتبر هذه الحقائق غنيّة عن البيان: إنّ جميع الناس خُلِقوا متساوين». في الجانب الآخر من نهر بوتوماك كانت تلتحم جراح البنتاغون. طوال ٢٦ يوماً بعد ٩/١١، كنّا نخطّط ونستعدّ. انتهت فترة الانتظار، وبدأ الهجوم الأميركي المضادّ، وبدأ تحرير أفغانستان.

* * *

إن إرسال الأميركيّين إلى الحرب هو القرار الأعمق الذي يمكن للرئيس اتّخاذه. رأيت ذلك في سنة ١٩٨٩، عندما قضيتُ، أنا ولورا والفتاتان، عيد الميلاد في كامب دايفيد. يوم ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، أرسل أبي ٢٧٠٠٠ من قوّاتنا إلى بنما لخلع الدكتاتور مانويل نورييغا وإعادة الديمقراطيّة.

نجحت عمليّة «القضيّة المحقّة»، وخُلع الديكتاتور بسرعة، وكانت الخسائر البشريّة الأميركيّة قليلة. كان معظم الناس في مزاج احتفالي، ولكنّ أبي لم يكن كذلك. بالنسبة للجرحى وعائلات الذين سقطوا ـ ولقائد القوّات المسلّحة ـ كانت كلفة المعركة عاليةً إلى حدّ مؤلم.

كنت واقفاً بجانب أمّي وأبي ننشد عشيّة عيد الميلاد، عندما جاء قسّيس البحريّة. قال: «سيّدي الرئيس، لقد عدت لتوّي من ويلفورد هول في سان أنطونيو، حيث يُعالج الجنود المصابون. قلت لهم: إذا كان لديكم رسالة للرئيس، فسأقابله هذه الليلة».

وتابع: قالوا: «من فضلك أخبر الرئيس أنّنا فخورون بخدمة بلدٍ عظيم، كما أنّنا فخورون بخدمة رجلٍ عظيمٍ مثل جورج بوش». امتلأت عينا أبي بالدموع.

منحتني تلك اللحظة المؤثّرة نظرةً واضحةً إلى الثمن الشخصيّ الذي ندفعه حين نرسل قوّاتٍ إلى القتال. ولكن لا شيء أعدّني للشعور الذي اختبرته عندما كنتُ الرئيس الذي يُعطي الأمر.

* * *

كما عرفت من خلال زياراتي للمكان حين كان أبي رئيساً، فكامب دايفيد هو أحد الامتيازات العظيمة للرئيس. تحتضنه جبال كاتوكتن في ولاية ماريلاند على بعد سبعين ميلاً من واشنطن، وتبلغ مساحته ٢٠٠ فدان، ويمكن الوصول إليه بواسطة المروحيّة في رحلة ثلاثين دقيقة من البيت الأبيض. لكنّه يبدو أبعد من ذلك. تدير البحريّة الموقع ويحميه مشاة البحريّة، وهو يتألّف من كابينة ريفيّة وصالة رياضة

وبركة سباحة وصالة بولينغ وملعب غولف أخضر ومتنزّهات ذات مناظر خلاّبة عبر الغابات، تصلح للمشي وركوب الدرّاجات. الجوّ يشجّع على التأمّل والتفكير العميق.

تُعرف المقصورة الرئاسيّة باسم «أسبن». داخلها بسيط ولكنّه مريح. يحوي الهيكل الخشبيّ ثلاث غرف نوم، وهو حجم مثاليّ لعائلتنا؛ وغرفة جلوسٍ يُضيئُها نور الشمس، حيث كنت أشاهد مباريات كرة القدم مع شقيقي مارفن والأصدقاء؛ وموقد تدفئة حجريّاً كنت ولورا نحبّ المطالعة بجانبه في الليل. على مسافة ربع ميل، أسفل التلّ، يقع لورل، وهو مسكن فسيح فيه غرفة طعام كبيرة ومكتب رئاسيّ كبير، وقاعة للمؤتمرات مغلّفة بالألواح الخشبيّة استخدمها جيمي كارتر خلال المفاوضات على اتّفاقات كامب دايفيد للسلام.

هناك اجتمع فريق الأمن القوميّ صباح يوم السبت في ١٥ أيلول/سبتمبر، للبدء بوضع خطّة المعركة في أفغانستان. كان المزاج قاتماً وجدّيّاً وكان الجميع مركّزاً. جلس معي، حول طاولة السنديان الكبيرة، أكبر مسؤولي الأمن القوميّ من كلّ أقسام الحكومة[١]. كانوا يملكون معاً عقوداً من الخبرة في إدارة الأزمات.

العرض الرئيسيّ الأوّل، في صباح ذلك اليوم، قدّمه مدير السي آي إيه جورج تينيت. قبل ستّة أشهر، بناء على توجيهاتي، بدأ جورج ومجلس الأمن القوميّ وضع استراتيجيّة شاملة لتدمير شبكة القاعدة. خلا الأيّام الأربعة الفاصلة بين ٩/١١ واجتماع كامب دايفيد، عزّز فريق وكالة المخابرات المركزيّة خطّته. اقترح جورج منح سلطةٍ أوسع للأنشطة السرّيّة، بما في ذلك إعطاء الإذن لوكالة الاستخبارات

(١) نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الخارجيّة كولن باول ووزير الدفاع دون رامسفيلد ونائب وزير الدفاع بول وولفويتز والمدّعي العامّ جون أشكروفت ومدير مكتب التحقيقات الفدراليّ بوب مولر ووزير الخزينة بول أونيل ومدير وكالة المخابرات المركزيّة جورج تينيت ونائب المدير جون ماكلولين ورئيس هيئة الأركان المشتركة هيو شيلتون ونائبه ديك مايرز وكبير موظّفي البيت الأبيض آندي كارد ومستشار الأمن القوميّ كوندي رايس ونائب مستشار الأمن القوميّ ستيف هادلي والمستشار القانونيّ في البيت الأبيض ألبرتو غونزاليس وكبير الموظّفين عند نائب الرئيس أي. لويس «سكوتر» ليبي.

المركزيّة بقتل أو اعتقال عناصر من القاعدة دون الحاجة إلى توقيعي في كلّ مرّة. فوافقت على الطلب.

جوهر خطّة السي آي أي عمليّة هجوميّة جديدة في أفغانستان، حيث تمّ التخطيط لهجمات ٩/١١. تعود جذور الوجود الإرهابيّ في أفغانستان إلى سنة ١٩٧٩، عندما غزا الاتّحاد السوفييتيّ البلاد وأنشأ نظاماً شيوعيّا تحت أمرته. فثارت القبائل الأفغانيّة إلى جانب مجموعة من المحاربين الإسلاميّين المعروفين باسم المجاهدين ضدّ الاحتلال الأجنبيّ. وبمساعدة الولايات المتّحدة وباكستان والسعوديّة، أوقع المتمرّدون خمسة عشر ألف قتيل وأخرجوا السوفييت في سنة ١٩٨٩. بعد ذلك بسنتين، انهارت القوّة العظمى.

بعد رحيل المحتلّ الشيوعيّ، كان عند الشعب الأفغانيّ الفرصة لإعادة بناء بلده. لكنّ الحكومة الأميركيّة لم تعد تجد فائدةً وطنيّةً في أفغانستان، فأوقفت مدّها بالدعم. ساعد عدم تدخّل أميركا على خلق فراغ، وبدأ محاربو القبائل الذين كانوا قد هزموا السوفييت بالتقاتل. في نهاية المطاف استولت على السلطة حركة طالبان، وهي مجموعة من الإسلاميّين الأصوليّين، فرضوا طريقة متعصّبة وبربريّة لتطبيق الإسلام، تحظّر على الفتيات الذهاب إلى المدرسة، وتلزم الرجال إطلاق لحاهم حتّى طولٍ معيّن، وتمنع النساء من مغادرة منازلهن دون مرافقة أحد الأقارب الذكور. وحظرت أبسط المتع كالغناء والتصفيق وتطيير الطائرات الورقيّة.

تمّ تطبيق قواعد طالبان بوحشيّة من قِبَل الشرطة الدينيّة. وصف تقرير وزارة الخارجيّة الأميركيّة لسنة ١٩٩٨ امرأةً تكافح لتحمل طفلين صغيرين وأغراضاً اشترتها من محلاّت البقالة، في شارع في مزار الشريف. عندما تراجع البرقع الذي يغطّي كامل جسدها عن وجهها، ضربت بهوائي سيّارة. وكان صغار اللصوص يُقتادون إلى الملعب الوطنيّ لكرة القدم لبتر أطرافهم.

أمّا المثليّون جنسيّاً فيُرجمون حتّى الموت، وكذلك أيّ شخص يشتبه بارتكابه

الزنا. بعد أن استولت طالبان على كابول بوقتٍ قصير، خطفت رئيس أفغانستان السابق من مجمّع الأُمم المتّحدة. بعد ضربه وإخصائه، عُلّقت جثّته على عمود كهرباء. وفي مقاطعة باميان، وهي موطن قبائل الهزارة الأقليّة، قتلت حركة طالبان ما لا يقلّ عن ١٧٠ شخصاً من المدنيّين الأبرياء، في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. وفي وقتٍ لاحقٍ من تلك السنة، فجّرت بالديناميت تمثالين قيّمين لبوذا، يبلغ عمرهما ألفاً وخمسمئة سنة.

حصل بعض الناس على حسن الضيافة من جانب طالبان. وبعد انتزاع السلطة بوقتٍ قصيرٍ، حضن الملالي المتطرّفون أسامة بن لادن، مؤسّس تنظيم القاعدة. بين سنتي ١٩٩٦ و ٢٠٠١، أنشأ بن لادن معسكرات تدريبٍ في أفغانستان درّبت ما يُقدّر بعشرة آلاف إرهابيّ. في المقابل، استخدم بن لادن ثروته الشخصيّة لتمويل طالبان. وبحلول ٩/١١، كانت أفغانستان، ليس مجرّد دولةٍ راعيةٍ للإرهاب، ولكن دولة برعاية الإرهاب.

كانت عقيدة طالبان صلبة، ولكن سيطرتها على البلاد لم تكن كذلك. في قسمٍ صغيرٍ من شمال أفغانستان، حافظت مجموعة من قادة القبائل، اسمها التحالفُ الشماليّ على ولاء السكّان المحلّيين. وفي ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، اغتال عملاء بن لادن الزعيم المحبوب للتحالف الشماليّ، أحمد شاه مسعود. دفع اغتياله الحلف إلى التعاون مع الولايات المتّحدة. وكان عندنا عدوّ مشترك وتصميم على إنهاء حكم طالبان.

قضت خطّة جورج تينت بنشر فرق وكالة الاستخبارات المركزيّة لتسليح وتمويل وتوحيد الجهود مع قوّات تحالف الشمال، وسيشكّلان معاً الدفع الأوّل للهجوم. وبانضمام قوّاتنا إلى المعارضة المحلّيّة، نتجنّب الظهور كفاتحين أو محتلّين. فتساعد أميركا الشعب الأفغانيّ على تحرير نفسه.

* * *

لم نكن لنتصرّف بمفردنا. قام كولن باول بحشد البلدان ضمن تحالفنا بطريقةٍ مثيرةٍ للإعجاب. بعضها، مثل بريطانيا العظمى وأستراليا عرض علينا نشر قوّاته. وتعهّد آخرون، بما في ذلك اليابان وكوريا الجنوبيّة، بتقديم المساعدات الإنسانيّة والدعم اللوجستيّ. وأرسلت كوريا الجنوبيّة قوّاتها في وقتٍ لاحق. كذلك، أعطانا شركاؤنا العرب الرئيسيّون، مثل الأردن والمملكة العربيّة السعوديّة معلوماتٍ استخباراتيّةً حسّاسةً عن عمليّات تنظيم القاعدة.

والأمّة الأكثر محوريّة، التي جنّدناها، كانت باكستان. لا توجد دولة مؤثّرة في أفغانستان أكثر من جارتها الشرقيّة. في ٩/١١، كانت باكستان واحدة من ثلاث دول فقط تعترف بحركة طالبان. وكانت المملكة العربيّة السعوديّة ودولة الإمارات العربيّة المتّحدة الدولتين الأخريين.

يمكن أن يكون بعض الباكستانيين قد تعاطفوا مع أيديولوجيّة طالبان. ولكنّ الدافع الرئيسيّ كان خلق توازن مع الهند، خصم باكستان اللدود. ما دام بإمكان باكستان الاعتماد على ولاء حكومة أفغانستان، فإنّها لن تكون مطوّقة.

لباكستان تاريخ مضطرب مع الولايات المتّحدة. بعد تعاونا الوثيق خلال الحرب الباردة، علّق الكونغرس المساعدات لباكستان ـ بما في ذلك طائرات أف – ١٦ المرغوب فيها جدّاً والّتي كانت أميركا قد وعدت ببيعها إلى باكستان ـ بسبب القلق من برنامج الحكومة للأسلحة النوويّة. في سنة ١٩٩٨، أجرت باكستان اختباراً نوويّاً سرّيّاً، تسبّب بالمزيد من العقوبات. وبعد سنة، أطاح الجنرال برويز مشرف بالحكومة المنتخبة ديمقراطيّاً في انقلاب. بحلول سنة ٢٠٠١، كانت أميركا قد قطعت كلّ المساعدات لباكستان تقريباً.

في ١٣ أيلول/سبتمبر، اتّصل كولن بالرئيس مشرّف وأوضح له أنّ عليه أن يقرّر على أي جهة سيقف. وقدّم لائحة مطالب غير قابلة للتفاوض، بما في ذلك إدانة هجمات ٩/١١، وحرمان تنظيم القاعدة من الملاذ الآمن في باكستان، وتبادل

المعلومات الاستخباراتيّة، ومنحنا حقّ الطيران في الأجواء الباكستانيّة، وقطع العلاقات الدبلوماسيّة مع طالبان.

واجه مشرّف ضغوطاً داخليّة مكثّفة. كان التحوّل ضد طالبان لا يمكن تصوّره بالنسبة للمتشدّدين في حكومته والاستخبارات. اتّصلتُ بمشرّف من كامب دايفيد، خلال وقت الاستراحة، في اجتماع المجلس الحربيّ، وقلت: «أريد أن أشكركم على الاستماع إلى طلبات أمّتنا الحزينة، وأنا أتطلّع للعمل معكم من أجل سوْق هؤلاء الناس إلى العدالة».

قال مشرّف: «الرهانات عالية. نحن معكم».

ثبت أنّ علاقتنا بباكستان معقّدة. ولكن في أربعة أيّام كنّا قد حوّلنا جارة أفغانستان المحوريّة من مؤيّدة لطالبان إلى شريكة في الجهد لحرمانهم من السلطة.

* * *

وجاء العرض اللاحق من المؤسّسة العسكريّة. دعا دون رامسفيلد رئيس هيئة الأركان المشتركة هيو شيلتون، وكان في آخر شهر من وظيفته في الجيش، ونائبه ديك مايرز، وهو الجنرال في سلاح الجوّ العامّ الذي كنت قد رشّحته ليحلّ محلّه، وعرضا عليّ ثلاثة خيارات.

كان الخيار الأوّل خطّة وزارة الدفاع للطوارئ، وهي الاستراتيجيّة التي تُستخدم في حالات الطوارئ. تدعو الخطّة إلى القيام بضربات صواريخ كروز على معسكرات القاعدة في أفغانستان. ويمكن تنفيذها على الفور دون أيّ خطر على القوّات الأميركيّة.

وكان الخيار الثاني هو الجمع بين ضربات صواريخ كروز وهجمات الطائرات قاذفة القنابل. هذه الأخيرة من شأنها أن تسمح لنا بضرب المزيد من الأهداف، في حين يتعرّض الطيّارون لخطرٍ محدود. وكان الخيار الثالث والأكثر عدوانيّة يقوم على

استخدام صواريخ كروز وقاذفات القنابل، ومشاة. كان هذا خياراً نظريّاً، إذ كان يتعيّن على المؤسّسة العسكريّة وضع التفاصيل من نقطة الصفر.

أكّد الجنرال شيلتون أنّ إدخال قوّاتنا إلى بلاد جبليّة سيستغرق بعض الوقت بالإضافة إلى الدبلوماسيّة الحسّاسة. سنحتاج إلى حقوق إنشاء قواعد وإذن بالطيران وإمكانات البحث والإنقاذ، ناهيك عن الطقس الجيّد والحظّ الجيّد.

وتبع ذلك مناقشة واسعة النطاق. حذّر جورج تينيت من احتمال ضربة انتقاميّة على وطننا. قال: «نحن لا نستطيع ردعهم إذا كانوا قد خطّطوا بالفعل لجولةٍ ثانية». وأضاف محذّراً: «أتوقّع أن يكون لديهم بعض الأسلحة الكيماويّة والبيولوجيّة».

كان ديك تشيني قلقاً من امتداد الحرب إلى باكستان، ممّا سيتسبّب في فقدان الحكومة سيطرتها على البلد ومن الممكن على ترسانتها النوويّة أيضاً. بتعبير نائب مستشار الأمن القوميّ ستيف هادلي، من شأن ذلك أن يكون «سيناريو كابوس».

خلال الاجتماع، اقترح نائب وزير الدفاع بول وولفويتز أن ندرس احتمال مواجهة العراق بالإضافة إلى حركة طالبان. قبل ٩/١١، اعتبر الكثيرون دكتاتوريّة صدّام حسين الوحشيّة كأخطر بلد في العالم. وكان للنظام سجلّ طويل في دعم الإرهاب، بما في ذلك دفع الأموال لعائلات الانتحاريّين الفلسطينيّين. أطلقت قوّات صدّام النار بشكل روتينيّ على الطيّارين الأميركيّين والبريطانيّين الذين قاموا بدوريّات فوق مناطق حظر الطيران المفروضة من قِبَل الأمم المتّحدة. وكان العراق قد تحدّى، طوال عقد، قرارات الأمم المتّحدة التي تطالبه بتقديم إثباتات على تدمير أسلحة الدمار الشامل. قال دون رامسفيلد: «إنّ معالجة موضوع العراق يظهر التزاماً كبيراً بمكافحة الإرهاب».

حذّر كولن من الأمر قائلاً: «ملاحقة العراق، الآن، سيعتبر تبديلاً للطعم. سنخسر الأمم المتّحدة والدول الإسلاميّة وحلف الناتو. إذا أردنا التعامل مع مسألة العراق،

ينبغي علينا أن نفعل ذلك في الوقت الذي نختاره. لكن لا ينبغي أن نفعل ذلك الآن بسبب عدم وجود رابط مع هذا الحدث».

وافق جورج تينيت: «يجب ألاّ نهاجم الآن. سيكون الأمر خطأً. يجب أن يكون الهدف الأوّل تنظيم القاعدة».

فهم ديك تشيني خطر صدّام حسين واعتقد أنّ علينا التصدّي له. قال: «لكن الآن ليس الوقت المناسب للقيام بذلك». وأضاف «سنفقد الزخم لو فعلنا ذلك. الآن على الناس أن تختار بين الولايات المتّحدة والأشرار».

رحّبت بالجدل الحيويّ. فالاستماع إلى المناقشات والآراء المتباينة ساعد في توضيح خياراتي .لم أكن أريد اتّخاذ قرارٍ على الفور. ولكن هذا سيحصل في اليوم التالي.

* * *

كان يوم الأحد ١٦ أيلول/سبتمبر يوماً للتأمّل. ذهبتُ مع لورا للمشاركة في القدّاس في كنيسة كامب دايفيد «أفرغرين تشابل». بدأ العمل على بناء الكنيسة خلال رئاسة ريغان واكتمل عندما كان والدي رئيساً. وهي كانت مكاناً مميّزاً عند أسرتي. أوّل زفاف حصل هناك كان بين شقيقتي دورو وزوجها الممتاز بوبي كوخ.

عند الساعة ١٠:٠٠ صباح الأحد الواقع بعد ٩/١١، تدفّق ضوء أواخر الصيف عبر الغابات الهادئة وإلى داخل الكنيسة. انضمّ الينا أفراد القوّات البحريّة ومشاة البحريّة وأسرهم، وأعضاء فريق الأمن القوميّ الذين لم يغادروا بعد اجتماعات اليوم السابق.

حظيت كنيسة كامب دايفيد بقسّ عظيم، وهو راعي البحريّة بوب وليامز. كانت خطبته في ذلك الأحد مؤثّرة ومريحة. طرح الأسئلة التي كانت تشغل بال الكثيرين بيننا: «لماذا؟... كيف يمكن أن يحدث هذا، بالله عليكم؟».

قال بوب إنّه ليس بوسعنا معرفة الجواب. اعترف أنّ «الحياة أحياناً متاهة من التناقض والتضارب». ولكن يمكننا أن نجد الراحة إذا آمنّا بأن خطة الله ستنتصر. استشهد بالقدّيس أغناطيوس لويولا: «صلّوا كما لو كان كلّ شيء يعتمد على الله، لأنّ الأمر كذلك. لكن اعملوا كما لو كان كلّ شيء يعتمد علينا، لأنّ الأمر كذلك».

بعد القدّاس، ركبتُ أنا ولورا مروحيّة الرئيس لرحلة العودة إلى واشنطن. بحلول بعد الظهر كنت قد توصّلت إلى نقطة قرار أساسيّة في رئاستي: سنخوض الحرب على الإرهاب ردّاً على الاعتداء، وجبهة القتال ستكون أفغانستان.

كان قراري خروجاً عن سياسات أميركا خلال العقدين السابقين. عندما ضرب مقاتلو حزب الله ثكنات مشاة البحريّة والسفارة الأميركيّة في لبنان في سنة ١٩٨٣، سحب الرئيس ريغان قوّاتنا.

وعندما أسقط أمراء الحرب الإرهابيّون في الصومال طائرة هليكوبتر أميركيّة من طراز بلاك هوك سنة ١٩٩٣، سحب الرئيس كلينتون قوّاتنا. في سنة ١٩٩٨، دفع تفجير تنظيم القاعدة سفارتين أميركيّتين في شرق أفريقيا الرئيس كلينتون لإطلاق صواريخ كروز على مواقع القاعدة في أفغانستان.

ولكنّ معسكرات التدريب كانت مهجورة تقريباً وبدت الضربات من مسافاتٍ بعيدةٍ عاجزةً وغير فاعلة. عندما فجّر تنظيم القاعدة اليو أس أس كول قبالة سواحل اليمن، لم تقم أميركا بأيّ ردّ تقريباً.

توصّل أسلافي إلى قراراتهم في عصرٍ مختلف. بعد أن قتل تنظيم القاعدة ما يقرب من ثلاثة آلاف شخصٍ في الولايات المتّحدة، كان واضحاً أنّ الإرهابيّين فسّروا عدم ردّنا الجدّي باعتباره علامة ضعفٍ ودعوةً إلى مزيدٍ من الهجمات الوقحة. رسائل القاعدة كثيراً ما ذكرت انسحاباتنا كدليلٍ على أنّ الأميركيّين، على حدّ تعبير بن لادن، «نمور من ورق» يمكن إرغامهم على «الهرب في أقلّ من ٢٤ ساعة».

بعد ٩/١١، صمّمتُ على تغيير هذا الانطباع. قرّرت استخدام الخيار الأكثر

عدوانيّة من بين الخيارات الثلاثة التي عرضها الجنرال شيلتون. صواريخ كروز والهجمات بالطائرات قاذفات القنابل ستكون جزءاً من ردنّا، ولكنّها لم تكن كافية. استعمال أسلحة غالية الثمن لضرب مخيّمات قليلة الكثافة السكّانيّة لن يقضي على سيطرة طالبان أو يدمّر ملجأ تنظيم القاعدة. كلّ ما سيؤدّي إليه الأمر هو تعزيز اعتقاد الإرهابيّين أن بإمكانهم مهاجمتنا دون دفع ثمنٍ خطير. هذه المرّة سننشر الجنود على الأرض، وسنبقيهم هناك حتّى طرد طالبان والقاعدة ونشوء مجتمع حرّ.

سأعمل على حلّ مشكلة العراق بالطرق الدبلوماسيّة، الاّ إذا حصلتُ على أدلةٍ قاطعةٍ تربط صدّام حسين ب٩/١١. أملتُ بأنّ الضغط العالميّ الموحّد سيجبر صدّام على الوفاء بالتزاماته الدوليّة.

وكانت أفضل وسيلةٍ لإثبات جدّيتنا تحقيق النجاح في أفغانستان. في الصباح التالي، دعوت مجلس الأمن القوميّ إلى اجتماع في قاعة مجلس الوزراء. قلت: «الغرض من هذا الاجتماع هو تعيين المهامّ للموجة الأولى من الحرب على الإرهاب. وهي تبدأ اليوم».

* * *

بعد وقت قصير من ١١/ ٩، اقترحديني هاسترت، وهو رئيس مجلس النوّاب الموثوق والثابت، أن أخطب في جلسةٍ مشتركةٍ لمجلسَيْ الكونغرس، كما فعل الرئيس فرانكلين روزفلت بعد بيرل هاربور. أعجبتني الفكرة لكنّني أردت الانتظار حتّى يكون عندي شيء أقوله. فجاء ذلك الوقت. عيّنّا موعد إلقاء الكلمة في ٢٠ أيلول/ سبتمبر.

كنت أعرف أنّ الشعب الأميركيّ لديه الكثير من الأسئلة: من الذي هاجمنا؟ لماذا يكرهوننا؟ كيف ستكون الحرب؟ ما هو متوقّع من المواطن العاديّ؟ كانت الأجوبة ستشكّل مسودّة خطابي.

قرّرت أن أدعو ضيفاً خاصّاً للانضمام إليّ عند إلقاء الخطاب، وهو رئيس الوزراء

البريطانيّ توني بلير. قبل ساعاتٍ قليلةٍ من ذهابي إلى الكابيتول هيل، جاء توني إلى البيت الأبيض لتناول العشاء. أخذته إلى زاوية هادئة من «طابق الدولة» State Floor لإعطائه موجزاً عن خطط الحرب، بما في ذلك قراري بنشر قوّات بريّة. أكّد مجدّداً أنّ بريطانيا العظمى ستكون إلى جانبنا. الحليف الأساسيّ لأميركا في حروب القرن الماضي سيدعمنا في الحرب الأولى في القرن الجديد.

حين اقتربت لحظة إلقاء الخطاب، قال توني: «أنت لا تبدو عصبيّاً على الإطلاق، يا جورج. ألا تحتاج إلى بعض الوقت بمفردك؟» لم أكن قد فكّرت بذلك حتّى ذكره. لم أكن بحاجةٍ إلى أن أكون وحدي. كنت قد أخذتُ وقتي لاتّخاذ قرار دقيق، وكنت أعرف ما أردت أن أقوله. بالإضافة إلى ذلك، كنت أقدّر صحبة صديقي.

كانت الأجواء في قاعة مجلس النوّاب مختلفةً عن تلك التي سادت الكاتدرائيّة الوطنيّة في ١٤ أيلول/سبتمبر. سيطر مزيج من الغضب والطاقة والتحدّي. علمت لاحقاً أن أكثر من اثنين وثمانين مليون شخصٍ كانوا يشاهدونني على شاشة التلفزيون، وهو أكبر جمهور لخطابٍ رئاسيٍّ في أيّ وقت مضى.

بدأت بالقول: «عادة يأتي الرؤساء إلى هذه القاعة لتقديم تقرير عن حالة الاتّحاد. أمّا الليلة، فلا حاجة لأيّ تقرير من هذا القبيل. لقد تمّ تقديمه بالفعل من قِبَل الشعب الأميركيّ.... أيّها المواطنون، لقد شهدنا حالة الاتّحاد، وهي قويّة».

غطّيت الأسئلة والأجوبة بسرعة: هويّة الإرهابيّين وأيديولوجيّتهم والنوع الجديد من الحرب التي سنخوضها. قلت: إنّ «ردّنا يشمل أكثر بكثيرٍ من لحظة انتقام وضربات معزولة. يجب على الأميركيّين ألاّ يتوقّعوا معركةً واحدةً بل حملة طويلة خلافاً لأيّ شيء شهدناه في أيّ وقت مضى. قد تشمل غارات دراماتيكيّة مرئيّة على شاشة التلفزيون، وعمليات سرّيّة حتّى بالنسبة لنجاحها.. كلّ أمّة، في كلّ منطقة، عليها أن تتّخذ قرارها الآن. إمّا أن تكونوا معنا وإما أن تكونوا مع الإرهابيّين».

حدّدتُ إنذاري لحركة طالبان: «إمّا أن يسلّموا الإرهابيّين وإما أن يشاركوا في مصيرهم». كان أملنا ضئيلاً بأن يصغي قادة أفغانستان. لكنّ فضح تحدّيهم للعالم يقوّي حجّتنا لضربةٍ عسكريّة. حين اقتربت من الختام، قلت

في حزننا وغضبنا وجدنا مهمّتنا ولحظتنا... سنقوم بحشد العالم بجهودنا وشجاعتنا لدعم هذه القضيّة. لن نتعب، ولن نتعثّر، ولن نفشل.

أملي أنّه في الأشهر والسنوات المقبلة، ستعود الحياة إلى وضعها الطبيعيّ تقريباً. سوف نعود إلى حياتنا وروتيننا، وهذا أمر جيّد. الحزن سيخفّ مع الوقت والنعمة. لكن يجب ألاّ يخفّ عزمنا. سيتذكّر كلّ واحد منّا ماذا حدث في ذلك اليوم، ولمن حدث ما حدث. سوف نتذكّر لحظة ورود الخبر أين كنّا وماذا كنّا نفعل. سوف نتذكّر صورة حريق أو قصّة إنقاذ. وسوف يحمل البعض ذكريات وجهٍ وصوتٍ رحلا إلى الأبد.

وسوف أحمل هذه: إنّها شارة شرطيّ يدعى جورج هوارد، الذي توفّي في مركز التجارة العالميّ في محاولة لإنقاذ الآخرين. أعطتني إيّاها أمّه أرلين تذكاراً عزيزاً لابنها. وهي تذكير لي بالأرواح التي سقطت والمهمّة التي لا تنتهي.

لن أنسى هذا الجرح لبلادنا، أو أولئك الذين تسبّبوا به. لن أستسلم ولن أهدأ ولن أتهاون في هذا الكفاح من أجل الحرّيّة والأمن للشعب الأميركي.

* * *

أغرقت نفسي في اليوم التالي، ٢١ أيلول/سبتمبر، في التخطيط للحرب. التعامل مع الجيش كقائدٍ للقوّات المسلّحة كان تجربةً جديدةً بالنسبة لي. والزيّ الرسميّ للضبّاط المزيّن بصفوفٍ من الشرائط بيّن خبرتهم العسكريّة، والتي كانت أوسع بكثير من خبرتي.

قبل سبعة أشهر، أقمت أنا ولورا عشاءً في البيت الأبيض للقادة العسكريّين

وزوجاتهم .كنت آمل بكسر بعض الشكليّات والتعرّف على الجنرالات والأدميرالات على مستوى شخصيّ، حتى لا يتردّدوا في إعطائي آراءهم الصريحة، وحتّى أشعر بالراحة حين أطلبها.

كان أحد القادة الذين التقيتهم الجنرال تومي فرانكس، الذي جاء إلى البيت الأبيض مع زوجته كاثي. حصل تومي على الكثير من الميداليّات، بما في ذلك نجوم برونزيّة وقلوب قرمزيّة متعدّدة من حرب فيتنام. كجنرالٍ بنجمةٍ واحدة، كان قد قاد القوّات في حرب الخليج. في سنة ٢٠٠٠، تولّى أعلى منصبٍ في القيادة المركزيّة، وهو مسرح يمتدّ من القرن الأفريقيّ إلى آسيا الوسطى، بما في ذلك أفغانستان.

قلت له: «جنرال، علمت أنّك من ميدلاند في ولاية تكساس».

قال، مع ابتسامةٍ دافئة، ولكنةِ غرب تكساس المتشدّقة: «نعم، سيّدي الرئيس، هذا صحيح».

أضفت: «سمعت أنّك ذهبت إلى المدرسة الثانويّة نفسها التي ارتادتها لورا».

أجاب: «نعم، سيّدي، تخرّجتُ قبل سنةٍ واحدةٍ منها. لكن لا تقلق، سيّدي الرئيس، أنا لم أكن رفيقها أبداً».

ضحكت بقوّة. فقد كان أمراً مثيراً للاهتمام أن يقول ذلك لقائد القوّات المسلّحة. كان عندي شعور أنّني سأتّفق تماماً مع تومي.

أوضح تومي أنّ المهمّة في أفغانستان لن تكون سهلة. كلّ شيء في البلد كان يوحي بالمتاعب. فهي بلاد بعيدة ووعرة وبدائيّة. نصفها الشماليّ موطن للطاجيك والأوزبك والهزارة والتركمان وغيرهم. ويهيمن البشتون على النصف الجنوبي. التناحرات القبليّة والعرقيّة والدينيّة يعود تاريخها إلى القرون الماضية. لكن على الرغم من خلافاته الداخليّة، فشعب أفغانستان ينجح بالتوحّد ضدّ الأجانب.

طرد الأفغان البريطانيين في القرن التاسع عشر، وطردوا السوفييت في القرن

العشرين. حتّى الإسكندر الكبير فشل في الاستيلاء على البلاد. وبالتالي حصلت أفغانستان على لقبٍ مشؤوم: مقبرة الأمبراطوريّات.

شملت خطّة تومي للحرب، والتي أُطلق عليها، في وقتٍ لاحق، اسم عمليّة «الحرّيّة الدائمة»، أربع مراحل: المرحلة الأولى قضت بربط القوّات الخاصّة بفرق وكالة المخابرات المركزيّة لتمهيد الطريق للقوّات التقليديّة. بعدها نشنّ حملةً جوّيّةً مكثّفةً لضرب أهدافٍ لتنظيم القاعدة وحركة طالبان وإجراء عمليّات إنزال جوّي لإيصال الإغاثة الإنسانيّة إلى شعب أفغانستان. المرحلة الثالثة تطلّبت دخول القوّات البرّيّة التابعة لأميركا وشركائها في التحالف إلى البلاد ومطاردة ما تبقّى من مقاتلي طالبان والقاعدة. أخيرًا، نؤمّن الاستقرار في البلاد ونساعد الشعب الأفغانيّ على بناء مجتمع حرّ.

كان دوري التأكّد من أنّ الخطّة شاملة وتتّفق مع الرؤية الاستراتيجيّة في هذه الحالة، إزالة طالبان وحرمان تنظيم القاعدة من ملاذه، والمساعدة في إقامة حكومة ديمقراطيّة. سألت تومي الكثير من الأسئلة: كم عدد القوّات التي سنحتاجها؟ ما نوع القواعد المتاحة؟ كم سيستغرق تحرّك الجميع؟ ما هو مستوى مقاومة العدوّ الذي نتوقّعه؟

لم أحاول إدارة النواحي اللوجستيّة أو القرارات التكتيكيّة. دفعني إحساسي إلى وضع ثقتي في الحكم الصادر عن القيادة العسكريّة، فهم كانوا المتخصّصين المدرّبين، أمّا أنا فكنت قائد القوّات المسلّحة.

تذكّرت صور ليندون جونسون ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا العائدة إلى فترة حرب فيتنام، حيث يظهران منكبّين على خرائط لاختيار أهداف القصف الروتينيّة. وكان لإدارتهما الأمور التفصيليّة تأثير على امتداد سلسلة القيادة. عندما كنت أتدرّب على الطيران، اشتكى أحد المدرّبين الذي شارك في حرب فيتنام من أنّ سلاح

الجوّ كان محدوداً في تحرّكاته بحيث كان بإمكان العدوّ معرفة أين ومتى سيحلّقون بالضبط. السبب، على حدّ تعبيره، هو أنّ «السياسيّين لا يريدون إغاظة الناس».

* * *

كان أحد المجالات التي أحتاج فيها تومي إلى مساعدةٍ هو تأمين دعم البلدان المجاورة لأفغانستان. بدون تعاونٍ لوجستي من أوزبكستان وطاجيكستان، لن نكون قادرين على تحريك قوّاتنا في أفغانستان. لم أكن أعرف قادة هذه الجمهوريّات السوفييتيّة السابقة. لكنّ روسيا كانت لا تزال تملك نفوذاً هائلاً في المنطقة، وكنت أعرف فلاديمير بوتين.

التقيتُ بوتين للمرّة الأولى في حزيران/يونيو في قصر سلوفيني استخدمه في الماضي الزعيم الشيوعيّ تيتو. كان هدفي في القمّة التخلّص من أيّ توترٍ وتأسيس رابطٍ مع بوتين. أعطيت أولويّةً عاليةً للدبلوماسيّة الشخصيّة. التعرّف على شخصيّة زميل من زعماء العالمَ وطبعه ومخاوفه جعل من السهل إيجاد أرضيّة مشتركة للتعامل مع القضايا المثيرة للجدل. تعلّمت ذلك من أبي، الذي كان أحد الذين مارسوا الدبلوماسيّة على المستوى الشخصيّ، وكان الآخر أبراهام لنكولن. قال لنكولن ذات مرّة: «إذا كنتَ تريد أن يدعم أحدهم قضيّتك، أقنعه أوّلاً أنّك صديقه».

بدأت القمّة مع بوتين باجتماعٍ صغير، فقط أنا وفلاديمير ومستشارو الأمن القوميّ للبلدين والمترجمون الفوريّون. بدا متوتّراً قليلاً، وبدأ الحديث معتمداً على كومةٍ من البطاقات الّتي دوّن عليها ملاحظاته. وكان الموضوع الأوّل ديون الحقبة السوفييتيّة العائدة لروسيا.

بعد بضع دقائق، قاطعت عرضه بطرح سؤال: «هل صحيح أنّ أمّك أعطتك صليباً تمّت مباركته لاحقاً في القدس؟».

بدت ملامح الصدمة على وجه بوتين، بينما كان بيتر، وهو المترجم، يعيد السؤال باللغة الروسيّة. شرحت أنّ القصّة قد أثارت اهتمامي حين قرأتها ـ أنا لم أخبره أنّها

وردت في تقريرٍ للمخابرات ـ وأنّني كنت أشعر بالفضول لمعرفة المزيد. استعاد بوتين هدوءه بسرعة وأخبرني القصّة. ارتاحت ملامح وجهه وهو يوضح أنّه كان قد علّق الصليب في بيته الريفيّ الذي اشتعل لاحقاً.

عندما وصل رجال الإطفاء، قال لهم إنّه لا يأبه إلاّ للصليب. أعاد خلق اللحظة حين كشف عامل عمّا في يده وبيّن الصليب. وصف المسألة على أنّها «كما لو كانت قدراً».

فقلت: «يا فلاديمير. هذه هي قصّة الصليب. بعض الأشياء مقدّر لها أن تحصل». وشعرت أنّ التوتر اختفى من قاعة الاجتماع.

بعد الاجتماع، سألني مراسل إذا كان بوتين «رجلاً يمكن للأميركيّين الثقة به». قلت نعم. فكّرت في العاطفة الّتي ملأت صوت فلاديمير عندما أخبرني قصّة الصليب. قلت: «نظرت في عينيّ الرجل... وتمكّنت أن أكوّن انطباعاً عن روحه». في السنوات اللاحقة أعطاني أسباباً لتغيير رأيي.

بعد ثلاثة أشهرٍ من اجتماعنا في سلوفينيا، كان بوتين الزعيم الأجنبيّ الأوّل الّذي اتّصل بالبيت الأبيض يوم ١١ أيلول/سبتمبر. لم يستطع الاتّصال بطائرة البيت الأبيض، لذلك تكلّمتْ معه كوندي من مركز عمليّات الطوارىء الرئاسيّ PEOC. أكّد لها أنّ روسيا لن تزيد استعدادها العسكريّ ردّاً على تحرّكنا على مستوى «ديفكون ثري» (الوضع الدفاعيّ رقم ثلاثة)، كما كان الاتّحاد السوفييتيّ يفعل تلقائيّاً أثناء الحرب الباردة. عندما تحدّثت إلى فلاديمير، في اليوم التالي، قال لي إنّه وقّع مرسوماً يعلن دقيقة صمتٍ تضامناً مع الولايات المتّحدة. وختم قائلاً: «سوف ينتصر الخير على الشرّ. أريد أن تعرف أنّنا، في هذا الصراع، سوف نقف معاً».

في ٢٢ أيلول/سبتمبر، اتّصلت ببوتين من كامب دايفيد. خلال محادثةٍ طويلةٍ صباح يوم السبت، وافق على فتح المجال الجوّيّ الروسيّ أمام الطائرات العسكريّة الأميركيّة، واستخدام نفوذه حتّى تتعاون جمهوريّات الاتّحاد السوفييتيّ السابق

لإيصال قوّاتنا إلى أفغانستان. تصوّرت أنّه سيكون قلقاً من محاصرة روسيا، ولكنّه كان أكثر قلقاً من مشكلة الإرهاب في جواره. حتّى أنّه أمر الجنرالات الروس بإطلاع نظرائهم الأميركيّين على تجربتهم خلال غزو أفغانستان في الثمانينيات.

كانت محادثةً مدهشة. قلت لفلاديمير إنّني أقدّر استعداده لتجاوز الشكوك التي كانت سائدةً في الماضي. وبعد وقتٍ قصيرٍ، صار لدينا اتّفاقات مع جمهوريّات الاتّحاد السوفييتي السابق.

* * *

في أواخر أيلول/سبتمبر، أبلغني جورج تينيت أنّ أوائل فرق وكالة المخابرات المركزيّة قد دخلت أفغانستان وقامت بالارتباط بتحالف الشمال. وقال لي تومي فرانكس إنّه سيكون على استعداد لنشر قوّاتنا الخاصّة قريباً. طرحت سؤالاً كان يشغل بالي على الفريق: «من الّذي سوف يدير البلد؟».

ساد صمت.

أردت التأكّد من أنّ الفريق كان يدرس خطّة استراتيجيّة لفترة ما بعد الحرب. كنت مقتنعاً بأنّ الشعب الأفغانيّ يجب أن يكون قادراً على اختيار زعيمه الجديد. كانوا قد عانوا كثيراً جدّاً ـ كما كان الشعب الأمريكيّ يقوم بمخاطرة كبيرة جدّاً ـ وبالتالي فلا يمكن السماحِ بانزلاق البلاد مرّةً أُخرى إلى حالة الطغيان. طلبت من كولن العمل على وضع خطّة للانتقال إلى الديمقراطيّة.

يوم الجمعة ٥ تشرين الأول/أكتوبر، قال لي الجنرال مايرز ديك إنّ الجيش جاهز لإطلاق الحملة، وكنت على استعداد أيضاً. كنّا قد أعطينا حركة طالبان أكثر من أسبوعين للردّ على الإنذار الذي أطلقتُه. لم يردّوا على أيٍّ من مطالبنا. فانتهت المهلة.

كان دون رامسفيلد في طريق العودة من الشرق الأوسط وآسيا الوسطى حيث أبرم اتّفاقيّاتٍ كثيرةً بشأن القواعد العسكريّة. انتظرتُ عودته قبل إعطاء الأمر الرسميّ.

صباح يوم السبت ٦ تشرين أول/أكتوبر، تحدّثت مع دون وديك مايرز عن طريق الفيديو الآمن من كامب دايفيد. سألتهما للمرّة الأخيرة إذا كان لديهم كلّ شيء يحتاجونه. فأجابا إيجاباً. قلت: «انطلقوا. هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله».

كنت أشعر بعمقٍ أنّ ضرب تنظيم القاعدة وإزالة نظام طالبان وتحرير شعب أفغانستان المعذّب هو أمر ضروريّ وعادل. لكنّني كنت قلقاً بشأن كلّ الأمور الّتي قد تجري بطريقةٍ خاطئة. وكان المخطّطون العسكريّون قد شرحوا المخاطر: المجاعة، واندلاع الحرب الأهليّة، وانهيار الحكومة الباكستانيّة، وانتفاضة المسلمين في جميع أنحاء العالم، والمسألة التي خشيتها بشكل خاصّ وهي هجوم انتقاميّ على الأرض الأميركيّة.

في صباح اليوم التالي في رحلة العودة إلى واشنطن على متن المروحيّة، كانت لورا ومستشارون رئيسيّون قلّة يعلمون أنّني قد أعطيت الأمر، ولكن عمليّاً لم يكن أيّ شخص آخر يعلم بذلك. للحفاظ على سرّيّة هذه العمليّة، التزمت بجدول أعمالي الذي كان قد أُعلن عنه في وقتٍ سابق، والذي شمل حضور احتفالٍ في ذكرى رجال الإطفاء الشهداء في أميتسبرغ في ولاية ماريلاند.

تحدّثت عن ٣٤٣ إطفائيّاً الذين ضحّوا بأرواحهم في ٩/١١، وهو أسوأ يوم في تاريخ رجال الإطفاء في أمريكا. وضمّت الإصابات رئيس القسم بيت غانتشيً ومجنّدين شباب في الأشهر الأولى من الوظيفة.

وكان النصب التذكاريّ ذكرى حيّةً تبيّن سبب خوض أميركا الحرب قريباً، جيشنا استوعب المسألة أيضاً. على بعد سبعة آلاف ميل، سقطت أولى القنابل، على الكثير منها كانت قوّاتنا قد رسمت حروف دائرة إطفاء نيويورك.

* * *

كانت التقارير الأولى من أفغانستان إيجابيّة. خلال ساعتين من القصف الجوّي،

تمكّنّا وحلفاؤنا البريطانيّون من القضاء على نظام الدفاع الجوّيّ الضعيف لطالبان وعددٍ من مخيّمات التدريب المعروفة للقاعدة. وراء القنابل، أسقطنا أكثر من ٣٧٠٠٠ حصّة من الموادّ الغذائيّة وموادّ الإغاثة للشعب الأفغانيّ، ممّا شكّل أسرع عمليّة لإيصال المساعدات الإنسانيّة في تاريخ الحروب.

بعد أيّام عدّة، واجهنا مشكلة. دمّرت الحملة الجوّيّة معظم البنية التحتيّة لطالبان والقاعدة. لكنّنا واجهنا مشكلة في إدخال قوّاتنا الخاصّة التي تجمّعت في قاعدةٍ جوّيّةٍ سوفييتيّة سابقة في أوزبكستان، وكانت تفصلهم عن منطقة الهبوط في أفغانستان جبال يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر ألف قدمٍ، وتسودها درجات حرارة تحت الصفر وعواصف ثلجيّة مسبّبة للعمى.

ضغطت من أجل الإسراع. وأكّد لي دون وتومي أنّهما يتحرّكان بأكبر سرعةٍ ممكنة. ومع مرور الأيّام، زاد إحباطي.

بدا ردّنا على مثال الحرب الجوّيّة العاجزة التي شنّتها أميركا في الماضي. خشيت من أنّنا نبعث رسالةً خاطئةً إلى العدوّ وإلى الشعب الأميركيّ. في وقتٍ لاحقٍ وصف تومي فرانكس تلك الأيّام بأنها فترة «من الجحيم». وشعرت بالشيء نفسه.

بعد عشرة أيّام من إعلاني بداية الحرب، حطّت أخيراً أولى فرق القوّات الخاصّة. في الشمال، ارتبطت قوّاتنا بوكالة المخابرات المركزيّة وحلف الشمال. وفي الجنوب، داهم فريق صغير من القوّات الخاصّة مقرّ زعيم طالبان الملاّ عمر في قندهار.

بعد أشهرٍ، قمت بزيارة فورت براغ في ولاية كارولينا الشماليّة، حيث التقيت أعضاء فريق القوّات الخاصّة الّتي نفّذت الهجوم. أعطوني طوباً من بقايا مجمّع الملاّ عمر. وضعته في مكتبي الخاصّ قرب المكتب البيضاويّ للتذكير بأنّنا كنّا نقاتل في هذه الحرب بواسطة قوّات موجودة على الأرض، وأنّ هؤلاء المحاربين الأميركيّين يتّسمون بالشجاعة والمهارة.

* * *

لم يهدّىء وصول قوّاتنا الشكوك في الوطن. يوم الخامس والعشرين من تشرين الأوّل/أكتوبر، قالت لي كوندي إنّ بطء وتيرة العمليّات، الذي أدّى إلى قرع طبول الانتقادات في وسائل الإعلام، كان يؤثّر في فريق الأمن القوميّ. كانت الحرب قد بدأت منذ ثمانية عشر يوماً فقط، ومع ذلك انبرى بعضهم يتحدّث عن استراتيجيّاتٍ بديلة.

خلال الفترات الدقيقة، قد تتفاعل أي إشارة إلى أنّ الرئيس عنده شكوك في جميع أنحاء النظام. في اجتماع مجلس الأمن القومي في صباح اليوم التالي، قلت: «أريد فقط التّأكّد من أنّ كلّ واحدٍ منّا يوافق على هذه الخطّة». تنقّلت حول الطاولة وسألت كلّ عضوٍ في الفريق. كانوا جميعاً موافقين. أكّدت للفريق أنّنا نملك الاستراتيجيّة الصحيحة، وكانت خطّة عملنا مصاغةً بشكل جيّد، وجيشنا قادر، وقضيّتنا عادلة، وبالتالي لا ينبغي أن نقع في فخّ التخمين أو نسمح للصحافة أن تصيبنا بالذعر. قلت: «سنبقى واثقين وصابرين، باردي الأعصاب وثابتين».

شعرت بالفرج يسود الغرفة. ذكّرتني التجربة بأنّ أكثر الناس نجاحاً وقوّةً يحتاجون أحياناً إلى الطمأنينة. كما قلت في وقتٍ لاحقٍ للصحافيّ بوب وودوارد، يجب أن يكون الرئيس «الكالسيوم في العمود الفقريّ».

ارتحت لقوّتنا عندما رأيت صحيفة نيويورك تايمز يوم ٣١ تشرين الأول/أكتوبر. كتب المراسل جوني أبل مقالاً بعنوان «عودة ذكرى المستنقع العسكريّ: أفغانستان وفيتنام». وكانت الجملة الافتتاحيّة: «مثل شبح غير مرغوبٍ فيه من الماضي التعيس، بدأت الكلمة المشؤومة «المستنقع» تتردّد في المحادثات بين مسؤولي الحكومة والطلاّب المتخصّصين في السياسة الخارجيّة، سواء هنا أو في الخارج».

كان يمكن التنبّؤ بهذا الأمر من بعض النواحي. فالصحفيّون من جيلي كانوا يميلون إلى قراءة كلّ شيء من خلال منظور ووترغيت أو فيتنام. على الرغم من ذلك، دهشت لأنّ التايمز لم تنتظر شهراً لربط أفغانستان بفيتنام.

كانت نقاط الاختلاف بين الصراعين لافتةً للنظر. العدوّ في أفغانستان قتل ثلاثة آلاف شخص بريء على الأراضي الأميركيّة. في ذلك الوقت لم يكن لدينا تقريباً أي قوّات تقليديّة في أفغانستان، بالمقارنة مع مئات الآلاف التي كانت في فيتنام. وكانت أمريكا موحّدة في دعم قوّاتنا ومهمّتهم، كما كان تحالفنا مع الدول يزيد قوّة.

لم تُعِر وسائل الإعلام هذه الفروق أيّ اهتمام. فتواصل النقاش حول ما سمّي بالمستنقع على صفحات الصحف ومحطّات الكابل. تجاهلت الأمر، وكنت أعرف أنّ معظم الأميركيّين سيصبرون ويدعموننا طالما حقّقنا النتائج.

* * *

ظهرت النتائج في أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر. بدعم من وكالة المخابرات المركزيّة والقوّات الخاصّة، تحرّك جنرالات تحالف الشمالً باتّجاه مواقع طالبان. قاد المحاربون الأفغان الهجمات البرّيّة، في حين استخدمت القوّات الخاصّة آلات GPS وأنظمة التوجيه بالليزر لتوجيه الغارات الجوّيّة. شنّ مقاتلو تحالف الشمال والقوّات الخاصّة هجوماً وحرّروا مدينة مزار الشريف الاستراتيجيّة، وخرج السكّان إلى الشوارع للاحتفال. الأسلحة الأكثر حداثةً في القرن الحادي والعشرين، جنباً إلى جنب مع فرسان محاربين يذكّر هجومهم بالقرن التاسع عشر، قاموا بطرد طالبان من معقلهم في الشمال.

شعرت بالارتياح. في حين كان عندي ثقة في استراتيّجيتنا ولم أعطِ أهمّيّة للحديث عن المستنقع، شعرت بشيء من القلق. لم يكن هناك طريقة للتأكّد ما إذا كان نهجنا سينجح. طمأنني سقوط مزار الشريف، وقلت لفلاديمير بوتين: «قد ينهار هذا الشيء مثل بذلةٍ رخيصة».

وقد انهار بسرعة. في غضون أيّام، سقطت كلّ مدينة من المدن الكبرى في الشمال تقريباً. فرّ أفراد حركة طالبان باتّجاه مخابئهم الجبليّة في الشرق والجنوب، وخرجت النساء من منازلها، وأطلق الأطفال الطائرات الورقيّة. حلق الرجال لحاهم

ورقصوا في الشوارع، واستمع أحد الرجال إلى الموسيقى، الّتي كانت محظورة في ظلّ حكم طالبان، على مسجّلة وضعها قرب أذنه، وصاح «إنّنا أحرار!». قالت امرأة مدرّسة: «أنا سعيدة لأنّني أعتقد أنّ أبواب المدرسة سوف تصير مفتوحةً للفتيات».

شعرت بسعادةٍ غامرةٍ عندما رأيت مشاهد التحرير، وكذلك شعرت لورا. يوم السبت بعد سقوط كابول، ألقت لورا الخطاب الإذاعيّ الأسبوعيّ، فكانت أوّل مرّة تقوم بذلك السيّدة الأولى في أيّ وقتٍ مضى. قالت إنّ نظام طالبان «يتراجع في معظم أنحاء البلاد، وشعب أفغانستان، ولاسيّما النساء، في حالة ابتهاج. تعرف النساء الأفغانيّات، من خلال الخبرة القاسية، ما يكتشفه الآن باقي العالم.... إنّ الحرب ضدّ الإرهاب هي أيضاً حرب من أجل حقوق المرأة وكرامتها».

أثار خطاب لورا ردود فعل إيجابيّة من جميع أنحاء العالم. جاءت أكثرها إيحاءً من النساء الأفغانيّات. فتوسيع الفرص في أفغانستان، وخاصّة أمام النساء والفتيات، صار دعوةً بالنسبة إلى لورا. في السنوات اللاحقة، التقت بمدرّسين ونساء أعمال أفغان، وسهّلت عمليّة تسليم الكتب المدرسيّة والطبّ، ودعمت مجلساً جديداً للمرأة الأفغانيّة والأميركيّة استقطب أكثر من ٧٠ مليون دولار في صناديق التنمية الخاصّة، وقامت بثلاث رحلات إلى البلاد. تماماً كما كنت أشعر براحةٍ أكبر بصفتي قائداً للقوّات المسلّحة، هي وجدت أساساً للعمل كسيّدةٍ أولى.

* * *

تحوّل اهتمامنا بتحرير شمال أفغانستان، إلى الجنوب. أبلغنا جورج تينيت ببروز حركةٍ مناهضة لطالبان تأتلف حول الزعيم البشتونيّ حامد قرضاي. لم يكن قرضاي قائداً عسكريّاً عاديّاً. نشأ وترعرع بالقرب من قندهار، وحصل على شهادة جامعيّة في الهند، أتقن أربع لغات، وعمل في الحكومة الأفغانيّة قبل أن تسيطر عليها حركة طالبان.

بعد يومين من بداية حملة قصف، همّ قرضاي على درّاجةٍ ناريّةٍ في باكستان

وعبر الحدود وحشد مئاتٍ من الرجال للسيطرة على تارين كوت، وهي مدينة صغيرة بالقرب من قندهار. اكتشف الطالبان قرضاي وأرسلوا قوّاتٍ لقتله. وبما أنّ موقعه كان على وشك الانهيار، أرسلت وكالة المخابرات المركزيّة طائرة هليكوبتر لإنقاذه. بعد فترة وجيزة، عاد قرضاي لقيادة المقاومة. وقد انضمّت إليه في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر وحدة من مشاة البحريّة. فرّ المسؤولون المتبقّون من طالبان من قندهار، وسقطت المدينة في ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ ، في الذكرى الستّين لبيرل هاربور، وشهرين بعد خطابي في قاعة المعاهدة.

* * *

بعد أن طُردت من معاقلها، فرّت فلول طالبان والقاعدة إلى الحدود الشرقيّة الوعرة لأفغانستان مع باكستان. في أوائل سنة ٢٠٠٢، شنّ تومي فرانكس هجوماً كبيراً سمّي عمليّة أناكوندا. قامت قوّاتنا بالتضامن مع شركاء التحالف والقوّات الأفغانيّة، بمحاصرة تنظيم القاعدة وما تبقّى من مقاتلي حركة طالبان في شرق أفغانستان. زحف ضبّاط السي آي أي والقوّات الخاصّة داخل الكهوف، واستدعوا ضربات جوّيّة على مخابئ الإرهابيّين، وأضعفوا جيش القاعدة.

أملت باتّصال يحمل أخباراً تفيد بأنّ أسامة بن لادن من بين القتلى أو الأسرى. كنّا نبحث عنه باستمرار، ووردتنا معلومات متتالية، لكن متضاربة، عن مكان وجوده. ثمة تقارير حدّدت موقعه في جلال آباد، وبحسب تقارير أخرى كان في بيشاور، أو في منطقة البحيرة بالقرب من قندهار، أو في مجمّع كهوف تورا بورا. لاحقت قوّاتنا كلّ دليل، واعتقدنا مرّاتٍ عدّة أنّنا وجدناه. ولكنّ المعلومات الاستخباراتيّة لم تتبلور بنجاحٍ.

اتّهمنا النقّاد بعد سنوات بأنّ تصرّفاتنا سمحت بفرار بن لادن من تورا بورا. بالتأكيد أنا لم أرَ الأمر على هذا النحو. سألت قادتنا ومسؤولي السي آي أي عن بن لادن في كثيرٍ من الأحيان. وكانوا يعملون على مدار الساعة لتحديد مكانه، وأكّدوا

لي أنّ لديهم المستويات المطلوبة من القوّات والموارد. لو كنّا نعرف على وجه اليقين في أيّ وقتٍ مضى مكان وجوده، لحرّكنا السماء والأرض لسوْقه إلى العدالة.

شكّلت عمليّة أناكوندا نهاية المرحلة الافتتاحيّة من المعركة. مثل أي حرب، لم تجرِ حملتنا في أفغانستان على نحوٍ مثالي. ولكن في غضون ستّة أشهر، كنّا قد أزلنا طالبان من السلطة، ودمّرنا معسكرات تدريب القاعدة، وحرّرنا أكثر من ستّة وعشرين مليون شخص من وحشيّةٍ لا توصف، وسمحنا للفتيات الأفغانيّات بالعودة إلى المدرسة، ووضعنا الأساس لقيام مجتمعٍ ديمقراطيّ. لم تحصل مجاعة، ولم تندلع حرب أهليّة، ولم تنهر الحكومة في باكستان، ولم تقم أي انتفاضة عالميّة من قِبَل المسلمين، ولم يحصل أيّ هجوم انتقاميّ على وطننا.

* * *

وجاءت المكاسب بكلفةٍ عالية. بين بداية الحرب وعمليّة أناكوندا، قُتِل سبعة وعشرون أميركيّاً باسلاً. قرأت كلّ اسم في تقارير الصباح المبكر على مكتب RESOLUTE. تخيّلتُ الألم الذي شعرت به أسرهم عندما ظهر الضابط أمام بابهم. صلّيت ليمنحهم الله الراحة في حزنهم.

في أوائل الحرب، قرّرتُ أن أكتب رسائل إلى أفراد عائلات الأميركيّين الذين كانوا يسقطون على أرض المعركة. أردت أن أكرّم تضحياتهم، وأعرب عن حزني، وأعبّر عن امتنان الوطن. عندما جلستُ لكتابة رسالة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، تذكّرت الرسالة الّتي وجّهها أبراهام لنكولن في سنة ١٨٦٤ إلى ليديا بيكسبي، وهي امرأة من ماساتشوستس كان يُعتقد أنّها فقدت خمسة أبناء في الحرب الأهليّة. كتب لنكولن: «أشعر كم هي ضعيفة وعظيمة أيّ كلمةٍ يمكن أن أقولها محاولاً إلهاءك عن هذه الخسارة الهائلة. لكنّني لا أستطيع الامتناع عن تقديم العزاء الذي قد تجدينه في امتنان الجمهوريّة، التي ماتوا من أجل إنقاذها. أرجو أبانا الذي في

السماوات تخفيف آلامك بسبب هذه الفجيعة والحفاظ على الذكرى العزيزة لمن أحببتِ وخسرتِ، والاعتزاز لأنّك بذلتِ هذه التضحية الغالية على مذبح الحرّيّة».

كانت رسالتي موجّهة إلى شانون سبان، زوجة مايك سبان، وهو الضابط في وكالة المخابرات المركزيّة الذي قُتِل في انتفاضة السجن في مزار الشريف وكان أوّل قتيلٍ على أرض المعركة:

عزيزتي شانون،

نيابة عن الأمة الممتنّة، نرسل، أنا ولورا، مؤاساتنا القلبيّة لك ولعائلتك على فقدان مايك. أعرف أنّ قلوبكم تتوجّع. صلواتنا معكم جميعاً.

توفّي مايك في معركة ضدّ الشرّ. بذل حياته من أجل قضيّةٍ نبيلةٍ هي الحرّيّة. يجب أن يعلم أولادك أنّ خدمته للأمّة كانت بطوليّةً وشُجاعة.

ليباركك الله، يا شانون، وليبارك أولادك، وجميع الذين يحدّون على فقدان رجُلٍ طيّبٍ وشجاع.

بصدق،

جورج دبليو بوش.

بعثتُ رسائل إلى أُسر كلّ الّذين ضحّوا بحياتهم في الحرب على الإرهاب. بحلول نهاية فترة رئاستي، كنتُ قد كتبتُ رسائل لخمسة آلاف أسرة تقريباً.

* * *

بالإضافة إلى مراسلاتي، التقيت مراراً أفراد عائلات القتلى. شعرتُ أن من واجبي تهدئة بال الذين فقدوا أحد أفراد أسرتهم. عندما سافرتُ إلى فورت براغ في آذار/ مارس ٢٠٠٢، التقيت عائلات الجنود الذين قُتِلوا خلال عمليّة أناكوندا. كنت قلقاً. هل هم غاضبون؟ هل يشعرون بالمرارة؟ كنت على استعداد لمشاركتهم في الدموع والاستماع إليهم والتحدّث معهم والقيام بأي شيء يمكن أن أفعله لتخفيف آلامهم.

إحدى الأرامل اللواتي التقيتهن كانت فاليري تشابمان. كان زوجها، وهو الرقيب التقنيّ في سلاح الجوّ جون تشابمان، قد هاجم بشجاعةٍ مخبأين لتنظيم القاعدة في الجبال النائية خلال كمين للعدوّ، وساعد في إنقاذ زملائه قبل أن يُقتل. أخبرتني فاليري أنّ جون أحبّ سلاح الجوّ. تجنّد في سنّ التاسعة عشرة وخدم لمدّة سبع عشرة سنة.

قعدتُ القرفصاء حتّى صرت على مستوى العين مع طفلتي جون وفاليري، ماديسون، وعمرها خمس سنوات، وبريانا، ثلاث سنوات. تصوّرت بناتي في هذا العمر. انكسر قلبي حين فكّرت أنّهما سوف تكبران دون أب. قلت لهما إنّه كان رجلاً طيّباً وخدم بشجاعة. وحصرت دموعي. إذا تذكّرت الفتاتان الصغيرتان شيئاً عن هذا الاجتماع في المستقبل، أردتُ أن يكون ذلك احترامي لوالدهما، وليس بكاء قائد القوّات المسلّحة.

عند نهاية الاجتماع، سلّمتني فاليري نسخة من كتيّب تذكاريّ لزوجها. قالت بتصميم: «إذا قال لك أحدهم في أيّ وقت إنّ هذا خطأ، فانظر إلى هذا». وكانت قد كتبت ملاحظةً على الكتيّب:

«جون أتمّ وظيفته، والآن دورك».

تذكّرت كلماتها وكلمات مثلها في كلّ مرةٍ اتّخذت قراراً بشأن الحرب.

* * *

تحوّل تركيزنا بمرور الوقت، من تشويق التحرير إلى تحقيق المهمّة الشاقة المتمثّلة في مساعدة الشعب الأفغانيّ على إعادة بناء البلاد، أو بدقّة أكبر، على البناء من نقطة الصفر. أفغانستان في عام ٢٠٠١ كانت ثالث أفقر بلد في العالم. أقلّ من ١٠ في المئة من السّكان تتوفّر لهم الرعاية الصحّيّة. وتزيد نسبة الأميّات على الثمانية في المئة، في حين أنّ مساحة الأراضي الأفغانيّة وعدد السكّان كانت مشابهة لتكساس، كان الناتج الاقتصاديّ شبيهاً بناتج بيلينغز في مونتانا. وكان متوسّط الحياة يبلغ مستوى قاتماً وهو ٤٦ سنة.

صارت أفغانستان في السنوات اللاحقة، تُقارن غالباً بالعراق. لكنّ البلدين انطلقا من نقطتين مختلفتين جدّاً. عند تحريرها، كان الناتج المحليّ الإجماليّ للفرد الواحد في أفغانستان أقلّ من ثلث الناتج في العراق، وكان معدّل وفيّات الرضّع في أفغانستان أكثر من ضعفي المعدّل في العراق. وبالتالي كانت مساعدة الشعب الأفغانيّ على الانضمام إلى العالم الحديث مهمّةً طويلةً وشاقّةً بلا شكّ.

عندما ترشّحت للرئاسة، لم أتوقّع أبداً تولّي مهمّةٍ من هذا النوع. في خريف سنة ٢٠٠٠، تمحورت نقاشاتي العلنيّة مع آل غور حول أهمّ القضايا الملحّة التي تواجه أميركا. لم ترد كلمات أفغانستان أو بن لادن أو تنظيم القاعدة مرّةً واحدة. لكنّنا ناقشنا بناء الأوطان. قلت في أوّل نقاش: «أنا ونائب الرئيس نختلف حول استخدام القوّات. أنا حذر جدّاً حول استخدام قوّاتنا لبناء الأوطان».

في ذلك الوقت، كنت قلقاً من الإفراط في استخدام قوّاتنا العسكريّة من خلال إرسال بعثات حفظ السلام كما فعلنا في البوسنة والصومال. لكن بعد ٩/١١، غيّرتُ رأيي. شكّلت أفغانستان المهمّة القصوى على صعيد بناء الأوطان. كنّا قد حرّرنا البلاد من دكتاتوريّة بدائيّة وكان لدينا التزام أخلاقيّ بتأسيس شيء أفضل. كما كان لدينا مصلحة استراتيجيّة في مساعدة الشعب الأفغانيّ على بناء مجتمعٍ حرّ. لجأ الإرهابيّون إلى أماكن تسودها الفوضى واليأس والقمع. أفغانستان الديمقراطيّة ستكون بديلاً مليئاً بالأمل عوضاً عن رؤية المتطرّفين.

كانت الخطوة الأولى تمكين زعيم شرعيّ. عمل كولن باول مع مسؤولين في الأمم المتّحدة على مسارٍ يسمح للشعبِ الأفغانيّ باختيار حكومة انتقاليّة، وقرّروا عقد لقاء تقليديّ أفغانيّ يدعى لويا جيرغا، أو المجلس الأعلى. لم تكن أفغانستان مكاناً آمناً بما فيه الكفاية لعقد الاجتماع، لذلك عرض المستشار الألمانيّ غيرهارد شرودر في ألمانيا، بسخاء، استضافة المجلس في بون.

بعد تسعة أيّام من المداولات، اختار المندوبون حامد قرضاي ليكون رئيساً للسلطة

المؤقّتة. عندما وصل قرضاي إلى كابول لتنصيبه في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ـ بعد مئة يوم ويومين من الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ـ استقبله عدد من قادة التحالف الشماليّ وحرّاسهم الشخصيّين في المطار. بينما كان قرضاي يمشي عبر مدرج المطار وحده، سأله أحد أمراء الحرب الطاجيك، الذي كانت تبدو عليه المفاجأة: أين هم رجالك. فأجاب قرضاي «أيّها الجنرال، أنتم رجالي. كلّ الأفغان هم رجالي».

* * *

بعد خمسة أسابيع، نظرت إلى حامد قرضاي مباشرةً للمرّة الأولى. كان يبلغ من العمر أربعاً وأربعين سنة. بملامحه الحادّة ولحيته المتموّجة، ظهر قرضاي مميّزاً. كان يرتدي رداء أخضر متلألئاً فوق سترة رماديّة وقبّعة مستدقّة الرأس مصنوعة من جلد الماعز وهي تقليديّة في قبيلته في جنوب أفغانستان.

قلت له: «سيّدي الرئيس، أهلاً بك في أميركا، وفي المكتب البيضاويّ». لقد عشتُ لحظات مدهشةً في ذلك المكتب على مرّ السنين. ولحظة استقبال زعيم أفغانستان حرّة بعد أربعة أشهر من ٩/١١ كانت إحداها.

قال قرضاي: «بالنيابة عنّي وعن شعبي، أشكركم، سيّدي الرئيس. الولايات المتّحدة حرّرت أفغانستان من الاتّحاد السوفياتيّ في الثمانينيات. والآن قمتم بتحريرنا مرّة أخرى من طالبان وتنظيم القاعدة».

وقال: «نحن مستقلّون، وسوف نقف على قدمينا. لكنّنا بحاجة لمساعدتكم. السؤال الأكثر شيوعاً الّذي يسأله وزرائي وغيرهم في أفغانستان هو ما إذا كانت الولايات المتّحدة سوف تواصل العمل معنا».

أكّدت لقرضاي أنّه يمكن الاعتماد على أميركا كشريك، وأنّنا لن نتخلّى عن بلاده مرّة أخرى. تحدّثنا عن مطاردة فلول طالبان والقاعدة، والحاجة إلى تدريب الجيش الأفغانيّ وقوّات الشرطة، وأهمّيّة بناء الطرق والعيادات الصحّيّة والمدارس.

في الليلة التالية، التقيتُ بقرضاي مرّةً أخرى في مجلس النوّاب بمناسبة إلقاء

خطابي عن حالة الاتحاد جلست لورا إلى جانبه. وخلفه بصفّ واحد، جلست نائبة قرضاي، ووزيرة أفغانستان الجديدة لشؤون النساء، الدكتورة، سيما سمر.

* * *

كانت مهمّة قرضاي الفوريّة إظهار أنّ الحياة ستتحسّن بعد رحيل طالبان. بعثت لدعمه زلماي خليل زاد، وهو أفغانيّ أميركيّ موهوب كان يعمل ضمن فريق مجلس الأمن القوميّ، ليكون بمثابة المبعوث الخاصّ، وفي وقتٍ لاحق السفير الأميركيّ. استخدم زلماي وقرضاي مئات ملايين الدولارات من المساعدات الأميركيّة لبناء البنية التحتيّة وتدريب المعلّمين وطباعة الكتب المدرسيّة وتمديد الكهرباء والمياه النظيفة لسكّان المناطق الريفيّة في أفغانستان. ساهم برنامج واحد مموّل من الوكالة الأميركيّة للتنمية الدوليّة USAID في عودة أكثر من ثلاثة ملايين طفل أفغانيّ إلى المدرسة. وهذا الرقم يشكّل ثلاثة أضعاف عدد الذين كانوا مسجّلين في المدارس في ظلّ حكم طالبان. وكان نحو مليون من الطلبة الجدد، فتيات.

سعينا من البداية إلى ضمّ العدد الأكبر من الدول إلى عمليّة إعادة البناء. فمن شأن نهجٍ متعدّد الأطراف أن يغطّي الأعباء الماليّة ويجعل الدول في جميع أنحاء العالم تستثمر في إيديولوجيّة النضال ضدّ المتطرّفين. استضاف رئيس الوزراء اليابانيّ جونيتشيرو كويزومي في اليابان مؤتمراً دوليّاً للمانحين في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وأسفر لقاء طوكيو عن تأمين ٤,٥ مليارات دولار على شكل تعهّدات. وقرّرت أميركا وعدد من الحلفاء الرئيسيّين تقاسم مسؤوليّة المساعدة في بناء المجتمع المدنيّ الأفغانيّ.

أخذنا زمام المبادرة في تدريب الجيش الوطنيّ الأفغانيّ الجديد. ركّزت ألمانيا على تدريب الشرطة الوطنيّة، وتولّت بريطانيا مهمّة مكافحة المخدّرات، وعملت إيطاليا على إصلاح النظام القضائيّ، وأطلقت اليابان مبادرةً لنزع سلاح وتسريح أمراء الحرب وميليشياتهم.

وكان تثبيت أسس الأمن شرطاً مسبقاً ضروريّاً لتحقيق المكاسب السياسيّة

والاقتصاديّة. لذلك، وكجزء من عمليّة بون، دعمنا إنشاء قوّة المساعدة الأمنيّة الدوليّة، المعروفة باسم ISAF، برعاية الأمم المتّحدة. في خريف سنة ٢٠٠٢، وافق حلف شمال الأطلسيّ على تولّي قيادة قوّة المساعدة الأمنيّة الدوليّة، الّتي تضمّنت ما يقرب من خمسة آلاف جندي من ٢٢ بلداً. كان لدينا أيضاً ثمانية آلاف جنديّ أميركي تحت قيادة تومي فرانكس لتدريب قوّات الأمن الأفغانيّة وإجراء عمليّات ضدّ فلول القاعدة وحركة طالبان.

في ذلك الوقت، بدا ثلاثة عشر ألف جنديّ عدداً جيداً. كنّا قد هزمنا حركة طالبان بواسطة عددٍ أقلّ بكثير، وكان يبدو أنّ العدو قد فرّ. اتّفقت مع قادتنا العسكريّين على أنّنا لم نكن بحاجةٍ إلى عددٍ أكبر. كنّا جميعاً حذرين من تكرار تجربة السوفيات والبريطانيّين، الذين انتهى بهم الأمر بالظهور كمحتلّين.

نجحت هذه الاستراتيجية في بادىء الأمر. ولكن في وقتٍ لاحق، ساهم نجاحنا السريع وعدد القوّات المنخفض في خلق شعورٍ زائفٍ بالراحة، وحدّت رغبتنا في الحفاظ على وجودٍ عسكريّ خفيفٍ من الموارد الّتي نحتاجها. مرّت سنوات عدّة قبل أن تصير هذه النواقص واضحة.

* * *

في حزيران/يونيو ٢٠٠٢، اجتمع الأفغان في لويا جيرغا ثانيةً لتأليف حكومةٍ انتقاليّة. صارت الحالة الأمنيّة مستقرّة بما فيه الكفاية لاستضافة المؤتمر في كابول. واختار المندوبون قرضاي لرئاسة الحكومة الجديدة، فعيّن وزراء من مجموعاتٍ عرقيّةٍ ودينيّةٍ مختلفة. جعلتُ إحدى أولويّاتي التواصل بشكلٍ منتظم مع قرضاي. كنت أعرف أنّ مهمّته شاقّة، وأردت أن أرفع معنويّاته وأن أؤكّد له الّتزامنا. قدّمت المشورة وتقدّمت بطلبات، ولكنّني حرصت على عدم إعطائه الأوامر. كانت أفضل طريقة لمساعدته على التقدّم كزعيمٍ أن أعامله على هذا الأساس.

حقّقت الحكومة الشابّة تقدّماً. في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، أخبرني الرئيس قرضاي

أنّ متوسّط الدخل الأفغانيّ قد زاد من دولارٍ واحد إلى ثلاثة دولارات في اليوم، وهو تحسّن كبير ولكنه يذكّر بمدى بدائيّة البلاد. كان الإنجاز الأكبر للحكومة صياغة مشروع دستورٍ جديدٍ أقرّته لويا جيرغا ثالثة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. البلد الذي كان قبل ثلاث سنوات يجبر النساء على طلاء نوافذ منازلهن باللون الأسود، صار الآن يحمي الحقوق الأساسيّة مثل حرّيّة التعبير والتجمّع. أنشأ الدستور جهازاً قضائيّاً مستقلاً وهيئةً تشريعيّةً من مجلسين وشرّع أنّ النساء يجب أن يشكّلن ٢٥ في المئة من مجلس النوّاب.

الخطوة التالية كانت إجراء أوّل انتخابات رئاسيّة حرّة في تاريخ أفغانستان، والتي كانت مقرّرة في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤. توعّدت حركة طالبان وتنظيم القاعدة بقتل الناخبين والمرشّحين والمسؤولين عن عمليّة الانتخاب. وساعدت الولايات المتّحدة وحلف شمال الأطلسيّ والأمم المتّحدة على تدريب العاملين في الانتخابات وحفظ أمن مراكز الاقتراع. كنت أتمنّى أن يعبّر الشعب الأفغانيّ عن رغبته في الحرّيّة من خلال الانتخابات. في الحقيقة، لم يكن بإمكان أحد توقّع ما يمكن حصوله.

شهد العالم عند بزوغ الفجر مشهداً مذهلاً. في كلّ أنحاء البلاد، اصطفّ الأفغان ابتداءً من الليل، متحمّسين للتصويت. في مقدّمة صفّ من الناخبين خارج مركز اقتراع وقفت فتاة عمرها تسع عشرة سنة، قالت: «لا أستطيع تفسير مشاعري ومدى سعادتي. لم أتصوّر أنّني سأتمكّن من التصويت في هذه الانتخابات».

تجاوزت نسبة المشاركة في جميع أنحاء البلاد، ثمانية ملايين ناخب، أي ما يقرب من ٨٠ في المئة من السكّان البالغين السنّ القانونيّة للتصويت. وشاركت كلّ المجموعات العرقيّة والدينيّة الرئيسيّة، كما فعلت الملايين من النساء، وبقيت صناديق الاقتراع مفتوحةً ساعتين إضافيّتين لاستيعاب الحشود الهائلة. نقلت كوندي الأنباء إليّ في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم في ولاية ميسوري، حيث شاركت في نقاش مع جون كيري في الليلة السابقة. كنت راضياً عن النتائج، ولكنّني لم أفاجأ.

أعتقد أنّ الرغبة في الحرّيّة مطلقة. ويبيّن التاريخ أنّه عندما تُتاح لهم الفرصة، يقدم الناس من كلّ عرقٍ ودينٍ على المخاطرات العظيمة من أجل الحرّيّة. في إحدى القرى، قال رجُل بلا أسنان، يعتمر عمامةً سوداء: «اليوم مثل يوم الاستقلال، أو يوم الحرّيّة. نحن نجلب الأمن والسلام إلى هذا البلد».

عندما تمّ فرز الأصوات، انتُخِب حامد قرضاي رئيساً للبلاد. الزمن يضعف الذكريات، ولكنّني سأتذكّر دائماً الفرح والفخر اللذين شعرت بهما في ذلك اليوم الذي جرت فيه الانتخابات للمرّة الأولى، عندما قام شعب أفغانستان ـ تلك البلاد حيث خُطِّط لهجمات ٩/١١ ـ بالاقتراع لمستقبلٍ مليء بالحرّيّة.

* * *

توجّه الشعب الأفغانيّ في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، إلى صناديق الاقتراع مرّةً أخرى، وهذه المرّة لاختيار هيئة تشريعيّة وطنيّة. ترشّح أكثر من ٢٧٠٠ شخصٍ لـ٢٤٩ مقعداً. وصوّت ما يقرب من ٧ ملايين ناخبٍ على الرغم من تهديدات طالبان والدعوات لمقاطعة الانتخابات. شمل المجلس الوطنيّ الجديد ٦٨ امرأة وممثّلين عن كلّ مجموعةٍ عرقيّةٍ تقريباً.

مثّل ديك تشيني الولايات المتّحدة في افتتاح الجمعيّة العامّة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥. افتتحَ الحفلَ بخطاب عاطفيّ ألقاه ملكُ البلاد السابق، ظاهر شاه البالغ من العمر إحدى وتسعين سنة. قال: «أشكر الله لأنّني أشارك اليوم في احتفالٍ هو خطوة نحو إعادة بناء أفغانستان بعد عقودٍ من الحرب. سينجح شعب أفغانستان!»

وشاركته تفاؤله. بعد أربع سنوات من سقوط نظام طالبان، كان الشعب قد انتخب رئيساً وبرلماناً. لكنّني عرفت أنّ الانتخابات لم تكن هناك سوى الخطوة الأولى. الديموقراطيّة رحلة تتطلّب بناء مؤسّسات الحكم، مثل المحاكم وقوّات الأمن ونظامٍ تعليميّ وصحافةٍ حرّة ومجتمعٍ مدنيّ نشط. أحرزت أفغانستان بعض التقدّم المشجّع، وعاد حوالي خمسة ملايين طفل، بينهم مليون ونصف المليون من الفتيات إلى

المدارس. وكان الاقتصاد ينمو بمعدّل أكثر من ١٥ في المئة سنويّاً. واكتمل العمل على طريقٍ سريعٍ جديدٍ من كابول إلى قندهار كان قد طال انتظاره. وعاد أربعة ملايين من أصل سبعة ملايين لاجئ إلى ديارهم.

كان يبدو ظاهريّاً أنّنا كنّا نحرز تقدّماً. ولكنّ المتاعب كانت تترصّد لنا. في حزيران/يونيو ٢٠٠٥، تعرّض فريق من قوّات البحريّة الخاصّة مؤلّف من أربعة أشخاص لكمين في أعالي الجبال على يد طالبان.

توجّه قائد الفريق، اللفتنانت مايكل ميرفي، إلى موقع مكشوف للاتّصال طلباً للمساعدة في إنقاذ ثلاثة زملاء له كانوا قد أصيبوا. بقي على الخطّ مدّةً كافيةً لتحديد موقع زملائه قبل أن يُصاب بجروح قاتلة. عندما وصلت مروحيّة تابعة للقوّات الخاصّة لسحب أفراد الفريق، أسقطها مقاتلو طالبان. قُتِل تسعة عشر أميركيّاً، ممّا يجعل هذا اليوم الأكثر دمويّة في الحرب في أفغانستان والأسوأ بالنسبة للقوّات الخاصّة منذ الحرب العالميّة الثانية. بقي أحد أفراد الفريق حيّاً، وهو الضابط من الدرجة الأولى ماركوس لتريل الّذي روى القصّة في كتابه المذهل «الناجي الوحيد».

بعد سنتين، منحتُ وسام الشرف إلى والديّ اللفتنانت مايكل مورفي في القاعة الشرقيّة من البيت الأبيض. تحدّثنا عن ابنهما، وهو رياضيّ موهوب وخرّيج متفوّق من جامعة بنسلفانيا، وقع في المتاعب في مناسبةٍ واحدةٍ عندما تدخّل في عراكٍ على ملعب المدرسة لحماية طفل معاق. في اجتماعنا قبل الحفل، قدّما لي شارةً تحمل اسم مايك وصورته ورتبته. فعلّقتها تحت قميصي وارتديتها أثناء الحفل. بينما كان المساعد العسكريّ يقرأ ما كُتِب على وسام الشرف، نظرتُ إلى الجمهور. رأيتُ مجموعةً من قوّات البحريّة الخاصّة في ملابسهم الرسميّة. الرجال العتاة انهمرت الدموع على وجوههم. كما قلت في وقتٍ سابقٍ لدانيال وMorين ميرفي، اكتسبتُ قوّةً لوجود ما يذكّر بمايك قريباً من قلبي.

* * *

كان الهجوم المدمّر على القوّات الخاصّة نذيراً بالمتاعب اللاحقة. في سنتي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، قتل مسلّحو طالبان عمّال بناء الطرق وأحرقوا مدارس وقتلوا مدرّسين في المحافظات القريبة من حدود باكستان. وفي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، اغتال انتحاريّ من طالبان حاكم مقاطعة باكتيا بالقرب من مكتبه في غارديز. وفي اليوم التالي، هاجم انتحاريّ جنازة المحافظ ممّا أسفر عن مقتل ستةّ معزّين.

شمل ما أطلعتني عليه وكالة المخابرات المركزيّة والجيش تقارير مؤلمةً على نحو متزايدٍ عن نفوذ طالبان. وقد ظهرت المشكلة من خلال سلسلة من الخرائط المرمّزة التي رأيتها في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦. كلّما كان التظليل قاتماً، عنى ذلك أنّ مزيداً من الهجمات وقع في ذلك الجزء من أفغانستان. كانت خريطة ٢٠٠٤ مظلّلة قليلاً. أمّا خريطة ٢٠٠٥ فتضمّنت مناطق مظلّلة أكثر في الأجزاء الجنوبيّة والشرقيّة من البلاد. بحلول سنة ٢٠٠٦، صار رباعي جنوب شرق البلاد أسود بالكامل. وفي سنة واحدة فقط، تضاعف عدد القنابل بالتحكّم عن بعد، وازداد عدد الهجمات المسلحّة ثلاثة أضعاف. أمّا عدد التفجيرات الانتحاريّة فصار أكثر من أربعة أضعاف.

كان واضحاً أنّنا بحاجةٍ إلى تعديل استراتيجيّتنا. كان النهج المتعدّد الأطراف الذي اعتُمِد في عمليّة إعادة البناء وأشاد به الكثيرون في المجتمع الدوليّ، فاشلاً، وكان التنسيق بين البلدان ضعيفاً، ولم يكرّس أحد ما يكفي من الموارد لدعم العمليّة. لم تُستكمَل المبادرة الألمانيّة لبناء الشرطة الوطنيّة، وفشلت البعثة الإيطالية لإصلاح نظام العدالة. وأدّت حملة مكافحة المخدّرات بقيادة البريطانيّين إلى نتائج في بعض المناطق، ولكنّ إنتاج المخدّرات ازدهر في المحافظات الجنوبيّة الخصبة مثل هلمند. أمّا الجيش الوطنيّ الأفغانيّ الذي درّبناه فقد تحّسن، ولكن في محاولة لحماية الحكومة الأفغانيّة من وطأة نفقة لا يمكنها تحمّلها، أبقينا الجيش صغيراً جدّاً.

كانت البعثة العسكريّة المتعدّدة الأطراف مصدر خيبة أملٍ أيضاً. أرسل كلّ عضو من أعضاء حلف شمال الأطلسيّ قوّاتٍ إلى أفغانستان بالإضافة إلى عشرة بلدان

أخرى. ولكنّ عدداً من البرلمانات فرض قيوداً ثقيلةً معروفةً باسم المحاذير الوطنيّة على ما يُسمح لقوّاتها القيام به. لم يُسمح للبعض بالقيام بدوريّات ليلاً. ولم يُسمح لآخرين بالمشاركة في القتال. وكانت النتيجة قوّة غير منظّمةٍ وغير فاعلةٍ تضمّ قوّاتٍ تحارب حسب قواعد مختلفة، وكثير منها لا يقاتل على الإطلاق.

ساهم الفشل في الحكومة الأفغانيّة في المشكلة. لقد أحببت الرئيس قرضاي واحترمته، ولكن كان هناك كثير من الفساد.

حصل أمراء الحرب على كمّياتٍ كبيرةٍ من الإيرادات الجمركيّة التي كان ينبغي أن تصل إلى حكومة كابول، وحصل آخرون على حصصٍ من أرباح تجارة المخدّرات. وكانت النتيجة أنّ الأفغان فقدوا الثقة في حكومتهم. ولانعدام الخيارات أمامهم، اعتمد كثير من الأفغان على حركة طالبان وقادة متطرّفين وحشيّين مثل قلب الدين حكمتيار وجلال الدين حقّاني. نقلت وكالة المخابرات المركزيّة الأفغانيّة في تقرير لها عن أحد الأفغان قوله «لا يهمّني من هو في السلطة، طالما أنّها تجلب الأمن. الأمن هو كلّ ما يهمّ».

كانت الرهانات عاليةً جدّاً لذلك كان مستحيلاً السماح بسقوط أفغانستان في أيدي المتطرّفين. قرّرتُ أنّ على أميركا تحمّل المزيد من المسؤوليّة، حتّى ولو كنّا على وشك القيام بالتزامٍ رئيسيّ جديدٍ في العراق.

قلتُ لفريق الأمن القوميّ: «اللعنة، يمكننا أن نفعل أكثر من شيء واحدٍ في وقتٍ واحد. لا يمكننا أن نخسر في أفغانستان».

في خريف سنة ٢٠٠٦، أمرت بزيادة القوّات لتعزيز مستويات قوّاتنا من واحدٍ وعشرين ألفاً إلى أكثر من واحدٍ وثلاثين ألفاً في السنتين اللاحقتين. سمّيت زيادة الـ٥٠ في المئة «زيادة صامتة»[١]. لمساعدة الحكومة الأفغانيّة وتوسيع انتشارها وفاعليّتها، ضاعفنا التمويل لإعادة الإعمار. زدنا عدد فرق إعادة الإعمار في المحافظات،

(١) جذبت الزيادة في العراق اهتماماً أكبر من ذلك بكثير.

والتي جمعت بين عسكريّين وخبراء مدنيّين لضمان ترجمة المكاسب الأمنيّة التي تحقّقت إلى تحسينات مهمّة في الحياة اليوميّة، وزدنا أيضاً حجم الجيش الوطنيّ الأفغانيّ، ووسّعنا عمليّة مكافحة المخدّرات، وحسّنّا العمليّات الاستخباراتيّة على طول الحدود مع باكستان، وأرسلنا خبراء مدنيّين من الوزارات الأميركيّة لمساعدة الوزارات الأفغانيّة على تعزيز قدراتها والحدّ من الفساد.

حثثت حلفاءنا في الناتو على مجاراة التزامنا من خلال إسقاط المحاذير على قوّاتهم وإضافة المزيد من القوّات، فاستجاب عدد من الزعماء مثل ستيفن هاربر في كندا، وأندرز فوغ راسموسن في الدانمرك، ونيكولا ساركوزي في فرنسا. قاتل البريطانيّون والكنديّون خصوصاً بشجاعة وتكبّدوا خسائر مهمّة. وكانت أميركا محظوظة لوجودهم إلى جانبنا، ونحن نكرّم تضحياتهم كما لو كانت تضحياتنا.

قال لي زعماء آخرون صراحة إنّ برلماناتهم لن توافق أبداً، وكان الأمر يبعث على الجنون. كان من المفترض أن تكون حرب أفغانستان حرباً اتّفق العالمَ على ضرورتها وعدلها. وعلى الرغم من ذلك، كان كثير من البلدان يرسل قوّاتٍ مثقلةً بالقيود إلى حدّ أنّ جنرالاتنا اشتكوا أنّها يحتلون مساحة فقط. تحوّل حلف شمال الأطلسيّ إلى تحالف ذي شطرين: بعض الدول التي ترغب في القتال والكثيرون الذين لا يرغبون بذلك.

* * *

حسّنت التعديلات في استراتيجيّتنا قدرتَنا على القضاء على المتمرّدين، ومع ذلك استمرّ العنف. لم تكن أفغانستان مصدر المتاعب الأساسيّ ولا العراق كما اقترح البعض. لقد كان السبب في باكستان.

خلال معظم فترة رئاستي، قاد الرئيس الباكستانيّ برويز مشرّف باكستان. أُعجبت بقرار وقوفه إلى جانب أميركا بعد ٩/١١. أجرى انتخاباتٍ برلمانيّةً في

٢٠٠٢ فاز فيها حزبه، وتحدثّ عن «الاعتدال المستنير» كبديلٍ للتطرّف الإسلاميّ. واجه مخاطر جدّيّة لمحاربة تنظيم القاعدة، فحاول الإرهابيّون اغتياله ما لا يقلّ عن أربع مرّات.

خلال الأشهر الأولى التي تلت تحريرنا أفغانستان، شعرت بالاضطراب بسبب تقارير عن فرار قوّات تنظيم القاعدة وطالبان إلى المقاطعات القبليّة في باكستان حيث يضعف وجود الدولة، وهي منطقة تُقارن كثيراً بالغرب الأميركيّ البرّيّ. قلت لمشرّف: «أنا على استعداد لإرسال قوّاتنا الخاصّة عبر الحدود لإفراغ هذه المناطق من طالبان والقاعدة».

قال لي إنّ إرسال القوّات الأميركيّة للقتال في باكستان سوف يُنظر إليه باعتباره انتهاكاً للسيادة الباكستانيّة. وسيترتّب على ذلك تمرّد على الأرجح، وربّما تسقط حكومته. كما يمكن أن يتولّى المتطرّفون زمام الأمور في البلاد، بما في ذلك ترسانتها النوويّة.

قلت له إن على جنوده في هذه الحالة، أخذ زمام المبادرة. نجح التدبير لعدّة سنوات، وألقت القوّات الباكستانيّة القبض على مئات الإرهابيّين، وكان من ضمنهم قادة تنظيم القاعدة مثل خالد شيخ محمّد وأبو زبيدة وأبو فرج الليبيّ. اعتقل مشرّف أيضاً أ. ق. خان المعروف بأبي القنبلة النوويّة الباكستانيّة المبجّل، بتهمة بيع مكوّنات من برنامج البلاد في السوق السوداء. كما ذكّرني مشرّف دائماً، دفعت القوّات الباكستانيّة ثمناً باهظاً لملاحقة المتطرّفين. قُتل أكثر من ألفٍ وأربعمئةٍ في الحرب على الإرهاب.

في مقابل تعاون باكستان، رفعنا العقوبات، وجعلنا باكستان حليفاً رئيسيّاً من خارج حلف الناتو، وساعدنا في تمويل عمليّات مكافحة الإرهاب. كما عملنا مع الكونغرس لتوفير مساعدات اقتصاديّة بقيمة ٣ مليارات دولار، وفتحنا أسواقنا أمام المزيد من السلع والخدمات الباكستانيّة.

أصبح واضحاً بمرور الوقت، أنّ مشرف لن، أو لا يمكنه، أن يفي بكلّ وعوده. كان الهاجس الهندي لباكستان جزءاً من المشكلة. في كلّ محادثة تقريباً بيننا، اتّهم مشرّف الهند بارتكاب مخالفات. بعد أربعة أيّام من ١١ / ٩، قال لي إنّ الهنود كانوا «يحاولون المساواة بيننا وبين الإرهابيّن ويحاولون التأثير عليك». نتيجة لذلك، أنفق الجيش الباكستانيّ معظم موارده على الاستعداد للحرب مع الهند. تدرّبت قوّاته على شنّ معركة تقليديّة مع جارته، وليس على عمليّات مكافحة الإرهاب في المناطق القبليّة، وجاء القتال ضدّ المتطرّفين في المرتبة الثانية.

وهناك مشكلة ذات صلة وهي أنّ القوّات الباكستانيّة لاحقت طالبان باندفاع أقلّ بكثيرٍ من اندفاعها في ملاحقة تنظيم القاعدة. احتفظ البعض في جهاز المخابرات الباكستانيّ أي أس أي بعلاقات وثيقة مع مسؤولي طالبان. وأراد آخرون بوليصة تأمين في حال تخلّي أميركا عن أفغانستان ومحاولة الهند كسب نفوذ هناك. مهما كان السبب، لجأ مقاتلو طالبان الّذين فرّوا من أفغانستان إلى المناطق القبليّة والمدن المأهولة بالسكّان في باكستان مثل بيشاور وكويتا. وفي سنتي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦، ساعدت هذه الملاذات التمرّد.

في آذار/مارس ٢٠٠٦، زرت الرئيس مشرّف في إسلام اباد. وتلت اجتماعنا زيارة إلى الهند حيث وقّعت مع رئيس الوزراء الهندي مانموهان سينغ على اتّفاقٍ يمهّد الطريق للتعاون النووي بين بلدينا. وكان الاتّفاق تتويجاً لجهودنا من أجل تحسين العلاقات بين أقدم ديمقراطية في العالم وأكبر ديمقراطيّة في العالم. أعتقد أنّ الهند التي يعيش فيها ما يقرب من مليار شخص بينهم طبقة وسطى متعلّمة، لديها القدرة لتكون أحد أقرب شركاء أميركا. شكّل الاتّفاق النووي خطوةً تاريخيّةً إذ أشار إلى الدور الجديد للبلاد على المسرح العالمي.

كان طبيعياً أن تثير الصفقة النوويّة مخاوف في باكستان. جادل سفيرنا، وهو مسؤول الخارجيّة المخضرم ريان كروكر،بشدّة على أنّه ينبغي علينا قضاء الليل في

إسلام آباد باعتبار ذلك علامةً على الاحترام. لم يفعل أيّ رئيس ذلك منذ الرئيس ريتشارد نيكسون قبل سبع وثلاثين سنة. كان جهاز الأمن السّرّي قلقاً، ولا سيّما بعد أن حصل تفجير بالقرب من القنصليّة الأميركية في كراتشي قبل يوم من وصولنا. لكنّ الرمزية مهمّة في مجال الدبلوماسيّة، وكنت أرغب في الإشارة إلى أنّني مهتم بعلاقتنا. غادر المطار موكب تمويه للسفارة شبه خالٍ من الرّكّاب. وجلس رئيس البروتوكول، السفير دون أنسنات، مكاني في سيّارة الليموزين الرئاسيّة، بينما انتقلت سرّاً مع لورا في هليكوبتر بلاك هوك.

كنقيض للاحتياطات الأمنيّة الصارمة، نظّم الرّئيس مشرّف زيارةً مريحةً وممتعة. استقبلنا هو وزوجته سهبا بحرارة في المقر الشبيه بالبيت الأبيض، والمعروف باسم «أيوان الصدر». التقينا مع الناجين من زلزال قوّته ٧،٦ في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي في شمال باكستان، والذي ذهب ضحيّته أكثر من ثلاثة وسبعين ألف شخص. قدّمت أميركا ٥٠٠ مليون دولار في مجال الإغاثة، وصارت طائرات الهيلوكبتر خاصّتنا من طراز شينوك تعرف باسم «ملائكة الرحمة». عزّزت التجربة درساً: إن أحد النماذج الأكثر فاعليّة في الدبلوماسية يقضي بإظهار طيبة القلب الأميركيّة للعالم.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، ذهبت الى باحة السفارة لمشاهدة لعبة الكريكيت، وهي الهواية الباكستانيّة الوطنيّة. التقيت كابتن الفريق الوطني «انضمام الحق»، وهو مايكل جوردان باكستان. أسعدتُ تلاميذ المدارس عندما قمتُ بضربات قليلة بمضرب الكريكيت. لم أتقن اللعبة، لكنني تعلّمت بعض مصطلاحاتها. وخلال العشاء الرسمي الأنيق في تلك الليلة، افتتحتُ نخبي قائلاً: «لقد خدعني googly[1]، ولولاه لكنت لاعب كريكت أفضل».

ركّزت لقاءاتي مع الرئيس مشرّف على أولويّتين. كانت إحداهما إصراره على

(١) هدف غير متوقّع.

الحكم كرئيسٍ وقائدٍ عسكريّ أعلى، ممّا يشكّل انتهاكاً للدستور الباكستاني. قد ضغطت عليه للتخلّي عن علاقته بالعسكر واستبدال ذلك بالحكم كمدني. وعد بالقيام بذلك، لكنّه لم يكن على عجلةٍ من أمره.

أكّدت أيضاً على أهميّة القتال ضد المتطرّفين، وقلت: «علينا منع هؤلاء الرجال من التسلّل الى بلدكم والعودة إلى أفغانستان».

قال مشرّف: «أنا أؤكّد لك أنّنا سنتعاون معكم ضد الإرهاب. نحن ملتزمون تماماً».

استمرّ العنف بالتزايد. حين تضاعف التمرّد، استشاط حميد قرضاي غضباً على مشرّف، فاتّهم الرئيس الباكستاني بزعزعة استقرار افغانستان، وشعر مشرّف بالإهانة بسبب هذا الادّعاء. بحلول خريف عام ٢٠٠٦، كانا بالكاد يتخاطبان، فقرّرت التدخّل من خلال خطوةٍ دبلوماسيّةٍ شخصيّةٍ جدّيّة. دعوت قرضاي ومشرّف الى مأدبة عشاء في البيت الأبيض في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦. عندما استقبالهما في حديقة الورود، رفضا المصافحة أو النظر أحدهما إلى الآخر. لم تتحسّن الأجواء عندما جلسنا الى مائدة العشاء في غرفة عشاء العائلة القديمة. أنا وديك تشيني وكوندي رايس وستيف هادلي شاهدنا قرضاي ومشرّف يتبادلان التعليقات اللاذعة. وفي إحدى المراحل، اتّهم قرضاي مشرّف بإيواء طالبان.

ردّ مشرّف: «قل لي أين هم».

ثار قرضاي قائلاً: «أنت تعرف أين هم!».

فقال مشرّف: «لو كنت أعرف لطاردتهم».

استمرّ قرضاي غاضباً: «هيّا افعل ذلك!».

بدأت أتساءل ما إذا كان هذا العشاء خطأ. قلت لمشرّف وقرضاي إن المخاطر أهمّ من المشاحنات الشخصيّة. أبقيت العشاء مستمرّاً لمدّة ساعتين ونصف الساعة،

في محاولة لمساعدتهما على إيجاد أرضيّة مشتركة. بعد بعض الوقت، توقّف التنفيس عن الغضب وصارت الجلسة منتجة. اتّفق الزعيمان على تبادل المزيد من المعلومات الاستخباراتيّة، والاجتماع بالقبائل على جانبي الحدود للحثّ على السلام، ووقف المعارك الكلامية بينهما في الأماكن العامة.

وكوسيلةٍ لايقاف تدفّق مقاتلي طالبان، أبلغنا مشرّف أنّه وقّع مؤخّرا على سلسلة من الصفقات مع القبائل في منطقة الحدود. وبموجب هذه الاتّفاقات، تغادر القوّات الباكستانيّة هذه المناطق، بينما يتعهّد زعماء القبائل بمنع طالبان من تجنيد ناشطين أو التسلّل إلى أفغانستان.

فشلت هذه الاستراتيجيّة على الرغم من حسن النيّة. إذ لم يكن عند القبائل الإرادة أو القدرة على السيطرة على المتطرّفين. وأشارت بعض التقديرات إلى أنّ تدفّق مقاتلي طالبان إلى أفغانستان صار أربعة أضعاف.

وكان مشرّف قد وعدني ووعد قرضاي ـ وكلانا كان عنده شكوك بشأن الاستراتيجيّة ـ أنّه سيرسل قوّاتٍ إلى المناطق القبليّة إذا فشلت الصفقات. ولكن بدلاً من التركيز على تلك المشكلة، صار مشرّف والعسكر مشغولين على نحوٍ متزايدٍ بأزمةٍ سياسيّة. في آذار/مارس سنة ٢٠٠٧، صرف مشرّف كبير القضاة في المحكمة العليا، لأنّه خشي من أن يصدر حكماً بأنّه يخالف القانون من خلال الاستمرار في الحكم كرئيسٍ ورئيس أركان، فسار المحامون والمدافعون عن الديمقراطيّة في الشوارع. وردّ مشرّف بإعلان حالة الطوارئ وتعليق الدستور، وصرف المزيد من القضاة، واعتقل الآلاف من المعارضين السياسيّين. وتصاعدت الضغوط عليّ لقطع العلاقات مع مشرّف.

خشيت أن يزيد التخلّص منه حالة الفوضى، فأجريت سلسلةً من المحادثات الصريحة معه في خريف سنة ٢٠٠٧. قلت: «تبدو الأمور قبيحة من هنا. الانطباع هو

أنّ المحامين يتعرّضون للضرب ويُلقون في السجن. إنّني منزعج من واقع ألاّ تكون هناك طريقة واضحة للمضي قُدُما». وشدّدت على الحل المقترح: «تحديد موعد لإجراء انتخابات حرّة، والاستقالة من الجيش، ورفع حالة الطوارئ».

قام مشرف بكلّ تلك الالتزامات وحافظ عليها. عندما حدّد موعداً لإجراء انتخابات برلمانيّة، عادت رئيسة الوزراء السابقة بنازير بوتو من المنفى للمشاركة، وترشّحت على أساس تأييد الديمقراطيّة، ممّا جعلها هدفا للمتطرّفين. اغتيلت بوتو بطريقةٍ مأساوية في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧، خلال اجتماع سياسي حاشدٍ في روالبندي. وفي شباط/فبراير ٢٠٠٨، فاز أنصارها في الانتخابات فوزاً كبيراً، وشكّلوا حكومة، وتخلّى مشرّف عن الحكم سلميّا. حلّ محلّه آصف علي زرداري، وهو أرمل بوتو، كرئيسٍ للبلاد. ونجت الديمقراطية في باكستان من الأزمة.

مع مرور الوقت، تعلّمت الحكومة الباكستانيّة درس اغتيال بوتو. عادت القوّات الباكستانيّة للقتال في المناطق القبليّة، وليس ضد تنظيم القاعدة فحسب، ولكن أيضاً ضد متطرّفي طالبان وغيرهم. ولكن ضاعت أكثر من سنة، حيث كان اهتمام باكستان منصبّاً على الأزمة السياسيّة الداخليّة. استغلّت حركة طالبان وغيرها من المتطرّفين هذه الفرصة لزيادة وتيرة عمليّاتهم في أفغانستان، ممّا زاد العنف ودفع بكثيرٍ من الأفغان للانقلاب على حكومتهم وقوّات التحالف. كان إيجاد وسيلةٍ لاستعادة مبادرة الهجوم ضرورياً.

* * *

بحلول منتصف سنة ٢٠٠٨، كنتُ قد تعبتُ من قراءة تقارير المخابرات حول ملاذات المتطرّفين في باكستان. وتذكّرتُ اجتماعاً مع القوّات الخاصّة في أفغانستان في سنة ٢٠٠٦.

سألتُ: «هل عندكم كلّ ما تحتاجون إليه؟».

رفع أحد أفراد القوّات الخاصّة يده وقال: «لا يا سيّدي».

كنت أتساءل عمّا يمكن أن تكون مشكلته.

قال: «سيّدي الرئيس. نحن بحاجةٍ إلى إذن لملاحقة بعض الأشخاص داخل باكستان».

فهمتُ خطورة التهديد وأردتُ أن أفعل شيئاً بشأن هذا الموضوع. ولكن في هذه القضيّة، كان حكم مشرّف سليماً.

عندما واجهت قوّاتنا مقاومةً غير متوقّعة، برزت المسألة في الأخبار الدوليّة. ورد في أحد العناوين الرئيسيّة في الصحف الباكستانيّة: «قوّات الكوماندوس الأميركيّة تنتهك سيادة باكستان».

انفجرت إسلام أباد غضباً، وأصدر مجلسا البرلمان بالإجماع قراراتٍ تدين عملنا. لا يمكن لأيّ ديمقراطيّة التسامح في انتهاك لسيادتها.

بحثتُ عن سبلٍ أخرى للوصول إلى المناطق القبليّة. كان بإمكان البريداتور، وهي مركبة جوّيّة من دون طيّار، إجراء المراقبة بالفيديو وإلقاء قنابل موجّهة بالليزر. أعطيتُ جماعة الاستخبارات الإذن بتكثيف الضغط على المتطرّفين. لا يزال كثير من تفاصيل عمليّاتنا سرّياً. لكن بعد أن أعطيت الأمر، سرعان ما بدأت الصحافة الإبلاغ عن المزيد من الضربات بواسطة البريداتور. وسقط الرجل رقم «٤» في تنظيم القاعدة، خالد الحبيب، ميتاً.

وكذلك كان مصير زعماء في تنظيم القاعدة مسؤولين عن الدعاية والتجنيد والشؤون الدينيّة والتخطيط لهجمات في الخارج. وصف أحد آخر التقارير التي تلقيتها تنظيم القاعدة بـ«المحاصرَ والمتآكِل» في المنطقة الحدوديّة.

كذلك كثّفنا دعمنا للحكومة الديمقراطيّة في باكستان. قدّمنا المال والتدريب والمعدّات، واقترحنا عمليّاتٍ مشتركةً لمكافحة الإرهاب؛ وجميعها تهدف إلى رفع القدرات الباكستانيّة. عندما حصلت الأزمة الماليّة في خريف سنة ٢٠٠٨، اتّخذنا خطواتٍ للتأكّد من حصول باكستان على المساعدة التي تحتاجها لتخفيف آثار الركود، والاستمرار في التركيز على القتال ضد المتطرّفين.

كان أحد آخر مشاريع فريقي للأمن القومي في الماضي إعادة تقييم استراتيجيّتنا في أفغانستان. وكان على رأس المشروع دوغ لوت، وهو جنرال بثلاث نجوم، وذكيّ جدّاً، وقد نسّق تنفيذ عمليّاتنا يوميّا في أفغانستان والعراق. دعا التقرير إلى جهدٍ أكبر في مجال مكافحة التمرّد، بما في ذلك المزيد من القوّات والموارد المدنيّة في أفغانستان وتوثيق التعاون مع باكستان لملاحقة المتطرّفين. ناقشنا ما إذا كان علينا إعلان الخلاصات في الأسابيع الأخيرة من عهدي، وناقش ستيف هادلي الأمر مع نظيره في الإدارة المقبلة، الذي فضّل أن نعطيهم التقرير سرّيًا. وجدت أنّه سيكون للاستراتيجيّة الجديدة فرصة أفضل للنجاح إذا أعطينا الفريق الجديد مجالاً لإعادة النظر فيها، بحسب منظارهم ومن ثمّ اعتمادها.

* * *

في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨، قمت بزيارةٍ وداعيّةٍ إلى أفغانستان. حطّت الطائرة الرئاسيّة في قاعدة باغرام الجوّيّة حوالى الساعة ٥:٠٠ صباحاً، قُبَيْل الفجر. توجّهت بكلامي إلى القوّات التي ملأت حظيرة: «لديّ رسالة لكم، ولجميع الذين يخدمون بلادنا. شكراً لأنّكم التزمتم الخيار النبيل لخدمة مواطنيكم الأميركيّين وحمايتهم. ما تفعلونه في أفغانستان أمر مهمّ، وشجاع، وغيريّ. إنّه شبيه بما فعلته القوّات الأميركيّة في أماكن مثل النورماندي وإيوجيما وكوريا. جيلكم عظيم مثل كلّ جيل سبقكم. والعمل الذي تقومون به كلّ يوم يعيد صياغة التاريخ للأجيال القادمة».

صافحت أفراد القوة واستقلّيت طائرة هليكوبتر من طراز بلاك هوك لرحلة الأربعين دقيقة إلى كابول.

أفغانستان هي واحدة من تلك الأماكن التي عليك رؤيتها لفهمها. الجبال عملاقة وعرة، والتضاريس قاسية وعارية، والمناظر الطبيعيّة مقفرة ومهيبة. كنت أتساءل أحياناً مثل كثير من الأميركيّين، كيف يمكن لأيّ شخص أن يختبىء من قوّاتنا العسكريّة

لمدة سبع سنوات. عندما نظرت إلى تضاريس أفغانستان، صار فهم ذلك سهلاً. عندما اقتربنا من كابول، شممت رائحة حادّة.

أدركت أنّها آتية من حرق إطارات سيّارات، وهي للأسف وسيلة تدفئة للأفغان. ولم تكن نوعيّة الهواء أفضل على الأرض. استمرّيت بالسعال لمدة أسبوع عندما عدت إلى أميركا، الأمر الذي ذكّرني بأنّ البلاد ما زال لديها طريق طويل لتقطعه.

سار الرئيس قرضاي لملاقاتي بردائه وقبّعته المميّزين عندما هبطنا في القصر الرئاسي. عرّفني على أعضاء حكومته ورافقني الى غرفةٍ كبيرةٍ لتناول الشاي. كالعادة، كان مندفعاً وحيويّاً. ابتسم بفخرٍ حين أراني صوراً لابنه الصغير الوحيد، مرويس. تحدّث عن خططه لزيادة الإنتاج الزراعي في أفغانستان وتحفيز قطاع الأعمال في مجالات مثل الاتصالات السلكيّة واللاسلكيّة. بعد الاجتماعات، رافقني إلى الفناء المغبّر، وافترقنا بعد مصافحةٍ وعناق. لا شكّ أنه قد ارتكب أخطاء. لكن على الرغم من جميع القوى التي عملت ضده، لم يفقد عزمه على قيادة بلاده نحو مستقبلٍ أفضل. ساعد في إعطاء الأمل للشعب الأفغاني، وهو أمر لم يتح لهم منذ سنواتٍ طويلة. لذلك، سيحصل دائماً على شكري واحترامي.

فيما كنتُ أهمّ بالصعود إلى المروحيّة، تذكّرتُ بعد ظهر ذلك اليوم في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ عندما أعلنتُ عن بداية الحرب من غرفة المعاهدة. تحوّلت البلاد التي هيمن عليها أحد أقسى الأنظمة في التاريخ إلى وطنٍ يحكمه الآن قادة مُنتخَبون بحرّيّة. والنساء اللاتي تعرّضن للسجن في منازلهن صرن أعضاء في البرلمان. وفي حين لا يزال تنظيم القاعدة يشكّل خطراً، فهو فقد المخيّمات التي استخدمها لتدريب عشرة آلاف إرهابي والتخطيط لهجمات ٩/١١. أدلى الأفغان بأصواتهم في انتخاباتٍ حرّةٍ كثيرةٍ، وبنوا جيشاً قادراً يضمّ تسعة وسبعين ألف جندي. وتضاعف حجم اقتصاد أفغانستان، كما ارتفع معدّل الالتحاق بالمدارس من تسعمئة ألف إلى ستّة ملايين، بينهم أكثر من مليوني فتاة.

وارتفع معدّل الأشخاص الذين يمكنهم الحصول على الرعاية الصحّيّة من ثمانية في المئة إلى ثمانين في المئة. في سنة ٢٠١٠، كشفت وزارة الدفاع الأميركيّة أنّ علماء الجيولوجيا اكتشفوا رواسب معدنيّة في أفغانستان قيمتها تبلغ ما يقرب من ألف بليون دولار، وهو مصدر ثروةٍ محتمل للشعب الأفغاني ما كانت حركة طالبان لتجده أبداً.

كنت أعرفُ أيضاً أنّني سأترك ورائي أعمالاً غير مكتملة. وكنتُ أرغب بشدّة بسوْق بن لادن إلى العدالة، وأنا آسف جدّا لعدم تمكّننا من فعل ذلك، وبالتأكيد لم نوفّر جهداً لتحقيق ذلك. مارسنا الضغط لمدّة سبع سنوات، وعلى الرغم من أنّنا لم نتمكّن من العثور على زعيم تنظيم القاعدة، فقد أجبرناه على تغيير طريقة تنقّلاته واتّصالاته وعمليّاته، ممّا ساعدنا على حرمانه من تحقيق أعظم رغباته بعد ٩/١١: الهجوم على أميركا مرّة أخرى.

فيما أكتبُ في سنة ٢٠١٠، لا تزال الحرب في أفغانستان مستمرّة. حركة طالبان لا تزال نشطة، والحكومة الأفغانيّة لا تزال تكافح من أجل السيطرة الكاملة على البلاد. من البداية، كنتُ أعرف أنّ مساعدة الشعب الأفغاني على بناء ديمقراطيّة فاعلة بما يتّفق مع ثقافته وتقاليده ستستغرق بعض الوقت، وصارت المهمّة أكثر صعوبةً ممّا توقّعت. لم تكن حكومتنا مستعدّةً لبناء الأوطان، ومع الوقت تكيّفت استراتيجيّتنا وقدراتنا. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الفقر في أفغانستان عميق جدّا، والبنية التحتيّة ناقصة جدّا، وبالتالي سوف يستغرق إكمال العمل سنوات كثيرة.

أعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ المهمّة تستحقّ التكلفة، ولحسن الحظ، فأنا لستُ الوحيد الذي يعتقد ذلك. في خريف عام ٢٠٠٩، واجه الرئيس أوباما النقّاد بنشر المزيد من القوّات، وأعلن التزاماً جديداً بمكافحة التمرّد في أفغانستان، وزاد الضغط على باكستان للقتال ضد المتطرّفين في المناطق القبلية.

في نهاية المطاف، فإنّ الطريقة الوحيدة التي تسمح لطالبان والقاعدة باستعادة

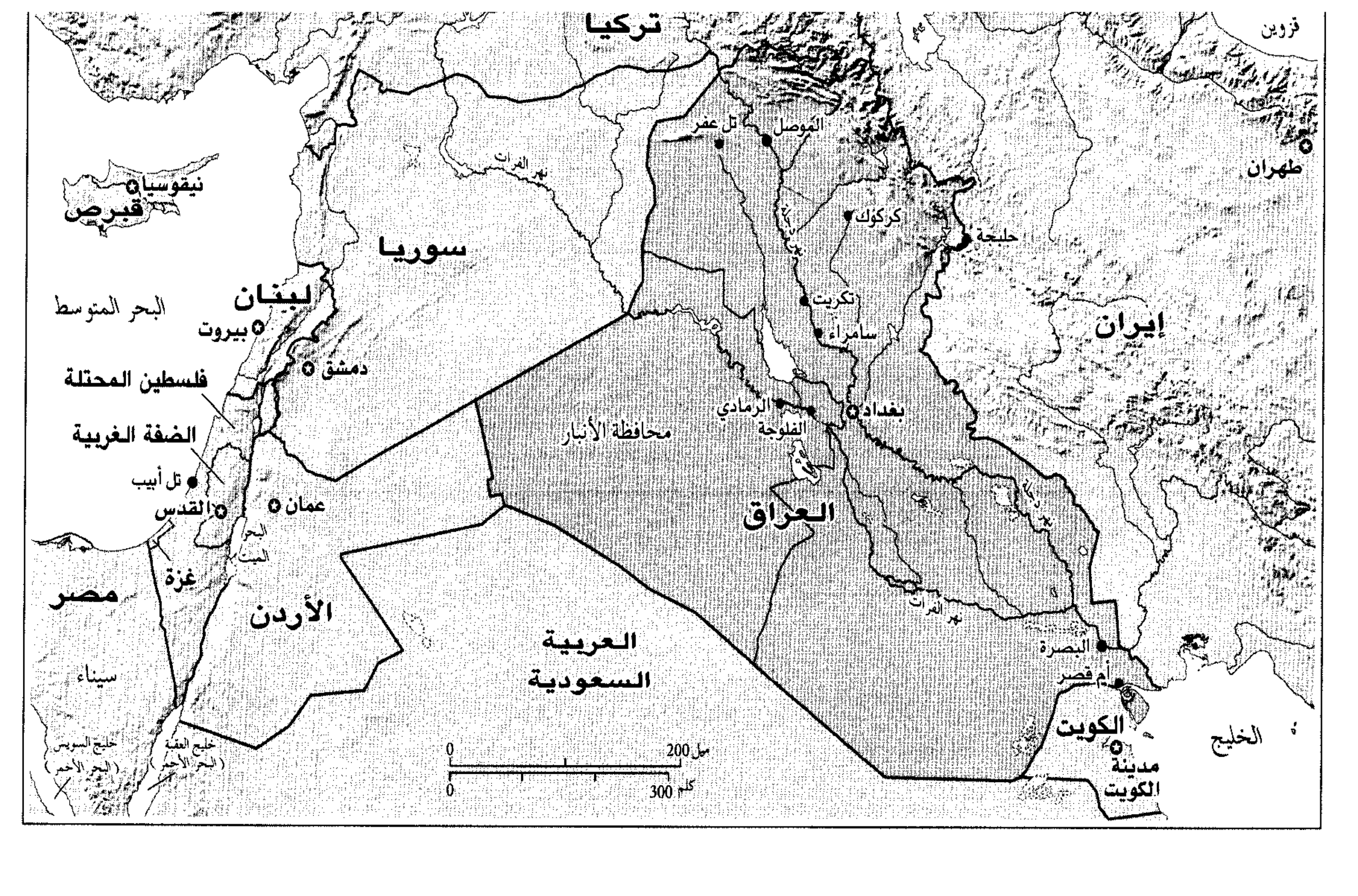
أفغانستان هي تخلّي أميركا عن البلاد. إن السماح للمتطرّفين باستعادة السلطة سيدفع المرأة الأفغانيّة، مرةً أخرى، نحو التبعيّة، وطرد البنات من المدارس، وإطاحة كلّ المكاسب التي حقّقناها خلال السنوات التسع الماضية. وهذا سيعرّض أمننا للخطر أيضاً. بعد الحرب الباردة، تخلّت الولايات المتحدة عن أفغانستان، وكانت النتيجة الفوضى والحرب الأهليّة وسيطرة طالبان وتحويل البلاد إلى ملاذٍ لتنظيم القاعدة وكابوس ٩/١١. إن نسيان هذا الدرس سيكون خطأً رهيباً.

* * *

قبل إقلاعنا من قاعدة باغرام الجويّة للعودة إلى أميركا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨، عدت إلى الحظيرة للاجتماع الأخير في آخر رحلةٍ لي كرئيس للبلاد. وقفت في الغرفة مجموعة من القوّات الخاصّة، وكان كثير منهم قد خدم مرّاتٍ عدّة، فلاحقوا الإرهابيّين وطالبان في الجبال المتجمّدة، وتولّوا إحدى أصعب المهامّ وأخطرها في العالم. صافحتهم وعبّرت لهم عن شكري لخدمتهم.

ثمّ دخلت الغرفة مجموعة صغيرة من الجنود من الفوج ٧٥ للرينجرز. سألني قائد الفصيلة الكابتن رامون راموس إذا كنتُ على استعدادٍ للمشاركة في مراسم قصيرة. أخرج العلم الأميركي من حقيبة ورفعه بيده اليمنى. وقف كثير من رجاله قبالته وفعلوا الشيء نفسه. ألقى يميناً كرّره الرجال: «أقسم بأنّني سوف أدعم وأدافع عن دستور الولايات المتحدة ضد كلّ الأعداء في الخارج والداخل...».

هناك في تلك الحظيرة المنفردة، في البلاد حيث تمّ التخطيط لهجمات ٩/١١، وفي السنة الثامنة لحربٍ من أجل حماية أميركا، اختار هؤلاء الرجال في الخطوط الأمامية، العودة إلى الخدمة.


تركيا
قزوين
طهران
إيران
نيقوسيا
قبرص
سوريا
نهر الفرات
تل عفر
الموصل
كركوك
حلبجة
تكريت
سامراء
بغداد
الرمادي
الفلوجة
محافظة الأنبار
العراق
لبنان
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
فلسطين المحتلة
الضفة الغربية
تل أبيب
القدس
عمان
البحر الميت
غزة
مصر
الأردن
سيناء
العربية
السعودية
البصرة
أم قصر
الكويت
مدينة
الكويت
الخليج
خليج السويس
(البحر الأحمر)
خليج العقبة
(البحر الأحمر)
0
200 ميل
0
300 كلم

٨

العراق

توجّهت يوم الأربعاء الموافق ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٣، إلى اجتماع تمنيتُ ألاّ يكون ضرورياً.

كان مجلس الأمن القومي منعقداً في غرفة الأزمات بالبيت الأبيض، وهي عبارة عن مركزٍ حيويّ لمعدات الاتصالات وضباط الخدمة في الطابق الأرضي بالجناح الغربي. وكان اللواء تومي فرانكس ظاهراً في المربع الأوسط العلوي من شاشة البث التلفزيوني المؤمَّن، مجتمعاً بكبار نوابه في قاعدة الأمير سلطان الجوية بالمملكة العربية السعودية. وفي المربعات الخمسة الباقية من الشاشة ظهر قادة الجيش والبحرية والمارينز والقوات الجوية والعمليات الخاصة. كذلك انضم إليهم نظراؤهم من قادة القوات المسلحة البريطانية وقوات الدفاع الاسترالية.

سألت كلٍ رجل منهم سؤالين: هل لديك كل ما تحتاجه للانتصار في المعركة؟ وهل أنت مرتاح للاستراتيجية المطبقة؟

وقد أجاب كل منهم مؤكَداً: نعم.

وكان تومي هو المتحدث الأخير، فأورد قائلاً: سيدي الرئيس، إن قواتنا جاهزة .

استدرت إلى دونالد رامسفيلد، وقلت له: السيد وزير الدفاع، نُصرةً لسلام العالم ولصالح العراقيين وحريتهم، فإنني أصدر أوامري بتنفيذ عملية (الحرية للعراق)،وأدعو الله أن يحفظ جنودنا.

فأدّى رامسفيلد التحية قائلاً: سيدي الرئيس، أدعو الله أن يحفظ أميركا.

وبينما رددت له التحية، شعرت بهيبة اللحظة تغمرني. ذلك أنني ولفترةٍ تزيد عن العام، حاولت أن أعالج التهديد الذي يفرضه صدّام حسين دون اللجوء إلى خيار الحرب. وقد جمعنا تحالفاً دولياً للضغط عليه للإفصاح عما لديه من برامج أسلحة الدمار الشامل. وتحصّلنا على قرارٍ بالإجماع من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، حيث أوضح القرار أن الاستمرار في التحدي سيكون له عواقب خطيرة. وتواصلنا مع الدول العربية حول خيار نفي صدام. ومنحتُ صدّام وأولاده مهلةً أخيرةً قدرها ٤٨ ساعة لتجنّب الحرب، إلا أن الدكتاتور رفض كل الفرص. وبذلك بات الاستنتاج الوحيد المنطقي من هذا هو أن لديه ما يخفيه، ولديه شيء مهم للغاية ويرغب من أجله في خوض الحرب.

كنت واعياً للنتائج التي سيتمخّض عنها قراري. وقد بكيتُ مع من بكينَ من أرامل جنودنا القتلى في أفغانستان، وعانقت الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم أو آباءهم. لم أكن أرغب في أن أرسل مواطنين أميركيين إلى ساحة القتال مرةً أخرى. لكن بعد كابوس ٩/١١، قطعت وعداً بأداء الواجب لحماية أميركا. علماً بأن إفساح المجال أمام ذلك العدو الرابض، لكي يرفض الإفصاح عما لديه من أسلحة الدمار الشامل، كان بمثابة مخاطرةٍ لا يمكنني تحمّلها.

احتجتُ إلى بعض الوقت لاستيعاب الموقف. لذا تركتُ غرفة العمليات وصعدتُ درجات السلم وعبرت من خلال المكتب البيضاوي، ثم قمتُ بجولةٍ بطيئةٍ وصامتةٍ حول الحديقة الجنوبية. وكنت أتلو صلواتي من أجل قواتنا، ومن أجل أمن البلاد، وأن تقوى عزيمتنا خلال الأيام القادمة. وعندما رأيتُ كلبتنا الصغيرة المربوطة خارج

البيت الأبيض، شعرتُ بالراحة لرؤية صديق. فسعادتها كانت على عكس الثقل الموجود في قلبي.

لم يكن هناك سوى شخصٍ واحدٍ يمكنه الشعور بما أحس به. ولذا جلستُ على مكتبي في غرفة المعاهدة Treaty Room لأكتب رسالة:

والدي العزيز

في حوالي الساعة٩:٣٠ صباحاً، أصدرت أوامري إلى وزير الدفاع بتنفيذ مشروع الحرب المسمّى بعملية تحرير العراق. وعلى الرغم من القرار الذي اتخذته منذ شهور باستخدام القوة ـ إذا لزم الأمر ـ لتحرير العراق وتطهيرها من أسلحة الدمار الشامل؛ إلا أن هذا القرار كان قراراً عاطفياً... أعلم أني اتخذتُ القرار الصائب، وأدعو أن تكون الخسائر أقل ما يمكن. سيتحرّر العراق، وسيصبح العالم في أمان. لقد مرت اللحظة العاطفية، وأنا الآن في انتظار التقرير عن العملية السرية الجارية. أعلم ما مررت به.

مع حبي

جورج

وبعد ساعات وصلني الرد عبر الفاكس:

عزيزي جورج،

لقد وصلتني رسالتك للتو، وأثّرت فيّ كثيراً. اعلم أنك تفعل ما يجب فعله. فالقرار الذي اتخذته هو أقوى قرار اتخذته حتى الآن. ولكن ما أعلمه أنك اتخذته بعزيمةٍ وبشفقةٍ في الوقت نفسه. يجب عليك القلق على خسارة الأرواح سواءً كانت عراقية أم أميركية؛ ولكنك فعلتَ ما يتوجّب عليك فعله.

ولعل ما تفعله يساعدك ولو قليلاً في مواجهة أعتى المشاكل التي لم تواجه أي رئيسٍ للولايات المتحدة منذ عهد لينكون: فأنت تحمل العبء بعزيمةٍ وشرف...

وتذكّرْ كلمات روبن: أحبك بما يعجز لساني في التعبير عنه. وأنا أحبك كذلك.

مع خالص تحياتي

والدك

* * *

شكلت القنابل التي سقطت على بغداد تلك الليلة علامةً للمرحلة الافتتاحية في تحرير العراق، إلا أنها لم تكن الضربة الجوية الأولى في العراق لتتصدّر الأخبار خلال فترة رئاستي.

قمت في شباط/فبراير ٢٠٠١، بزيارة الرئيس فيسنتي فوكس في سان كريستوبال، المكسيك. وقد صممت رحلتي الخارجية الأولى كرئيسٍ لتسليط الضوء على التزامنا بتعزيز الديمقراطية وتوسيع التجارة في أميركا اللاتينية. وللأسف، وردت أخبار مفاجئة من العراق. بينما كنّا نستمتع بمناظر مزرعة فيسنتي الهادئة، ضربت قاذفات القنابل الأميركية نظام الدفاع الجوي العراقي. كانت مهمة روتينية نسبياً لفرض مناطق حظر الطيران التي تم إنشاؤها بعد ذبح صدّام لآلاف الأبرياء من الشيعة والأكراد بعد حرب الخليج[1].

أطلق صدّام سيل الصواريخ التي أضاءت سماء بغداد ولفتت انتباه السي أن أن CNN. وعندما توجهنا، فنسنت وأنا خارج المنزل لعقد مؤتمر صحفي، بدأ مراسل مكسيكي سؤاله: لدي سؤال للسيد الرئيس بوش.... هل هذه بداية حرب جديدة؟.

كان تصعيد العنف بمثابة تذكيرٍ للوضع المتدهور الذي واجهته أميركا في العراق.

(١) الشيعة طائفة مسلمة، تشكل نحو ٦٠ في المئة من سكان العراق. الأكراد، الذين هم في الغالب مسلمون يحدَّدون في المقام الأول بواسطة مجموعتهم العرقية، ويشكلون حوالي ٢٠ في المئة. العرب السنة هم الطائفة المسلمة التي تتمتع بوضع متميزٍ في ظل حكم صدام، تمثل ١٥ في المئة. المسيحيون واليزيديون والصابئة واليهود وغيرهم يشكلونّ النسبة الباقية.

فقبل أكثر من عقدٍ من الزمان، في آب/أغسطس ١٩٩٠، أطلق صدّام حسين دبابات عبر الحدود إلى الكويت. أعلن والدي أن عدوان صدّام غير المبرر لن يقف، وأعطاه مهلة للانسحاب من الكويت. وعندما تحدى الديكتاتور مطالبه، حشد أبي ائتلافاً من ٣٤ بلداً، بما في ذلك الدول العربية، لفرض تطبيقه.

كان قرار إرسال قوات أميركية إلى الكويت سبباً في شعور جورج بوش الأب بالأسى، وكان اتخاذ هذا القرار محبطاً له. وصوّت مجلس الشيوخ للقوات العسكرية بفارق بسيط، ٥٢ إلى ٤٧. ووجه بعض المشرّعين خطاباً إلى والدي يضم توقعات عن وقوع ما بين عشرة آلاف إلى خمسين ألف حالة وفاة بين الأميركيين. وألح الرئيس السابق جيمي كارتر على أعضاء مجلس الأمن بمعارضة وقوع الحرب، إلا أن الأمم المتحدة صوّتت لهذا القرار.

حققت عملية عاصفة الصحراء نجاحاً مدهشاً، وطردت قوات التحالف الجيش العراقي خارج الكويت في أقل من ١٠٠ ساعة. وفي النهاية قُتِل ١٤٩ جندياً أميركياً في الحرب. شعرتُ بالفخر إزاء إصرار والدي، وتساءلت ما إذا كان سيرسل قواتٍ إلى بغداد، فلقد كانت لديه الفرصة للتخلّص من عالم صدّام نهائياً وإلى الأبد، ولكنه توقف عند تحرير الكويت، وكانت هذه رؤيته للمهمة من وجهة نظره الخاصة. هذا هو ما صوّت له الكونغرس الأميركي وما نفّذه التحالف، وقد فهمت عقلانيته تماماً.

* * *

قضى قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ كشرطٍ لإنهاء أعمال الحرب في الخليج، بإلزام صدّام حسين بتدمير أسلحة وصواريخ الدمار الشامل الموجودة بحوزته، تلك التي يصل مداها إلى ٩٠ ميلاً أو أكثر. وقد تسبّب هذا القرار في منع العراق من امتلاك أسلحة بيولوجية أو كيميائية أو نووية أو الوسائل اللازمة لتصنيعها. ولضمان الامتثال لهذا القرار، لزم على صدام الخضوع لنظام الرصد والتحقّق التابع للأمم المتحدة.

ادّعى صدّام في بداية الأمر، امتلاكه لمخزون احتياطي محدود من الأسلحة الكيميائية والصواريخ من نوع سكود، وبمرور الوقت، اكتشف مفتشو الأمم المتحدة ترسانةً ضخمةً ومروّعة؛ حيث قام صدّام بتعبئة آلاف من القنابل وقذائف الرؤوس الحربية بالأسلحة الكيميائية، وكان لديه برنامج لتصنيع أسلحة نووية يستغرق عامين لخروج أول قنبلة نووية إلى النور، وهو ما يعد أقرب بكثير من الزمن الذي قدّرته وكالة الاستخبارات الأمريكية قبل الحرب وهو من ثمانية إلى عشرة أعوام. فعندما انشق زوج ابنة صدّام في عام ١٩٩٥، أقر صدام بإخفاء نظامه لبرنامج أسلحة بيولوجية يحتوي على الجمرة الخبيثة والبوتوكس.

فرضت الأمم المتحدة، للحد من قدرات صدّام، عقوباتٍ إقتصاديةً صارمة. ولكن في الوقت الذي تلاشى فيه الغضب من غزو العراق للكويت، تغير اتجاه اهتمام العالم. حوّل صدّام ما يقرب من ملياري دولار من برنامج النفط مقابل الغذاء ـ الذي أقرّته الأمم المتحدة لتوفير الاحتياجات الإنسانية الأساسية للمدنيين الأبرياء من العراقيين ـ لإثراء المقربين منه ولإعادة تشكيل قوته العسكرية، بما في ذلك البرامج ذات الصلة بأسلحة الدمار الشامل. ففي الوقت الذي عانى فيه أطفال العراق الجوع، أطلق صدام حملةً دعائيةً لإلقاء اللوم على العقوبات على أنها سبب المعاناة.

كان صدّام بحلول عام ١٩٩٨، قد أقنع الشركاء التجاريين الرئيسيين مثل روسيا وفرنسا بالضغط على الأمم المتحدة لتخفيف القيود المفروضة عليه. ثم أرغم مفتشي الأمم المتحدة الباحثين عن أسلحة الدمار الشامل العراقية على مغادرة البلاد. كانت المشكلة واضحة: صدّام لم يثبت أبداً بأنه دمر كل أسلحته من حرب الخليج. بمغادرة المفتشين، لم يعرف أحد ما إذا كان صدّام قد أعاد مباشرة برامجه.

وقد ردت إدارة الرئيس بيل كلينتون بشن عملية ثعلب الصحراء، وهي ضربة عسكرية جوية قامت بها كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة واستمرت لمدة أربعة أيام وكانت تهدف إلى تجريد صدّام من أسلحة الدمار الشامل. وقد أوضح الرئيس بيل كلينتون في خطابه إلى الأمة من المكتب البيضاوي في ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨ قائلاً:

الحقيقة المرّة هي أنه ما دام صدّام لا يزال في السلطة، فإنه يهدد مصالح شعبه والسلام في منطقته وأمن العالم بأكمله. وأفضل طريقة لإنهاء هذا الخطر إلى الأبد هي مع وجود حكومةٍ عراقيةٍ جديدة؛ حكومةٍ مستعدةٍ لأن تعيش في سلام مع جيرانها؛ حكومةٍ تحترم حقوق شعبها.

على الرغم من عواقب هذه الإجراءات إلا أنه يجب موازنتها بثمن عدم التحرك. فإذا قام صدّام بتحدي العالم ولم نقم بالرد فإننا سنواجه خطراً أكبر بكثيرٍ في المستقبل. سوف يوّجه صدامُ ضربةً أخرى إلى جيرانه. سوف يجُرُّ حرباً على شعبه. اصغوا جيداً لما أقول! سوف يطوِّر أسلحة دمارٍ شامل. وسوف يقوم بنشرها واستخدامها.

في السنة ذاتها، أقر الكونغرس بالإجماع قانون تحرير العراق الذي وقّعه الرئيس كلينتون. لقد كشف القانون عن سياسة رسمية جديدة للولايات المتحدة: دعمُ الجهود الرامية إلى إزالة النظام الذي يرأسه صدّام حسين من السلطة في العراق وإلى تعزيز ظهور حكومة ديمقراطية.

* * *

بحلول أوائل عام ٢٠٠١ كان صدّام يراهن على حرب سهلةٍ ضد الولايات المتحدة. وفي عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠ قامت قواته بإطلاق النار سبعمئة مرة على طيارينا عند قيامهم بدوريات في مناطق حظر الطيران.

ركزتُ سياستي في الأشهر الثمانية الأولى لي في منصبي على تشديد فرض العقوبات أو – كما كان كولين باول يعبر عنها ـ إبقاء صدّام في قوقعته. وبعد ذلك جاءت ضربة ٩/١١ وكان علينا تجديد نظرتنا لكل تهديدٍ في العالم. كانت هناك حكومات راعية للإرهاب. وكان هناك أعداء ألداء لأميركا، وحكومات تتسم بالعداء وتهدد جيرانها. وكان هناك دول تنتهك المتطلبات الدولية وطغاة يقمعون شعوبهم.

وكان هناك أنظمة تسعى إلى الحصول على أسلحة الدمار الشامل. واجتمعت هذه التهديدات بكليتها في العراق.

لم يتعاطف صدّام حسين مع الإرهابيين فحسب، ولكنه قام أيضاً بدفع مبالغ لعائلات الانتحاريين الفلسطينيين وآوى الإرهابيين مثل أبو نضال الذي قاد هجماتٍ أدت إلى مقتل تسعة عشر من موظفي مكاتب تذاكر الطيران الإسرائيلي في روما وفيينا، و أبو عباس الذي خطف السفينة السياحية الإيطالية أشيل لاورو وقتل أحد المسنين الأميركيين الملازم لكرسي متحرك.

لم يكن صدّام عدوا لدوداً لأميركا فحسب، بل أطلق النار على طائراتنا أيضاً، وأصدر بياناً أثنى فيه على هجوم ٩/١١، كما حاول اغتيال رئيسٍ سابق، وهو والدي.

لم يهدد صدّام حسين جيرانه فحسب؛ بل غزا اثنين منهم: إيران في عقد الثمانينيات، والكويت في التسعينيات.

صدّام حسين لم ينتهك المطالب الدولية فحسب، بل تحدّى ستةَ عشرَ قراراً من قرارات الأمم المتحدة التي يعود تاريخها إلى حرب الخليج.

صدّام حسين لم يحكم بوحشية فحسب، بل عذّب، هو وأتباعه، الناس الأبرياء، واغتصب المعارضين السياسيين أمام أُسَرِهم، وأحرق المُنشقّين بماء النار، وألقى عشرات الآلاف من العراقيين في مقابر جماعية. في عام ٢٠٠٠، أصدرت حكومة صدّام مرسوماً مفاده أن من ينتقد الرئيس أو عائلته سوف يُقطَع لسانُه. وفي وقتٍ لاحق من تلك السنة، قُطع رأس طبيبة ولادة بتهمة ممارسة البغاء. لقد كانت الجريمة الحقيقية لتلك المرأة التحدث جهاراً عن الفساد في وزارة الصحة العراقية.

لم يسع صدّام حسين للحصول على أسلحة الدمار الشامل فحسب، بل استخدمها بالفعل. ونشر غاز الخردل وغازات الأعصاب ضد الإيرانيين، وقام بمجزرة قتل فيها خمسة آلاف من المدنيين الأبرياء في هجوم كيماوي على قرية حلبجة الكردية في عام ١٩٨٨. لم يعرف أحد ماذا فعل صدّام حسين بمخزون أسلحته البيولوجية

والكيميائية وبالأخص بعدما قام بطرد المفتشين من البلاد. ولكن بعد مراجعة المعلومات، توصلت جميع الأجهزة الاستخباراتية الى النتيجة نفسها: ألا وهي أن صدّام يملك أسلحة دمارٍ شاملٍ فى ترسانته الحربية كما يملك القدرة على إنتاج المزيد منها. وقد لخص تقرير استخباراتي المشكلة كالتالي: منذ انتهاء التفتيش في سنة ١٩٩٨ احتفظ صدّام بمجهودات إنتاج الأسلحة الكيميائية، كما حفّز برنامج الصواريخ، وضخ المزيد من الاستثمارات في الأسلحة البيولوجية، ثم حاول أن يتقدم في المجال النووي.

كان صدام قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر مشكلةً يمكن للولايات المتحدة التعامل معها. ولكن من خلال المنظور العالمي في أعقاب ٩/١١ تغيرت رؤيتي للأمر. رأيتُ بعيني الخراب الذي يمكن أن يحدثه تسعة عشر متطرفاً مسلّحاً بأمواسٍ لفتح العلب الكارتونية. وتخيّلت الدمار الذي يمكن أن يحدث لو أعطى ديكتاتور معادٍ أسلحة الدمار الشامل التي لديه للإرهابيين. ومع كل التهديدات المتدفقة إلى المكتب البيضاوي بشكلٍ يومي – والكثير منها بخصوص أسلحة كيميائية أو بيولوجية أو نووية ـ أصبحت هذه الفكرة مخيفة ومُحتمَلة الحدوث. كانت المجافزة مرتفعة الثمن للوثوق بكلمة الديكتاتور في مقابل حجم الأدلة وتوافق العالم. كان الدرس الذي تعلمناه ٩/١١ هو أنه لو انتظرنا حتى يصبح الخطر محدقاً، فاننا نكون انتظرنا أطول مما يجب. ووصلتُ إلى قرار: سوف نواجه الخطر الآتي من العراق بطريقةٍ أو باخرى.

* * *

كان خياري الأول استخدام الدبلوماسية. إلا أن تاريخنا في استخدام الطرائق الدبلوماسية مع العراق لم يكن مشجعاً. ففي الثمانينيات حافظنا على علاقاتٍ ثنائيةٍ مع العراق، وحصلنا على قرارت مجلس الأمن في التسعينيات. وعلى الرغم من تعهداتنا إلا أن صدام كان دائماً يسعى للحرب.

إن كان مقدّراً للدبلوماسية أن تنجح فنحن في حاجةٍ إلى مدخلٍ مختلفٍ تماماً. نعتقد أن عشق السلطة نقطة ضعف صدّام وأنه سيفعل أي شيء ليحتفظ بها. إن استطعنا إقناعه بأننا جادون في إزالة نظامه هناك فرصة لأن يسلّم أسلحة الدمار الشامل التي يملكها، وأن يوقف دعمه للإرهاب ويوقف تهديد جيرانه، وبمرور الوقت يحترم الحقوق الإنسانية لقومه. تبدو عقبات النجاح كثيرة لكنها في المقابل تستحق الجهد المبذول. هذا المدخل يسمى بالدبلوماسية القسرية أو دبلوماسية الإكراه.

اتخذت دبلوماسية الإكراه المتبعة مع العراق مسارين: أحدهما هو حشد تحالف من الأمم للتأكيد على أن استخفاف صدام بالتزاماته الدولية لم يكن مقبولاً. وأما الآخر فهو تحديد خيارٍ عسكري معقولٍ يتسنى استخدامه إذا لم يذعن. وكانت الخطة تحرك هذان المساران بالتوازي في بادئ الأمر. وبعد أن تصبح الرؤية أكثر وضوحاً بالنسبة للخيار العسكري ويصبح في وضع متقدم فسوف يتسنى لهذين المسارين أن يلتقيا عند نقطة واحدة، وسوف يكون نفوذنا قد بلغ ذروته في اللحظة التي تسبق التقاءهما. وسوف تكون تلك هي لحظة اتخاذ القرار الذي سيكون في نهاية المطاف هو القرار الذي سيتخذه صدّام حسين بنفسه.

* * *

في شباط/فبراير ٢٠٠١، جاء رئيس الوزراء البريطاني توني بلير وزوجته تشيري، لزيارتنا أنا و لورا في كامب دايفيد. وكان توني أول زعيم أجنبي نوجه له الدعوة، تعبيراً عن تقديرنا للعلاقة المميزة التي تربط الولايات المتّحدة وبريطانيا العظمى.

لم أكن متيقناً مما أتوقعه من توني. فقد كنت أعلم أنه من يساريي حزب العمل الوسطي وصديق مقرّب من بل كلينتون، عرفت بسرعة أنه صريح وودود وساحر.

لم يُبدِ توني وتشيري شيئاً من الغطرسة. وبعد العشاء قررنا مشاهدة أحد الأفلام. وعندما اتفقنا على مشاهدة «تعرّف بالوالدين» وهو فيلم كوميدي بطولة روبرت دي نيرو وبن ستيلر، عرفت أنا ولورا أن آل بوش وآل بلير سوف ينسجمون معاً.

تحدثتُ أنا وتوني حول القضايا الرئيسية المطروحة على الساحة، وقد أعطاني موجزاً عن السياسة الأوروبية حيال هذه القضايا. كما ناقشنا أهدافنا المشتركة للتوسّع في التجارة الحرة والتخفيف من حدة المعاناة في أفريقيا والتعامل مع العنف الدائر في الأرض المقدسة. ولم نضيّع الكثير من الوقت في مناقشة المسائل الاجتماعية؛ فتلك كانت أمور سنتناولها فيما بعد أنا وتشيري.

وجه آل بلير في صيف عام ٢٠٠١، دعوةً للورا ولي إلى تشيكرز، المنزل الريفي ذي الطابقين الذي يملكه رئيس الوزراء البريطاني. التشيكرز منزل كبير ذو صرير يكتظ بالأثاث الريفي المريح وبلوحات زيتية لرؤساء الوزراء السابقين. وبدلاً من إعداد استقبالٍ رسمي نظّمت لنا أسرة بلير عشاءً دافئاً مع أطفالهم الأربعة بمن فيهم ليو الصغير الذي يبلغ من العمر أربعة عشر شهراً.

في منتصف الوجبة، تطرّقنا إلى عقوبة الإعدام، وأوضحت شيري أنها لا تتفق مع رأيي، وبدا عدم الارتياح على توني. استمعت لآرائها ثم دافعتُ عن وجهة نظري. أخبرتها أنني أؤمن بأن عقوبة الإعدام حينما تُطبّق بصورةٍ جيدةٍ يمكنها أن تحافظ على سلامة الأرواح بردع الجريمة. أخذت شيري وهي محامية موهوبة درجت على احترامها، تدحض آرائي. وعند إحدى النقاط استمعنا أنا و لورا إلى إيان، ابن أسرة بلير ذي السبعة عشر ربيعاً والذي يمتاز بالذكاء يقول: امنحي الرجل مهلةً يا أمي.

يزداد احترامي لتوني أكثر كلما أمضيتُ معه فترة أطول. ومع مرور الأعوام صار من أعز شركائي وأقرب أصدقائي في المسرح الدولي. فقد وفد إلى الولايات المتحدة لاجتماعات تجاوزت الثلاثين خلال فترة رئاستي. زرناه أنا ولورا في إيرلندا الشمالية، واسكتلندا ولندن. في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ دعانا توني وشيري إلى منزلهما في تريمدون كوليري في منطقة تعدينية قديمة في الريف. قدّما إلينا الشاي في منزلهما المبني من الطوب الأحمر على الطراز الفيكتوري، ثم اصطحبنا إلى حانة بالمدينة، وبعدها إلى فندق دان كاو Dun Cow Inn. وهناك تناولنا وجبة السمك المقلي مع شرائح البطاطس ومعها بازلاء طرية، والتي غسلتها بجعّة البتبرجر

بدون كحول. وبعد الغداء، مررنا بمدرسة محلية وشاهدنا الأولاد وهم يلعبون كرة القدم. لقد رأينا في الشعب اللطف والترحيب، بالإضافة إلى المعارضين الذين حملوا لافتاتٍ مكتوب عليها مرض راعي البقر المجنون.

ضحك توني ضحكةً خفيفةً وعلّق تعليقاً ظريفاً. وبعد لقائنا الأول سألني أحد المراسلين البريطانيين عن الأشياء المشتركة بيننا. فأجبته مازحاً: نحن الاثنين نستعمل معجون الأسنان كولجيت. فرد علي توني قائلاً: سيتعجّبون كيف علمت بهذا يا جورج. عندما ألقى توني خطابه في الجلسة المشتركة للكونغرس عام ٢٠٠٣، عمد إلى ذكر حرب عام ١٨١٢، عندما أحرقت القوات البريطانية البيت الأبيض ثم قال: أعلم أن ما أقوله جاء متأخراً جداً، ولكن... أنا آسف.

كان توني على خلافٍ كثيرٍ من السياسيين، مفكّراً استراتيجياً تتجاوز رؤيته الأفق القريب. ولقد أدركتُ أنّ كلينا نملك الروح نفسه في إيماننا بالقوة التحويلية للحرية. وفي آخر أسبوع من رئاستي للولايات المتحدة، كنت فخوراً بأن أجعله أحد قادة الدول الأجنبية القلائل الذين منحتهم الميدالية الرئاسية للحرية (Presidential Medal of Freedom)[1].

وعلاوة على كل ذلك كان لدى توني بلير الشجاعة. فلم يناقش قضية بهذه الصراحة كقضية العراق. لقد اعتبر مثلي أن صدام يُعتبر تهديداً عالمياً لا يمكن احتماله بعد أحداث ٩/١١. وكان معروفاً أن البريطانيين أيضاً من أهداف أعمال التطرف. فلقد كانت لديهم معلومات استخباراتية واسعة عن صدام. وهو ما جعلهم يدركون بشكلٍ شخصي مدى التهديد الذي يمثله صدام. لقد كان صدام يطلق النار على طيّاريهم أيضاً.

لو قُدّر لنا إزاحة صدّام عن السلطة، لكان لزاماً عليّ وعلى توني إيجاد بديل

(١) في الاحتفال نفسه، قدمت الميدالية الرئاسية للحرية لرئيس وزراء أستراليا «جون هاورد» الذي أسميته «رجل من فولاذ»، وللرئيس «آلفارو يورايب، قائد كولومبيا الشجاع.

ديمقراطي عن طغيان صدّام، وربما كان لهذا التحول أثر يتجاوز حدود العراق. كان الشرق الأوسط مركزاً لصراع أيديولوجي، فمن ناحية كان هناك أناس طيبون يريدون أن يعيشوا حياةً كريمةً وآمنةً، بينما من الناحية الأخرى كان هناك المتشددون الذين سعوا إلى فرض أفكارهم الراديكالية من خلال العنف والابتزاز. وقد استغلوا ظروف الإحباط والقهر السائدة للتجنيد ونشر فكرهم. والطريقة المثلى لحماية بلداننا على المدى البعيد هي مقابلة رؤاهم المظلمة ببديلٍ أكثر إقناعاً.

ذلك البديل كان الحرية. فالشعب القادر على اختيار قادته في صناديق الاقتراع سيكون أقل ميلاً للتحوّل الى العنف. الشباب الذي يكبر مع أمل بالمستقبل لن يبحث عن معنى الحياة في إيديولوجيا الإرهاب. عندما تتجذّر الحرية في مجتمع واحد، ستنتشر في المجتمعات الأخرى.

قام توني وتشيري في شهر نيسان/أبريل من عام ٢٠٠٢ بزيارتي أنا ولورا في كراوفورد. تحدثتُ مع توني حول الدبلوماسية القسرية كطريقةٍ لمعالجة التهديد العراقي. واقترح توني أن نسعى لاستحصال قرارٍ من مجلس الأمن الدولي يشكل إنذاراً واضحاً لصدّام: إما أن يسمح بعودة المفتشين عن الأسلحة إلى العراق وإما أن يواجه عواقب وخيمة. لم أكن أؤمن كثيراً بالأمم المتحدة، فمجلس الأمن كان قد أصدر ستة عشر قراراً ضد صدّام ولكن دون جدوى. وافقتُ على أخذ فكرته في الحسبان.

* * *

تشاورتُ طوال عام ٢٠٠٢ مع كثيرٍ من زعماء العالم حول العراق. وشاركني كثير منهم مخاوفي، منهم جون هاورد من أستراليا، وخوسيه ماريا أزنار رئيس وزراء اسبانيا، وهونيشيريو كوزيمي رئيس وزراء اليابان وجان بيتر بلكندين رئيس وزراء هولندا، وأندريه فوغ راسموسين رئيس وزراء الدانمرك والكسندر كفسينكي رئيس وزراء بولندا ومعظم القادة الآخرين من وسط وشرق أوروبا. وتيقنتُ من أن أكثر المدافعين

المتحمسين لمواجهة صدّام هم أولئك الذين لا تزال ذكرياتهم عن الظلم والطغيان حية. «ففي أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي ترددت الديمقراطيات الأوروبية أمام مواجهة الخطر» كما أخبرني سيمي كلاس رئيس وزراء دولة استونيا، إحدى دول الاتحاد السوفيتي السابق «وكانت عاقبة ذلك أن وقعنا تحت حكم الدكتاتوريات، وفقدت عدة شعوب أرواحاً كثيرة. إن التدخل أحياناً يكون مجدياً وحتمياً».

كان للزعماء الآخرين وجهة نظر مختلفة. فلاديمير بوتين لم يكن يعتبر صدّام حسين خطراً. ويبدو لي أن بعض الأسباب ترجع لكون بوتين لم يرد أن يعرقل صفقات روسيا النفطية المربحة، كما أن لفرنسا مصالح اقتصادية مهمة في العراق. لقد أصبتُ بالدهشة عندما أخبرني جاك شيراك أنه يؤيد التفتيش الصارم للأسلحة ولكنه كان حذراً من التهديد باستخدام القوة العسكرية. ومشكلة هذا المنطق هي أنه ما لم يكن هناك تهديد عسكري جدي فإن الدبلوماسية ستكون عديمة الجدوى مرةً أخرى.

أحد أكثر الزعماء تشدداً ممن يمكن الإشارة إليه هو المستشار الألماني غيرهارد شرويدر. وقد التقيتُ به خمس مرات عام ٢٠٠١، وكان مرناً ومرحاً ومهتماً بتعزيز علاقاتنا الثنائية. استحسنتُ قيادته لأفغانستان، لا سيما رغبته في استضافة البرلمان الأفغاني اللويا جيرغا في بون.

ناقشتُ مسألة العراق مع غيرهارد خلال زيارته للبيت الأبيض في ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. في خطبة حالة الاتحاد التي ألقيتها قبل يومين، كنت قد أشرت إلى التهديد الذي يشكله العراق وإيران وكوريا الشمالية. «فدول كهذه، مع حلفائها من الإرهابيين تشكل محور الشر وهي تتسلّح لتهديد السلام في العالم». هذا ما قلته، ولكن وسائل الإعلام ركزت على عبارة محور الشر. اعتقدوا أن عبارتي هذه تعني أن هذه الدول الثلاث شكّلت تحالفاً ولم يكن هذا ما قصدته. المحور الذي أشرت إليه كان الرابط بين الحكومات التي تسعى لامتلاك أسلحة دمارٍ شاملٍ والإرهابيين

الذين يمكن أن يستخدموا تلك الأسلحة. وكان لخطابي مغزى أكبر لا يمكن لأحد إساءة فهمه وهو أنني كنت جدياً في التعاطي مع العراق.

وفي اجتماع مُصغّر في المكتب البيضاوي، انضمت إليّ فيه كوندي رايس وآندي كارد، أخبرت المستشار الألماني بأني أنوي القيام بعملٍ دبلوماسي؛ وتمنيت لو كان بمقدوره المساعدة. كما أكدت له أن وعودنا لن تكون وعوداً في الهواء. فالحل العسكري هو آخر خياراتنا، ولكني سأستخدمه إذا استلزم الأمر.

قال لي: الأمر في أفغانستان كالأمر في العراق. ثم أردف قائلاً: الدول التي تدعم الأرهاب يجب أن تتحمّل النتائج. ولو اتخذت قراراتٍ سريعةً وحاسمةً فاعلم أني معك.

واعتبرت كلماته تلك إقراراً بدعمه لي. ولكن بعد إقامة الانتخابات الألمانية في نهاية ذلك العام، صارت لدى المستشار الألماني شرودر أفكار أخرى، وشجب احتمالات استخدام القوة ضد العراق. صرّح وزير العدل الألماني قائلاً: بوش يريد تحويل الأنظار بعيداً عن المشاكل السياسية الداخلية في الولايات المتحدة... وهذا ما فعله هتلر من قبل. أصابتني كلماته بالصدمة والغضب. فلم يكن هناك إهانة أكبر من مقارنتي بهتلر من قِبَل مسؤول ألماني. ومع ذلك واصلت العمل مع غيرهارد شرودر على صعيد المصالح المشتركة. ولكن كشخص يقدّر الدبلوماسية الشخصية، بنيت دائماً أكبر اهتماماتي على الثقة. وبمجرد أن يخرق أحدهم هذه الثقة فمن الصعب عودة العلاقات إلى طبيعتها مرةً أخرى.

* * *

بعد مضي شهرين على أحداث ٩/١١، طلبتُ من دون رامسفيلد مراجعة خطط الحرب الموضوعة للعراق. فنحن نحتاج إلى تطوير الجزء الاضطراري من الديمقراطية الاضطرارية.

ولذا أمر دون الجنرال تومي فرانكس أن يقوم بمهمة موجز الخطط. ومباشرة بعد

عيد الميلاد عام ٢٠٠١، جاء تومي إلى كراوفورد ومعه ملخّص عن العراق. ستحتاج الخطة الموضوعة إلى ستة أشهر من التحضير وأربعمئة ألف جندي. ودائماً ما كان يتبادر إلى الذهن تجربة أفغانستان. فلقد أمكننا بفضل التقنيات الحديثة والتخطيط الإبداعي القضاء على حركة طالبان وإغلاق معسكرات تنظيم القاعدة باستخدام قوات أقل بكثير. ولم نظهر بمظهر المحتل أمام الشعب الأفغاني.

أخبر تومي فريق الأمن القومي أنه كان يعمل على تطبيق مفهوم العمليات النوعية المحدّدة في العراق. تصوّر غزواً سريعاً من الكويت في الجنوب والمملكة العربية السعودية والاردن من الغرب ومن تركيا من الشمال. قال: إن كان لدينا العديد من قوات العمليات الخاصة ذات المهارات العالية، سنحتاج الى عددٍ أقل من القوات البرية التقليدية، فهذا درس مهم تعلمناه من أفغانستان.

كانت لديّ كثير من الاهتمامات التي تشغل بالي؛ فلقد أردتُ معرفة مدى سرعة تحرك قواتنا، وأي نوع من القواعد العسكرية سنحتاج. ففي أفغانستان، كان اهتمامي حول احتمالات حدوث مجاعات للسكان المحليين، ولذا طلبتُ معرفة ما يمكننا فعله لحماية الأبرياء. وكان قلقي من ناحية صدام أن يقوم بتخريب حقول البترول أو إطلاق الصواريخ ناحية إسرائيل. ولكن أكبر مخاوفي كان احتمالات استخدام صدام لأسلحة بيولوجية أو كيميائية ضد قواتنا، أو حلفائنا، أو المواطنين العراقيين.

ولذا طلبتُ من فريق العمل الانشغال بالخطة الموضوعة. قلت لهم عند نهاية لقائنا: يجب علينا أن نظل متفائلين في أن الديمقراطية والضغط الدولي سينجحان في تجريد الحكومة العراقية من الأسلحة؛ ولكن لن يمكننا السماح بوقوع أسلحة الدمار الشامل في أيدي الإرهابيين، ولن أسمح لذلك أن يحدث.

* * *

تحدثتُ مع تومي في الفترة ما بين كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ وآب/أغسطس ٢٠٠٢ لعشرات المرات. فالخطة كانت على ما يُرام، ولكني لم أكن مرتاحاً. لقد

أردتُ التأكد من دراستنا الاحتمالات الممكنة، وهو ما جعلني أسأل دون وتومي كثيراً من الأسئلة التي دائماً ما كانت تبدأ بـ: ماذا لو قرّر صدام أن...؟ وهناك سيناريو دائماً ما أثرته بشكل متكرر خلال مناقشاتنا، وهو ماذا لو قام صدام بتعزيز قواته في بغداد وجرّ قواتنا إلى حرب شوارع دموية. لقد تذكرتُ المعارك التي وقعت في الصومال عام ١٩٩٣، ولم أرد لتلك المشاهد أن تتكرر مرةً أخرى في العراق. ولم يكن لدى توم وفريقه جميع الإجابات لأسئلتي، ولم أتوقع أن تكون لديهم. ولا أنكر أنهم كانوا يعملون بجدّ بغرض إدخال التحسينات الممكنة على الخطة، وكلما قدموا لي تعديلاً في الخطة كنت أرى تحسيناتٍ كبيرة عن النسخة السابقة لها.

بدّدت الخطة المحدثة التي قدمها تومي في غرفة العمليات في الخامس من شهر آب/أغسطس، عام ٢٠٠٢، كثيراً من المخاوف الرئيسية. لقد جمعنا الإذن من زعماء في الخليج بالتحضير والتحليق. وابتكر تومي خطة للعمليات الخاصة لتأمين مواقع أسلحة دمار شامل مُشتبَه فيها، حقول جنوبي العراق النفطية، وقاذفات صواريخ سكود. كما صمّم آلية قصف جوي هائلة ستجعل الأمر مكلفاً بالنسبة لنخبة الحرس الجمهوري الخاصة بصدّام لتبقى في العاصمة، مقللة من احتمال سيناريو حصن بغداد. «السيد الرئيس»، قال تومي بلهجة أهل تكساس «سوف يكون لهذا الأمر صدمة ورهبة».

كان هنالك الكثير من المسائل العالقة وغير المحلولة. وكنا جميعاً قلقين من إمكانية أن يشن صدّام هجوماً بيولوجياً أو كيميائياً على قواتنا العسكرية، لذا، كان الجيش في خضم عملية تأمين بدلات مضادة للمواد السامة. وقد زدنا بشكل تدريجي مستوى القوات المسلحة والعتاد في الكويت تحت قناع التدريب وممارسات روتينية أخرى، والتي تجعل البدء بعمليات الاشتباك بسرعة أمراً ممكناً إذا قمت بإعطاء الأمر بذلك. تكلم رئيس هيئة الأركان المشتركة ديك مايرز عن أهمية إقناع تركيا بأن تفتح أرضها لنتمكن من تأسيس جبهة شمالية؛ وعبر جورج تينيت عن قلقه من حربٍ إقليميةٍ حدوديةٍ تهاجم سورية فيها إسرائيل، أو أن توجّه إيران حزب الله، لإثارة البلبلة

وعدم الاستقرار. وألمح دون رامسفيلد إلى أن حرباً قد تزعزع أمن الأردن والمملكة العربية السعودية، وأن تعلق أميركا في عملية مطاردة لمجرم هارب هو صدّام، وأن يتمزّق العراق بعد التحرير.

تلك السيناريوهات المُحتمَلة كانت واقعية، وكذلك كانت المعلومات التي كنا نستلمها. فقد أشار تقرير ظهر في شهر تموز/يوليو إلى أن العراق استطاع أن يحتفظ، بل، وفي بعض الحالات، أن يعزز البنية التحتية والخبرة اللازمة لإنتاج أسلحة الدمار الشامل. فيما حذر بيان آخر من أن نظام صدّام كان تقريباً يعمل بكل تأكيد على إنتاج العامل المسبّب لمرض الجمرة الخبيثة إلى جانب توكسين البوتولينوم والأفلاتوكسين، والرايسين. ويواصل التقرير القول إن مركبات جوية بلا طيار تعطي بغداد وسيلةً أكثر فتكاً لتوصيل أسلحة... بيولوجية وتابع أن ما ينذر بشرّ مستطيرٍ هو أن خبرتنا توضح أن صدّام ينتج أسلحة الدمار الشامل لاستعمالها وليس لمجرد الردع.

في صيف ٢٠٠٢، وردتني بعض الأخبار المروّعة. فلقد وردني أن أبو مصعب الزرقاوي ـ وهو أحد أتباع الإرهاب ممن لهم خبرة في مجال الأسلحة البيولوجية في أفغانستان ـ يدير معملاً في شمال العراق. ورد في التقرير وجود منشأة مريبة في هذه المنطقة يحتمل أن تستخدم لصناعة المواد السامة للاستخدام في الأغراض الإرهابية . فالزرقاوي يُعتبر مُخططاً إرهابياً نشطاً، ودائماً ما استهدف المصالح الأميركية والإسرائيلية: وقد وردنا تقرير من مصدر [سري] مفاده أن الزرقاوي يعمل جاهداً على تهريب نوع غير معروف من المواد الكيميائية المُصنّعة في شمال العراق إلى داخل الولايات المتّحدة .

ولم يمكننا الجزم ما إذا كان صدام يعلم بوجود الزرقاوي في العراق أم لا. فالتقارير الواردة أفادت أن الزرقاوي خضع للعلاج لمدة شهرين في بغداد، كما أن ناشطي تنظيم القاعدة الآخرين قد انتقلوا إلى العراق. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية قد عملت مع المخابرات العربية الكبرى لإقناع صدّام بالعثور على الزرقاوي وتسليمه، إلا أنه رفض.

وكان السؤال هو إذا ما كان علينا أن نضرب مختبر السموم بالقنابل في صيف عام ٢٠٠٢. وعقدنا سلسلةً من الاجتماعات في مجلس الأمن القومي بخصوص هذا الموضوع. واستعرض الجنرال ديك مايرز الخيارات: صواريخ توماهوك، أو إلقاء قنابل B-2 أو غارة أرضية سرية. وقد كان ديك تشيني و دون يريان في الزرقاوي تهديداً واضحاً، وجادلا بأن إخراجه من شأنه أن يعزز مبدأ أن أميركا لن تتسامح مع الملاذات الآمنة للإرهاب.

كما رأى كولن و كوندي أن ضرب المختبر بالقنابل من شأنه أن يخلق عاصفة دوليةً ويعطل جهودنا لبناء تحالف لمواجهة صدّام، لا سيما محاولتنا لتجنيد تركيا، التي كانت شديدة الحساسية إزاء أي نشاط في شمال شرق العراق. وقال كولن: إن هذا قد يُفسر على أنه بداية حرب من جانبٍ واحدٍ على العراق.

واجهتني معضلة. إذا تم ضرب أميركا بقنبلةٍ بيولوجيةٍ من العراق فسأكون مسؤولاً عن عدم أخذ التهديد مأخذ الجد عندما أتيحت لنا الفرصة. ومن ناحيةٍ أخرى فإن قصف المعسكر قد يقوّض الدبلوماسية ويؤدي إلى صراعٍ عسكري.

وقد أخبرت مجموعة الاستخبارات أن يراقبوا المنشأة عن كثب. فحتى ذلك الوقت كنت قد قررتُ أن أستمر في المسار الدبلوماسي. غير أن ثمة شيئاً واحداً كان واضحاً لي: كان العراق يشكل تهديداً خطيراً، ويزداد خطورةً يوماً بعد يوم.

* * *

قضيتُ معظم شهر آب/أغسطس عام ٢٠٠٢ في كراوفورد، وهو مكان جيد للتفكير في القرار التالي الذي أواجهه: كيفية التقدم على المسار الدبلوماسي.

وكان أحد الخيارات هو أن نسعى للحصول على قرارٍ من الأمم المتحدة يدعو صدّام للسماح بعودة مفتشي الأسلحة. وكان الخيار الثاني هو إصدار إنذار يطالبه بنزع السلاح، وحشد تحالفٍ لعزله إذا لم يمتثل.

ومن وجهة نظرٍ قانونية، لم تكن هناك حاجة لقرار من الأمم المتحدة. فقبل

ذلك بثلاثة أعوام قام الرئيس كلينتون مع حلفائنا في منظمة حلف شمال الأطلنطي بإطاحة الدكتاتور سلوبودان ميلوسيفيتش من رئاسة صربيا دون انتظار قرارٍ من الأمم المتحدة. وحاول ديك تشيني ودون إقناعي بأننا لسنا بحاجةٍ لقرارٍ من الأمم المتحدة. ورغم ذلك فنحن لدينا ستة عشر قراراً. لقد كانوا على اقتناع بأن طلب القرار من الأمم المتحدة سيبدأ عملية بيروقراطية طويلة، وفي تلك الفترة سيكون صدام قد أصبح أكثر شراسة، ولقد شاركتهم هذا القلق. ومن الناحية الأخرى، أخبرني كل حليف من حلفائنا الذين استشرتهم ـ بمن فيهم المؤيدون المتحمسون لقضية مواجهة صدام أمثال رئيس الوزراء الأسترالي جون هاورد ـ بأن وجود قرار الأمم المتحدة يعتبر أمراً أساسياً لكسب الدعم الشعبي في دولهم. وهو ما وافق عليه كولن.

وقبل أن أغادر إلى كراوفورد بيوم، طلبت مقابلته شخصياً في غرفة المعاهدات. فلقد كان كولن بشكل لم أره من قبل في اجتماعات مجلس الأمن القومي الأمريكي NSC، وأخبرني أن قرار الأمم المتحدة هو السبيل للحصول على الدعم من باقي دول العالم. ثم أردف موضّحاً بأننا لو أطحنا بصدام ، فإن الضربة العسكرية ستكون الجزء السهل. وبعدها وكما قالها كولن ستمتلك الولايات المتحدة العراق. وستقع على عاتقنا المساعدة في إعادة إعمار هذا البلد المنكوب. استمعت باهتمام كبير إلى كولن وشاركته قلقه. وهذا كان السبب الآخر الذي دعاني آمل أن يكون للدبلوماسية دور فاعل.

كان احتمال وقوع الحرب في ذاك الصيف، هو الخبر المُستحوِذ على وسائل الإعلام في واشنطن. فدائماً ما سألني المراسلون ما إذا كنت قد أعددتُ خطة للحرب.

في ١٥ آب/أغسطس، فتحت جريدة وول ستريت (Wall Street Journal) لأجد عموداً كتبه مستشار الأمن القومي لأبي برينت سكاوكروفت؛ تحت عنوان «لا تهاجموا صدام». وقد حاول برينت إيضاح أن الحرب على العراق ستنأى عن الحرب على الإرهاب، وقد تشعل الصراع في منطقة الشرق الأوسط. وكان ما خلص

إليه أنه يجب علينا أن نضغط على مجلس الأمن للإصرار على القيام بعمليات تفتيش مفاجئة وفاعلة على الحكومة العراقية.

كانت نصيحةً مقبولةً، ولكنني غضبت لأن برينت اختار أن ينشر نصيحته في الجريدة بدلاً من مشاركتها معي. اتصلت بأبي، الذي أكد لي قائلاً: يا بُني، برينت صديق. ربما كان ذلك صحيحاً، ولكنني كنت أعرف أن النقاد سيستغلون مقالة برينت فيما بعد إذا فشل الخيار الدبلوماسي.

لقد خمّن البعض في واشنطن أن مقالة برينت كانت رسالةً ليَ من أبي عن العراق، وكان هذا أمراً سخيفاً؛ فمن بين كل الناس، يفهم أبي مخاطر ذلك. وإذا كان يعتقد أنني أتعامل مع موضوع العراق بشكل خاطئ، فبالتأكيد كان سيخبرني بنفسه.

* * *

دعوتُ يوم السبت الموافق ٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، لعقد اجتماع لفريق الأمن القومي في كامب دايفيد لصياغة قراري بشأن الاقتراح. وكنا قد تجمعنا قبل واحد وخمسين أسبوعاً في مكتب لوريل لمناقشة خطة الحرب في أفغانستان. وها نحن الآن نجلس في الحجرة نفسها ونحاول إيجاد طريقة لإزالة التهديد الموجود في العراق دون خوض حرب.

أعطيتُ كل فرد في الفريق فرصة للإدلاء برأيه. وأوصى ديك تشيني بإعادة طرح القضية على صدّام، وإعطائه مهلة مقدارها ثلاثين إلى ستين يوماً للتخلّص من أسلحته النووية، وبعدها يتم نزع السلاح بالقوة إذا رفض الإذعان. وقال ديك: إنه وقت العمل؛ لا يمكننا تأجيل ذلك عاماً آخر.... ونظام التفتيش لن يحل مشكلتنا.

قام كولن بالضغط من أجل قرار الأمم المتحدة؛ وصرّح قائلاً: إذا أخذنا القضية إلى الأمم المتحدة، يمكننا أن نكتسب حلفاءً ينضمون إلينا. وإذا لم نتمكّن من ذلك، فسيكون من الصعب أن نتصرّف من جانب واحد، ولن نحصل على الدعم الدولي الذي نحتاجه لتنفيذ الخطة العسكرية.

بعد الاستماع إلى الخيارات المطروحة مرةً أخيرة، اتخذت قراري: البحث عن حل؛ قلت: «إن رأي المجتمع الدولي في صدّام يكتنفه الغموض، ونحتاج إلى أن يكون واضحاً. فإما أن يتخلّص من أسلحته النووية، وإما ستكون هناك حرب».

أخبرت الفريق بأنني كنت سأبلغ تلك الرسالة خلال إلقاء كلمتي أمام الأمم المتحدة في الأسبوع التالي. وكنت سأذكّر الأمم المتحدة بأن عدم اكتراث صدّام حسين يُعتبر تهديداً لصدقيّة مؤسسة الأمم المتحدة ذاتها. فإما أن يلتزم مجلس الأمن بقراراته، وإما تصبح الأمم المتحدة جهازاً دولياً غير مجدٍ مثل عصبة الأمم.

في تلك الليلة أتى توني بلير لتناول العشاء في كامب دايفيد، وكان سعيداً عندما أبلغته بأنني قرّرت مطالبة الأمم المتحدة بإصدار قرار. قال بلير إن الكثير من المعارضين كانوا يتمنون أن نتصرف لصالح جانبٍ واحد، ونعطيهم فرصة للتذمّر ولكنك تدعوهم لكشف أوراقهم.

وقد فهم كلانا معنى ذلك القرار. فبمجرد أن أعلنا موقفنا أمام الأمم المتحدة، سنضطر إلى ملاحقة الأمر مهما كانت تداعياته. فإذا فشلت الدبلوماسية، لن يبقَى أمامنا إلا حل واحد. قلت لتوني بلير: لا أرغب بشن حربٍ، ولكني سأفعل.

وافقني توني. وبعد ذلك اللقاء، قلت لأليستير كامبيل، أحد أهم مساعدي توني، رئيسك يمتلك Cojones (جرأة). لستُ متأكداً كيف تُرجمت هذه الكلمة للآذان المهذّبة المُصغية في ١٠ داوننج ستريت، ولكن معناها كان واضحاً لأي شخصٍ من تكساس.

* * *

قلت أمام مفوضي الأمم المتحدة يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ إن العالم كله يواجه اختباراً، حيث نعيش لحظةً صعبةً وحاسمة. هل سيلتزم مجلس الأمن بقراراته وينفذها؟ أم سيتركها جانباً دون أن يحدث أي شيء؟ هل سيحقق مجلس الأمن النوايا التي وُجد من أجلها، أم سيظل دون جدوى؟

كان إلقاء هذا الخطاب تجربةً خيالية. جلس المندوبون في صمت، متجمّدين في أماكنهم، وكأنني أجري محادثة مع تماثيل من الشمع، وكانت الاستجابة خارج القاعة مشجعة. شكرني الحلفاء على احترامي للأمم المتحدة وقبولي نصيحتهم بالسعي وراء التوصل إلى قرار. وفي المنزل أيضاً، كان الجميع مقدرين لتحديَّ الأمم المتحدة. كما قالت افتتاحية العدد في جريدة الواشنطن بوست: إذا ظلت الأمم المتحدة صامتةً في وجه هذا التحدي الصارخ والمستمر لسلطتها في الشأن المتعلق بأسلحة الدمار الشامل، فإنها ستواجه انعدام الجدوى الذي حذّر منه السيد بوش.

* * *

بينما انفض جدال الأمم المتحدة، بدأنا العمل على جدالٍ آخر، وهو تصريح بالحرب من قبل الكونغرس. كجزءٍ من المناظرة، طلب قادة في الكابيتول هيل من مجتمع الاستخبارات تحضير تقييم استخباراتي وطني لتحليل برنامج صدّام لأسلحة الدمار الشامل. جمعت المخابراتُ الأميركية التقييم الاستخباراتي الوطني باستخدام البيانات نفسها التي أطلعتني عليها في الأشهر الثمانية عشر الماضية. في ملخّص تجميعي أُصدر لاحقاً، توصل التقرير إلى أن بغداد تمتلك أسلحةً كيميائيةً وبيولوجية، كما تمتلك أيضاً صواريخ ذات مدى أكثر من المسموح به من قِبل الأمم المتحدة، وإذا تُركت بدون تفتيش فسوف تمتلك سلاحاً نووياً خلال هذا العهد.

لقد كان للمخابرات تأثيرها على أعضاء الكونغرس. فوفقاً للسيناتور جون كيري، حين أقوم بالتصويت لأمنح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السلطة لاستخدام القوة، إذا لزم الأمر، لنزع الأسلحة من صدّام حسين، فالسبب الوحيد الذي يدعوني لذلك هو اعتقادي بأن وجود ترسانةٍ فتاكةٍ من أسلحة الدمار الشامل بين يديه لا يمثل تهديداً فحسب، بل تهديداً جسيماً.

وتابع السيناتور جاي روكفلر، وهو أحد الأعضاء المحترمين في الحزب الديمقراطي بلجنة المخابرات، قائلاً: إن إمكانيات الأسلحة البيولوجية والكيميائية

المتوفرة حالياً لدى صدّام تمثل تهديداتٍ جدية للولايات المتحدة اليوم وغداً.... ففي مقدوره توفير تلك الأسلحة لكثيرٍ من الجماعات الإرهابية ولأطراف أخرى على اتصال بحكومته. وفي استطاعة تلك الجماعات بدورها إدخال تلك الأسلحة إلى الولايات المتحدة وشن هجومٍ مدمرٍ على مواطنينا، وهذا أشد ما أخشاه.

أيّد سيناتور ديمقراطي من نبراسكا، وهو تشاك هيجل، القرار، وقال: إن مخاطر المماطلة عالية جداً. لقد تم انتُخبنا لنحل المشاكل، وليس فقط لمناقشتها. وقد حان الوقت لتحديد مسارٍ جديدٍ في العراق والشرق الأوسط.

في ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، أقر مجلس الشيوخ القرار بـ٧٧ صوتاً مقابل ٢٣ صوتاً. وأقره مجلس النواب بـ٢٦٩ صوتاً مقابل ١٣٣ صوتاً. إن عدد الأصوات كان أكثر من الأصوات على قرار حرب الخليج. وجمع القرار أصواتاً من ديمقراطيين بارزين، بمن فيهم زعيم الأقلية في مجلس النواب ديك جيفاردت وزعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ توم دشال، والسيناتورات هيلاري كلينتون، جو بايدن، جون كيري، جون إدواردز و هاري ريد.

وثمة بعض من أعضاء الكونغرس الآخرين الذين قد يزعمون فيما بعد أنهم لم يكونوا يصوتون للتصريح بالحرب، بل لمواصلة المساعي الدبلوماسية فحسب، فمن المؤكد أنهم لم يقرأوا القرار. لقد كانت عباراته بالغة الوضوح بما لا يدع مجالاً لسوء الفهم: يُصرَّح للرئيس باستخدام القوات المسلحة الأميركية وفقاً لما يراه ضرورياً وملائماً للدفاع عن الأمن القومي للولايات المتحدة الأميركية ضد التهديدات المتواصلة التي يمثلها العراق؛ ولفرض تنفيذ جميع القرارات المعنية بالعراق الصادرة عن مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

* * *

جاء القرار النهائي للأمم المتحدة في الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر. كان كولن يفاوض بقوةٍ على القضايا الثانوية، لكنه تمسك بإصرار بالأحكام التي تحاسب

صدّام. السؤال كان: هل سيحصل القرار على أصوات. نحن نحتاج إلى تسعة من أعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر، بدون فيتو من فرنسا وروسيا والصين. لقد أجرينا مكالمات تليفونية كثيرة، لمحاولة تأمين موافقة الجميع. وبُعَيد تصويت مجلس الأمن رنّ جرس الهاتف في المكتب البيضاوي. «أيها الزعيم»، قال كولن، «لقد أكملنا المهمة».

جاءت نتيجة التصويت بالموافقة بالإجماع، ١٥ إلى صفر. ولم يقتصر التصويت بالموافقة على القرار على فرنسا فحسب، بل قامت بالمثل كل من روسيا والصين وسورية. لقد كان العالم كله الآن على كلمةٍ واحدة: لدى صدّام الآن فرصة أخيرة للإذعان إلى الكشف عن أسلحته ونزعها. وفي حال عدم امتثاله، سوف يواجه عواقب جسيمة.

ووفقاً لبنود القرار رقم ١٤٤١ الصادر عن مجلس الأمن بالأمم المتحدة، ليس أمام العراق سوى ثلاثين يوماً لتقديم بيانٍ حديثٍ دقيقٍ وشاملٍ وكاملٍ بجميع البرامج ذات الصلة بأسلحة الدمار الشامل. وقد أوضح القرار تماماً أن عبء الإثبات يقع على عاتق صدّام؛ فلم يكن لزاماً على المفتشين إثبات امتلاكه للأسلحة، بل عليه هو أن يثبت عدم امتلاكه إياها.

في الموعد المحدد، السابع من كانون الأول/ديسمبر، قدّم صدّام التقرير، والذي كان بنظري امتحاناً مهماً؛ فلو تقدّم صدّام باعترافات صادقة لكانت إشارة على تفهمه لرسالة العالم إليه، ولكنه قدّم مجموعة أوراق لا تمت للموضوع بصلة، وتظهر بوضوح أنها تهدف إلى التضليل. وهو التقرير الذي وصفه لاحقاً هانز بليكس، الدبلوماسي السويدي المعتدل وكبير مفتشي الأمم المتحدة، بأنه كبير الحجم ويفتقر إلى المعلومات. وعبّر جو ليبرمان عن رأيه بالتقرير باقتضابٍ بأنه إثنا عشر ألف صفحة وألف رطلٍ من الأكاذيب.

لو استمر صدّام بطريقته المخادعة، فإن السبيل الوحيد للاستمرار في الضغط

على العراق هو أن نتوصل إلى الأدلة بأنفسنا. طلبت مرّة من جورج تينيت ونائبه المتمكّن جون ماكلولين أن يشرحا لي بايجاز المعلومات السريّة التي يمكننا كشفها لتوضيح البرنامج العراقي لأسلحة الدمار الشامل.

وقبل عيد الميلاد بأيام قليلة، قدّم لي جون وصفاً لأول الجهود والذي لم اقتنع به تماماً. عدتُ بذاكرتي إلى بيانات دائرة الاستخبارات المركزية التي استلمتها، وقد جاء في تقارير هيئة الاستخبارات القومية الأميركية إن صدّام يمتلك أسلحةً بيولوجيةً وكيماوية، وكذلك جاء في البيانات التي تقدّمت بها الاستخبارات المركزية الأميركية لإلقاء خطابي أمام هيئة الأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر. خاطبتهم قائلاً أنا متأكد من أن بإمكاننا تقديم شرحٍ أفضل للأدلة التي تدين صدّام، ووافقني جورج تينيت الرأي بقوله إنه أمر مضمون، وقد صدّقته.

منذ ما يقارب السنتين وأنا أتسلّم تقارير استخباراتية عن العراق، وكان الاستنتاج حول امتلاك صدّام لأسلحة دمار شامل أمراً شبه مُجمعٍ عليه عالمياً. هذا ما اعتقده سلفي وهو ما اعتقده كذلك الجمهوريون والديمقراطيون في كابيتول هيل، وكذلك وكالات المخابرات الألمانية والفرنسية والبريطانية والروسية والصينية والمصرية. صرّح السفير الألماني لدى الولايات المتحدة، وهو لا يؤيد الحرب، قائلاً: أعتقد أن حكوماتنا تؤمن بأن العراق أنتج أسلحة دمارٍ شاملٍ وعلينا أن نفترض أنه لا يزال يمتلك... أسلحة دمارٍ شامل. وإن كانت لدينا أي مخاوف، فهي أن وكالة الاستخبارات المركزية قد لا تأخذ صدّام على محمل الجدّ، كما حدث في حرب الخليج.

نظراً للماضي، وبطبيعة الحال، كان ينبغي علينا أن نضغط أكثر على الاستخبارات وإعادة النظر في افتراضاتنا. ولكن في ذاك الوقت، كان الدليل والمنطق يذهبان في الاتجاه الآخر: إذا لم يكن لدى صدّام فعلاً أسلحة دمار شامل فلماذا يعرّض نفسه لحرب يكاد يكون المؤكد أنه سيخسرها؟

في كل عيد ميلاد خلال فترة رئاستي، كنت و لورا ندعو أفراد عائلتنا للانضمام إلينا في كامب دايفيد، وكنا سعداء لمواصلة التقليد الذي بدأه والدانا. فقد كنا نقدّر فرصة الاسترخاء معهم جميعاً، والدة لورا، باربرا وجينا إضافة إلى إخواني وأختي وأسرة كل منهم. كنا نهوى متابعة مسابقة الأطفال في كنيسة كامب دايفيد وغناء التراتيل مع الجنود وأسرهم. ومن أبرز الأحداث كان التقليد السنوي لتبادل الفيل الوردي، حين لم يكن يتعالى أبناء وبنات إخوتي من المراهقين والمراهقات عن محاولة الحصول على جهاز «أي بود» أو أي سلعة مرموقة أخرى من رئيس الولايات المتحدة. في السنوات اللاحقة، بدأنا تقليداً جديداً بإعطاء تبرعات باسم أعضاء آخرين من العائلة. تبرّع جيب و دورو بكتبٍ للمكتبة التي على متن يو إس إس جورج هـ. و. بوش. كما تبرع مارفين وزوجته مارجريت بكأس قربان لكنيسة كامب دايفيد نيابةً عني وعن لورا. وقدّمنا هديةً لجناح دوروثي ووكر بوش في مركز جنوب ماين الطبي باسم أمي وأبي.

أثناء احتفالات عيد الميلاد في عام ٢٠٠٢، تناولت مع والدي موضوع العراق. بشكلٍ عام، لم أكن أطلب المشورة من والدي في القضايا الرئيسية، فكلانا كان يعرف أنني كنت قادراً على الحصول على معلومات أكثر وأفضل مما كان متاحاً له أثناء ولايته. لذا، دائماً ما كان يغلب على محادثاتنا طابع التأكيد له أنني بخير والتشديد على ثقتي به ومحبتي له.

كانت قضية العراق إحدى القضايا التي كنت أرغب بمعرفة رأي والدي فيها. وأخبرته أنني كنت أصلي لكي نتمكّن من التعامل مع صدام بطريقةٍ سلمية، ولكنني كنت أتحضّر للحل البديل. أوجزت له القنوات الدبلوماسية، والدعم الثابت من بلير، وهاورد، وأزنار؛ وموقف شيراك وشرويدر غير المؤكدين؛ وجهودي لحشد السعوديين، والأردنيين، والأتراك، وآخرين في الشرق الأوسط.

شاركني أمله بأن تنجح الطرق الدبلوماسية بقوله: لا بد أنك تعلم مدى قسوة

الحرب، ويجب عليك أن تبذل ما بوسعك لتجنّبها، ولكن في حال عدم انصياع الخصم فليس هناك خيار آخر لديك.

بعثتُ بعد وقتٍ قصيرٍ من رأس السنة الميلادية، برسالةٍ إلى كلّ من باربرا وجينا في الكلية، كتبت فيها إنني أبذل قصارى جهدي لأحافظ على السلام وأتجنب الحرب، وأتلو الصلوات لكي ينزع صدّام السلاح بطريقة سلمية. نحن نضغط عليه كي يفعل ذلك، ومعظم دول العالم تقف إلى جانبنا.

* * *

بدا واضحاً لي بصورةٍ متزايدة مع دخول سنة ٢٠٠٣، أنه لم تتم الاستجابة لصلواتي. في ٢٧ كانون الثاني/يناير، قدّم هانز بليكس تقريراً رسمياً إلى الأمم المتحدة. فقد اكتشف فريق التفتيش التابع له رؤوساً حربية فشل صدّام في الإعلان عنها أو تدميرها، وهي مؤشرات للعامل VX المُشِلّ للأعصاب عالي السُّمّيَّة، كما اكتشف الفريق سلائف كيميائية لغاز الخردل. إلى جانب ذلك، رفضت الحكومة العراقية عملية التفتيش، كما انتهك النظام القرار ١٤٤١ من خلال منع رحلات يو ـ ٢ وإخفاء الآلاف من الوثائق في منازل مسؤولين عراقيين. قال بليكس: يبدو أن العراق لم يصل حتى اليوم إلى مرحلة قبولٍ حقيقيّ لعملية نزع السلاح المطلوبة منه.

كنتُ أراقب ما كان يجري: كان صدّام يحاول إلقاء عبء الإثبات عن كاهله وتحويله إلينا. لقد قمت بتذكير شركائنا بنص قرار الأمم المتحدة الواضح بأن مسؤولية صدّام هي الانصياع. كما أوضح محمد البرادعي، مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية، في أواخر شهر كانون الثاني/يناير، «الكرة الآن في ملعب العراق....... يجب أن يثبت العراق براءته الآن....... وعليهم حالياً وباستخدام شتى الوسائل الممكنة، إثبات أن ليس بحوزتهم أسلحة للدمار الشامل».

قدم توني بلير الى واشنطن في أواخر شهر كانون الثاني/يناير لحضور اجتماع استراتيجي. لقد اتفقنا على أن صدّام انتهك قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٤٤١

بعد أن قدّم تصريحاً كاذباً، وأصبح لدينا مبرّر كافٍ لفرض العواقب الخطيرة. لكن توني بلير أراد الرجوع إلى الأمم المتحدة لاستصدار قرارٍ ثانٍ يوضح أن العراق فشل في انتهاز الفرصة الأخيرة الممنوحة له.

قال بلير: ليس لأننا بحاجة إلى القرار، إلا أن القرار الثاني سيوفّر لنا الحماية العسكرية والسياسية .

خشيتُ من فكرة العودة إلى الأمم المتحدة ولا سيما أن ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وكونداليزا رايس كانوا يعارضونها. قال لي كولن باول إننا لا نحتاج إلى قرارٍ آخر ومن المحتمل ألاّ نحصل عليه، ولكن إذا أراد توني بلير الحصول على قرارٍ ثانٍ فسوف نحاول؛ وأجبت: «كما أرى فإن القرار الثاني هو لإيجاد أفضل الطرائق لمساعدة أصدقائنا».

إن أفضل طريقة للحصول على قرارٍ ثانٍ هو تقديم الدليل ضد صدّام، وقد طلبتُ من كولن باول أن يقدّم التقرير في الأمم المتحدة، فهو يتمتع بصدقيّةٍ كونه دبلوماسياً يحظى باحترامٍ كبيرٍ ويُعرف عنه إحجامه عن فكرة احتمال نشوب الحرب، وكنت أعلم أنه سيقومُ بعملٍ شاملٍ ودقيق. أمضى كولن شخصياً أربعة أيام بلياليها في وكالة المخابرات المركزية، يستعرض المعلومات للتأكد من كل كلمةٍ في خطابه. وفي ٥ شباط/فبراير ألقى خطابه في مجلس الأمن.

قال كولن: تبين الحقائق حول العراق أن صدّام حسين ونظامه لم يبذلا أي جهد – أي جهدٍ على الإطلاق ـ كما طلب منهم المجتمع الدولي. بل في الواقع، تبيّن الحقائق المتوفرة وسلوك العراق أن صدّام حسين ونظامه يعملان على إخفاء جهودهما لإنتاج مزيدٍ من أسلحة الدمار الشامل.

اتّسم العرض الذي قدّمه كولن بالشمولية والبلاغة والإقناع. ونظراً إلى أنه كان مبنياً على خلفية تحدّي صدّام لمفتشي الأسلحة، فقد كان له بالغ الأثر في المناقشة العامة. وقد ثبت في وقتٍ لاحقٍ أن التأكيدات التي قدّمها كولن في خطابه لم تكن

دقيقةً، إلا أن كلماته في ذلك الوقت عكست القرار الذي نظرت إليه بعين الاعتبار الوكالات الاستخباراتية في الداخل وفي جميع أنحاء العالم.

قال لي جاك شيراك بعد خطاب كولن: كلانا من ذوي الأخلاق العالية. ولكن في هذه الحالة نحن نرى الأخلاق بطرقٍ مختلفةٍ، أجبته بتهذيبٍ. ولكنّي قلت لنفسي: إذا كان الديكتاتور الذي يعذّب شعبه ويقتله بالغازات السامة لا يُعتبر غير أخلاقيٍ، فمن الذي يُعتبر كذلك؟

بعد ثلاثة أيام، وقف شيراك أمام الكاميرات وقال: لا شيء اليوم يبرّر الحرب. ثم أصدر مع غيرهارد شرودر وفلاديمير بوتين بياناً مشتركاً معارضاً. جلس الرجال الثلاثة في مجلس الأمن؛ وبدت احتمالات صدور قرارٍ ثانٍ قاتمةً.

حثّنا توني على المضي قُدُماً. كما كتب لي يوم ١٩ شباط/فبراير: لقد أصبحت الرهانات اليوم أعلى بكثير. يبدو لي من قمة الاتحاد الأوروبي أن فرنسا تريد أن تجعل من هذا الأمر اختباراً حاسماً: هل أوروبا شريكةٌ لأميركا أم منافسةٌ لها؟ وذكّرني بأنّنا نملك دعماً من تحالفٍ أوروبيٍ قويٍ يضم إسبانيا، إيطاليا، الدنمارك، هولندا، البرتغال، وكل دول أوروبا الشرقيةً. في تصويت حلف شمال الأطلسي الأخير، أيّد خمسة عشر عضواً القيام بعملٍ عسكريٍ في العراق، فيما وقفت بلجيكا واللوكسمبورغ فقط مع ألمانيا وفرنسا. وتحدّث رئيس الوزراء البرتغالي بالنيابة عن كثيرٍ من القادة الأوروبيين عندما قال بارتياب: إننا أمام الاختيار بين أميركا والعراق، ونحن ذاهبون لاختيار العراق؟

اتفقتُ مع توني على استراتيجية: سوف نطرح القرار الثاني على مجلس الأمن، بمشاركة قائد إسبانيا الملهم، رئيس الوزراء خوسيه ماريا أزنار. فإذا جمعنا ما يكفي من الأصوات الداعمة، فقد نصبح قادرين على إقناع فرنسا وروسيا بالامتناع عن التصويت بدلاً من استخدام حق النقض. أما إذا لم نستطع فسنسحب القرار، وسيكون واضحاً أنهم أجهضوا المحاولة الدبلوماسية الأخيرة.

كان القرار الثاني الذي قدّمناه في ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٣ مهماً لسببٍ آخر. كان توني يتعرض إلى ضغطٍ داخلي شديد، بشأن مسألة العراق. وكان مهتماً بأن يظهر أنه استنفد كل حلّ بديلٍ محتملٍ قبل اللجوء إلى القوة العسكرية. وكانت فصائل حزب العمال قد تمرّدت عليه. وفي أوائل شهر آذار/مارس، لم يكن واضحاً ما إذا كانت الحكومة ستنجو.

اتصلتُ بتوني وعبّرت له عن قلقي. قلت له إنني أفضّل انسحابه من الحلف والحفاظ على حكومته بدلاً من البقاء فيه وخسارتها.

رد توني: «إنني أساندك».

وشدّدت على موقفي مجدداً.

«أنا أفهم ذلك وأقدّر موقفك»، أجابني واستطرد قائلاً: أؤمن حقاً بصحة هذا العمل، وسأكمل حتى النهاية».

سمعت أصداء ونستون تشرشل في وقع صوت صديقي. كانت لحظةً تنم عن شجاعةٍ مطلقةٍ ولن أنساها ما حييت.

* * *

قمتُ بجهدٍ أخيرٍ بطلب من توني، لإقناع المكسيك وتشيلي ـ وهما عضوان متردّدان في مجلس الأمن ـ بتأييد القرار الثاني. أجريتُ أول اتصال بصديقي الرئيس فنسينتي فوكس، فاستهلّ الحديث بشكلٍ ينذر بالشؤم. حين قلت لفنسينتي إنني أتّصل بشأن قرار الأمم المتحدة، سألني عن أي قرار أتكلّم. قلت له: «إذا سمحت لي بإسدائك النصح، لا يجب أن تظهر تحالفاً مع الفرنسيين». فقال إنه سيفكر في الأمر ويعاود الاتصال بي. مرت ساعة، ثم وصل كوندوليزا خبر من السفارة. دخل فينسينتي المستشفى للخضوع لجراحةٍ في الظهر. ولم يردني مجدداً أي خبر منه بشأن هذه المسألة.

لم يكن حديثي مع رئيس تشيلي ريكاردو لاغوس أفضل من الآخر. كان رجلاً متميزاً واسع الاطلاع وقائداً فاعلاً. وكنا قد تفاوضنا حول اتفاق تجارة حرّة وأملتُ أن يوافق عليه الكونغرس قريباً، لكن الرأي العام في تشيلي كان مناهضاً لحربٍ مُحتمَلة، وأبدى ريكاردو تردداً في تأييد القرار. تحدّث عن إعطاء صدّام أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، فقلت له إن بضعة أسابيع إضافية لن تحدث فرقاً. فقد كان أمام صدّام عدة أعوام لو أراد الإذعان. وقلت: «من المؤسف أن تؤول الأمور إلى هذا». وسألت مرةً أخيرةً كيف ينوي أن يصوّت، فأجاب إنه سيصوّت بالرفض.

حين كانت العملية الدبلوماسية تتابع سيرها، كانت الضغوط من أجل اتخاذ إجراءات، لا تزال تتصاعد. في أوائل العام ٢٠٠٣، كان ألان غرينسبان، رئيس مجلس إدارة صندوق الاحتياط الفيديرالي، قد أخبرني أن الغموض يلقي بثقله على كاهل الاقتصاد. ولقد جاء إلى المكتب البيضاوي صديقي منذ زمن رئاسة والدي، الأمير السعودي بندر، الذي يشغل منصب سفير السعودية في واشنطن، وأخبرني أن حلفاءنا في الشرق الأوسط ينتظرون قراراً منا.

كلما سمعتُ أحداً يدّعي أننا اندفعنا إلى قرار الحرب، تعود بي الأفكار إلى تلك المرحلة. لقد انطوى ما يزيد على عقدٍ من الزمن على القرارات التي أعقبت حرب الخليج، والتي طلبت من صدّام حسين نزع سلاحه. كما انقضت سنوات أربع على قيامه بطرد المفتشين عن الأسلحة، وستة أشهرٍ على إنذاري النهائي الذي كنت قد أطلقته في الأمم المتحدة، وأربعة أشهرٍ على القرار ١٤٤١ الذي أُعطي له كفرصة أخيرة، وثلاثة أشهر على المهلة النهائية التي أعطيت له للكشف الكامل عن أسلحة الدمار الشامل. لم تشعر الدبلوماسية أنها لم تعطَ وقتاً كافياً، ولكن بدت أنها تحوّلت إلى جدلٍ ليس له نهاية.

في الوقت الذي بقيت فيه التهديدات تتصاعد، كان الرئيس المصري حسني مبارك قد أخبر تومي فرانكس بأن العراق يملك أسلحةً جرثوميةً، ومن المؤكد أنه

سيقوم باستعمالها ضد قواتنا. ولقد رفض التصريح بهذا الاتهام في العلن خوفاً من استثارة الشارع العربي، لكن هذه المعلومات التي تردني من رئيسٍ شرق أوسطي يعرف ما يعرفه عن صدّام، تركت تأثيرها على تفكيري. ومثلما كان للتحرك الميداني مجازفاته، كذلك كان لعدم التحرك مخاطره أيضاً: كان وجود صدّام مع أسلحته الجرثومية يشكل تهديداً خطيراً لنا جميعاً.

* * *

في شتاء العام ٢٠٠٣، رغبتُ في جمع آراء عن العراق من مصادر عدة. وبدأتُ باستشارة بعض المثقفين، وبعض العراقيين المنشقين في المنفى، وبعض من هم خارج الإدارة. كان أحد أكثر الأشخاص الرائعين الذين قابلتهم هو الكاتب إيلي ويزل، وهو أحد الناجين من الهولوكوست، وحامل جائزة نوبل للسلام. ويزل رجل هادئ ولطيف، ولكن العواطف كانت تنبعث من عينيه البالغة أربعة وسبعين ربيعاً عندما شبه وحشية صدّام حسين بجرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبتها النازية. سيدي الرئيس: يحتم عليك الواجب الأخلاقي التصدي للشر. كانت تلك كلمات هذا الرجل، وقد أثّرت فيّ قوة إقناع هذه الكلمات بعمق. هذا الرجل كرّس نفسه للسلام، وقد ألحّ عليّ في ذلك الحين أن أتدخّل في العراق، الذي أسهب في الحديث عنه، موضحاً بكلماته المطوّلة قائلاً: بالرغم من معارضتي للحرب، إلا أنني أرحب بهذا التدخل في العراق، خصوصاً بعد مراوغة صدّام ومماطلته، فلم يبقَ من خيارٍ آخر مطروح.

لطالما استغربت عدم رغبة بعض نقاد الحرب بالاعتراف بالحجّة الأخلاقية للحرب، مثل الحجّة التي تبناها ويزل . إن هؤلاء الناس الذين أدانوا التحرك العسكري ضد العراق كانوا قد كرّسوا أنفسهم محامين ومدافعين عن حقوق الإنسان. ومع ذلك، فإنهم يصرون على إدانتي لاستخدام القوة ضد رجل استخدم الغاز لإبادة الأكراد، وأباد الشيعة بالأسلحة الجوية الرشاشة، وارتكب المجازر ضد عرب الأهوار، وأودى بالآلاف إلى المقابر الجماعية. أنا أفهم أن بعض الناس قد يعارضون الخطر المحدق

الذي شكله صدّام على الولايات المتحدة، ولكنني لم أرَ أحداً ينكر أن تحرير العراق قد دفع للأمام خطواتٍ في عملية المحافظة على حقوق الإنسان.

* * *

بعد أن تعثّر الخيار الدبلوماسي، كانت جلساتنا العسكرية قد ركّزت على جدوى ما يمكن أن يحدث بعد عملية القضاء على صدّام. وفي سنواتٍ لاحقة، قد يتهمنا بعض النقاد بفشلنا في التجهيز لمرحلة ما بعد الحرب، وهذا بالتأكيد سيخالف ما أتذكّره.

ابتداءً من خريف عام ٢٠٠٢، قدّمت مجموعة بقيادة نائب مستشار الأمن القومي، ستيف هادلي، خططاً معمّقة لعراق ما بعد صدّام. تَركَّز اهتمامنا بدرجةٍ كبيرةٍ على مسألتيْ المجاعة واللاجئين، فقد كان ٦٠ في المئة من العراقيين يعتمدون على الحكومة مصدراً للغذاء، هذا ويُقدَّر عدد النازحين العراقيين بحوالي مليوني نازح خلال الحرب.

في ١٥ كانون الثاني/يناير، قدَّم إليوت أبرامز، أحد كبار موظفي مجلس الأمن القومي، موجزاً مفصّلا عن استعداداتنا. لقد خططنا لتقديم المواد الغذائية والبطانيات والأدوية والخيام وغيرها من إمدادات الإغاثة، وأوجدنا خرائط للأماكن التي يمكن إيواء اللاجئين فيها. إلى جانب ذلك، عملنا على نشر خبراء الإغاثة الإنسانية المتمرسين جنباً إلى جنب مع قواتنا. وقد حدّدنا بدقةٍ معظم مواقع توزيع الأغذية في العراق والبالغ عددها خمسة وخمسين ألف نقطة، كما أجرينا الترتيبات اللازمة مع المنظمات الدولية – بما في ذلك برنامج الغذاء العالمي – لضمان توافر كمياتٍ كبيرةٍ من الغذاء.

كما أننا طوّرنا خططاً لإعادة الإعمار على المدى الطويل، ركزنا فيها على عشرة مجالات: التعليم، الصحة، المياه والصرف الصحي، الكهرباء، الإسكان، النقل، الحكم وسيادة القانون، الزراعة، الاتصالات، والسياسات الاقتصادية. وقد جمعنا

بياناتٍ عن كل مجالٍ وصغنا استراتيجياتٍ ووضعنا أهدافاً محدّدة. فعلى سبيل المثال، أحصت الوكالة الأميركية للتنمية الدولية في العراق مئتين وخمسين مستشفى عاماً غير عسكري، وعشرين مستشفى عسكرياً، وخمسة مستشفيات تعليمية وتسعمئة وخمسة وتسعين مركز رعاية طبية. دعت خطتنا إلى إمداد البلد بالمعدات الطبية، والعمل على الاستعانة بأطباء وممرضين عراقيين يعيشون في الخارج لإعادتهم إلى وطنهم، وتدريب عاملين جددٍ بالمجال الطبي، وفي النهاية تسليم السلطة إلى وزارة صحة عراقية جديدة.

كانت إحدى أصعب المسائل هي كيفية التخطيط لنظامٍ سياسي بعد نظام صدّام. اقترح بعض من في الحكومة تسليم السلطة فوراً إلى مجموعةٍ من العراقيين المنفيين، لكن الفكرة لم تعجبني، فبالرغم من أن المنفيين لهم صلات قوية في واشنطن إلا أنني شعرت أن قائد العراقيين يجب أن يكون شخصاً يختارونه هم. كنت أذكر التجربة البريطانية في العراق في العشرينيات؛ عندما نصّبت بريطانيا العظمى ملكاً غير عراقي، الملك فيصل، الذي اعتبره الشعب ملكاً غير شرعي، وأشعل تنصيبه الاستياء وعدم الاستقرار. وما كنا لنكرّر هذا الخطأ.

كان التحدي الآخر الأساسي هو توفير الأمن بعد صدّام. وقد أفادتني بعض التقارير الاستخباراتية أن معظم أفراد جيش وشرطة صدّام سوف يغيّرون ولاءهم بعد رحيل النظام، على إلا يتم دعوة القادة المتّهمين بقتل الأبرياء لإعادة الانضمام. مع استعانتنا بباقي قوات عهد صدّام في تشكيل جوهر القوات العسكرية والشرطة العراقية الجديدة.

أصدرتُ في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ قراراً رئاسياً رقم ٢٤ يقضي بتأسيس إدارةٍ جديدةٍ لإعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية ORHA والتي تم تكليفها بتحويل خططنا النظرية إلى أفعالٍ ملموسة. اتخذت الإدارة من مبنى البنتاجون مقراً لها حتى تمر جهودنا المدنية في العراق عبر التسلسل الإداري نفسه الذي تخضع له عملياتنا العسكرية. وكلّف دون رامسفيلد، جاي جارنر – الجنرال المتقاعد الذي قام بتنسيق

جهود الإعانة العسكرية في شمال العراق عام ١٩٩١ ـ بقيادة الإدارة، والذي قام بدوره بتعيين كادرٍ من الخبراء المدنيين من مختلف القطاعات الحكومية ممن تم استدعاؤهم احتياطياً للسفر إلى بغداد.

بامتلاكنا خططاً مسبقةً وأفراداً على أهبة الاستعداد قبل الحرب، شعرت بأننا كنّا على أتم الاستعداد، إلا أننا كنا نعي أيضاً حدودنا. فقدرات أمتنا على البناء محدودة، وما كان أحد ليعلم على وجه اليقين الاحتياجات التي يمكن أن تنشأ. وفي السلك العسكري كان هناك قول قديم مأثور: «لا يمكن لخطة معركةٍ أن تنجو مع أول احتكاكٍ مع العدو»، وكما سنتعلّم من تجربة العراق، فقد انطبقت صحة هذا القول مرتين على خطة واقع ما بعد الحرب.

* * *

بحلول آذار/مارس عام ٢٠٠٣، كانت خطة المعركة جاهزة، وبعد أكثر من عام من الاستطلاع والاستجواب، طور تومي فرانكس وفريقه عملية كنت واثقاً بأنها ستطيح على وجه السرعة وبشكل حاسم بصدّام حسين، وفي نفس الوقت تحد من الخسائر في الأرواح الأميركية والعراقية. الشيء الوحيد الذي كانت تساورنا الشكوك حوله ولم نكن متأكدين منه هو الدور التركي. مارسنا الضغط على الأتراك لأشهر عدّة لإعطائنا الإذن بالعمل على أراضيهم حتى يتسنى لنا إرسال ١٥٠٠٠ جندي من فرقة المشاة الرابعة كي يدخلوا العراق من الشمال. وكنا قد وعدنا الأتراك بتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية وتمكينهم من الوصول إلى دعم من صندوق النقد الدولي في برامجهم الرئيسية، ووعدناهم بالاستمرار في دعمنا القوي لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

عند نقطة معينة، بدا الأمر وكأننا سوف نحصل على الإذن. فحكومة رئيس مجلس الوزراء عبد الله غول وافقت على طلبنا، ولكن عندما صوّت البرلمان التركي بشكلٍ نهائي في ١ آذار/مارس رُفِض الطلب، فأُصبت بالإحباط وخيبة

الأمل. فتركيا حليفتنا في منظمة حلف شمال الأطلسي، خذلت أميركا برفضها أهم طلبٍ لها.

احتجز دون وتومي فرقة المشاة الرابعة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، حيث يمكنها الانتشار في تركيا في حال غيّرت الحكومة التركية رأيها، وإلا فليس أمامها سوى الانضمام إلى القوات الموجودة في الكويت. كما عزمنا أيضاً على نشر آلافٍ من قوات المظليين المجوقلة الثالثة ١٧٣ في المنطقة الكردية في شمال العراق. وهذا لم يكن خيارنا الأول، ولكن على الأقل سيؤمن ذلك لنا موطئ قدمٍ في الجبهة الشمالية.

في الجنوب، كان لدينا أكثر من ١٥٠ ألف جندي أميركي على الحدود العراقية، إلى جانب أكثر من ٩٠ ألف جندي متمركزين في منطقة الخليج. وقد كنتُ قد أعلنتُ بشكلٍ واضح تماماً بأننا سنستخدم هذه القوات إذا لزم الأمر. أوصلتنا الدبلوماسية القسرية إلى الحد الأقصى من النفوذ. وقد تلاقت المسارات الدبلوماسية مع العسكرية بشكلٍ كاملٍ بحيث أن الخيار بين الحرب والسلام سيعود إلى صدّام حسين وحده.

كان مجلس الأمن القومي لعدّة أشهر يجتمع يومياً تقريباً، ولأشهرٍ عدّة، لبحث قضية العراق. وقد أعرب ديك تشيني عن قلقه من بطء العملية الدبلوماسية، حيث قال إنه على دراية بموقف كل واحدٍ من مستشاريه. وقد حذّر قائلاً إن صدّام حسين يحاول كسب الوقت ليتمكّن من تصنيع الأسلحة، أو إخفاء الأسلحة التي في حوزته، أو في التخطيط لتنفيذ هجمات. وفي إحدى مآدب الغداء الأسبوعية الخاصة بالمجلس هذا الشتاء ،سألني ديك مباشرة، هل ستضع حدّاً لهذا الرجل أم لا؟ وكانت هذه هي طريقته في التعبير عن كوننا قضينا وقتاً ًمطوّلاً ًمع طرائق الحل الدبلوماسية. إلا أنني وضعت نصيحته الفظّة موضع التقدير، وأجبته أني غير مستعد لاتخاذ قرارٍ بعد. فردّ قائلاً: حسناً ًسيدي الرئيس، فالأمر عائدٌ إليك. ثم أضاف إحدى مقولاته المفضّلة، وعلى وجهه ابتسامة هادئة: ولهذا يدفعون لك القدر الأكبر من المال.

ولم يكن دون رامسفيلد عاقداً نيته على أمرٍ كهذا من قبل. فلقد أكّد لي أن

الجيش متأهب في حال أصدرت قرار الحرب. كما حذّر من أنه لا يمكننا أن نترك جيشاً قوامه ١٥٠ ألف جندي ينتظر على حدود العراق إلى الأبد. فالجهد المبذول لتوفير إمدادات الدعم لهذا العدد الكبير من القوات أمر يفوق الحد. ومع مرور الوقت وعند لحظةٍ ما سيفقد حشد القوات قيمته المفروضة، لأن صدام سيستنتج أننا لسنا جادّين في غزو بلاده.

وكانت كوندي حريصةً في البقاء على الحياد في اجتماعات مجلس الأمن القومي، إلا أنها أفضت إليّ برأيها على انفراد. وللحق، فهي دائماً كانت خير معاونٍ في عمليات التفتيش، ولكنها اقتنعت بعد لقائها مع بليكس وفريقه أن صدام لن يفعل شيئاً سوى المماطلة. وعلى مضضٍ انتهى رأيها إلى أن الحل الوحيد لتنفيذ قرار مجلس الأمن هو الحل العسكري.

وكان لدى كولن أكبر التحفظات. حيث أخبرني في لقاء شخصي في مستهل عام ٢٠٠٣ أنه على اقتناع تام بإمكانية التعامل مع التهديد العراقي بالطرق الدبلوماسية. كما أخبرني بأنه لم يكن راضياً تماماً عن خطط الحرب. ولم أتفاجأ حين قال هذا، فلقد كان في اعتقاد قائد العمليات الجنرال تومي فرانكس أنه سيحتاج فقط إلى ثلث القوات التي كانت في حرب الخليج. وهو ما كان له الأثر الكبير في صرف الأذهان عن أن الولايات المتحدة الأميركية يمكنها الانتصار في الحروب بنشر أكبر القوات وأعتاها، وهذا ما كان يُعرف باسم «عقيدة باول».

سعدتُ حينما أخبرني كولن بأنه قد صرّح بمخاوفه من الخطة إلى تومي، حيث كان كولن رئيساً للأركان خلال عاصفة الصحراء، وكنت واثقاً من أن تومي سوف يأخذ هذا الرأي على محمل الجد. وبينما كنت أتمسك بأمل نجاح الجهود الدبلوماسية، صارحت كولن بأن من الجائز أن نصل إلى النقطة التي تكون الحرب عندها خيارنا المتبقي الوحيد. لم يكن أي منا يرغب في الحرب، ولكنني سألته إذا كان يقبل التدخل العسكري كخيارٍ أخير، فقال لي: إذا كان هذا هو ما يتوجب عليك عمله، فأنا معك سيدي الرئيس.

استقليتُ الطائرة الرئاسية صباح يوم الأحد ١٦ آذار/مارس متوجهاً إلى جزر الآزور، وهي منطقة برتغالية على بعد ثلثي المسافة بين واشنطن و لشبونة ، للمشاركة في قمة اللحظات الحرجة حول الاستراتيجية الدبلوماسية مع توني بلير وجوزيه ماريا أزنار ورئيس وزراء البرتغال جوزيه باروسو. ومع اعتراض الفرنسيين والألمان والروس على قرار ثانٍ من الأمم المتحدة، ووقوف المكسيك وتشيلي ضد القرار، اتفقنا جميعاً على أن الجهود الدبلوماسية قد انعدمت جدواها. كنا قد خطّطنا للتراجع عن القرار الثاني للأمم المتحدة صباح يوم الاثنين. وفي مساء ذلك اليوم، كنت لأعطي صدّام حسين وأبناءه مهلة ثمانٍ وأربعين ساعة لمغادرة البلاد، والتي كانت تمثّل فرصةً أخيرةً لتجنّب الحرب.

كان من المقرر أن يأتي التصويت الحاسم في البرلمان لتوني يوم الثلاثاء، وقد أخبرني بأنه سيستقيل إذا فشل التصويت، مما قد يعني انسحاب بريطانيا من الائتلاف العسكري. لم أتخيّل يوماً أنني سأتابع تصويت البرلمان البريطاني بهذا الاهتمام، ناهيك عن تأييدي لرئيس وزراء حزب العمل. وقد صافحتُ صديقي وفريقه لدى مغادرتنا جزر الآزور متمنياً ألا تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي بهم، على حد قول كونداليزا ونحن في طريقنا للعودة إلى القاعدة الجوية.

كانت رحلة العودة إلى الوطن طويلةً وهادئة، وبعد الكثير من التخطيط والانتظار حانت اللحظة الحاسمة. فإن لم يغادر صدّام البلاد، فإننا سندخل الحرب في غضون ثلاثة أيام. لقد كنتُ خائب الأمل بشدة لفشل الدبلوماسية، ولكنني كنتُ قد قطعتُ عهداً للشعب الأميركي وحلفائنا والعالم أجمع بأننا سننفّذ قرار الأمم المتحدة، وما كنت لأخلف وعدي.

خلال أشهر عدّة، كنت ألتمس المشورة واستمع إلى الكثير من الآراء وأفكر في وجهات النظر المعارضة. وقد اعتقد البعض أنه سيتسنى لنا احتواء صدّام من خلال الإبقاء على المفتشين في العراق، ولكنني لم أعرف كيف. فإذا كان علينا أن نُخبر

صدّام بأن لديه فرصة أخرى ـ بعد أن أعلنا أن هذه كانت فرصته الأخيرة – فإننا كنا سنُسيء إلى صدقيتنا ونتركه يتجرّأ علينا.

اقترح آخرون أن التهديد لم يكن جاداً مثلما اعتقدنا. وقد كان سهلاً عليهم قول هذا، فهم غير مسؤولين عن حماية البلاد. لقد تذكرت الآلام الموجعة لأحداث ٩/١١، هذا الهجوم المباغت الذي تعرّضنا له دون تحذير. بيد أننا تلقينا هذه المرة تحذيراً أشبه بصوت البوق المدوّي. أكدت أعوام من جمع المعلومات نتيجةً مفادها أن صدّام كان بحوزته أسلحة دمار شامل. لقد استخدمها في الماضي، ولم يتحمّل مسؤولية تأكيد تدميرها. رفض صدّام التعاون مع المفتشين حتى عند تهديده بغزو البلاد، فكانت النتيجة المنطقية الوحيدة إخفاء أسلحة الدمار الشامل. وفي ظل دعمه للإرهاب وكراهيته الشديدة لأميركا، لم يكن هناك سبيل إلى معرفة إلى أين ستنتهي هذه الأسلحة.

زعم آخرون أن مقصد أميركا الحقيقي هو التحكّم في نفط العراق أو إرضاء إسرائيل. وكانت هذه المزاعم عاريةً عن الصحة، لأنني كنت أُرسل قواتنا للقتال من أجل حماية الشعب الأميركي.

كنت أعلم أن الثمن سيكون باهظاً، بيد أن للسلبية ثمناً هي الأخرى. وفي ظل كل ما نعرفه، فقد كان السماح لصدّام بالبقاء في السلطة مغامرةً كبرى. كان عليّ المراهنة على أحد أمرين: فإما أن تكون كلّ وكالات الاستخبارات الكبرى على خطأ، وإما أن يكون صدّام قد غيّر ما في نفسه. فبعد الهلع الذي شاهدته في أحداث ٩/١١، لم تكن تلك الفرصة هي التي كنت مستعداً لاقتناصها. لقد كان العمل العسكري هو ملاذي الأخير، لكنني اعتقدت أنه كان أمراً ضرورياً.

في اليوم التالي، الاثنين ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٣، سحب السفير جون نيغروبونتي القرار الثاني من مجلس الأمن. في تلك الليلة، خاطبتُ الأمة من قاعة الصليب في البيت الأبيض قائلاً: «لم يرقَ مجلس الأمن إلى مسؤولياته، لذا سوف نتحمّل نحن

مسؤولياتنا... على صدّام حسين وولديْه أن يغادروا العراق في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. وفي حال رفضوا المغادرة، فإن ذلك سوف يؤدي إلى نشوب صراعٍ عسكري وفق التوقيت الذي نحدّده نحن».

* * *

بدا اليومان التاليان وكأنهما أسبوع، ولكننا تلقينا أنباءً جيدةً نهار الثلاثاء: كسب توني بلير التصويت في البرلمان بفارقٍ كبيرٍ، وسوف تقف بريطانيا العظمى إلى جانبنا.

عمل جورج تينيت وكولن باول على إبقائي على اطلاع بآخر التطورات الحاصلة في العراق. وأملنا الأخير كان أن يقبل صدّام باقتراح نفيه. من جهة، بدا وكأن العرض الذي قدمته إحدى دول الشرق الأوسط لإرسال صدّام إلى روسيا البيضاء مع مليار أو ملياري دولار أميركي من شأنه أن يكسب تأييداً. ولكن بدلاً من ذلك، أمر صدّام، في أحد أعماله الأخيرة، بقطع لسان أحد المنشقين وتركه ينزف حتى الموت. إن دكتاتور العراق قد اتّخذ قراره واختار الحرب.

صباح الأربعاء، دعوت كامل أعضاء مجلس الأمن الوطني للاجتماع في غرفة العمليات حيث أعطيت الأمر بإطلاق عملية تحرير العراق. بعد ست ساعات، وردني اتصال غير متوقع من دون رامسفيلد الذي أعرب عن رغبته في مناقشة أمرٍ في غاية الأهمية. كان رامسفيلد وجورج تينيت في طريقهما إلى المكتب البيضاوي.

وما إن وصلا حتى بادرتهما بالسؤال: ماذا يحصل؟

أجاب جورج: سيدي الرئيس، نعتقد أن الفرصة قد سنحت لقتل صدّام حسين.

ما تلى ذلك كان واحداً من أهم الاجتماعات في تاريخ رئاستي. وفي حضور فريق الأمن القومي بأكمله في المكتب البيضاوي، كان المستشارون يتزاحمون جيئة وذهاباً مقدمين آخر التطورات الميدانية. وأفادت إحدى شبكات مصادر الاستخبارات في العراق أنه من المرجّح أن يقضي صدّام وبعض أفراد عائلته الليلة

في مجمع خارج بغداد يسمى مزارع دورا. فإذا قصفنا الموقع، قد نكون قادرين على القضاء على رأس النظام.

كنت متشكّكاً. فإذا أمرتُ بالضربة الجوية فهذا يعني عدم الالتزام بخطتنا الجيدة الإعداد التي تتطلب القيام بعمليات سرية لمدة يومين قبل بدء الحرب الجوية. وقد تصوّرتُ كل الأمور التي يمكن أن تتعثّر. فقد كان يتعين أن تحلّق اثنتان من قاذفات أف ـ ١١٧ فوق مدينة شديدة التحصين بدون حراسة. وكان أكثر ما يقلقني أن تكون المعلومات الاستخباراتية فخاً. فماذا لو لم يكن صدّام هو الذي ذهب إلى مزارع دورا بل حافلة مليئة بالأطفال؟ ستكشف أول صور الحرب أننا نقتل الأطفال العراقيين الأبرياء.

ولذلك فإن المسار الأكثر أماناً هو الالتزام بالخطة. ولكن كانت هناك فكرة ما برحت تعاودني. فإذا قضينا على الديكتاتور قد نكون قادرين على إنهاء الحرب قبل بدايتها، ومن ثم نستطيع أن ننقذ حياة الكثيرين. شعرت بمسؤولية اغتنام هذه الفرصة. وأطلعني اللواء مايرز أنه قد تم تزويد الطائرات بالوقود وبرمجة صواريخ الهجوم البري توماهوك. التفت إلى الفريق المجتمع في المكتب البيضاوي وقلت فلنبدأ. وبدأ القصف مباشرةً بعد انقضاء الموعد النهائي المحدد بفترة ٤٨ ساعة.

اتصلت كوندي في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي. فقد رأى أحد الشهود رجلاً يشبه صدّام وهو يُنقل من بين الأنقاض في مزارع دورا. ولكن بمرور الأيام تغيرت التقارير. وكانت العملية مؤشراً لأشياء قادمة، فما عقدنا العزم على إنجازه كان صحيحاً، وقد نفذ الطيارون مهامهم بشجاعة، إلا أن المعلومات الاستخباراتية كانت خاطئة.

* * *

في اليوم الذي تلى الرصاصة الأولى التي أُطلقت في مزارع دورا، بدأت تحركات مكثفة للجيش. فمن الحدود الجنوبية للعراق مع الكويت، انطلق الفيلق الخامس

والقوة الاستطلاعية الأولى لمشاة البحرية في هجومهما المتوازي إلى بغداد. وفي الوقت ذاته، قصفت قواتنا الجوية العاصمة. في الموجة الأولى من الهجوم، تم إطلاق أكثر من ثلاثمائة صاروخ كروز متبوعة بقصف من طائرات الشبح مما أدى إلى تدمير معظم القيادة العسكرية لصدّام إلى جانب مقر حكومته. وبخلاف القصف الناري الذي حدث في دريزدن أو الهجمات النووية على هيروشيما وناجازاكي أو استخدام قنابل النابالم الحارقة في فيتنام، فقد حافظ هجومنا على أغلب السكان المدنيين والبنية التحتية في بغداد. فهجومنا لم يكن هجوم صدمةٍ وترويعٍ فحسب، بل كان من أدق الهجمات الجوية في التاريخ.

في جنوب العراق، انتشرت قوات البحرية لحماية حقول النفط الرئيسية. وقامت القوة الخاصة البولندية وقوات البحرية الأميركية الخاصة بتأمين البنية التحتية النفطية في عرض البحر. كما قامت فرقة مدرعة بريطانية بتحرير مدينة البصرة الجنوبية وميناء أم قصر الحيوي. لم نر أياً من حرائق النفط أو التخريب الذي كنا نخشاه، وقمنا بتمهيد الطريق كي تتدفق المساعدات الإنسانية إلى العراق.

في شمال العراق، أحكم المظليون السيطرة على تقاطعات حيوية وساعدوا في بناء جسر جوي للمواد والمعونات الإنسانية. كما تم تدمير معسكر الزرقاوي بمساعدة من القوات الكردية. وفي غرب العراق، كانت القوات الأميركية والبريطانية والأسترالية تجوب الصحراء بحثاً عن منصات إطلاق صواريخ سكود ولتتأكّد من أن قوات صدّام لن تحظى بفرصة لمهاجمة المملكة العربية السعودية أو الأردن أو إسرائيل أو أيٍ من الحلفاء في المنطقة.

ومع نهاية الأسبوع الثاني، كان جنودنا قد وصلوا إلى مشارف بغداد بعد أن تحملوا العواصف الرملية التي تعمي الأبصار والحر الشديد ومعدات الحماية الثقيلة التي كانوا يرتدونها لتحميهم من الهجمات البيولوجية أو الكيميائية التي كنا نخشاها. لقد واجهوا مقاومة شديدة من القوى المخلصة لصدّام الذين كانوا يشنون الهجمات من مركبات مدنية ويختبئون خلف دروع بشرية، إلا أنهم أكملوا ما يعد أسرع تقدمٍ

مدرعٌ في تاريخ الحروب. وعلى طول الطريق، كانوا يوزعون الحلوى والأدوية على الأطفال ويغامرون بحياتهم لحماية المدنيين العراقيين.

في الرابع من نيسان/أبريل كان الرقيب بول راي سميث ورجاله يقومون بتأمين الساحة القريبة من مطار بغداد. قام الحرس الجمهوري التابع لصدّام بنصب كمينٍ لهم، وتمكّن من جرح عدد من رجال الرقيب سميث. عندما تعرّض الرقيب سميث لنيران العدوّ، باشر الرمي ببندقيّة رشّاشة واستمرّ بإطلاق النار منها حتى جُرح جرحاً مميتاً. وقد كشف التقرير بعد المعركة أنّه قتل خمسين من جنود العدوّ وأنقذ حياة ما يقارب المئة من الجنود الأميركيّين. أصبح بول راي سميث لاستبساله هذا، أوّل جنديّ في الحرب على الإرهاب يحصل على وسام الشرف. قمت في نيسان/أبريل من عام ٢٠٠٥ بتقديم الوسام لأرملته بريجيت وابنه الصغير في البيت الأبيض.

في اليوم الذي أعقب تضحية الرقيب سميث بحياته من أجل تأمين المطار، دخلت الفرقة المدفعيّة الثالثة بغداد. ثمّ وصلت الفرقة البحريّة الأولى بعد يومين. في اجتماع مجلس الأمن القوميّ في التاسع من نيسان/أبريل، ذكر تومي فرانكس أنّ العاصمة العراقيّة قد تسقط في أي لحظة. كان لديّ اجتماع مع الرئيس رودولف شوستر رئيس جمهوريّة سلوفاكيا. وكانت دولته الديمقراطيّة الفتيّة، وهي واحدة من ثمانٍ وأربعين دولة تعهّدت بتقديم الدعم العسكري أو اللوجستي في العراق، قد نشرت وحدة مدرّبة على معالجة آثار الهجوم بأسلحة الدمار الشامل. وقد اغرورقت عينا الرئيس شوستر بالدمع وهو يصف إعتزاز أمته بالمساعدة في تحرير العراق. لطالما تذكّرت تلك اللحظة عندما كنت اسمع المنتقدين وهم يزعمون أنّ أميركا تصرّفت بمفردها. كانت تلك التهمة الباطلة تحطّ من قدر حلفائنا وتغضبني.

بانتهاء الاجتماع، طلب منّي دان بارليت أنْ أشاهد التلفزيون. لمْ أكن أحتفظ بجهاز تلفزيون في المكتب البيضاوي، لذلك خرجت إلى المكان الذي جلس فيه المساعدون الشخصيّون. شاهدت على التلفزيون حشداً من العراقيّين يهتف ابتهاجاً

في ساحة الفردوس في بغداد بينما تسحب مدرعة تابعة للبحريّة تمثال صدّام الذي يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً.

منذ عشرين يوماً، والقلق يسيطر عليّ. أما الآن، فيعتريني الشعور بالراحة والفخر. كنت أيضاً مشغول الفكر بالتحديات المستقبلية، لأن القوات الموالية لصدّام ما زالت تسيطر على بعض المناطق شمال العراق بما في ذلك مدينة تكريت مسقط رأس صدّام، وكان هناك بعض مقاتلي حزب البعث الشرسين والذين أُطلق عليهم لقب «فدائيو صدّام» وكان صدّام وأبناؤه هاربين. وقلت لخوسيه ماريا أزنار عند اتصالي به لمشاركته الخبر: «لن ترانا نؤدي رقصات النصر أو غيرها».

* * *

كان ينبغي لي أن أستمع إلى رأيي الخاص. رأى تومي فرانكس أن من المهم أن نعلن عن بدء مرحلةٍ جديدةٍ في الحرب على العراق. وكسبيلٍ لفعل ذلك، قرّرتُ إلقاء خطاب من على متن السفن الأميركية الحاملة لاسم أبراهام لينكولن، والتي عادت إلى الولايات المتحدة بعد رحلة دامت عشرة أشهر في البحر. قدّم خمسة آلاف بحّار، وطيّار، وجندي على متن الحاملة دعمهم للعمليات العسكرية على كلّ من أفغانستان والعراق.

في ١ أيار/مايو ٢٠٠٣، ركبت طائرةً حربيةً لأول مرة منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً. أطلعنا الطيّار البحري سكوت زيليم ـ والمعروف بإشارة النداء الخاص به «زي مان» على وسائل الأمان المتبعة في محطة الطيران البحرية بالجزيرة الشمالية في سان دييجو[1]. وانطلق القائد جون (سكيب) لوسييه ـ وهو أحد الطيارين البارعين وسجّل له أكثر من خمسمئة هبوطٍ بالطائرات في سيرته الذاتية ـ بالطائرة التي تقلنا، وهي من طراز S-3B Viking. وفي وقتٍ ما أعطاني مهمة قيادة الطائرة، وقمت بالطيران لعدة دقائق فوق المحيط الهادئ. لقد بدا عليّ أني قديم الطراز، ولكن بعد

(١) لقي الطيّار البحري «سكوت زيليم» مصرعه بطريقة مأساوية، في حادث تدريب عام ٢٠٠٤.

قليلٍ من الوقت اعتدت الأمر. ثم تولى القائد قيادة الطائرة بحكمةٍ بينما كنا نقترب من الحاملة. وقام بتوجيه الطائرة نحو ظهر الحاملة، وأمسك بالطائرة آخر أسلاك كبح السرعة.

وعلى ظهر الحاملة لينكولن، قمت بزيارة فريق هبوط الطائرات، واستمتعنا بعمليات الإقلاع والهبوط في المنطقة المخصّصة لذلك، وتناولنا الطعام مع البحّارة وجنود البحرية. وقلت لهم في خطابي: «إخوتي الأميركيين، لقد انتهت عمليات القتال الرئيسية في العراق... والانتقال من عهد الديكتاتورية إلى الديمقراطية سيستغرق بعض الوقت، ولكن يستحق العناء المبذول. وسيستمر تحالفنا إلى أن تنتهي مهمتنا. وبعدها سنرحل ونترك وراءنا عراقاً حراً».

لم ألحظ في البداية، الراية الكبيرة التي رفعها أفراد طاقمي على سدة ربان السفينة أمام كاميرا التلفاز، وقد كُتِب عليها: تمّت المهمة، وكان الهدف من رفع هذه الراية التنويه بأكبر عملية تعبئة للجند على متن حاملة الطائرات لينكولن. بدا لي أني أقوم برقصة انتصارٍ طالما حذّرتُ منها. تمت المهمة : عبارة نقدٍ اختصرت كل ما لحقنا من فشل أو خطأ في العراق. أوضحتُ في الكلمة التي ألقيتها في خطابي أن مهمتنا أبعد ما تكون عن الإنجاز. غير أن أي تفسير أو شرح لن يصل إلى تغيير ما رسخ في الأذهان؛ إن عملنا انحرف عن المسار المقصود وما قمنا به كان خطأً فادحاً.

* * *

أصبح هدفنا المحوري، بعد سقوط صدّام، مساعدة العراقيين على تطوير ديمقراطيةٍ داعمةٍ للحكم الذاتي، ديمقراطيةٍ مستمرةٍ ومحميةٍ ذاتياً وحليفةٍ في الحرب على الإرهاب. كان هذا الهدف صعب المنال غير أني كنت متفائلاً. لقد وضعنا خططاً قبل الحرب لمواجهة ما قد يطرأ من أحداثٍ مريعة، غير أن شيئاً من هذا لم يحصل. أين هي بغداد القلعة وأين هي حرائق آبار البترول الشاملة. لقد قمنا

بالقضاء على جميع المظاهر المتمثّلة في انتشار المجاعات ومذابح المدنيين التي كان يرتكبها صدّام حسين ولم تعد تُشن هجمات على قواتنا باستخدام أسلحة الدمار الشامل. والأهم من ذلك هو أنه لم تعد هناك هجمات إرهابية تتعرض لها أميركا أو حلفاؤنا من الدول الأخرى.

كان هناك أمر مهم متوقع الحدوث ولكننا لم نتّخذ له الاستعدادات الكافية. ففي خلال الأسابيع التالية لعملية التحرير بدأت بغداد في الانحدار إلى حالةٍ من غياب القوانين. ولقد أصابني الرعب حقاً عندما رأيتُ مجموعاتٍ من الأفراد ممن يقومون بأعمال السلب والنهب يخرجون من المتحف الوطني بالعراق وهم يحملون تحفاً ثمينة، وكذلك عندما قرأت التقارير الخاصة بحوادث الاختطاف والقتل والاغتصاب التي يشهدها العراق. وكان جزء من التفسيرات التي قُدّمت لشرح هذا الوضع أن صدام كان قد أطلق سراح عشرات الآلاف من المجرمين قبل اندلاع الحرب بفترة وجيزة. ولكن المشكلة كانت أعمق من ذلك؛ فصدام قد أحدث انحرافاتٍ شديدةً في الجانب النفسي لدى العراقيين بطريقةٍ لم نتمكّن من استيعابها بشكلٍ كامل. وكانت بذور الشك والخوف التي قام صدّام بغرسها طيلة عقود قد أتت أُكُلها المرجوة التي بدأت تظهر علناً.

في أحد اجتماعات مجلس الأمن الوطني الذي عُقد في أواخر شهر نيسان/أبريل قمت بطرح هذه الأسئلة: بالله عليكم ما الذي يحدث؟ لماذا لا يقوم أحد بردع من يقومون بالسلب والنهب؟

وكانت الإجابة عن هذين السؤالين باختصار هي أن هناك نقصاً في القوة العاملة ببغداد، بالإضافة إلى أن الشرطة العراقية قد تعرّضت للانهيار وفقدت سيطرتها بعد سقوط النظام الحاكم، كما تفكّك الجيش العراقي إلى حد تلاشي سلطته. وكذلك بناءً على قرار الحكومة التركية، صدر أمر إلى الكثير من أفراد القوات الأميركية الذين قاموا بتحرير بغداد بالتقدم جهة الشمال لتحرير بقية أجزاء الدولة. وكان الدمار الذي

حل بالبلاد في تلك الأيام الأولى قد خلّف مشكلاتٍ يمكن أن تستمر لأعوامٍ طويلةٍ قادمة. إن العراقيين يبحثون عن شخصٍ يوفر لهم الحماية، وبإخفاقنا في حفظ الأمن في العراق، نكون قد أضعنا فرصتنا الأولى لإثبات قدرتنا على ذلك.

صاحب الفراغ الأمني في العراق فراغ سياسي. لذا، قررتُ تكليف أحد المسؤولين الأميركيين بحفظ النظام في الوقت الذي كنا نقوم فيه بالعمل على تأسيس حكومة شرعية. وقد تطورت هذه الفكرة لتتجسّد في سلطة الائتلاف المؤقتة التي تم التصديق عليها بموجب قرار من الأمم المتحدة وعُهد برئاستها إلى مسؤول الخدمات الخارجية البارز وخبير مكافحة الإرهاب: السفير باول جيري بريمر.

أثار جيري إعجابي منذ البداية. لقد كان قائداً عِدائياً وكان يشاركني اقتناعي بأن العراقيين جديرون بالديمقراطية. وكان يعلم أنهم سيستغرقون وقتاً لصياغة الدستور والتحضير للانتخابات. في أحد اجتماعاتنا الأولى، أخبرني أنه سوف يقرأ دراسةً عن عملياتٍ سابقةٍ لما بعد الحرب وأنه يعتقد أننا بحاجة إلى مزيدٍ من القوات في العراق.

أثرتُ مسألة مستويات القوات مع دون رامسفيلد والقيادة العسكرية، وأكدوا لي أن لدينا ما يكفي. كانوا يتوقعون وصول المزيد من القوات من شركائنا في التحالف، وكانوا على يقين أن بإمكاننا تدريب جيشٍ عراقي وقوات الشرطة بسرعة نسبية. وكانوا أيضاً يشعرون بالقلق من النزعة القومية العراقية والتحريض على العنف عندما ظهرنا بمظهر المحتلين للبلاد.

قبلتُ حكم دون والعسكريين. كانت حالة الفوضى والعنف التي شهدناها تنذر بالخطر، ولكن الوقت كان لا يزال مبكراً. ذكّرني هذا الوضع بالأيام الأولى الصعبة في أفغانستان. ورفضت التخلي عن خطتنا قبل إعطائها فرصةً لتُنفّذ.

وصل بريمر إلى العراق في ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٣. وكان من مهامه الأولى تكوين مجلس الحكم العراقي الذي من شأنه تولّي مسؤولية الوزارات الأساسية والتحضير

لعودة السيادة بشكلٍ رسمي. الإبحار في السياسة القبلية والدينية والعرقية في العراق كان بالغ التعقيد، ولكن جيري وفريقه قاموا بعمل رائع. باشر مجلس الحكم العراقي عمله في تموز/يوليو، بعد أربعة أشهر من التحرير. وقد شمل خمسة وعشرين عراقياً من جميع الخلفيات. الطريق أمام العراقيين لا يزال طويلاً، ولكنهم استطاعوا اتخاذ الخطوة الأولى باتجاه تشكيل حكومةٍ نيابية.

يُعتبر تشكيل مجلس الحكم العراقي وسيلةً مهمةً للتعبير عن أن طغيان صدّام حسين قد ذهب إلى الأبد. مع أخذ ذلك بعين الاعتبار، أصدر جيري أمرين بعد وقتٍ قصيرٍ من وصوله إلى بغداد. الأمر الأول مفاده أن أعضاء معينين من حزب البعث التابعٍ لصدّام لن يحق لهم أن يخدموا في الحكومة العراقية الجديدة. والأمر الثاني يفيد بتسريح الجيش العراقي رسمياً، والذي بدأ يختفي بالفعل من تلقاء نفسه.

أنجزت الفصائل العسكرية أهدافها، بطريقة أو بأخرى. رحب شيعة وأكراد العراق، وهم الغالبية العظمى، بالخلاص التام من صدّام. لم أضع في الحسبان ما قد تتركه الحالة الراهنة من أثر له وقع الصدمة النفسية. لقد اعتبر سنّة العراق ما حصل مؤشراً إلى أن لا مكان لهم في مستقبل العراق. وكان وقع هذا الأمر من أخطر ما يكون على الجيش. كما أُبلغ آلاف من الرجال المسلحين بعدم الرغبة بوجودهم. وبدل أن يندرجوا في صفوف الجيش الجديد، انضم الكثير منهم إلى حركة الانتفاضة على السلطة.

عندما أعود اليوم بالذاكرة إلى ما حدث في الماضي، فإنني أدرك أنه كان يتعيّن عليّ أن أصر على إجراء المزيد من النقاش والبحث في أوامر جيري، وبخاصة في ما يتعلق بالرسالة التي كان يمكن أن يمثلها تسريح الجيش وبالطريقة التي كان يمكن أن يؤثر بها إنهاء عهد حزب البعث لدى الكثير من السُّنة. أما الفترة الطويلة التي قضاها أحمد جلبي في المنفي، فقد تبين منها أن برنامج إنهاء حزب البعث كان له تأثير عميق على الكثيرين بدرجة أكبر مما كنا نتوقع بما في ذلك الطبقة المتوسطة من أعضاء الحزب مثل المدرّسين. لقد كان من الممكن أن نصدر الأوامر بشكلٍ أو

بآخر على أي حال، فقد كانت هناك دعوات قوية تطالبنا بذلك، وكان أي بديل عنها من شأنه أن يخلق مجموعةً من المشاكل المنفصلة عن ذلك السياق. ولو أن الشيعة فهموا أننا لم نكن جادين في تصميمنا على وضع نهايةٍ لعهد حزب البعث، لكانوا قد انقلبوا على التحالف ورفضوا الهدف المتمثّل في إقامة دولة عراقية موحّدة تنعم بالديمقراطية، وانحازوا إلى جانب إيران. والواقع أنه لم يكن ثمة وسيلة تتيح لنا أن نعرف بشكلٍ مؤكدٍ ما كان يمكن أن يحدث، غير أن مناقشة هذا الأمر كان من شأنها، على أي حالٍ، أن تجعلنا مستعدين بدرجة أفضل لمواجهة ما طرأ بعد ذلك.

* * *

استمر الوضع الأمني في التدهور خلال الصيف؛ وأصبح العراق مقصداً للمتمردين من البعثيين المتطرفين، ولفدائيي صدّام، وللإرهابيين من الأجانب المنتمين إلى القاعدة، ثم أخيراً للمقاتلين من الشيعة ولعملاء إيران. والواقع أن هذه الجماعات كانت لها أيديولوجيات مختلفة، ولكنها تشترك في هدفٍ عاجلٍ واحدٍ: طرد أميركا من العراق. لقد أدركوا أنه لم يكن بمقدورهم الانتصار في قتالٍ مباشرٍ مع قواتنا، وبالتالي عمدوا إلى نشر القنابل على جانبي الطرقات وهاجموا أهدافاً غير عسكريةٍ مثل السفارة الأردنية ومجمع الأمم المتحدة في بغداد. وثمة خطة أخرى من الخطط التي لجأوا إليها، وهي تتمثّل في خطف العمال القائمين بأعمال الإنشاء والتعمير وإعدامهم وعرض تلك المشاهد المروعة في مقاطع فيديو نشروها على شبكة الإنترنت. لقد كانت استراتيجيتهم تهدف إلى إظهار العراق في صورة الدولة الميئوس منها والعاجزة عن تحقيق أي انتصار، وإلى التأثير على الرأي العام الأميركي لكي يتّخذ موقفاً مناهضاً للحرب وإجبارنا على الانسحاب من العراق، كما انسحبنا من فيتنام.

لقد نجحوا إلى حدّ ما. كان صعباً على الأميركي العادي التفريق بين الإرهابيين المتخفين والملايين من المواطنين العراقيين العاديين الذين يشعرون بالامتنان على تحريرهم. حاولنا الحصول على أخبارٍ جيدةٍ خارج الهدوء النسبي في الشمال الكردي

والجنوب الشيعي، وإعادة بناء المدارس والمستشفيات، وتدريب الجيش العراقي الجديد. ولكن هذا كان يبدو مستحيلاً في أعين وسائل الإعلام والعامّة، وأن لا شيء من هذا يمكن أن يحرز تقدماً بوجود التفجيرات وعمليات قطع الرؤوس.

في أوائل شهر تموز/يوليو، سألني أحد الصحفيين عن الهجمات على قواتنا. وقال: هناك بعض الذين يعتقدون أنهم إذا هاجمونا فسوف نرحل قبل الأوان، وقلت. «إن جوابي هو: أحضروهم».

في كل مرة تحدثت فيها عن العراق، كانت هناك جماهير تستمع ولكل منهم وجهة نظر مختلفة، وبالتحديد أربع وجهات نظر مختلفة.

كان الجمهور الأول هو الشعب الأميركي والذي يعتبر دعمه أساسياً لتمويل الحرب. كنت أعتقد أن معظم الأميركيين يريدون الانتصار في العراق، ولكن بدا أنه بسبب التكلفة العالية جداً فان النصر أصبح بعيداً جداً وأنهم تعبوا من الحرب. كان مهماً لي تعزيز أهمية القضية والتصميم على الغلبة.

الجمهور الثاني هم قواتنا، الذين تطوّعوا للخدمة ويخاطرون بحياتهم بعيداً عن الوطن، هم وعائلاتهم التي وقفت بحزمٍ وراء مهمتهم، ومشدّدين على ألاّ يُتّخذ أي قرارات عسكرية على أسس سياسية.

الجمهور الثالث كان الشعب العراقي، الذي كان بعضه يتمنى رحيلنا، ولكني كنت مقتنعاً بأن الغالبية العظمى من العراقيين يريدون منا البقاء فترةً طويلةً تكفي لمساعدة المجتمع الديمقراطي على الظهور. كان مهماً استمرار العزيمة لإكمال العمل الذي بدأنا به. إذا ظن العراقيين أننا سوف نتخلى عنهم، فإنهم سوف يتّجهون إلى مصادر حماية أخرى.

وكان الجمهور الأخير عدونا. فلقد كانوا يظنون أن أفعالهم الهمجية ستؤثر على قراراتنا. ولكني أردت التأكيد على أنهم لن يستطيعوا ذلك.

وكان المقصود من تعليق «أحضروهم» هو إظهار مدى ثقتنا في قواتنا وإشارة

إلى أن العدو لن يتمكّن من زعزعة إرادتنا. ولكن النقد اللاذع أوضح أن كلماتي قد تركت انطباعاً سيئاً عند شريحةٍ من المشاهدين. لقد صقلتني الخبرة وأعطيت الانتباه الجيد لكيفية التواصل مع كل شرائح المشاهدين في الأعوام التالية.

* * *

في خريف ٢٠٠٣، كانت قوات المشاة التابعة للتحالف الدولي في العراق مستقدمةً من ثلاثين دولة، بما فيها فرقتان متعدّدتا الجنسيات تحت قيادة بريطانيا وبولندا، وكان يتم تقديم الخدمات اللوجستية تحت إشراف كثيرٍ من الدول الأخرى. اكتشفت قوات التحالف مقابر تعذيب، وغرف اغتصاب، ومقابر جماعية فيها آلاف الجثث. واكتشفت منشأةً فيها بدلات حديثة للوقاية من المواد الخطرة، وحقناً فيها مضاد لغاز الأعصاب. لكنها لم تجد أي مخازن للأسلحة البيولوجية والكيميائية، التي أكدت كل وكالة استخباراتية عظمى في العالم أن صدّام يمتلكها.

وشعرت بالراحة لأن صدام لم يستخدم أي أسلحة دمار شامل ضد قواتنا. ولقد فاجئني عدم اكتشافنا لمخازن الأسلحة بعد سقوط بغداد. وبدأ قلقي يتزايد عندما مرّ الصيف بكامله ولم نجد أي أسلحة. وبشكل مستمر بدأت المؤسسات الصحفية في طرح سؤالها، أين هي أسلحة الدمار الشامل؟

هذا ما كنت أسأل عنه أنا أيضاً. أكدت لي فرق الجيش والمخابرات أنهم يبحثون بشكلٍ دائم، فلقد فتشوا كل المخابئ السرية التي كان يستخدمها صدام خلال حرب الخليج. وكل ما فعلوه هو جمع المعلومات الاستخباراتية والرد على الملاحظات المطروحة. ورد إلى وكالة المخابرات المركزية الأميركية أن هناك حاوياتٍ كبيرةً تم تحديد مكانها من على جسر فوق نهر الفرات. وذهبت الضفادع البشرية إلى المكان؛ ولم تجد شيئاً. وبعث لنا مسؤول إماراتي رفيع المستوى رسوماتٍ لأنفاقٍ كان يعتقد أن صدام كان يستخدمها لإخفاء الأسلحة؛ وعليه قمنا بالحفر ولم نجد شيئاً.

وقام مدير المخابرات المركزية الأميركية جورج تينيت بتعيين دايفيد كاي،

وهو رئيس لجنة التفتيش في العراق التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٩١، ليقود فريق تفتيش جديد. وأشرف كاي على عمليات تفتيش واسعة النطاق للعراق، ووجد أدلةً قويةً على أن صدام كذب على العالم وانتهك قرار الأمم المتحدة رقم١٤٤١. ثم أخبر الكونغرس في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣: لقد امتدت برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية لأكثر من عقدين من الزمن، واشترك فيها آلاف الأشخاص، وأُنفقت فيها مليارات الدولارات، وتمت حمايتها بشكلٍ جديد من خلال عمليات التأمين والخداع التي استمرت حتى بعد نهاية عملية العراق الحر. ولكن كان هناك شيء واحد لم يجده كاي: مخازن أسلحة الدمار الشامل التي ينتظرها الجميع.

وأطلقت الأحزاب اليسارية شعاراً جديداً: «كذب بوش، ومات الشعب». وتلك التهمة غير منطقية. فلو كنت أريد أن أجرّ البلاد إلى الحرب، فلماذا سأدّعي أمراً أعلم تمام العلم أنه سيُكشف على العلن بعد فترةٍ قصيرةٍ من غزونا للعراق؟ إن التهمة كانت أيضاً مجحفة. لقد قرأ أعضاء الإدارة الرئاسية السابقة، وجون كيري، وجون إدواردز ، والغالبية العظمى من أعضاء الكونغرس التقارير الاستخباراتية نفسها التي قرأتها، وكانت لهم رؤية بأن العراق لديه أسلحة دمار شامل؛ وكذا كانت الحال مع أجهزة الاستخبارات في كل أنحاء العالم. لم يكن أحدنا يكذب؛ ولكننا جميعاً كنا مخطئين. لا ينفي عدم وجود مخازن أسلحة الدمار الشامل أن صدام كان يشكل تهديداً. في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، قال جيم كاي: لقد كان منطقياً استنتاج أن العراق يشكل تهديداً كبيراً... ولكن ما علمناه خلال عمليات التفتيش، هو احتمال أن العراق سيصبح خطراً أكبر مما كنا نتخيّله قبل الحرب.

ما زلتُ متأكداً من أن الفشل في العثور على أسلحة الدمار الشامل سيؤدي إلى ردود أفعالٍ شعبيةٍ مغايرةٍ عن الحرب. وعلى الرغم من كون العالم بالتأكيد أكثر أماناً بعد إطاحة صدام، إلا أن الحقيقة هي أني قد أرسلت القوات الأميركية إلى معركة تستند في الأساس على معلومات استخباراتية اتضح أنها خاطئة. وتلك كانت ضربة ساحقة لصدقيتنا ـ أو على الأدق لصدقيّتي ـ التي قد تهز ثقة الشعب الأميركي.

لم يكن هناك أحد أكثر صدمةً أو غضباً مني عندما انتهى بحثنا إلى عدم وجود أي أسلحة. ودائماً ما كنت أحس بالتوعك كلما فكّرت في الأمر؛ وما زلت كذلك.

على الرغم من صعوبة القتال في العراق أكثر مما كنا نتخيله، إلا أنني ما زلت متفائلاً. لقد كنت مُلهماً بشجاعة المئة ألف عراقي الذين تطوّعوا للانضمام إلى قوات الشرطة العراقية، وبالقادة الذين تقدموا ليشغلوا مناصب أفراد المجلس الانتقالي، والذين تم اغتيالهم، وبالشعب الذي طالما حلم بالحرية.

لم أشعر بالثقة إلا من خلال القوات الأميركية. فبفضلهم تم القبض على أغلب رجال حكومة صدام أو قتلهم مع حلول نهاية عام ٢٠٠٣. وصلتنا في تموز/يوليو معلومات استخباراتية تفيد بأن اثنين من أبناء صدام يختبئان في الموصل شمال العراق. وبالمشاركة ما بين فرقة العمليات الخاصة والفرقة ١٠١ المحمولة جواً وتحت قيادة الجنرال دايفيد بتريوس تم فرض حصار حول المبنى الذي كان يختبئ به قصي وعدي نجلا صدام حسين. وتم قتل الاثنين بعد اشتباكات لمدة ست ساعات. ووردتنا معلومات استخباراتية أن صدام أمر بقتل ابنتيّ باربرا وجينا رداً على مقتل نجليه.

بعد يومين من سقوط بغداد، قمت أنا و لورا بزيارة المركز الطبي العسكري والتر ريد في واشنطن، والمركز الطبي البحري الوطني في بيتسدا. والتقينا مع ما يقرب من مئة جريح وعائلاتهم. بعضهم خدم في أفغانستان؛ والكثير منهم خدموا في العراق. لقد كانت مشاهدة المرضى في المستشفيات العسكرية ونتائج إرسال القوات الأميركية إلى الحرب، تجربةً تدمي القلب. ومن الأمور التي كانت تريحني هو أنهم سيتلقون أفضل رعايةٍ طبيةٍ على أيدي المتخصصين في نظام الرعاية الصحية التابعة للجيش.

التقيت في مركز والتر ريد أحد أفراد فريق دلتا، وهو إحدى الوحدات العسكرية عالية التدريب التابعة لقواتنا الخاصة. ولا يمكنني البوح باسمه لأسباب سرية. وكانت

إصابته خسارة النصف السفلى من ساقه. فقلت له وأنا أصافحه: أقدر لك مجهوداتك العسكرية ؛ وأنا آسف لتعرضك للأذى.

فرد عليّ قائلاً: لا تأسفٍ سيدي الرئيس؛ ولكم أتمنى لو كانت لي ساق أخرى، حتى أعود إلى ساحة القتال مرةً أخرى.

والتقيتُ في المركز الطبي البحري الوطني الرقيب بالمدفعية الرئيسية البحرية في سن الثانية والأربعين جوادلوب دينوجين، وكان قد جُرح قبل أسابيع جرّاء قذيفة آر بي جي أصابت مركبته. مزّق الانفجار جزءاً من جمجمته ويده اليمنى، كما اخترقت الشظايا صدره وظهره وساقاه، وانفجرت طبلتا أذنيه.

حين سألته إذا كانت له أي طلبات، رد عليّ جوادلوب أن له طلبين: طلب ترقية للعريف الذي أنقذ حياته؛ وأراد أن يحصل على الجنسية الأميركية. بعد أحداث ٩/١١، اصدرتُ قانوناً إدارياً يقضي بأحقية كل الجنسيات الأجنبية التي تخدم في الجيش الأميركي في الحصول على الجنسية الأميركية فوراً.

أتى غوادلوب الى الولايات المتحدة من مكسيكو صبياً صغيراً. عمل في قطف الفاكهة ليساعد عائلته إلى حين التحاقه بالمارينز في سن السابعة عشرة. بعد خدمة دامت خمسة وعشرين عاماً، ومشاركته في حربين في العراق، أراد أن يحصل على الجنسية. ذاك اليوم في المستشفى، حضرنا لورا وأنا حفل منحه الجنسية برئاسة مدير مكتب الهجرة والجنسية إدواردو أغيري. رفع غوادالوب يده اليمنى المغطاة بالضمادات وحلف قسم الجنسية.

وبعد لحظاتٍ قليلةٍ، تلاه عريف البحرية أو جي سانتا ماريا، ٢١ عاماً، الفيليبيني الأصل وكان قد أُصيب بجرحٍ خطيرٍ في العراق وكان يخضع لعملية نقلٍ للدم. في منتصف الاحتفال أجهش بالبكاء. ثم أكمل القَسَم وقال بفخرٍ: زملائي الأميركيين.

* * *

في خريف عام ٢٠٠٣، جاءني أندي كارد بفكرة: «هل يهمك القيام برحلةٍ إلى العراق لتوجيه الشكر للقوات؟» فأجبته: «طبعاً».

كانت المخاطرة كبيرة. لكن نائب رئيس هيئة الأركان جو هاجين ، الذي يعمل مع جهاز الخدمة السرية ومكتب البيت الأبيض العسكري، جاء بوسيلةٍ لتحقيقِ ذلك. خلال أسبوع عيد الشكر، سأسافر إلى كراوفورد وأعلن للإعلام أنني سأقضي عطلةً كاملةً هناك. وليلة الأربعاء، سأترك المزرعة سراً وأطير إلى بغداد.

كنتُ قد أخبرت لورا بخطتي هذه قبل أسابيع من الرحلة. وقد اطمأنت عندما قلت لها إننا سنلغي الرحلة إذا تسرّبت أنباء عنها. أما باربرا وجينا فأعلمتهما قبل مغادرتي بثلاثين دقيقة. قالت باربرا: أنا خائفة يا أبي، توخَّ الحذر وعُدْ سالماً الى الوطن .

ركبنا كوندي وأنا في سيارةٍ لا تحمل أي علامات، وقبعات البيسبول على رؤوسنا منخفضة، وتوجّهنا إلى المطار. وللحفاظ على السرية، لم يكن هناك أي موكب. كنت قد نسيت تقريباً ما هو الشعور بازدحام المرور، ولكن اجتياز الطريق ٣٥ في اليوم الذي يسبق عيد الشكر أعاد الذكريات إلى مخيّلتي. كنا نتقدم ببطء، ونمر في بعض الأحيان بسيارات مليئة بعناصر مكافحة الاعتداء، ووصلنا إلى الطائرة الرئاسية في الموعد المحدّد. التوقيت كان مهماً: يجب أن نحط في بغداد مع غروب الشمس.

طرنا من تكساس إلى قاعدة أندروز الجوية، حيث تحوّلنا إلى النسخة التوأم لطائرة الرئاسة وأقلعنا إلى العراق. كان على متن الطائرة فريق صغير من الموظفين والعاملين في الخدمة العسكرية والسرية، ووحدة صحافة أقسمت على السرية. نمت قليلاً خلال الرحلة التي تستغرق عشر ساعات ونصف. وباقترابنا من بغداد، اغتسلتُ وحلقتُ ذقني، وتوجهتُ الى قمرة القيادة لمراقبة الهبوط. الكولونيل مارك تيلمان هو الطيار المسؤول. كنت أثق به تماماً، وكما تقول لورا دائماً: إن مارك يمكنه دائماً الهبوط بهذه الطائرة .

مع غياب الشمس وراء الأفق، يمكن رؤية المآذن في أفق بغداد. بدت المدينة هادئة جداً من السماء. لكننا كنا نشعر بالقلق من صواريخ أرض جو على الأرض. في حين أكد جو هاجين لنا أن الجيش كان قد مسح محيطاً واسعاً في جميع أنحاء مطار بغداد الدولي. كان المزاج متوتراً على متن الطائرة. هبطنا بشكلٍ دائري وستائر الطائرة مسدلة، وانضم بعض العاملين معنا في جلسة صلاة. في آخر لحظة، عدَل العقيد تيلمان الطائرة وهبط بها على المدرج بسهولة تامة.

كان بانتظاري في المطار جيري بريمر وريكاردو سانشيز، القائد العام الميداني الكبير في العراق. قال جيري : مرحباً بكم في العراق الحر .

توجّهنا إلى قاعة الطعام، حيث تجمع ٦٠٠ جندي لتناول وجبة عيد الشكر. وكان من المفترض أن يكون جيري ضيف الشرف. أخبر القوات أن لديه رسالة عيدٍ من الرئيس. وقال: دعونا نرَ ما إذا كان لدينا شخص أكثر اهميةً هنا...

كانت تلك إشارتي. خرجت من وراء الستارة إلى المنصة في القاعة المكتظة. تردّد العديد من الجنود المذهولين للحظات، ثم أطلقوا الهتافات، وكانت الدموع تغطي وجوه بعضهم. كان الجو عاطفياً جداً. هؤلاء الأشخاص هم الذين حرّروا العراق قبل ثمانية أشهر بناءً على أوامري. وكان كثير منهم قد شارك في القتال. وقد شهد بعضهم أصدقاءً لهم يموتون. أخذت نفساً عميقاً وقلت: أحمل رسالةً لكم بالنيابة عن أميركا. نشكركم على تضحياتكم، نحن فخورون بكم وأميركا تقف بصلابة وراءكم.

بعد الخطاب، تناولتُ العشاء مع القوات وانتقلنا إلى غرفة جانبية للاجتماع مع أربعة من أعضاء مجلس الحكم، ورئيس بلدية بغداد، وأعضاء مجلس المدينة. امرأة واحدة، هي مديرة مستشفى للولادة، قالت لي كيف أصبح للمرأة المزيد من الفرص الآن مما كانت تحلم به في عهد صدّام حسين. كنت أعرف أن العراق ما زال يواجه مشاكل كبيرة، ولكن الرحلة عزّزت إيماني بأنه يمكننا التغلّب عليها.

وكان الجزء الأكثر خطورةً هو الإقلاع من بغداد. وللحفاظ على السلامة طُلب

إلينا إطفاء جميع الأنوار وإطفاء الهواتف حتى نصل إلى ارتفاع ١٠ آلاف قدم. كنت لا أزال بحالةٍ عاطفيةٍ قوية. لكن حل مكان الابتهاج شعور غريب من عدم اليقين ونحن نبتعد عن الأرض ونرتفع بصمتٍ في الليل. بعد دقائق قليلة متوترة، وصلنا إلى ارتفاع آمن. دعوت أحد العاملين على متن الطائرة وطلبتُ اليه الاتصال بلورا. سألت: «أين أنت الآن؟». قلت: «أنا في الطريق إلى البيت. بلّغي الفتيات أن كل شيء على ما يرام».

بدا عليها الارتياح. ثم تبين أن التوقيت اختلط عليها قليلاً. فلم تعد تتذكّر إذا قلت إنني سأكون في الجو في العاشرة أو عند الظهر. الساعة ١٠:١٥، اتصلت بعميل الخدمة السرية في المزرعة وسألته إذا كان يعلم أين الرئيس بوش. قال العميل: دعيني أتحقق من ذلك.

مرت بضع ثوان ثم أجابها: نعم سيدتي، إنهم على بعد تسعين دقيقة.

أدركت لورا حينها أنه كان يتحدث عن بوش الأم والأب، اللذين كانا في طريقهما لقضاء عيد الشكر معنا. قالت: لا، أعني جورج زوجي. توقف العميل ثم قال: حسناً سيدتي، حسب علمي هو في المزرعة.

كانت السرية مشدّدة حتى أن العملاء في المزرعة كانوا لا يزالون غير مدركين أني تسلّلت بعيداً في الرحلة الأكثر إثارةً في رئاستي.

* * *

يوم السبت ١٣ كانون الأول/ديسمبر، اتصل بي دونالد رامسفيلد، وقال إنه تحدث لتوه إلى الجنرال جون أبي زيد، الذي كان قد حلّ محل تومي فرانكس بعد تقاعده في تموز/يوليو. كان جون مفكراً، وهو جنرال أميركي لبناني يتكلم العربية ويفهم الشرق الأوسط. يظن جون أننا قبضنا على صدام حسين. ولكن قبل أن نعلن ذلك للعالم، علينا أن نكون متأكدين بنسبة ١٠٠ في المئة.

في صباح اليوم التالي، اتصلت بي كوندي مرةً أخرى لتأكيد التقرير: إنه صدّام.

الوشم المكون من ثلاث نقاط زرقاء بالقرب من معصمه، رمز قبيلته وفّرَ لنا الدليل الدامغ. كنت مسروراً، فعملية القبض على صدّام ستشكّل دفعةً كبيرةً لقواتنا وللشعب الأميركي، وفرقاً نفسياً لدى العراقيين، الذين يخشون عودته. كل شيء الآن أمسى واضحاً: إن عهد الدكتاتور قد انتهى إلى الأبد.

بعد أشهر عدة، حضر أربعة رجال لمقابلتي في البيت الأبيض. كانوا أعضاءً في فريق دلتا الذي ألقى القبض على صدّام حسين. أخبروني قصة المطاردة: دلتهم الاستخبارات على مكان اختبائهم عند نقطة بالقرب من مزرعة في تكريت مسقط رأس صدّام. بينما كان الجنود يمشطون المكان، اكتشف أحدهم حفرة. قفز وأخرج منها رجلاً أشعث وغاضباً. قال الرجل: اسمي صدّام حسين، أنا الرئيس العراقي وأريد التفاوض.

ردّ الجندي: أقدّم إليك تحيات الرئيس بوش.

كان مع صدّام ثلاثة أسلحة، بما في ذلك المسدس الذي قدمه لي الرجال في صندوق زجاجي. قلت لهم إنني سأعرض الهدايا في مكتبٍ خاص خارج المكتب البيضاوي، ويوماً ما في مكتبتي الرئاسية. يذكرني المسدس دائماً بأن ديكتاتوراً وحشياً، مسؤولاً عن وفاة ومعاناة الكثيرين، استسلم لقواتنا، وهو يرتعد في حفرة.

* * *

كلما تذكرتُ هذه الأحداث بعد أكثر من سبع سنوات على تحرير القوات الأميركية للعراق، أقتنع أكثر فأكثر بأن إزالة صدّام حسين من السلطة كانت القرار الصحيح. على الرغم من كل الصعوبات التي تلت ذلك، أصبحت أميركا أكثر أمناً دون الديكتاتور القاتل الذي يستعمل أسلحة الدمار الشامل ويدعم الإرهاب في قلب الشرق الأوسط. فالمنطقة أكثر تفاؤلاً مع ديمقراطيةٍ شابةٍ تشكّل قدوةً للآخرين. والشعب العراقي بأفضل حال مع حكومة تهتم به بدلاً من تعذيبه وقتله.

كما أملنا، كان لتحرير العراق تأثير خارج حدوده. بعد ستة أيام من القبض على

صدّام حسين، اعترف العقيد معمر القذافي في ليبيا، وهو عدو أميركا منذ فترةٍ طويلةٍ ومن الدول الداعمة للإرهاب، بتطوير الأسلحة الكيماوية. وتعهّد بتفكيك برامج أسلحة الدمار الشامل، والصواريخ ذات الصلة، في ظل نظام تحقّقٍ دولي صارم. هل كان التوقيت مجرد مصادفة. لا أعتقد ذلك.

أدت الحرب أيضاً إلى عواقب لم نكن نقصدها. على مر السنين، أمضيت قدراً كبيراً من الوقت في التفكير في الخطأ الذي حدث في العراق والسبب في ذلك. وقد استنتجت أننا قمنا بخطأين سبّبا كثيراً من الانتكاسات التي واجهناها.

كان الخطأ الأول عدم استجابتنا بسرعة أكبر أو بقوة عندما بدأ الوضع الأمني في التدهور بعد سقوط نظام صدّام حسين. وفي الأشهر العشرة التي تلت الغزو، خفّضنا مستويات القوات من ١٩٢ ألفاً إلى ١٠٩ آلاف. ركّزت القوات المتبقية على تدريب الجيش والشرطة العراقية، وليس على حماية الشعب العراقي. كنا قلقين من خلق استياء إذا ظهرنا بمظهر المحتلين، وآمنا بإمكانية تدريب قوات الأمن العراقية لقيادة المعركة، واعتقدنا ان التقدم نحو الديمقراطية النيابية، وإعطاء العراقيين من جميع الأعراق حصةً في بلدهم، هو أفضل طريق لأمنٍ دائم.

كانت هذه الافتراضات منطقية، ولكن الرغبة في الأمن عند الشعب العراقي تغلّبت على كرههم للاحتلال. إن إحدى المفارقات في الحرب أتت من اليسار وبعض المجتمع الدولي، وهي التي شدّدت على أننا نرغب في بناء أمبراطورية في العراق. نحن لم نسعَ أبداً إلى ذلك. في الواقع، كنا ننفر من أي شيء يشبه الأمبراطورية مما جعل المهمة التي قطعناها على أنفسنا أصعب بكثير. عن طريق خفض قواتنا والتركيز على تدريب العراقيين، سمحنا للتمدّد دون قصد باكتساب المزيد من الزخم. ثم توافد مقاتلو القاعدة إلى العراق للحصول على ملاذٍ آمنٍ جديد، وهو ما جعل مهمتنا أكثر صعوبةً وأهميةً على حد سواء.

كان خفض مستوى القوات بسرعةٍ كبيرةٍ جداً من أهم الأخطاء التنفيذية في

الحرب. في نهاية المطاف، غيّرنا استراتيجيتنا وأصلحنا الخطأ، على الرغم من الضغوط العالمية لترك العراق. استغرق الأمر أربع سنوات مؤلمة ومكلفة للقيام بذلك. بعدها، شعرنا بتقدم بطيء جداً، ولكن للتاريخ منظوراً أوسع نطاقاً. إذا أصبح العراق ديمقراطيةً فاعلةً بعد خمسين سنة من الآن، ربما تبدو تلك السنوات الأربع الصعبة مختلفةً كثيراً.

كان الخطأ الآخر فشل الاستخبارات بشأن أسلحة الدمار الشامل في العراق. بعد عقد من الزمن تقريباً، من الصعب وصف مدى انتشار هذا الافتراض بأن صدّام حسين كان لديه أسلحة دمار شامل. اعتقد مؤيدو الحرب ومعارضو الحرب ذلك؛ وحتى أعضاء نظام صدّام نفسه اعتقدوا ذلك. كنا نعرف جميعاً أن تقارير الاستخبارات ليست دائماً صحيحة بنسبة ١٠٠ في المئة، وهذه هي طبيعة عملها. ولكني كنت أعتقد أن المعلومات الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل في العراق كانت دقيقة. لو لم يكن لدى صدّام أسلحة دمار شامل، لماذا لم يثبت ذلك للمفتشين؟ كل الملفات النفسية التي قرأتها أثبتت لي أن صدّام كان مهووساً بالسلطة. إذا كان يهتم كثيراً بالبقاء في السلطة، لماذا قامر بنظامه من خلال التظاهر بامتلاكه أسلحة الدمار الشامل؟

جاء جزء من التفسير بعد اعتقال صدّام حسين، عندما تم استجوابه من قِبَل مكتب التحقيقات الفدرالي. قال لعملاء الاستخبارات إنه كان أكثر قلقاً من الظهور ضعيفاً أمام إيران من إزاحته من قِبَل قوات التحالف. لم يعتقد للحظة أن الولايات المتحدة ستفي بوعودها وتنزع سلاحه بالقوة. لست أدري ماذا كان عليّ أن أفعل أكثر من ذلك لإقناع صدّام بأني أعني ما قلته. أسميته جزءاً من محور الشر في خطابي أمام الاتحاد. وتحدثت في غرفة مزدحمة في الأمم المتحدة ووعدت بنزع سلاحه بالقوة إذا فشلت الدبلوماسية. قدّمنا قراراً بالإجماع في مجلس الأمن. سعينا، وحصلنا على دعمٍ قوي من الحزبين في الكونغرس الأميركي. نشرنا ١٥٠ ألفاً من

القوات على حدوده، وأعطيته ٤٨ ساعة مهلةً نهائيةً قبل أن نقوم بغزو بلاده. فكيف أكون أكثر وضوحاً؟

هل صحيح أن صدّام كان يتلقى إشاراتٍ متضاربةً من فرنسا، وألمانيا، وروسيا ومن المتظاهرين المناهضين للحرب في مختلف أنحاء العالم؟ إن هذا لم يساعد. ولكن الحرب ليست خطأهم. كان هناك شخص واحد لديه السلطة لتجنّب الحرب، وقد اختار عدم استخدامها. صدّام خدع العالم، لكنه خدع نفسه أكثر مما خدع أي شخصٍ آخر.

قرّرتُ بعد ذلك عدم التسرّع في انتقاد الوطنيين المجتهدين في وكالة الاستخبارات المركزية لمعلومات استخباراتية خاطئة بشأن العراق. لم أكن أريد أن أكرر التحقيقات الدنيئة وتوجيه أصابع الاتهام التي دمرت الروح المعنوية للمجتمع الاستخباراتي في ١٩٧٠. لكنني أريد أن أعرف لماذا وصلتني معلومات خاطئة وكيف يمكننا منع حدوث الخطأ في المستقبل. عينت لجنةً غير حزبية يشترك في رئاستها القاضي لاري سيلبرمان والسناتور الديموقراطي السابق روب تشاك لدراسة هذه المسألة. ونتج عن تحقيقاتهما توصيات قيّمة مثل زيادة التنسيق بين الوكالات ونشر الآراء المخالفة، التي ستجعل من الاستخبارات أكثر موثوقية لدى الرؤساء في المستقبل، دون تقويض قدرة استخباراتنا على القيام بعملها.

* * *

من طبيعة التاريخ أن نعرف فقط عواقب العمل الذي قمنا به. ولكن التقاعس عن العمل ستكون له عواقب أيضاً. تخيّلْ كيف سيبدو العالم اليوم لو كان صدّام حسين لا يزال يحكم العراق. كان سيظل يهدد جيرانه، ويرعى الإرهاب، ويراكم الجثث في مقابر جماعية. إن ارتفاع سعر النفط إلى ما يزيد قليلاً على ٣٠ دولاراً للبرميل في عام ٢٠٠٣ إلى ما يقرب من ١٤٠ دولاراً بعد خمس سنوات كان سيجعل صدّام

غارقاً في الثروة. العقوبات المتهاوية أصلاً، كانت ستنهار. وصدّام كان سيمتلك البنية التحتية والدراية لصناعة أسلحة الدمار الشامل. وقد خلص التقرير النهائي لعمليات التفتيش عن الأسلحة من قِبَل تشارلز دولفر إلى أن صدام يريد إعادة قدرة العراق على إنتاج أسلحة الدمار الشامل بعد رفع العقوبات واستقرار الاقتصاد العراقي.

لو مضى صدّام قُدُماً في تنفيذ تلك النية، لكان العالم شهد حدوث سباق تسلح نوويّ بين العراق وإيران. كان صدّام سيستخدم الجماعات السنّية الإرهابية مثلً القاعدة، على أساس المنفعة المتبادلة وليس الإيديولوجية، كعملاء في محاولة لمجاراة إيران استخدام مجموعات مثل حزب الله الشيعي. إنّ احتمال وصول السلاح البيولوجي والكيميائي، أو حتى أسلحة نووية الى أيدي الإرهابيين سيزيد. وسيزيد أيضاً الضغط على أصدقائنا في المنطقة، وبخاصةٍ إسرائيل، والكويت، والمملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة. وسوف يكون الشعب الأميركي أقل أمناً مما هو اليوم.

بدلاً من ذلك، ونتيجة لأعمالنا في العراق، توقف واحد من أخطر أعداء أميركا عن تهديدنا إلى الأبد. فقدت أكثر المناطق اضطراباً في العالم واحداً من أكبر مصادر العنف والفوضى. وشهدت الدول المعادية في جميع أنحاء العالم تكاليف دعم الإرهاب ومحاولة امتلاك أسلحة الدمار الشامل. وفي غضون تسعة أشهر، تحوّل ٢٥ مليون عراقي من العيش في ظل ديكتاتورية الخوف إلى احتمال رؤية ديمقراطيةٍ سلميةٍ فاعلة. في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، كان الطريق لا يزال طويلاً أمام العراقيين لتحقيق الحلم. لكنها كانت فرصة، وهي أكثر بكثير مما كان لديهم من قبل.

* * *

كانت أصعب أيام الحرب لا تزال أمامنا. في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، اعترضت قواتنا رسالةً من الزرقاوي إلى كبار قادة تنظيم القاعدة. كتب عن الضغوط المتزايدة

التي كان يشعر بها ووضع خطته من أجل البقاء، نحن بحاجةٍ لإشراك الشيعة في المعركة، كما كتب، لأنها السبيل الوحيد لإطالة مدة الحرب بيننا وبين الكفّار. وقد وضع هدفاً جديداً للجهاديين في العراق، وهو إشعال حربٍ طائفية.

٩

القيادة

«الليلة في هذه القاعة، نعقد العزم على أن نكون جماعةً، لا للراحة بل للإصلاح، وسوف نكتب، لا الحواشي، بل فصول القصة الإمريكية.

سوف نضيف عمل أيدينا إلى ميراث آبائنا وأمهاتنا ونترك هذه الأمة أعظم مما وجدناها... أمنحوني ثقتكم بي، وسأكون أهلاً لها، وسوف أحترمها. هبوا لي الولاية، وسأحسن استخدامها. أعطوني الفرصة لقيادة هذه الأمة، وسأتولى القيادة».

عنيتُ كل كلمة ذكرتها في المؤتمر القوميّ للحزب الجمهوري في سنة ٢٠٠٠. عندما دخلتُ معترك السياسة صمّمتُ على التصدي للمشاكل، وعدم تركها إلى الأجيال القادمة. وقد استغربت من بعض الرؤساء الذين مارسوا ولايتهم في الرئاسة دون أن يحدثوا أي تغييرٍ يُذكر. تعلّمت من ثيودور روزفلت، الذي خدم في البيت الأبيض قبل قرنٍ تقريباً. كان قد أخذ على نفسه العهود المالية، وبنى قواتٍ بحريةً متينة، وافتتح حركة الحفاظ على البيئة. كما تعلّمتُ أيضاً من رونالد ريغان، الذي جمع السلوك المتفائل مع الوضوح الأخلاقي والتيقّن من خفض الضرائب، وتقوية

الجيش، ومواجهة الاتحاد السوفييتي على الرغم من الانتقادات الحادّة التي وُجّهت إليه طوال فترة رئاسته.

كان أحد الدروس التي تعلّمتها من روزفلت وريغان كيف أقود الأمة، وليس السعي وراء استبيانات الرأي. قررتُ الدفع نحو إجراء إصلاحاتٍ شاملة، بدلاً من العبث مع الوضع الرّاهن. وكما قلت لمستشاريي: «لم أشغل هذا المنصب لتحقيق أهدافٍ بسيطة».

* * *

بعد أسبوعين من انتقالنا إلى البيت الأبيض، شاهدنا أنا لورا أول فيلم لنا في المسرح العائلي. يقع المسرح في الطابق الأرضي من البيت الأبيض، وفيه ستة وأربعون كرسياً مريحاً وشاشة عرضها ٩٣ قدماً مربّعة. وكان يمدنا بالأفلام الرائعة جاك فالنتي رئيس جمعية الفيلم الأميريكي، وهو رجل رائع من توكسان، كان يتيح للعائلة الأولى مشاهدة كل الأفلام، ولم يكن علينا انتظار العروض القادمة.

اختارت لورا أن يكون فيلم «ثلاثة عشر يوماً»، أول فيلم نشاهده. وكان يحكي عن طريقة تعامل الرئيس كنيدي مع أزمة الصواريخ الكوبية. كان الفيلم اختياراً مناسباً لضيف الشرف الذي كان يزورنا، وهو السيناتور تيد كنيدي من ماساتشوستس.

في الظاهر، لم يكن بيني وبين تيد الكثير من القواسم المشتركة. فقد كان ليبرالياً، وكنت أنا محافظاً. نشأ وترعرع في كيب كود، ونشأتُ أنا في غرب ولاية تكساس. وكان قد قضى ما يقرب من أربعين عاماً في الكابيتول هيل، في حين كنتُ لا أزال حديث العهد بالمدينة.

ومع ذلك، كنت أتشارك وتيد ما كانت لورا تسميه الأعمال التجارية العائلية. فقد كان جدي بريسكوت بوش يمثل ولاية كونيتيكت في مجلس الشيوخ، وفي الوقت نفسه، كان جون كنيدي يمثل ولاية ماساشوستس. استمتعت أنا ولورا باللقاء مع زوجة تيد، فيكي؛ وابنهما باتريك، عضو الكونغرس من رود إيلاند، وابنة شقيقه

كاثلين كنيدي تاونسند، الحاكمة برتبة لازم لولاية ماريلاند، كما استمتعنا أيضاً بلقائنا بابنتها كيت.

كان تيد ودوداً وكريماً ومفعماً بالحياة. وكانت لديه نبرة كنيدي المعروفة مع الحماسة الإيرلندية المتقدة. كانت ابتسامته هادئةً وعادة ما كانت تظهر مع ضحكةٍ كبيرةٍ ودافئة. ولقد أحسست بتواصلٍ تاريخي بينما كنا نشاهد فيلماً عن كيفية منع إخوته كارثةً في الجناح الغربي من البيت الأبيض.

لم يكن الفيلم هو الهدف الوحيد لدعوتي تيد؛ فقد كان تيد أقدم عضوٍ ديموقراطي في مجلس الشيوخ يقوم بصياغة قوانين التعليم. لمّح لي إلى أنه مهتم في عرض الإصلاح التعليمي الذي قدمته، وهو قانون توفير الدراسة وتحسينها حتى نهاية المرحلة الثانوية (لا طفل مهمل No Child Left Behind).

أدهشتني وأدهشت تيد النتائج الواردة من مدارسنا الثانوية العامة. ففي الاقتصاد العالمي الشديد التنافس، كانت الوظائف الجيدة تتطلب معرفةً ومهارات، إلا أن الطلاب الأميركيين كانوا متأخرين عن أقرانهم في المواد الرئيسية. وفي اختبار الرياضيات الدولي الذي ضم ٢١ دولة، احتلت مدارس أميركا الثانوية الدرجة ما قبل قبرص وجنوب أفريقيا فقط.

كان جزء من المشكلة هو انتقال ملايين الأطفال من صفّ إلى صف أعلى، دون أي يسأل أحد عمّا تعلّمه هذا الطفل. وكان كثير منهم من بيئة فقيرة من أبناء الأقليات. وفي العام ٢٠٠٠، كان ما يقرب من ٧٠ في المئة من تلاميذ الصف الرابع من بيئة فقيرةٍ جداً، وكانوا عاجزين عن القراءة بالمستوى المطلوب. كما أن حوالى ٤٠ في المئة من طلاب الأقليات فشلوا في إنهاء الثانوية العامة على مدى أربع سنوات. كيف يمكن لمجتمعٍ يعد بالفرص المتساوية للجميع أن يهمل المواطنين الأكثر احتياجاً؟ منذ بدء الحملة الانتخابية عام ٢٠٠٠، سميت المشكلة التعصّب اللين للتوقّعات المنخفضة. لقد وعدت بأن أتولى القضايا الكبرى، وكانت تلك، بلا شك، إحداها.

في الأعوام الأخيرة تعرقلت المناقشات الخاصة بالتعليم الأميركي نتيجة لمقترحات بسيطة، مثل الزي المدرسي، والدعوات غير الواقعية لإلغاء وزارة التعليم الأميركية. وغالباً ما كان يتم تحديد النجاح بناءً على المبالغ المدفوعة وليس طبقاً للنتائج المُحققّة. لقد أتيت من عالم تُعتبر المساءلة فيه واقعاً يومياً. في لعبة البيسبول، يمكن لأي فريقٍ مشاركٍ أن يفتح الصحف، ويقوم بتحليل أدائك في مربع النتائج، ويطالب بالتغيير. أحرز رميات أكثر يا بوش! كانت جملة مألوفة. لقد كان التعليم أكثر أهميةً من لعبة البيسبول، ومع ذلك لم يكن لدى معظم الناس فكرة عن طريقة أداء المدارس في الولايات المتحدة.

عملت كحاكم ولاية مع الهيئة التشريعية لتمرير قانون يطالب المدارس بإجراء اختبارات للطلاب في بداية كل عام، وإعلان النتائج، كما يسمح لأولياء الأمور بنقل أبنائهم من المدارس التي تعاني ضعفاً في الأداء. في الفترة بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٨ حققت نسبة الصفوف الثالثة في المرحلة الابتدائية نمواً من ٥٨ في المئة إلى ٧٦ في المئة. وحاز طلاب الأقليات على النتائج الأعلى، حيث قاموا بملء فجوة الإنجازات بينهم وبين أقرانهم بيض البشرة.

عندما أعلنتُ ترشيح نفسي لمنصب الرئيس، كنتُ قد عقدتُ العزم على اقتراح تشريعاتٍ اتحاديةٍ تشتمل على أهدافٍ محدّدة (كل طفل يتعلم القراءة والرياضيات حسب مستوى صفه)، وتُحَمّلُ المدارس المسؤولية عن مستوى التحصيل. وبموجب مبادرة (لا طفل مهمل)، تقوم الحكومات المحلية بإجراء امتحانات للتلاميذ في مادتي القراءة والرياضيات كل سنة فيما بين الصفين الثالث والثامن، ومرةً أخرى في المرحلة الثانوية. وتقوم المدارس بإعلان العلامات على الملأ موزعةً حسب العرق ومستوى دخل الأسرة ومعايير أخرى. هذه المعلومات تتيح الفرصة للآباء وللمواطنين المعنيين بشكلٍ عام لتقويم المدارس والمعلمين والمناهج الدراسية. وبموجب هذه المبادرة، تتلقى المدارس التي تحقّق مستوياتٍ أدنى من المستويات المقبولة دعماً إضافياً في المرحلة الأولى، بما في ذلك مساعدات نقدية للتلاميذ لحضور دروسٍ

مسائيةٍ، سواء في مؤسسات عامة أو خاصة. أما إن استمرت مدارس في عدم تحقيق التقدّم المطلوب، فإنها ستتحمل عواقب ذلك. وسيكون أمام الآباء خيار نقل أبنائهم إلى مدارس ذات تحصيل أفضل، سواء كانت مدارس عامةً أو مدارس مُتعاقَد معها. كان المبدأ العام واضحاً لا لبس فيه: إنك لن تستطيع حل مشكلة ما حتى تشخّصها. وتشكّل المساءلة والمسؤولية عن مستوى التحصيل حافزاً في سبيل الإصلاح.

أبرزتُ مبادرة (لا طفل مهمل) في جميع أنشطة حملتي الانتخابية، بما فيها مداولات الرابطة الوطنية لتقدم الملونين NAACP. وأخبرتُ المراسلين أنني كنت أود أن أكون معروفا كرئيس التعليم. كما أخبرتُ تيد كنيدي الشيء نفسه في الأمسية التي شاهدنا فيها فيلم «ثلاثة عشر يوماً». قلت له: «لا أعرف ما هي وجهة نظرك، غير أنني أحب أن أدهش الناس. دعنا نثبت للناس أن واشنطن لا تزال تستطيع الإنجاز». وفي صبيحة اليوم التالي وصلت إلى المكتب البيضاوي رسالة بهذا النص:

> *السيد الرئيس، لقد كنتَ أنتَ والسيدة بوش في غاية الروعة والكرم مع فيكي ومعي ومع بقية أبناء أسرتنا في الليلة الفائتة كما في الأيام القليلة الماضية. وإنني أقدر عالياً مستوى تفكيركم ووجهات نظركم. ومثلكم تماماً، فكلي رغبة في الإنجاز، وبخاصة في مجالي التعليم والرعاية الصحية. قد نختلف في حالة أو اثنتين في مسيرتنا، غير أنني أتطلع إلى عقد لقاءات مثمرة معكم في حديقة الزهور.*
>
> *تحياتي الحارة*
>
> *تيد كنيدي*

وكنت متحمساً، فمبادرة (لا طفل مهمل) باتت في وضع أفضل من أي وقتٍ مضى، لتصبح قانوناً بحصولها على مساندة أسد مجلس الشيوخ تيد كنيدي. كانت تلك بداية علاقة شراكةٍ لي في واشنطن.

* * *

لم يكن تيد كنيدي المشرّع الوحيد الذي تودّدت إليه. فخلال أول أسبوعين من تسلمي لمنصب الرئاسة التقيت بأكثر من مئة وخمسين عضواً من أعضاء الكونغرس من كلا الحزبين. وكنت آمل بأن أنجح في تكرار تجربة العلاقة البنّاءة التي أقمتها مع بوب بولوك وبيت ليني ومشرّعين آخرين من تكساس. وجاء في أحد التقارير الصحفية إذا ما تدهورت العلاقات بين الكونغرس والبيت الأبيض قريباً إلى مستوى المرارة المعهودة، فإن ذلك لن يكون بسبب عدم بذل جهدٍ من جانب الرئيس بوش لتجنّب ذلك. وجاء في تقريرٍ صحفي آخر أنني كنتُ أقوم بأكبر جهدٍ لجذب الآخرين، أكثر من أي رئيسٍ آخر معاصر.

وأياً كان الوصف الذي أطلقته الصحافة على جهودي، فإن كلا مجلسيْ النواب والشيوخ قد تبنيا مشروع (لا طفل مهمل). وبحلول شهر آذار/مارس كانت لجنة التعليم في مجلس الشيوخ قد أنجزت مشروع قانون تضمّن جميع العناصر الرئيسية في اقتراحي. وتلا ذلك تحرك في مجلس النواب، حيث تعاون رئيس لجنة التربية الجمهوري المحنك جون بينر عن ولاية أوهايو في مجلس النواب مع النائب جورج ميللر من كاليفورنيا، الذي يعد من أكثر أعضاء المجلس ليبراليةً، على صياغة قانون رصينٍ ومتماسك. وقد صوَّت مجلس النواب لصالح القانون بأغلبية ثلاثمئة وأربعة وثمانين صوتاً مقابل خمسة وأربعين صوتاً ضده.

واستمرت عملية التوفيق بين قوانين مشاريع الكونغرس ومجلس الشيوخ خلال الصيف. فعندما عاد الكونغرس الأميركي من العطلة في أيلول/سبتمبر الماضي ،قمت بالإعلان عن إعادة تنشيط المناقشات الرسمية مع القيام بزيارةٍ ميدانيةٍ لمدة يومين إلى مدارس بولاية فلوريدا. وافقت لورا على الإدلاء بشهادتها لأول مرة في مبنى البرلمان الأمريكي (الكابيتول). ولكونها معلمةً وأمينة مكتبة، كان لديها صدقيّة كبيرة عند التحدث عن التعليم. وتم تحديد موعد خطابها في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

وفي نهاية صباح ذلك اليوم، كان واضحاً أنني لن أكون رئيساً للتعليم؛ بل رئيساً للحرب. طوال فصل الخريف، ألححت على الكونغرس لكي يقوم بإتمام

قانون توفير وتحسين الدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية (لا طفل مهمل). قام تيد كنيدي بإلقاء خطبةٍ جريئةٍ للدفاع عن المساءلة أمام (جمعية التعليم الأميركية)، وهي مجموعة المعلمين التي ساهمت مساهمةً كبيرة في جهود الديموقراطيين وعارضت مشروع القانون بقوة. قام السيناتور جود جريج، وعضو الكونغرس بونار، اللذان وقفا من قبل في وجه فكرة إلغاء وزارة التعليم الأميركية، بالائتلاف مع الجمهوريين القلقين من الدور الفدرالي في التعليم. وتماشياً مع رأيي، دار نقاشهم حول ما إذا كنا سنقوم بالإنفاق على المدارس فيجب أن نعرف النتائج المترتبة على ذلك. وقبل أسبوع من عيد الميلاد قام الكونغرس بتمرير قانون توفير وتحسين الدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية (لا طفل مهمل) بأغلبية أصوات كلا الحزبين.

* * *

على مر السنين، أثار مشروع قانون توفير وتحسين الدراسة حتى نهاية المرحلة الثانوية (لا طفل مهمل) كثيراً من الخلاف، حيث تعوّد المحافظون وموظفو التعليم بالولايات التذمّر من تزمّت الروتين الحكومي، ومن كون كثيرٍ من المدارس مصنفةً فاشلة. وعندما أصبحت مارغريت سبيلينغ وزيرةً للتربية في عام ٢٠٠٥، عدّلت القيود البيروقراطية وزادت المرونة للولايات. لكن كلاً منّا أوضح أننا لن نخفف من تدابير المساءلة. كان الهدف من القانون هو إظهار الحقيقة، حتى إذا كانت غير سارّة.

وكان مما قاله بعض النقاد إن من غير المنصف عمل اختبار للطلاب كل عام. ولكني كنت أرى أنه من غير المنصف أن لا نفعل. فإجراء الاختبارات كان الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الطلاب الذين يحتاجون المساعدة. كما كان هناك بعض الشكاوى بخصوص ما يسمى التعلّم لاجتياز الاختبارات. ولكن إذا تم تصميم الاختبار جيداً بحيث يقيس مدى فهم الطالب للمادة، فكل ما على المدارس أن تفعله هو تدريس هذه المادة.

كانت بعض الشكاوى الأخرى من أن تمويل مشروع قانون توفير الدراسة

وتحسينها حتى نهاية المرحلة الثانوية أقل من التمويل المطلوب. إن ذلك يصعب تصديقه، فلقد قمنا برفع الإنفاق الفيدرالي على التعليم بنسبة ٣٩ في المئة خلال السنوات التي قضيتها في رئاسة الولايات المتحدة، مع توجيه كثيرٍ من الإنفاق الزائد إلى الطلاب الفقراء والمدارس الفقيرة.[١]

على مستوى أكثر عمقاً، فإن النقاد الذين شكوا من إهدار المال قد أغفلوا الهدف من قانون حق التعليم لكل طفلٍ على الأرض الأميركية NCLB، علماً أن فرضية القانون بُنيت على أن النجاح لا يمكن أن يُقاس بحجم الدولارات التي تُنفق بل بالنتائج المُنجَزة على أرض الواقع.

وعندما تركت منصبي، كانت نتائج علامات مادة الرياضيات للصفين الرابع والثامن قد وصلت إلى أعلى مستوياتها بشكلٍ لم يحدث من قبل، وحدث ذلك بالنسبة لعلامات القراءة للصف الرابع أيضاً. وقد سجل الطلاب الأميركيون من الأقليات الأسبانية والأفريقية أرقاماً جديدةً في مواد متعدّدة، حيث تم تضييق الفجوة بالصورة التي أردناها وهي أن جميع الطلاب قد تحسن أداؤهم، لكن طلاب الأقليات تحسّنوا بشكلٍ أفضل.

قمت في شهر كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ بزيارةٍ إلى مدرسة هوريس غريلي الابتدائية في شيكاغو للاحتفال بمرور ست سنوات على صدور قانون (لا طفل مهمل) على الأرض الأميركية. حملت المدرسة اسم أحد الأشخاص الذين نادوا بإبطال مبدأ الاسترقاق في القرن الثامن عشر، وبلغت نسبة الطلاب الأميركيين من ذوي الأصول الإسبانية ٧٠ في المئة، وكان ٩٢ في المئة من الطلاب فقراء، ومع ذلك تفوّقت المدرسة على معظم المدارس في شيكاغو. ارتفع معدل إتقان الطلاب

(١) كانت الزيادات في التمويل الفدرالي للتعليم كبيرةً لأن موازنتي قيّدت الإنفاق التقديري غير المرتبط بالضمان، وفي نهاية المطاف جعلته ما دون معدل التضخّم. لقد استمرت الولايات بالمساهمة في النسبة العظمى من تمويل التعليم (حوالي ٩٢ في المئة) وهذا ما يجب أن يكون.

للقراءة من ٥١ في المئة في عام ٢٠٠٣م إلى ٧٦ في المئة في عام ٢٠٠٧م، كما تحسن مستوى إتقان الرياضيات من ٥٩ في المئة إلى ٨٦ في المئة.

إن ذلك يعدُّ نقلةً نوعيةً عندما نشاهد مدرسةً تزدهر في حين أن معظم طلابها من الأقليات متدنية الدخل. قالت الطالبة ياسينيا أدامي وهي في الصف السادس إنها استمتعت بحضور الامتحانات، وأوضحت بقولها: عند ذلك يمكن للمدرّسين أن يعرفوا ماذا تحتاج من مساعدة. وفي ختام زيارتي، أخبرت الطلاب والأهالي والصحافة بالشيء الذي طالما آمنت به، وهو إن قانون (لا طفل مهمل) على الأرض الأميركية هو جزء من تشريعات الحقوق المدنية.

* * *

تعوّدتُ القول، على سبيل الدعابة، إنني ثمرة من ثمار أحد البرامج القائمة على الإيمان، فبحلول عام ١٩٨٦م غيّر الإيمان قلبي وتوقفت عن شرب الكحول، وبعد عشر سنوات فتحت عينيّ على إمكانية وجود برامج إيمانية لتحويل السياسة العامة.

في شهر حزيران/يونيو ١٩٩٦ تم حرق كنيستين للأفارقة من أصل أميركي في بلدة غرينفيل، في تكساس. حتى عام ١٩٦٥، كان هناك إعلان على يافطةٍ في الشارع الرئيسي للبلدة يقول: «الأرض الأكثر سواداً، الناس الأكثر بياضاً». خشيتُ بصفتي حاكماً أن نشهد ازدياداً في العنصرية القديمة.

سافرت إلى غرينفيل لأدين الحرائق. وأتى حشد من أربعة آلاف شخصٍ من مختلف الأعراق إلى ملعب كرة القدم. قلت من وقت لآخر، نفتخر نحن سكان تكساس بأن ولايتنا كبيرة. وعلى الرغم من كبرها، لا مكان فيها للجبن والكراهية والتعصّب. ثم أعطيت الميكروفون إلى توني إيفانز، وهو كاهن ديناميكي أميركي من أصل أفريقي من زمالة أوك كليف بايبل في دالاس. أخبر قصةً عن منزلٍ فيه تشقّق في السقف، فأتى المالك بمجصّصٍ لتغطية الشق. وبعد أسبوع، ظهر الشق من

جديد، فجاء بمجصّصٍ آخر ليغطي الشق. وبعد أسبوع عاد الشق ثانية. أخيراً أتى صاحب المنزل بدهّانٍ مسن، فنظر نظرةً واحدةً وقال له: يا بني، أولاً أصلح الأساسات وبعدها يمكنك إصلاح الشق في الحائط.

هزّ الناس رؤوسهم وصفّقوا. ثم استدار توني إليّ وقال: أيها الحاكم، أريد أن أقول لك شيئاً.

وقلت لنفسي: أين سيقودنا هذا؟

قال: «يجب أن نصلح أساساتنا، وبرامج حكومتك القديمة لا تفي بالغرض». وقال إن لديه بديلاً أفضل. إنه أكثر نظام رعايةٍ إجتماعيةٍ فاعليةً في العالم. النظام لديه مبانٍ على نواصي شوارع كثيرة، وقائمة عمال مستعدين للعمل، واجتماعات دورية لدراسة الدليل المثالي لإنقاذ الأرواح.

كان يتحدّث عن دور العبادة، وكان على حق. البرامج المبنية على الإيمان لديها القدرة على تغيير حياة الناس بطرائق لا تستطيعها البرامج العلمانية. قلت: «الحكومة تستطيع أن تعطي المال، لكنها لا تستطيع أن تضع أملاً في قلب إنسان، أو حساً بالهدف في حياة شخص».

بحثتُ عن طرائق لإدخال تكساس في شراكةٍ مع المنظمات الدينية. قابلت تشاك كولسون مستشار البيت الأبيض الأسبق للرئيس الأميركي السابق ريتشارد نيكسون، والذي قضى فترة في الإصلاحية الفيدرالية ووجد الخلاص. قام تشاك بتأسيس منظمةٍ كرّست جهودها لنشر الإنجيل خلف القضبان. وقد وافقنا على بدء برنامج يعتمد على الدين في جناحٍ واحدٍ في سجن تكساس. سيعمل برنامج تشيك، والمسمى مبادرة الحرية في التغيير الداخلي InnerChange Freedom Initiative، على توفير مدربين لدراسة الكتاب المقدس ولتعليم الدروس الحياتية. ومن المفترض بالبرنامج أن يكون اختيارياً ويبدأ قبل انتهاء مدة عقوبة السجناء. سيكون كل سجين

من المشاركين بالبرنامج على اتصالٍ بمستشار، كما سيتم الترحيب به في مجتمع الكنيسة بعد خروجه من السجن.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧، قمت بزيارة سجن جيستر ٢ بالقرب من مدينة شوجر لاند بولاية تكساس، حيث التحق عشرات السجناء بمبادرة الحرية في التغيير الداخلي. في نهاية الزيارة، اصطف مجموعة من الرجال الذين يرتدون حُللاً بيضاء في الفناء، ثم كوّنوا نصف دائرةٍ وعزفوا ترنيمة النعمة المدهشة: أمازينج جريس.

بعد عزف مقطوعات قليلة، انضممت للجوقة. في الصباح التالي، أحضر لي كارين هيوز صحيفة هيوستن كرونيكل Houston Chronicle. وقد كانت صوري في الصفحة الأولى، جنباً إلى جنب مع جوقة السجن. ذكرت المقالة أن الرجل الذي كان بجواري جورج ماسون كان قد اعترف بقتل امرأة منذ اثني عشر عاماً. لكنه لم يبدُ كقاتل وهو يغني في فناء السجن. كان يمتلك أسلوباً دمثاً وابتسامةً لطيفة. لقد أصبح، بدون شك، رجلاً مليئاً بالروحانيات.

* * *

حينما خضت المنافسة على منصب الرئاسة، قرّرت أن أجعل المبادرة القومية القائمة على الدينِ جزءاً رئيسياً من حملتي الدعائية. في أول أحاديثي السياسية الرئيسية، والذي ألقيته في مدينة إنديانا بوليس، قلت: «في أي حالة ترى فيها إدارتي أي إمكانية لمساعدة الناس، ستنظر أولاً إلى المنظمات القائمة على الدين والجمعيات الخيرية والمنظمات المجتمعية».

وبعد تقلدي المنصب بتسعة أيام، قمت بإصدار أوامر تنفيذية لإيجاد مكتب للمبادرات المجتمعية والقائمة على الدينِ في البيت الأبيض، وفي خمس وزارات في مجلس الوزراء. قامت المكاتب بتغيير اللوائح وإزالة الموانع التي كانت تمنع الجمعيات الخيرية القائمة على الدينِ من تلقي المنح الفيدرالية. وللتأكيد على طبيعة المبادرات غير الحزبية، قمت بتعيين أول مديرين من الحزب الديمقراطي: الأول

هو جون ديلوليو، وهو أستاذ مبتكِر من جامعة بنسلفانيا. والآخر جيم تاوي، وهو رجل مهذّب متمكّن قام بقيادة وزارة الخدمات الاجتماعية في ولاية فلوريدا، وعمل محامياً لـ«الأم تريزا». اعتدت أن أخبر تاوي بأننا بالتأكيد نعيش في مجتمع تنازعي إذا احتاجت الأم تريزا إلى محام.

قال بعض الناس إن المبادرة القائمة على الدين طمست الخط الفاصل بين الكنيسة والدولة. وقد أخذت هذا القلق على محمل الجد. يجب ألا تقوم الحكومة على الإطلاق بفرض الدين. ويجب أن يمتلك كل مواطنٍ الحق في اختيار الديانة التي يرغبها، كما يمتلك الحق في ألا تكون له ديانة على الإطلاق. كنتُ دائماً أشعر بالقلق من الأشخاص الذين يستخدمون الدين سلاحاً سياسياً ظناً منهم بأنهم على الحق. وأفضل آيةٍ في الكتاب المقدس تتناسب مع السياسيين تجدها في إنجيل متّى، الإصحاح ٧:٣ «لماذا ترى القذى الذي في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟».

وفي الوقت نفسه، يجب على الحكومة ألا تخشى من الدين. فإذا كانت برامج الخدمة الاجتماعية تُدار من قِبَل رجال دين لا يقومون بتمييز الأشخاص الذين يتلقون الخدمة أو يعملون على تحويل دياناتهم، فأعتقد أنهم يستحقون فرصةً للتنافس على أموال دافعي الضرائب الأميركيين. يجب على الحكومة أن تطرح تساؤلاً عن أي المنظمات ستقوم بتقديم أفضل النتائج، وليس أيها تضع الصليب، أو الهلال، أو نجمة داوود على حائطها.

تتيح هذه المبادرة ٢٠ مليار دولار أميركي سنوياً تقريباً في شكل تمويلات فيدرالية للمنافسة بين المجموعات القائمة على الدين. لا يملك كثير من هذه المنظمات الخبرة للتفاعل مع الحكومة، لذا فقد عقدنا أربعين مؤتمراً وأكثر من أربعمئة منحةً مكتوبةً لحضور حلقات تعريفية ليتمكّنوا من تقديم طلبات التمويل. وفي نهاية الأمر، حصلت أكثر من خمسة آلاف منظمة مجتمعية ومنظمات قائمة على الدين ـ معظمها جمعيات خيرية شعبية صغيرة ـ على منحٍ فدرالية.

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨ كانت زيارتي لبرنامج جيريكو في منطقة بالتيمور الشرقية بولاية ماريلاند، والذي يُدار من قِبَل أسقفية الخدمات العامة Episcopal Community Servicef بولاية ماريلاند، ويتم تمويله بمنح من وزارة العمل الأميركية؛ يعمل البرنامج على تقديم النصائح، والخدمات الاستشارية، وخدمات التدريب الوظيفي للسجناء الشباب المُفرَج عنهم حديثاً. كان الرجال التسعة المدرجون في برنامج جيريكو هادئين حينما دخلت الغرفة، وأحسست فيهم بعض الارتياب. ولأكسر الحاجز بيننا قلت لهم: لقد عاقرتُ الخمر لبعض الوقت في حياتي، ولكنني أعلم أنه حين يقوى إيمانك سيمكنك التعامل مع الإدمان.

وحينها اطمأنت نفوسهم بدأوا يسردون قصصهم. فمنهم من تمت إدانته لبيعه المخدرات، وآخر لحيازة الكوكايين، وثالث للسرقة. ومنهم من دخلوا السجن مرات عدة وهجروا أُسرهم. ولكن بفضل الخدمات التي تلقوها في برنامج جيريكو بدأوا يجدون الغاية من حياتهم. لقد شرح لي أحدهم بشكل مُؤثّر مدى فرحته عند التقائه مرةً أخرى ببناته الثلاث. قال: منذ ستة أشهر كنت مُدمّراً، ولكنني الآن أصافح رئيس الولايات المتحدة الأميركية. كما أخبرني أحدهم بفخرٍ أنه تلقّى عرضيْ عمل، وقال: كانت المخدرات مشكلةً كبيرةً في حياتي إلى وقتنا هذا، ولكن بفضل برنامج جيريكو أصبح عندي الآن عمل يناسبني.

في برنامج جيريكو، يبلغ معدل العودة للجريمة ٢٢ في المئة، وهو أقل من نصف المعدل الكلي لمدينة بالتيمور. فالرجال الذين التقيتهم في ذاك اليوم كانوا من بين خمسة عشر ألفاً استفادوا من مبادرة إعادة تأهيل السجناء Prisoner Reentry Initiative التي أطلقناها في ٢٠٠٤. كان معدل العودة للجريمة لديهم ١٥ في المائة، وهو ما يمثل ثلث المتوسط القومي.

وكانت إقامة أروع لقاء لي فيما يخص مبادرات المؤسسات الدينية في القاعة الموجودة أمام المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض. ففي حزيران/يونيو ٢٠٠٣، عقدتُ اجتماعاً تشاورياً مع قادة المؤسسات الدينية. حضر الاجتماع تشاك كولسون وكثير

من أعضاء مبادرة الحرية في التغيير الداخلي. وعندما دخلت غرفة روزفلت، وقع نظري على رجلٍ شكله معروف لي من الأفارقة الأميركيين. فمشيت ناحيته وعانقته بحرارة، ثم قلت له: لكم يسعدني وجودك هنا.

هذا الشخص هو جورج ماسون من جوقة السجن في مدينة شوجار لاند. فبعد إطلاق سراحه حصل على وظيفةٍ كبوّابٍ للكنيسة. كما قاد بحثاً في الكتاب المقدس، وخدم مستشاراً لمن يغادرون السجن. فيا له من دليل على قوة الخلاص للمسيح: جورج ماسون مع جورج دبليو بوش في الجناح الغربي للبيت الأبيض.

* * *

ساعد برنامج الرعاية الطبية لكبار السن، الذي أنشأه رئيس الولايات المتحدة جونسون عام ١٩٦٥ أعداداً لا تُحصى من كبار السن في الاستمتاع بحياةٍ أكثر عافية. ولكن على الرغم من تطوّر الطب إلا أن برنامج الرعاية الطبية لكبار السن لم يتطور. كان يتم تحديد المساعدات من خلال روتينٍ حكومي يهدر المال العام وبطيء جداً ليتغير وفق المعايير الجديدة. حينما قامت شركات التأمين بإقرار تغطية تكاليف صورة الثدي الشعاعية للحماية من سرطان الثدي، استغرق الأمر من برنامج الرعاية الطبية لكبار السن واستصدار قانون من الكونغرس عشر سنوات.

فمن أقدم القوانين في برنامج الرعاية الطبية لكبار السن هو عدم تغطيته لتكاليف أدوية الوصفات الطبية. وتسمح قوانين البرنامج بدفع ٢٨ ألف دولار لعملية علاج القرحة، ولكن لا تسمح بدفع ٥٠٠ دولار سنوياً ثمن الدواء الذي قد يمنع حدوث أغلب القرحات.

صدمتني قصص كبار السن الأميركيين، ممن كان يتوجّب عليهم الاختيار بين شراء مستلزماتهم من البقالة أو شراء الدواء. التقيت مع ماري جين جونس من ولاية فرجينيا، وهي في التاسعة والستين من عمرها، وكان يتوجب عليها العمل عشرين

ساعةً أسبوعياً لتتمكن من دفع فاتورتها الشهرية للأدوية والأنسولين والتي تبلغ حوالي ٥٠٠ دولار. أخبرتني أنها كانت تستخدم أحياناً الحقنة نفسها لثلاث أو أربع حقنات لتوفر المال.

لم يكن برنامج الرعاية الطبية لكبار السن عتيقاً فقط، بل كان في طريقه للإفلاس. مع المزج بين ارتفاع تكاليف الرعاية الصحية والتقاعد القادم لجيل طفرة الولادات Bady Boom تولّد دَين بلا احتياطي مقداره ١٣ تريليون دولار. وسيتوجّب على الجيل التالي تحمّل هذا الدَين. لقد أثر ارتفاع تكلفة إفلاس برنامج الرعاية الطبية لكبار السن على نظام الرعاية الصحية بالكامل.

تضاعف الإنفاق الأميركي على الرعاية الصحية، من حوالي ٥,٧ في المئة وفق مقياس الناتج الإجمالي المحلي GDP لعام ١٩٧٢ إلى ١٥ في المئة لعام ٢٠٠٢. وكان أحد أسباب هذا الارتفاع تكلفة التقنيات الطبية الجديدة. كما أدّت القضايا المرفوعة ضد نظام الرعاية الصحية دوراً في هذه الارتفاع. ولكن السبب الرئيسي كان الخلل الجذري في النظام. فلم يعلم الكثير من الناس مدى تكلفة رعايتهم الصحية.

إن أدوية كبار السن والفقراء يتم دفعها من قِبَل الحكومة من خلال برنامجيْ الرعاية الطبية لكبار السن والرعاية الطبية للفقراء. ويتلقى أغلب العاملين في الولايات المتحدة تغطية لعلاجهم من خلال أرباب عملهم بوساطة طرفٍ ثالث، هو شركة التأمين، التي تتفاوض على الأسعار وتحدّد المبالغ الواجب دفعها. لم يتمكّن أغلب أصحاب المهن الحرة الأميركيين من تحمل تكاليف التأمين الصحي بسبب تضررهم من قانون الضرائب، كما منعت اللوائح أصحاب الأعمال الصغيرة من تطبيق برامج جمع المخاطر التأمينية عبر حدود الولاية.

إن ما افتقده النظام كان المؤسسات الخاصة. فلم يكن هناك معنى لبرامج حماية المستهلك أو القدرة على مقارنة الأسعار للحصول على أفضل الصفقات، مع عدم

وجود المنافسة لموافقة متطلبات العملاء، ولا الشفافية في عرض الجودة والسعر. ونتيجة لذلك، انعدم الدافع لدى الأطباء أو المرضى في الحد من استهلاك المصادر، والتي كانت حتمية لخفض التكاليف.

ولذا رأيت وجوب إعادة هيكلة برنامج الرعاية الطبية لكبار السن لحل مشكلتين: الأولى، أنه عند تغطية تكاليف الأدوية نكون قد طوّرنا البرنامج، وقدّمنا الرعاية الصحية الجيدة التي وعدت بها الحكومة كبار السن؛ والثانية، أنه عند توفير عمليات تغطية التكاليف الدوائية من خلال شركات تأمين خاصة، والتي تتنافس لموافقة مصلحة كبار السن، فسنعمل بذلك على إدخال المؤسسات الخاصة إلى نظام الرعاية الصحية. كما ستعمل إعادة هيكلة البرنامج على خلق فرصةٍ لنشر برنامج الاختيار الإضافي للرعاية الصحية لكبار السن Medicare Choice Plus والمعاد تسميته لاحقاً ببرنامج الرعاية الصحية المميز لكبار السن Medicare Advantage والذي يسمح لكبار السن بالحصول على رعايتهم الصحية من خلال شركات تأمينٍ خاصةٍ مرنةٍ وميسورة التكلفة.

كنت أعلم تمام العلم أن عملية إعادة هيكلة برنامج الرعاية الطبية لكبار السن ستكون قضية سياسية قوية. فإدخال المؤسسات الخاصة إلى برنامج الحكومة للرعاية الصحية سيزعج اليساريين. كما أن إدراج تغطية التكاليف العالية لأدوية الوصفات لن يلقى ترحيباً لدى اليمينيين. ولكني قررت قبول التحدي.

وفقاً لخطتنا الموضوعة، كل من يرغب من كبار السن في الحصول على تغطية تكاليف الأدوية عليه أن يختار شركة تأمين خاصة بدلاً من البرنامج الحكومي للرعاية الطبية لكبار السن. سنعمل على تغيير الصيغة التمويلية لبرنامج الرعاية الطبية لكبار السن، حيث سيتوجب على البرنامج الحكومي منافسة شركات التأمين الخاصة على مستوى المرضى. وسيعمل كلا التغييرين الهيكليين على إدخال المؤسسات الخاصة والمساعدة في التعامل مع التكاليف المرتفعة للرعاية الصحية.

قمت بعرض خطتي على القادة الجمهوريين في البيت الأبيض قبل الإعلان عنها. فأخبروني أن عرضي لن يلقى ترحيباً في البرلمان. فلن يدعم الديمقراطيون برنامجاً يقضي بترك كبار السن لتأمين حصولهم على تغطية تكاليف الأدوية. ولن يدعمه بعض الجمهوريين أيضاً.

وهنا كان يتوجب عليّ اتخاذ قرارٍ حاسم. فإما الإصرار على قراري وإمّا تقديم بعض التنازلات. ولذا قررت عرض خطة تأمين لتغطية تكاليف الأدوية، والتي ستتم إدارتها من قِبَل شركات التأمين الصحي الخاصة ولكن مع إتاحتها لكل كبار السن، بما في ذلك من يريدون الاحتفاظ بتغطية البرنامج الحكومي للرعاية الطبية لكبار السن.

عمل الفريق التابع لي في برنامج الرعاية الطبية لكبار السن[1] عن قرب مع زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ بيل فريست، ورئيس اللجنة المالية لولاية آيوا تشاك جراسلي. وأقنع تشاك بحكمته اثنين من أهم النظراء الديمقراطيين على الدخول في عملية الاقتراع، وهما السيناتور ماكس باوكوس عن ولاية مونتانا والسيناتور جون برو عن ولاية لويزيانا. حيث قدموا برنامجاً قوياً تضمّن دعم خمسة وثلاثين عضواً من الحزب الديمقراطي. وتمت الموافقة من مجلس الشيوخ على البرنامج في حزيران/ يونيو بموجب الاقتراع بحصول البرنامج على نسبة ٧٦ إلى ٢١.

أما في البيت الأبيض، فلقد كان هناك بعض التحفظات على تكلفة تأمين تغطية تكاليف الدواء، والتي تخطّت وفق حساباتنا ٦٣٤ مليار دولار خلال عشر سنوات. إلا أنّ كلاً من المتحدث الرسمي باسم البيت الأبيض داني هاسترت، وزعيم الأغلبية توم ديلاي، ورئيس لجنة الأساليب والوسائل بمجلس النواب بيل توماس قاموا

(١) عمل فريقي تحت قيادة وزير الصحة والخدمات الإنسانية الأميركية تومي تومسون، ومبعوث إدارة الأغذية والأدوية الأميركية مارك مكليلان، ومدير برنامج الرعاية الطبية لكبار السن توم سكالي، وأعضاء من البيت الأبيض هم ستيف فريدمان وكيث هينيسي ودايفيد هوبز ودوج بادجر ،والخبير بمكتب الإدارة والموازنة بالبيت الأبيض جيم كابريتا.

للأسف تم إلغاء التدابير الاحترازية لاحقاً من قِبَل الكونغرس الذي يسيطر عليه الديمقراطيون.

بتكوين تحالفٍ ضعيفٍ لتمرير القرار ٢١٦ إلى ٢١٥. ووافق تسعة ديمقراطيين في البيت الأبيض على برنامجٍ التأمين الذي طالبوا به لسنوات. ولكن البقية صوّتت بالرفض. وخلال مناقشة القرار في الكونغرس، لم ينتقد ديمقراطي واحد برنامج الرعاية الطبية لكبار السن بسبب تكاليفه العالية. حيث بدا أن أغلبهم يرغبون في هدر مزيدٍ من الأموال.

استلزم الهامش الضئيل لمجلس النواب وجوب دمج قرارات مجلس النواب ومجلس الشيوخ بالشكل الذي يحافظ على دعم الجمهوريين. وللتعامل مع مشاكل التكلفة، قمنا باتخاذ تدابير احترازية، يمكن أن يتم تفعيلها إذا ارتفعت تكاليف برنامج الرعاية الطبية لكبار السن بشكلٍ أسرع من المتوقع. وحينها سيتوجب على الكونغرس تنفيذ بعض عمليات إعادة الهيكلة للتعامل مع المشكلة.

كما ألقينا الضوء على حسابات الادّخار المخصصة للرعاية الصحية HSA وهي حل تأميني ابتكاري جديد في مجال الرعاية الصحية، تم إنشاؤه بموجب قرار من مجلس النواب. وقد تم وضعه لتوفير التغطية للأعمال الصغيرة والأفراد. كما قرنت حسابات الادّخار المخصّصة للرعاية الصحية بين خطة التأمين الصحي ذات الأقساط المنخفضة، والخصم العالي HDHP والأمراض الكارثية بواسطة حساب ادّخاري معفي من الضرائب لسداد التكاليف الطبية الروتينية. يمكن لأصحاب الأعمال والأفراد الاشتراك في الحساب، ويخص هذا الحساب الأفراد، ويمكن نقله من وظيفة إلى وظيفة. وذلك لأن أصحاب حسابات الادخار المخصّصة للرعاية الصحية دفعوا تكاليف الرعاية الصحية الخاصة بهم، وساهموا بما تبقى من أموال؛ فهم لديهم المحفزات على المحافظة على الصحة، والبحث عن البرامج الجيدة، والتفاوض على أفضل الأسعار.

في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، أقرّت الجمعية الأميركية للمتقاعدين، AARP وهي جمعية حقوقية للدفاع عن كبار السن، هذا الحل الوسط. قال المدير التنفيذي للجمعية بيل نوفيللي: هذا ليس القرار الأفضل، ولكن الحال في الولايات المتحدة

أننا لا نستطيع الانتظار إلى حين التوصل لأفضل القرارات. ولكن تم انتقاده بشكلٍ كبيرٍ من قِبَل قادة الحزب الديمقراطي، واتحادات العمال، وعلى الصفحات الرئيسية للصحف الليبرالية. ولكنه أصرّ على موقفه ليقطع شوطاً كبيراً مع أعضاء الكونغرس المتردّدين.

كان مقرراً القيام بالتصويت النهائي في ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣. وفي التاريخ نفسه كان مخططاً لي أنا ولورا أن نكون في زيارة لبريطانيا، كجزءٍ من الزيارة الرسمية الأولى لرئيس الولايات المتحدة، والتي انقعطت منذ زيارة الرئيس وودرو ويلسون. اقترح بعضهم تأجيل هذه الزيارة؛ ولكني رفضت. وذكّرت فريق العمل قائلاً: «لديهم هواتف في لندن، أظنكم تعرفون ذلك».

* * *

استمتعت أنا ولورا ونحن نقضي الوقت مع الملكة إليزابيث الثانية؛ فقد وجدناها سيدة لطيفة وفاتنة ولديها حس دعابة. في عام ٢٠٠٧، قدمت جلالتها مع زوجها الأمير فيليب لحضور الاحتفالات بذكرى مرور أربعمئة عامٍ على إقامة المستعمرة البريطانية جيمس تاون على الأراضي الأميركية. ومن بين كلمات الترحيب التي كنت ألقيها أمام سبعة آلاف شخص في الحديقة الجنوبية بالبيت الأبيض كانت كلمة الشكر التي وجهتها إلى الملكة على صداقتها القديمة مع الولايات المتحدة الأميركية. لقد ساهمتِ في احتفالات أمتنا بمرور مئتي عام في العام ١٧٠٠ ثم توقفت قبل أن أكمل التاريخ بقول: عام ١٧٧٦، وهو كان عاماً سيئاً للعلاقات الأميركية البريطانية، كما أنه تعليق غير لائق على طول عمر الملكة. وهو ما جعل الملكة بنت الواحد والثمانين عاماً تبتسم لي ابتسامةً لطيفة. فقلت: لقد نظرت إليّ نظرةً، لا تنظرها سوى الأم لابنها. قالت جلالتها في الليلة التالية ونحن نتناول العشاء في السفارة البريطانية: لقد تساءلت ما إذا كان يجب أن أبدأ هذا النخب بقول: حينما كنا هنا عام ١٧٧٦...

كان كرم ضيافة الملكة إليزابيث في قصر باكنجهام خلال زيارتنا الرسمية عام ٢٠٠٣ على أرقى مستوى. فلقد تم إطلاق إحدى وأربعين طلقة مدفعٍ للترحيب بنا، كما شاهدنا القوات الملكية في فناء القصر، وكنا ننام في الجناح البلجيكي الفخم. كان يسكن الغرفة التي أقمنا فيها عم الملكة إليزابيث، الملك إدوارد الثامن، الذي تخلّى عن العرش عام ١٩٣٦ ليتزوّج من مطلّقة أميركية. احتوت الغرفة على مرآة عمرها ثلاثمئة عام، وبعض التحف التي تساوي قيمتها ١٠ ملايين جنيه استرليني أي ما يعادل ١٥ مليون دولار؛ وكانت الغرفة تطل على منظرٍ رائعٍ لحديقة القصر. سألت جلالتها عن الكلاب التي تعتني بتربيتها، ونحن نتناول شايٍ بعد الظهيرة معها ومع زوجها الأمير فيليب. وبعد دقائق جاءنا خادم ملكي مع كلابٍ من فصيلة كورجي الويلزية Corgi Welsh، وهي كلاب ودودة ولطيفة. ولكم تمنيت لو التقى كلبي بارني بالملكة، فحينها كان سيتعامل كما تتعامل كلاب الملكة، ولم يكن لينبح من أجل الاستقلال الاسكتلندي.

وفي المساء، أقامت جلالتها وزوجها الأمير فيليب مأدبة عشاءٍ رائعةً على شرفنا. اتّخذ كلّ منا مكانه وأمامه عشر قطع مائدة من الفضة وسبع كؤوس نبيذٍ من الكريستال. وبدا جليّاً أن المطبخ الملكي لم تصله بعد معلومة أني أقلعت عن شرب الخمور. وقبل أن أقف وأنا في حلّتي البيضاء لنشرب نخبي، نظرت إلى لورا في ثوبها الخمري الجميل، وتساءلت عما يجول في خاطرها: لقد قطعنا شوطاً طويلاً منذ أن كنا نقيم حفل الشواء في فناء منزلنا بمدينة ميدلاند.

* * *

كان هناك تباين كبير بين الفخامة التي عايشناها في قصر باكنجهام وبين ما كان ينتظرنا في رحلة العودة. فبمجرد إقلاع طائرة الرئاسة الأمريكية اتصل بي مدير الهيئة التشريعية دايفيد هوبز ليطلعني على قائمةٍ لعددٍ من أعضاء مجلس النواب المترددين، وأغلبهم كانوا من المحافظين. ومن ثم بدأت في عمل الاتصالات لإقناعهم بالتصويت ونحن نطير فوق المحيط الأطلنطي. ولم يوجد بعض أعضاء الكونغرس لاستقبال

مكالمتي. وأجاب على اتصالي عضو شاب من أعضاء الكونغرس، قال لي: لم أدخل الكونغرس لأزيد عدد الحكومة فرداً آخر فقط.

فأجبته: «أَوَتعلم، أنا أيضاً لم أتقلد الرئاسة لأزيد الحكومة فرداً». ثم أضفت: «لقد تقلّدت الرئاسة لأتأكد من عمل الحكومة بالشكل المطلوب. ولو كنا سنمتلك برنامج الرعاية الطبية لكبار السن فيجب أن يكون على الطراز الحديث وليس مفلساً».

فأجابني: هذا مطلب آخر سيظل يتزايد إلى الأبد.

فرددت عليه: «أهذا يعني أنك تطالب بإلغاء برنامج الرعاية الطبية لكبار السن؟»

وأكملت كلامي بقول: «هذه فرصة لإدخال جو المنافسة إلى النظام مع تخفيض التكاليف. ولعلمك، فهذا هو أفضل برنامج حكومي ستحصل عليه من أي رئيس آخر للولايات المتحدة الأمريكية».

ولكنه لم يقتنع. وعندما هبطت طائرتنا في واشنطن، قمت بمحاولةٍ أخرى من الاتصالات. كنا نحرز بعض التقدم، ولكن في أضيق الحدود. وعندما صوّت أعضاء مجلس النواب عند الساعة الثالثة صباحاً، ظهرت النتائج الأوّلية بعد وقتٍ قليل. وفي خطوةٍ نادرة الحدوث، قام المتحدث الرسمي ديني هاسترت بإبقاء باب التصويت مفتوحاً على أمل تمكّنه من إقناع بعض أعضاء الكونغرس بتغيير تصويتهم. وقبل الساعة الخامسة صباحاً بدقائق، استيقظت على مكالمة دايفيد هوبز من مبنى البرلمان. قال لي: نحتاج إلى صوتين آخرين فقط؛ أيمكننا الاتصال بأعضاء آخرين؟

وقام بتمرير هاتفه الخليوي على بعض الجمهوريين، ممن يمكن إقناعهم بالعدول عن رأيهم. وظهرت على صوتي علامات التعب من السفر بينما كنت أناقشهم في أن حلّي هو أفضل الحلول. وبعد فترة اتصل بي دايفيد مرةً أخرى ليخبرني بحدوث المعجزة، بتمرير مجلس النواب للقرار ٢٢٠ إلى ٢١٥. واستتبع ذلك موافقة مجلس الشيوخ بعد أيام عدة. وفي ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، وقّعت على قانون موجز برنامج الرعاية الطبية لكبار السن لعام ٢٠٠٣ Medicare Modernization Act في

قاعة الدستور الأمريكي Constitution Hall، ووقف خلفي على المنصة بعض كبار السن، ممن سينتفعون من القانون الجديد. وكان من بينهم ماري جين جونز، وهي سيدة من ولاية فيرجينيا، كانت تعيد استخدام الحقن لتوفير تكاليف الأنسولين. فلقد كانت تغطية تكاليف الأدوية توفر لها حوالي ٢٧٠٠ دولار سنوياً.

تضمن القانون الجديد بدء تطبيق تغطية تكاليف الأدوية من تاريخ ١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦. وقال بعض المشككين إن كبار السن سيلتبس عليهم الأمر عند محاولة الاختيار بين شركات التأمين الخاصة، ولكني رفضت هذه الفكرة. كان اقتناعي بأن كبار السن على قدرٍ كافٍ من الأهلية في اتخاذ القرار في أمر يخص حياتهم، وبأن على الحكومة أن تثق في قراراتهم.

عمل وزير الصحة والخدمات الإنسانية النشط مايك ليفيت مع مدير برنامج الرعاية الطبية لكبار السن مارك مكليلان وفريقه لتدشين حملة دعائية كبيرة، وأتت الحملة أُكلُها. سجّل أكثر من ٢٢ مليوناً من كبار السن أسماءهم في برنامج تغطية تكاليف الأدوية خلال مرحلة التسجيل الأولى التي امتدت خمسة أشهر. وفي عام ٢٠٠٨، أعرب ٩٠ في المئة من المشتركين في برنامج تغطية تكاليف الأدوية تحت برنامج الرعاية الطبية لكبار السن - و٩٥ في المئة من الفقراء - عن رضاهم عن البرنامج.

نستخلص أن موجز برنامج الرعاية الطبية لكبار السن كان عملية مقايضة. فلقد أنشأنا برنامجاً جديداً لتغطية التكاليف الضرورية، ولكننا أنفقنا أموالاً أكثر مما أردت. أدخلنا التنافس التسويقي بين شركات الدواء الخاصة، ولكننا لم نستفد من برنامج تغطية التكاليف الجديد باستخدامه في تحويل نظر كبار السن من برنامج الرعاية الطبية لكبار السن الحكومي إلى الشركات الخاصة الداعمة لبرنامج الرعاية الصحية المميز لكبار السن Medicare Advantage. وأنشأنا حسابات الادخار المخصصة للرعاية الصحية HSA، ولكننا لم نستطع إقناع الكونغرس بإجبار برنامج الرعاية الطبية لكبار السن على المنافسة مع شركات التأمين الخاصة.

عندما تركت الرئاسة كان أكثر من ٩٠ في المئة من منتفعي برنامج الرعاية الطبية لكبار السن تشملهم خطط تغطية تكاليف الأدوية. كما اشترك عشرة ملايين شخص ضمن شركات التأمين الصحي الخاصة من خلال برنامج الرعاية الصحية المميز لكبار السن. وامتلك حوالي سبعة ملايين أميركي حسابات ادّخار للرعاية الصحية، وأكثر من ثلثهم لم يكن لديهم تأمين صحي من قبل.

بفضل التنافس بين شركات القطاع الخاص، انخفض متوسط القسط التأميني الشهري لتغطية أدوية الوصفات من القيمة الأولية ٣٥ دولاراً إلى ٢٣ دولاراً بعد مرور عام واحد. ومع قدوم عام ٢٠٠٨، انخفضت القيمة الأولية من ٦٣٤ مليار دولار إلى ٤٠٠ مليار دولار. أصبح برنامج تغطية تكاليف أدوية الوصفات تحت برنامج الرعاية الطبية لكبار السن من البرامج الحكومية القليلة التي تعمل بأقل من الميزانية المتوقعة، كما توّلد سوق للمؤسسات الخاصة. لقد وجّهنا نظام الرعاية الصحية الأميركي في اتجاهه الصحيح: أبعدناه عن السيطرة الحكومية ليتجه نحو الاختيارات والمنافسات المتوفرة في نظام سوق القطاع الخاص، والذي يعتبر أفضل الطرائق للتحكّم في التكاليف على المدى الطويل.

* * *

بينما كنا نصطاد السمّانى أنا وأبي في جنوب تكساس في أعياد رأس سنة ٢٠٠٤، قلت له: أنا متفائل. ثم أضفت: هذه الانتخابات الرئاسية سترسو على من يمكنه قيادة هذه الدولة، ومن يمكنه معالجة القضايا المهمة، ومن يمكنه الحفاظ على أمن الولايات المتحدة الأميركية.

كان والدي قلقاً. فلقد رأى لأشهرٍ عدة مدى مهاجمة المرشحين الديمقراطيين لي كل يوم. وكان لهذه الضربات تأثير كبير. فبعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر أظهرت استطلاعات الرأي ارتفاع النسبة إلى ٩٠ في المئة، ولكن هذه النسبة انخفضت إلى ٧٥ في المئة بعد تحرير العراق. ومع نهاية عام ٢٠٠٣، كانت النسبة في بعض

استطلاعات الرأي قد انخفضت إلى الخمسين. لقد عايش أبي هذا النمط من قبل، ففي عام ١٩٩١ ارتفعت النسبة إلى أعلى مستوياتها، ثم انهارت قبل انتخابات عام ١٩٩٢.

إلا أني أكدّت له أن صديقنا المشترك كارل دوف قد أعدّ استراتيجيةً قويةً لحملتي الانتخابية. وقلت له: لو سارت الأمور في مسارها الصحيح، فستكون النتائج مرضية؛ خاصة إذا رشّحوا هاوارد دين.

كنت أعرف المرشح الديمقراطي الأكبر لانتخابات الرئاسة، وهو الحاكمة السابق لولاية فيرمونت، من المحافل الرسمية التي حضرناها في التسعينيات. اتسم دين بالصوت العالي، والحدّة، وقلة الانضباط. وكنت اعتمد كثيراً على ترشيحه لخوض انتخابات الرئاسة.

وللأسف، تبخّرت حملة دين قبل الحصول على صوتٍ واحد. ثم حقق السيناتور جون كيري عن ولاية ماساتشوستس نصراً ساحقاً في ولاية أيوا، وفاز بالانتخابات الأولية في ولاية نيوهامبشاير، ومن ثم ترشّح لخوض انتخابات الرئاسة. كان كيري ممن شاركوا في حرب فيتنام وانتُخب سيناتوراً لأربع دورات؛ والحق أقول إن كيري اعتاد على العمل بجدّ وهو مناظر ألمعيّ، ومنافس قوي. وهذا ما جعلني اعتبره خصماً صعباً.

ولكن كانت لدى كيري أيضاً نقاط ضعف. فلقد كانت أفكاره مصبوغةً بالعمل القضائي بحكم عمله في التشريع القضائي لفترةٍ طويلة، وكان لديه سجل تصويت هو الأكثر ليبرالية في مجلس الشيوخ. في خريف عام ٢٠٠٣، صوّت ضد برنامج الدعم بقيمة ٨٧ مليار دولار للقوات في العراق وأفغانستان. وبعد فترةٍ قصيرةٍ من ترشّحه لخوض انتخابات الرئاسة، قام القائمون على حملتي الانتخابية بنشر إعلانات تشير إلى موقفه. وهو ما أجاب عليه كيري بقوله: لقد صوّتُ لصالح برنامج الدعم بقيمة ٨٧مليار دولار قبل أن أصوّت ضده.

وبمجرد سماعي خطابه تحدّثت إلى كارل، وقلت له: ها قد جاءت الفرصة الملائمة. ثم تابعت بقولي: يتوقع الشعب الأميركي من رئيسه أن يكون له موقف ثابت وأن يدافع عنه، خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بدعم القوات الموجودة في أرض المعركة. لقد أمسكنا بالفكرة ذات الحدين، واستخدمناها حتى نهاية الحملة الانتخابية.

* * *

تلقيتُ في ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٤ خطاباً من ابنتي جينا، وكانت في الفصل الدراسي الأخير بجامعة تكساس. لم تحضر جينا ولا باربرا حملتي الانتخابية عام ٢٠٠٠. كان موقفهما واضحاً بأنهما لا ترغبان في أن تكون لهما صلة بالسياسة. ولذا، كان الأمر مدهشاً لي وأنا أقرأ كلمات جينا:

والدي العزيز

لقد راودني حلم مشرق أمس، جعلني أستيقظ والدموع في عينيّ. وعلى الرغم من أني لست بالقدر نفسه الذي تتمتع به من الروحانيات، لكني أعتبر هذا الحلم إشارة. لقد عملتَ طوال حياتك لتوفّر لي أنا وباربرا كل ما نرغب به أو نحتاجه. قدّمت لنا الحب والدعم؛ وأعلم أننا كنا أمام عينيك في كل قرارٍ اتخذته.

لقد تعلمنا منك ومن أمي معنى الحب غير المشروط. فلكم رأيت أمي تقف إلى جانب أبي بكل تفانٍ وعطف، وهو يكابد مصاعب الحياة. كما رأيتك وأنت تضحي بعامٍ من عمرك مع جدي بوش الأب (جامبي)؛ كما رأيتكم وأنتم تتشاركون الغناء في ليلة الانتخابات الرئاسية. ومع بلوغي الحادية والعشرين، علمت أخيراً ما معنى الإحساس بألم الآخرين. لقد سئمت سماع الأكاذيب عنك، وأكره الناس حين ينتقدونك، كما أكره عدم مقدرة الآخرين على رؤية

الشخصية التي أحبها وأحترمها، تلك الشخصية التي أتمنى أن أكون مثلها يوماً ما. ولكل هذه الأسباب التي ذكرتها، أتمنى لو قبلت بي للعمل بدوامٍ كاملٍ لديك في الخريف، لو أردت ذلك. أرجو أن تفكر في الأمر، واطرح الأمر على أمي، ثم عُدْ إليّ بالرد. ولعلمك، فقد توقفت عن تقديم طلبات التوظيف لأي جهة في نيويورك. أعلم أني لست بالخبرة الكافية، ولكني مع بعض التدريب الملائم سأتمكّن من أن أجعل الناس يرون الأب الذي طالما أحببته. قد يبدو الأمر قراراً متسرّعاً ومندفعاً، ولكني كنت أفكر فيه بشكلٍ متواصل. أتمنى أن أقدم لك شيئاً في مقابل اثنين وعشرين عاماً أعطيتني إياها. في حلمي لم أستطع مساعدتك، ويا للأسف. ورأيت شخصاً لا يستحق الفوز بالانتخابات. وهو ما جعلني أبكي. بكيت لأجلك، ولأجل وطننا، ولإحساسي بالذنب. لا أريد لحلمي أن يصبح حقيقةً. أعلمني إذا كان بمقدوري أن أفعل شيئاً للمساعدة. سيمكننا الحديث أكثر عن الموضوع في عيد الفصح.

أحبك وأفتخر بك

مع حبي

جينا

أُصبتُ بالذهول وأنا أقرأ كلماتها الجميلة، التي عكست أيضاً رأي أختها باربرا. أدهشتني رغبتهما في المشاركة في حملتي الانتخابية، فحملتي الأخيرة ستكون الأولى بالنسبة لهما.

أول حدثٍ حضرناه سوياً، أنا وباربرا، كان سباق سيارات حضره أحد عشر ألفاً في مدينة ماركت بولاية ميشيجان، وهي مدينة شبه جزيرة شمالية، لم يزرها أي رئيس للولايات المتحدة منذ عهد وليام هوارد تافت. وقبل أن ألقي خطابي، اتّخذت باربرا مجلسها في الصف الأمامي خلف المنصة.

قام المذيع بتقديمي، ثم تلاه جلبة الجمهور. وعندما تقدمت لأواجه الميكروفون،

التفت لأنظر إلى باربرا، وكانت الدموع تسيل على وجنتيها. فبعد أربعة أعوام في الجامعة، كانت مندهشةً ومتأثرةً مع دعمها المتّقد لوالدها. وعاد ذلك بذاكرتي إلى الإحساس الذي مررتُ به عندما سمعتُ لأول مرةٍ الجمهور وهو يصفق لوالدي. لقد اكتملت الدائرة.

* * *

في بعض الأيام، كانت الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٤ أسهل بكثيرٍ من حملة عام ٢٠٠٠. استفدت من الميزات الرئاسية، وبخاصةٍ طائرة الرئاسة الأميركية Air Force One والسفينة الحاملة للرئيس Marine One. بمعنى آخر، كانت الحملة الانتخابية لعام ٢٠٠٤ أقوى، فلقد كنتُ رئيساً ومنافساً على الرئاسة؛ وهو ما أوجب عليّ إيجاد التوازن بين الحالتين.

استمددت قوتي من الأشخاص المحيطين بي، وبخاصة زوجتي لورا وابنتيّ. لكم أحببت المسيرات بالحافلة في شوارع مناطق الغرب الأوسط، حيث يقف آلاف المواطنين على جانبي طرق المدن الصغيرة. وفي إحدى جولاتنا مررنا بديك تاب، وهو طبيب القوات الجوية متعدّد المواهب، والذي رافقني إلى كل مكانٍ سافرت إليه. لقد رأيت لافتةً مكتوبةً باليد: «مرحباً بك في موطنك يا دكتور تاب». وتحتها وبخطّ صغير «ومرحباً بك أيضاً يا جورج بوش».

لم أحس بالدعم الروحي بشكلٍ أكبر مما أحسسته من داعمينا خلال جولات الحملة الانتخابية. كنت مدفوعاً بقوتهم، وكان تفانيهم هو مصدر إلهامي لكي أعمل بجهدٍ أكبر حتى لا أخذلهم. وفي مدينة بوبلار بلف بولاية ميسوري التي يسكنها ١٦٥٠٠ نسمة، حضر خطابي حوالي ٢٣ ألف شخص. وفي منطقة ويست تشستر بولاية أوهايو، احتشد ٤١ ألف شخصٍ في حديقة «صوت أميركا» Voice of America Park. ومع عرضي للمواقف المتضاربة لجون كيري، كان تلويح الأشخاص لي في خضم التقلّبات السياسية المفاجئة في الأفكار. ارتدى بعض الأشخاص

أشكالاً بشرية على هيئة قلاّبات، كما التقيت بجماعات تأييد جديدة مثل «المحامون المؤيدون لبوش»، والفرق الرياضية (Buckeyes) المؤيدة بوش، والجماعة المفضلة لباربرا وجينا «التوائم الداعمون بوش».

كما كان تشجيعي كبيراً مع اللافتات التي كُتب عليها «باركك الرب». وعندما كنت التقط الصور، وأصافح الجموع الواقفة خلف الحواجز اندهشت للأعداد التي كانت تردّد نفس الكلمة: أدعو لك بالتوفيق. وكنت أرد عليهم بأن دعواتهم هي أروع هدية، والقوة التي أستند إليها. كما أحسست بالأمل، مع رؤية هؤلاء الناخبين، بأن بعض داعمي بوش، ممن مكثوا في منازلهم بعد تسرّب خبر جريمة القيادة تحت تأثير الكحول عام ٢٠٠٠، سيعودون مرةً أخرى للإدلاء بأصواتهم في صناديق الاقتراع عام ٢٠٠٤.

* * *

كان لدى جون كيري أعداد ضخمة من الداعمين. قام أحد صنّاع السينما في هوليوود مايكل موور بإنتاج أفلامٍ وثائقيةٍ مزعومة، لم تكن سوى دعاية للحملة الانتخابية. وفي المقابل، قال كيريٌ إن مسؤولي الترفيه في هوليوود قد عرضوا قلب وطننا وروحه. تم تمويل كيري بمبالغ طائلة من المتبرعين الأثرياء أمثال رجل الأعمال جورج سوروس من خلال منظمات ٥٢٧، وهي منظمات لرفع التمويل، تخادع قوانين الدعم المالي للحملات الانتخابية، وحازت دعماً كبيراً من الديمقراطيين[١]. كما قام بعض الموظفين الخائنين في وكالة المخابرات الأميركية CIA بتسريب بياناتٍ من شأنها وضع الإدارة الرئاسية في موقفٍ حرج.

وجاء الهجوم من التقرير الكاذب من دان راذر، الذي يستند إلى وثائق مزوَّرة تفيد بأنني لم أؤدّ واجبي في الخدمة العسكرية في الحرس الوطني بالقوات الجوية لولاية تكساس Texas Air National Guard.

(١) استخدم الجمهوريون دعم منظمات ٥٢٧ أيضاً ولكن الديمقراطيين كانوا يحوزون ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه الجمهوريون، وهو ما يعادل حوالي ١٨٦,٨ مليون دولار إلى ٦١,٥ مليون دولار.

وعلى الرغم من اهتمام وسائل الإعلام بالتحقّق من مسألة تأديتي للخدمة العسكرية، إلا أن اهتمامهم كان أقل كثيراً حين وصل الأمر لسؤال كيري عن الأمر. في شباط/فبراير ٢٠٠٤، كان لقائي التلفزيوني لمدة ساعة مع تيم روسرت. وبعد توجيه أسئلته القوية فيما يخص قضية العراق، عاجلني بسؤال عما إذا كنتُ أستطيع تقديم مستندات تأديتي للخدمة العسكرية للعلن أم لا. ووعدته بأني سأفعل. وبعد فترةٍ قليلة، طلبت من وزارة الدفاع الأميركية استصدار كل المستندات المتعلّقة بخدمتي العسكرية في الحرس الوطني.

وكان مما قاله لي تيم بعد انتهاء البرنامج: لقد أبليت جيداً اليوم، سيدي الرئيس. فرددت عليه: «شكراً لك، كتيم». ثم تابعت بقولي: «بالمناسبة، أتمنى أن تكون بالشدّة نفسها حين تسأل جون كيري عن سجلاته العسكرية كما سألتني». فأجابني: صدّقني، سنفعل.

وبالفعل قام تيم باستضافة جون كيري بعد شهرين، وسأله عن سجلات تأديته للخدمة العسكرية. ووعد كيري بعرضها على العلن خلال حملته الانتخابية، ولكنه لم يفعل.

وفي المؤتمر الوطني الديمقراطي Democratic Convention National المنعقد في بوسطن، قام كيري بدعوة زملائه البحّارة، ووافق على ترشّحه لخوض انتخابات الرئاسة بأداء التحية العسكرية له. وفي كلمة الاستهلال صرح بقوله: أنا جون كيري، وأنا مستعد لبدء المعركة الانتخابية. دعا خطابه إلى قول الحقيقة للشعب الأميركي ووعد بأنه سيكون القائد الذي سيجنّب البلاد ويلات الحرب.

وباءت محاولات كيري بالفشل في إقناع أصحاب التفكير السليم بأني قدت البلاد إلى الحرب في العراق، لأنه كان عضواً في مجلس الشيوخ عام ٢٠٠٢، وكانت لديه الصلاحيات للاطلاع على التقارير الاستخباراتية نفسها التي كانت ترد إلي. وقد أعلنت أيضاً بأنه كان ممن صوّتوا بالدعم لقرار الحرب.

لقد أوقع كيري نفسه في موقف المتناقض. وفي إحدى وقفات حملتنا الانتخابية في ولاية نيوهامبشاير قلت للجمهور: لم يجب خصمي بعد على سؤالي، لو كان يعلم ما نعلمه الآن، هل كان سيدعم قرار الحرب على العراق أم لا؟ وبعد أيامٍ قليلة، التقط كيري الطعم وهو يلقي خطابه على حافة الوادي الكبير Grand Canyon، حيث أجاب: نعم؛ كنت سأدعم قرار الحرب.

وهو ما كان اعترافاً مذهلاً. فبعد توجيهه الدائم لي بتهمة جرّ الولايات المتحدة إلى الحرب ـ وهو ما يعتبر أخطر ادّعاء يمكن استخدامه ضد قائد دولة ـ اعترف جون كيري بأنه كان سيدعم قرار الحرب مرةً أخرى لو واتته الفرصة لذلك.

كان مهماً رفع القضية ضد كيري، ولكن الأهم من ذلك هو الإظهار للناخبين بأنني أستمر في امتلاك زمام المبادرة في القضايا الكبرى. لقد رأيت كثيراً من أصحاب هذه المناصب مثل آن ريتشاردز تدير حملات عكسية، وقد أخذت على نفسي عهداً بألا أكرر خطأهم. قلت إن السبب الوحيد للالتفات إلى الخلف في حملة هو تحديد من هو الأفضل لقيادتنا إلى الأمام، وبالرغم من أننا قد أتممنا الكثير من العمل لا يزال هناك الكثير لننجزه.

لقد نسّقتُ جدول أعمالٍ طموحاً للفترة الثانية، أثناء المؤتمر الوطني الجمهوري في نيويورك، وأثناء خطاباتي عبر البلاد. كما تعهّدت بموجز الضمان الاجتماعي، وإصلاح نظام الهجرة، وترميم قانون الضرائب، مع الاستمرار في مشروع (لا طفل مهمل) والمبادرة العقائدية في تنفيذ إصلاح العناية الصحية، والأهم من ذلك كله محاربة الإرهاب.

سافرت عبر البلاد، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، خلال الخريف، مع توقفٍ لأجل المناقشات الرسمية الثلاث. عُقِدت المناقشة الرسمية الأولى في جامعة ميامي، وقد كانت المناقشة قضيةً مهمةً لجون كيري. لقد كان سلوكه يشبه الملاكم الذي يهاجم من زاويته ويلكم بشراسة بعد كل سؤال. كانت

تقنية فعالة، وقضيت كثيراً من الوقت محاولاً ترتيب الهجمات التي يجب أن أرد عليها.

ربحت في إحدى الجولات، عندما اقترح كيري أنه يجب أن يخضع العمل العسكري الأميركي لاختبار عالمي، وقد رددتُ بدوري إنني لست واثقاً تماماً بما تعنيه، متجاوزاً الاختبار العالمي... موقفي هو أن تتخذ إجراءات وقائية لحماية الشعب الأميركي.

بينما كنت متوجهاً بالسيارة إلى التجمّع بعد المناظرة، تلقيتُ مكالمةً هاتفيةً من كارِن هيوز، وأخبرتني أن الشبكات التلفزيونية بثّت لي صوراً تُظهر تعابير وجهي عندما كان كيري يتكلم، ومن الواضح أنني لم أحسن التصرّف عندما عجزت عن إخفاء آرائي بإجاباته. وتماماً، مثلما غطت تنهيدات آل غور أخبار الصحف في مناظرة العام ٢٠٠٠، كذلك كان عبوسي في عام ٢٠٠٤. في اعتقادي أن المسألة لم يكن فيها عدل في المرتين.

والأغرب هو القصة التي تكشّفت بعد بضعة أيام، عندما ظهرت لي صورة من المناظرة تبرز تجعّداً في أسفل بذلتي. وخلص أحدهم إلى فكرة أن هذا التجعّد كان في الواقع جهاز إرسالٍ مخفياً ومتصلاً بكارل روف.

انتشرت الشائعة عبر الإنترنت وأصبحت النبأ المثير بين منظّري المؤامرة. كانت عبارة عن ذوقٍ مبكرٍ لظاهرة في القرن الحادي والعشرين: «المدوّنون السياسيون».

وفي استعادة للأحداث كان الشيء السيئ أنه لم يكن لديّ جهاز إرسال، وإلا لكان بإمكان كارل أن يطلب مني التوقّف عن العبوس.

المناظرة الثانية والثالثة كانتا في أفضل حال. كان وجهي ساكناً، وكانت بذلتي مكوية، وكنت حاضراً بشكلٍ أفضل لصد لكمات كيري. ولكن، وكما هي الحال في الغالب في المناظرات الرئاسية، كانت الضربة الأكثر إضراراً من نفسي؛ ففي مناظرتنا

الأخيرة في تيمبي أثار المشرف بوب شيفر موضوع الزواج المثلي؛ وسأل: هل تعتقد أنَ الشذوذ الجنسي هو خيار؟

«لا أعرف» كانت إجابتي. أنا أعرف أنه يجب علينا أن نختار في أميركا، وهذا الخيار هو أن نعامل الناس بتسامحٍ واحترامٍ وكرامة.

بعد ذلك أعربتُ عن اقتناعي بأن الزواج هو بين الرجل والمرأة، وقلت إن القانون ينبغي أن يعكس تلك الحقيقة الأزلية.

أما كيري، والذي هو أيضاً ضد الزواج من الجنس نفسه فبدأ إجابته: كلنا أولاد الرب، بوب وأنا نعتقد أنك إذا كنت ستكلم ابنة ديك تشيني السحاقيّة، فستقول لك إنها الآن ما كانت سابقاً، وإنها خُلِقت سحاقيّة.

ألقيتُ نظرةً على لورا، وباربرا، وجينا في الصف الأول. كان بإمكاني رؤية الصدمة على وجوههن. أخبرتني كارن هيوز لاحقاً أنها سمعت صيحاتٍ جلية. هناك قانون غير مكتوب في السياسة الأميركية يقول إن أولاد المرشّحين هم خارج اللعبة. كانت إثارة جون كيري موضوع الحياة الجنسية لابنة شريكي في الانتخابات في نقاش على التلفزيون الوطني مثيرةً للقلق. لم تكن تلك المرة الأولى. ففي مناقشة نائب الرئيس قبل أسبوع، وجد شريك كيري الانتخابي، السناتور جون أدواردز من شمال كارولينا، طريقةً لطرح القضية. أن يُذكر الموضوع مرَةً يمكن اعتباره حادثاً، أما أن يُذكر مرتين فهذه مؤامرة.

أمل كيري وإدواردز كسب تأييد المحافظين الذين لا تعجبهم توجهات ابنة ديك. وبدلاً من ذلك، ظهرا بشكلٍ قاسٍ ولئيم. لين تشيني تحدّثت بالنيابة عنا جميعاً عندما وصفت الأمر بخدعةٍ سياسيةٍ رخيصةٍ وتافهة.

* * *

في تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠٠٠، تفاجأنا بكشف قضية قيادتي تحت تأثير الكحول عندما كنت شاباً. وفي العام ٢٠٠٤، أتت من أسامة بن لادن. في ٢٩

تشرين الأول/أكتوبر، ظهر شريط لزعيم القاعدة يهدد الأميركيين بمانهاتن أخرى ويسخر من رد فعلي على ٩/١١ في أحد الصفوف في فلوريدا. بدا كأنه يستعمل كلمات مايكل مور. قلت إن الأميركيين لن يخافوا أو يتأثروا من عدوٍ لبلادنا. وأصدر جون كيري بياناً مماثلاً.

اليوم الانتخابي الأخير من مسيرتي السياسية في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤ بدأ على متن المروحية الرئاسية في رحلةٍ من دالاس إلى المزرعة. كنا انْهينا للتو مهرجاناً عاطفياً مع ثمانية آلاف مناصر في الجامعة المنهجية الجنوبية في محطتي السابعة لنهار طويلٍ ورحلة ٢٥٠٠ ميل في أنحاء البلاد.

استيقظنا، لورا، باربرا، جينا وأنا، عند الفجر في اليوم التالي. أدلينا بأصواتنا بحماسةٍ في إطفائية كراوفورد، أربعة أصوات صلبة في خانة بوش ـ تشيني. قلت للمناصرين المجتمعين أنا أثق بحكم الشعب الأميركي. وأملي طبعاً أن تنتهي هذه الانتخابات الليلة.

راجعتُ الأمر مع شقيقي جب. وقال الحاكم: «فلوريدا تبدو جيدة يا جورج».

ثم تحدثتُ إلى كارل. كان قلقاً بعض الشيء من تصويت أهالي أوهايو، فانطلقنا في محطة حملتي العشرين إلى ولاية بوكيي. بعد شكر المتطوعين والرد على الهواتف في كولومبس، باشرنا رحلة العودة إلى العاصمة.

أثناء هبوط الطائرة في قاعدة أندروز الجوية، أتى كارل إلى المقصورة الأمامية. كانت استطلاعات الرأي للجولة الأولى قد وصلت. قال إنها مروعة.

شعرتُ كأنه لكمني في معدتي. كنت متأخراً بأكثر من عشرين نقطة في معركة ولاية بنسلفانيا. الولايات الجمهورية الصلبة مثل الميسيسيبي وكارولينا الجنوبية نتائجها متقاربة جداً. إذا كانت الأرقام صحيحة، سأُمنى بهزيمةً ساحقة.

خرجتُ من الطوافة الرئاسية وأنا في حالة ذهول. بدت رحلة الدقائق العشر إلى البيت الأبيض كأنها ساعات. أخيراً حطّت المروحية في الحديقة الجنوبية. احتشد

السلك الصحافي للحصول على لقطةٍ جيدةٍ لأخبار المساء. وكان لدى كارن هيوز نصيحة جيدة: ليبتسم الجميع.

صعدتُ إلى الطابق العلوي للمنزل وتنقلت في أرجاء غرفة المعاهدة. لم أستطع تصديق الأمر. بعد كل العمل الجاد خلال أربع سنوات، والشهور القاسية في الحملة الانتخابية، سيتم التصويت لإبعادي عن الرئاسة بشكلٍ حاسم. أعرف أن الحياة ستستمر، كما هي الحال مع أبي. لكن الرفض كان مؤلماً.

قبل مرور وقتٍ طويل، اتصل كارل. كان يصارع الأرقام وكان مقتنعا بأن المنهجية مليئة بالعيوب. شعرت بالارتياح والغضب في نفس الوقت. خشيت أن تضعف الأرقام الوهمية معنويات المناصرين وتخفض نسبة الإقبال في المناطق الزمنية حيث الصناديق لا تزال مفتوحة. كنا نفكر بالشيء نفسه: ها هو الأمر يحدث ثانيةً.

في الثامنة مساء، أُغلقت صناديق الاقتراع في ولاية فلوريدا. وكما توقع جب في ذاك الصباح، كانت الأرقام واعدة. نتائج الاستطلاع في كارولينا الجنوبية والميسيسيبي أظهرت بسرعة التضارب السابق، كانتصارين صلبين في كلا الولايتين. نتائج الساحل الشرقي أتت كما كان متوقعاً. ظهرت النتائج في أربع ولايات إيوا، نيو مكسيكو، نيفادا وأوهايو. كن مهلمان مدير حملتي الرائع الذي نظّم جهداً تاريخياً لزيادة الاصوات، كان واثقاً من أننا فزنا في الولايات الأربع كلها. كل ولايةٍ منها نُسبت لصالحنا في شبكةٍ إخباريةٍ واحدةٍ على الأقل. ولكن بعد الفشل الذريع في عام ٢٠٠٠، لم تكن أي شبكة تريد أن تكون الأولى لوضعي في القمة.

كان التركيز على أوهايو وأصواتها الانتخابية العشرين. وكنت أتقدم بفارقٍ جيدٍ من ١٢٠ ألف صوت. دقّت الساعة منتصف الليل، الواحدة فجراً، الثانية فجراً. عند حوالي الثالثة إلا الربع، اتصل بي توني بلير، وقال لي إنه أوى إلى الفراش في لندن

معتقداً أنني خسرت، وكان يجهّز نفسه للتعامل مع الرئيس كيري. ثم قال: لم تفز فحسب، بل حصلت على أصوات أكثر من أي رئيسٍ في التاريخ.

أجبته: لو تعترف حملة كيري بذلك، لأني لم أبقَ صاحياً إلى مثل هذه الساعة منذ أيام الجامعة.

حوالي الساعة الرابعة، بدأنا نسمع إشاعات عن تخطيط كيري وإدواردز برفع دعوى قضائية في محاولةٍ لكسب الأصوات في أوهايو. في إعادة لمشهد عام ٢٠٠٠، شجّعني بعض المستشارين على إعلان الانتصار على الرغم من أن الشبكات الإخبارية لم تعلن نهاية السباق ومنافسي لم ينسحب بعد. قبل أربع سنوات، كان جيب هو الذي نصحني بحكمةٍ ألا ألقي خطابي في أوستن. وفي هذه المرة لورا هي التي منعتني بقولها: جورج لا يمكنك الخروج إلى هناك، انتظر حتى يتم إعلان فوزك رسمياً.

وفي الوقت نفسه تقريباً، حصل دان بارليت على معلومةٍ قيّمة. أجرت نيكول والاس، مديرة العلاقات في حملتي الانتخابية، اتصالاً بين دان ومساعد كيري مايك مكوري. وقد أخبره مكوري بأن السيناتور كيري على استعداد لأخذ القرار الصحيح إذا أعطيناه الوقت الكافي. ونصح دان بعدم الضغط على الرجل.

مرةً أخرى، خاب أمل الجمهور وهو ينتظر المرشح الذي لم يصل أبداً. لقد رغبت بشدة أن أمنح المؤيدين لي حفلة النصر التي حُرِمنا منها عام ٢٠٠٠، لكن الأمر لم يكن مقدّراً. تماماً بعد الخامسة صباحاً، أرسلت أندي كارد بدلاً مني. قال: قرر الرئيس بوش أن يمنح السيناتور كيري بعض الوقت ليعكس نتائج هذه الانتخابات. إننا مقتنعون بأن الرئيس بوش فاز بالانتخابات الثانية بـ٢٨٦ صوتاً انتخابياً على الأقل.

* * *

في صباح اليوم التالي الساعة الحادية عشرة ودقيقتين، دخلت مساعدتي

الشخصية آشلي كافانوف المكتب البيضاوي، وقالت: سيدي الرئيس، السيناتور كيري ينتظر على الخط.

كان جون لطيفاً. أخبرته بأنه كان خصماً جديراً بالمنافسة وبأنه أدار حملةً انتخابيةً حماسية. استدعيت لورا وعانقت المجموعة الصغيرة من كبار المساعدين المجتمعين في المكتب البيضاوي. قطعت الممر الذي يصل إلى مكتب ديك، حيث صافحته بحرارة. لم يكن ديك من النوع المحب للمعانقات.

وأخيراً، اتصلت هاتفياً بوالديّ. بعد أن سهرا الليلة الفائتة بأكملها، خرجا من البيت الأبيض في الصباح الباكر وعادا إلى هيوستن دون معرفة النتائج. قال أبي: «تهانيّ يا ولدي»، قالها بارتياح أكثر من الفرح. لم نتحدث عن انتخابات عام ٢٠٠٠، لكنها لم تكن الانتخابات الوحيدة التي في أذهاننا. حيث تذكر كلانا الألم الذي تحمّلناه عام ١٩٩٢. لقد كان سعيداً جداً لأنني لم أمر بالظروف التي مرّ بها من قبل.

تحوّلت ليلة انتخابات ٢٠٠٤ إلى نصرٍ عظيم، على الرغم من بدايتها اليائسة. كنت أول رئيس يفوز بأغلبية الأصوات الشعبية منذ انتخاب والدي عام ١٩٨٨. وقد كسب الحزب الجمهوري في كلّ من مجلسي النواب والشيوخ كما في عام ٢٠٠٢.

عقدتُ في اليوم التالي من تنازل كيري مؤتمراً صحفياً، سألني أحد الصحفيين إن كنت أشعر بحريةٍ أكبر.

فكرتُ بجدول الأعمال الطموح الذي أوجزته طوال السنوات السابقة وقلت: «لقد كسبت رصيداً في الحملة. إنه رصيد سياسي، وأنا أنوي إنفاقه».

* * *

حسب ما أتذكر، فإن الضمان الاجتماعي كان هو الخط الثالث في السياسة الأميركية، الذي أُحسنت إدارته ونجحت.

في العام ٢٠٠٥، لم أكتفِ بملامسة ذاك الخط فحسب، بل احتضنته، وكان

ذلك لسبب واحد: ليس عدلاً أن نجعل جيلاً من الشباب ينفق على نظامٍ محكومٍ بالإفلاس.

أنشأ فرانكلين روزفلت في العام ١٩٣٥ نظام الضمان الاجتماعي الذي يتطلب الدفع المستديم. الشيكات التي يقبضها المتقاعدون ممولة من جداول الضرائب التي يدفعها عمال اليوم. ويعمل النظام بشكلٍ جيدٍ عندما يكون هناك أربعون عاملاً مقابل كل مستفيد، كما كانت الحال عام ١٩٣٥. ومع مرور الوقت، تغيرت التركيبة السكانية. ارتفع معدل العمر المتوقع، وانخفضت نسبة الولادات. ونتيجة لذلك، أصبح هناك في عام ٢٠٠٥ ثلاثة عمال يدفعون للضمان الاجتماعي مقابل كل مستفيد. في الوقت الذي يتقاعد فيه عامل بدأ العمل في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ستكون النسبة أصبحت اثنين إلى واحد.

ولتفاقم المشكلة أكثر، حدّد الكونغرس فوائد الضمان الاجتماعي لتنمو أسرع من التضخّم. في بداية عام ٢٠١٨، سيحصل الصندوق على أموالٍ أقل مما يتوجّب عليه دفعه. سيزيد العجز سنوياً حتى يصل إلى الإفلاس عام ٢٠٤٢. بدا عام ٢٠٤٢ بعيداً إلى حين أجريت الحسابات. هذا الوقت هو وقت تقاعد ابنتيّ المولودتين في العام ١٩٨١.

بالنسبة لشخص يريد تولي قضايا كبيرة، لم يكن هناك أكبر من إصلاح الضمان الاجتماعي. وقررت أن هذا الوقت هو أفضل وقتٍ لإطلاق الجهد، وقد أُعيد انتخابي حديثاً.

بدأت بوضع ثلاثة مبادىء للإصلاح: أولاً، لا شيء سيتغيّر بالنسبة لكبار السن أو للأشخاص الذين سيتقاعدون قريباً. ثانياً، سأبحث عن حلولٍ للضمان الاجتماعي بدون زيادة الضرائب التي ارتفعت أصلاً من اثنين إلى اثني عشر في المئة. ثالثاً، يجب أن يكون للعمال الصغار إمكانية لكسب عائدٍ أفضل من خلال استثمار جزءٍ من ضرائب الضمان الاجتماعي في صندوق تقاعدٍ شخصي.

ستكون حسابات التقاعد الشخصية هي الضمان الاجتماعي الجديد، لكن

معظم الأميركيين مطّلعون على المفهوم. مثل مبدأ حسابات التقاعد 401(K)، يمكن استثمارها في مزيجٍ آمن من الأسهم والسندات، سينمو مع الوقت وسيستفيد من الفائدة المركبة. ستجري إدارة الحسابات من قِبَل مؤسساتٍ ماليةٍ ذات سمعةٍ حسنة، وتتقاضى رسوماً متدنية، وسيحظر سحب المال قبل بلوغ التقاعد. حتى مع معدل معتدلٍ للعوائد بحدود ٣ في المئة فإن الحسابات سوف تتضاعف كل أربعة وعشرين عاماً. وعلى النقيض من ذلك فإن عوائد الضمان الاجتماعي البالغة ٢,١ في المئة ستتطلب ستين عاماً لتتضاعف.

وبخلاف فوائد الضمان الاجتماعي، فإن حسابات الضمان الاجتماعي الشخصية ستكون أصولاً مملوكةً لعمالٍ بعينهم وليس للحكومة، كما يمكن انتقالها من جيلٍ إلى آخر.

عقدت في بدايات العام ٢٠٠٥ اجتماعاً مع زعماء الحزب الجمهوري لمناقشة استراتيجيتنا التشريعية، وأخبرتهم أن تجديد الضمان الاجتماعي من أولوياتي. وكان رد الفعل فاتراً على أحسن تقدير. قال أحدهم: سيدي الرئيس، هذا ليس موضوعاً مألوفاً، إن الحديث عن الضمان الاجتماعي سيكلّفنا المقاعد.

أجبته على الفور: «كلا، إنّ فشلنا في معالجة هذا الموضوع هو الذي سيكلّفنا المقاعد».

كان واضحاً أنهم كانوا يفكرون بعاميْ الدورة الانتخابية في كابيتول هيل. وكنت أفكر بمسؤوليتي كرئيسٍ لمعالجة موضوعٍ مؤثرٍ على آفاق البلاد على المدى البعيد، وذكّرتهم بأنني استخدمت هذا الموضوع في حملتيّ الانتخابيتين. وأن الموضوع لن يسوء أكثر إذا قمنا بحله، وسنقدم للبلاد خدمةً كبيرة، وفي نهاية الأمر فإن السياسة الجيدة وُجدت للسياسيين الأكفاء.

قال أحدهم: إذا مضيتَ بالموضوع سنكون وراءك، لكننا سنكون وراءك بعيداً.

* * *

أظهر لي الاجتماع مع الجمهوريين في الكونغرس صعوبة المهمة بخصوص الضمان الاجتماعي، فقرّرتُ المضي قُدُماً في كل الأحوال. عندما أنظر الى فترة رئاستي، لا أريد أن يُقال إني تهرّبت من قضية مهمة.

عام ٢٠٠٥، قلت في خطابي الموجّه للاتحاد: «كان الضمان الاجتماعي نجاحاً معنوياً عظيماً في القرن العشرين، ويجب أن نقدّر أهدافه السامية في هذا القرن». واستطردت: «والنظام، على أي حال، بشكله الحالي، يتجه نحو الإفلاس. وعلينا أن نتّحد معاً لإنقاذ الضمان الاجتماعي».

في اليوم التالي، بدأتُ سلسلةً من الرحلات لرفع مستوى الوعي حول مشكلة الضمان الاجتماعي، ولدفع الناس للإصرار على التغيير. ألقيتُ خطابات، وذهبت إلى قاعات المدن، حتى أني أحييت مناسبةً مع المستفيدة المفضّلة لديّ من الضمان الاجتماعي، وهي والدتي. قالت أمي: أنا هنا لأني قلقة على أحفادي السبعة عشر، وزوجي أيضاً قلق. لن يكون لديهم ضمان اجتماعي.

الرحلة التي لن أنساها كانت إلى مصنع لتصنيع سيارات نيسان في كانتون بولاية ميسيسيبي. كان كثير من الحضور أميركّيين من أصل أفريقي. سألتهم: «كم منكم يستثمر أموالاً في حسابات التقاعد؟»، ارتفعت أغلب الأيادي في القاعة. أحببت فكرة الناس الذين لم يتعوّدوا أن يمتلكوا أصولاً، أصبح لديهم سلّة بيض ملكاً لهم. وفكرت أيضاً بكمية الأشياء الممكن تحقيقها. الضمان الاجتماعي غير عادل خصوصاً مع الأميركيين من أصول أفريقية؛ لأن معدل حياتهم المتوقع أقصر، إن العمال السود الذين يقضون حياتهم وهم يدفعون لصندوق الضمان الاجتماعي، يحصلون على تعويضات أقل من العمال البيض بما معدله ٢١ ألف دولار للدخل نفسه. الحسابات الشخصية، التي يمكن تمريرها إلى الجيل التالي ستقطع شوطاً طويلاً للحد من هذا التفاوت.

في ٢٨ نيسان/أبريل، طلبتُ عقد مؤتمر صحفي في وقت الذروة لطرح اقتراح

محدّد. الخطة التي قرّرت اتباعها هي من بنات أفكار أحد الديمقراطيين، وهو روبرت بوزن. اقتراحه المعروف بالفهرسة التصاعدية، يضبط الفوائد لتزيد بسرعة للفئة الفقيرة من الأميركيين، وبشكلٍ أبطأ للفئة الأغنى. وهناك سلّم تصاعدي لمن هم بين الفئتين. بتغيير صيغة نمو الفوائد، ستقضي الخطة على معظم عجز الضمان الاجتماعي. وبالإضافة إلى ذلك، سيحظى كل الأميركيين بفرصة كسب عائداتٍ أعلى من خلال حسابات التقاعد الشخصية.

كنت آمل أن يتبنّى الجانبان الاقتراح. سيكون الجمهوريون مسرورين لأننا استطعنا تحسين توقعات الميزانية بشكلٍ كبيرٍ بدون زيادة الضرائب. ويجب أن يشعر الديمقراطيون بالسرور بالإصلاح الذي أنقذ الضمان الاجتماعي، جوهرة تاج الصفقة الجديدة، بتقديم أكبر الفوائد إلى الفقراء والأقليات والطبقة العاملة، وهي الفئات التي يدّعون تمثيلها.

دفع فريقي التشريعي[1] الخطة بقوة، لكنني عملياً لم ألقَ أي دعم. ادّعى قادة الديمقراطيين في مجلسيْ النواب والشيوخ أني أريد خصخصة الضمان الاجتماعي. وكانت هذه اللغة مجرّبة في استطلاعات الرأي والهدف منها إخافة الناس. لم يكن ذلك صحيحاً، فخطتي أنقذت وحدّثت الضمان الاجتماعي، وأعطت الأميركيين فرصةً لتملّك جزءٍ من ضمانهم الاجتماعي. الخطة لم تخصخص الضمان الاجتماعي.

لمست وجود شيء ما أوسع وراء معارضة الديمقراطيين. أخبرني آل هوبارد مدير المجلس الاقتصادي القومي عن اجتماع عُقِد في الكابيتول هيل. قال له سيناتور ديمقراطي بارز: «أريد أن أساعد في هذا الشأن، لكن زعماءنا أوضحوا لنا أنه ليس من المفترض أن نتعاون».

جاءت معارضة الديمقراطيين الصلبة للضمان الاجتماعي كتناقضٍ صارخٍ مع

(١) فريق الضمان الاجتماعي كان بقيادة وزير الخزانة جون سنو ومستشاري البيت الأبيض، أندي كارد وكارل روف وآل هوبارد وكيث هينيسي وتشاك بلاهاوس.

موافقة الحزبين على برنامج (لا طفل مهمل) التي استطعت صنعها خلال سنواتي في تكساس. شعرت بخيبة أملٍ من التغيير، وتساءلت دوماً عن سبب حدوثه. أعتقد أن بعض من كانوا على الجانب الآخر من الممر، لم ينسوا بعد انتخابات العام ٢٠٠٠، وكانوا مصمّمين على عدم التعاون معي. وشعر بعضهم الآخر أني قدت حملةً ضد شاغلي المناصب الديمقراطيين في عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٤ مساعداً بذلك مرشحين جمهوريين على إزاحة رموزٍ ديمقراطيين أمثال السيناتور ماكس كليلند من جورجيا وزعيم الأغلبية في الكونغرس توم داشلي.

لا شك أني أتحمّل بعض المسؤولية أيضاً، ولست نادماً على دعم حملات زملائي الجمهوريين. لقد أوضحت دائماً عن نيتي زيادة قوة حزبنا في واشنطن. ومع استعدادي صقل التشريع لإزالة مخاوف اليمقراطيين، فإني لن أساوم على مبادئي، وهو ما اعتقد البعض أني سأفعله مقابل تعاونهم. في موضوع الضمان الاجتماعي، يمكن أن أكون أسأت قراءة التفويض الانتخابي، بدفعي موضوعاً لم يكن يحظى أصلاً بموافقة الحزبين. ومهما كانت الأسباب، فإن عدم توافق الحزبين كان سيئاً لإدارتي، وسيئاً للبلد أيضاً.

بدون وجود ديمقراطيين إلى جانبنا، كنت بحاجةٍ إلى دعم قوي من الجمهوريين لتمرير مشروع قانون الضمان الاجتماعي في الكونغرس، ولم يكن لديّ هذا الدعم. كان كثير من الجمهوريين الشباب، مثل عضو الكونغرس بول ريان من ويسكونسن، مع الإصلاح. لكن قلّة في الكونغرس كانوا على استعداد لمعالجة مثل هذه القضية الخلافية. إن انهيار إصلاح الضمان الاجتماعي هو إحدى أكبر خيبات الأمل في رئاستي. وعلى الرغم من جهودنا، خلصت الحكومة إلى عملٍ عكس ما أوصينا به تماماً. تركنا المشكلة للجيل القادم، وعندما أُعيد النظر، لم أكنْ متأكداً أنني أستطيع التصرّف بطريقةٍ مختلفة.

شرحت قضية الإصلاح على أوسع نطاقٍ وبأكثر الأساليب إقناعاً. وحاولت

جاهداً الوصول عبر الممر، وجعلت من اقتراح أحد الاقتصاديين الديمقراطيين جوهر خطتي. إن فشل إصلاح الضمان الاجتماعي يبيّن حدود سلطة الرئيس. وإذا صمّم الكونغرس على عدم التصرّف، فليس باستطاعة الرئيس فعل الكثير.

كان لعدم التصرّف ثمنه. بعد خمس سنوات من اقتراحي الإصلاح، تفاقمت أزمة الضمان الاجتماعي بشكلٍ حاد. تغيّر تاريخ الإفلاس المتوقّع من عام ٢٠٤٢ إلى عام ٢٠٣٧، وازداد العجز في الضمان الاجتماعي، وأصبحت تكلفة إصلاح المشكلة أكثر من ٢ تريليون دولار منذ إثارتي المسألة في العام ٢٠٠٥. وهذا أكثر مما أنفقنا على الحرب في العراق، وموجز الرعاية الصحية، وبرنامج إنقاذ الأصول المتعثّرة، مجتمعة. في نظر شخصٍ يشعر بالقلق من العجز الذي ستواجهه الأجيال القادمة، يأتي فشل إصلاح الضمان الاجتماعي في مرتبةٍ متقدمةٍ بين أكثر الفرص الضائعة كلفةً في العصور الحديثة.

* * *

كانت تقف على عتبة الباب، وحيدةً تحت المطر. بدت متعبةً وخائفة. قبل بضعة أيام، ودّعت بولا راندون عائلتها في مكسيكو وركبت حافلةً متّجهةً إلى هيوستن. وصلت من دون مال ولا أصدقاء. وكل ما كانت تحمله هو عنوان ٥٥٢٥ شارع برايار، وأسماء مستخدميها الجدد جورج وباربرا بوش.

كنت في الثالثة عشرة عندما فتحت الباب في تلك الأمسية من عام ١٩٥٩. وقبل انقضاء وقتٍ طويل، أصبحت بولا بمنزلة أم ثانيةٍ لإخوتي الصغار، ولأختي ولي. عملت بكدّ، لرعاية عائلتنا في تكساس، وعائلتها في مكسيكو. وفي نهاية المطاف، ابتاعت منزلاً وأتت بعائلتها إلى هيوستن. كانت دائماً تقول إن أكثر يوم في حياتها مدعاةً للفخر هو يوم رأت حفيدها يتخرّج في الجامعة. كحاكم ورئيس، كانت بولا في فكري عندما تكلّمت عن إصلاح الهجرة. قلت: القيم العائلية لا تقف عند نهر ريو غراندي.

إن معظم الذين قدموا من مكسيكو إلى الولايات المتحدة، أتوا، مثل بولا، لتأمين معيشة عائلاتهم. عمل كثيرون منهم في أعمالٍ مضنية، في قطف المحاصيل في الحقول، أو في وضع القطران على السطوح تحت شمس تكساس الحارقة. ومثل بولا، أيضاً، حصل بعضهم على إجازات عملٍ دائمة. وأتى آخرون كعمالٍ مؤقتين من خلال برنامج براشيرو. وعبر بعضهم الحدود بطريقةٍ غير شرعية.

على مدى العقود الأربعة التالية، ازداد حجم الاقتصاد الأميركي من أقل من ٣ تريليون دولار إلى أكثر من ١٠ تريليون دولار. الحاجة إلى العمال ارتفعت بشدة. وعلى الرغم من ذلك، كانت قوانين الهجرة والتوظيف بطيئةً في التغير. لم يُستبدل برنامج براشيرو الذي انتهت صلاحيته في العام ١٩٦٤، ولم يزد إصدار تأشيرات العمل الدائمة بسرعةٍ توازي ارتفاع الطلب على العمالة. ومع عدم وجود طريقةٍ عمليةٍ لدخول البلد بطرائق شرعية، ازداد عدد المهاجرين غير الشرعيين.

نشأت صناعة خفية على طول الحدود لتزوير الوثائق وتهريب المهاجرين، عُرفت بالـ«كويوتي». حشروا الناس في صناديق السيارات أو تركوهم ليقطعوا أميالاً في الصحراء الحارقة. كان عدد الوفيات مروّعاً. وعلى الرغم من ذلك، استمر المهاجرون المصمّمون على تأمين معيشة عائلاتهم، يتقاطرون.

بحلول الوقت الذي ترشحتُ فيه للرئاسة، أصبحت الهجرة غير الشرعية مشكلةً خطيرة، وكانت تزداد سوءاً. كان اقتصادنا بحاجةٍ إلى عمال، لكن قوانيننا كانت تُقوَّض، وحقوق الإنسان تُنتهك. في حملتي الانتخابية في العام ٢٠٠٠، قررت إيجاد حلّ للقضية. كنت متأكدا من إمكانية إيجاد حل عقلاني يخدم مصالحنا الوطنية ويحافظ على قيمنا.

كان الرئيس المكسيكي فينسنتي فوكس شريكي الأول في إصلاح نظام الهجرة. فينسنتي وزوجته مارتا كانا ضيفيْنا في أول عشاء دولةٍ رسمي أقمناه، لورا وأنا. في ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، ناقشتُ إمكانية إنشاء برنامج عمالةٍ مؤقتٍ يسمح للمكسيكيين

بدخول الولايات المتحدة بشكلٍ قانوني والعمل بوظيفةٍ معيّنةٍ لفترةٍ محدّدة. رحب فينستي بالفكرة، لكنه أراد المزيد. أعرب عن أمله في أن تجنّس أميركا كل المكسيكيين الموجودين في الولايات المتحدة، بسياسةٍ أسماها التسوية. وأوضحت له أن ذلك لن يحدث. اعتقدت أن العفو، الذي سيحوّل المهاجرين غير الشرعيين إلى مواطنين بطريقةٍ تلقائية، سيقوّض سلطة القانون ويشجع أكثر على الهجرة غير الشرعية.

ثم أتت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر، وكانت أهم مخاوفي أن يستطيع الإرهابيون التسلّل إلى بلادنا خلسة. وضعتُ خطة العمالة المؤقّتة جانباً وركّزتُ اهتمامي على أمن الحدود. على امتداد أربع سنوات بعد ٩/١١، عملنا مع الكونغرس لزيادة تمويل حماية الحدود بنسبة ٦٠ في المئة، ووظفنا أكثر من تسعمئة عميلٍ في دوريات الحدود الجديدة، واستخدمنا تقنياتٍ جديدةً، من ضمنها كاميرات تحت الحمراء.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥، وقّعتُ على مشروع قانون أمن الوطن الذي يؤمن ٧,٥ مليار دولار إضافية لتعزيز أمن الحدود. عمّق مشروع القانون استثمارنا في التكنولوجيا والبنية التحتية للاستخبارات على الحدود. وموّل زيادة الاستيعاب في مراكز الاحتجاز الفدرالية قرب الحدود، مما سمح للمسؤولين وقف السماح للمهاجرين غير الشرعيين الذين قبضوا عليهم بالعودة إلى المجتمع، وهي ممارسة محبطة تُعرف بالقبض والإفراج.

كنا نأمل أن يطمئن التركيز على الأمن الشعب الأميركي بأننا جادّون في منع المهاجرين غير الشرعيين من الدخول إلى البلاد، لكن التدابير الدفاعية وحدها لن تحل المشكلة. إن الاقتصاد الأميركي كالمغناطيس، يجذب الفقراء واليائسين. إنّ أطول وأعلى سور في العالم لن يوقف هؤلاء المصمّمين على تأمين العيش لعائلاتهم، والحل هو برنامج للعمالة المؤقّتة. سيدخل المهاجرون القادمون للعمل البلاد بطريقةٍ قانونية، ولن يكون عليهم التسلّل عبر الحدود. سيكون للاقتصاد إمدادات موثوقة من العمالة، وسيفقد الـ«كويوتي» ومنتهكو حقوق الإنسان أسواقهم. وسيستطيع

عملاء حرس الحدود التركيز على القبض على المجرمين، ومهربي المخدّرات، والإرهابيين.

في ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٦، ألقيتُ أول خطابٍ رئاسي لي في وقت الذروة حول موضوع الهجرة. قلت: «نحن دولة قوانين، ويجب علينا تطبيق قوانيننا. ونحن أيضاً دولة مهاجرين وعلينا الحفاظ على هذا التقليد الذي يقويّ بلدنا بطرائق كثيرة».

ثم كشفت عن خطةٍ من خمسة أجزاءٍ لإصلاح نظام الهجرة. الجزء الأول هو استثمار رئيسي جديد في أمن الحدود، بما في ذلك تعهّد بمضاعفة حجم حرس الحدود مع نهاية عام ٢٠٠٨، ونشر ستة آلاف من قوات الحرس الوطني بشكلٍ مؤقتٍ لمساندة حرس الحدود. الجزء الثاني هو البرنامج المؤقّت للعمال، والذي يشمل بطاقات تعريف غير قابلةٍ للتزوير. الجزء الثالث هو تشديد تطبيق قوانين الهجرة في الشركات الذي من شأنه الحد من الاستغلال وخفض الطلب على العمالة غير الشرعية. الجزء الرابع هو تشجيع الاستيعاب عن طريق إلزام المهاجرين تعلّم اللغة الانكليزية. خامساً وأخيرا طرحت أصعب سؤال في المناقشة: ما العمل بحوالى ١٢ مليون مهاجرٍ غير شرعي في البلاد؟

قلت: «بعض الناس في هذا البلد يقولون إن الحل هو ترحيل كل مهاجر غير شرعي، وإن أي اقتراح بأقل من ذلك يعادل العفو. أنا لا أوافق. هناك حل وسطي عقلاني بين منح الجنسية لكل المهاجرين غير الشرعيين، وبين برنامج الترحيل الجماعي». وذهبتُ إلى حد التفريق بين المهاجرين الذين عبروا الحدود مؤخّراً، وبين الذين عملوا في أميركا لسنوات عدة وزرعوا جذوراً كأعضاء مسؤولين في المجتمع. اقترحت السماح للفئة الثانية من المهاجرين غير الشرعيين بالتقدم لطلب الجنسية بعد اجتياز مجموعةٍ من المعايير الصارمة، بما في ذلك دفع غرامة، وتسوية السجلّ الضريبي، وتعلّم الإنكليزية.

بعد عشرة أيام من الخطاب، وافق مجلس الشيوخ على مشروع القانون المقدّم

من السيناتورين تشاك هاغل من نبراسكا وميل مارتينيز من فلوريدا، والذي يتّفق مع مخطّطي. لكن مجلس النواب، الذي كان يركّز على أمن الحدود فحسب، لم يستطع إتمام مشروع قانونٍ كاملٍ قبل الانتخابات النصفية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦. في ذلك الحين سيطر الديمقراطيون على الكونغرس.

* * *

بُعَيد انتخابات عام ٢٠٠٦، دعوتُ مجموعةً من كبار المشرّعين إلى المكتب البيضاوي. بعد ذلك، أزحت تيد كنيدي جانباً. للأسف تدهورت علاقتنا منذ أيام برنامج العلم لكل الأطفال. كنت أعلم أن تيد لا يوافق على قراري إزاحة صدّام حسين. لكنني شعرت بخيبة أملٍ من خطبه اللاذعة التي ادّعى فيها أني كسرت الرابط الأساسي مع الشعب الأميركي، وشبّهني بـ«ريتشارد نيكسون»، ودعا العراق «فيتنام جورج بوش».

كانت كلماته القاسية نقيض الرجل الاجتماعي المهذّب الذي عرفته من قبل. وكنتُ متفاجئاً تحديداً لمعرفتي أن تيد كان شخصياً ضحية لكثيرٍ من الحملات السياسية السيئة على مر السنين. أتأسّف لأني لم أجلس قط مع تيد للحديث عن الحرب، ولا أظن أنه كان باستطاعتي تغيير رأيه. لكنه رجل محترم، وكان يمكن لمناقشتنا أن تقنعه بتخفيف لهجته اللاذعة.

كنت آمل بأن إصلاح قوانين الهجرة من شأنه أن يوفر فرصةً لإحياء التعاون بيننا. قلت له في اجتماعنا بعد الانتخابات «أعتقد أن هذا شيء يمكننا فعله. دعنا نثبت أن المشكّكين مخطئون مرةً أخرى»، فوافقني الرأي.

تعاون تيد في ربيع عام ٢٠٠٧، مع سيناتوريْ أريزونا الجمهوريْن جون مكين وجون كيل على مشروع قانون تعزيز أمن الحدود، وخلقوا برنامج العمال المؤقّت، ووضعوا ممراً صعباً ولكن عادلاً للحصول على الجنسية للمهاجرين الذين يحترمون القانون، والذين أمضوا في أميركا عدداً من السنين.

سافرتُ عبر البلاد لترويج مشروع القانون، وبخاصةٍ تشديده على أمن الحدود والاستيعاب. المشاعر كانت قويةً على جانبي القضية. حصل المهاجرون على وظائف في جميع أنحاء البلاد، لكنهم شكّلوا ضغطاً على المدارس المحلية والمستشفيات، وقلق السكان من تغيّر مجتمعاتهم. حذّر مضيفو البرامج الحوارية على الراديو ومعلّقو محطات التلفزة، من اجتياح العالم الثالث لأميركا واحتلالها. وفي الوقت نفسه، مشت حشود كبيرة من مناصري التسوية في المدن الكبرى ملوحةً بالعلم المكسيكي في عرضٍ فظّ أساء إلى الكثير من الأميركيين.

أثّر المزاج على موجات الأثير على الموقف في واشنطن، وتعهّد أعضاء في الكونغرس: نحن لن نسلّم أميركا، واقترحوا أن يرفع أنصار الإصلاح حرف «ع» قرمزياً للإشارة إلى العفو. وعلى الجانب الآخر، شبّه رئيس الحزب الديمقراطي برنامج العمال المؤقّت بالاستعباد. ووصف رئيس أكبر اتحاد عمالي في أميركا مشروع القانون بأنه معادٍ للأسرة ومعادٍ للعامل.

في ذروة الحمّى، تلقيتُ اتصالا من تيد كنيدي بعد انتهائي من إلقاء خطابٍ في كلية الحرب البحرية في نيوبورت بولاية رود آيلند. قال لي سيدي الرئيس، عليك أن تتصل بـ«هاري ريد» وتخبره أن يبقي الكونغرس في حالة انعقادٍ في نهاية الأسبوع. ظننا أنه يلزمنا صوت أو اثنين لتمرير المشروع الشامل لقانون الإصلاح، وكان من المقرر أن يعلّق الكونغرس أعماله بمناسبة الرابع من أيلول/سبتمبر. ونظراً لأهمية التشريع، اعتقدت أنه سيكون مفيداً إعطاؤهم المزيد من الوقت لتمرير المشروع. وعلى ما يبدو، لم يكن هاري ريد موافقاً.

إذا لم يستطع تيد كنيدي إقناع زعيم الأغلبية في حزبه، تكون حساباتي غير صحيحة. قدّمت طرحي، ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان هاري قد اتخذ قراره، ودعا الى التصويت الختامي، ولكن الأمر لم ينجح، ثم أعلن عن تأجيل جلسة الكونغرس. ذهب أعضاء الكونغرس إلى بيوتهم واستمعوا إلى مواضيع تدعو إلى الغضب أثارتها الأصوات العالية على الراديو والتلفزيون. في الوقت الذي عادوا فيه إلى واشنطن،

كان مشروع إصلاح الهجرة قد انتهى، ونتيجةً لذلك، بقي الـ«كويوتي» يمارسون أعمالهم، والمهاجرون يعبرون الحدود بطريقةٍ غير شرعية، وبقيت المشكلة تسبّب انقساماً سياسياً من دون حل.

* * *

على الرغم من شعوري بالخيبة لعدم تحويل المشاريع إلى قوانين، لم أكن نادماً على معالجتي لموضوعيْ الضمان الاجتماعي وإصلاح الهجرة. رفعت جهودنا من مستوى الوعي الشعبي حول المشاكل التي لن تزول. وكان أحد دروس التاريخ هو أن تحقيق هدفٍ تشريعي رئيسي قد يتطلب أكثر من رئيس، وأحياناً أكثر من جيل. بنى ليندون جونسون على جهود هاري ترومان لخلق الرعاية الصحية. وأتمنى أن يشكل عملنا على الضمان الاجتماعي والهجرة أساساً للرئيس القادم لإصلاحهما. في الحد الأدنى، تمكّنت من تخفيف بعض الصدمات عن الخط الثالث.

لو قُدّر لي ان أعيد ما فعلته، لدفعت باتجاه إصلاح قانون الهجرة بدلاً من الضمان الاجتماعي، كمبادرةٍ رئيسيةٍ أولى في فترة رئاستي الثانية. وعلى عكس الضمان الاجتماعي، كان إصلاح قانون الهجرة يحظى بدعم الحزبين. إن نار معارضة إصلاح الهجرة في عاميْ ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، ربما لم تكن لتستعر عام ٢٠٠٥. لم يكن علينا أيضاً أن نتغلّب على التوتّر الناجم عن تصاعد العنف في العراق وإعصار كاترينا. ولو تمّ تمرير مشروع قانونٍ ناجحٍ للهجرة، لاستطعنا خلق زخم جعل مقاربة قضية الضمان الاجتماعي أسهل. وبدلاً من ذلك، حدث العكس. عندما فشل الضمان الاجتماعي، تعمّق الخلاف الحزبي وأصبحت قضية إصلاح الهجرة أصعب.

أشار فشل إصلاح نظام الهجرة إلى مخاوف أكبر من اتجاه سياستنا. كانت هذه المخاوف مزيجاً من الانعزالية، والوقائية، والعداء للمهاجرين الذي أثّر على الجدل حول موضوع الهجرة ودفع الكونغرس إلى وقف اتفاقيات التجارة الحرة مع كولومبيا وبنما وكوريا الجنوبية. استطعت التعرّف على القلق الحقيقي الذي يشعر به الناس

من المنافسة الأجنبية. لكن اقتصادنا، وأمننا، وثقافتنا ستضعف إذا حاولنا بناء حائط يفصلنا عن العالم. فعلى الأميركيين ألا يخشوا المنافسة أبداً. بلادنا ازدهرت دوماً عندما شاركنا العالم بثقتنا بقيمنا وبأنفسنا، والشيء نفسه سيكون صحيحاً في القرن الحادي والعشرين.

كانت إحدى الطرائق للحد من تأثير الأيديولوجيات المتطرفة، هي تغيير الطريقة التي ننتخب فيها أعضاء الكونغرس. في عام ٢٠٠٦، اعتبر حوالي ٤٥ فقط من أصل ٤٣٥ السباق إلى مجلس النواب تنافساً جدياً. ولأنه ليس على الأعضاء في ما يسمّى المناطق الآمنة أن يخشوا المنافسة من الحزب المقابل، كانت نقطة ضعفهم الكبرى هي المحافظة على ترتيبٍ عالٍ ضمن حزبهم. إن هذا الأمر حقيقي خصوصاً في عصر المدوّنين، الذين يحوّلون السياسيين ذوي الأيديولوجيات غير النقية إلى أهداف وطنية. وكانت النتيجة أن أعضاء الكونغرس من الحزبين يميلون إلى الانحراف نحو التطرّف كضمانةٍ ضد المنافسين.

ستكون حكومتنا أكثر إنتاجاً، وسياستنا أكثر تحضُّراً، لو حدّدت دوائر الكونغرس الانتخابية لوائح غير حزبية، بدلاً من مشرّعي ولايات حزبيين. هذا الأمر سينتج انتخابات عامّة تنافسية، وكونغرس أقل استقطاباً. سيرتّب صنع التغيير على السياسيين التخلي عن بعض قوتهم، وهي مهمة ليست سهلة. ولكن بالنسبة إلى رؤساء المستقبل الذين يتطلعون لمعالجة قضيةٍ كبيرة، فهذا الموضوع يستحق أن يُواجَه.

كان أحد الجوانب الأكثر إثارةً في فترة رئاستي هو رؤية كيفية تفسير فلسفتي بشكلٍ مختلف من قِبَل جماهير مختلفة. كان مسلياً قراءة صحفٍ تصفني بالرئيس الأكثر محافظةً في التاريخ، بينما الناس اليمينيون يعتبرونني محافظاً مرتداً، وغالباً ما كانوا يناقشون المسألة ذاتها. كنت منظّراً محافظاً لإدخالي قوى السوق الى الرعاية الصحية، وليبرالي الحكومة الكبير لإنشائي منافع الوصفات الطبية. كنتُ محافظاً عديم الرحمة لفضح المدارس الفاشلة، وليبرالياً رحيم القلب بسبب إنفاقي مالاً أكثر على الطلبة الفقراء. إن الأمر يتوقّف على الشخص الذي تطرح عليه السؤال.

أنا فخور أني وقّعت على برنامج التعليم لكل الأطفال وموجز الرعاية الطبية، وهما تشريعان حسَّنا حياة المواطنين، وأظهرا أن مبادئ المساءلة ومنافسة السوق هي طرائق فاعلة للحصول على نتائج. أنا سعيد لأن المبادرة الدينية مستمرة. وأنا على ثقةٍ من أنّ مشروع الضمان الاجتماعي وإصلاح نظام الهجرة سيصبحان حقيقةً يوماً ما. مهما كان الأمر، أنا راضٍ على أننا واجهنا قضايا ذات أهمية كبرى، ولم نلتهِ بالأمور الصغيرة.

١٠

كاترينا

سألت: «من المسؤول عن الأمن في نيو أورليانز؟».

أسكت سؤالي المناقشة الصاخبة في غرفة الاجتماعات على متن الطائرة الرئاسية يوم الجمعة، في الثاني من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥. قال عمدة نيو أورليانز راي ناغين: الحاكمة هي المسؤولة، مشيراً بإصبعه عبر الطاولة الخشبية الداكنة إلى الحاكمة كاثلين بلانكو.

استدارت كل الرؤوس إليها. تسمّرت حاكمة لويزيانا، وبدت مضطربةً ومتعبة. قالت بطريقة غير مقنعة: أظن أن المحافظ هو المسؤول.

أربعة أيام مرّت منذ أن ضرب الإعصار كاترينا شاطىء الخليج. سدّت رياح تجاوزت سرعتها ١٢٠ ميلاً في الساعة، ساحل الميسيسيبي بالأرض ودفعت حائطاً من الماء فوق حواجز نيو أورليانز. ثمانون في المئة من المدينة التي يقطنها أكثر من ٤٥٠ ألف شخص، غمرتها المياه، وملأت التقارير عن عمليات النهب والعنف نشرات الأخبار.

بحسب القانون، على الولاية والسلطات المدنية قيادة عمليات الإنقاذ أثناء

الكوارث الطبيعية، بمساندة الحكومة الفدرالية. وقد نجحت هذه المقاربة خلال ثمانية أعاصير، وتسع عواصف مدارية، وأكثر من مئتي زوبعة، وفيضانات، وحرائق، وحالاتٍ طارئةٍ أخرى واجهناها منذ عام ٢٠٠١. كانت سلطات الولاية والموظفون المحليون ممسكين بزمام الأمور في مواجهة كاترينا في ألاباما والميسيسيبي، اللتين زرتهما في وقتٍ سابقٍ من النهار. ولكن بعد أربعة أيامٍ من الفوضى، كان واضحاً أن السلطات في لويزيانا لا تستطيع إدارة الإغاثة.

كانت الخطة الأولية تقضي أن أحط في مطار نيو أورليانز، واصطحب الحاكمة بلانكو وعمدة نيو أورليانز ناغين ، لنقيّم الأضرار من الجو. ولكن وردتنا رسالة ونحن على متن المروحية الرئاسية، مفادها أن الحاكمة والمحافظ ووفد من الكونغرس يطلبون عقد اجتماعٍ خاص على الطائرة الرئاسية أولاً.

بدت اللهجة متشنّجة وازدادت سوءاً. تشاجرت الحاكمة مع المحافظ، وصبّ الجميع غضبهم على وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية FEMA لفشلها في تأمين احتياجاتهم. وأشار عضو الكونغرس بوبي جندال إلى أن الوكالة طلبت من الناس إرسال طلباتهم بالبريد الإلكتروني، على الرغم من انقطاع التيار الكهربائي في المدينة. قلت: «سنصلح العطل»، وأنا أنظر إلى مدير الوكالة مايك براون. قاطعتنا السيناتور ماري لاندريو باندفاعات عاطفيةٍ غير مجدية. فاضطررت أن أقول لها في لحظة ما: «هلاّ صمتّ رجاءً؟».

طلبتُ التحدّث إلى الحاكمة بلانكو على انفراد. خرجنا من غرفة الاجتماعات، عبر ممر ضيقٍ، إلى مقصورة صغيرة في مقدمة الطائرة الرئاسية. قلت لها من الواضح أن الولاية وقوات الاستجابة المحلية مغلوبة على أمرها. وشدّدت بقولي: «حضرة الحاكمة، عليكِ أن تسمحي للحكومة الفدرالية بتولّي المهمة». فأجابت أنها بحاجة إلى أربعٍ وعشرين ساعةً للتفكير بالأمر.

«ليس لدينا أربع وعشرون ساعة» أجبتها بانفعال، «لقد انتظرنا وقتاً طويلاً».

ورفضت الحاكمة إعطائي جواباً.

بعد ذلك، طلبتُ الاجتماع على انفراد بعمدة نيو أورليانز ناغين. كان قد أمضى أربعة أيام منذ بداية الإعصار مُحتجزاً في فندق في وسط المدينة. لم يكن قد استحمّ أو تناول وجبةً ساخنةً إلى حين استخدم حمامي وتناول الإفطار على متن الطائرة الرئاسية. في مقابلة على الراديو الليلة الفائتة، أظهر إحباطه من الحكومة الفدرالية قائلاً: انهضوا عن كراسيكم وافعلوا شيئاً، ودعونا نعالج أكبر أزمةٍ لعينةٍ في تاريخ هذا البلد، ثم انفجر بالبكاء. عندما قابلته على الطائرة، اعتذر مني راي عمدة نيو أورليانز بهمسٍ على انفعالاته وشرح لي أنه كان منهكاً.

سألت المحافظ عن رأيه في تسليم إدارة الأزمة إلى الفدراليين، فدعم الفكرة وقال: ليس لدينا مسؤولين. تلزمنا سلسلة قيادة واضحة. لكن الحاكمة وحدها تستطيع الطلب من الحكومة الفدرالية استلام إدارة الأزمة.

* * *

مع مرور الوقت كان الضرر قد حصل. صُنّف الإعصار كاترينا بالكارثة الطبيعية الأكثر كلفةً في التاريخ الاميركي. في الحقيقة لم تكن كارثةً واحدةً بل ثلاث: عاصفة مسحت أميالاً من الساحل على شاطىء الخليج، وفيضاناً سببته الصدوع في الحواجز المائية في نيو أورليانز، بالإضافة إلى انفلات الأمن وغياب القوانين في المدينة.

من ناحية أخرى، أظهرت المأساة عجز الإنسان أمام غضب الطبيعة. كان كاترينا إعصاراً ذا قوةٍ هائلة، ضرب قسماً من البلاد يقع بمعظمه تحت مستوى سطح البحر. حتى الاستجابة الممتازة لم تكن تستطيع منع الأضرار الكارثية.

لم تكن الاستجابة سيئة فحسب، كما قلتُ في وقتها، إنما كانت غير مقبولة. وفي حين شهدنا أعمال تضحيةٍ وبطولةٍ خلال العاصفة وبعدها، إلا أن كاترينا ترك انطباعاتٍ عن عدم التنظيم، وعدم الكفاءة، وشعوراً بأن الحكومة خذلت مواطنيها. حدثت أخطاء خطيرة على كل المستويات، من الفشل في إعطاء الأمر بإخلاء

المواطنين من نيو أورليانز في الوقت المناسب، إلى تفكك قوات الأمن المحلية، إلى التنسيق والاتصالات المعيبين. كقائدٍ للحكومة الفدرالية، كان عليّ أن أرى نقص الفعالية والتقصير، وأن أتدخّل بشكلٍ أسرع. كنت دائماً أشعر بالفخر لقدرتي على اتخاذ قراراتٍ سريعةٍ وفاعلة. ولكن في الأيام التي تلت الإعصار، لم يحدث ذلك. لم تكن المشكلة أنني أخذت قراراتٍ خاطئة، بل كانت أنني أخذت وقتاً طويلاً لأقرر.

ارتكبت خطأً إضافياً بفشلي في إيصال مشاعري واهتمامي بشكلٍ مناسب إلى ضحايا كاترينا. كانت مشكلة إدراك وليست مشكلة واقع. انفطر قلبي لرؤية الناس المساكين عالقين على أسطح منازلهم ينتظرون من ينقذهم، وتملّكني الغضب لحقيقة أن الأمة الأقوى في العالم لم تستطع تأمين المياه للأمهات اللواتي حملن أبناءهن الذين جفت المياه في أجسامهم تحت الشمس الحارقة. خلال زياراتي الثلاث عشرة إلى نيو أورليانز بعد الإعصار، نقلت تعاطفي الصادق للعذاب الذي عانوه، وتصميمي على مساعدة السكان في إعادة الإعمار. وعلى الرغم من ذلك، أصبح الكثير من مواطنينا وبخاصة من هم من أصلٍ أفريقي مقتنعين بأن رئيسهم لا يهتم بهم.

كما كان كاترينا أكثر من إعصار، كذلك كان تأثيره أكثر من الأضرار المادية. تآكلت ثقة المواطنين في حكومتهم، وتفاقمت الانقسامات في مجتمعنا وسياساتنا، وشكّلت غيمةً فوق فترة رئاستي الثانية.

بعد الإعصار بقليل، كوّن كثيرون فكرةً عمّا حدث ومن المسؤول عنه. الآن، بعد مرور الوقت، وبعد أن هدأت العواطف، نستطيع وضع تقييم رصينٍ لأسباب الدمار، والنجاح والفشل في طريقة الاستجابة، وأهم شيء، الدروسَ التي يجب تعلّمها.

* * *

أعدت المشهد في فكري: أضرار الإعصار كانت فادحة. الحاكمة هشّمت واشنطن لكونها بطيئة وبيروقراطية. الإعلام وضع اللوم على البيت الأبيض. السياسيون زعموا أن الحكومة الفدرالية لا تُمس.

في عام ١٩٩٢، شاهدت أبي يعاني أول نوبةٍ من سياسة الاستجابة للكوارث الطبيعية. مع اقتراب الانتخابات الرئاسية، ضرب الإعصار أندرو ساحل فلوريدا. استغل الحاكم لاوتون تشيلز، وهو من الحزب الديمقراطي، ومديرو حملة بيل كلينتون، الدمار للادّعاء بأن الحكومة الفدرالية لم تتصرّف. لم يكن نقدهم عادلاً، فقد أمر أبي باستجابةٍ سريعةٍ على العاصفة. أرسل آندي كارد، وزير المواصلات آنذاك، للعيش في فلوريدا ليشرف على التعافي. ولكن بعدما كوَن الجمهور انطباعاً بأن والدي لم يكن ملتزماً، أصبح صعباً عكس هذا الانطباع.

كحاكم لتكساس، أدرت كوارث طبيعية عدة، من الحرائق في مقاطعة باركر، إلى الفيضاناتً في مقاطعة هيل وهيوستن، الى زوبعةٍ دمّرت مدينة جاريل الصغيرة. لم يكن هناك أي شك بوحدة الأشغال. فبموجب مرسوم ستافورد، المصدّق عليه من الكونغرس في العام ١٩٨٨، تتولّى الولاية والمسؤولون المحليون قيادة الاستجابة الأولية، ويأتي دور الحكومة الفدرالية لاحقاً، عند طلب الولاية. كحاكمٍ، كان هذا ما أريده تماماً.

وبصفتي رئيساً أصبحت مسؤولاً في الجهة المقابلة من الشراكة بين الولاية والحكومة الفدرالية. عيّنت جو ألبو، رئيس الموظفين، في مكتب الحاكمة ليترأس الوكالة. بعد ٩/١١، بعث ٢٥ فرقة بحثٍ وعثورٍ إلى نيويورك والبنتاغون، في أكبر انتشارٍ مماثلٍ في التاريخ. عمل جو بفاعليةٍ مع رودي جولياني وجورج باتاكي لإزالة الأنقاض، ودعم فرق الشرطة والإطفاء المحلية، وإيصال بلايين الدولارات لمساعدة نيويورك على تجاوز المحنة.

عندما عملتُ مع الكونغرس لإعادة تنظيم الحكومة في عام ٢٠٠٢، أصبحت وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية FEMA المستقلة منذ العام ١٩٧٩، جزءاً من شعبة أمن الوطن الجديدة. اعتقدت أن من المنطقي أن يعمل المسؤولون المكلفون منع حدوث هجمات إرهابية، جنباً إلى جنب، مع المكلّفين بالاستجابة للكوارث الطبيعية. لكن الخطوة تعني فقدان الوكالة استقلاليتها. لا أعرف اذا كان السبب هو إعادة التنظيم

أو رغبته في الانتقال إلى القطاع الخاص، لكن جو البو قرر الرحيل، وأوصى بنائبه مايكل براون لخلافته، وعملت بنصيحته.

جاء أول امتحان كبير لتركيبة الاستجابة للطوارىء الجديدة، خلال موسم الأعاصير في عام ٢٠٠٤. خلال ستة أسابيع، ضربت أربعة أعاصير كبيرة، شارلي وفرانسيس وإيفان وجين، فلوريدا. كانت المرة الأولى منذ ١٢٠ عاماً تقريباً التي واجهت فيها ولاية واحدة هذا العدد من العواصف. زرت الولاية أربع مرات، حيث قابلت المواطنين الذين فقدوا منازلهم في بنساكولا، ومزارعي الحمضيات في لايك ويلز الذي خسروا محاصيلهم بالكامل، وعمال الإغاثة الذين يوصلون المساعدات في مرفأ سانت لوسي.

بالإجمال، خلّفت الأعاصير الأربعة أضراراً تفوق ٢٠ بليون دولار، وقطعت الكهرباء عن ٣,٢ ملايين نسمة من السكان، وقتلت ١٢٨ شخصاً. كانت الخسائر كبيرة، لكن الخسائر البشرية كان ممكناً أن تكون أكبر كثيراً. كان حاكم فلوريدا مسؤولاً قوياً، وفهم الحاجة في أن يأخذ المسؤولون المحليون والولاية المبادرة في الاستجابة للكوارث. أعلن أخي جب حالة الطوارىء، وأمَّن خطوط اتصالاتٍ مفتوحةً، وتقدّم بطلباتٍ محدّدةٍ من الحكومة الفدرالية.

ردّت وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية عن طريق نشر ١١ ألف عاملٍ عبر فلوريدا والولايات الأخرى المتأثرة في أكبر عملية في تاريخها في ولاية فلوريدا. فقد أرسلت وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية ١٤مليون وجبة و١٠,٨ ملايين جالون من المياه وما يقرب من ١٦٣مليون رطل من الثلج؛ ثم ساعدت الوكالة في تقديم ١٣,٦ مليار دولار للإغاثة في حالات الطوارئ للناس الذين يعانون. حاز مايك براون ثقتي بأدائه ولم أكن أنا الوحيد فقد قال لي جيب، وهو ناقد صعب، لاحقاً إن مايك قام بعملٍ جيد.

أنقذت الإدارة الفاعلة لأعاصير ٢٠٠٤ أرواحاً كثيرة، كما ساعدت الضحايا على

إعادة البناء. بعد اختبار نموذجنا على أربعة أعاصير كبرى متتالية، كنا مقتنعين بأننا قادرون على التعامل مع أي شيء.

* * *

يوم الثلاثاء ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٥، اكتشفت خدمة الطقس الوطنية عاصفةً تتكوّن على جزر البهاما وأُطلق عليها في البداية اسم «الهبوط الاستوائي الثاني عشر» ثم تحوّلت إلى عاصفة استوائية وسُميت باسم كاترينا.

وفي ٢٥ آب/أغسطس، كان إعصار كاترينا إعصاراً من الدرجة الأولى متجهاً نحو جنوب فلوريدا. وفي الساعة السادسة والنصف مساء، حطّم كاترينا أسطح المنازل برياح تبلغ سرعتها ثمانين ميلاً في الساعة، وتساقط أكثر من قدم من المطر. وعلى الرغم من الأوامر بالإخلاء، فإن بعض الناس غير الحكيمين اختاروا الانحناء أمام العاصفة. وبهذا، فقد أربعة عشر شخصاً حياتهم.

كنتُ على اطلاع على آخر المستجدات بشكلٍ منتظم في كراوفورد، التي قضيت فيها مع لورا معظم شهر آب/أغسطس. وصفت الصحافة تلك الفترة التي ابتعدت فيها عن واشنطن بأنها إجازة. ولكنها لم تكن كذلك بالمعنى الكامل، فقد كنت أحضر جلسة الموجز الاستخباري يومياً في المقطورة الآمنة عبر الشارع، وتباحثت مع المستشارين بشكلٍ منتظم، واستخدمت المزرعة كقاعدةٍ للاجتماعات والسفر، فمسؤوليات الرئاسة كانت تتبعني أينما ذهبت. كنا قد نقلنا لتوّنا الجناح الغربي مسافة اثني عشر ألف ميل باتجاه الغرب.

بعد التقلبات في جنوب فلوريدا، توجّه إعصار كاترينا عبر خليج المكسيك باتجاه ولاية ألاباما، وميسيسيبي، ولويزيانا؛ وكان كبير مساعديّ في كراوفورد، نائب رئيس الأركان جو هاجين يخبرني أولاً بأول بالمستجدات. بحلول يوم السبت ٢٧ آب/أغسطس، تحوَّل إعصار كاترينا إلى إعصار من الدرجة الثالثة؛ وبحلول يوم الأحد، تحوَّلت قوته إلى الفئة الرابعة ثم الفئة الخامسة بعد ذلك، وهو ما يعد الأكثر

خطورة. وكان مركز الأعاصير الوطني يقوم بتحديد اتجاه العاصفة فاكتشف أنه ابتداءً من صباح يوم السبت كان كاترينا متجهاً إلى نيو أورليانز.

كنت أعرف مدينة نيو أورليانز جيداً، فهي على بعد ست ساعات بالسيارة من هيوستن؛ وقد قمت بزيارتها وأنا صغير. أحببت الطعام والثقافة وحيوية الناس في السهل الكبير، كما كنت أيضاً على علم بخوف المدينة الكامن، حيث كان السكان المحليون يسمونها المدينة الكبيرة ويدعون الله ألا تتعرّض للعاصفة التي يمكن أن تغرقها.

يمكن لأي شخصٍ قام بزيارة نيو أورليانز أن يفهم قلق سكانها. فتشكيل المدينة منخفض مثل وعاءٍ على شكل هلال؛ كان هناك نظام من السدود والقنوات - حافة وعاء - يوفر حماية للمدينة من الفيضانات الأولية، كما أن السدود التي بناها سلاح المهندسين لها تاريخ مضطرب؛ فعندما كنت أشغل منصب محافظ، قرأت كتاب جون باري الرائع «ارتفاع المد والجزر» حول الفيضانات الكبرى في ولاية ميسيسيبي عام ١٩٢٧. فبعد أن دفعت الأمطار الهائلة لارتفاع منسوب النهر أقنع مسؤولون في نيو أورليانز محافظ لويزيانا بتفجير سدّ كان قد أُقيم في الجنوب على أمل إنقاذ المدينة.

نتج عن التفجير تدمير اثنين من دور العبادة الريفية في لكويمينز وسانت برنارد، وبمرور الوقت، تم تعزيز السدود وخصوصاً بعد إعصار بيتسي في عام ١٩٦٥. ظلّت السدود شامخةً في وجه سبعة أعاصير على مدى السنوات الأربعين التي تلت.

كان أحد الدروس المستفادة من الأعاصير في عام ٢٠٠٤ في فلوريدا، أن الإعداد السليم قبل العاصفة لا بد منه للتصدي الناجح للعاصفة. فعندما علمنا أن كاترينا يتجه إلى نيو أورليانز، كانت وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية على أعلى مستوى من حالة التأهب، وأعادت الحكومة توزيع أكثر من ٣,٧ ملايين لتر من المياه و٤,٦ ملايين رطل من الثلج و١,٨٦ مليون وجبةٍ جاهزةٍ للأكل، و٣٣ فريقاً طبياً. مع كل هذه

الإمدادات، تم إعداد تخزين لم يسبق له مثيل من إمدادات الإغاثة في تاريخ وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية.

نقل الجيش الإمدادات إلى مكان آمن. وقام الأميرال تيم كيتينغ، رئيس القيادة الشمالية الجديدة التي أنشأناها بعد أحداث ٩/١١ سبتمبر لحماية الوطن، بنشر فرق الاستجابة للكوارث إلى ساحل الخليج، كما وضع حرس السواحل طائرات الهليكوبتر في حالة تأهب، وقام أكثر من ٥٠٠٠ فرد من الحرس الوطني من الولايات المتضرّرة بالاستعداد، وأُعدّت قوات من الحرس الوطني من ولايات أخرى للرد على الدعوة لطلب المساعدة. خلافاً للادعاءات التي انتشرت لاحقاً، لم يكن هناك نقص في الحراسة، لا بسبب العراق ولا لأي سبب آخر.

وكان المقصود من كل هذا النشاط الفدرالي دعم الدولة والمسؤولين المحليين. وبقي فريقي، بقيادة وزير الأمن الداخلي مايك شيرتوف ـ المحامي الباهر والرجل اللائق، الذي استقال بعد تعيينه لمدى الحياة كقاضٍ فدرالي لقبول المهمة ـ على اتصالٍ وثيقٍ مع محافظي ولاية لويزيانا وميسيسيبي وألاباما وفلوريدا. طلبت الحاكمة بلانكو إعلان حالة الطوارئ والسماح للويزيانا باستخدام الموارد الفدرالية لتمويل ودعم تحضيرات الولاية لمواجهة الكوارث. ولمرةٍ واحدةٍ فقط، في التاريخ الحديث ـ قبل إعصار فلويد عام ١٩٩٩ ـ أعلن رئيس البلاد حالة الطوارئ قبل وصول العاصفة إلى اليابسة. وهو التصريح الذي وقّعت عليه ليلة السبت، بالإضافة إلى توقيع تصريحَين مماثلين خاصين بولايتّي ميسيسبي وألاباما في اليوم التالي.

* * *

في صباح يوم الأحد، وصف المركز القومي للأعاصير إعصار كاترينا بأنه ليس فقط إعصاراً شديداً، ولكنه أيضاً عريض بشكلٍ استثنائي. وأوعز عمدة نيو أورليانز ناغين بتعليمات لإخلاءٍ طوعي. كنت أعرف نيو أورليانز بما يكفي لأدرك أن هذا لن ينجح. فلسنوات عدة، كان الأهالي قد سمعوا تحذيراتٍ عن العاصفة المروّعة؛

وهو ما شكّل عذراً للبعض لاستخدامه للاحتفال في شارع بوربون متحدّين آلهة الإعصار؛ في حين لم يملك آخرون الوسائل اللازمة لإخلاء منازلهم. كان يجب أن يكون الإخلاء إلزامياً وليس طوعياً، مع ترتيباتٍ خاصةٍ للأشخاص الذين يحتاجون إلى مساعدةٍ مثل باصات النقل، للذين لا يملكون سيارات، وهي خطوة لم تتخذها المدينة، مما أدى إلى المشهد المحزن لباصات مدرسة نيو أورليانز الفارغة في موقفٍ مهجورٍ للسيارات.

اتصلتُ بالحاكمة بلانكو في الساعة التاسعة وأربع عشرة دقيقة صباحاً وسألتها:

«ماذا يحدث في نيو أورليانز؟ هل أعطى العمدة ناغين الأمر بالإخلاء الإلزامي؟».

أجابت بالنفي، على الرغم من التحذيرات الرهيبة التي كانوا قد تلقوها في الليلة السابقة من ماكس مايفيلد مدير المركز القومي للأعاصير؛ حيث أعلن ماكس لاحقاً أنها المرة الثانية في حياته المهنية، التي دامت ستةً وثلاثين عاماً، والتي يتملّكه فيها القلق، بما يكفي ليتصل شخصياً بالمسؤولين المنتخَبين.

قلتُ للحاكمة بلانكو: «على المحافظ أن يأمر الناس بالإخلاء فوراً. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يصغون، اتصلي به وأخبريه أن فريقي أخبرني بأن هذه العاصفة ستكون عاصفةً رهيبة».

ردّت قائلة: لن يتمكّنوا من إخراج الجميع في الوقت المناسب.

للأسف، كنت أعرف أنها كانت على حق، إلا أنه كان من الأفضل أن نبدأ الآن من أن ننتظر حتى فوات الأوان.

سألتها: «ماذا تحتاجين من الحكومة الفدرالية؟» فأكدت لي أنها كانت تعمل مع فريقي عن قرب وحصلت على ما تحتاجه.

وسألتها: «هل أنت متأكدة؟» فقالت: نعم سيدي الرئيس، كل شيء تحت السيطرة.

قلت لها: «حسناً، إبقي هناك واتصلي بعمدة نيو أورليانز راي وأجبريه على الإخلاء الآن».

بعد ساعة، أعلن عمدة نيو أورليانز ناغين عن أول إخلاءٍ إلزامي في تاريخ نيو أورليانز، وقال: يشكل هذا تهديداً لم نواجهه من قبل، فقد كان إعصار كاترينا على بعد أقل من ٢٤ ساعة. اتصلت أيضاً بمحافظ ميسيسيبي هالي باربور ومحافظ ولاية ألاباما بوب رايلي، كما اتصلت بأخي جيب في ولاية فلوريدا، وأخبرتهم أن بإمكانهم الاعتماد على دعم قوي من الحكومة الفدرالية.

قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً بقليل، انضممت من خلال اتصال سمعي ـ بصري إلى وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية مع مسؤولين من مختلف الولايات للتشاور بشأن مسار كاترينا المتوقّع. نادراً ما حضر رئيس ما مؤتمراً على مستوى الموظفين، وقد رأيت بعضاً من علامات الدهشة على الشاشة عندما ظهر وجهي، لكنني أردت أن أنقل إلى الحكومة بأكملها مدى جديتي تجاه هذه العاصفة.

كان هناك نقاش عن الفيضانات المُحتمَلة على طول الخط الساحلي، واحتمال أن تصل المياه إلى أعلى سدود نيو أورليانز، ولكن لم يتوقع أحد أن تنكسر السدود، وكان ذلك مشكلةً مختلفةً وأشد خطورةً من وصول المياه إلى أعلى السدود.

قال ماكس مايفيلد: يؤدي المسار الحالي والمتوقّع لدينا، إلى أن الحد الأدنى من الفيضانات سيكون في مدينة نيو أورليانز، وأضاف: لكننا نقول دائماً إن نموذج دراسة العواصف دقيق بنحو عشرين في المائة فقط.

بعد بضع دقائق، خرجتُ أمام الكاميرات وأعلنت: يصنَّف إعصار كاترينا الآن بأنه من الفئة الخامسة، ولا يمكننا التأكيد بما فيه الكفاية إنْ كان هذا الإعصار يشكل خطراً على سكان ساحل الخليج. إلا أنني أناشد وأحث جميع المواطنين، لسلامتهم وسلامة عائلاتهم، أن ينتقلوا إلى أرض آمنة ويُرجى الاستماع بعنايةٍ للتعليمات التي تقدمها الولاية والمسؤولون المحليون.

* * *

وصل إعصار كاترينا إلى لويزيانا، في يوم الاثنين ٢٩ آب/أغسطس الساعة السادسة وعشر دقائق صباحاً بالتوقيت المركزي، ومرت عين العاصفة خلال دائرة بلاكومينز في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من الدولة، وخرّبت المنطقة الشمالية عبر لويزيانا وحدود الميسيسيبي على بعد حوالي أربعين ميلاً من شرق مدينة نيو أورليانز. ذكر بريان وليامز مراسل قناة أن بي سي في تقريره إن أسوأ الأحوال الجوية في هذا النظام هي أنه متوجّه إلى وسط مدينة نيو أورليانز، وأردف إن نيو أورليانز تعاني أسوأ السيناريوهات. كما ذكر كثير من الصحفيين أن المدينة قد تفادت الرصاصة. وقد أكدت الحاكمة بلانكو أن المياه غمرت السدود، دون وجود أضرار. ذهبت مع فريق عملي للنوم ونحن نفكر في أن السدود قد صمدت.

في ولاية ميسيسيبي، لم يكن هناك أي تأكيدات حول الأضرار. وقد أُزيل ثمانون كيلومتراً من الساحل، فيما غمرت المياه وسط المدينة إلى ارتفاع عشرة أقدام. في هذه الأثناء، دُمّرت الكازينوهات والمراكب والجسور، كما أُقفل شارع يو أس – ٩٠ وهو طريق سريع رئيسي يمر عبر ولاية ميسيسيبي الجنوبية، إضافة إلى أن ٩٥ في المئة من المباني في مدينة إيفلاند قد تضرّرت بشدة أو دُمّرت.

* * *

في وقتٍ مبكر من صباح يوم الثلاثاء، اليوم الثاني على إعصار كاترينا، علمتُ أن التقارير الأولى كانت خاطئة وأن السدود تشقّقت في نيو أورليانز، وبدأت مياه بحيرة بونتشارترين تتدفّق على المدينة وتغرقها. وكان يُقدّر أن ٨٠ إلى ٩٠ في المئة من السكان قد قاموا بالإخلاء ولكن عشرات الآلاف بقوا، وأكثرهم من الفقراء والضعفاء في المناطق المنخفضة مثل «لاور ناين وورد».

كان مهماً الحصول على إمدادات الإغاثة للمدينة، إلا أن إنقاذ الأرواح كان على رأس أولوياتنا. وقد أخذت طائرات هليكوبتر حرس السواحل الدور القيادي في

الجهد. كما تفادى الطيارون خطوط الكهرباء والأشجار وهبط رجال الإنقاذ أسفل الحبال المتدلية في الجو لالتقاط السكان من فوق أسطح المنازل. وعندما سمعتُ النقاد يقولون إن استجابة الاتحاد على الإعصار كانت بطيئة، فكرت في حرس السواحل الشجعان الذين تحمّلوا واحدةً من أكثر عمليات الإنقاذ سرعةً وفاعليةً في التاريخ الأميركي.

قلتُ في سان دييغو، حيث جئت لإحياء الذكرى الستين لانتصار أميركا في الحرب العالمية الثانية، على مسرح المحيط الهادئ: «هذا الصباح تتوجّه قلوبنا وصلواتنا إلى مواطنينا على طول ساحل الخليج. الذي عانى كثيراً من إعصار كاترينا.. وأيضاً إلى أهلنا الطيبين في لويزيانا وميسيسيبي وألاباما والمناطق المتضرّرة الأخرى المحتاجة إلى العون والرحمة وصلوات مواطنينا».

بعد الخطاب، قررتُ العودة إلى كراوفورد وحزم الأمتعة والعودة إلى واشنطن صباح يوم الأربعاء. تمكّن جو هاجين من الاتصال بالحاكمة بلانكو و باربور لمناقشة إمكانية الزيارة، ورأى كلّ منهما أن الوقت ما زال مبكراً، فزيارة الرئيس تتطلّب عشرات من الموظفين الرسميين المكلّفين بتنفيذ القانون لتوفير الأمن في المطار، ووجود سيارات إسعاف، وأفراد الخدمات الطبية في وضع الاستعداد والكثير من الموارد الأخرى، ولم يشأ أي من المحافظين الانشغال بوصولي عن إنقاذ الناس. ووافقت على ذلك.

وعلى متن الطائرة الرئاسية قيل لي إن طريق رحلتنا سيمر على بعض المناطق التي ضربها إعصار كاترينا. حلّقت الطائرة على ارتفاع منخفض فوق ساحل الخليج لألقي نظرةً فاحصة. وحيث أني كنت لا أسير على الأرض في منطقة الكوارث، اكتشفت أن أفضل شيء بعد ذلك، هو الحصول على الشعور بالخراب من فوق.

قطع المشهد أنفاسي، فقد كانت نيو أورليانز مطمورةً بالكامل تقريباً. في بعض الأحياء، كان كل ما يمكنني رؤيته هو أسطح المنازل مغمورةً بالمياه. وكان سقف

سوبر دوم قد خُلع والجسر الذي يربط مدينة نيو أورليانز مع سليدل انهار داخل بحيرة بونتشارترين؛ والسيارات تعوم أسفل الأنهار المفترض أن تكون شوارع. بدا المشهد وكأنه فيلم رعب.

في ولاية ميسيسيبي، كان الدمار أكثر وحشية. فعلى بعد أميال من الشاطئ تحوّلت كل المباني إلى قطع من الأخشاب. وتناثرت أشجار الصنوبر عبر الساحل مثل أعواد الثقاب، ودُمرت الكازينوهات الضخمة الثابتة في الخليج، وابتلعها الشاطئ قطعاً متناثرة، واختفى الجسر الموجود فوق خليج سانت لويس. كان هذا المشهد شبيهاً بانفجار قنبلة نووية.

نظرت خارج النافذة، وكل ما أمكنني التفكير فيه هو ما يتكبّده الشعب الآن على الأرض. ماذا يدور في ذهنك عندما يُدمّر مجتمعك بأكمله؟ هل تفكر بعقلانية بكل ما تركته خلفك؟ أنا قلق أكثر على الناس الذين تقطّعت بهم السُّبُل، وأتصور اليأس الذي يشعرون به عندما تدافعوا فوق أسطح المنازل للتسابق مع ارتفاع منسوب المياه. صليت صلاةً صامتةً لسلامتهم.

عند نقطةٍ ما، اندفع فريقنا الصحفي والمصورون إلى كابيناتهم؛ وبالكاد لاحظتهم في ذلك الوقت، إذ لم أتمكّن من رفع نظري عن الدمار الموجود على الأرض. عندما ظهرت الصور، أدركت أنني ارتكبت خطأ فادحاً. فقد أظهرت صورتي وأنا أحوم بالطائرة حول الضرر، أنني انسلخت عن المعاناة الموجودة على أرض الواقع. لم يكن هذا ما شعرت به. ولكن بمجرد أن يتشكّل الانطباع العام، لن أتمكّن من تغييره. وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلتها لأتجنّب مسألة الخيبة التي واجهها والدي خلال إعصار أندرو، إلا أن الأمر انتهى بي وأنا أكرّرها.

لطالما فكرت في ما كان يجب أن أفعله بشكلٍ مختلفٍ في ذلك اليوم. برأيي أن قرار عدم الهبوط في نيو أورليانز كان صحيحاً. لأن كل أجهزة الطوارئ كانت ستنشغل بي بعيداً عن بذل الجهود في الإنقاذ، وهذا خطأ. فقد كان الخيار الأفضل

هو التوقّف في مطار مدينة باتون روج، عاصمة الولاية. كان بإمكاني، بوجودي على بعد ثمانين ميلاً شمال منطقة الفيضانات، أن أجهّز خطة استراتيجيةً مع المحافظ، والتأكيد لضحايا كاترينا أن بلدهم يقف خلفهم.

لم يكن الهبوط في باتون روج ليمكّننا من إنقاذ الأرواح. ولعل فائدته كانت العلاقات العامة الجيدة. ولكن العلاقات العامة شيء مهم عندما تكون رئيساً، خصوصاً عندما يتعرّض الشعب للمعاناة. فعندما ضرب الإعصار بيتسي ودمّر نيو أورليانز في عام ١٩٦٥، سافر ليندون جونسون من واشنطن إلى نيو أورليانز في وقتٍ متأخرٍ من الليل. توجّه على ضوء المصباح إلى مأوى في «لاور نان وورد» وبوصوله إلى هناك صرخ في الظلام قائلاً: «هذا هو رئيسكم! أنا هنا لمساعدتكم!» لسوء الحظ أنا لم اقتدِ به.

* * *

لما وصلت يوم الأربعاء بعد الظهر إلى البيت الأبيض، دعوت إلى اجتماعٍ طارئ في قاعة مجلس الوزراء لمناقشة الاستجابة. قلت للفريق: «كل قسم إداري بحاجةٍ إلى خطوةٍ إلى الأمام. انظروا إلى الموارد الخاصة بكم وجِدوا طريقاً للقيام بالمزيد».

قدمت بياناً في حديقة الورود يحدّد الاستجابة الفدرالية، وأرسلت وزارة النقل شاحناتٍ لتسليم الإمدادات. أما الخدمات الصحية والإنسانية، فقد قدمت بدورها الفرق الطبية وتوابيت للجثث. فتحت وزارة الطاقة احتياطي البترول الاستراتيجي المدّخر لمواجهة طفرةٍ كبيرةٍ في أسعار البنزين؛ ونشرت وزارة الدفاع قواتها لإجراء عمليات البحث والإنقاذ، كما قدمت USNSComfort سفينة هي عبارة عن مستشفى، من أجل توفير الرعاية الطبية؛ وزادت وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية الإمدادات داخل المنطقة التي أصابتها الكارثة، وأقامت ملاجئ للنازحين. وعلمنا فيما بعد أن هناك مشاكل رئيسيةً مع المنظّمة وقسم المتابعة، مما أدى إلى تأخير أو عدم وصول الكثير من الإمدادات.

كانت هذه التدابير اللوجيستية لازمة، إلا أنها بدت غير كافيةٍ بالمقارنة مع صور اليأس التي يشاهدها الشعب الأميركي على شاشات التلفزيون. كان هناك ضحايا يتسوّلون للحصول على بعض الماء، وعائلات تقطّعت بهم سُبُل الحياة عالقة على الجسور، وعائلات أخرى تقف على أسطح المنازل رافعةً لافتاتٍ مكتوب عليها: ساعدونا! وقال أكثر من شخصٍ الكلام نفسه عندما أُجري حديث معه: لا أستطيع أن أصدّق أن هذا يحدث في الولايات المتحدة الأميركية.

على رأس الأعاصير والفيضانات، كنا الآن نواجه الكارثة الثالثة: الفوضى والعنف في نيو أورليانز؛ فقد قام اللصوص بتحطيم النوافذ لسرقة الأسلحة والملابس والمجوهرات، ولا يمكن لطائرات الهليكوبتر أن تهبط بسبب إطلاق النار. وكانت المباني في وسط المدينة مشتعلة.

كانت قوات الشرطة عاجزةً عن إعادة النظام، وفي حين قام كثير من الضباط بواجبهم بشرف، تخلّى آخرون عن وظائفهم للتعامل مع حالات الطوارئ الشخصية الخاصة بهم، وانضم آخرون للمجرمين. كنت غاضباً من مشاهد لضباط الشرطة يخرجون من متجر وهم يحملون شاشات تلفزيوناتٍ كبيرة، وشعرت وكأني كنت أشاهد عكس ما حدث قبل أربع سنوات في مانهاتن، فبدلاً من العمل في المباني المحترقة لإنقاذ الأرواح، كان بعضهم أول المستجيبين في نيو أورليانز لكسر المحلات وسرقة الإلكترونيات.

وكان المشهد المروّع يكبر في سوبردوم، حيث عشرات آلاف من الأشخاص تجمعوا ليحتموا.

بعد ثلاثة أيام، كانت السقوف تسرب ماء وتوقف التكييف عن العمل، وتعطّلت مرافق الصرف الصحي. أصدرت وسائل الإعلام تقارير عن السلوك السادي بما في ذلك الاغتصاب والقتل. وكانت هناك علاقة بين الفوضى والفقر، ولم تكن

الحكومة تعرف على الإطلاق ما الذي يحدث. استغرقنا الأمر أياماً عدة حتى علمنا أن الآلاف من الناس قد اجتمعوا دون أي طعام أو ماء، في مركز المؤتمرات في نيو أورليانز.

كان الحل الوحيد، مع عجز الشرطة عن وقف الانفلات الأمني، هو وجود دوريات قوية. اعتباراً من يوم الأربعاء بعد الظهر، كان في نيو أورليانز حوالي ٤٠٠٠ حارس من قوات الحرس الوطني مع تعزيزاتٍ على الطرقات؛ ولكن يبدو أن الحرس، تحت قيادة المحافظ، كانوا متحمسين جداً. وكان الخيار الوحيد هو نشر دوريات نشطة، ووضعها جنباً إلى جنب مع قوات الحرس في لويزيانا تحت قيادة موحّدة للحكومة الفدرالية.

كانت قوات من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً تنتظر الأمر بالانتشار، وكنت مستعداً لإعطاء هذه الأوامر ولكن كانت لدينا مشكلة. فقانون بوسيه كوميتاتس ١٨٧٨/ عسكري يحظر إجراء تطبيق القانون في الخدمة الفعلية داخل الولايات المتحدة. دونالد رامسفيلد الذي كان يتحدث عن كثير من عناصر الجيش يعارض إرسال الفرقة ٨٢ الجوية.

كان هناك استثناء واحد لقانون بوسيه كوميتاتس. إذا أعلنتُ أن نيو أورليانز ستكون في حالة من التمرّد، يمكنني حينها نشر القوات الفدرالية مجهزةً بأكمل قوةٍ لتطبيق القانون. في المرة الأخيرة التي تم التمرد فيها، تم استدعاء هذه القوات وكان هذا عام ١٩٩٢ عندما أرسل أبي الجيش لمكافحة أعمال الشغب في لوس أنجلوس. في هذه الحالة، طلب المحافظ بيت ويلسون في ولاية كاليفورنيا، نشر قوات فدرالية. يمكن الاحتجاج على قانون الانتفاضة على الرغم من اعتراضات المحافظ. في المثال الأكثر شهرةً تحدّى الرئيس دوايت ايزنهاور محافظ أورفال فوباس بواسطة نشر القوات ١٠١ المحمولة جواً لتنفيذ قرار المحكمة العليا بإزالة التمييز العنصري من المدرسة الثانوية المركزية في ليتل روك، في أركنساس.

صباح يوم الخميس وهو اليوم الرابع، رفع أندي كارد رسمياً احتمال أن تكون الاستجابة فدرالية من خلال الحاكمة بلانكو وفريقها. لم تكن الحاكمة تريد التخلي عن السلطة للحكومة الفدرالية، وهذا ما جعلني في موقفٍ صعب. فإذا أثرت قانون العصيان المسلّح ضد رغباتها، سيرى العالم في ذلك رئيس دولة ذكراً وقد اغتصب سلطة الحاكمَة الديمقراطيةِ الأنثى بإعلان التمرد الواسع في مدينة أفريقية أميركية وهذا سيثير الجدل في أي مكان. والقيام بذلك في أعماق الجنوب، حيث كان هناك قرون من التوتر بحقوق الولايات، قد تُفتح أبواب الجحيم. اضطررتُ إلى إقناع الحاكمَة بتغيير رأيها، وقررت شرح قضيتي بشكلٍ شخصي في اليوم التالي.

أصبت بإحباط لم يسبق أن أُصبت به في أي مرحلة من رئاستي. وأخبرني إحساسي أننا بحاجة لإرسال القوات الفدرالية إلى نيو أورليانز لوقف العنف وتسريع عملية الانتعاش. ولكني كنت عالقاً بسبب مقاومة الحاكم، وتردد البنتاغون، والقانون العتيق. وأردت أن أنقضّ عليهم جميعاً، ولكن في ذلك الوقت، كنت أخشى أن يشكّل ذلك أزمةً دستوريةً وربما تمرّداً سياسياً أيضاً.

* * *

عقدت اجتماعاً صباح يوم الجمعة؛ اليوم الخامس، في الساعة السابعة في غرفة العمليات مع الفريق الحكومي المكلف بالاستجابة لإعصار كاترينا. قلت لهم: «أعلم أنكم تحاولون جاهدين بكل ما استطعتم. إلا أن الأمر لا ينجح، وعلينا أن نفرض النظام في نيو أورليانز في أقرب وقتٍ ممكن. أما السكوت عن هذا الوضع ليخرج عن السيطرة فأمر غير مقبول إطلاقاً».

بخروجي مع مايك تشيرتوف إلى «المارين وان» لزيارة ساحل الخليج، ألقيت الرسالة نفسها في المؤتمر الصحفي. حيث قلت: «إن النتائج غير مقبولة. وأنا أتوجّه إلى هناك الآن».

انتقلنا بالطائرة الرئاسية إلى ألاباما، حيث استقبلني المحافظان بوب رايلي

وهالي باربور. كان كلّ منهما قائداً ممتازاً، نفّذا بجدارةٍ خطط الإخلاء، وعملا بشكلٍ وثيقٍ مع السلطات المحلية، وبدآ عمليات الإنعاش بسرعة.

سألت بوب وهالي إذا كانا يحصلان على الدعم الفدرالي الذي يحتاجانه، فأكّدا لي ذلك. قال بوب: مايك براون يقوم بعملٍ مدهش . كنت أعرف أن الضغط على مايك كان كبيراً، ورغبتُ في رفع روحه المعنوية. وعندما تحدّثت إلى الصحافة بعد بضع دقائق كرّرت المديح، وقلت: براوني، إنك تقوم بعمل مدهش .

لم أكن أتخيّل قط أن تنقلب تلك الكلمات لتصبح كلماتٍ سيئةً في المعجم السياسي. فمع ازدياد الشكاوى حول أداء مايك براون خصوصاً في نيو أورليانز، حوّل النقاد كلماتي من مديحٍ إلى ذم.

كانت محطتنا التالية بيلوكسي، في الميسيسيبي. وقبل ذلك بيومين، حلّقت فوق المنطقة، ولكنني لم أكن مستعداً لرؤية الدمار الذي شهدته على أرض الواقع. مشيتُ فوق أرضٍ خراب. كانت الأشجار قد اقتُلعت والأنقاض متناثرة في كل مكان، وبالكاد كان يوجد مبانٍ قائمة. وكان هناك رجل واحد يجلس على كتلة من الخرسانة ولوحين من الألواح الصغيرة أمامه، فأدركت أنها كانت من أساس المنزل واللوحان استخدمهما لتكون خطواته الأولى، وكان بالقرب منه جهاز محطم يبدو وكأنه غسالة صحون.

جلست بجانبه وسألته عن أحواله، وتوقعت أن يخبرني بأن كل ما يملكه قد دُمّر، وبدلاً من ذلك، فاجأني بإجابته: أنا بخير، فلا أزال على قيد الحياة، وأمي على قيد الحياة أيضاً .

أدهشتني روحه المعنوية ورؤيته الثاقبة. هما الروح المعنوية والرؤية اللتان لمستهما لدى كثيرين هناك. وأكثر شخصٍ أثار إعجابي عند لقائي به كان المحافظ آي جي هولواي من بيلوكسي. الذي استعان بجملة «دائماً هولواي»، التي ظهرت عام ١٩٦٠ في بطولة المنتخب الوطني لكرة القدم للنساء. ففي حين دمّر إعصار كاترينا أكثر من

ستة آلاف منزل وشركة في بيلوكسي، لم يكن لدى المحافظ إنش واحد من الشفقة على نفسه. على العكس من ذلك، فقد وعد بأن يعيد بناء المدينة كأحسن مما كانت. أما الحاكمة باربور فقد وضع هذه الروح المعنوية في كلمات، إذ قال: الناس في ميسيسبي يرتدون ملابسهم ويستعدون لإعادة بناء المدينة .

* * *

كانت محطتنا الأخيرة في نيو أورليانز، حيث أدليت فيها بندائي للحاكمة بلانكو على متن الطائرة الرئاسية. فعلى الرغم من حثي المتكّرر لها للسماح للحكومة الفدرالية بتولّي المهمة، إلا أنه كان واضحاً أنها لا تنوي إعطائي رداً. ولم يكن هناك من فائدةٍ تُرجى من الضغط عليها أكثر، فقد كانت الحاكمة بلانكو مصمّمة.

بعد الجولة في الطائرة فوق المدينة المغمورة بالمياه، لامسنا أسفل الساحل بالقرب من السد السابع في شارع السدود. وعلى أحد جوانب السد توجد مدينة ميتاريا، الجافة نسبياً. ومن الناحية الأخرى، كانت دائرة أورليانز تحت الماء بالعمق الذي استطاع نظري الوصول إليه. حدّقت إلى الفجوة التي تبلغ ٣٠٠٠ قدم، وكانت عبارة عن مدخلٍ لسلسلة مدمّرة من الماء. على عكس عام ١٩٢٧، لم يُدمّر أي من السدود بالديناميت في عام ٢٠٠٥، إلا أن التأثير المروّع على الشعب في مسار الفيضانات كان هو نفسه.

عندما عدتُ إلى البيت الأبيض في ذلك المساء قابلني آندي كارد وقال إنه ومستشار البيت الأبيض هارييت مايرز قضيا اليوم والليلة السابقة في العمل مع المحامين والبنتاغون للحصول على القوات الفدرالية في ولاية لويزيانا. وقد أتوا باقتراحٍ مثيرٍ للاهتمام وهو أن يقوم جنرال رفيع المستوى بتولي أمر جميع القوات العسكّرية في لويزيانا بشأن المسائل التي تهم القوات في الخدمة الفعلية وأنه سيرسل لي التقارير بشأن المسائل المتعلقة بالحرس، كما أكد أنه سيقدم تقريراً إلى الحاكمة بلانكو. منحت هذه الهيكلية المزدوجة الحكومة الفدرالية ما تحتاجه من سلسلةٍ

واضحةٍ من القيادة والقوات النشطة لتأمين المدينة، وطمأنت في الوقت نفسه مخاوف الحاكمة. قبل منتصف الليل، أرسل لي آندي بالفاكس رسالةً حدّد فيها الترتيبات.

في صباح اليوم التالي، اليوم السادس، جاءت مكالمة هاتفية من باتون روج للبيت الأبيض. فقد رفضت الحاكمة الاقتراح.

كنتُ في قمة الغضب، وقضيت ثلاثة أيام في محاولة إقناع الحاكمة. وكان ذلك هدراً للوقت، وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً، توجّهت إلى حديقة الورود لأعلن عن نشر أكثر من سبعة آلاف جندي في الخدمة الفعلية في نيو أورليانز، دون سلطات تنفيذ القانون. كنت متوتراً بشأن هذا الوضع، فإذا ألقي القبض عليهم وهم في تبادل إطلاق النار سيكون ذلك خطأي، إلا أنني رأيت أن إرسال الجيوش بدون تفويض من السلطة كان أفضل من عدم إرسالهم على الإطلاق.

وكان الجنرال قائد قوة المهام المشتركة، يبلغ ستة أقدام وأكثر. إنه رجل بدون إحساس يُعرف باسم راجين كاجن؛ سليل أجداد الكريول من ولاية لويزيانا الجنوبية. وكان الجنرال روس أونوريه قد عاصر الكثير من الأعاصير ويعرف سكان منطقة ساحل الخليج جيداً.

جاء الجنرال أونوريه بما يتطلّبه الموقف بالضبط: الحس السليم ومهارات الاتصال الجيدة والقدرة على اتخاذ القرارات. وحصل بسرعة على ثقة المسؤولين المُنتخَبين وقادة الحرس الوطني وقادة الشرطة المحلية؛ وعندما حاولت وحدة تابعة لقوات الحرس والشرطة دخول مركز المؤتمرات لإيصال الغذاء حاملين بنادقهم، ضُبط أونوريه على الكاميرا وهو يصرخ: ضعوا أسلحتكم أرضاً، اللعنة! وقد جاء الجنرال مع شعارٍ مثالي ليصف منهجه: لا علاقة مع المغفّلين.

في حين لم نتمكّن من الرد بالقانون، استطاع الجنرال أونوريه القيام بذلك، بفضل قوة إرادته وشخصيته؛ وقد لخّص عمدة نيو أورليانز ناغين ذلك بتشبيهه بجون واين... الذي جاء بالمروحية وبدأ يشتم، وجعل كل الناس يتحرّكون.

لو علمت أن بإمكانه أن يكون فاعلاً دون الاستناد إلى القانون، الذي اعتقدت أنه بحاجةٍ له؛ لكنت قطعت الجدل القانوني، وأرسلت القوات قبل ذلك بأيامٍ عدة.

* * *

في يوم الإثنين ٥ أيلول/سبتمبر، اليوم الثامن، قمتُ برحلتي الثانية إلى ساحل الخليج؛ قابلني الجنرال أونوريه في الباتون روج وأطلعني على الاستجابة، وكانت عمليات البحث والإنقاذ كاملة تقريباً. أُخلي السوبردوم ومركز المؤتمرات، وضُخّت المياه خارج المدينة. والأهم من كل ذلك، أن قواتنا فرضت النظام دون إطلاق رصاصةٍ واحدة.

زرت أنا و لورا مركز الإجلاء الذي تديره كنيسة، وكانت تسمى رابطة الشباب الأرثوذكسي العالمي. افترش مئات من الناس، إضافة إلى كثيرٍ من السوبردوم، الحصير عبر أرضية الملاعب. وكان معظمهم يبدون في حالةٍ من الذهول والإرهاق. بكت إحدى الفتيات وقالت: لا أستطيع أن أجد والدتي. انضم إلينا صديقي ت.د. جايكس القس من دالاس، وصلّى لراحتهم وسلامتهم. ت.د رجل ينفذ ما يؤمن به، فقد قيل لي إن أعضاء كنيسته كانوا قد رحّبوا بعشرين ضحيةٍ من ضحايا كاترينا في بيوتهم.

كانت هناك أمثلة مشابهة من التعاطف في كل أنحاء ساحل الخليج. فإلى جانب كل الأحداث المحيطة في أعقاب كاترينا، تبرز هذه القصص كأمثلةٍ مشرقةٍ على الشخصية الأميركية. قامت مجموعة من المعمدانيين الجنوبيين، بصنع مطابخ متنقلة لخدمة عشرات الآلاف من الناس الجائعين. وقاد رجال إطفاء مدينة نيويورك شاحنات خراطيم إخماد النيران التي كانت إدارة مطافىء نيو أورليانز قد أعارتهم إياها بعد أحداث ٩/١١. وأنشأ متطوعون من الصليب الأحمر الأميركي، وجيش الخلاص، مراكز لمساعدة ضحايا الكوارث على مدار الساعة. واتخذت كل ولاية تدابير لاستقبال النازحين؛ فمدينة هيوستن وحدها استقبلت ٢٥٠ ألف شخص.

وكانت حركة الإخلاء الأكبر من نوعها في حياة الأميركيين منذ عاصفة الغبار عام ١٩٣٠.

ولإدارة حملة جمع التبرعات لضحايا كاترينا في القطاع الخاص، قمت باستغلال الثنائي المُستبعَد: والدي وبيل كلينتون. وأظهر إعصار كاترينا أداءهما من جديد. فبعد ضربة تسونامي، الهائلة جنوب شرق آسيا في كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٤، تحالفا معاً، بناء على طلبي، وجمعا أكثر من مليار دولار للضحايا. وعندما جالا العالم معاً، كان الرئيسان السابقان، كما كنت أدعوهما، قد شكلا رابطةً بينهما. وكانا في الحادية والأربعين، والثانية والأربعين من العمر. تعالى والدي عن خيبة أمل العام ١٩٩٢ وحضن منافسه السابق. وقدّرت بيل كثيراً لأنه عامل أبي بتقديرٍ واحترام، ونشأتُ وأنا معجب به. وعندما طلبت منهما قيادة حملةٍ أخرى لجمع التبرعات بعد كاترينا، وافقا مباشرة. بعد ذلك، اتصلت بي والدتي وقالت ساخرة: أرى أنك جمعت شمل والدك وأخيك غير الشقيق.

ولكن لسوء الحظ، لم تطل روح الكرم الجميع. فعند بث شبكة NBC حملة جمع التبرعات لضحايا كاترينا في فترة الذروة، قال مغني الراب كاني ويست لجمهور التلفزيون: جورج بوش لا يهتم بالسود. وقارن جيسي جاكسون لاحقاً مركز نيو أورليانز للمؤتمرات بسفينة الرقيق. وادّعى عضو في الكونغرس أنه لو كان ضحايا العاصفة من البيض وليس من السود، لكانوا حصلوا على مساعداتٍ أكثر.

بعد خمس سنوات، أجدني لا أستطيع كتابة تلك الكلمات بصعوبة، دون الشعور بالاشمئزاز. شعرت بالإهانة العميقة لمجرّد التفكير بأننا نعرّض مواطنين أميركيين للمعاناة، لأنهم من السود. وكما قلت للصحافة في ذلك الوقت: «العاصفة لم تميز اللون، ولا فعلت ذلك الجهود التي بُذلت. وعندما كان حرس السواحل في المروحيات، يسحبون الناس من فوق أسطح المنازل، لم يتحقّقوا من لون بشرة الشخص قبل إنقاذه».

كلما فكرتُ أكثر في تلك الأيام، اعتراني الغضب أكثر. لقد نشأت على الاعتقاد بأن العنصرية من أعظم الشرور في المجتمع. وأعجبتني شجاعة أبي عندما تحدّى المعارضة شبه العالمية من ناخبيه للتصويت على مشروع قانون الإسكان العادل، لعام ١٩٦٨، الذي يحظر التمييز. وكنت أشعر بالفخر عندما كسبت مزيداً من أصوات السود أكثر من أي حاكمٍ في تاريخ تكساس.

قمت بتعيين كثيرٍ من الأميركيين الأفارقة في أعلى المناصب الحكومية، بما في ذلك أول امرأة سوداء/ مستشارة للأمن القومي؛ وأول وزيرين من أصول أفريقية. لقد انفطر قلبي لرؤية أطفال الأقليات يتنقلون من مدرسةٍ إلى أخرى، وهو ما جعلني أسارع بالتوقيع على المشروع الداخلي لمبادرة: لا طفل مهمل. كما كنت قد أطلقت برنامجاً تكلفته ١٥ مليار دولار، لمكافحة فيروس نقص المناعة/الإيدز في أفريقيا كجزءٍ من الاستجابة لكاترينا، وعملت حكومتي عن قرب مع الكونغرس، لتوفير كلياتٍ وجامعاتٍ تاريخيةٍ للطلاب السود في ساحل الخليج، وقروضٍ بأكثر من ٤٠٠ مليون دولار، لتجديد سكنهم الجامعي، وإمكاناتهم الوظيفية.

واجهتُ كثيراً من الانتقادات كرئيسٍ للبلاد. لم أحب أن يدّعي الشعب أنني كذبت بشأن أسلحة الدمار الشامل في العراق، أو تخفيض الضرائب لمصلحة الأغنياء. إلا أن افتراض أنني كنت عنصرياً بسبب الاستجابة لإعصار كاترينا فكان الأحط على الإطلاق. وصفت لورا تلك الفترة بأنها كانت أسوأ لحظة في رئاستي، وأشعر اليوم بالإحساس نفسه.

* * *

خلال الأسبوع الثاني من الاستجابة لإعصار كاترينا، أوصى مايك تشيرتوف بأن نقوم بتعديلاتٍ في شؤون الموظفين. فقد كان الموظفون الرسميون والحاكمة يشكون من بطء وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية، وأخبرني تشيرتوف أنه فقد الثقة في المدير مايك براون. فقد شعر أن مدير وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية قد تجمّد تحت

الضغط وأصبح متمرداً. قبلت توصية تشيرتوف واستدعيت نائب الأميرال ثاد ألن، رئيس هيئة الأركان لقوات حرس السواحل، الذي كان قد قام بعملٍ رائدٍ ومدهشٍ في البحث وجهود الإنقاذ، باعتباره ضابط تنسيق العمليات الرئيسية الفدرالية في ساحل الخليج.

يوم الأحد من ذاك الأسبوع، اليوم الرابع عشر، كانت زيارتي الثالثة لساحل الخليج. كنت على متن السفينة USS Iwo Jima التي رست في نهر الميسيسيبي. قبل سنتين، كنت قد أرسلت السفينة نفسها إلى ليبيريا لتحريرها من الديكتاتور تشارلز تايلور. كانت تجربةً غير طبيعيةٍ أن أكون على متن سفينة هجومية برمائية، وأطل على مدينة أميركية رئيسية تعاني من جراح عاصفةٍ عنيفة.

في صباح اليوم التالي، ركبنا شاحناتٍ عسكريةً وزنها عشرة أطنان، للقيام بجولة عبر نيو أورليانز. وكان جهاز الخدمة السرية قلقاً؛ إذ كانت الرحلة واحدةً من المرات القليلة جداً التي يطوف فيها رئيس مدينةً حضريةً كبرى في سيارةٍ مكشوفةٍ منذ اغتيال كنيدي عام ١٩٦٣. كان علينا تفادي خطوط الكهرباء المتدلية والقيادة عبر بركٍ عميقةٍ من المياه الراكدة. وكانت جميع المنازل تقريباً ما تزال مهجورة، وكانت بعض جدرانها مطلية بالرذاذ، وعليها تاريخ البحث، وعدد الضحايا التي عثرت عليها الهيئات في الداخل. رأيت بعض الناس يتجوّلون في حالة ذهول، وفي مكانٍ قريبٍ، شاهدت مجموعةً من الكلاب التائهة تبحث عن طعام، وعلى أجسام بعضها، علامات العض. كان عرضاً حياً لمرارة البقاء على قيد الحياة في المدينة.

عدت إلى نيو أورليانز في ١٥ أيلول/سبتمبر، اليوم الثامن عشر، لتوجيه خطبةٍ إلى الأمة في فترة الذروة. قررت أن ألقي الخطبة في ميدان جاكسون، التي سُمّيت باسم الجنرال أندرو جاكسون الذي دافع عن نيو أورليانز ضد البريطانيين في نهاية الحرب عام ١٨١٢. وكانت المعالم الشهيرة في الحي الفرنسي قد عانت من أضرارٍ طفيفةٍ خلال العاصفة.

كنت أعتبر الخطبة فرصتي لتفسير ما وقع من خطأ، مع وعدٍ بإصلاح المشاكل، ووضع تصوّرٍ للتقدم بساحل الخليج والبلاد إلى الأمام. كانت نيو أوليانز، التي تم التخلّي عنها، أغرب مكانٍ ألقي فيه خطبةٍ، فباستثناء المولدات، كانت الكهرباء لا تزال مقطوعة بالكامل عن المدينة. وفي واحدة من أكثر مدن العالم حيوية، كان الحضور عبارة عن مجموعة من المسؤولين الحكوميين وجنود من «الإيربورن» ٨٢ المحمولة جواً. بوجود كاتدرائية سانت لويس من خلفي، وقد اغتسلت بالضوء الأزرق، بدأت خطبتي:

مساء الخير. أتحدث إليكم من مدينة نيو أورليانز، الفارغة تقريباً، والموجودة جزئياً تحت الماء، تنتظر عودة الحياة والأمل.... الليلة... أقدم هذا التعهّد للشعب الأميركي.. في أنحاء كل المناطق التي ضربها الإعصار سنفعل كل ما يتطلبه الأمر، وسنبقى بقدر ما تستدعي الحاجة، لمساعدة المواطنين على إعادة إعمار مجتمعاتهم واستعادة حياتهم. وعلى جميع الذين يشكّكون في مستقبل هذه المدينة أن يعلموا أنه لا توجد طريقة لتصوّر أميركا بدون نيو أورليانز، وهذه المدينة العظيمة ستنهض من جديد.

لقد وضعت سلسلةً من الالتزامات المحدّدة: لضمان تلقي الضحايا المساعدة المالية التي يحتاجون إليها؛ ومساعدة الناس على الخروج من الملاجئ والفنادق والانتقال إلى منازل آمنة؛ وتكريس الجهود الحكومية لإزالة وتنظيف الحطام؛ وإعادة بناء الطرق والجسور والمدارس؛ وتوفير حوافز ضريبية للشركات وإعادة توظيف العمال المحليين؛ وتعزيز السدود في نيو أورليانز، والصمود أيضاً في وجه العاصفة الكبيرة التالية. ثم تابعت:

بعد مرور أربع سنوات على التجربة المرعبة في ١١ أيلول/سبتمبر، للأميركيين كل الحق في أن يتوقّعوا استجابةً فاعلة أكثر في أوقات الطوارئ. وحيث فشلت الحكومة الفدرالية في مواجهة مثل هذا الالتزام، أجدني أنا، كرئيسٍ، مسؤولاً عن المشكلة وحلّها. لقد أمرت كل رئيس وزارة بالمشاركة في مراجعةٍ شاملةٍ

لاستجابة الحكومة للإعصار. سوف تتعلّم هذه الحكومة الدروس المستفادة من إعصار كاترينا.

أخذتُ هذه الوعود بجدية. وعلى مدى الأشهر التي تلت، عملت مع الكونغرس لتأمين ١٢٦ مليار دولار في صناديق إعادة الأعمار، وهو أكبر مبلغ يُصرف على أيّ كارثةٍ طبيعيةٍ في تاريخ الولايات المتحدة. قررت إنشاء منصبٍ جديدٍ لضمان أن يكون شخص واحد مسؤولاً عن تنسيق إعادة الأعمار وضمان إنفاق المال بحكمة. هوذا الدور الذي قام به ثاد ألن في البداية. وعندما رشّحته ليكون قائد حرس السواحل، طلبت من دون باول زميلي من تكساس والرئيس السابق للجنة التأمين الاتحادي على الودائع، أن يحل محله.

قلت لرئيس الأركان أندي كارد – وجوش بولتون لاحقاً ـ إنني أتوقّع تقارير منتظمة عن مبادراتنا في ساحل الخليج. تجمّع كبار مسؤولي الحكومة بشكل دوري في غرفة روزفلت لتقديم تقارير مفصّلة عن بعض القضايا مثل عدد ضحايا الكوارث الذين تلقوا تعويضات، وعدد المدارس التي تم إعادة فتحها في ساحل الخليج، ومسح الحطام باليارد المكعب.

أردت أن يعرف سكان ساحل الخليج أنني ملتزم بإعادة البناء، لذلك قمت بسبع عشرة رحلة بين آب/أغسطس ٢٠٠٥ وآب/أغسطس ٢٠٠٨، في حين قامت لورا بأربع وعشرين زيارة. وأبدى كل منا إعجابه بروح الشعب وتصميمه.

في آذار/مارس ٢٠٠٦، قمت بزيارة للقناة الصناعية، التي تدمّرت وطافت فوق «لاور ناين وورد». شاهدنا أكواماً هائلةً من الحطام والقمامة عند ذهابنا إلى الموقع، كتذكيرٍ لما على ذاك الحي بعدُ أن يتكبّد. انتزعنا أنا وعمدة نيو أورليانز ناغين قبعاتنا، وتسلقنا الجزء العلوي من الحاجز، وشاهدنا أعمدةً من الحديد المثبتة على ارتفاع سبعين قدماً تحت الأرض، وهي أسس متينة ومصمّمة لتتحمّل قوة عاصفة كاترينا. وكان الأمر الأكثر أهمية هو طمأنة سكان نيو أورليانز المنفيين بالعودة الآمنة إلى المدينة التي أحبوها.

في الذكرى الثانية للعاصفة، قمت أنا و لورا بزيارة د. مارتن لوثر كينج الإبن، في جامعة العلوم والتكنولوجيا. قبل سنتين، كانت المدرسة غارقةً تحت خمس عشرة قدماً من المياه. ويرجع الفضل الأكبر لدوريس هيكس رئيس الجامعة وصاحب الإرادة الصلبة، أن أصبحت هذه الجامعة، بعدما أعيد بناؤها، الأولى التي أعيد فتح أبوابها في منطقة «لاور ناين وورد». وقد تألمت لورا لأعداد الكتب الهائلة التي دمرتها العاصفة، فبدأت حملةً خاصةً لجمع الأموال لتمكين مدارس نيو أورليانز من إعادة بناء مجموعاتها من الكتب. وبمرور السنوات، وبفضل قيادتها الحكيمة، وكرم الشعب الأميركي، تم إرسال عشرات الآلاف من الكتب إلى المدارس عبر ساحل الخليج.

وكانت القصة في ميسيسيبي ترفع المعنويات أيضاً. ففي آب/أغسطس ٢٠٠٦، عدت إلى بيلوكسي وبقيت فيها لمدة أربعة أيام بعد العاصفة. الشواطئ ذات الرمال البيضاء المتلألئة التي غطاها الحطام العام الماضي، قد عاد إليها جمالها. وتم إعادة افتتاح سبعة كازينوهات، مع المئات من فرص العمل. وأعيد لم شمل الأبرشيات إلى الكنائس التي انفصلت عنها أثناء العاصفة. وتغيّرت حياة عددٍ كبيرٍ من الناس أكثر من حياة لين باترسون. عندما التقيتُ به في السنة الماضية، كان يقوم بانتشال السيارات من الطين في الحي حيث كانت جميع المنازل قد اختفت، وبعودتي إلى بيلوكسي أخذني مع لورا إلى موطنه الجديد الذي أعيد بناؤه بمساعدة دافعي الضرائب.

* * *

في أعقاب كاترينا، طلبتُ من فران تاونسند، وهي مدّعية عامّة سابقة وموهوبة من مدينة نيويورك، كانت قد شغلت منصب مستشارٍ أعلى للأمن الوطني في البيت الأبيض، دراسة كيفية الاستجابة بشكل أفضل للكوارث في المستقبل. أكد تقريرها،

على المبدأ الطويل الأمد، أن المسؤولين والموظفين الحكوميين هم الأفضل لتولي القيادة لاستجابة فاعلة في حالات الطوارئ. وأوصت أيضاً بتغييرات في نهج الحكومة الفدرالية. فوضعنا وسائل جديدة لمساعدة الدولة والسلطات المحلية لإجراء عمليات الإخلاء في وقت مبكر، وطورنا أنظمة اتصالات احتياطية، وأنشأنا مركزاً للعمليات الوطنية لتوزيع تقارير الحالة في الوقت المناسب، وإقامة عملية منظمة لنشر الموارد الفدرالية، بما في ذلك القوات في الخدمة الفعلية، في الحالات التي يكون فيها أول المستجيبين من الدولة والسلطات المحلية قد أصبح منهكاً[1].

تم اختبار النظام الجديد للاستجابة لحالات الطوارئ في أغسطس ٢٠٠٨، عندما ضرب الإعصار (غوستاف) خليج المكسيك باتجاه نيو أورليانز. عقدتُ مؤتمرات ـ بالصوت والصورة ـ بشكلٍ مستمر مع الحكومة الفيدرالية، ومع المسؤولين المحليين في الأيام التي سبقت العاصفة. وتم نقل مايك تشيرتوف ومدير وكالة إدارة الطوارىء الفدرالية الجديد، دايف بوليسون الرئيس السابق لدائرة مطافىء ميامي، إلى الباتون روج، للإشراف على التحضيرات. كانت الملاجئ جاهزة ومجهّزة بشكلٍ جيد. وكان محافظ لويزيانا بوبي جندال، الجمهوري المنتخب في عام ٢٠٠٧، يعمل عن قرب مع عمدة نيو أورليانز ناغين لإصدار أوامر الإخلاء الإجباري. قال الحاكم: عليكم أن تخافوا، وعليكم أن تغادروا نيو أورليانز في الحال .

عندما ضرب الإعصار (غوستاف) الأرض، أشارت التقارير الأولى أن نيو أورليانز تعرّضت لضربةٍ مباشرة. كنتُ قد سمعتُ ذلك من قبل. ولكن هذه المرة، كانت نسبة السدود التي تحطّمت والأضرار التي أصابت نيو أورليانز أقل. وبعد بضعة أسابيع، حطم إعصار آيك غالفستون، في تكساس، وكان الضرر بالممتلكات كبيراً ـ كانت أضرار الإعصار كاترينا والإعصار آندرو الأكثر تكلفة ـ ولكن بفضل الإعداد الجيد على مستوى الدولة، لم يكن هناك خسائر في الأرواح. مع كل الدمار

(١) في خريف عام ٢٠٠٦ ، عدّل الكونغرس قانون العصيان المسلح للسماح للرئيس بنشر القوات الفدرالية مع سلطات تنفيذ القانون خلال الكوارث الطبيعية. ثم ألغى التعديل في عام ٢٠٠٨.

الذي تسبّب به إعصار كاترينا يبقى جزء دائم من تأثير هذه العاصفة، هو أن الحكومة الفدرالية حسّنت قدرتها على دعم الدولة والحكومة المحلية في الاستجابة للكوارث الكبرى.

* * *

عندما أُعيد بناء أحياء نيو أورليانز ومنازل ولاية ميسيسيبي، كان من الصعب أن يتعافى تماماً كل من عانى من إعصار كاترينا. وهذا صحيح، خاصة بالنسبة لعشرات الآلاف الذين فقدوا منازلهم وممتلكاتهم، وأسوأ من كل هذا معاناة عائلات الأميركيين الألف وثمانمئة الذين لقوا حتفهم.

بطريقةٍ أخرى، ينطبق ذلك عليّ أنا أيضاً. ففي كارثةٍ وطنيةٍ، من السهل جداً إلقاء اللوم على الرئيس. قدّم كاترينا الفرصة السياسية لكثيرٍ من النقاد الذين انتظروا فرصةً كهذه لسنوات. في أعقاب كاترينا، جنباً إلى جنب مع انهيار إصلاح الضمان الاجتماعي وارتفاع أصوات طبول العنف في سقوط العراق في شتاء عام ٢٠٠٥، كانت تلك مرحلة مدمّرة في حياتي الرئاسية. فقبل سنةٍ واحدةٍ فقط، فزت بإعادة الانتخاب بأصواتٍ لم يحققها أي مرشح آخر في التاريخ. وبحلول نهاية العام ٢٠٠٥، كان جزء كبير من رصيدي السياسي قد تبخّر. مع تراجع معدلات التأييد، ظن كثيرٍ من الديمقراطيين وبعض الجمهوريين أنّ من الأفضل أن يعملوا ضدي من أن يعملوا معي. لقد تمكنّا من إنجاز الكثير من الأمور، بما في ذلك، إعادة تفويض مبادرة الإيدز وتوفير التمويل الكامل لقواتنا، ودعم سام أليتو في تسميته محققاً لدى المحكمة العليا، والاستجابة للأزمة المالية. إلا أن إرث عام ٢٠٠٥ بقي يتساقط حتى نهاية عهدي بالسلطة.

لا يعني كلامي هذا أنني لم أُخطىء خلال كارثة إعصار كاترينا. كان عليّ أن أحث الحاكمة بلانكو وعمدة نيو أورليانز ناغين على إخلاء نيو أورليانز في أسرع

وقت، وكان ينبغي علي العودة مباشرة من كاليفورنيا إلى واشنطن في اليوم الثاني، أو التوقف في الباتون روج في اليوم الثالث، كان ينبغي أن أقوم بأكثر مما قمت به لتأكيد تعاطفي مع الضحايا، وإصراري على المساعدة كما فعلت بعد أحداث ٩/١١.

وكان أكبر خطأ حسي اقترفته هو أنني انتظرت كثيراً قبل أن أنشر قوات الخدمة الفعلية. في اليوم الثالث، كان واضحاً احتياج القوات الفدرالية لاستعادة النظام. لو كان مقدراً لي أن اشهد هذه الأحداث ثانيةً لقمت بإرسال الكتيبة الجوية ٨٢ في الحال بدون الرجوع إلى السلطة التنفيذية للقانون. لقد تردّدت في هذا الوقت لأنني لم أكن أريد أن تظهر قواتنا عاجزةً عن إيقاف هجمات القنص وغيرها من أعمال العنف المروّعة التي كنا نسمع عنها عبر التلفاز. بعد ذلك علمنا أن كل هذه الأخبار كان مبالغاً فيها نتيجة إفراط المراسلين، تحت الضغط، في ملء وسائل الأخبار على مدى ٢٤ ساعة.

في نهاية المطاف، كان إعصار كاترينا إعصار القرن. لقد دمّر منطقةً بحجم بريطانيا العظمى مسبباً تقريباً أكثر من تسعة أضعاف الحطام الناتج عن أي إعصار سابق له؛ وراح ضحيته عدد من القتلى أكثر من أي عاصفةٍ حدثت خلال الخمس وسبعين سنة الأخيرة. وكانت الحصيلة الاقتصاديه تدمير ثلاثمئة ألف منزل و٩٦ مليار دولار خسائر في الممتلكات، بما يفوق أي إعصار تم إحصاؤه حتى الآن.

ومع ذلك، لم يكن للموت والدمار الكلمة الأخيرة على سكان الساحل الخليجي. ففي آب/أغسطس ٢٠٠٨، قمت بزيارة جولف بورت والميسيسيبي وجاكسون باراكس في نيو أورليانز – موطن الحرس الوطني في ولاية لويزيانا ـ والذي أغرقته المياه خلال إعصار كاترينا. وكان ملفتاً للنظر أن نرى كيف تغير الكثير على مدار ثلاث سنوات.

في الميسيسيبي قام العمال بإزالة ستة وأربعين مليون يارد مكعب من حطام العاصفة، وهو ضعف ما خلّفه إعصار (أندرو) واستعد أكثر من ثلاثة وأربعين ألف

مواطن لإعادة بناء منازلهم؛ وتدفّقت حركة المرور عبر جسور جديدة تغطي خليج بيلوكسي وخليج سانت لويس؛ وعاد السياح والعاملون إلى تنشيط الكازينوهات والفنادق على شاطئ البحر. وكانت بادرة أمل أن يُعاد فتح كل المدارس التي تضرّرت من إعصار كاترينا.

وعلى الرغم من كثيرٍ من التوقّعات بأن نيو أورليانز لن تعود مدينةً كبيرة مرةً أخرى، فقد عاد إليها ٨٧ في المئة من السكان، وتم إعادة افتتاح جسر ١٠-١ الذي يربط نيو أورليانز بسليديل، كما فاقت أعداد المطاعم في المدينة أعدادها قبل الإعصار، وقام أكثر من سبعين ألف مواطن بإصلاح وإعادة بناء منازلهم، وتم تعزيز المدينة بجدران مقاومةٍ للفيضانات وسدودٍ من حولها، وبدأ سلاح المهندسين بالجيش مشروعاً ضخماً لتوفير الحماية من الفيضانات لمدة مئة عام، وأصبح دير السوبردوم الذي آوى ذات يوم الآلاف من ضحايا إعصار كاترينا منزلاً فخرياً لأبطال السوبر بول بمدينه نيو أورليانز.

أما التغيير الأكثر مدعاةً للفرح، فكان من نصيب التعليم. لقد أُعيد فتح المدارس العامة التي كانت متآكلة قبل العاصفة وأصبحت كالمرافق الحديثة، بالإضافة إلى المعلمين والقادة الملتزمين بالإصلاح والنتائج، وظهرت العشرات من المدارس في أنحاء المدينة، عارضةً اختياراتٍ ومرونةً أكبر للآباء. استكملت الأسقفية الكاثوليكية بقيادة رئيس الأساقفة ألفريد هيوز مسيرتها المعتادة في التعليم المتميّز بإعادة افتتاح مدارسها بسرعة. وفي السنة التالية لكاترينا، حسّن طلاب نيو أورليانز درجاتهم في الاختبارات. تحسنت درجاتهم أكثر في العام التالي، وتحسنت أكثر من ذلك بعد عام آخر.

عندما ألقيتُ خطاب الوداع من الغرفة الشرقية في البيت الأبيض في شباط/ يناير ٢٠٠٩، كان أحد الضيوف الذين دعوتهم الدكتور توني ريكاسنر، مدير مدرسة صموئيل للميثاق الأخضر في نيو أورليانز. بدأ توني التدريس في المدرسة في تموز/

يوليو ٢٠٠٥ بعد أن كان أداؤها ضعيفاً جداً، بحيث أقفلتها الولاية.ثم ضرب إعصار كاترينا.

عندما زرتُ المدرسة في العام ٢٠٠٧ أخبرني توني عن أساليب تدريسه المُبتكَرة، مثل تركيز الطلاب على موضوع واحدٍ أسابيع عدّة؛ كما أخبرني أيضاً عن النتائج. وعلى الرغم من العيوب الهائلةً التي تواجه طلابه، إلا أن نسبة من يجيد القراءة والرياضيات بحسب مستوى صفه، أكثر بثلاثة أضعاف من السابق. قال توني: هذه المدرسة التي لم تخدم المجتمع بشكلٍ جيدٍ في الماضي، ستكون الآن منارة النور.

إنّ روح التجديد في مدرسة الميثاق الأخضر موجودة في جميع أنحاء ساحل الخليج. فبرئاسة أشخاص مثل توني، يمكن لجيلٍ جديدٍ بناء حياةٍ أفضل من تلك التي ورثها.. أما الإرث الحقيقي لكاترينا فسيكونً هو الأمل.



١١

تأثير لازاروس

جلس محمد كاليسوبولا يوم ٣٠ تموز/ يوليو ٢٠٠٨، في الصف الأمامي من الغرفة الشرقية. كان محمد رجلاً أفريقياً طويل القامة، ويمتاز بابتسامةٍ كبيرةٍ مشرقة؛ وكان من المفترض أنه مات.

قبل خمس سنوات، التقينا أنا و لورا مع محمد في عنتيبي، في أوغندا، في عيادة تديرها منظمة دعم مرضى الإيدز «تاسو» TASO، وتقع هذه العيادة في مبنى بسيطٍ من الطوب من طابقٍ واحد. خدمت تاسو الآلاف من مرضى الايدز؛ وكمعظم الذين يعانون من مراحل متقدمة من المرض، كان محمد يهزل. كان يأكل قليلاً؛ ويعاني من حرارة مستمرة. وبقي طريح فراش المرض لمدة سنة تقريباً.

كنت أتوقع أن تكون تاسو مكاناً يبعث على اليأس، لكنها لم تكن كذلك. كان هناك لافتة على مكتوب عليها «العيش بشكل إيجابي مع فيروس نقص المناعة المكتسبة/الإيدز». غنّت جوقة من الأطفال، وكثير منهم أيتام فقدوا والديهم بسبب الإيدز، أناشيد أعلنت إيمانهم وآمالهم، وانتهت بأغنية «أميركا الجميلة». «لدي

حلم»، قال لي محمد من سريره في المستشفى، وأضاف: «في أحد الأيام، سوف آتي إلى الولايات المتحدة».

غادرت العيادة يغمرني الأمل، فقد جدّد المرضى اقتناعي بأن كل حياة لها كرامتها وقيمتها، لأن كل شخص يحمل علامة الله سبحانه وتعالى. رأيت معاناتهم تحدياً لكلمات الإنجيل: «من أعطى كثيراً، طُلب منه الكثير».

منحت أميركا الكثير، وعزمت بدوري على تلبية النداء. في وقتٍ سابقٍ من ذلك العام، كنت قد اقترحت مبادرةً بقيمة ١٥ مليار دولار لمكافحة فيروس الإيدز في أفريقيا، ورفض الكونغرس مشروع الخطة الرئاسية الطارئة للإغاثة من الإيدز، المعروفة اختصاراً باسم بيبفار PEPFAR، والتي كانت تشكل أكبر مبادرةٍ صحيةٍ دوليةٍ لمكافحة مرض معيّن. كنت آمل أن تكون بمثابة نسخةٍ طبيةٍ لخطة مارشال. قلت في عيادة تاسو: «هذا تعهّد بلدي لشعوب أفريقيا وشعب أوغندا، أنتم لستم وحدكم في هذه المعركة، فقد قرّرت أميركا التحرّك».

تلقى محمد بعد ثلاثة أشهر، دواءً مضاداً للفيروسات الأولى. جدّد الدواء قوته؛ وفي نهاية المطاف كان قادراً على الخروج من السرير. حصل على وظيفة في عيادة تاسو وحصل على ما يكفي من المال لدعم أطفاله الستة. في صيف عام ٢٠٠٨، دعينا محمد إلى البيت الأبيض للتصديق على التوقيع على مشروع قانون مضاعفة التزامنا في جميع أنحاء العالم لمكافحة فيروس الإيدز. وبالكاد تعرّفت إليه، فجسده الواهن أصبح قوياً وسليماً، لقد عاد مرةً أخرى إلى الحياة.

لم يكن محمد هو الوحيد؛ فخلال خمس سنوات، ارتفع عدد الأفارقة الذين يتلقون أدوية الإيدز من خمسين ألفاً إلى حوالي ثلاثة ملايين شخص؛ أكثر من مليونين منهم تدعمهم منظمة بيبفار. واسترد المرضى صحتهم وعادوا إلي حياتهم المنتجة، بعد أن كانوا قد استسلموا للموت. وباسترجاع قصة المسيح، عندما أعاد صديقه من الموت، استنبط الأفارقة عبارةً لوصف هذا التحول وأطلقوا عليه «تأثير لازاروس».

* * *

في عام ١٩٩٠، طلب مني والدي أن أقود وفداً إلى غامبيا للاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والعشرين للاستقلال. غامبيا دولة صغيرة تقع غرب أفريقيا ويبلغ عدد سكانها حوالي تسعمئة ألف نسمة. وكانت معروفةً في أميركا بمنزل أسلاف أليكس هايلي صاحب رواية «الجذور» الشهيرة، وكنّا، أنا ولورا، قد قرأنا الكتاب الحائز على جائزة بوليتزر، الذي يتتبع فيه هايلي نسب رجل أفريقي اختُطِف من قِبَل تجار الرقيق في القرن السابع عشر.

للأسف، لا يبدو أن غامبيا تطورت كثيراً منذ ذلك الحين، فعندما قمت أنا و لورا بجولة حول العاصمة بانجول بسيارة شيفروليه قديمة قدّمتها لنا السفارة، كان الطريق الرئيسي ممهداً؛ أما باقي الطريق فكان ترابياً، وكان أغلب الناس الذين شاهدناهم يسافرون سيراً على الأقدام، حتى إن كانت الأحمال تثقل ظهورهم، وكان أبرز ما في الرحلة مراسم الاحتفال باستقلال غامبيا. أُقيم هذا الاحتفال في المدرّج الوطني حيث كان الطلاء مقشراً وكانت الخرسانة مخلخلة. كنت أعتقد أن مدرّجات المدارس الثانوية غرب تكساس كانت عصرية أكثر بكثير من تلك التي في ثانويات غامبيا.

كانت غامبيا في ذهني بعد ثماني سنوات، عندما بدأت التفكير في خوض معركة الرئاسة. أمضيت أنا وكوندوليزا رايس ساعاتٍ طويلةً في مناقشة السياسة الخارجية على الشرفة الخلفية في قصر المحافظ. وفي أحد الأيام، تحوّل حديثنا إلى أفريقيا، وكان لكوندي مشاعر قوية تجاه أفريقيا. كانت تشعر أن أفريقيا لديها إمكانيات عظيمة ولكنها مُهمَلة، واتفقنا أن تحظى أفريقيا بجزءٍ مهم من السياسة الخارجية.

كنت أعتبر أميركا أمةً سخيةً تتحمل مسؤولية معنوية لنقوم بدورنا للتخفيف من الفقر واليأس، لكن السؤال كان في كيفية القيام بذلك. فبرامجنا الخاصة بالمساعدات الخارجية في أفريقيا تاريخها رديء؛ إذ تم تخطيط كل هذه البرامج أثناء الحرب الباردة لدعم الحكومات الشيوعية. وفي حين ساعدت معونتنا في الحفاظ على قوة

الأنظمة الصديقة لكنها لم تفعل الكثير من أجل تحسين حياة الناس العاديين. وفي عام ٢٠٠١، تلقت أفريقيا ١٤ مليار دولار من المعونات الخارجية، أي أكثر مما تلقته أي قارة أخرى. ومع ذلك فقد كان النمو الاقتصادي لا يتغير، بل أسوأ مما كانت عليه الحال في السبعينيات.

والمشكلة الأخرى أن النموذج التقليدي للمعونة الخارجية كان الطريقة الأبوية: يحرر الواهب الثري شيكاً ويخبر المتسلّم كيف ينفقه؛ فقررت أن أتخذ نهجاً جديداً في أفريقيا، وفي أماكن أخرى من العالم النامي. سوف نبني علاقاتنا على الشراكة، لا النزعة الأبوية، وسندعم البلدان النامية في تصميم استراتيجياتها الخاصة باستخدام الضرائب التي يدفعها الأميركيون، وفي المقابل سوف يتم قياس أدائها وستجري مساءلة هذه البلدان. ستكون النتيجة أن تشعر البلدان باستثمارها في نجاحاتها الخاصة في الوقت الذي يشعر فيه دافعو الضرائب الأميركيون بأثر كرمهم.

وكما أوضحت كوندوليزا رايس في نقاشنا الأول أن إحدى مشاكل أفريقيا، التي تتقدّم باقي المشاكل، هي الأزمة الإنسانية لفيروس الإيدز. كانت الإحصاءات مروّعة. فقد مات حوالي عشرة ملايين في جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا. وفي بعض البلدان، يحمل واحد من كل أربعة أشخاص مرض الإيدز. كان متوقعاً أن يزيد إجمالي عدد المصابين بالعدوى على مئة مليون شخص في سنة ٢٠١٠، ولقد تنبأت الأمم المتحدة أن الإيدز يمكن أن يكون أسوأ وباء منذ الطاعون الدمّلي في العصور الوسطى.

عندما تولّيت منصبي، كانت الولايات المتحدة تنفق أكثر من ٥٠٠ مليون دولار سنوياً لمكافحة الإيدز على مستوى العالم؛ أي أكثر كثيراً مما تنفقه أي دولة أخرى. ومع ذلك، بدا هذا الرقم تافهاً مقارنةً بحجم الوباء. لقد تم صرف مبالغ هائلة على ست وكالات مختلفة. كانت أغلب أعمالها مزدوجة، وهو ما يدل على عدم وجود استراتيجيةٍ واضحة.

كان دافعو الضرائب الأميركيون يستحقون ـ كما أملى علينا ضميرنا ـ خطةً تكون أكثر كفاءةً من مجرد جهودٍ مفكّكة. ولذلك، قررت أن أجعل مكافحه وباء الإيدز في أفريقيا العنصر الرئيسي لسياساتي الخارجية. في آذار/مارس ٢٠٠١، قابلت الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان وهو متحدث دبلوماسي مرن من غانا. لم يوافق على كل النقاط ولكننا استطعنا أن نجد أرضيةً مشتركةً في تصميمنا على التعامل مع وباء الإيدز. لقد اقترح إنشاء صندوق عالمي جديد لمكافحه الإيدز والسل والملاريا لحشد الموارد من جميع أنحاء العالم.

استمعت لكني لم أعلّق. فرأيي أن الأمم المتحدة مرهقة، وبيروقراطية وبدون كفاءة. وكنت قلقاً من ألّا تُنفق أموال الصندوق، الذي يتكون من مساهمات من بلدانٍ مختلفة، ذات مصالح مختلفة، وأموال دافعي الضرائب بطريقة موجّهة أو فاعلة.

ومع ذلك، أوصى وزير الخارجية كولن باول ووزير الصحة وأمين الخدمات الإنسانية تومي طومسون أن أدعم الصندوق العالمي من خلال تعهد أوّلي يوازي ٢٠٠ مليون دولار. شعروا أنها ستكون إشارة جيدة لأميركا أن أكون المساهم الأول، وغلب إصرارهم شكوكي. أعلنت التزامنا في ١١ أيار/مايو ٢٠٠١. مع كوفي عنان والرئيس النيجيري أولوسيغون أوباسانجو من نيجيريا في حديقة الورد. قال الرئيس أوباسانجو: أشكركم، نيابةً عن جميع الذين يعانون من مرض الإيدز في العالم، وبالأخص نيابةً عن جميع الذين يعانون من الإيدز في إفريقيا.

وقلت في خطابي: «هذا الصباح، حققنا بدايةً جيدة». ولم أُضِفْ أنّ لديّ خططاً للقيام بالمزيد.

* * *

ظل الإرهابيون يضربون أميركا لمدة أربعة أشهر حتى بعد اليوم الذي أعلنا فيه تعهدنا تجاه الصندوق العالمي. قبل ٩/١١، كنت أعتبر التخفيف من وطأة المرض والفقر مهمة إنسانية. وبعد ١١/٩، اتضح لي أن هذا كان أكثر من مجرد مهمة

ضميرية. فقد كان أمننا القومي مرتبطاً مباشرة بالمعاناة الإنسانية. المجتمعات غارقة في الفقر، والأمراض تعزز اليأس، واليأس يجعل الناس طعماً ليجندهم الإرهابيون والمتطرفون. من خلال مواجهة المعاناة في أماكن مثل أفريقيا، تعزّز أمريكا أمنها وروحها الجماعية.

استنتجت في أوائل عام ٢٠٠٢، أن الصندوق العالمي ليس كافياً للاستجابة لأزمة الإيدز. وعلى الرغم من أن أميركا عززت مساهمتنا لتصبح ٥٠٠ مليون دولار، إلا أن الأموال لم تكن كافية، والحركة كانت بطيئة. وفي الوقت نفسه، كان وباء الإيدز يرسل المزيد من الأفارقة إلى قبورهم، تتراوح أعمار غالبيتهم بين الخامسة عشرة والتاسعة والأربعين، ويشكّل هؤلاء المفتاح الديموغرافي للدول المنتجة. إذا تُرك هذا المرض دون مكافحة، فمن المتوقع أن يقتل ٦٨ مليون نسمة بحلول عام ٢٠٢٠، أي أكثر من الذين لقوا حتفهم في الحرب العالمية الثانية.

لم أستطع تحمل فكرة موت الأبرياء بسبب تباطؤ المجتمع الدولي. وقرّرتُ أن الوقت قد حان لأميركا لإطلاق مبادرة عالمية لمكافحة الإيدز. سوف نحصل على الدعم المادي، وسوف نتحرك بسرعة، وسنصرّ على النتائج.

جمع جوش بولتن فريقاً[١] لوضع التوصيات. وفي حزيران/يونيو، قدّم لي اقتراحاً يركّز تحديداً على الجزء الأكثر فتكاً في مرض الإيدز: تأثيره على النساء والأطفال. في ذلك الوقت، كان هناك ١٧,٦ مليون سيدة و ٢,٧ مليون طفل مصابين بفيروس الإيدز. كل ٤٥ ثانية يولد طفل آخر في أفريقيا يحمل الفيروس.

اكتشف العلماء مؤخراً أن الأدوية الجديدة، وبخاصة دواء نيفيرابين من شأنها

(١) يضم الفريق الدكتور توني فوسي، مدير المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية لفترةٍ طويلةٍ، ومساعد المدير الدكتور مارك ديبول؛ غاري إيدسون؛ مندوبي مستشار الأمن القومي والموظف على رأس التنمية الدولية؛ جاي ليفك أويتز، مندوبي مدير السياسة الداخلية؛ وروبن كليفلاند من مكتب الإدارة والميزانية؛ وكريستين سيلفربيرغ، أحد نواب جوش، وفيما بعد، دكتور جو أونيل، مدير السياسة الوطنية لمكافحة الإيدز.

خفض معدل انتقال العدوى من الأم إلى الطفل بنسبة ٥٠ في المائة. لكن هذه الأدوية غير متوفرة على نطاقٍ واسعٍ في أفريقيا أو في أجزاء أخرى من العالم النامي. اقترح الفريق إنفاق ٥٠٠ مليون دولاّر على مدى خمس سنوات لشراء الأدوية وتدريب العاملين المحليين في مجال الرعاية الصحية في البلدان الأفريقية الأكثر تأثّرا ومنطقة البحر الكاريبي.

قلت: «لنبدأ العمل الآن». وقد صمّمت هذه الخطة لجزء معين من الأزمة في أفقر مناطق العالم. وتضع هذه الخطة المسؤولين المحليين في القيادة. وهدفها، طموح، إلا أنه واقعي: وهو علاج مليون أم، وإنقاذ ١٥٠ ألف طفل سنوياً، ولمدة خمس سنوات.

في ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٢، أعلنتُ عن مبادرة برنامج الرئيس الطارئ للإغاثة من الإيدز في حديقة الورد. وفي خلال سبعة عشرة شهراً، كان التزام أميركا الدولي في مكافحة الإيدز قد بلغ ضعفه.

* * *

في اليوم الذي أعلنت فيه عن صباح اليوم الأول لكشف برنامج الرئيس الطارئ للإغاثة من الإيدز، استدعيت جوش بولتن إلى المكتب البيضاوي، وقلت له: «هذه بداية جيدة، لكنها ليست كافية. أعد التفكير، وليكُنْ تفكيرك أشمل».

بعد بضعة أشهر، اقترح جوش والفريق، برنامجاً أكثر شمولية، يركز على علاج الإيدز، والوقاية والرعاية، أي الاستراتيجية التي أصبحت في نهاية المطاف برنامج الرئيس الطارئ للإغاثة من الإيدز، بيبفار.

الجزء الأول من الاقتراح، العلاج، هو الجزء الذي يعكس الثورة الأكبر. كان التقدير أن أربعة ملايين شخص في أفريقيا مصابون بالإيدز، ويحتاجون إلى مضاد للفيروسات الرجعية للبقاء على قيد الحياة، وكان أقل من ٥٠ ألفاً فقط يحصلون على

هذا الدواء. وبفضل التقدم في تكنولوجيا الأدوية، كان مريض الإيدز يحتاج إلى تناول ثلاثين حبة في اليوم، بات اليوم يكتفي بجرعتين من أدوية مختلفة في اليوم فقط. وفي وقتٍ قريب، سيكتفي المريض بحبةٍ واحدة. فالدواء الجديد أصبح أكثر فاعلية وأقل سمّيّة؛ كما تراجع سعر الدواء من ١٢ ألف دولار سنوياً إلى أقل من ٣٠٠ دولار، أي مقابل ٢٥ دولاراً في الشهر، يمكن لأميركا أن تمد حياة مريض الإيدز لسنوات.

أخبرت الفريق: إننا بحاجة للاستفادة من هذه الطفرة. ولكن كيف نؤمّن الأدوية للشعب؟

وصف توني فوسي برنامجاً في أوغندا يديره الدكتور بيتر موجيني وهو طبيب مبتكر من الذين كانوا يديرون عيادةً متقدمة، وكان واحداً من أوائل الناس الذين أمّنوا العقاقير المضادة للفيروسات لأفريقيا. في أحد اجتماعاتنا في المكتب البيضاوي، عرض علي توني صوراً لعاملين في تاسو، في أوغندا، يركبون على متن الدراجات النارية لجلب الأدوية المضادة للفيروسات الرجعية ويوصلونها حتى باب المرضى. بإكمال جزء فقط من البرنامج، أظهر برنامجا موجيني وتاسو لنا أن هذا المشروع ممكن، لو وُجِد الدعم المناسب.

بالإضافة إلى العلاج، نظّمت أوغندا حملة الوقاية من العدوى المعروفة باسم ABC: العفة والإخلاص، أو استخدام الواقي الذكري. كان النهج ناجحاً. ووفقاً للتقديرات، انخفض معدل الإصابة في أوغندا من ١٥ في المئة في عام ١٩٩١ إلى ٥ في المئة في عام ٢٠٠١.

يتضمن برنامج بيبفار عنصراً واحداً إضافياً: توفير الرعاية لضحايا الإيدز، والأيتام على وجه الخصوص. لقد حطم قلبي أن يفقد ١٤ مليون طفل أهاليهم بسبب الإيدز. ويقلقني أيضاً، أن جيلاً من الشباب اليائس سيكون بلا جذور، وعرضةً للتجنيد من قِبَل المتطرّفين.

ضغطت للحصول على تفاصيل بشأن الخطة. وسألت ما هي أهدافنا؟ وماذا يمكننا أن نحقق؟

وضعنا ثلاثة أهداف: علاج مليونيّ مريضٍ بالإيدز، ومنع سبعة ملايين إصابة جديدة، ورعاية عشرة ملايين مصاب بفيروس الإيدز. سوف نشترك مع الحكومات وشعوب الدول الملتزمة بصراع المرض، وسيقوم القادة المحليون بوضع استراتيجيات لتحقيق أهدافٍ معينة، ونحن سندعمهم.

كان السؤال التالي أي البلدان سوف نشمل. قررت التركيز على الدول الأكثر فقراً ومرضاً، إثنتا عشرة دولة في أفريقيا، جنوب الصحراء الكبرى، واثنتان في منطقة البحر الكاريبي[1]. هذه البلدان الأربعة عشر تمثل ٥٠ في المئة من حالات العدوى بفيروس الإيدز في العالم. لو تمكنّا من وقف انتشار المرض في مركزه، فيمكننا أن نخلق نموذجاً للدول الأخرى وصندوقاً مالياً عالمياً يُحتذى.

كان السؤال النهائي: كم من المال يجب أن ننفق؟ أوصت مجموعة جوش بخمسة عشر مليار دولار على مدى خمس سنوات. وأعرب فريق الميزانية لديّ عن قلقه. في أواخر عام ٢٠٠٢، كان الاقتصاد الأميركي متعثراً. وقد لا يفهم الشعب الأميركي لماذا كنا ننفق الكثير من المال في الخارج عندما كان مواطنونا يعانون.

كنت أعتزم دحض ذاك الاعتراض. كما كنت واثقاً من أنه يمكنني أن أفسر أن إنقاذ الأرواح في أفريقيا يخدم مصالحنا الإستراتيجية والأخلاقية. فالمجتمعات التي تتمتع بالصحة، يضعف الاحتمال لديها بتوليد الإرهاب أو العنف. وستكون أكثر ازدهاراً وأكثر قدرةً على تحمّل سلعنا وخدماتنا. والشعوب التي تشك في الدوافع الأميركية سترى كرمنا وتعاطفنا. واعتقدت أن الشعب الأميركي سيكون أكثر دعماً لو تمكنّا من إظهار أموال ضرائبه تنقذ أرواحاً.

---

(١) بوتسوانا، وساحل العاج، وإثيوبيا، وغيانا، وهايتي، وكينيا، وموزامبيق، وناميبيا، ونيجيريا، ورواندا، وجنوب أفريقيا، وتنزانيا، وأوغندا، وزامبيا. وبناء على طلب الكونغرس، أضفنا في وقتٍ لاحقٍ دولةً آسيويةً إلى بيبفار، هي فيتنام.

قد يدّعي النقاد في وقتٍ لاحقٍ أني بدأت برنامج بيبفار، لاسترضاء اليمين الديني أو صرف الانتباه عن العراق. وتلك التهم منافية للعقل.

اقترحت مبادرة خطّة بيبفار في لقاء تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، وقلت: «إذا كنا نستطيع القيام بذلك ولم نفعل، فسيكون ذلك مصدراً للعار».

اتخذتُ القرار بالمضي قدماً بالخطة في ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢، وكان عدد قليل من الناس على علم بهذه الخطة. فقد أصدرت تعليماتي للفريق بالحفاظ على سرّيتها. فلو تسرّبت كلمةً، سيكون هناك حرب بين الوكالات الحكومية من أجل السيطرة على المال. وسيميل أعضاء الكونغرس لتخفيف التركيز على البرنامج عن طريق إعادة توجيه الأموال لأغراضٍ خاصةٍ بهم. لم أكن أريد أن تصبح خطة بيبفار في نهاية المطاف عاجزةً بسبب البيروقراطية والمصالح المتنافسة.

قلت في خطابي الموجّه للاتحاد، الذي ألقيته يوم ٢٨ كانون الثاني/يناير٢٠٠٣: نادراً ما يوفر التاريخ فرصةً عظيمةً لمساعدة الكثيرين.... الليلة أقترح الخطة الرئاسية الطارئة للإغاثة من الإيدز/بيبفار، وهي عملٌ من وحي الرحمة يتفوّق على كل الجهود الدولية الحالية لمساعدة الناس في أفريقيا.

ووقف أعضاء من الحزبين لدعم الخطة. وبجوار لورا السيدة الأولى، كان يقف الرجل الذي ألهم برنامجه ودولته الخطة، وهو الدكتور بيتر موجينى من أوغندا.

* * *

كنت أريد أن يكون للإعلان عن هذه الخطة أثر كبير، وهذا ما حدث. فقد وصف الرئيس كلينتون وموظفوه هذه الخطة بـ«الملهمة والنابعة من القلب بشكل واضح». ولخّصت صحيفة شيكاغو تريبيون رد فعل كثيرٍ من الصحف في افتتاحيتها: مدهشة، ليست كلمةً قويةً بما يكفي لخطة الرئيس بوش.

وكما هو متوقّع، كان هناك بعض الاعتراضات، وكان أشدها في رد الفعل حيال الاستراتيجية الوقائية ABC. وندّد النقّاد بها واعتبروها إيديولوجية «الحرب على

الواقيات الذكرية» التي أثبتت أنها غير واقعية وغير فاعلة. وأشرت إلى أن الامتناع ينجح في كل مرة. فيما اعترض البعض على الواقيات الذكرية التي شعروا أنها قد تشجع على الاختلاط. على الأقل، كان بعض أعضاء الكونغرس أذكياء بما فيه الكفاية بعدم انتقاد استراتيجية ABC لأنهم كانوا مخلصين في إطار الزواج.

والمضحك أن كلا الجانبين اتهمنا بأننا كنا نفرض قيمنا، وهي المعتقدات الدينية من جهة، والفوضى الجنسية من جهةٍ أخرى. ولم يكن لأيّ من الحجج معنى عندي، فقد طوّرنا الاستراتيجية الوقائية في أفريقيا، وطبّقناها هناك، ونجحت.

أقر مجلس النواب في ربيع عام ٢٠٠٣، تشريع خطة بيبفار، وكان مشروع القانون المقدم من قَبِل عضو الكونغرس الجمهوري هنري هايد من إيلينوي والديمقراطي توم لانتوس من كاليفورنيا، والاثنان من أنصار مبادئ حقوق الإنسان. وفي مثالٍ جيدٍ عن تعاون الحزبين الجمهوري والديمقراطي فقد ساعدا في توجيه مشروع قانونٍ في مجلس النواب نال ٣٧٥ صوتاً مقابل ٤١ صوتاً.

ثم انتقل مشروع القانون إلى مجلس الشيوخ حيث تلقى دعماً قوياً من زعيم الأغلبية بيل فريست، الطبيب الذي تولى مهمات من خلال رحلات طبية سنوية إلى أفريقيا، وعضو مجلس الشيوخ ورئيس لجنة العلاقات الخارجية والمفكر ديك لوغار من إنديانا. حشد بيل وديك دعماً من مجموعةٍ واسعةٍ من المشرّعين، ومن المحافظين أمثال جيسي هيلمز من ولاية كارولينا الشمالية، وليبراليين مثل جو بايدن من ديلاوير وجون كيري من ماساتشوستس. أخبرت بيل أنني كنت أتمنى أن أوقع مشروع القانون قبل أن أتوجّه إلى اجتماع مجموعة الثماني لعام ٢٠٠٣ في إيفيان بفرنسا، وهكذا يكون لديّ المزيد من النفوذ لإقناع حلفائنا بالانضمام إلينا. وكان بيل يعمل بضراوة للانتهاء قبل الموعد المحدّد. ووقّعت على خطّة بيبفار قبل ثلاثة أيام من مغادرتي الوطن، وأصبح بذلك نافذاً.

* * *

قمت أنا ولورا بعد شهرين، بزيارة جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا، وكانت محطتنا الأولى في السنغال. بعد اجتماعٍ صباحي في القصر الرئاسي، قام الرئيس عبد الله وادي وزوجته فيفيان باصطحابنا إلى واحدٍ من أكثر الأماكن المؤرّقة التي قمت بزيارتها وأنا رئيس، وهي جزيرة غورية.

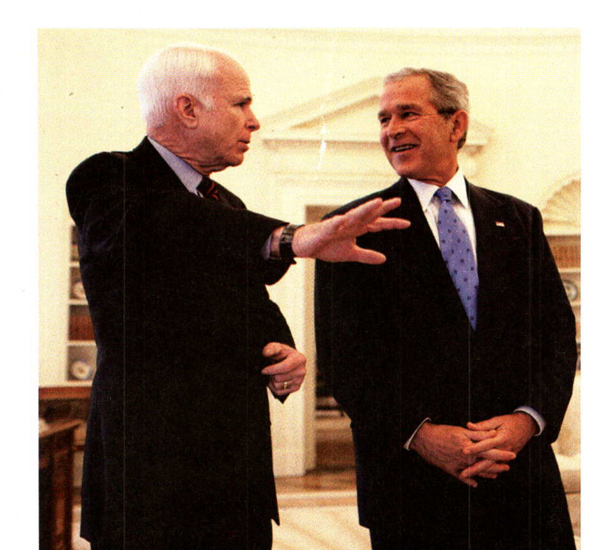
بدأت رحلتنا بزيارة دار الرقيق، وهي هيكل مزخرف ووردي، أخذتنا أمينة المتحف، لورا وأنا، في جولةٍ عبر حجراتٍ صغيرةٍ وحارة. كانت إحداها تحتوي على موازين لقياس وزن العبيد. وأخرى كانت مقسمة إلى عدة خلايا، لفصل النساء والرجال والأطفال، بعضهم عن بعض. ثم مشينا عبر ممر ضيقٍ إلى باب اللاعودة، وكانت نقطه البداية للممر الأوسط المروّع. لم يكن بوسعي سوى تخيّل مدى خوف هذه الأرواح المعدومة الأمل عندما اختُطفت من أحضان عائلاتها، وزُجّ بها في السفن المتّجهة إلى أراضٍ غير مألوفة. وضعت ذراعي حول لورا ونحن نطل على المحيط الأزرق. وكان يقف خلفنا كولين باول وكوندوليزا رايس، ففكّرت في التناقض بين ما كان يفعل أجدادهما وبين ما توصّل كولين وكوندوليزا إلى إنجازه. بعد رحلتنا، قمت بإلقاء خطبتي في هذه الجزيرة.

في هذا المكان، سُرقت الحرية والحياة وتم بيعهما. أرواح بشرية كانت تخزَن، وتُنقل، وتُزان، وتُصنّف كعلاماتٍ للشركات التجارية، ويتم تحميلهما بضاعةً في رحلة اللاعودة. كما كانت إحدى أكبر الهجرات في تاريخ البشرية، كانت أيضاً إحدى أعظم الجرائم في التاريخ.

على مدار مئتين وخمسين عاماً، عانى الأسرى من الاعتداء على ثقافتهم وكرامتهم، لكن عزيمة الأفارقة في أميركا لم تنكسر، لكن الذي انكسر هو عزيمة مختطفيهم. .... الجمهورية التي قامت على المساواة بين الجميع، أصبحت سجناً لملايين آخرين. وحتى الآن، وعلى حد قول الأفارقة: لا يمكنك أن تحجب السماء بيدك.

أغادر المكتب البيضاوي للمرة الأخيرة. *البيت الأبيض/أريك درابر*

في مسيرة ترحيب أثناء تجمّع في ميدلاند. قلت «لعلّنا غادرنا تكساس، لورا وأنا، لكنها لم تغادرنا قط».



مع «جون ماكين» بعدما ختم ترشيح الحزب الجمهوري عام ٢٠٠٨.
البيت الأبيض/أريك درابر



ع الرئيس المُنتخَب «باراك أوباما» زوجته «ميشيل»، في الغرفة الزرقاء يوم صيبه، عام ٢٠٠٩.
البيت الأبيض/أريك درابر



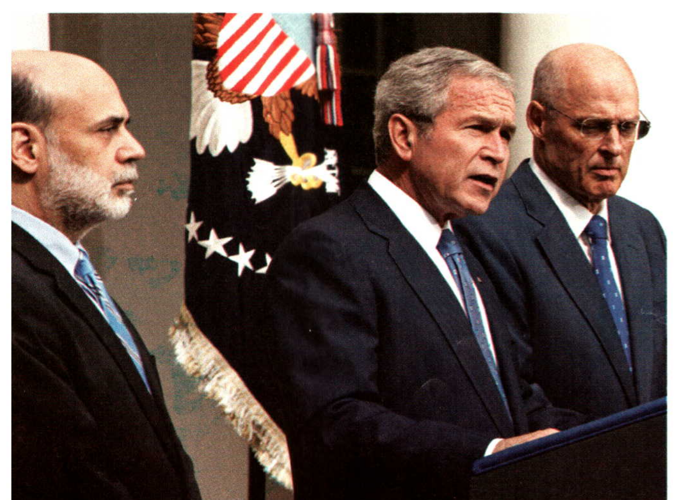
أتشاور مع المستشار «إد غيليسبي ورئيس الأركان «جوش بولتن»، وهما مساعدان موثوقان بهما وصديقان مخلصان، في الأشهر الأخيرة من الإدارة.
البيت الأبيض/أريك درابر



مع رئيس الوزراء الإسرائيلي «آرييل شارون» (إلى اليسار) ورئيس الوزراء الفلسطيني «محمود عباس» في العقبة، الأردن، عندما اتفقا على العمل نحو إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية. *البيت الأبيض/أريك درابر*



مع «جاك شيراك» من فرنسا (إلى اليسار) و«فلاديمير بوتين» من روسيا.
البيت الأبيض/أريك درابر



الإعلان عن برنامج إغاثة الأصول المالية المتعثرة (TARP) مع «بن برنانكي»، رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي (إلى اليسار) ووزير الخزينة «"هانك" باولسون».

أهنئ رومانيا بقبولها في حلف الناتو. وقبل أن ألقي كلمتي، ظهر في السماء قوس قزح كامل، فقلت: « الله يبتسم لنا اليوم».
البيت الأبيض/بول مورس

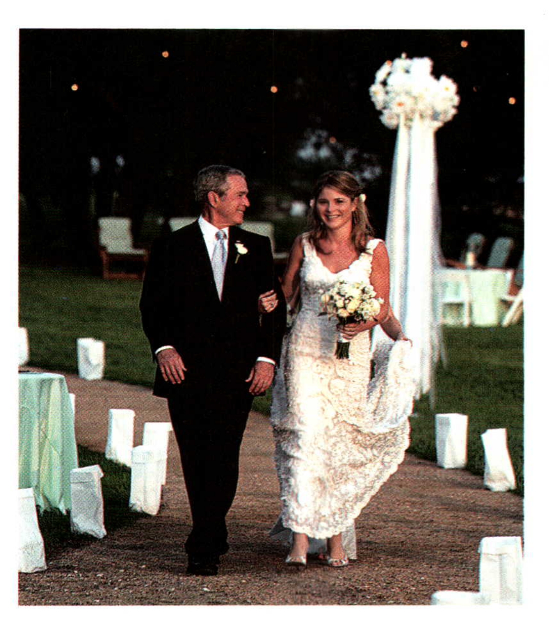




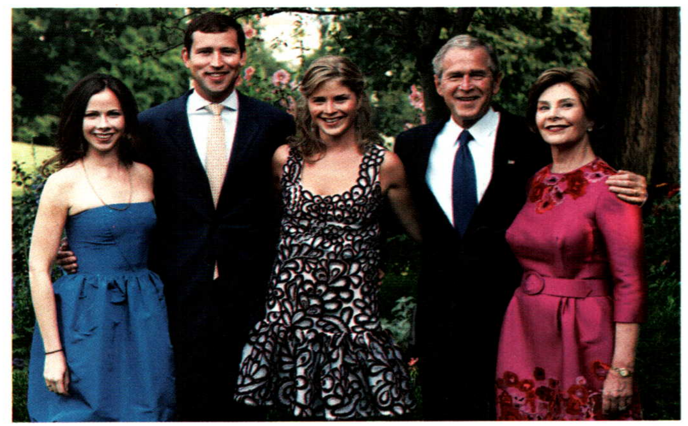
قاتل والدي مع والده في الحرب العالمية الثانية، إلا أن رئيس الوزراء الياباني «جونيشيرو كويزومي» وأنا عملنا، يداً بيد، لنشر الديمقراطية. كما قمنا بزيارة مسقط رأس مثاله الأعلى، «ألفيس برسلي».
البيت الأبيض/أريك درابر



في جولةٍ حول المزرعة مع ولي العهد السعودي، الأمير «عبد الله». وعندما ظهر ديك رومي في الطريق أمسك بذراعي وقال: «أخي، تلك إشارة من الله».
البيت الأبيض/أريك درابر



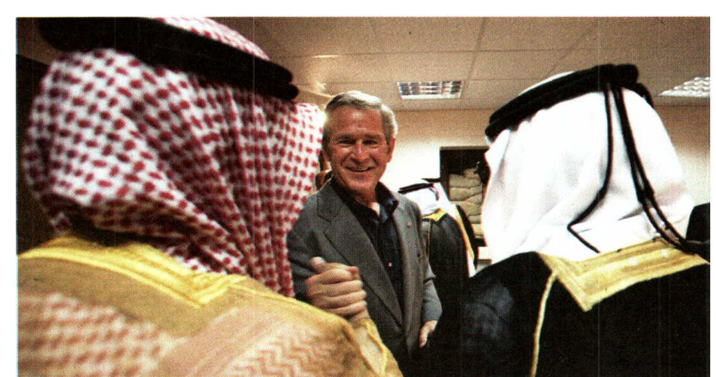
السير مع «جينا» عبر الممر يوم زفافها في كراوفورد في أيار/مايو ٢٠٠٨
البيت الأبيض/ شيلاه كريغهاد



في البيت الأبيض، أثناء حفل استقبال «جينا» وزوجها «هنري هيجر».
البيت الأبيض/ أريك درابر



أسرة «بوش» الكبيرة تحتفل بعيد زواج أبي وأمي الستين عام ٢٠٠٥، لم يسبق لرئيس سابق وسيدة أولى أن استمر زواجهما أكثر من ذلك. *البيت الأبيض/ أريك درابر*



في ولاية الأنبار، مع شيوخ السنّة، الذين حشدوا قبائلهم ضد القاعدة. «إذا احتجت لنا، فأنا ورجالي مستعدون للذهاب إلى أفغانستان».

البيت الأبيض/أريك درابر

في حفل تقاعد رئيس هيئة الأركان المشتركة «بيت بيس» في ٢٠٠٧ (إلى اليسار)، وبجانبنا خليفته الأميرال «مايك مولن» (إلى اليمين)، ووزير الدفاع «بوب غيتس».

البيت الأبيض/ دايفيد بوهرير

بعد رحلتي الجوية السرية إلى بغداد في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ التقيت رئيس الوزراء نوري المالكي وعقدنا اجتماعاً عراقياً أميركياً مشتركاً للأمن القومي عن طريق الفيديو كونفرانس (مؤتمر بالفيديو) ـ إلى يساري يقف السفير العراقي في أميركا زلماي خليل زاد.

البيت الأبيض/ أريك درابر





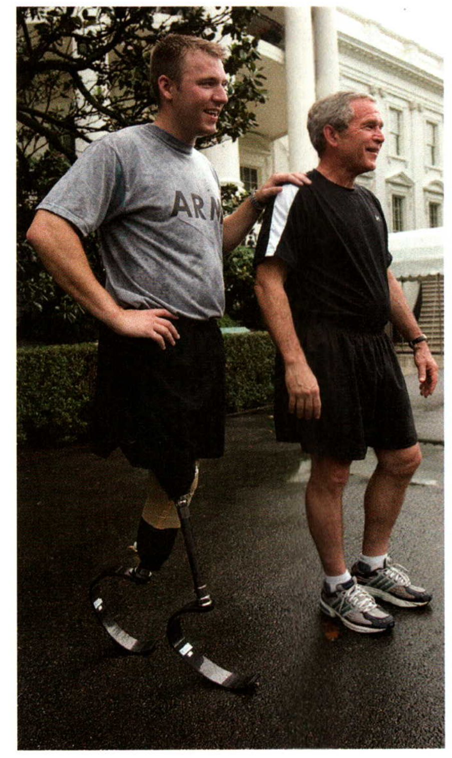
كان أمري بالتصعيد أصعب قرار رئاسي اتخذته. أرسلت ثلاثين ألف جندي إضافي، في إطار استراتيجية جديدة لمواجهة التصعيد التي ينفذّها الجنرال ديفيد بترايوس والسفير رايان كروكر.

البيت الأبيض/أريك درابر



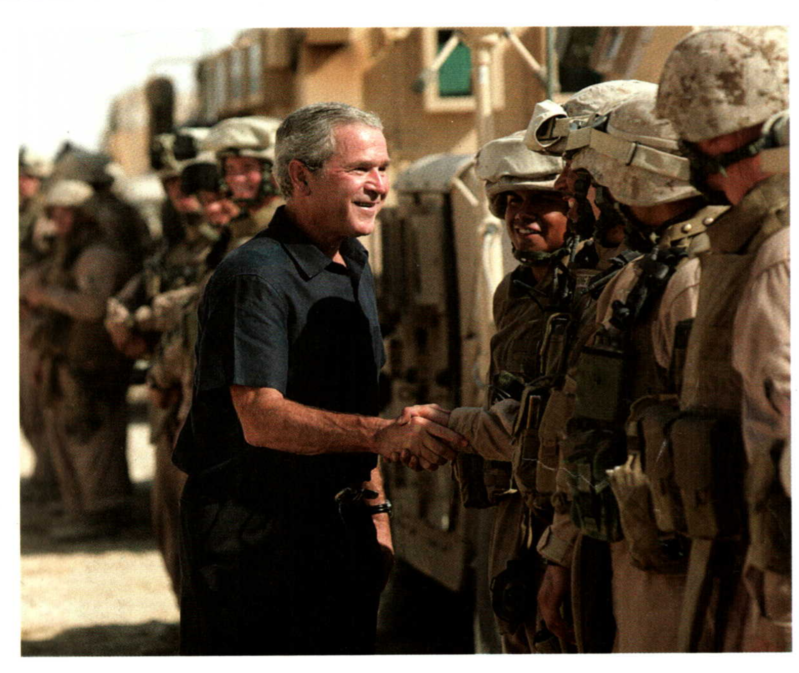
هزم العراقيون الإرهابيين بالتصويت ثلاث مرات عام ٢٠٠٥. هنا مع المصوّتين الغائبين في المكتب البيضاوي.

البيت الأبيض/ بول مورس



في مركز بروك الطبي التابع للجيش، أخبرني الرقيب «كريستيان باج» بأنه يريد الركض مرة ثانية، فأجبته: «اتّصل بي عندما تكون مستعداً». وبعد ستة أشهر، ظهر «كريستيان» وهو يركض حول الحديقة الجنوبية.

البيت الأبيض/أريك درابر

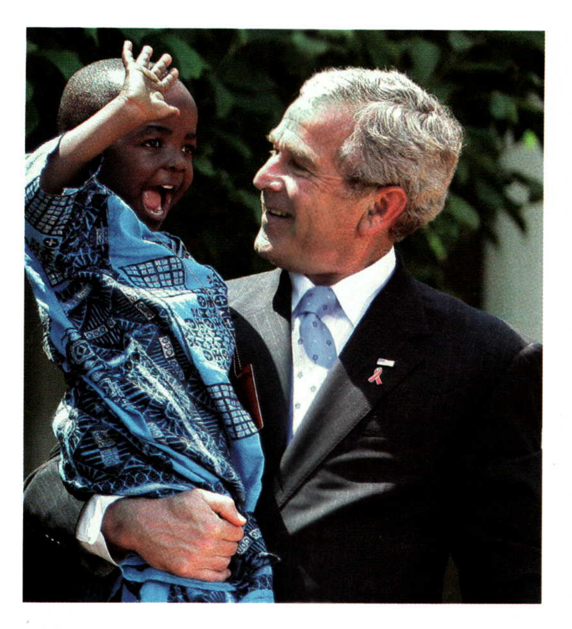


زيارة القوات في الأنبار عام ٢٠٠٧. كان أعظم شرفٍ لي كرئيس أن أخدم الشعب الذي أحب.

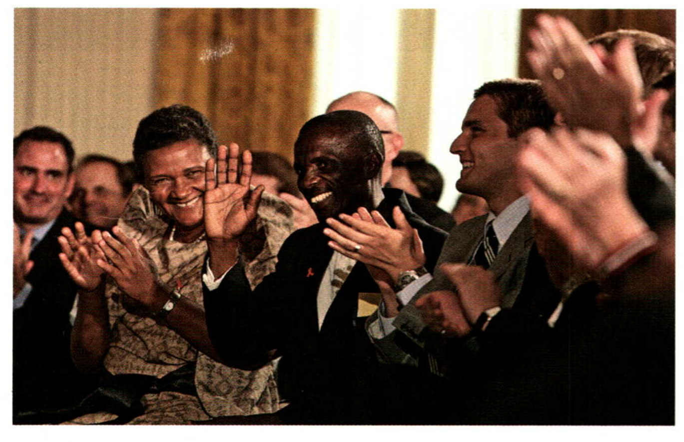
البيت الأبيض/ أريك درابر

وزّع شباك الأسرّة على الأمهات في أروشا، تنزانيا، كجزء من مبادرة مكافحة الملاريا.
بيت الأبيض/أريك درابر

يان مثير للاهتمام عن الأزياء في دار السلام بتنزانيا. إلا أنه، لسببٍ ما، لم يلقَ ترحيباً في الوطن.
البيت الأبيض/كريس غرينبيرغ



أحمل «بارون تانتوه» من كيب تاون، جنوب افريقيا، الذي وُلد سليماً من مرض الإيدز، بفضل برنامج «مبادرة الأم والطفل».
البيت الأبيض/أريك درابر

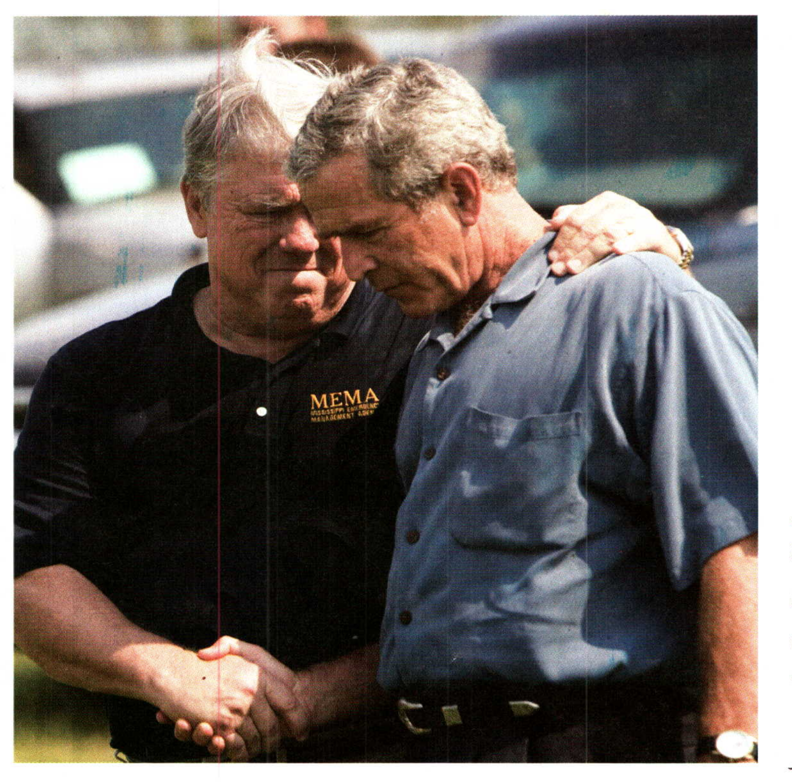


بعد خمس سنوات من لقائي «محمد كاليسوبولا» في عيادة تاسو(منظمة الإعانة ضد الإيدز) في أوغندا، أتى إلى الغرفة الشرقية لكي يشاهدني وأنا أوقّع مشروع قانون مضاعفة التزامنا (بالخطة الرئاسية الطارئة للإغاثة من الإيدز «بيبفار/PEPFAR")
البيت الأبيض/جويس بوغوسيان



مع نجم الروك الإيرلندي «بونو». سألت «جون بولتون» قبل اجتماعنا الأول: لقد كان متزوجاً من «شير»، أليس كذلك؟
البيت الأبيض/ بول موريس

على متن الطائرة الرئاسية في مطار نيو أورليانز، أطالب المسؤولين في لويزيانا وبإلحاح بإخضاع أعمال لاستجابة لإعصار كاترينا إلى سلطة الحكومة الفيدرالية. ولكن الحاكمة بلانكو رفضت ذلك (على الطاولة باتجاه حركة عقارب الساعة: المحافظ «راي ناجين»، السيناتور «ماري لاندريو»، السيناتور «دايفيد فيتر»، وزير الأمن الداخلي «مايك شيرتوف»، النائب «بوبي جيندال»، النائب «ويليام جيفرسون» والحاكمة «كاثلين بلانكو»). *البيت الأبيض/أريك درابر*



ظهر محافظ ميسيسيبي «هالي بربور» قيادة مدهشة. «الناس في ميسيسبي يرتدون ملابسهم ويستعدون لإعادة بناء لمدينة».

لبيت الأبيض/ أريك درابر



مشهد نيو أورليانز المرعب من الطائرة الرئاسية، بعد يومين من إعصار «كاترينا». كان عليّ الهبوط في الباتون روج، حيث كان بإمكاني التعبير عن قلقي دون أن أعيق جهود الإغاثة.
البيت الأبيض/بول مورس



أعزّي ضحايا إعصار «كاترينا» بعد أربعة أيام من دمار الأرض. الادعاء بأن العنصرية أدّت دورها في رد فعل الحكومة، كان أحد أسوأ اللحظات في عهدي.
البيت الأبيض/أريك درابر

جالساً مع رجل من بيلوكسي في ميسيسيبي على ما كان في الماضي، السلم الأمامي لمنزله. *البيت الأبيض/ أريك درابر*

غادر الطائرة الرئاسية يوم الانتخابات عام ٢٠٠٤. تلقّينا للتو نتائج استطلاعات الرأي التي تفترض أن خسارتي ستكون فادحة. *البيت الأبيض/ بول مورس*

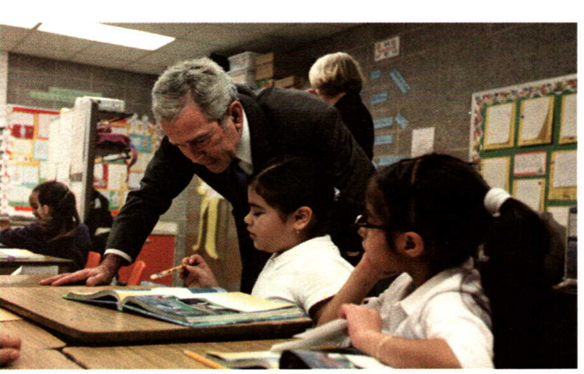


ي مقر إقامتي في البيت
لأبيض عشية الانتخابات عام
٢٠٠، بانتظار النتيجة.
بيت الأبيض/ أريك درابر



مع السيناتور «تيد كنيدي» بداية عام ٢٠٠١. عملنا معاً على الإصلاحات التربوية والخاصة بالهجرة مع أننا لم نكن متفقين على مسألة الحرب.

البيت الأبيض/ إريك درابر

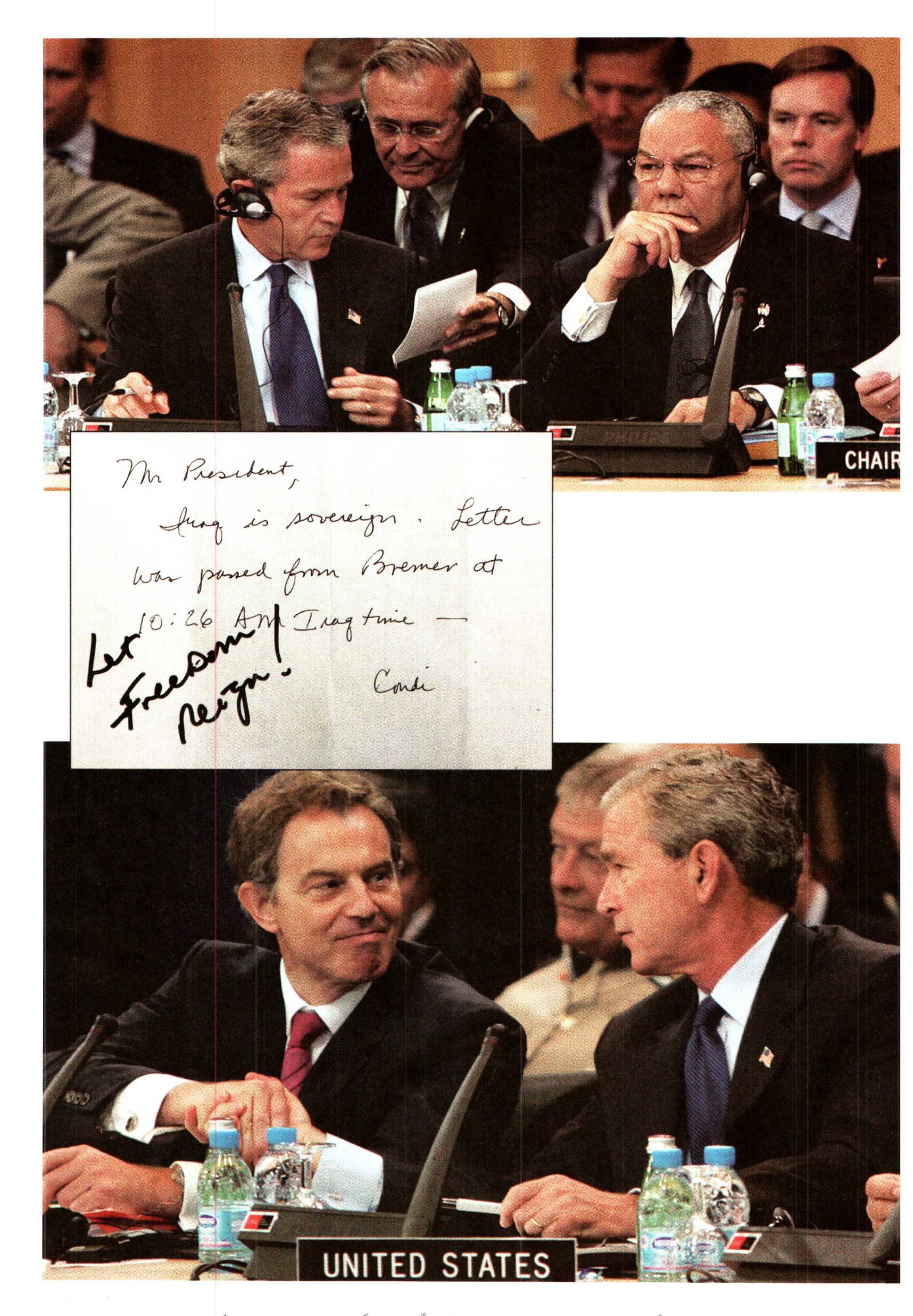


في مدرسة هوريس غريلي الابتدائية في شيكاغو، وهي مدرسة لطلاب ينتمون إلى عائلات ذات دخل منخفض، تحسّن مستوى إتقان ٩٢ في المئة من الطلاب للقراءة والرياضيات، بفضل قانون (لا طفل مهمل /No Child Left Behind).

البيت الأبيض/ جويس بوغوزيان



استمهلت القوة من الحشود الغفيرة الداعمة لحملتي الانتخابية عام ٢٠٠٤. هنا ألقي كلمة في تروي، أوهايو. *البيت الأبيض/ بول مورس*



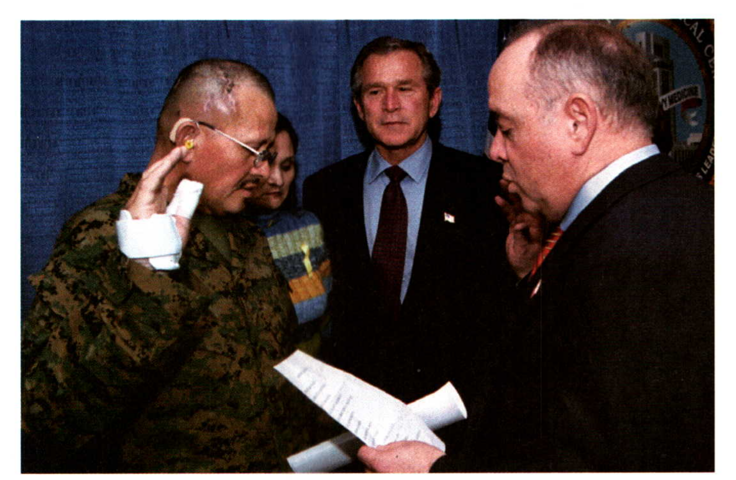
Mr President,

Iraq is sovereign. Letter was passed from Bremer at 10:26 AM Iraq time —

Condi

Let Freedom Reign!

خلال قمة الناتو في تركيا، سلّمني «دون رامسفيلد» رسالةً قصيرةً من «كوندي» أبلغتني فيها عن نجاح عملية انتقال السيادة في العراق بشكلٍ ناجح، فاحتفلت بالأمر مع «توني بلير». *البيت الأبيض/ إريك درابر*



بعد إصابته في العراق، شدد الرقيب القائد في سلاح المدفعية «جوادلوب دينوجين» على مطلبين: ترقية الجندي في سلاح البحرية الذي أنقذ حياته؛ والحصول على الجنسية الأميركية.



البيت الأبيض/ إريك درابر



شكّلت زيارة المصابين الجزء الأكثر صعوبة والأكثر إلهاماً من فترتي الرئاسية. هنا، في مركز والتر ريد العسكري الطبي، برفقة الرقيب «باتريك هاجود».

البيت الأبيض/ بول مورس

في المكتب البيضاوي، استخدم رجل عراقي يده الاصطناعية الجديدة لتدوين صلاة إلى الله ليبارك أميركا.

البيت الأبيض / إريك درابر



في الحديقة الجنوبية، بعد توجيه الأوامر إلى وحدات الجيش بغزو العراق.

البيت الأبيض/ إريك درابر

على متن الطائرة الرئاسية عند مشارف بغداد، يوم عيد الشكر ٢٠٠٣. *البيت الأبيض/ تينا هيجر*

كل الأجيال المظلومة باسم قوانين الإنسان، لا يمكنها أن تسحق الأمل بالحرية أو أن تهزم أهداف الخالق..... خلال نضال القرون، تعلّمت أميركا أن الحرية ليست ملكاً لشعب أو عرق. وندرك كذلك، أن الحرية ليست بيد أمةٍ واحدة. هذا الإيمان بالحقوق الطبيعية للإنسان، وهذه القناعة التي ينبغي أن تصل إليها العدالة، أينما سطع نور، هو ما حتّم على أميركا قيادة العالم، بالقوة والموارد المقدمة لنا، تسعى الولايات المتحدة لإحلال السلام حيث يوجد الصراع، وحيث يُعاني الأمل، وحيث تُقمع الحرية.

شكّلت خطة بيبفار فصلاً جديداً من قصص اكتشاف الحرية والأمل والكرامة في أفريقيا. ففي كل دولةٍ زرتها، وعدت بأن تفي أميركا بالتزاماتها، وفي جنوب أفريقيا حيث يعيش حوالى خمسة ملايين مع فيروس الإيدز، حثثت الرئيس المتردّد ثابو مبيكي على مواجهة المرض علناً ومباشرة. وفي بوتسوانا، الدولة الغنية نسبياً حيث كان ٣٨ في المئة من السكان البالغين مصابين، تعهّد الرئيس فيستوس موجاي باستخدام أموال منظمة بيبفار في مواصلة جهده المثير للإعجاب الذي بدأه لمكافحة المرض. وقمت بزيارة النساء اللواتي استفدن من مبادرة الأم والطفل، في المستشفى الوطني في أبوجا بنيجيريا. قابلنَني بابتسامةٍ فرحةٍ ورأيت أطفالهن وكانوا بصحةٍ جيدة. ولكن في مقابل كل طفل رضيعٍ وُلِد خالياً من الإصابة، بدأ أطفال أكثر حياتهم مُثقَلين بالمرض.

وكان أكثر ما أذكره عن الرحلة، زيارتنا لعيادة تاسو في أوغندا، حيث التقيت محمد كاليسوبولا. اصطحبني الرئيس يوري موسيفيني وزوجته جانيت مع لورا إلى الغرف حيث عانقت المرضى. فتح الكثيرون قلوبهم لنا وتحدّثوا بانفتاح، وشاركونا آمالهم وكذلك مخاوفهم. أخبرتني إحدى الممرضات وكان إسمها آغنيس أن زوجها توفي بمرض الإيدز في عام ١٩٩٢ وعندما قامت بإجراء الاختبارات، اكتشف أنها أيضاً تحمل فيروس الإيدز، وأنها كانت واحدةً من القليلات المحظوظات اللواتي تمكّنّ من الحصول على العقاقير المضادة للفيروس. وحثتني على إرسال أدويةٍ

أكثر في أقرب وقتٍ ممكن، وعندما وصلت العقاقير التي تدعمها منظمة بيبفار إلى أوغندا، ساعدت الممرضة آغنس كثيراً من المرضى في تاسو في علاجهم، وكان محمد أحدهم، وعندما حضر إلى البيت الأبيض عام ٢٠٠٨، رافقته آغنس أيضاً.

قال مدير تاسو وهو طبيب يدعى أليكس كوتينهو إنني كنتُ أول زعيم عالمي، شوهد وهو يحضن مريضاً أفريقياً ومصاباً بالإيدز. اندهشتُ وتذكّرتُ أمي، عندما تناقلت الأخبار الدولية أنها عانقت أطفالاً رضّعاً مصابين بفيروس الإيدز عام ١٩٨٩. وبدّد تصرفها آنذاك، أسطورة أن المرض يمكن أن ينتقل عن طريق الاتصال البشري العَرَضي. كنت فخوراً بحمل إرثها من خلال الحد من وصمة العار المرتبطة بالإيدز. وكنت آمل، من خلال بعض الطرائق الصغيرة، أن يستعيد المريض كرامته. وفوق كل ذلك، أردت أن أظهر أن الشعب الأميركي يهتم بالآخرين.

* * *

من أبرز الأمور المهمة في رحلتنا إلى أفريقيا، أن ابنتنا باربرا انضمت إلينا؛ وذهبت معها ومع لورا في رحلة سفاري في المحمية الطبيعية «موكولودي»، وكنا نطمع في الاسترخاء، والحصول على بعض الهواء النقي، ورؤية بعض الحيوانات البرية. ولإشباع شهية الصحفيين الذين يرتحلون معنا، قرّر موظفو البيت الأبيض أن نلتقط صورة.

كالعادة، كانت التحضيرات دقيقة، وشاحنة الصحافة مليئة بالكاميرات والصحافيين. وحيث كانت سيارتنا بالقرب من الزاوية، اصطفّ الصحفيون في موقع ممتازٍ ليتمكّنوا من التقاط صورةٍ أوضح لنا ونحن نراقب الفِيَلَة. من الواضح أن الفِيَلةً لم تعرف ماذا يحصل. فبعد فترة وجيزة من وصولنا، هجم فيل ذكر هائج على إحدى الإناث، وكان كل ذلك على الهواء مباشرة. تحول لون فريقنا تحت أشعة الشمس الأفريقية الحارة إلى اللون الشاحب، وانفجرت أنا ولورا وباربرا من الضحك.

كانت تلك الزيارة أولى زيارات باربرا إلى إفريقيا، وأثّرت فيها تأثيراً عميقاً. فبعد

تخرّجها من الجامعة، والعمل التطّوعي في حملتي الانتخابية عام ٢٠٠٤، ذهبت للعمل في عيادة الصليب الأحمر في مستشفى النصب التذكاري للحرب في كيب تاون جنوب أفريقيا، وهي عيادة متخصّصة بعلاج الأطفال المصابين بالإيدز. ومن واقع تجربتها، أسّست باربرا منظمةً صحيةً عالميةً لا تبغي الربح، وبناء على نموذجٍ مماثلٍ للتعليم في أميركا، أرسلت منظمتها جامعيين، حديثي التخرج إلى عيادات في ثلاثة بلدان أفريقية، واثنتين من المدن الأميركية الداخلية. تطوّعوا لتقديم الرعاية إلى مرضى الإيدز وأمراضٍ أخرى، وتعزيز البنية التحتية الصحية، ومساعدة الناس على العيش بكرامةٍ وأمل.

ووجدت جينا أيضاً شغفاً بالعمل مع مرضى الايدز، فتطوّعت مع منظمة الأمم المتحدة للطفولة ـ اليونيسيف UNICEF في بلدان عدة من أميركا اللاتينية. وعندما عادت إلى المنزل كتبت كتاباً رائعاً حقق رقماً قياسياً في المبيعات «قصة آن»، حول فتاة وُلِدت مصابةً بفيروس الإيدز.

كنا أنا ولورا فخورين جداً بابنتينا. فلقد أصبحتا سيدتين محترفتين، تخدمان قضيةً كبيرةً، وتشكّلان جزءاً من حركة أكبر من الأميركيين، الذين يكرسون وقتهم وأموالهم لمساعدة من هم أقل حظاً. هذه النفوس الطيبة هي جزء مما أسميه جيوش الرحمة. كثير منهم يأتون من منظمات دينية، ولا يسعون خلف أي مصلحة أو تعويض. فهم يتلقّون تعويضهم بشكلٍ مختلف.

* * *

كان أحد أول القرارات وأكثرها أهمية في بيبفار هو من سيدير هذه الخطة. فقد كنت أريد مديراً ذا كفاءةٍ عالية، وعلى درايةٍ بكيفية تنظيم بنية المؤسسات، التي تركّز على النتائج. ووجدت الرجل المناسب، وهو رجل أعمالٍ ناجح من إنديانا يُدعى راندال توبياس، وقد شغل منصب الرئيس التنفيذي السابق لشركة (إيلي ليللي).

كان أول تقارير راندي محبطاً. فبعد عام من توقيعي بيبفار، كان أقل من مئة ألف مريضٍ يتلقّون الأدوية المضادة للفيروسات.

هذا كل شيء؟ أمامنا شوط طويل للوصول إلى مليونيْ مريض.

أكد لي راندي أن خطة بيبفار تسير كما يجب، وأن أهم المهام خلال السنة الأولى هي الحصول على بلدان شريكةٍ لوضع استراتيجياتها وتعبئة القوى العاملة والبدء في إنشاء البنية التحتية. فعندما يكون لدينا هذا الأساس، سيرتفع عدد الأشخاص الذين يحصلون على العقاقير ارتفاعاً كبيراً.

بحلول خريف عام ٢٠٠٥، كان شركاؤنا الأفارقة يشاركون مشاركةً كاملة. فالجماعات العقائدية وغيرها من المجموعات الأخرى الأميركية والأفريقية التي تدعمها الخطة يساعدون موظّفي العيادات، ويساهمون في نشر رسائل الوقاية إلى الملايين في جميع أنحاء القارة. كما كان الأيتام والمرضى الذين يحتضرون، يلقون الرعاية والرأفة. في هذه الفترة، كان حوالي ٤٠٠ ألف شخصٍ يحصلون على الأدوية المضادة للفيروسات. وكنا على درب الوصول إلى هدفنا.

* * *

للأسف، لم يكن الإيدز هو المرض الوحيد الذي يضرب أفريقيا بحلول عام ٢٠٠٥. فقد قتلت الملاريا ما يقرب من مليون أفريقي سنوياً، كان أغلبهم أطفالاً أصغر من خمس سنين. وكانت العدوى تنتقل عن طريق لدغة البعوض. شكّلت الملاريا ٩ في المئة من جميع الوفيات في أفريقيا، بل وأكثر من الإيدز. وقدّر الاقتصاديون أن المرض يكلف أفريقيا ١٢ مليار دولار سنوياً، كنفقاتٍ طبية، وفقدان إنتاج؛ وهو ما كان بمثابة الضربة القاضية للاقتصاديات الهشّة.

كان يمكن تفادي كل هذه الوفيات. فالملاريا يمكن علاجها وتفاديها، وقد قضت الولايات المتحدة عليها في خمسينيات القرن الماضي. وهناك استراتيجية واضحة لمكافحة هذا المرض، وتطلب هذا الجمع ما بين مبيدات الحشرات وشباك

الأسرّة والأدوية للمصابين بالمرض. ولم تكن هذه الحلول غالية الثمن، فشباك الأسرّة تتكلّف الواحدة منها عشرة دولارات، بما في ذلك الشحن.

أعلنتُ في حزيران/يونيو عام ٢٠٠٥، عن برنامجٍ لخمس سنوات، قيمته ١,٢ مليار دولار لدعم جهود القضاء على الملاريا في خمس عشرة دولةً. ومثل خطة بيبفار، سيدعم برنامج الملاريا الرئاسي الشعوب الأفريقية لتصميم استراتيجيات تناسب احتياجاتهم، ونعمل فيه معاً نحو هدف مشترك، وهو تقليص عدد الوفيات بسبب الملاريا إلى النصف خلال السنوات الخمس التالية.

قمتُ بتعيين الأدميرال تيم زيمر، وهو طيار بحرية سابق ذو خبرة في أعمال الإغاثة الدولية، لقيادة مبادرة الملاريا. وفي العامين الأولين وصلت المبادرة إلى أحد عشر مليون شخص افريقي. وقمتُ أيضاً بحث رد فعل قوي لدى الشعب الأميركي. فقام الأشبال والزهرات وفرقهم والفصول في المدارس بالتبرع بأموال من عشرة دولارات وأكثر لشراء شباك الأسرّة للأطفال في أفريقيا، كما قامت المنظمات الدينية والشركات الكبيرة، وبخاصة تلك التي لديها أعمال في أفريقيا، بالتبرّع بسخاء للمشروع.

وبدعم برنامج الملاريا، بدأت معدلات الإصابة في المناطق المستهدفة في الانخفاض، وكان أكبر تغيير في زنجبار، حيث تبنّى مسؤولو الصحة حملةً مكثفةً من رش المبيدات وتوزيع شباك الأسرّة والأدوية لمرضى الملاريا والنساء الحوامل، وفي جزيرةٍ واحدةٍ في زنجبار انخفض عدد المصابين بالملاريا إلى أكثر من ٩٠ في المئة في عام واحد.

في ٢٥ نيسان/أبريل عام ٢٠٠٧ ، قمت أنا و لورا باستضافة اليوم الأميركي الأول للتوعية من الملاريا في حديقة الورد، وكانت فرصةً رائعةً للتقدم وليرى المواطنون نتائج كرمهم. ومع نهاية كلامي، قامت فرقة رقص من غرب أفريقيا تُدعى كانكوران بأداء أغنية على الهواء، وكان الجمهور في مزاجٍ احتفالي حتى أنني قمت بمشاركة الراقصين على المنصة، وتم تشغيل الفيلم الخاص بي في الأخبار الوطنية وأصبحتُ

مبعث دعابةٍ على اليوتيوب. أغتاظت مني ابنتاي كثيراً وقالتا: لم يكن من المفروض أن ترقص يا أبي، ورددت عليهما: «كان هدفي هو رفع التوعية».

* * *

في عام ٢٠٠٦، تفوّق مارك ديبل على توبياس راندي كمنسقٍ بيبفار. وكطبيب معالجٍ وشخصيةٍ وقورةٍ في مجتمع المصابين بالإيدز، حقّق مارك صدقيّةً عظيمةً، وأخبرني بعد إحدى رحلاته إلى أفريقيا أن الكثيرين في القارة كانوا حريصين على معرفة ماذا سيحدث بعد انتهاء مدة صلاحية ترخيص الخطة التي تنتهي في عام ٢٠٠٨ بعدما دامت خمس سنوات. كانت الحكومات والشعوب تعوّل على دعمنا المستمر، فقد أخبرني مارك أنه سأل المرضى في عيادةٍ صحيةٍ رسميةٍ في إثيوبيا إذا ما كان أحد يعرف إلى ماذا يرمز الاختصار بيبفار، فأجابه رجل: نعم، بيبفار تعني أن الشعب الأميركي يهتم بنا.

آمن مارك بأن لدينا مسؤوليةً من ناحية إتمام البرنامج، وأن لدينا فرصةً لتحقيق تقدمنا عن طريق مضاعفة مستوى تمويل مبادرة الخطة. فلقد تمكنا من علاجٍ ٢,٥ مليون شخص ومنع العدوى عن ١٢ مليون شخص كما أننا نقدم الرعاية إلى ١٢ مليوناً آخرين على مدار السنوات الخمس القادمة.

قد تشكّل مضاعفة الميزانية التزاماً كبيراً. إلا أن مبادرة الإيدز كانت تنجح، فقررت الحفاظ على قوة الدفع المستمرة. وفي ٣٠ أيار/مايو عام ٢٠٠٧، خطوت داخل حديقة الورد وطلبتُ من الكونغرس إعادة ترخيص المبادرة بالتزامٍ جديدٍ يتعدى الثلاثين مليار دولار خلال السنوات الخمس المقبلة.

ولتسليط الضوء على أهمية التطوّر الذي توصّلنا إليه، قمت بدعوة إمرأةٍ من جنوب أفريقيا تُدعى كونين تانتوه، سبق أن التقت لورا بها منذ سنتين وشاركتها قصّتها المُلهِمة معي. كانت كونين تعاني من فيروس الإيدز، وبفضل الأدوية التي حصلت عليها من قِبَل مبادرة الأم والطفل، تمكّنت من إنجاب طفلٍ كامل الصحّة.

بعد الخطاب، حملتُ بارون البالغ من العمر أربع سنوات بين ذراعيّ وابتسمت لفكرة أن الحياة الثمينة لهذا الولد بين يديّ قد تمّ إنقاذها من قِبَل دافعي الضرائب الأميركيين. قام بارون باستعراض طاقته وصحّته الجيدة بالتلويح بين الكاميرات مسلّماً عليها. من بعدها، تكلّمنا اللغة العالمية، لغة النظرات. فقال لي معبّراً بعينيْه: «هذا يكفي. دعني أنزل».

وكانت الخطوة التالية هنا تقضي بإقناع الدول الأخرى بالانضمام إلينا. ففي صيف ٢٠٠٧، سافرت مع لورا إلى ألمانيا لحضور اجتماع القمة لرؤساء دول مجموعة الثماني باستضافة مستشارة رئيسة الوزراء الألمانية أنجيلا ميركيل. كانت مهمتنا الرئيسية تدور حول إقناع زملائنا رؤساء دول مجموعة الثماني بمطابقة تعهّدات أميركا في ما يتعلّق بالإيدز والملاريا.

أخبرتني أنجيلا أن الموضوع الرئيسي للقمة هو الاحتباس الحراري، وكنت مستعداً لأقدّم مشاركتي البنّاءة حول الموضوع. في كتاباتي عام ٢٠٠٦ بعنوان «دولة الاتحاد» قلت إن أميركا مدمنة على النفط. إلا أن هذا التصريح لم يلقَ ترحيباً لدى بعض أصدقائي في ولاية تكساس. فقد سبق وعملت مع الكونغرس لتشجيع بدائل النفط بما في ذلك الوقود الحيوي ومركبات الهيدروجين والغاز الطبيعي والفحم النظيف والطاقة النووية. كذلك، وعلى عكس بروتوكول كيوتو المُعيب، قمت باقتراح عمليةٍ دوليةٍ جمعت جميع الانبعاثات الرئيسية بما فيها الصين والهند، معتمدة على تكنولوجيا الطاقة النظيفة لخفض انبعاثات الغازات المسبّبة للاحتباس الحراري، من دون عرقلة النمو الاقتصادي اللازم لحل المشكلة.

كنت قلقاً من أن التركيز المكثّف على تغيير المناخ سيسبّب إغفال الأمم الاحتياجات الفورية للعالم النامي. قلت لأنجيلا: «إذا كان زعماء العالم سيناقشون مسألةً قد تشكل مشكلةً بعد خمسين سنة من الآن، فإنني أفضل أن نفعل شيئاً حيال الشعوب التي تموت من الإيدز والملاريا الآن».

وافق قادة مجموعة الثماني بمساعدة أنجيلا، بأن تتطابق إغاثة الإيدز مع الأهداف التي حدّدتها أميركا. معاً سوف نقدم العلاج لخمسة ملايين نسمة ونمنع أربعة وعشرين مليون إصابة بالعدوى، كما سندعم الرعاية لأربعة وعشرين مليون نسمة إضافية على مدى السنوات الخمس القادمة. ووفقوا أيضاً على أهداف مبادرتنا لمكافحة الملاريا، تلك الالتزامات التاريخية التي من شأنها أن تشكل فرقاً هائلاً في حياة الناس في أفريقيا وباقي أنحاء العالم. وسيكون على الإدارات المستقبلية ضمان إيفاء الأمم بتعهداتها.

* * *

كانت مبادئ المساءلة والشراكة التي استرشدت بها منظمة بيبفار سبباً أيضاً لنهجنا الجديد في التنمية الاقتصادية، وهو ما أسميه حساب تحدي الألفية MCA. ولكي تكون البلدان مؤهلةً للحصول على أموال MCA فلا بد أن تستوفي المعايير الثلاثة المحددة بوضوح وهي: حكومة خالية من الفساد، ومتابعة السياسات الاقتصادية القائمة على السوق، والاستثمار في صحة وتعليم شعوبها. وكان التغيير في النهج مثيراً، فسوف يتم التعامل مع المعونة الاقتصادية كاستثمار بدلاً من الصدقة، وسوف يُقاس النجاح بالنتائج المحقّقة وليس بالأموال المنفقة.

لقي حساب تحدي الألفية MCA دعماً من بعض المصادر غير المتوقّعة. كان واحداً منها بونو، المغني الرئيسي الأيرلندي في فرقة U2؛ الذي يعرفه جوش وكوندي، وقد أخبراني أن هذا النجم يريد زيارتي في المكتب البيضاوي. كنت متشكّكاً في المشاهير الذين يبدو أنهم يتبنّون قضية اللحظة باعتبارها الوسيلة الحالية للتقدم في حياتهم المهنية. إلا أنهما أكدا لي أن بونو كان الصفقة الحقيقة.

كانت زيارته مقررة في الصباح وأنا أعلن عن حساب تحدي الألفية MCA في ١٤ آذار/مارس ٢٠٠٢. قدّم لي جوش إحاطةً سريعةً حول القضايا المرجح أن

تُثار. كان بمنتهى الدقة، وكان لديه سؤال واحد أخير قبل تقديم ضيفنا في المكتب البيضاوي: السيد الرئيس، أنت تعرف من هو بونو، أليس كذلك؟.

قلت: «بالطبع». وأضفت: «إنه نجم الروك». هز جوش رأسه وهو يتوجّه نحو الباب. «كان متزوجاً بشير، أليس كذلك؟» قلت. التفت جوش غير مصدق، واحتفظت بالجدية على وجهي قدر استطاعتي.

دخل بونو المكتب البيضاوي بشخصيته القوية وهيبته. وبسرعة، أزال من رأسه فكرة أنه يجيد الدعاية لنفسه. كان يعرف ميزانياتنا، من الاطّلاع على الحقائق ووجهات النظر حول التحديات في أفريقيا. أحضر لي هديةً قيّمةً، هي الكتاب المقدس الإيرلندي القديم. وسأل: هل تعلمون أن الآية ٢٠٠٣ من الكتاب المقدس تتعلّق مباشرة بفقراء العالم؟. ثم أردف: الناس يسارعون للإشارة إلى الخطايا الواضحة مثل الخيانة الزوجية. ولكن في بعض الأحيان نتجاهل الأكثر خطورة. ويذكر الكتاب المقدس في مكانٍ واحد فقط، في متى ٢٥: «وأقل شيء تفعلونه لأحد من إخوتي هؤلاء، كأنكم تفعلونه لي».

أجبته: «أنت على حق، إن إغفال هذه الخطايا الأخرى خطيئة». لقد سرّني عندما أعرب عن تأييده القوي لحساب تحدي الألفية والذي يعتقد أنه سوف يُحدث ثورةً في الطريقة التي يتّبعها العالم للتنمية.

أصغيت بعناية له وهو يحثني على بذل مزيد من الجهد بشأن فيروس الإيدز. «بحباتٍ قليلةٍ يمكنك إنقاذ الملايين من الأرواح. إنها أفضل دعايةٍ ممكنةٍ بالنسبة للولايات المتحدة. ينبغي أن تُطلى الأشياء بالأحمر والأبيض والأزرق».

بعد لقائنا انضم إليّ في سيارة الليموزين، كلّ من بونو والكاردينال تيودور ماك كاريك، وهو رجل لطيف، حلو المعشر. توجّهنا لإلقاء الخطاب في بنك التنمية الأميركي الداخلي. وشارك بونو في هذه المناسبة وأشاد بسياستنا. علمت لاحقاً أن أحد أكبر المموّلين لديه، المستثمر الليبرالي المتطرف جورج سوروس انتقد بونو

لانضمامه إليّ في مناسبة حساب تحدي الألفية دون أن يكون هناك مردود في المقابل. وقال سوروس لبونو: لقد بعت نفسك مقابل طبقٍ من العدس.

كبر احترامي لبونو مع مرور الوقت. كان ودوداً مع لورا والفتاتين، وغالباً ما كان يرسل بطاقات شكر. إنه رجل ذو إيمان حقيقي. قد يكون بونو إنساناً انفعالياً، ولكن ليس بطريقةٍ ساخرةٍ أو سياسية. عندما بدأت بيبفار ببطء، جاء لمقابلتي في المكتب البيضاوي وقال: أنت الرجل ذو النتائج القابلة للقياس فأين هي النتائج؟ وكنت سأجيبه إلا أنه لم يسمح لي أن أقول له كلمةً على انفراد. وعندما انطلق البرنامج وقال: أنا آسف لأني شككتُ بك، ضحكت وقلت: «بالمناسبة، هل تعرف أن الحكومة الأميركية الآن أكبر مشترٍ للواقي الذكري في العالم؟»

كان بونو يتميز بأنه صاحب قلبٍ كبيرٍ ولسانٍ حاد. وكان دافعه الوحيد شغفه بالقضية التي نتشارك بها. وقد أنزلناه أنا ولورا وباربرا وجينا في أنفسنا منزلةً عالية.

* * *

لم يتّفق الجميع مع بونو. وبعد ثلاثة أشهر من إعلاني عن حساب تحدي الألفية، توجّهت الى قمة الثماني في كاناناسكيس في كندا. أثار رئيس الوزراء جان كريتين موضوع المساعدات الخارجية، وكنت أول المتكلمين. تحدثت عن مبادىء حساب تحدي الألفية المرتكزة على النتائج، وهي انطلاقة سريعة لتقليد قمة الثماني بقياس الكرم بالنسبة المئوية لإجمالي الناتج المحلي الذي تخصّصه الدول للمساعدات الخارجية.

بعد انتهائي، انحنى عليّ جاك شيراك وربّت على ذراعي وقال لي: «أنت أحادي جداً يا جورج»، ثم أطلق العنان لنفسه وقال: «كيف تصر أميركا على ربط المساعدات الخارجية بمكافحة الفساد؟». في النهاية، العالم الحر هو الذي خلق الفساد! وأوضح أنه يعتقد أني لا أفهم الثقافة الأفريقية.

لم يكن أول لقاء لي مع شيراك مسلّياً. بدا على استعداد لإلقاء التبعة على العالم

النامي في مسائل الفساد والفقر وسوء الحكم، لأنه أحس بالذنب حيال ما فعلته دول مستعمِرة مثل فرنسا في زمن الاستعمار.

عندما اختتمت المحاضرة، رفعت يدي، وهزّ كريتيان رأسه. كان يريد أن يعطي الزعماء الآخرين فرصة للكلام، لكنني لم أكن استطيع أن أدع تصريح شيراك يمر. أجبت بقوة: أميركا لم تستعمر دولاً أفريقية. أميركا لم تخلق الفساد. أميركا تعبت من رؤية المال يُسرق بينما الشعوب غارقة في العذاب. نعم لن نغير سياستنا سواء أعجبكم ذلك أم لا.

عبّر شيراك عن رأيه، وكذلك فعلت أنا. كان معظم القادة الآخرين مصدومين. ابتسم صديقي رئيس وزراء اليابان كويزومي لبرهة وأومأ برأسه علامةً خفيةً على الموافقة.

على مدى السنوات الست التالية، أنفق حساب تحدي الألفية ٦,٧ مليار دولار على التمويل التأسيس في ٣٥ دولة شريكة. استعملت ليسوتو حساب تحدي الألفية لتحسين إمدادات المياه، في حين أنشأت بوركينو فاسو نظاماً موثوقاً لحقوق الملكية. وكانت مشاريع مثل هذه محفّزة للبلدان لتطوير الأسواق التي تعزّز نمو القطاع الخاص، وجذب رؤوس الأموال الأجنبية، وتسهيل التجارة، التي كانت أساسية في جدول أعمالي لتنمية بلدي. وقد أفادت التجارة الحرة والعادلة الولايات المتحدة من خلال خلق بائعين جددٍ لمنتجاتنا، إلى جانب المزيد من الخيارات وأفضل الأسعار لعملائنا. إن التجارة هي أيضاً أضمن طريقة لمساعدة الناس في العالم النامي على تنمية قتصادياتهم وانتشال أنفسهم من الفقر. ووفقاً لإحدى الدراسات، فإن فوائد التجارة أكثر فاعليةً بأربعين مرةً في الحد من الفقر، من المساعدات الخارجية.

عندما توليت منصبي، كان لأميركا اتفاقات تجارة حرة مع ثلاثة بلدان هي: كندا والمكسيك وإسرائيل. وفي الوقت الذي تركت فيه المنصب، كان لدينا اتفاقات مع سبعة عشر بلداً بما في ذلك البلدان النامية مثل الأردن، والمغرب، وسلطنة عمان، والديمقراطيات الصغيرة في أميركا الوسطى. وفي نهجنا لمواصلة تعزيز الاقتصاديات

الأفريقية، عملنا مع شركائنا في الدول الثماني لإلغاء أكثر من ٣٤ مليار دولار من الديون على البلدان الأفريقية الفقيرة. اعتمدت المبادرة على تخفيف عبء الديون الكبيرة الذي أمّنه الرئيس كلينتون. وقد أشار تقرير منظمة بونو للمعلومات أن تخفيف عبء الديون سمح للأمم الأفريقية بإرسال ٤٢ مليون طفل إلى المدرسة.

كانت إحدى المبادرات الاقتصادية الحيوية قانون النمو والفرص الأفريقية، الذي ألغى الرسوم الجمركية على معظم صادرات البلدان الأفريقية إلى الولايات المتحدة. وقد وقّع الرئيس كلينتون قانون النمو والفرص الأفريقية «أجوا» AGO؛ الذي عملت بدوري مع الكونغرس لتوسيعه. ورأيت تأثيره المباشر عندما التقيت مع أصحاب المشاريع في غانا الذين صدّروا منتجاتهم إلى الولايات المتحدة. وقد باشرت امرأة تحت اسم «ماماز العالمية»، وهي متخصّصة في مساعدة النساء صاحبات الحرف، في العثور على أسواق جديدة لبيع السلع مثل الصابون، والسلال، والمجوهرات. وتوسّعت شركتها على مدى خمس سنوات ليزيد عدد موظفيها من سبعة إلى مئات. وقالت لي خيّاطة تدعى إستر: إنني أساعد نساءً أخريات، كما أساعد عائلتي أيضاً.

* * *

عدت، أنا ولورا، في شباط/فبراير ٢٠٠٨، إلى جنوب الصحراء الأفريقية. كانت الرحلة الثانية لي إلى أفريقيا والخامسة للورا. بالنسبة لنا، كانت الرحلة فرصة للتعرف أكثر على أفضل الزعماء الأفارقة الذين كانوا يقومون على خدمة شعبهم بأمانة، وهم يعالجون مشاكل مثل الفقر والفساد والمرض. كان هؤلاء الزعماء يُعتبرون مثالاً جيداً على الوقوف بمواجهة رئيس زيمبابوي روبرت موغابي الذي يحتل العناوين العريضة. فموجابي قام بتحجيم الديموقراطية، وعرّض شعبه للتضخّم وحوّل بلده من مُصدّر للغذاء إلى مستورد. وكان سجله غير المشّرف دليلاً على أن رجلاً واحداً قد يدمّر بلداً بأكمله. وأردُت إعلام العالم أن القيادة الحكيمة قد تساعد بلداً على الاستفادة.

خلال الرحلة، توقفت أنا و لورا خمس مرات[1]، وفي كل مرة، كنا نرى أمثلةً مُلهِمةً من شراكتنا الجديدة مع أفريقيا. قابلت تلاميذ مدارس في بنين وليبيريا لديهم مراجع دراسية، بفضل برنامجنا التربوي التحفيزي الأفريقي. وفي رواندا وقّعت معاهدة استثمارٍ ثنائيةً قد تزيد فرص أصحاب المشاريع في الحصول على الأموال. وفي غانا أعلنت مبادرةً جديدةً لمحاربة الأمراض الموسمية المهمَلة مثل الدودة الخطافية وحُمّى القواقع.

كانت زيارتنا الأطول لتنزانيا، وهي بلد يحوي أربعة وعشرين مليون نسمة على الساحل الشرقي لأفريقيا. تحت قيادة الرئيس جاكايا كيكويتي، شاركت تنزانيا في مبادرة الملاريا، وخطة بيبفار، وحساب تحدي الألفية. وبنزول الطائرة الرئاسية باتجاه دار السلام، علمت بأنني قد أشاهد مجموعةً من النساء التنزانيات يرتدين فساتين مطبوعاً عليها صورتي. وعندما كنت أنزل سلّم الطائرة، كانت مجموعة من النساء يرقصن على إيقاع الطبول، وهن يتمايلن مع الموسيقى، ورأيت صورتي على ظهورهن.

تأثّر الاقتصاد التنزاني، شأنه شأن اقتصاد كثيرٍ من دول جنوب الصحراء الأفريقية، بأزمة انتشار مرض الإيدز. وكان الرئيس التنزاني كيكويتي متحمساً بشدة لمحاربة المرض حتى أنه وزوجته سلمى أخذا مصل التطعيم ضد مرض الإيدز على شاشة التلفاز الرسمية ليحذو حذوهما بقية الشعب التنزاني. بل أكثر من ذلك، لقد تبنت أسرة الرئيس أحد الأيتام الذي توفي والداه بمرض الإيدز.

اصطحبنا الرئيس كيكويتي لزيارة العيادة المخصّصة لعلاج حالات الإصابة بالإيدز وال أتش أي في مستشفى منطقة «أمانا» التي تم افتتاحها عام ٢٠٠٤ بدعم من منظمة بيبفار. وبينما كنا في جولة بصحبة مدير المستشفى شاهدنا أنا ولورا فتاةً في التاسعة من عمرها مصابةً بفيروس الإيدز تجلس على أحد المقاعد إلى جانب

(١) زرنا بنين التي يرأسها يايى بوني؛ وتنزانيا، التي يرأسها جاكايا كيكويتي، ورواندا، التي يرأسها بول بول كاجامي؛ وغانا، التي يرأسها كوفيور؛ وليبيريا، التي ترأسها إيلين جونسون سيرليف.

القاعة مع جدتها. وقد انتقل إليها المرض عن طريق أمها التي توفيت. كما توفي أبوها بالمرض نفسه. وعلى الرغم من ذلك كانت الفتاة الصغيرة تبتسم. وقد بينت لنا جدتها أن خدمة الإغاثة الكاثوليكية هي التي تحمّلت تكاليف علاجها. وقالت: لم أكن أتخيّل، أنا المسلمة، أن تساعدني خدمة الإغاثة الكاثوليكية بهذا الشكل. إنني في غاية الشكر للأميركيين.

كرّرت دعوتي للكونغرس خلال مؤتمرٍ صحفي لإعادة تمديد وتوسيع نطاق خدمة منظمة بيبفار. وهنا تدخّل الرئيس كيكويتي قائلاً: لو توقّف هذا البرنامج أو تعطّل فإن كثيراً من الناس سيفقدون الأمل، وبالتأكيد ستكون هناك وفيات. ومن ثم فأنا أرجو وأتمنى أن يستمر هذا البرنامج. وقد سأله صحفي أميركي إذا كان الشعب التنزاني شغوفاً بتولي باراك أوباما الرئاسة. وقد أثلجت صدري إجابته حيث قال: بالنسبة لنا، أهم شيء هو أن يكون صديقاً جيداً لأفريقيا كما كان الرئيس بوش.

* * *

اتفقنا، لورا وأنا، أثناء عودتنا إلى واشنطن، على أن هذه الرحلة كانت الأفضل خلال رئاستي. فقد كان هنالك شعور جديد وملموس من الطاقة والأمل في جميع أنحاء أفريقيا. كان دفق الحب لأميركا عارماً، وفي كل مرة كنت أسمع معلقّاً أو سياسياً أميركياً يتحدث عن صورة بلدنا الفقيرة في العالم، كنت أفكر بعشرات الآلاف من الأفارقة الذين اصطفوا على جوانب الطرق للتلويح لموكبنا، وللتعبير عن امتنانهم للولايات المتحدة.

بحلول الوقت الذي غادرت فيه منصبي في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، كانت خطة بيبفار قد دعمت ٢,١ مليون شخص وأمَنت الرعاية لأكثر من ١٠ ملايين نسمة. وقد ساهمت أموال دافعي الضرائب الأميركيين بحماية الأمهات والأطفال في أكثر من ١٦ مليون حالة حمل. واستفاد أكثر من ٥٧ مليون شخصٍ من فحوصات الإيدز وجلسات الاستشارة.

وكانت نتائج مبادرة مكافحة الملاريا مشجعة أيضاً. من خلال توزيع الشباك المعالجة بمبيدات الحشرات، والرش الداخلي، وتقديم الدواء للمصابين والأمهات الحوامل، ساعدت مبادرة مكافحة الملاريا على حماية ٢٥ مليون شخص من الموت الممكن تفاديه. تمكّنت بلدان كثيرة، بما فيها أثيوبيا ورواندا وتنزانيا وزامبيا، وقبل الموعد المحدّد، من بلوغ الهدف المتمثّل في خفض معدلات الإصابة بالملاريا بأكثر من ٥٠ في المئة.

لا تزال احتياجات أفريقيا هائلة. ولا يزال هناك أكثر من ٢٢ مليون شخص يحملون مرض الإيدز. بعض الذين يحتاجون إلى العقاقير المضادة للفيروسات يفتقرون إليها. وفيما كانت الملاريا تتراجع، كان هناك أطفال يموتون من لدغات البعوض، وكان الفقر متفشياً والبنية التحتية غير متوفّرة. وهناك كثير من حفر الإرهاب والوحشية.

كانت التحديات هائلة، لكن الشعوب الأفريقية كان لديها شركاء أقوياء في جانبها. الولايات المتحدة، ومجموعة الثماني، والأمم المتحدة، والمنظمات الدينية، والقطاع الخاص؛ وكلها ملتزمة أكثر من أي وقتٍ مضى. والبنية التحتية الصحية الموضوعة من قِبَل خطة بيبفار ومبادرة مكافحة الملاريا سوف تجلب فوائد واسعة النطاق في مجالاتٍ أخرى من الحياة الأفريقية.

ربما كان التغير الأكثر أهمية في السنوات الأخيرة هو في طريقة رؤية الأفارقة لأنفسهم. تماماً كما لم يعد يُنظر إلى الإيدز باعتباره عقوبة إعدام، عاد للشعوب الأفريقية التفاؤل بامكانية التغلّب على مشاكلهم، واستعادة كرامتهم، والمضي قُدُماً مع الأمل.

في رحلتنا إلى رواندا في عام ٢٠٠٨، زرنا لورا وأنا، مدرسةً حيث حصل المراهقون، ومعظمهم يتامى، على توعيةٍ وتثقيفٍ حول سبل الوقاية من الإيدز. وركّز

أحد الدروس على إظهار كيفية رفض الفتيات للعروضات المقدمة من كبار السن من الرجال، وهو الجزء الخاص بالعفة في هذه الخطة.

وأثناء تجوالي مع مجموعة من الطلاب، قلت: «الله مجيد» فصاحوا بانسجامٍ وقالوا: «دائماً!».

هنا في رواندا، هذا البلد الذي فقد مئات الآلاف بسبب الإبادة الجماعية والإيدز، هؤلاء الأطفال مباركون. من المؤكد أن بعضاً منا، الساكنين في أماكن مريحة مثل أميركا، يمكنه أن يتعلّم درساً. وقررت أن أقول ذلك مرةً أخرى. «الله مجيد»، وأجابت الجوقة بصوتٍ أعلى «دائماً!».

١٢

التصعيد

في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ ومع اقتراب الانتخابات النصفية، جاء عضو مجلس الشيوخ الكبير والجمهوري المتشدّد من كنتاكي، صديقي ميتش ماكونيل إلى المكتب البيضاوي، وطلب أن يراني منفرداً. يملك ميتش أنفاً سياسياً حاداً، وكان يشتَمّ المتاعب. قال لي: سيدي الرئيس، سوف تكلفنا تدنّي شعبيتك السيطرة على الكونغرس.

كانت نظرية ميتش أن كثيراً من الأميركيين تعبوا من رئاستي. ولكن، لم يكن ذلك السبب الوحيد الذي جعل حزبنا في ورطة. عدت بالذاكرة إلى أعضاء الكونغرس الجمهوريين الذين سُجنوا لتقاضيهم رشاوى، والذين تلطّخت سمعتهم من فضائح الجنس، أو أدانتهم التحقيقات. ثم كان هناك هدر في الإنفاق، وتخصيص المشروعات لاسترضاء المحازبين، وفشلنا في إصلاح الضمان الاجتماعي على الرغم من الأغلبية في مجلسيْ الكونغرس.

سألته: «ماذا تريد مني أن أفعل إزاء ذلك؟» فقال لي: «سيدي الرئيس، اسحب

بعض القوات من العراق وأعدهم إلى الوطن». لم يكن بمفرده يؤيد هذه الفكرة. فمع تصاعد العنف في العراق، دعا أعضاء من كلا الحزبين إلى الانسحاب.

قلت له: «ميتش، أعتقد أن وجودنا في العراق ضروري لحماية أميركا، ولن أسحب قواتنا ما لم تبرر ذلك الظروف العسكرية».

لقد أوضحت أن تحديد مستويات القوات هو لتحقيق النصر في العراق، وليس للانتصار في الانتخابات.

ما لم أقله له هو أنني كنت أدرس بجديةٍ عكس توصيته. وبدلاً من أن أستدعي القوات من العراق، كنت على وشك اتخاذ أصعب وأكثر القرارات تأثيراً على شعبيتي: نشر عشرات الآلاف من الجنود في العراق مع استراتيجيةٍ جديدة، وقائدٍ جديد، ومهمةٍ جديدةٍ هي حماية الشعب العراقي ومساعدة نشوء الديموقراطية في قلب الشرق الأوسط.

وجاء تشاؤم شهر أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٦ ليتناقض مع الأمل الذي شعر به الكثيرون بعد تحرير العراق. ففي السنة التي تلت دخول قواتنا البلد، أطحنا نظام صدّام حسين، وقبضنا على الدكتاتور، وأعدنا بناء المدارس والعيادات الصحية، وشكلنا مجلس إدارة ممثلاً لجميع الإثنيّات العرقية والطائفية الرئيسية. وخلال تجاوز الفوضى والعنف توقعاتنا، بدا معظم العراقيين عازمين على بناء مجتمعٍ حر. ويوم ٨ آذار/مارس، ٢٠٠٤، توصل مجلس الإدارة إلى اتفاق بشأن قانون الإدارة الانتقالية. هذه الوثيقة التاريخية دعت لعودة السيادة في حزيران/يونيو، تليها انتخابات الجمعية الوطنية، وصياغة الدستور، وجولة أخرى من الانتخابات لاختيار حكومة ديمقراطية.

قادت خريطة الطريق هذه استراتيجيتنا لما يقرب من ثلاث سنوات. اعتقدنا أن مساعدة العراقيين على الوصول إلى هذه الاهداف هي أفضل وسيلةٍ ليرى المزيد من الشيعة والسنّة والاكراد أن لهم حظاً في الحصول على بلدٍ حر وآمن. كنا نأمل،

بعد أن يستثمر العراقيون في العملية الديمقراطية، حل النزاعات من خلال صناديق الاقتراع، وبالتالي تهميش أعداء العراق الحر. باختصار، اعتقدنا أن التقدم السياسي هو الطريق إلى الأمن، وطريق عودتنا إلى بلادنا.

ركّزت استراتيجيتنا العسكرية على ملاحقة المتطرفين، بالتزامن مع تدريب قوات الأمن العراقية. وبمرور الوقت، سوف يكون لنا وجود عسكري أقل، ونعكس التصور بأننا محتلون، ونعزّز شرعية قادة العراق. وكنت اختصرتُ هذه الاستراتيجية: «عندما يتقدم العراقيون، سوف نتراجع نحن». أما دونالد رامسفيلد، فقد كان له تشبيه يمكن تذكره أكثر: علينا أن نعطي قيادة الدراجة بالكامل للعراقيين.

كنت قد درستُ تاريخ ألمانيا، واليابان، وجنوب كوريا بعد الحرب العالمية الثانية. وتطلب الأمر لدى كل دولة من هذه الدول، سنواتٍ طويلة، إضافةً إلى الوجود العسكري الأميركي، لاستكمال الانتقال من دمار الحرب إلى ديمقراطيات مستقرة. ولكن بمجرد أن فعلوا ذلك، أثبت تأثير التحول جدارة التكاليف، حيث ظهرت غرب ألمانيا كمحركٍ لتحقيق الرخاء في أوروبا، ومنارةٍ حيويةٍ للحرية خلال الحرب الباردة. ونمت اليابان لتصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم، والعمود الفقري للأمن في المحيط الهادىء. كما أصبحت كوريا الجنوبية واحدةً من أكبر شركائنا التجاريين، وحصناً استراتيجياً ضد جارتها في الشمال.

استفادت هذه البلدان الثلاثة من تجانس سكانها نسبياً، ومن بيئاتٍ سلميةٍ في مرحلة ما بعد الحرب. في العراق، ستكون الرحلة أكثر صعوبة. فالعراق يعاني من توتراتٍ عرقيةٍ وطائفيةٍ من وقت انتشال البريطانيين البلاد من بقايا الدولة العثمانية. كما إن الخوف وعدم الثقة اللذين خلقهما صدّام حسين جعلا التوافق صعباً على العراقيين. وكان للهجمات الوحشية من قبل المتطرفين التأثير نفسه.

على الرغم من العنف، كان هناك أمل. فقد كان العراق يمتاز بجيلٍ مثقفٍ من الشباب العراقي، كما يمتاز بحضارته النابضة بالحياة، ومؤسساته الحكومية الفاعلة.

وكان العراق يملك إمكاناتٍ اقتصاديةً قويةً، ويعود الفضل فيها جزئياً إلى موارده الطبيعية. كما كان المواطنون العراقيون يقدمون التضحيات من أجل التغلّب على المتمردين والعيش في حرية. وبمرور الوقت، ومع الدعم الأميركي الثابت، كان لي ثقة بأن الديمقراطية ستنجح في العراق.

* * *

كنتُ أختبر تلك الثقة يومياً، حيث كنتُ أتلقى كلّ صباح، ملخصاً من غرفة العمليات مطبوعاً على ورقة زرقاء. ويبين أحد أجزاء التقرير عدد، ومكان، وأسباب الخسائر الأميركية في أفغانستان والعراق.

كان عدد القتلى يرتفع مع مرور الوقت. فقد خسرت أميركا ٥٢ جندياً في العراق في آذار/مارس ٢٠٠٤، و١٣٥ في نيسان/أبريل، و٨٠ في أيار/مايو، و٤٢ في حزيران/يونيو، و٥٤ في تموز/يوليو و٦٦ في آب/أغسطس، و٨٠ في أيلول/سبتمبر، و٦٤ في تشرين الأول/أكتوبر، و١٣٧ في تشرين الثاني/نوفمبر، عندما شنت قواتنا هجوماً كبيراً على المسلحين في الفلّوجة.

كان عدد الوفيات المتزايد يصيبني بالغم. فكلما كانت تصلني ورقة زرقاء، كنت أضع دائرة حول عدد الضحايا بقلمي، وأتوقف قليلاً، وأتأمّل كل خسارةٍ على حِدَة. كما كنت أعزي أفراد عائلات الضحايا كلما استطعت. في آب/أغسطس ٢٠٠٥، توجهت إلى ولاية أيداهو لحضور تكريم الحرس الوطني والاحتياطي. بعد ذلك، التقيت «داون راوي»، التي فقدت زوجها، ألان، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤. عرّفتني داون بولديها، بلايك البالغ ست سنوات من العمر، وكايتلين ذات الأربع سنوات. وعلى الرغم من مرور ما يقرب من عام على وفاة ألان، إلا أن حزنهم كان عميقاً. «لقد أحبَ زوجي أن يكون في البحرية». قالت لي داون، وأضافت: «لو قُدّر له أن يختار مرةً ثانية، وكان يعلم أنه سوف يموت، فسيختار ما قام به مرةً أخرى. قطعت لها وعداً: «لن تذهب تضحيات ألان سدى».

خلال فترة رئاستي، قابلتُ حوالي ٥٥٠ من أسر الضحايا. تلك المقابلات، بقدر ما كانت تساعد في رفع معنوياتي كقائدٍ، كانت مؤلمة. وكانت غالبية الذين التقيتهم، مثل عائلة رويس، دمرتهم الخسارة، ولكنهم فخورون بإنجازات أفراد أسرتهم العسكريين. وكان عدد قليل من الأسر ثائراً وغاضباً. وعندما زرت فورت لويس في ولاية واشنطن في حزيران/يونيو ٢٠٠٤، التقيت أماً كانت قد فقدت ابنها في العراق. كان واضحاً أنها مستاءة، وحاولت تهوين الأمر عليها.

لكنها قالت لي: «أنت إرهابي كبير مثل أسامة بن لادن».

لم يكن هناك الكثير لأقوله رداً على ذلك. فقد فقدت ابنها؛ وكان لديها الحق بالتعبير بحرِية عن الرجل الذي بُعث به إلى المعركة. كنت آسفاً لأن حزنها ولّد مثل هذه المرارة. وإذا كان التعبير عن غضبها سيساعد في تخفيف آلامها، فسأتحمّل الأمر.

في اليوم نفسه، التقيت باتريك وسيندي شيهان من فاكافيل، في كاليفورنيا اللذين فقدا ابنهما المختص كيسي شيهان الذي تطوع لمهمته الأخيرة، في محاولة جريئة لإنقاذ فريق من زملائه الجنود كانوا قد تمركزوا في مدينة الصدر. بعد الاجتماع، شرحت سيندي انطباعاتها عني لصحيفة فاكافيل، قالت: أعرف الآن أنه صادق ويريد الحرية للعراقيين.... أعرف أنه يشعر بالأسف وبالألم لخسارتنا. كما أعرف أنه رجل مؤمن.

بحلول الصيف التالي، أصبحت سيندي شيهان ناشطةً مناهضة للحرب. وبمرور الوقت، أصبح خطابها أشد قسوةً وأكثر تطرفاً. أصبحت الناطقة باسم تنظيم (الرمز الزهري المناهض للحرب)، تحدّثت ضد اسرائيل، ودعمت المناهض للولايات المتحدة الدكتاتور هوغو تشافيز من فنزويلا، وترشّحت في نهاية المطاف للكونجرس ضد نانسي بيلوسي. أشعر بالتعاطف مع سيندي شيهان، ومن الواضح أنها أم أحبّت ابنها. كان الحزن الذي تسببت فيه خسارة ابنها عميقةً بحيث استهلكت حياتها. أملي

هو أنه سيأتي يوم تشعر فيه هي وجميع عائلات قواتنا التي سقطت، بالارتياح لرؤية عراقٍ حر وعالمٍ أكثر سلاماً، كنصبٍ تذكاري يجسّد تضحيات أحبَائهم.

* * *

عندما فقدت القاعدة ملاذها الآمن في أفغانستان، أخذ الإرهابيون يبحثون عن ملاذٍ جديد. وبعد إزالة صدّام في عام ٢٠٠٣، حرّض بن لادن مقاتليه لدعم الجهاد في العراق. كان العراق من نواحٍ كثيرةٍ، أفضل لهم من أفغانستان. ففي العراق ثروات النفط والجذور العربية. وبمرور الوقت، تضاءل عدد المتطرفين التابعين لتنظيم القاعدة في أفغانستان ليصبح مئاتٍ قليلة، في حين ارتفع العدد المقدّر في العراق إلى عشرة آلاف.

كان هناك متطرفون آخرون في العراق: البعثيون السابقون، والمتمردون السنّة، والشيعة المتطرفون المدعومون من إيران. إلا أن أحداً منهم لم يكن بخطورة تنظيم القاعدة. جادل النقاد في أن وجود تنظيم القاعدة أثبت أننا أثرنا الإرهابيين بتحرير العراق. لم أقبل أبداً هذا المنطق، فتنظيم القاعدة كان نشطاً ومستثاراً حتى يوم ٩/١١، حتى عندما لم يكن هناك جندي أميركي واحد في العراق. هل يعتقد أحد حقاً أن الذين قطعوا رؤوس الأسرى الأبرياء أو فجّروا أنفسهم في الأسواق، كانوا سيصبحون مواطنين مسالمين لو لم نطح صدّام حسين؟ لو لم يحاول هؤلاء المتعصبون قتل الأميركيين في العراق، فإنهم سيحاولون القيام بذلك في مكان آخر. ولو سمحنا لهم بإخراجنا من العراق، فلن يكتفوا بهذا، بل كانوا سيلحقون بنا إلى أرض الوطن.

على الرغم من كل الأرواح التي أزهقوها، لكن أعداءنا فشلوا في منعنا من تحقيق أيّ هدفٍ من أهدافنا الاستراتيجية في العراق. ففي ربيع عام ٢٠٠٤، هدّد الإرهابي الزرقاوي ـ الذي عينه أسامة بن لادن في وقتٍ لاحقٍ أميرَ تنظيم القاعدة في العراق ـ بعرقلة عملية نقل السلطة، المقررة في يوم ٣٠ حزيران/يونيو. في أيار/مايو، اغتال انتحاري رئيس مجلس الحكم العراقي، عز الدين سليم؛ وبعد أسابيع قليلة، قتلت

هجمات منسقة على الشرطة العراقية والمباني الحكومية، أكثر من ١٠٠ شخص، بينهم ثلاثة من القوات الأميركية. إزاء ذلك، قرّرنا، بغرض تعطيل أيَ خطة لمزيدٍ من الهجمات الكبرى، تنفيذ عملية تسليم السلطة قبل يومين من الموعد المحدّد. كنت في قمة حلف شمال الأطلسي «الناتو» في اسطنبول يوم ٢٨ حزيران/يونيو، عندما شعرت بيد دونالد رامسفيلد تصل إلى كتفي. مرّر لي قصاصة ورق ٍبخط كوندوليزا رايس: سيدي الرئيس، العراق يتمتع بالسيادة؛ الرسالة أتت من بول بريمر، الساعة العاشرة وست وعشرين دقيقة بتوقيت العراق.

خطّطت فوق المذكرة «لتحكم الحرية!». ثم صافحتُ الزعيم الجالس على يميني. في تطورٍ تاريخي مناسب، تقاسمت اللحظة مع رجلٍ لم يتردّد في التزامه بعراقٍ حر، تـوني بلير.

* * *

بعد سبعة أشهر، في كانون الثاني/يناير عام ٢٠٠٥، وصل العراقيون إلى المرحلة التالية: انتخابات لاختيار جمعية وطنية مؤقتة. ومرة أخرى، شن الإرهابيون حملةً لوقف التقدم. وأعلن الزرقاوي حرباً شاملةً على المبدأ الشرير المسمّى «الديمقراطية»، وقتل أي عراقي يشارك في الانتخابات.

تصاعدت الضغوط في الوطن، ووصفت افتتاحية صحيفة لوس أنجلوس تايمز الانتخابات بالمعيبة واقترحت تأجيلها. أعتقد أن التأخير سيشجع العدو ويجعل العراقيين يشكّون في التزامنا بالديمقراطية. أما المضي بالتصويت فسيظهر الثقة للعراقيين، في حين سيظهر المتمردون أعداءً للحرية. قلت لفريق الأمن القومي: يجب أن تمضي الانتخابات قُدُماً، وستكون هذه لحظة الوضوح للعالم.

عند الساعة الخامسة إلا تسع دقائق من فجر يوم ٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥، دعوتُ الموظف المناوب في غرفة العمليات للاطّلاع على القراءة الأولى. أخبرني أنه تم إبلاغ سفارتنا في بغداد، أنه برغم المقاطعة من جانب كثيرٍ من السنّة، فإن

نسبة الإقبال كبيرة ومع أن الإرهابيين شنّوا بعض الهجمات، إلا أن الإعلام في جميع أنحاء العالم أظهر العراقيين فرحين يلوحون بأصابعهم[1] الملطّخة بالحبر في الهواء. شاهد أحد الصحفيين امرأةً في التسعين يتم دفعها إلى صناديق الاقتراع في عربة. ونقل تقرير أخباري آخر عن الناخب الذي كان قد فقد ساقه في هجوم ارهابي: كنتُ زحفت إلى هنا لو اضطررتُ لذلك، وأضاف: اليوم أنا أصوّتُ من أجل السلام.

أنتجت الانتخابات جمعيةً وطنية، وهذه الجمعية سمت لجنةً لوضع مشروع الدستور. في آب/أغسطس، توصل العراقيون إلى اتفاق بشأن الدستور هو الأكثر تقدميةً في العالم العربي، وهو وثيقة تضمن حقوقاً متساوية للجميع، وحماية الحريات الدينية، والجمعيات، وحرية التعبير. عندما ذهب الناخبون إلى صناديق الاقتراع في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر، كان الإقبال أكبر مما كان عليه في كانون الثاني/يناير، وكان العنف أقل. صوّت السّنة بكثافة أكبر، وتم التصديق على الدستور بنسبة ٧٩ في المئة مقابل ٢١ في المئة.

كان الهدف من الانتخابات السنوية الثلاثة، التي عُقدت في كانون الأول/ديسمبر، استبدال التجمّع المؤقت بهيئةٍ تشريعيةٍ دائمةٍ. ومرةً أخرى، تحدى العراقيون التهديدات الإرهابية، وأدلى ما يقرب من ١٢ مليون شخص ـ أي ما يشكل أكثر من ٧٠ في المئة ـ بأصواتهم. شارك السنّة بأعدادٍ هائلة. وأظهر أحد الناخبين إصبعه الملطخ بالحبر وصاح: هذه شوكة في عيون الإرهابيين.

كنتُ فخوراً بقواتنا وسعيداً للعراقيين. ومع انتخابات عام ٢٠٠٥ الثلاثة، قطع العراقيون شوطاً رئيسياً على طريق الديمقراطية. كنت آمل أن يساهم التقدم السياسي في عزل المسلحين، ويسمح لقواتنا باستهداف مقاتلي تنظيم القاعدة واحداً تلو الآخر. بعد كل الحزن والتضحية، كان هناك سبب حقيقي للتفاؤل.

* * *

(١) لمنع التزوير، كان الموظفون المسؤولون عن الانتخابات يطلبون من الناخبين وضع إصبعهم في الحبر للدلالة على أنه قد أدلى بصوته.

يُعتبر ضريح الإمام العسكري في مسجد القبة الذهبية في سامرّاء واحداً من أقدس المواقع عند المسلمين الشيعة. يحتوي على قبري الإمامين المبجّلين: والد وجد الإمام الغائب، وهو المنقذ الذي يعتقد الشيعة أنه سيستعيد العدالة للبشرية.

في ٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٦، دمرت قنبلتان ضخمتان المسجد. وشكل الهجوم استفزازاً كبيراً للشيعة، على غرار الهجوم في بازيليك القديس بطرس أو الحائط الغربي. وقال لي الزعيم الشيعي، صاحب النفوذ عبد العزيز الحكيم: يعادل هذا الهجوم أحداث ٩/١١.

فكرتُ مرةً أخرى بخطاب الزرقاوي الذي بعثه إلى قادة تنظيم القاعدة في عام ٢٠٠٤، والذي اقترح فيه التحريض على حرب بين شيعة العراق والسنّة. كانت هناك بعض الهجمات الانتقامية على الفور، لكن العنف لم يخرج عن السيطرة، وشعرت بالارتياح. أظهر الشيعة ضبط النفس، وشجّعتهم بدوري على الاستمرار. في كلمة ألقيتها يوم ١٣ آذار/مارس، قلت إن العراقيين قد نظروا إلى الهاوية، ولم يعجبهم ما رأوه.

إلا أني كنت مخطئاً. فبحلول أوائل نيسان/أبريل انفجر العنف الطائفي. عصابات متنقلة من المسلحين الشيعة خطفت وقتلت السنّة الأبرياء. وردَّ السنّة بتنفيذ تفجيرات انتحارية في المناطق الشيعية. تفاقمت الأزمة بسبب عدم وجود حكومةٍ عراقيةٍ قوية. وكانت الأحزاب تتنافس على المناصب منذ انتخابات كانون الاول/ديسمبر. كان ذلك نتيجةً طبيعيةً وجزءاً من الديمقراطية، ولكن مع تصاعد العنف، احتاج العراق إلى زعيم قوي. أصدرت التعليمات إلى كوندي والسفير زلماي خليل زاد الذي انتقل من كابول إلى بغداد للضغط على العراقيين لاختيار رئيس وزراء. وبعد أربعة أشهر من الانتخابات، كان الاختيار مفاجأة: نوري المالكي.

كان المالكي من المنشقّين الذين حُكم عليهم بالإعدام في عهد صدّام، وعاش في المنفى في سورية. اتصلت به في اليوم الذي تم اختياره. وحيث كان هاتفه

مراقباً، تواجد في السفارة الأمريكية. وقال زلماي: سيدي الرئيس، هذا رئيس الوزراء الجديد.

قلت: «شكراً، ولكن إبقَ على الهاتف لفترةٍ أطول قليلاً حتى يعلم رئيس الوزراء مدى قربك مني».

قلتُ عندما تحدثتُ مع المالكي: «تهانينا، السيد رئيس الوزراء، أريدك أن تعرف أن الولايات المتحدة ملتزمة التزاماً كاملاً بالديمقراطية في العراق. وسوف نعمل معاً لهزيمة الإرهابيين ودعم العراقيين. احكم بثقة».

وكان المالكي ودوداً وصادقاً، إلا أنه لم يكن محنكاً في السياسية. أبديتُ رغبتي بعلاقةٍ شخصيةٍ وثيقةٍ معه، وهو أبدى رغبته بالمثل. في الأشهر التي تلت، تحدثنا كثيراً عن طريق الهاتف والفيديو. كنتُ حريصاً ألاّ نضغط عليه، وكنت أريده أن ينظر إليّ كشريك، أو ربّما كمعلم. كان يتعرض إلى الكثير من الضغط من الآخرين. أما مني فكان يلقى المشورة والتفهم. وبمجرد أن أكسب ثقته، فسأكون في وضعٍ أفضل لمساعدته على اتخاذ القرارات الصعبة.

* * *

كنت آمل أن توقف تشكيلة حكومة المالكي أعمال العنف، لكن ذلك لم يحصل. كثرت التقارير عن القتل الطائفي البشع، ومارست فرق الموت الخطف علناً. زودت إيران المتشدّدين بالتمويل والتدريب والقنابل المتفجرة المتطورة للغاية والمقذوفات المضادة للدروع لقتل جنودنا. وتراجع العراقيون إلى الخنادق الطائفية، بحثاً عن الحماية أينما أمكن العثور عليها.

وكان الجنرال جورج كيسي قائدنا الميداني في العراق، وهو جنرال من ذوي الخبرة، قد قاد القوات في البوسنة وشغل منصب نائب رئيس هيئة أركان الجيش. وكان دونالد رامسفيلد أوصى به في العراق بعد استقالة الجنرال ريكاردو سانشيز من منصبه في صيف عام ٢٠٠٤.

قبل انتقال جورج إلى بغداد، دعوته أنا و لورا مع زوجته شيلا لتناول العشاء في البيت الأبيض. وقد انضم إلينا سفيرنا في العراق جون نيغروبونتي[1]، وهو دبلوماسي من ذوي الخبرة والمهارة كان قد تطوّع لهذه المهمة، بصحبة زوجته ديانا. أعطاني جورج السيرة الذاتية لمدرب كرة القدم الأسطوري فينس لومباردي.

كان جورج قد عمل مديراً للمعدات في فريق ريد سكينز في واشنطن في الموسم النهائي للومباردي، وكانت هديةً معبرة. كان جورج مثل المدرب الذي يعجبه، بلا بهرجة أو بريق. كان قائداً صلباً، واضحاً، وقطعةً من الغرانيت، كما كان معروفاً عن لومباردي.

وكان الجنرال كيسي كما الجنرال أبي زيد ودونالد رامسفيلد، مقتنعاً بأن وجود قواتنا قد خلق شعوراً من الاحتلال، وألهب العنف كما غذّى التمرد. لمدة سنتين ونصف السنة، دعمت استراتيجية سحب قواتنا مع تقدم العراقيين إلى الأمام. ولكن في الأشهر التي أعقبت تفجير سامراء، بدأت أتساءل عما إذا كان نهجنا مطابقاً للواقع على الأرض. لم يندلع العنف الطائفي لأن تواجدنا كان كبيراً جداً، ولكن حدث ذلك لأن تنظيم القاعدة أثاره. ومع نضال العراقيين من أجل الوقوف، لم يكن ممكناً لنا أن نتنحّى.

* * *

شاركني الجميع في فريق الأمن القومي مخاوفي من تدهور الأوضاع. إلا أن مستشاري للأمن القومي ستيف هادلي، كان أول من ساعدني في العثور على حل.

لفت ستيف انتباهي خلال الحملة الانتخابية عام ٢٠٠٠، عندما كان جزءاً من المجموعة الاستشارية في مجال السياسات الخارجية التي جمعتها كوندي. وكان ستيف شخصية متردّدة في الشأن العام. ولكن عندما يتم وضعه أمام الكاميرا، فإن

(١) كان «جون» قد لبّى نداء الواجب أربع مرات خلال فترة رئاستي: سفيراً في الأمم المتحدة، وسفيراً في العراق، ومديراً للاستخبارات الوطنية، ونائباً لوزير الخارجية.

سلوكه العلمي وعرضه المنطقي يعطيانه صدقيّةً كبيرة. خلف الكواليس، هو مفكر وثابت. يستمع، ويجمع المعطيات، ويتأمل دون إطالة التفكير. ويطرح الخيارات بوضوح. كلما توصلت إلى قرار، كان يعلم كيفية العمل مع الفريق لتنفيذه.

ستيف شخص رسمي. يصعد على متن الطائرة في رحلات طويلة إلى الخارج مرتدياً ربطة عنقه، ينام مرتدياً ربطة عنقه، ويخرج وعقدة عنقه ثابتة في مكانها. تطوع مرةً لتقطيع الأرز في المزرعة، وكانت وظيفته تكديس الأغصان. قام بالمهمة بدقةٍ وفعاليةٍ، مرتدياً حذاءه البروغان. بعيداً عن الرسميات، ستيف رجل لطيف، غير أناني، يتمتع بروح الدعابة. قضيت عطل نهاية أسبوع كثيرةً معه في كامب دايفيد برفقة زوجته آن. تربطهما علاقة حب كبيرة، وكلاهما مفكر، وكلاهما يحب التجوال في الطبيعة. هما والدان عظيمان لابنتيهما الجميلتين.

كنت ألتقي ستيف كل صباح تقريباً من فترة ولايتي الثانية. بعد يوم عصيب جداً في فصل الربيع من عام ٢٠٠٦، قمنا بمراجعة الورقة الزرقاء في مكتبي. هززتُ رأسي، وكان ستيف يهز رأسه أيضاً.

قلت: «الأمور ليست على ما يرام، نحن بحاجةٍ لمراجعة الاستراتيجية كاملة. يجب أن يكون لدينا خيارات جديدة».

أجابني ستيف: أخشى أنك على حق، سيدي الرئيس.

ذهب ستيف لتنظيم تقرير مفصل. كل ليلة، كان فريق موظفي مجلس الأمن القومي يصدر مذكرةً مفصلةً عن التطورات العسكرية والسياسية خلال الساعات الـ٢٤ الماضية. لم تكن الصورة التي رسموها جميلة. ذات يوم في أواخر الربيع، طلبت من ميغان أوسوليفان، وهي دكتورة أمضت سنةً في العمل لدى جيري بريمر في العراق، أن تعمل في الخفاء. حافظت على اتصالات مع كثيرٍ من كبار المسؤولين في الحكومة العراقية. وبعد اجتماعٍ سألتها عما كان يُسمع من بغداد. فأجابت: إنها كالجحيم، سيدي الرئيس.

في منتصف حزيران/يونيو، رتب ستيف لقاءً مع مجموعة من الخبراء الخارجيين في كامب دايفيد. فريد كاغان، الباحث العسكري في معهد أميركان أنتربرايز، تساءل عما إذا كان لدينا قوات كافية للسيطرة على العنف. أوصى روبرت كابلان، وهو صحفي مميز، اعتماد استراتيجية لمكافحة التمرد أكثر عدوانية. مايكل فيكرز ، عميل وكالة المخابرات المركزية السابق والذي ساهم في تسليح المجاهدين الأفغان في الثمانينيات، اقترح إعطاء دور أكبر للعمليات الخاصة. إليوت كوهين، مؤلف «القيادة العليا» وهو كتاب حول العلاقة بين الرؤساء وجنرالاتهم، كنت قد قرأته بناء على اقتراح ستيف، قال لي إني بحاجةٍ لتحميل القادة المسؤولية عن النتائج.

ولتقديم منظورٍ آخر، أحضر لي ستيف مقالاتٍ كتبها عقداء وجنرالات النجمة الواحدة الذين قادوا القوات في العراق. برز الانقسام: الجنرالان كيسي و أبي زيد يؤيدان استراتيجية التدريب والانسحاب، ويعتقد هؤلاء الأقرب إلى ساحات القتال أننا بحاجة إلى مزيد من القوات.

كان أحد الذين أثاروا اهتمامي هو الكولونيل ماكماستر. كنت قد قرأت كتابه عن فيتنام «التقصير في أداء الواجب» والذي اتهم فيه القيادة العسكرية بعدم قيامها بما يكفي لتصحيح الاستراتيجية التي اعتمدها الرئيس جونسون ووزير الدفاع بوب ماكنمارا. في عام ٢٠٠٥، قاد الكولونيل ماكماستر كتيبةً في مدينة تلعفر بشمال العراق. طبق استراتيجيةً جديدةً لمكافحة التمرد، وذلك باستخدام قواته لطرد المتمردين، والمحافظة على الارض التي احتلّت حديثاً، والمساعدة في بناء الاقتصاد المحلي والمؤسسات السياسية. سياسة «تطهير، سيطرة، بناء» هذه حوّلت تلعفر من معقل المتمردين إلى مدينةٍ فاعلةٍ سلميةٍ نسبياً.

ثمة ممارس آخر لمكافحة التمرد هو الجنرال دايفيد بترايوس، وقد قابلته للمرة الأولى في فورت كامبل في عام ٢٠٠٤. كان واحداً من أذكى الجنرالات الشباب وأكثرهم ديناميكية في الجيش. تخرج بين الأوائل في دورته في ويست بوينت، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة برينستون. في عام ١٩٩١، أُصيب بطريق

الخطأ في صدره خلال التمرينات. صمد طوال رحلة ستين كيلومتراً على متن طائرة هليكوبتر إلى مركز فاندربيلت الطبي الجامعي، حيث تم إنقاذ حياته من قِبَل الدكتور بيل فريست ، الذي أصبح في وقتٍ لاحقٍ زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ.

كان الجنرال بترايوس في وقتٍ مبكرٍ من الحرب، آمر المجموعة المجوقلة ١٠١ في الموصل. بعث بقواته للعيش جنباً إلى جنب مع السكان العراقيين والقيام بدوريات في الشوارع سيراً على الأقدام. طمأن وجودهم السكان فكان هناك لحمايتهم. ثم أجرى بترايوس الانتخابات المحلية لتشكيل مجلس المحافظة، وأنفق أموال إعادة الإعمار لإنعاش النشاط الاقتصادي، وأعاد فتح الحدود مع سورية لتسهيل التجارة. كان له نهج لمكافحة التمرد: «لهزيمة العدو، علينا كسب تأييد الشعب».

نجحت الفكرة. ففي حين ازداد العنف في العراق كثيراً، ظلت الموصل هادئة نسبياً. لكن العنف عاد عندما خفضنا القوات الأميركية في الموصل. وحدث الأمر نفسه في تلعفر.

بعد الإشراف على تدريب قوات الأمن العراقية، عاد الجنرال بترايوس إلى فورت ليفنوورث بولاية كنساس، لإعادة كتابة دليل الجيش لمكافحة التمرد. إن فرضية مكافحة التمرد تنص على أن المطلوب هو حالة أمنية مقبولة قبل الوصول إلى تحقيق مكاسب سياسية. كان ذلك عكس استراتيجيتنا القائمة تماماً. وقررت أن أراقب عن كثب بترايوس وعمله.

* * *

وسط كل الأنباء السيئة في عام ٢٠٠٦، كان لدينا نقطة مضيئة. في وقت مبكر من حزيران/يونيو، تمكّنت القوات الخاصة تحت القيادة الفاعلة للجنرال ستانلي ماكريستال من مطاردة وقتل الزرقاوي، زعيم تنظيم القاعدة في العراق. للمرة الاولى منذ انتخابات كانون الأول/ديسمبر، كنا قادرين على إظهار علامةٍ كبيرةٍ من التقدم إلى الناس.

وبعد أسبوع، انسحبت بهدوء من كامب دايفيد بعد يوم من الاجتماعات مع مجلس الأمن القومي. قفزت إلى مروحية نقل للجيش مع مجموعة صغيرة من المساعدين، وتوجهنا إلى قاعدة أندروز الجوية، وصعدنا إلى الطائرة الرئاسية. وبعد إحدى عشرة ساعة، هبطنا في بغداد.

على عكس رحلة عيد الشكر في عام ٢٠٠٣، عندما عقدت لقاءاتي في المطار، قررتُ أن أجتمع مع المالكي في المنطقة الخضراء، المجمّع المحصّن وسط بغداد. حلّقت مروحيات الجيش بنا عبر المدينة بسرعة وعلى علو منخفض، وأُطلقت شهب النار لتوفير الحماية ضد القذائف التي تتبع الحرارة. وكان رئيس الوزراء ينتظرني عندما وصلت إلى السفارة. منذ اختياره في نيسان/أبريل، أردت أن أرى المالكي وجهاً لوجه. في المكالمات الهاتفية، قال إن الأمور في نصابها الصحيح، ولكني كنت أتساءل إذا كانت تأكيداته حقيقية.

قلت له: «إن قراراتك وإجراءاتك ستحدد نجاحك. لن يكون الأمر سهلاً، ولكن بغض النظر عن الصعوبة، سوف نساعدك».

شكر المالكي أميركا لتحرير البلاد، وأكد لي الرغبة في إقامة صداقة وثيقة. وأضاف: سوف نحقق الانتصار على الإرهاب، والذي هو انتصار للديمقراطية. هناك الكثير من أهل الظلام الذين يخافون نجاحنا. لهم الحق في أن يشعروا بالقلق، لأن نجاحنا سيطيحهم عن عروشهم.

كان رئيس الوزراء يتصرّف بطريقة لطيفة وصوته هادئ، ولكني لمست لديه الصلابة الداخلية. صدّام حسين أعدم عدة أعضاء من عائلة المالكي، ولكنه رفض التخلي عن دوره في حزب المعارضة. كانت شجاعته الشخصية هي البذور التي كنت آمل أن ننميها، حتى يصبح المالكي الزعيم القوي الذي يحتاجه العراقيون.

أخذني رئيس الوزراء إلى قاعة اجتماعات للتعرّف إلى أعضاء حكومته، والتي ضمت قادةً من الشيعة والسنّة والأكراد. عرَفته على فريق عملي عبر الفيديو.

مستشاريّ، الذين لم يعلموا أني غادرت كامب دايفيد، ذهلوا لرؤيتي في بغداد. العراقيون شعروا بسعادةٍ غامرةٍ لمخاطبة نظرائهم في الاجتماع الأمني المشترك الأول من نوعه بين الولايات المتحدة والعراق.

الاجتماع المحوري الآخر كان مع جورج كايسي. مضى على وجود الجنرال المجتهد في العراق سنتين، ممدداً فترة خدمته بناء على طلبي. قال لي إن ٨٠ في المئة من أعمال العنف الطائفي وقعت ضمن مساحة ثلاثين ميلاً من بغداد. السيطرة على العاصمة أمر حيوي لتهدئة بقية البلاد.

كان الجنرال كايسي يخطط لبذل جهدٍ جديدٍ لتأمين بغداد. العملية الهجومية «معاً إلى الأمام» ومحاولة تطبيق نهج «تطهير، سيطرة، بناء» الذي نجح مرةً في تلعفر والموصل. رأيت التناقض. كان نهج «تطهير، سيطرة، بناء» استراتيجية تتطلّب قواتٍ كثيرة. ولكن جنرالاتنا أرادوا تقليص العدد. أحسّ بشكوكي، فقال لي الجنرال كيسي: يجب عليّ أن أشرح لك الأمر بطريقة أفضلٍ. فأجبته: «نعم، يجب عليك ذلك».

* * *

كان صيف ٢٠٠٦ أسوأ فترات رئاستي. كنت أفكر بالحرب باستمرار. وعلى الرغم من فرحي بإصرار حكومة المالكي وقتل الزرقاوي، ولكنني كنت شديد القلق من أن العنف قد طغى على كل ما عداه. كان متوسط عدد العراقيين الذين يموتون يومياً ١٢٠ شخصاً، وامتدت الحرب لأكثر من ثلاث سنوات، وكنا قد فقدنا أكثر من ٢٥٠٠ جندي بهامش ٢-١ تقريباً، وقال الأميركيون إنهم لا يوافقون على الطريقة التي كنت أتعامل بها مع العراق.

شعرت لأول مرة بالقلق من إمكانية نجاحنا. إذا تم تقسيم العراق على أسس طائفية، سيكون مصير مهمتنا الهلاك. سنكون قد كرّرنا تجربة فيتنام، وخسرت بلادنا خسارةً مذلة، ووجّهنا ضربةً قاصمة للجيش، وأحدثنا نكسةً كبيرةً لمصالحنا. في أحسن

الأحوال، ستكون عواقب الهزيمة في العراق أسوأ مما كانت عليه في فيتنام. سيحصل تنظيم القاعدة على ملاذٍ آمنٍ في بلاد لديها احتياطات نفطية هائلة، وسنشجع إيران المعادية في سعيها للحصول على أسلحة نووية، وسوف تتحطم آمال الناس المخاطرة من أجل الحرية في جميع أنحاء الشرق الأوسط. في النهاية، سيتمكن أعداؤنا من استخدام ملاذهم للهجوم على أرض وطننا، وكان علينا منع حدوث ذلك.

اتخذتُ قراراً واعياً لإظهار العزم، وليس الشك، في الأماكن العامة. أردتُ من الشعب الأميركي أن يفهم أني كنت أؤمن بصدقٍ في قضيتنا. كان على العراقيين أن يعرفوا أننا لن نتخلّى عنهم، وكان على أعدائنا أن يعرفوا أننا مصممون على إلحاق الهزيمة بهم. فكّرت أكثر من أي شيء، في قواتنا العسكرية، وحاولت أن أتخيل شعور جندي في العشرين على الخطوط الأمامية، أو شعور أم أحد العسكريين وقلقها على ابنها أو ابنتها. آخر شيء يحتاجون لسماعه هو القائد العام الحائر والضعيف. إذا كانت لي مخاوف من الحرب، فيتوجّب عليّ إجراء تغييرات في السياسة، وليس التخبّط في الأماكن العامة.

استمديت قوةً من الأسرة والأصدقاء، ومن إيماني بالله. عند زيارتنا كامب دايفيد، كنا لورا وأنا نحب الصلاة مع عائلات العسكريين في كنيسة في القاعدة. في عام ٢٠٠٦ كان القسيس، القائد الملازم من البحرية ستان فورنيا، ٤٨ عاماً، وكان واحداً من أفضل الخطباء الذين سمعتهم في حياتي. قال في عظته: الشر حقيقي، وهو مذكور في الكتاب المقدس، وقوي. بعض الناس يقول: تجاهله، ويقول بعضهم الآخر: لا وجود له. ولكن الشر لا يجب تجاهله، بل يجب ضبطه. واستشهد بالسير إدموند بيرك، الزعيم البريطاني من القرن الثامن عشر الذي قال: إن الشيء الوحيد المطلوب لانتصار الشر هو ألا يفعل الرجال الصالحون شيئاً.

كان ستان يعتقد أن الإجابة على الشر هي الحرية. وكان يعرف أيضاً أن علينا أن ندفع الثمن. قال في إحدى خطبه: لا توجد قضية نبيلة تخلو من التضحية. إذا كانت الحرية تستحق الدفاع عنها فقط، وإذا لم يكلّفنا الأمر شيئاً، فنحن أمّة يائسة.

فوق كل ذلك، كان ستان متفائلاً، ورفع إحساسه بالأمل معنوياتي. قال: الكتاب المقدس علّق أهميةً كبيرةً على المثابرة، والإخلاص، والتغلّب على الصعاب، وأضاف: نحن لا نستسلم أو نتخلى عن واجباتنا. ولا يوجد شيء اسمه حالة ميئوس منها.

كما أنني وجدتُ العزاء في التاريخ. ففي آب/أغسطس، قرأت كتاب لينكولن: «حياة الهدف والقوة»، لمؤلفه ريتشارد كارواردين، وهو واحدة من السير الذاتية الأربع عشرة للينكولن التي قرأتها خلال فترة رئاستي. «جعلوا الخراب حقيقة» قالها لنيكولن وهو يقرأ برقيات تصف هزائم الاتحاد في أماكن مثل تشانسلور فيل، حيث فقد الاتحاد ١٧ ألف جندي، أو شيكاموغا، حيث قُتِل وجُرِح ١٦ ألف جندي.

لم تكن الضحايا همه الوحيد. وكان على لينكولن تغيير قائد بعد الآخر حتى وجد الشخص المستعد للقتال. شاهد ابنه ويلي يموت في البيت الأبيض وزوجته ماري تود، تغرق في الاكتئاب. ولكن بفضل إيمانه بالله وإيمانه العميق بأنه يشن حرباً من أجل قضيةٍ عادلة، استطاع لينكولن الاستمرار. إحدى السمات المميزة لقيادة لنكولن أنه أنشأ رابطةً عاطفيةً مع أفراد وعناصر الجيش. في أحلك أيام الحرب، أمضى ساعاتٍ طويلةً مع الجرحى في منزل الجنود في واشنطن. أعطى تعاطفه درساً قوياً، وكان بمثابة نموذجٍ لرؤساء الحرب الذين خلفوه.

كانت قراءة الرسائل من أسر الجنود الذين سقطوا من أكثر التجارب تأثيراً خلال رئاستي. تلقيتُ المئات منها، وهي ضمت كل أنواع ردود الفعل. أعرب الكثير من الرسائل عن شعور مشترك: إنهاء المهمة. وقد كتب والدا أحد الجنود الذين سقطوا، من جورجيا ليقولا: «الحزن الأكبر الذي نواجهه يتمثل في رؤية التخلي عن المهمة في العراق». والجدة المحزونة من ولاية أريزونا أرسلت عبر البريد الإلكتروني لتقول: «نحن بحاجة إلى إنهاء ما بدأناه قبل الانسحاب».

في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥، وصلتني رسالة من رجل في بنساكولا في فلوريدا، تقول:

عزيزي الرئيس بوش،

اسمي باد كلاي. ابني، العريف دانيال كلاي من مشاة البحرية، قُتل الأسبوع الماضي ٢٠٠٥/١/١٢ في العراق. كان واحداً من عشرة مشاة البحرية الذين قتلتهم عبوة ناسفة في الفلوجة.

كان دان مسيحياً يعتبر يسوع رباً ومخلّصاً، لذا نحن نعرف أين هو دانيال الآن. في رسالته الأخيرة (التي تركها معي لقراءتها للأسرة في حال وفاته) يقول: إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، فهذا يعني أن سباقي من أجل بلادي قد انتهى. إنه الآن في منزله، منزله ومنزلنا الحقيقي.

أكتب إليكم لأقول لكم كم نفخر بكم وبما تحاولون القيام به لحمايتنا جميعاً. كانت هذه فترة خدمة دان الثانية في العراق، وقد علم أن وجوده هناك كان لحمايتنا. كثيرون لا يرون الأمر على هذا النحو.

أريد أن أشجعكم. أسمع في خطاباتكم عن البقاء في المسار. أعرف أيضاً أن الكثيرين هم ضدكم في هذه الحرب على الإرهاب وأنه يجب أن تواصلوا الكفاح من أجل القيام بما هو صواب. نحن وآخرون كثر ندعو لكم لنرى تحقيق ذلك، وكما قال لينكولن: هؤلاء لم يموتوا عبثاً.

حملكم ثقيل، ونحن نصلي لأجلكم.

بارك الله فيكم،

باد كلاي

دعوت باد؛ وزوجته سارة جو، وأرملة دانيال، ليزا، لحضور خطابي الموجّه للاتحاد الشهر التالي. وقبل إلقاء الخطاب، التقيت عائلة كلاي في المكتب

البيضاوي. تعانقنا، وأكدوا من جديد أنني كنت في صلواتهم، ألهمتني قوتهم. كان إيمانهم واضحاً وحقيقياً حتى أنه أعاد تأكيد إيماني. كنت آمل أن أرفع معنويات عائلة كلاي ، لكنهم رفعوا معنوياتي.

لم يكونوا وحدهم. في يوم رأس السنة الجديدة ٢٠٠٦، سافرنا، لورا وأنا، إلى مركز بروك الطبي التابع للجيش في سان أنطونيو. قمنا بزيارة ٥١ جندياً جريحاً وعائلاتهم. في إحدى الغرف، التقينا الرقيب كريستيان باج من الحرس الوطني في ولاية أوريغون، مع زوجته ميليسا. كان كريستيان يقوم بدورية في العراق عندما اصطدمت عربته الهمفي بقنبلةٍ على جانب الطريق. علق في السيارة ٤٥ دقيقة، وفقد ساقيه الاثنتين.

قال لي كريستيان إنه كان عدّاءً وإنه يعتزم الركض مرةً أخرى يوماً ما. وكان تصور ذلك صعباً. كنت آمل أن أرفع معنوياته. قلت له: «اتصل بي عندما تكون على استعداد». فأجاب: سوف أركض معك.

في ٢٧ حزيران/يونيو، ٢٠٠٦، التقيت كريستيان في الحديقة الجنوبية. وكان قد وضع ساقين اصطناعيتين من الألياف الكربونية. ركضنا بضع لفات حول المسار الذي بناه بيل كلينتون. فتعجّبت من روح كريستيان وقوته. بالكاد كنت أصدق أن هذا الرجل هو نفسه الذي كان طريح السرير في المستشفى منذ أقل من ستة أشهر. قال إنه لا ينظر إلى نفسه كضحية، وكان فخوراً بما قام به في العراق، وأعرب عن أمله في أن حالته قد تلهم الآخرين.

فكرتُ كثيراً بكريستيان ذاك الصيف، وفي السنوات التي تلت. يدين له بلدنا بالامتنان والدعم. أنا مدين له بشيء أكثر من ذلك: «لا يمكنني ترك العراق يفشل».

* * *

في ١٧ آب/أغسطس، دعوت فريق الأمن القومي إلى غرفة روزفلت، مع الجنرال كيسي، والجنرال أبي زيد، والسفير خليل زاد على شاشة الفيديو. لا تبشر نتائج عملية

«معاً إلى الأمام» بالخير. دفعت قواتنا الإرهابيين وفرق الموت خارج أحياء بغداد، ولكن القوات العراقية لا تستطيع الحفاظ على سيطرتها. كنا نستطيع التطهير لا البقاء.

قلت: «يبدو أن الوضع متدهور. أريد أن أكون قادراً على القول أن لدي خطة للرد. هل تستطيع أميركا أن تنجح؟ إذا كان الأمر كذلك، كيف؟ كيف يجيب قادتنا على هذا؟» قال لي الجنرال كيسي: يمكننا أن ننجح من خلال نقل المسؤولية إلى العراقيين بشكل أسرع. وقال دون رامسفيلد: نحن في حاجة إلى مساعدتهم على مساعدة أنفسهم. كانت تلك طريقة أخرى للقول إننا في حاجةٍ إلى رفع يدنا عن مقعد الدراجة. أردتُ أن أرسل رسالةً إلى الفريق بأني كنت أفكر بطريقةٍ مختلفة. وأضفت: «يجب أن ننجح. إذا كانوا لا يستطيعون القيام بذلك، سنفعل نحن. إذا كانت الدراجات تتأرجح، سنضع يدنا من جديد. يجب أن نتأكد من أننا لن نفشل».

أضاف رئيس الأركان جوش بولتن، الذي كان يعرف إلى أين كنت أتجه، علامة تعجب. وقال قرب نهاية الاجتماع: إذا ساءت الأمور، هل من تدابير جذرية يوصي بها الفريق؟

غادرتُ الاجتماع على اقتناع بأن علينا تطوير تلك التدابير بأنفسنا. أذنت لستيف هادلي إضفاء الصفة الرسمية على التقرير الذي كان فريق مجلس الأمن القومي[1] المختص بالعراق يعده. أردت منهم تحدي كل الافتراضات في استراتيجيتنا وإعطاء خياراتٍ جديدة. أصبحوا بعدها بالنسبة لي، فرقتي الشخصية من المحاربين.

بحلول الخريف، أظهرت الرسوم البيانية أن متوسط الهجمات كان تقريباً ألفاً في الأسبوع. قرأتُ تقارير عن متطرفين طائفيين يعذبون المدنيين بمثاقيب كهربائية، ويخطفون المرضى من المستشفيات، ويفجّرون المصلين أثناء صلاة الجمعة. وكان

(١) تضمنت التغييرات ج.د. كراوتش، وميغان أوسوليفان نائب ستيف والسفير السابق في رومانيا؛ وبيل وتي، وهو قائد بحرية متقاعد؛ بريت ماك غورك، وهو كاتب القانون السابق المعاون لرئيس القضاة وليام رينكويست، بيتر فيفر، أستاذ العلوم السياسية في جامعة ديوك الذي أخذ إجازة للانضمام إلى الإدارة، والجنرال كيفن بيرغنر.

الجنرال كيسي بدأ عمليةً ثانيةً كبرى لاستعادة الأمن في بغداد، وهذه المرة مع المزيد من القوات العراقية للسيطرة على الأرض. ومرةً أخرى أخفقت الخطة.

قررتُ أن هناك حاجة إلى تغيير في الاستراتيجية. لتكون الاستراتيجية ذات صدقيّةٍ للشعب الأمريكي يجب أن تكون مصحوبةً بتغييرات في الموظفين. كان دونالد رامسفيلد قد اقترح بأنني قد احتاج إلى عيونٍ جديدةٍ على العراق، وكان على حق. كنت بحاجة أيضاً إلى قادةٍ جدد. لقد خاض كل من جورج كيسي وجون أبي زيد جولاتٍ طويلةً وكان من المقرر أن يعودا إلى ديارهما. حان الوقت للنظر في مَنْ يخلفهما في منصبيهما.

مع اقتراب انتخابات عام ٢٠٠٦ النصفية، كان الخطاب حول العراق حاراً. أعلن رئيس الجمعية الديمقراطية الوطنية هوارد دين أن فكرة أننا سننتصر في هذه الحرب هي فكرة خاطئة تماماً للأسف. «نحن من يسبب المشكلة»، قالها عضو الكونغرس جون مورثا عن ولاية بنسلفانيا، وأحد الديمقراطيين البارزين وأول من دعا إلى وقف فوري والانسحاب. السناتور جو بايدن ، العضو البارز في لجنة العلاقات الخارجية، أوصى بتقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات منفصلة. وكان الجمهوريون متوترين أيضاً، فقد طالب ميتش ماكونيل بوضوح في المكتب البيضاوي بخفض القوات.

قررت الانتظار حتى بعد الانتخابات لأعلن أي تغييرٍ في السياسة أو الأفراد. لم أكن أريد للشعب الأميركي أو لقواتنا العسكرية الاعتقاد بأنني كنت اتخذ قرارات الأمن القومي لأسباب سياسية.

في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت الانتخابات النصفية، التقيت مع بوب غيتس في كراوفورد وطلبت منه أن يصبح وزيراً للدفاع.

كان بوب قد خدم في لجنة بيكر هاملتون، وهي لجنة مكلفة من قبل الكونغرس بدراسة الوضع في العراق. قال لي إنه يؤيد زيادة القوات باعتبارها واحدةً من توصيات المجموعة. أخبرتُ بوب بأني كنت أبحث عن قائدٍ جديدٍ في العراق، فقال

إنه سيستعرض المرشحين ويقدم مشورته. لكني اقترحت عليه أن يلقي نظرةً فاحصةً على دايفيد بتريوس.

بعد دورتين انتخابيتين ازداد خلالهما عدد الجمهوريين في الكونغرس، تلقينا ضربة قوية سنة ٢٠٠٦. خسرنا الأغلبية في مجلسيْ الشيوخ والنواب. وأعلنت نانسي بيلوسي، الناطقة الجديدة باسم المجلس: لقد قال الشعب الأميركي كلمته. يجب أن نبدأ بإعادة نشر قواتنا خارج العراق.

* * *

مع ازدياد مراجعتنا لاستراتيجيتنا في العراق، ركّزنا على ثلاثة خيارات أساسية. يقضي الأول بتسريع استراتيجية تدريب قواتنا للقوات العراقية بالتزامن مع سحب جنودنا. سيستلم العراقيون مسؤولياتٍ أكبر في التعاطي مع أعمال العنف، فيما نركز نحن على مهمات محدّدةٍ أكثر، من ضمنها مطاردة القاعدة.

ويقضي الخيار الثاني بانسحاب قواتنا من بغداد إلى حين انتهاء العنف الطائفي. في تشرين الأول/أكتوبر، سافرت كوندي إلى العراق وعادت خائبة الأمل من المالكي والقادة الآخرين. وسألت: إذا كانوا مصممين على خوض حرب طائفية، لماذا يجب علينا ترك جنودنا في وسط حمام الدم هذا؟

ويقضي الخيار الثالث بمضاعفة عدد القوات، ونشر عشرات الألوف من الجنود للقيام بعمليةٍ واسعةٍ للقضاء على المتمرّدين في بغداد. بدلاً من الانسحاب من المدن، ستدخل قواتنا إليها، وتختلط مع الناس، وتؤمن حماية المدنيين.

كان السؤال الأساسي ما إذا كان لدى العراقيين الإرادة على النجاح. أعتقد أن معظم العراقيين يؤيدون الديمقراطية، وكنت مقتنعاً أن الأمهات العراقيات، ككل الأمهات، يردن أن يكبر أولادهن مع أمل بالمستقبل. قابلتُ طلاباً من برنامج التبادل، أطباء، وناشطين، وصحفيين مصممين على العيش بحريةٍ وسلام. وبعد سنة على تحرير العراق، قابلتُ مجموعة من أصحاب المصالح الصغيرة الذين عملوا في صناعة أشياءٍ

كالساعات والأقمشة في عهد صدّام. لشراء المواد، كانوا يستبدلون الدينار العراقي بالعملات الأجنبية. وبعد انخفاض قيمة الدينار، بحث صدّام عن كبش محرقة، وأمر بقطع اليد اليمنى لهؤلاء الرجال. منتج الأفلام الوثائقية دون نورث والصحافي التلفزيوني مارفن زندلر سمعا القصة واستقدما هؤلاء العراقيين إلى تكساس، حيث ركّب لهم الدكتور جو آغريس أيادي اصطناعية بدون مقابل.

عندما وصل العراقيون إلى المكتب البيضاوي، كانوا لا يزالون يتعلمون استعمال يدهم اليمنى. كانوا جميعاً ممتنين للشعب الاميركي لتخليصهم من وحشية صدّام. وكان لديهم أمل في وطنهم. التقط أحدهم قلماً بيده التي مضى على تركيبها شهر، وخطَ بألمٍ بعض الكلمات العربية على ورقة «نتضرع إلى الله أن يبارك أميركا».

تعجبتُ من التناقض بين النظام الوحشي، الذي يقطع أيدي الرجال والمجتمع الرؤوف الذي يبحث عن استعادة كرامته. أعتقد أن الرجل العراقي الذي كتب هذه الكلمات تحدث بالنيابة عن الملايين من مواطنيه. كانوا ممتنين لأميركا لتحرير بلادهم، وكانوا يريدون العيش في حرية. وبدوري، لن أتراجع عن مساعدتهم.

* * *

في أواخر أكتوبر/تشرين الأول، أرسلت ستيف هادلي للقاء رئيس الوزراء المالكي على أنفراد في بغداد. وكان تقييم ستيف أن المالكي كان إما أنه يجهل ما يحدث وإما أنه يسيء التعبير عن نواياه، وإما أن إمكانياته ليست كافية بعد لتحويل نواياه الطيبة إلى افعال. قبل أن أتخذ قراراً بشأن المضي قُدُماً، كنتُ بحاجة إلى تحديد أيّ من هذه الاحتمالات هو الصحيح.

يوم ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، توجهت للقاء المالكي في عمّان، الأردن. وكانت إدارة رئيس الوزراء العراقي قد سببت لنا الإحباط في بعض الأحيان. لم ينشر قواتٍ عراقيةً دائماً عندما كان يعد بالقيام بذلك. وكان للبعض في حكومته علاقات مشبوهة مع إيران. ولم يفعل ما يكفي لمطاردة المتطرفين الشيعة. كان الجنرال كيسي

مستاءً بحق، لأن المسؤولين الطائفيين المقربين من المالكي منعوا قواتنا من دخول الأحياء الشيعية.

وعلى الرغم من وجوده في السلطة لمدة ستة أشهر التي قضاها في السلطة، كان المالكي قد نضج كقائد. نجا من تهديدات عدة بالقتل، وانقلاباتٍ محتملة، وسافر كثير من وفود الكونغرس إلى العراق لتوبيخه. قبل أيامٍ قليلةٍ من قمتنا المقررة في الأردن، هدّد الزعيم الشيعي المتطرف مقتدى الصدر بسحب أنصاره من الحكومة إذا اجتمع رئيس الوزراء معي. وعلى الرغم من ذلك حضر المالكي.

سلمني وثيقةً مع الختم الجديد للحكومة العراقية على الغلاف وقال بفخر: هذه هي خطتي. كان داخل الوثيقة اقتراح طموح لاستعادة السيطرة على بغداد بواسطة قوات عراقية. كنت أعرف أن جيشه وجهاز الشرطة لديه، غير مستعدين بعد لتنفيذ مثل هذه العملية الرئيسية. ما كان يهم أن المالكي اعترف بمشكلة العنف الطائفي وأظهر استعداداً للقيادة.

سألته: يرغب الأميركيون بمعرفة ما إذا كانت لديك خطة تسمح لنا بمواجهة كل القتلة من السنّة والشيعة.

ردّ قائلاً: نحن لا نميّز على أساس طائفي.

طلبت لقاء رئيس الوزراء لوحده. بدا المالكي على استعداد لمواجهة العنف. وقررت اختبار التزامه بطرح احتمال التصعيد.

قلت له: الضغوط السياسية للتخلي عن العراق هائلة، لكنني على استعداد لمقاومة هذه الضغوط إذا كنت على استعداد لاتخاذ الخيارات الصعبة.

وتابعت: أنا على استعداد لاستقدام عشرات الآلاف من القوات الأميركية الأضافية لمساعدتك على استعادة بغداد. ولكن عليك أن تعطيني بعض التطمينات.

استعرضت القائمة: يجب أن يُدفع بالمزيد من القوات العراقية، وعليهم أن

يكونوا موجودين. يجب ألاّ يكون هناك أي تدخل سياسي في عملياتنا العسكرية المشتركة مثل منعنا من التوجه إلى الأحياء الشيعية. سيكون علينا مواجهة الميليشيات الشيعية، بما في ذلك جيش الصدر. ومع تحسن الوضع الأمني، عليه إحراز تقدم بشأن المصالحة السياسية بين الشيعة والسنّة والأكراد.

أعطاني المالكي كلمته وقال إنه سيعمل على تحقيق كل النقاط المتفق عليها.

في رحلة العودة من الأردن، فكرت في خيارات للاستراتيجية الجديدة. إن تسريع تسليم السلطة إلى العراقيين ليس خياراً قابلاً للصمود. بدا ذلك مثل استراتيجيتنا الحالية، والتي كانت فاشلة. وفكرة بالانسحاب من المدن والسماح للعنف بحرقها، لم تكن فكرة عملية. لم أستطع أن أطلب من قواتنا الوقوف موقف المتفرج على الأبرياء وهم يُذبحون من قِبَل المتطرفين. كنت قلقاً من أن تقسيم العراق بهذا القدر سيجعل من المستحيل توحيده مرة أخرى.

كان لخيار التصعيد مخاطر خاصة به. فزيادة مستوى قواتنا لن تحظى بشعبية في الوطن، والقتال سيكون صعباً، والخسائر البشرية عالية. إذا خذلنا المالكي، قد لا نكون قادرين على وقف العنف.

بعد الاجتماع بالمالكي، اعتقدت أن بإمكاننا الاعتماد على دعمه. فالتصعيد أفضل فرصة لدينا، وربما فرصتنا الأخيرة، لإنجاز أهدافنا في العراق.

* * *

على مدى أسابيع من المناقشات المكثفة في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر، وافق معظم فريق الأمن القومي على دعم التصعيد. ديك تشيني، بوب غايتس، جوش بولتن، وستيف هادلي ومقاتلوه من مجلس الأمن القومي ودعموا هذا الطرح الجديد. ووافقت كوندي على ذلك أيضاً، لأن الخطة لا تقضي بإرسال المزيد من القوات في إطار الاستراتيجية القديمة نفسها.

كان الاتحاد ضرورياً لقرارٍ كهذا، مثير للجدل ومهم، ستتحقّق الصحافة والكونغرس من وجود أي انقسام داخل الإدارة. فإذا ما وجدوا أي انقسام، فسوف يستغلونه لتبرير حملاتهم المعارضة وعرقلة الخطة. وللوصول إلى هذا التوافق، وُجب ضم مجموعة أخرى، وهي هيئة الأركان.

أُنشئت هيئة الأركان المشتركة بموجب قانون الأمن القومي لعام ١٩٤٧، وتضم رؤساء كل فروع الخدمة، بالإضافة إلى الرئيس ونائب الرئيس. الرؤساء ليسوا جزءاً من سلسلة القيادة، وبالتالي لا يتحملون أي مسؤولية مباشرة عن العمليات العسكرية. الجزء الرئيسي من دورهم هو التأكد من سلامة قواتنا المسلحة وقوتها.

بموجب القانون، يكون رئيس هيئة الأركان المشتركة هو مستشار الرئيس العسكري الرئيسي. وكان رئيس هيئة الأركان المشتركة في عام ٢٠٠٦ الجنرال بيت بيس. كان بيت أول جندي من مشاة البحرية خدم كرئيسٍ للهيئة، وواحداً من أهم الضباط في جيله. كملازم شاب في فيتنام، قاد بيت فصيلةً تحمّلت قتالاً عنيفاً. وإلى حين نهاية خدمته، حملً معه صور كل مشاة البحرية الذين ضحوا بحياتهم تحت قيادته. عندما تولى منصب الرئيس، تعمد تعداد أسمائهم لي. لم ينسَهم أبداً، كما لم ينسَ تكلفة الحرب.

أطلق بيت حملة مراجعة الاستراتيجية داخل هيئة الأركان المشتركة. وطلبتُ من ستيف هادلي التأكد من أن طرح التصعيد كان له مكان في هذه المناقشات. قررتُ الذهاب لرؤية القادة في وزارة الدفاع للاستماع شخصياً إلى آرائهم.

قبل يومين من الاجتماع، جاء بيت إلى المكتب البيضاوي، وقال إنه سمع عدداً من المخاوف من الزعماء، ولكنهم كانوا على استعداد لدعم التصعيد. كما أعطى ستيف تقديراً عن حجم القوات المطلوبة لإحداث الفرق: خمسة ألوية، وحوالي ٢٠ ألف جندي أميركي.

في ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦، دخلت إلى الصهريج، وهي قاعة مؤتمرات

لهيئة الأركان المشتركة مغطاة بالخشب في البنتاغون. كان حضوري طريقةً لإظهار احترامي لهم. بادرت بإخبارهم أني كنت هناك لسماع آرائهم وطلب نصيحتهم.

درتُ حول الطاولة قرب كل واحد منهم. شرح القادة مخاوفهم، وكانوا يشعرون بالقلق بشأن مستوى التزام المالكي. شعروا أن على الوكالات الحكومية الأخرى المساهمة أكثر في العراق. وتساءلوا ما إذا كانت مطالب التصعيد قد تتركنا غير مستعدين للاحتمالات الأخرى، مثل تفجّر الوضع في شبه الجزيرة الكورية.

وكان القلق المهيمن من أن زيادة عدد القوات سوف تكسر العسكر عن طريق وضع الكثير من الضغط على أفراد القوات المسلحة وعائلاتهم. إن كثيرين من قواتنا في العراق يخدمون فتراتهم الثانية أو الثالثة في هذا البلد. وحتى يكون التصعيد ممكناً، سيكون علينا تمديد بعض الفترات من ١٢ إلى ١٥ شهراً. وسيكون التأثير على التوظيف، والمعنويات، والتدريب، والجهوزية، وعائلات العسكريين أكثر عمقاً.

طلب رئيس أركان الجيش بيت شوماخ وقائد البحرية جيمس كونواي، زيادةً في حجم الخدمات التي يقدمانها. فباعتقادهما أن التوسّع سيخفّف الضغط على قواتنا ويساعد التأكد من أننا على استعداد للنزاعات المُحتمَلة في أماكن أخرى من العالم. أعجبتني الفكرة ووعدت بأخذها بعين الاعتبار.

في نهاية الاجتماع، لخّصت أفكاري. قلت: «أنا اشاطركم القلق من كسر العسكر، وأضمن طريقة لكسر العسكر هي الخسارة في العراق».

كانت خطتي الأولية تقضي بإعلان الاستراتيجية الجديدة في العراق قبل أسبوع أو اثنين من عيد الميلاد. ولكن مع اقتراب الموعد استنتجت أننا بحاجة إلى مزيدٍ من الوقت. كنت أريد من بوب غيتس ، الذي أدى اليمين في منصب وزير الدفاع في ١٨ كانون الأول/ديسمبر، أن يزور العراق.

قبل يومين من عيد الميلاد، جاء بوب لرؤيتي في كامب دايفيد. أخبرني أنه زار المالكي، الذي أعلمه بخطة تصعيد عراقية لمجاراة مبادرتنا. سيعلن المالكي

الأحكام العرفية، وينشر ثلاث كتائب عراقية إضافية في بغداد، ويعين حاكماً عسكرياً، ويسمي اثنين من القادة مع صلاحيات مطلقة لمطاردة المتطرفين من أي مجموعة طائفية. وكان بوب قد قرر أن يكون الجنرال دايفيد بترايوس القائد الجديد. واتفقنا على ترقية الجنرال كيسي ليصبح رئيس أركان الجيش. لجورج سجل طويل ومتميز من الخدمة، وخبرته ستفيد الجيش. أردت التأكيد له أنني لا ألومه على المشاكل في العراق.

وكان السؤال الأخير هو حجم التصعيد. اقترح بعض العسكريين أن نبدأ بلواءين، بما مجموعه عشرة آلاف جندي، مع إمكانية زيادة العدد إلى ثلاثة ألوية أضافية في وقتٍ لاحق. ذكر الجنرال بيت بيس أن الجنرال بيت بترايوس والجنرال راي أوديرنو، القائد رقم اثنين في العراق، يريدان الالتزام بالألوية الخمسة مقدماً.

إذا كان قادتنا على الأرض يريدون القوة الكاملة، فيجب أن يحصلوا عليها. قررتُ إرسال خمسة ألوية إلى بغداد، بالأضافة إلى كتيبتين أضافيتين من البحرية إلى محافظة الأنبار. يجب أن نضع قواتنا ضمن التشكيلات العراقية، حتى نتمكن من تعليم العراقيين في ساحة المعركة وإعدادهم لتحمل المزيد من المسؤولية بعد عملية التصعيد. وأخيراً، قبلت بثلاث توصيات رئيسية من هيئة الأركان المشتركة. ستعمل كوندي على زيادة الموارد المدنية، وسأحصل على ضمانات عامة من رئيس الوزراء المالكي حول حرية قواتنا للمناورة. وسأدعو الكونغرس إلى زيادة حجم الجيش وفيلق البحرية ٩٠ ألف جندي.

يوم ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، عقدت اجتماعاً عبر دائرة تلفزيونية مغلقة آمنة مع المالكي. قلت له: «يعتقد كثير من الناس هنا أننا لا يمكن أن ننجح. وأنا أخالفهم الرأي». وأضفت: «سوف أضع رقبتي على المحك إذا وضعت رقبتك معي». وبعد ذلك بيومين، وجه خطاباً إلى العراقيين لمّح إلى التزامه شخصياً بالتصعيد. وأضاف أن خطة أمن بغداد لن توفر ملاذاً آمناً لأي خارجٍ على القانون، بغض النظر عن طائفته أو انتمائه السياسي.

كان القرار صعباً، ولكنني واثق من أنني اتخذته بالطريقة الصحيحة. جمعت الحقائق والآراء من أناس من داخل وخارج الإدارة. لقد تحديت الافتراضات وزنت كل الخيارات بعناية. كنت أعلم أن التصعيد لن يكون ذا شعبية على المدى القصير. وكان كثيرون في واشنطن قد تخلوا عن احتمال الانتصار في العراق، إلا أنني لم أتخلّ عنه.

في التاسعة مساء يوم ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧، وقفت أمام الكاميرات في مكتبة البيت الأبيض. وقلت: «إن الوضع في العراق غير مقبول من الشعب الأميركي وغير مقبول مني. لقد قاتلت قواتنا في العراق بشجاعة، وفعلوا كل ما طلبنا منهم القيام به، وإذا ما وقعت أخطاء، فالمسؤولية تقع على كاهلي. من الواضح أننا بحاجةٍ إلى تغيير استراتيجيتنا في العراق.... لقد أرسلت أكثر من عشرين ألف جندي أميركي إضافي إلى العراق. الغالبية الساحقة منهم، أي خمسة ألوية، ستُنشر في بغداد».

* * *

كان رد الفعل سريعاً وأحادي الجانب. قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ: لا أعتقد أن التوسّع وإرسال٢٠ ألف جندي إلى العراق سيحل المشاكل. وقال آخر: لا أعتقد أن ارسال مزيدٍ من القوات إلى العراق هو الحل. وأعلن ثالث أن هذه الخطوة هي أخطر خطأ في السياسة الخارجية يُرتكب في هذا البلد منذ فيتنام. تلك كانت ردود فعل الجمهوريين.

لكن اليسار كان أكثر صراحة. ورأى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الجدد أن التصعيد لن يحل مشكلة العنف الطائفي هناك، وأنه سيؤدي إلى عكس ذلك. بعد الاطلاع على آراء معظم زملائه، وصف كاتب عمود صحيفة الواشنطن بوست الخطة بأنها تصعيد للحرب في العراق، قائم على الخيال، والذي يمكن أن يكون

منطقياً فقط في كونٍ موازٍ، حيث تطير الخنازير، وتتنقل الأسماك على الدراجات الهوائية.

حضرت كوندي، وبوب غيتس، و بيت بيس إلى الكابيتول هيل بعد يوم واحدٍ على إعلاني خطة التصعيد، وكان الاستجواب عنيفاً من كلا الجانبين. قال أحد أعضاء الكونغرس الديموقراطيين للجنرال بيس: هذه الخطة المجنونة هي أغبى ما رأيته أو سمعته في حياتي. وقال سيناتور جمهوري لكوندي: لقد اتفقت مع الرئيس على هذا الموضوع، وشاركته حلمه. ولكن في هذه المرحلة من اللعبة، لا أعتقد أن الأمر سينجح. جاءت كوندي بعد ذلك لرؤيتي في المكتب البيضاوي، وقالت: لقد حصلت معركة صعبة على هذه المسألة، سيدي الرئيس.

وسط شكوك شبه كونية، دافع بعض الشجعان فقط عن التصعيد. من بينهم كان السيناتور جو ليبرمان من كونيتيكت، وهو الديمقراطي الأبدي الذي أزاحه حزبه جانباً بسبب دعمه للحرب، والسيناتور ليندسي غراهام من ساوث كارولينا، وهو عضو في احتياطي سلاح الجو، والسيناتور جون ماكين عن ولاية أريزونا.

كانت علاقتي بماكين معقّدة. كنا قد تنافسنا في العام ٢٠٠٠، واختلفنا على قضايا من بينها التخفيضات الضريبية وإصلاح الرعاية الطبية واستجواب الإرهابيين. وعلى الرغم من ذلك دعمني بقوةٍ في انتخابات العام ٢٠٠٤، وعرفت أنه يعتزم ترشيح نفسه للرئاسة في عام ٢٠٠٨. أعطته الخطة فرصةً لخلق مسافةٍ بيننا، لكنه لم يستغلها. لقد كان منذ فترةٍ طويلةٍ مدافعاً عن زيادة عدد القوات في العراق، وكان يؤيد الاستراتيجية الجديدة بالكامل. قال: لا أستطيع ضمان النجاح. وأضاف: لكني استطيع أن أؤكد الفشل إذا لم نعتمد هذه الاستراتيجية الجديدة.

كان الجنرال بترايوس الداعية الأكثر إقناعاً لفكرة التصعيد. فكونه مؤلف كتاب «دليل الجيش لمكافحة التمرّد» كانت له السلطة بلا منازع على الاستراتيجية التي ينوي تطبيقها. إن فكره وقدرته على المنافسة وأخلاقيات عمله معروفة لدى الجميع. في إحدى زياراته للوطن، دعوته إلى جولة على الدراجات الجبلية معي في بلفوار

بولاية فيرجينيا. كان بالأساس عداءً، ودفعته ثقته لقبول التحدي. أظهر جدارةً بين ذوي الخبرة من الدرّاجين الرئاسيين.

بعد الجولة، دخلت إلى مبنى في فورت بلفوار لأرد على مكالمة من رئيس وزراء اليابان، وسمعت ضجيجاً في الخلفية. ألقيتُ نظرةً خارج الباب ورأيت بترايوس يقود المجموعة في سلسلة من حركات الضغط وتمارين المعدة.

أثارت ترقية بترايوس بعض الاستياء. كنت قد سمعت بعض القيل والقال من كثير من الناس يحذّر بأن غروره غير محدود. في العام ٢٠٠٤، عندما كان بترايوس يقود الجهود لتدريب قوات الأمن العراقية، نشرت مجلة نيوزويك صورته على الغلاف وفوقها عنوان: هل يستطيع هذا الرجل إنقاذ العراق؟ وعندما طرحتُ الموضوع معه، قال لي: «زملائي من ويست بوينت لن يسمحوا لي بالخسارة». قدّرت له تصريحه المتواضع الذي كان إضافةً جيدةً إلى قدرته على القيادة.

جاءت تأكيدات جلسات الاستماع لبترايوس في أواخر كانون الثاني/يناير. قال: أعتقد أنه في هذا الوقت في بغداد، يريد السكان فقط الشعور بالأمان. وأضاف: وبصدق، لا يهمهم من يؤمن لهم ذلك. عندما ضغط عليه جون ماكين حول ما إذا كانت مهمة لا يمكن أن تنجح من دون مزيدٍ من القوات، أجاب الجنرال بترايوس: لا، يا سيدي. ومنحه مجلس الشيوخ أصواته بإجماع ٨١ صوتاً.

دعوتُ الجنرال إلى المكتب البيضاوي لتهنئته على التصويت، بحضور كل من ديك تشيني وبوب غيتس، وبيس بيت، وغيرهم من أعضاء فريق الأمن الوطني الذين تمنّوا له التوفيق. قلت: «أريد لحظة بمفردي مع القائد».

بعد خروج الفريق، أكدت للجنرال بترايوس على ثقتي به، وأنه بإمكانه التحدث إليّ في أي وقت. وفي نهاية اللقاء قلت له: «حُسِم الأمر، وسنضاعف الرهان».

عند خروجه من الباب أجاب: سيدي الرئيس، أعتقد أننا نراهن بكل شيء.

* * *

تولى دايفيد بترايوس القيادة في بغداد في ١٠ شباط/ فبراير ٢٠٠٧، كانت المهمة شاقة مثل مهمة أي قائدٍ للقوات الأميركية على مر العقود. كما قال لقواته في أول يوم له: الوضع في العراق هو غاية في التحدي، والرهانات عالية جداً، والطريق أمامنا شاق، وبدون شك ستكون هناك أيام صعبة جداً. وتابع قائلاً: ومع ذلك، فالصعب ليس مستحيلاً، وهذه المهمة قابلة للتنفيذ.

مع تدفق قواتنا إلى العراق، نقل بترايوس وأوديرنو قواتنا من قواعدها في ضواحي بغداد إلى بؤرٍ صغيرةٍ داخل المدينة. عاشت قواتنا جنباً إلى جنب مع قوات الأمن العراقية وقامت بدوريات في المدينة سيراً على الأقدام، بدلاً من سيارات الهمفي المدرّعة. مع محاربتنا المتطرفين داخل معاقلهم للمرة الأولى، رد علينا العدو. فقدنا ٨١ جندياً في شباط/ فبراير، و٨١ في آذار/مارس، و١٠٤ في نيسان/أبريل، و١٢٦ في أيار/مايو، و١٠١ في حزيران/يونيو وهي أول مرة في الحرب تتجاوز خسائرنا المئة قتيل خلال ثلاثة أشهر على التوالي. كانت الخسائر مؤلمة. ولكن كان هناك شيء مختلف في العام ٢٠٠٧: كانت أميركا في موقع الهجوم مرةً اخرى.

لفت الجنرال بترايوس انتباهي إلى مقياس مهم للتقدم: عدد التسريبات الاستخباراتية من السكان العراقيين. في الماضي، كان العراقيون يخشون الانتقام من المتمردين أو فرق الموت بسبب التعاون مع قواتنا. ولكن مع تحسّن الوضع الأمني، ازداد عدد التسريبات من نحو ١٢٥٠٠ في شباط/ فبراير إلى ٢٥٠٠٠ تقريباً في أيار/ مايو. واستخدمت قواتنا وفرق الاستخبارات التسريبات لإخراج المسلحين والأسلحة من الشارع. كانت استراتيجية مكافحة التمرد فاعلة: كنّا نكسب عطف الشعب من خلال توفير أهم ما يحتاجونه، الأمن.

تابعنا نظام «تطهير، سيطرة، بناء»، والفضل يعود في جزءٍ كبيرٍ منه إلى زيادة الجهود المدنية بقيادة السفير رايان كروكر. قابلت رايان لأول مرة في باكستان، كان يعمل سفيراً، أثناء زيارتي في عام ٢٠٠٦. بدا دبلوماسياً صبوراً ومتواضعاً. ولكن تحت الهدوء الخارجي، كان رجلاً لا يعرف الخوف، وكان يُنظر إليه على نطاقٍ واسعٍ

باعتباره أفضل موظفٍ في الخدمة الخارجية في جيله. كان يجيد اللغة العربية، وقد خدم في جميع أنحاء الشرق الأوسط، بما في ذلك فترات عدة في العراق. نجا من الهجوم الإرهابي في ١٩٨٣ على سفارتنا في لبنان، ومن مجموعة غاضبة حاولت نهب مقر إقامته في سورية. عندما أعلنت عن استراتيجية جديدة في العراق، قررتُ أن علينا تغيير السفراء أيضاً. من جهتي، رشّحت زلماي خليل زاد، الذي كان قد قام بعملٍ جيدٍ في بغداد، ليكون ممثلنا الدائم لدى الأمم المتحدة. لكن كوندي لم تستغرق وقتاً طويلاً على التوصية ببديلٍ له، وقالت إن رايان كان الرجل الوحيد المناسب للمهمة.

اكتسب رايان احترامي بسرعة. كانت لديه موهبة لاكتشاف المشكلات ومواجهتها. تحدّث بصراحةٍ عن التحديات، وكان لديه حس فكاهي ساخر وكان يحب الضحك. سألته في إحدى الفترات العصيبة: «ماذا لديك لتخبرني اليوم يا عزيزي؟». فبدأ بإطلاعي على ما يجري مع ابتسامة كبيرة. كان يعمل بسلاسةٍ مع الجنرال بترايوس، وحصل على ثقة العراقيين من جميع الفصائل.

كان في قلب الجهد المدني مضاعفة عدد فرق إعادة الإعمار المحلية، التي وازت الخبراء المدنيين وأفراد القوات العسكرية. عقدتُ كثيراً من الاجتماعات والمؤتمرات عبر الفيديو مع قادة فرق إعادة الإعمار الإقليميين المنتشرين في أنحاء العراق. كانوا مجموعةً مثيرةً للإعجاب، وكان كثير منهم من قدامى المحاربين. وكان منهم سيدة في السلك الخارجي كان ابنها قد خدم في سلاح مشاة البحرية في العراق. وصفوا لي مشاريعهم، التي تراوحت بين دعم إحدى الصحف المحلية في بغداد والمساعدة على إنشاء مقراتٍ في محافظة نينوى، وإنشاء مختبرٍ لفحص التربة لتحسين الزراعة في محافظة ديالى. لم يكن العمل دائماً براقاً، لكنّه كان حاسماً لاستراتيجية مكافحة التمرد التي كنا ننفّذها.

كنت أتحدث إلى الجنرال بترايوس والسفير كروكر عبر دائرة تلفزيونية مغلقة آمنة، على الأقل مرةً واحدةً في الأسبوع، وأحياناً أكثر من مرة. اعتقدت أن بناء

علاقة شخصية واتصالات متكررة ضرورية لنجاح الاستراتيجية الجديدة. وسمحت لي المحادثات بالاستماع مباشرةً إلى تقارير عن الأوضاع في العراق. وسمحت لبترايوس و كروكر بتبادل الإحباط، والضغط من أجل اتخاذ قرارات مباشرة من القائد الاعلى.

كان الوضع يتحسن، لكننا كنا قلقين من إمكانية حادثةٍ أخرى مثل تفجير سامراء، حادثةٍ قد تغير قواعد اللعبة وتشعل العنف الطائفي. أشار بترايوس إلى مشكلة أخرى. قائلاً: إن ساعة واشنطن تدق على نحوٍ أسرع كثيراً من ساعة بغداد، وكان على حق. فبعد أقل من أسبوع على وصول الجنرال بترايوس إلى العراق، أصدرت الغالبية الديمقراطية الجديدة في مجلس النواب قراراً غير مُلزِم بأن الكونغرس لا يوافق على قرار الرئيس جورج بوش الذي أعلنه في ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ بنشر أكثر من ٢٠ ألف جندي أضافي مقاتلٍ في العراق.

بعد يوم من أعمال العنف المتكررة في نيسان/ أبريل، أعلن السيناتور هاري ريد من نيفادا: لَقد خسرنا هذه الحرب، والزيادة لم تحقق شيئاً. وكان زعيم الغالبية في مجلس الشيوخ الأميركي استخدم منصبه ليقول لـ١٤٥ألف جندي أمريكي وعائلاتهم إنهم كانوا يقاتلون من أجل قضيةٍ خاسرة. وكان قد صنّف الخطة بأنها فاشلة حتى قبل وصول كل القوات الإضافية. إنه واحد من أكثر الأعمال غير المسؤولة التي شهدتها في ثماني سنوات من عملي في واشنطن.

يوم ١ أيار/مايو، أرسل لي الكونغرس مشروع قانون تمويل الحرب مع تكليفٍ بتحديد الموعد النهائي لانسحاب القوات في وقتٍ لاحقٍ من هذا العام. إن تحديد موعدٍ تعسفي للانسحاب سيسمح لأعدائنا بالتربّص بنا، وسوف يقوّض قدرتنا لكسب الزعماء المحليين الذين كانوا ينتقدون نجاحنا. من جهتي، نقضتُ مشروع القانون. وبقيادة زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ميتش ماكونيل، الذي أيّد الخطة بعد اقتراحي لها، وأعلن لي في وقتٍ لاحقٍ أنه كان مخطئاً في طلب الانسحاب، وزعيم الأقلية في مجلس النواب جون بوينر ، وقف الجمهوريون في الكابيتول هيل

بصلابة. ولم يكن لدى الديمقراطيين الأصوات الكافية لتجاوز حق النقض. يوم ٢٥ أيار/مايو، وقّعتُ على مشروع قانون التمويل الكامل لقواتنا مع عدم وجود جدول زمني للانسحاب.

* * *

دعوها «الصحوة».

الأنبار هي أكبر محافظات العراق، وهي فسحة مترامية الأطراف من الصحراء التي تمتد من الحدود الغربية لبغداد حتى الحدود السورية، والأردن والمملكة العربية السعودية. بمساحة ثلاثة وخمسين ميلاً مربعاً، تغطي الأنبار تقريباً المقدار نفسه من الأراضي التي تغطيها ولاية نيويورك. معظم سكانها من السنّة. ولما يقرب من أربع سنوات، كانت الأنبار معقلاً للمتمردين وملاذاً لتنظيم القاعدة.

استولت القاعدة على مدن الأنبار الرئيسية، وتسلّلت إلى القوات الأمنية، وفرضت أيديولوجيتها على السكان. ومثل طالبان، منعت النساء من مغادرة منازلهن دون مرافق من الذكور، وحظرت الأنشطة الرياضية والترفيهية الأخرى. هاجمت القوات الأميركية، وقوات الأمن العراقية، وغيرهم ممن قاوموها. وبحلول عام ٢٠٠٦، كان معدّل الهجمات في الأنبار ٤١ هجوماً في اليوم الواحد.

اكتشفت قواتنا وثيقةً لتنظيم القاعدة تضع هيكلية حكم مفصّلة للأنبار، بما في ذلك وزارة التعليم، ودائرة الخدمات الاجتماعية، و وحدة الإعدام. كانت استخباراتنا متأكدة من أن الأنبار ستكون مركزاً لتنظيم القاعدة في التخطيط لهجمات على الولايات المتحدة. في آب/أغسطس ٢٠٠٦ كتب أحد كبار ضباط الاستخبارات في مشاة البحرية، في تقريرٍ نُشِر على نطاقٍ واسعٍ، أننا خسرنا محافظة الأنبار.

ثم تغيّر كل شيء. وكان أهل الأنبار قد نظروا إلى الحياة في ظل تنظيم القاعدة، ولم يعجبهم ما رأوه. في منتصف عام ٢٠٠٦ تضامن شيوخ القبائل معاً من أجل استعادة مقاطعتهم من المتطرّفين. وجنّدت الصحوة الآلاف.

كجزءٍ من الخطة، نشرنا ٤٠٠٠ جندي إضافي من مشاة البحرية في الأنبار، حيث عزّزوا قوة شيوخ العشائر وثقتهم. فرّ كثير من الجهاديين من تنظيم القاعدة إلى الصحراء، وانخفض العنف في المحافظة بنسبة أكثر من ٩٠ في المئة. في غضون أشهر، استعاد شعب الأنبار الشجاع، بدعمٍ من قواتنا، السيطرة على محافظته. وأصبح الملاذ الآمن لتنظيم القاعدة موقع هزيمتهم الأيديولوجية الأكبر.

في عيد العمال عام ٢٠٠٧، قمتُ بزيارةٍ مفاجئةٍ إلى محافظة الأنبار. حلّقت الطائرة الرئاسية فوق ما يشبه الكثبان الرملية العملاقة وهبطت في منطقة قاعدة الأسد الجوية، على قطعة من الإسفلت الأسود وسط كيلومترات من اللون البني. نزلنا السلّم في درجات الحرارة المرتفعة، وسرعان ما انتقلنا إلى غرفة مكيّفة في القاعدة. استمعت إلى إحاطات عدة ثم اجتمعت مع مجموعةٍ من شيوخ القبائل الذين بدأوا انتفاضة الأنبار. كانوا قساة الملامح ولكن، متواضعين جداً. وذكرتني تصرّفاتهم الودية وحركاتهم، بالمسؤولين المحليين في غرب تكساس. ولكن بدلاً من الجينز والأحذية، كانوا يرتدون الجلباب الطويل وغطاء الرأس الملون.

كانوا شيوخاً مفعمين بالاعتزاز وهم يصفون ما أنجزوه. تراجع العنف بشكل كبير، وبدأت مكاتب رؤساء البلديات والمدن تعمل، وأخذت مجالس القضاة تنظر في القضايا وتحقّق العدالة. بمساعدة تصاعد الجهود المدنية، أُعيد فتح مجلس المحافظة في الرمادي، بحضور ٣٥ من الأعضاء لافتتاح الدورة.

انضم رئيس الوزراء المالكي والرئيس جلال طالباني إلى الاجتماع. كان منظراً استثنائياً مشاهدة المالكي ، وهو شيعي، وطالباني وهو كردي، في غرفة تغص بها شيوخ العشائر السنّة لمناقشة مستقبل بلدهم. عندما سألهم رئيس الوزراء ما يحتاجونه، كان لديهم قائمة طويلة من الطلبات: المزيد من المال، والمزيد من المعدات، والمزيد من البنى التحتية. واشتكى المالكي من أنه لم يكن هناك ما يكفي في الميزانية لتلبية كل طلباتهم. ساعد الطالباني على الحكم في المنازعات. وجلست في الخلف وتمتعت بالمشهد. الديمقراطية تسود في العراق.

شكرتُ الشيوخ على كرم الضيافة وشجاعتهم في الحرب على الإرهاب. وقال لي أحدَ الشيوخ بفرح: إذا كنتَ في حاجةٍ لنا، سوف نذهب أنا ورجالي إلى أفغانستان!

* * *

كانت واشنطن تضج عندما وصل بترايوس وكروكر في ١٠ أيلول/سبتمبر للإدلاء بشهادتيهما أمام الكونغرس، وتقديم توصيات بشأن التقدم في العراق. كان الديمقراطيون قد تعهّدوا منذ أشهرٍ عدة باستخدام شهاداتهم لقطع التمويل عن الحرب. في تموز/يوليو، أعلنت صحيفة نيويورك تايمز قضية العراق خاسرة ، ودعت إلى انسحاب الجميع، على الرغم من أن انسحاباً فورياً يمكن أن يؤدي إلى مزيدٍ من التطهير العرقي وحتى الإبادة الجماعية، وإلى معقلٍ جديدٍ للإرهاب يمكن أن يتكاثر النشاط فيه. إلا أنه كان مذهلاً أن نرى التايمز، التي دافعت بحق عن حقوق الإنسان، وهي تدعو إلى سياسةٍ قد تؤدي إلى الإبادة الجماعية.

في صباح يوم جلسات الاستماع، نشرت المجموعة اليسارية (MoveOn.org) إعلاناً من صفحةٍ كاملةٍ يقول: الجنرال بترايوس أو الجنرال بيتراي يو أس [الجنرال الذي خاننا]؟ يطبخ الكتب للبيت الابيض. كان الهجوم على جنرال رفيع الشأن مدهشاً، كما كان أيضاً خطأً سياسياً. حاول الديموقراطيون في الكونغرس تجنّب دعم الإعلان مع أنهم دعموا المشاعر المناهضة للحرب وراءه. وندّد أحد سيناتورات نيويورك بالإعلان بأن قال إن تقرير بترايوس يلزمنا تعليق إرادة عدم التصديق.

من جانبهما، كان بترايوس وكروكر صلبين ومرنين، وذويْ مصداقيةٍ عالية، وذكرا الوقائع. كان عدد القتلى من المدنيين العراقيين قد انخفض ٧٠ في المئة في بغداد و٤٥ في المئة في أنحاء البلاد. كما انخفض عدد الوفيات الناجم عن العنف الطائفي ٨٠ في المئة في بغداد و٥٥ في المئة عبر البلاد. انخفضت الهجمات بالعبوات الناسفة بنسبة الثلث، وانخفضت السيارات المفخّخة والهجمات الانتحارية ٥٠ في

المئة تقريباً. وامتدت حركة الصحوة التي شهدتها الأنبار إلى محافظة ديالى والأحياء السنية في بغداد. كانت الصورة لا لبس فيها: إن الخطة تعمل.

بعد ليلتين من الشهادة، تحدثتُ إلى الأمة، وقلت: «بسبب هذا النجاح، يعتقد الجنرال بترايوس أننا وصلنا الآن إلى النقطة التي يمكننا الحفاظ فيها على المكاسب الأمنية التي تحقّقت وباستخدام قواتٍ أقل... المبدأ الذي يوجه قراراتي بشأن مستوى القوات في العراق هو العودة مقابل النجاح. كلما نجحنا أكثر، عاد المزيد من القوات الاميركية، إلى وطنهم».

كانت العبارة الأكثر تكراراً في خطابي العودة مقابل النجاح. اللعب الذكي على الكلمات اقترحه إد جيلسبي ، وهو صديق ذكي وقيّم، وقد وافق على قيادة فريق الاتصالات عندما عاد دان بارتليت إلى تكساس. في رأيي، كانت أهم رسالة أننا سنحتفظ بالعدد الذي تطلبه القيادة في العراق، طالما أنها في أمس الحاجة إليه.

يوم خطابي، سمعتُ أن صديق الجنرال بترايوس ، الجنرال المتقاعد جاك كين، اجتمع مع ديك تشيني. لقد أحببتُ واحترمتُ جاك. فقد قدم مشورةً قيّمةً أثناء عملية صنع القرار ودعم الخطة علناً. طلبتُ من جاك نقل رسالةٍ شخصيةٍ مني إلى الجنرال بترايوس: «انتظرت على مدى ثلاث سنوات استراتيجيةً ناجحةً، ولستُ مستعداً للتخلي عنها قبل الأوان. لن أخفض العدد إلا إذا كنت أنتَ مقتنعاً بوجوب مواصلة خفض العدد».

* * *

بعد ثلاثة أسابيع من الشهادة التي طال انتظارها، ذهبتُ إلى ميدان الاستعراضات العسكرية في فورت ماير بولاية فرجينيا، لوداع أحد الأصدقاء. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من إعلاني عن زيادة القوات، أوصى بوب غيتس بألاّ أعيد ترشيح الجنرال بيت بيس لولاية ثانية كرئيسٍ لهيئة الأركان المشتركة. الجو العام في الكابيتول هيل كان عدائياً، وسمع بوب من كثيرٍ من أعضاء مجلس الشيوخ وبخاصةٍ من كارل ليفن،

الرئيس الجديد للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، أن جلسة الموافقة على بيت سوف تكون مثيرةً للجدل. وكان القلق من أن أعضاء مجلس الشيوخ سوف يستخدمونه كيسَ ملاكمة بسبب إحباطاتهم في العراق.

أُعجبتُ ببيت، وكنت قد استفدت من نصائحه خلال ست سنوات. كنت أعرف كم أحبته قواتنا، وكنت ارغب بإنهاء رئاستي وصديقي في القيادة. لكني تخيّلتُ مشهد جلسات الاستماع: المتظاهرون يصرخون والشيوخ يختالون أمام الكاميرات، وكلها ستنتهي بتصويتٍ سلبي من شأنه أن يذل بيت. وافقتُ على مضضٍ على تقويم بوب، ورشّحت مايك مولين، وهو أميرال بحرية جيد، ليكون القائد الجديد.

لم يتذمّر بيت قط، وخدم بنبلٍ حتى النهاية. بعد تسليم مهامه، أزال النجوم الأربع عن بزته، وعلّقها على بطاقة، وتركها على سفح النصب التذكاري بالقرب من اسم جندي من مشاة البحرية قُتِل من أربعة عقود. لم تحضر أي كاميرات أو صحافة. في وقتٍ لاحق، تم العثور على البطاقة عند سفح الجدار. كتب عليها: إلى غيدو فارينارو، مشاة بحرية الولايات المتحدة، هذه [النجوم] لك، وليست لي! مع الحب والاحترام، قائد كتيبتك، بيت بيس.

تألمت لبيت وأسرته. عندما قدّمت له ميدالية الحرية الرئاسية المستحقة عن جدارة في عام ٢٠٠٨، خفّف ذلك، جزئياً فقط، من أسفي.

* * *

استمر زخم الزيادة في عام ٢٠٠٨، وبحلول الربيع كان أكثر من ٩٠ ألف عراقي، من السنّة والشيعة، قد انضموا إلى مجموعات المواطنين المحليين مثل تلك التي كانت قد بدأت في الأنبار. اندمج العديد من هذه القوات، التي تُعرف الآن باسم أبناء العراق، على نحوٍ متزايدٍ في الجيش وقوات الشرطة التي ازدادت فعالية، والتي نمت إلى أكثر من ٤٧٥ ألفاً. طردوا المسلحين المتشدّدين وتنظيم القاعدة

من معاقلهم. ولجأ الإرهابيون إلى استخدام الأطفال والمعاقين عقلياً كمفجّرين انتحاريين، وكشفوا عن فسادهم الأخلاقي وعدم قدرتهم على التجنيد.

وكما توقع خبراء مكافحة التمرد تماماً، تُرجمت مكاسب الأمن في عام ٢٠٠٧ إلى تقدمٍ سياسي في عام ٢٠٠٨. بعد التحرر من كابوس العنف الطائفي، وافق العراقيونَ على سلسلةٍ من التشريعات الرئيسية، بما في ذلك قانون تسوية وضع أعضاء حزب البعث السابقين، والميزانية الوطنية، وتشريعات تمهد الطريق لانتخابات مجالس المحافظات. في حين لا يزال أمام الحكومة كثير من العمل على بعض التدابير الرئيسية، بما في ذلك قانون اقتسام عائدات النفط، كان أداء العراقيين السياسي إنجازاً رائعاً في ضوء ما تعرّضوا له.

كان أكثر ما يثير القلق في ربيع عام ٢٠٠٨ وجود الشيعة المتطرفين. بينما تحسّن الأمن في معظم أنحاء العراق خلال التصعيد، كان المتطرّفون الشيعة، وكثيرون منهم على علاقةٍ وثيقةٍ مع إيران، استولوا على أجزاءٍ واسعةٍ من البصرة، ثاني أكبر مدن العراق.

يوم ٢٥ آذار/مارس، ٢٠٠٨، هاجمت القوات العراقية في البصرة المتطرفين، وسافر رئيس الوزراء المالكي إلى الجنوب للإشراف على العملية. كان معظم فريق الأمن القومي في مكانٍ ما بين القلق والهلع. شعر الجيش بالقلق من أن المالكي لم يكن لديه خطة واضحة المعالم. وتساءل بعض من في السفارة ما إذا كان للمالكي ما يكفي من الدعم داخل الحكومة العراقية. أعطت وكالة المخابرات المركزية هجوم المالكي تشخيصاً باهتاً.

كان شعوري مختلفاً، وكان المالكي في موقع القيادة. لمدة سنتين تقريباً، حثثته على إظهار الحياد. قلت له مرات عديدة: القاتل الشيعي مذنب مثل القاتل السنّي. والآن مضى قُدُماً بشكلٍ علني للغاية. عندما جاء ستيف هادلي وبريت ماكغورك إلى المكتب البيضاوي في الصباح وبعد الهجوم الذي شنه المالكي، قلت: «لا يقل لي

أحد إن هذا أمر سيئ. المالكي قال إنه سيفعل ذلك وها هو الآن يفعله. هذه لحظة حاسمة، ونحن بحاجةٍ لمساعدته على النجاح فحسب.

كان الهجوم بعيداً عن كتب القتال، لكنه فاعل. القوات العراقية جلبت الأمن إلى البصرة. فاجأ نجاحهم المتطرفين الشيعة مثل مقتدى الصدر وأنصاره في إيران. وقبل كل شيء، كرست عملية البصرة المالكي زعيماً قوياً. وكان رئيس الوزراء وصل إلى نقطةٍ رئيسيةٍ لاتخاذ القرار بنفسه، وقد اتخذ القرار الصواب.

بعد أسابيع قليلةٍ من الهجوم الذي شنته الحكومة العراقية في البصرة، عاد بترايوس وكروكر إلى واشنطن للإدلاء بشهادتيهما في نيسان/أبريل. هذه المرة، لم تكن هناك إعلانات ضد الحرب في الصحف ولا معارك طويلة للحصول على التمويل. توقّفت أن بي سي نيوز، التي أعلنت رسمياً في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦ أن العراق في حالة من الحرب الأهلية، عن استخدام هذا المصطلح. لم يكن هناك إعلان كبير عن الانسحاب.

واصفاً مكاسبنا في العراق بأنها هشّة وقابلة للانحسار، أوصى الجنرال بترايوس بأن نواصل سحب القوات حتى نصل إلى مستويات ما قبل التصعيد، ومن ثم نتوقّف للمزيد من التقويم. شرح رايان كروكر الأمر: «وفي النهاية، كيف نترك العراق؟ وما نتركه وراءنا سيكون أكثر أهمية من كيفية وصولنا. إن مسارنا الحالي صعب، ولكن الأمور تسير بشكلٍ جيد.... نحن بحاجة إلى الالتزام بالخطة». وأنا أتفق معه.

* * *

كان مقياس نجاح الخطة أن واحدةً من أكبر العمليات العسكرية المثيرة للجدل من أوائل عام ٢٠٠٨ كانت بمعزل عن العراق. في آذار/مارس، أجرى الأميرال فوكس فالون، الذي خلف جون أبي زيد في القيادة المركزية الأميركية، مقابلةً مع مجلةٍ، مشيراً إلى أنه كان الشخص الوحيد الذي يقف بيني وبين الحرب مع إيران. كان ذلك سخيفاً. سألت رئيس هيئة الأركان المشتركة مايك مولن ونائب الرئيس هوس

ما كارترايت ماذا كانا سيفعلان لو كانا مكان فالون. فقالا إنهما كانا سيستقيلان. بعد ذلك بقليل، قدّم فوكس استقالته. ويُحسب له أنه لم يثر المسألة مرةً أخرى. في اجتماعنا الأخير، شكرته على خدمته وقلت له أنني فخور بسيرته الجيدة.

كان عليّ ايجاد قائد جديد للقيادة المركزية الأميركية. لم يكن هناك سوى شخص واحد أريده: دايفيد بترايوس. أمضى بترايوس ثلاثاً من السنوات الأربع الماضية في العراق، وكنت أعرف أنه كان يأمل تولي قيادة حلف شمال الاطلسي في أوروبا. ولكننا بحاجة إليه في قيادة المنطقة الوسطى. قال: إذا كان يمكن للأطفال البالغين ٢٢ عاماً البقاء في المعركة، فأنا أيضاً يمكنني ذلك.

سألتُ الجنرال بترايوس من الذي ينبغي أن يحل محله في العراق. بدون تردّد سمَى نائبه السابق الجنرال راي أوديرنو. التقيت راي للمرة الأولى قبل سنوات عندما قمت بجولةٍ في فورت هود كحاكمٍ لولاية تكساس. إنه رجل طويل القامة مع رأس حليق، الجنرال رجل يفرض نفسه. كان من المؤيدين الأوائل لزيادة عدد القوات، ويُقال إنه ساعد على إنجاح الاستراتيجية عن طريق نشر قواتٍ إضافيةٍ بحكمةٍ في جميع أنحاء بغداد.

كان الفوز في العراق بالنسبة للجنرال أوديرنو، أكثر من واجبٍ كجندي. كان مسألةً شخصية. عندما كان راي في الوطن في إجازة في شهر كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٤، استقبلته مع عائلته في المكتب البيضاوي، برفقة ابنه الملازم أنتوني أوديرنو، وهو خريج كلية وست بوينت، وكان قد فقد ذراعه اليسرى في العراق. وقف والده بصمت، مبتهجاً بكل فخر، فيما رفع ابنه الذراع اليمنى لتحيتي. مع أن راي غادر ليتولى منصباً عالياً في البنتاغون، إلا أنه قبل الدعوة للعودة قائداً في بغداد.

شعرتُ بالعزاء لعلمي أن القائد القادم سيكون قادراً على الاعتماد على المشورة الحكيمة من هذين الجنرالين المحنّكين ميدانياً. بطريقتنا، كنا ملتزمين بأحد التقاليد

العظيمة في التاريخ الأميركي. فقد اكتشف لينكولن الجنرال غرانت والجنرال شيرمان. واكتشف روزفلت أيزنهاور و برادلي. وأنا بدوري، اكتشفت دايفيد بترايوس و راي أوديرنو.

* * *

في الوقت الذي انتهى فيه التصعيد في صيف عام ٢٠٠٨، كان العنف في العراق قد انخفض إلى أدنى مستوى له منذ السنة الأولى من الحرب. انخفض القتل الطائفي الذي مزّق البلاد تقريباً في عام ٢٠٠٦ إلى أكثر من ٩٥ في المئة. وبرز رئيس الوزراء المالكي، الذي كان هدفاً شبه عالمي للوم والازدراء، كزعيم واثق. وضعف تنظيم القاعدة في العراق بشدة وأصبح هامشياً. وانخفض النفوذ الإيراني الخبيث. كانت القوات العراقية تستعد لتحمل المسؤولية الأمنية في غالبية المحافظات. الخسائر الأميركية التي تجاوزت بشكل روتيني ١٠٠ قتيل في الشهر في أسوأ امتداد للحرب، لم تتجاوز مرة أخرى ٢٥ قتيلاً، وانخفضت إلى أقل من عشرة بحلول نهاية رئاستي. ومع ذلك، كانت كل وفاة تذكيراً مؤلماً بتكاليف الحرب.

كان هدفي الرئيسي الأخير وضع سياسة مستقرة في العراق لمن سيخلفني. في أواخر عام ٢٠٠٧، بدأنا العمل على اتفاقيتين. واحدة، اسمها اتفاقية وضع القوات SOFA، وهي ستضع السند القانوني لبقاء القوات الأميركية في العراق بعد انتهاء تفويض الأمم المتحدة في نهاية عام ٢٠٠٨. والأخرى هي اتفاقية الإطار الاستراتيجي SFA، وهي تعهّد طويل الأجل للتعاون الدبلوماسي والاقتصادي والأمني بين بلدينا.

استغرق عقد الاتفاقيتين شهوراً. وكان على المالكي التعامل مع فصائل معارضةٍ داخل حكومته، وبخاصة تلك التي لديها علاقات مشبوهة مع إيران. في خضم الحملة الانتخابية الرئاسية، ندّد المرشحون الديمقراطيون باتفاقية SOFA على أنها مخطط لإبقاء قواتنا في العراق إلى الأبد. شكّكت وكالة الاستخبارات المركزية بأن المالكي

سيوقع على الاتفاق، وطلبتُ من رئيس الوزراء رأيه في هذا الموضوع بصراحة، فأكد لي أنه يريد الاتفاقية. لقد وفى بوعده في الماضي، وأعتقد أنه سوف يلتزم مرة أخرى.

أثبت المالكي أنه مفاوض صعب. سيحاول الحصول على امتياز من جانبنا[1]، ثم يعود ليطلب المزيد. من جهةٍ، كان التداول محبطاً. ولكن على مستوى آخر، كان مصدر إلهام لي رؤية العراقيين أنفسهم يتصرفون مثل ممثلي ديمقراطية سيادية.

مع مرور الوقت من دون اتفاق، بدأتُ أشعر بالقلق. في أحد المؤتمرات الأسبوعية عبر الفيديو، قلت: «سيدي رئيس الوزراء، لم يبقَ من ولايتي سوى بضعة أشهر. أريد أن أعرف إذا كنتَ تريد هذه الاتفاقيات. إذا لم يكن كذلك، لدي أشياء أكثر أهمية للقيام بها». يمكنني القول أنه اندهش قليلاً. كانت هذه إشارة مني بأن الوقت قد حان للتوقف عن طلب المزيد. قال: سوف نتمّم هذه الاتفاقيات، وأنا أعطيك كلمتي.

بحلول تشرين الثاني/نوفمبر، كنا على وشك الانتهاء من الاتفاقيات. الموضوع الشائك الأخير كان: ماذا ستنص اتفاقية SOFA عن انسحاب أميركا من العراق. وقال المالكي إن الاتفاق سيساعده إذا تضمّن وعداً بسحب قواتنا بحلول تاريخ معيّن. استقر مفاوضونا على الالتزام بسحب قواتنا بحلول نهاية ٢٠١١.

كنت قد رفضت منذ سنوات تحديد جدول زمني اعتباطي لترك العراق. وكنت لا أزال متردداً حول الالتزام بتاريخ، ولكن هذا لم يكن اعتباطياً. فقد تم نقاش الاتفاق بين حكومتين ذواتي سيادة، وذلك بمباركة من الجنرالين بترايوس وأوديرنو، اللذين أشرفا على تنفيذه. إذا تغيرت الظروف، وطلب العراقيون استمرار الوجود الأميركي، يمكننا تعديل اتفاقية وضع القوات والاحتفاظ بالجنود في البلاد.

أثبتت حاسة المالكي السياسية حكمتها. فاتفاقية وضع القوات واتفاقية الإطار

(١) كان الجانب الأميركي بقيادة كوندي، ريان كروكر، بريت ماكغورك، ومستشار وزارة الخارجية دايفيد ساترفيلد.

الاستراتيجي، نُظر إليهما في البداية على أنهما وثيقتان تركزان على البقاء في العراق، وانتهى بهما المطاف إلى أنهما اتفاقيتان تمهدان الطريق لرحيلنا. وردة الفعل السلبية التي خشينا حدوثها في البداية من كابيتول هيل والبرلمان العراقي لم تحدث أبداً. كما كتبت في عام ٢٠١٠، لا تزال توجّه اتفاقية وضع القوات وجودنا في العراق.

* * *

في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨، استقلّيت الطائرة الرئاسية في رحلتي الرابعة إلى العراق، حيث كنت سأوقع على اتفاقية وضع القوات واتفاقية الإطار الاستراتيجي مع رئيس الوزراء المالكي. خلال الرحلة، فكرت في رحلاتي السابقة إلى البلاد، وتتبعت مسار الحرب. كان هناك فرح في أول زيارة يوم عيد الشكر عام ٢٠٠٣، التي جاءت بعد أشهرٍ قليلة من التحرير، وقبل أسابيع من إلقاء القبض على صدّام حسين. كان هناك عدم التيقن من رحلة الاجتماع مع المالكي في حزيران/يونيو ٢٠٠٦، مع ارتفاع العنف الطائفي وفشل استراتيجيتنا. وكان هناك تفاؤل حذر في الأنبار في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، عندما بدا التصعيد فاعلاً ولكنه واجه معارضةً جدية. والآن هذه هي الرحلة النهائية. على الرغم من أن الكثير من الأميركيين على ما يبدو ضبطوا إيقاع الحرب، إلا أن قواتنا والقوات العراقية حققت فرص النجاح الدائم.

هبطنا في بغداد، واستقلينا مروحيةً إلى قصر السلام، الذي كان ملكاً لصدّام ونظامه الوحشي قبل ست سنوات. كرئيس، كنت قد حضرت مراسم استقبال كثيرة. لا شيء مؤثر أكثر من الوقوف في باحة القصر المحرّر، إلى جانب الرئيس جلال طالباني ، ومشاهدة أعلام الولايات المتحدة والعراق الحر ترفرف جنباً إلى جنب، فيما تعزف الفرقة الموسيقية العسكرية النشيدين الوطنيين.

من هناك، ذهبنا إلى مجمع رئيس الوزراء، حيث وقّعت مع المالكي اتفاقية وضع القوات، وعقدنا المؤتمر الصحافي الختامي. كانت الغرفة مكتظّة، وكان الحضور كثيفاً أكثر من الحضور في أي حدثٍ عادي. جلست مجموعة من الصحفيين العراقيين

أمامي على اليسار، وعلى يميني تجمّع أهل الصحافة العالمية والصحفيون القليلون المقيمون في العراق. وعندما طلب المالكي السؤال الأول، وقف رجل من الصحافة العراقية فجأةً. أطلق صيحة بدت كالنباح بصوتٍ عالٍ، قال شيئاً باللغة العربية لكنه لم يكن سؤالاً. ثم استدار ورمى شيئاً في اتجاهي. ماذا كان ذلك؟ حذاء!..

شعرت بالمشهد كأنه عرض بطيء. شعرت وكأني تيد ويليامز، الذي قال إنه يستطيع رؤية الخياطة على طابة البيسبول على أرض الملعب وهي مندفعة. هذا الشيء الذي يشبه طرف الجناح كان يطير نحوي مثل المروحيّة، فأخفضت رأسي. كانت ذراع الرجل قويةً وسريعة. وفي جزءٍ من الثانية، رمى واحداً آخر، وكان أبطأ من الأول. أزحت رأسي قليلاً، فمرّ من فوقي. تمنّيت لو أمسكت بذلك الشيء اللعين.

اندلعت الفوضى، وصرخ الناس، وسارعت عناصر الأمن. راودني الشعور نفسه الذي شعرت به عندما كنت في الصف في فلوريدا يوم ٩/١١. كنت أعرف أن رد فعلي سيُبث في جميع أنحاء العالم. كلما كبر رد الفعل، كان ذلك أفضل للمهاجمين.

لوّحت لدون وايت، عميل الخدمة السرية. لم أكن أرغب أن يجري تصويري وأنا أُدفع للخروج من الغرفة. ألقيت نظرةً على المالكي الذي بدا منكوباً، وشعر الصحفيون العراقيون بالمهانة والغضب. كان أحد الرجال يهز رأسه بحزن، ويردّد الاعتذارات. رفعتُ يدي وحثثتُ الجميع على التزام الهدوء.

كان رد فعلي أن قلت: «إذا أردتم الحقيقة، إنه حذاء ضخم». كنت آمل أنه من خلال سخريتي من الحادث، يمكنني أن أمنع قاذف الحذاء من إنجاز هدفه، وهو تخريب هذا الحدث.

بعد المؤتمر الصحافي، توجّهت مع المالكي إلى العشاء في الطابق العلوي مع وفودنا. كان لا يزال مضطرباً واعتذر بشدّة. أخذته جانباً مع جمال هلال، مترجم اللغة العربية لدينا، وطلبت منه ألاّ يقلق. لمَلم رئيس الوزراء شتاته، وطلب أن يتحدث قبل العشاء. ألقى كلمةً عاطفيةً قال فيها إن قاذف الحذاء لا يمثل شعبه، وإن أمته

ممتنة لأمريكا. وذكر كيف منحناهم فرصتين ليكونوا أحراراً، مرةً عن طريق تحريرهم من صدّام حسين، ومرةً أخرى من خلال مساعدتهم على تحرير أنفسهم من العنف الطائفي والإرهابيين.

أن يلقي صحفي حذاءً عليّ، حدث يأتي في المرتبة الأولى باعتباره واحداً من أكثر التجارب غرابةً. ولكن ماذا لو قال شخص ما قبل ثماني سنوات، إن رئيس الولايات المتحدة سيتناول الطعام في بغداد مع رئيس وزراء العراق الحر؟ لا شيء. ولا حتى الأحذية الطائرة في مؤتمرٍ صحفي ستكون أغرب من ذلك.

* * *

بعد سنوات من الآن، قد ينظر المؤرخون إلى الوراء ليروا التصعيد باعتباره خاتمة منسيةً، وجسراً لا مفر منه بين سنوات من العنف الذي أعقب التحرير، والديمقراطية التي وُلدت منه. لم يكن أي شيء مؤكداً في ذلك الوقت. وقف الرأي العام ضده، وحاول الكونغرس تعطيله. قاتَلَنا العدوُّ بلا هوادةٍ لكسر إرادتنا.

حتى الآن، وبفضل مهارة قواتنا وشجاعتها، واستراتيجيتنا الجديدة التي اعتمدناها لمواجهة التمرّد، والتنسيق الرائع بين جهودنا المدنية والعسكرية، والدعم القوي الذي قدّمناه للقادة السياسيين العراقيين، أمام هذه الحرب المحكوم عليها بالفشل على نطاقٍ واسع، فرصة لتنتهي بنجاح. بحلول نهاية ولايتي، كان العنف قد تراجع بشكلٍ كبير. وكان النشاط الاقتصادي والسياسي قد استعاد عافيته. وكان تنظيم القاعدة يعاني هزيمةً كبيرةً عسكريةً وإيديولوجية. في آذار/مارس ٢٠١٠، توجّه العراقيون إلى صناديق الاقتراع مرةً أخرى. وفي عنوانٍ رئيسي لم يكن ممكناً تصوره قبل ثلاث سنوات، أصدرت مجلة نيوزويك قصة غلاف بعنوان «النصر أخيراً: ظهور عراقٍ ديمقراطي».

لا يزال العراق يواجه التحديات، ولا يمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين ما سيكون مصير البلاد. ولكننا نعرف الآتي: لأن الولايات المتحدة حرّرت العراق ثم

رفضت التخلي عنه، أصبح أمام الناس في هذا البلد فرصة أن يصبحوا أحراراً. بعد أن قطعنا هذا الشوط، آمل أن تستمر أميركا في دعم الديمقراطية الفتيّة في العراق. إذا طلب العراقيون استمرار الوجود العسكري، يجب علينا تقديمه. إن وجود عراقٍ حر وسلمي هو في مصلحتنا الاستراتيجية الحيوية، ويمكنه أن يكون حليفاً مهماً في قلب الشرق الأوسط، ومصدراً للاستقرار في المنطقة، ومنارة أملٍ للسياسيين الإصلاحيين في دول الجوار وحول العالم. ومثل الديمقراطيات التي ساعدنا في بنائها في ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية، سوف يجعلنا عراقٌ حرّ أكثر أمناً للأجيال القادمة.

فكّرت كثيراً إذا ما كان علي أن آمر بالتصعيد في وقتٍ سابق. لمدة ثلاث سنوات، كنّا نفترض أن التقدم السياسي في العراق كان مقياساً للنجاح. قطع العراقيون مراحلهم المفصلية في الوقت المحدد. وبدا الأمر وكأنه كان لدينا استراتيجية ناجحة. أدركنا بعد اندلاع العنف الطائفي في عام ٢٠٠٦، أن هناك حاجةً إلى مزيدٍ من الأمن قبل مواصلة التقدم السياسي. وبعد ذلك، تعاملتُ مع التصعيد بطريقةٍ وحّدت حكومتنا. لو أنني أمرتُ بالتصعيد قبل الآن، لكنتُ أحدثت شرخاً سيستغله منتقدو الحرب في الكونغرس لقطع التمويل ومنع الخطة من النجاح.

منذ بداية الحرب في العراق، كان اقتناعي أن الحرية كونية، وأن الديمقراطية في الشرق الأوسط ستجعل المنطقة أكثر سلماً. كانت هناك أوقات بدا فيها الأمر غير مرجّح الحدوث، إلا أنني لم أفقد الإيمان بأن القرار كان صحيحاً.

لم افقد ثقتي قط في قواتنا، واستغربت باستمرار استعدادهم للتطوّع في مواجهة الخطر. في آب/أغسطس ٢٠٠٧، سافرتُ إلى مدينة رينو بولاية نيفادا، لأتحدث إلى الفيلق الأميركي. بعد ذلك، قابلتُ بيل وكريستين كريسوف من تروكي، في كاليفورنيا. كان ابنهما ناثان كريسوف البالغ ٢٥ عاماً، من مشاة البحرية، قد قُتِل في العراق. وكان شقيقه أوستن وهو أيضاً من مشاة البحرية، في الاجتماع. أخبرني كل من أوستن و كريستين كم أحبّ ناثان وظيفته. ثم تحدث بيل فقال: سيدي الرئيس،

أنا جرّاح عظام. أريد أن أشارك في الفيلق الطبي للبحرية تكريماً لناثان. سألته وكلّي دهشة: «كم عمرك؟». أجاب: ستون عاماً، سيدي الرئيس. كنت في الواحد والستين، ولذا لم يبدُ لي رجل في الستين كبيراً. نظرت إلى زوجته، فأومأت برأسها. أوضح بيل أنه مستعد لاعتزال ممارسة تقويم العظام في ولاية كاليفورنيا، لكنه بحاجة إلى إعفاء خاص لسن التأهل لسلاح البحرية. قلت: «سوف نرى ما يمكنني القيام به».

عندما عدت إلى واشنطن، رويت لبيت بيس القصة بعد التقرير الصباحي المقتضب. قبل مرور فترة طويلة، جاء إعفاء الدكتور كريسوف. لقد خضع لتدريبٍ مكثفٍ في مجال الطب في ساحة المعركة. وبعد فترةٍ وجيزةٍ من انتهاء ولايتي، تشكّل إلى العراق، حيث عمل جنباً إلى جنب مع أوستن وعالج مشاة البحرية المصابين.

كتب بيل: أود أن أعتقد أننا، أوستن وأنا، نكمل مهمة ناثان هنا في العراق. نحن نكرم ذكراه من خلال عملنا هنا. في عام ٢٠١٠، علمت أن الدكتور كريسوف عاد من العراق ثم انتقل إلى أفغانستان.

ناثان كريسوف هو واحد من أعضاء الخدمة الأميركية الـ٤٢٢٩ الذين ضحوا بحياتهم في العراق خلال فترة رئاستي. عانى أكثر من ٣٠ ألفاً من جراح الحرب، وسوف أحمل معي دائماً الحزن الذي شعرت به عائلاتهم. لن أنسى أبداً فخرهم في عملهم، والإلهام الذي قدموه إلى الآخرين، والفرق الذي أحدثوه في العالم. كل أميركي خدم في العراق ساهم في جعل أمتنا أكثر أمناً، وأعطى ٢٥ مليون شخص فرصةً العيش في حرية، وغيّر اتجاه منطقة الشرق الأوسط لأجيالٍ قادمة. هناك أشياء أخطأنا فيها في العراق، لكن قضيتنا محقّة إلى الأبد.

١٣

أجندة الحرية

قبل ظهر يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ صعدت إلى منصة خطاب التنصيب. ونظرت من المقدمة الغربية لمبنى البرلمان الأميركي (الكابيتول) إلى الحشد المكوّن من أربعمئة ألف امتدوا عبر ساحة ناشيونال مول National Mall. ومن خلفهم على الضفة الأخرى لنهر بوتوماك Potomac أمكنني رؤية نصب واشنطن التذكاري Washington Monument، ونصب لنكولن التذكاري Lincoln Memorial ومقبرة أرلينجتون الوطنية Arlington National Cemetery.

أرّخ هذا التنصيب في عام ٢٠٠٥ المرة الثالثة التي أقف فيها هذا الموقف لأستمتع بهذا المنظر. ففي عام ١٩٨٩، أحسست بالفخر وأنا أرى أبي يُنصّب ويؤدي اليمين الدستورية. وفي عام ٢٠٠١، أديت اليمين الدستورية تحت الأمطار الباردة، وغيوم الانتخابات المُتنازَع عليها. وكان عليّ التركيز في كل خطوةٍ أخطوها نزولاً على سلم الكابيتول، والتي كانت أضيق بكثيرٍ مما أتخيّل. ولقد استغرق الأمر مني بعض الوقت حتى تستوعب حواسي هذا الكم من الأصوات والمشاهد. ووقفت أحدق إلى هذا العدد الهائل من المعاطف السوداء والرمادية. وجال في خاطري ما إذا كانت زخّات المطر ستجعل الأمر صعباً في أن أرى شاشة القراءة وأنا ألقي الخطاب.

وبعد أربعة أعوام، وقفت الموقف ذاته ولكن مع سماءٍ مشمسة وصافية. وبدا لي أن الألوان أكثر حيوية. وكانت نتائج الانتخابات حاسمة. وبينما كنت أسير على السجادة الزرقاء متوجّهاً ناحية المنصة، لم تتعرّف عيناي إلا على وجوه أشخاصٍ معينين بين الجماهير. فوقعت عيناي على جو أونيل وجان أونيل مع وفدٍ كبيرٍ يمثل ميدلاند. وابتسمت لأصدقائي المقربين، ممن قاموا بتقديمي إلى السيدة الرائعة إلى جواري. كان شيء واحد مؤكداً، وهو أننا عندما كنا نستمتع بتناول الهامبورجر في إحدى ليالي ١٩٧٧ لم يكن أحدنا يتخيل أن شيئاً من هذا سيحدث.

اتّخذت مقعدي إلى جوار لورا ،وباربرا ،وجينا. وعلى مقربة منا جلست أمي، وأبي، وأم لورا، وإخوتي، وأختي. ثم قام السيناتور ترينت لوت، رئيس اللجنة المنظمة للاحتفال، بدعوة رئيس المحكمة العليا ويليام رينكويست إلى المنصة. ثم اقتربت من المنصة أنا، ولورا، وباربرا، وجينا. أمسكت باربرا بالكتاب المقدس، الذي اعتدنا أنا وأبي حلف اليمين عليه؛ كان مفتوحاً على سفر إشعياء الإصحاح ٤٠-٣١ «وأما منتظرو الرب فيجدّدون قوة. يرفعون أجنحةً كالنسور؛ يركضون ولا يتعبون؛ يمشون ولا يعيون».

ثم وضعت يدي اليسرى فوق الكتاب المقدس ورفعت يدي اليمنى إلى أعلى، حيث قام رئيس المحكمة العليا، معتل الصحة، بتنفيذ مراسم حلف اليمين الدستورية الخامسة والثلاثين. وحالما انتهيت بقول: فليساعدني الرب، تم إطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية لمراسم التنصيب. احتضنت لورا والبنات، ثم أخذت خطوة للخلف لأعيش تلك اللحظة. ثم جاء وقت الخطاب:

في اجتماعنا الثاني هذا، نحن على علمٍ بما تعنيه واجباتنا، وأنها ليست بالكلمات ،ولكن بالتاريخ الذي عاصرناه سويّة. فلمدة نصف قرن، والولايات المتحدة تدافع عن حريتها بدورها كمراقبٍ للحدود الدولية. فبعد انهيار الشيوعية عشنا سنواتٍ من الهدوء النسبي، سنواتٍ من الطمأنينة، سنواتٍ من الراحة. وفجأة اشتعلت الأحداث.

لقد رأينا أكبر نقاط ضعفنا، كما رأينا أيضاً أكبر مصادرها. وما دامت كل مناطق العالم تغرق في الغضب والحكم الاستبدادي ـ مع الميل للمذاهب التي تساعد على زيادة الكراهية والقتل المبرر ـ فاعلموا أن قوى العنف ستجتمع، ثم ستتضاعف إلى قوى مدمرةٍ تتخطى كل الحدود الدفاعية وتزيد من التهديدات الدامية. وكما نعلم فهناك قوة واحدة معروفة في التاريخ يمكنها كسر سيادة الكره والغضب، وفضح ادعاءات الطغاة ،ومكافأة مساعي الاعتدال والتسامح؛ وتلك القوة هي قوة الحرية الإنسانية.

ولقد قادتنا الأحداث والفطرة السليمة نحو استنتاجٍ واحد: أن نجاة الحرية في بلدنا تعتمد بشكلٍ متزايدٍ على نجاح الحرية في البلاد الأخرى. فأكبر أملٍ للسلام في العالم هو انتشار الحرية إلى جميع أنحاء العالم... ولذا كانت سياسة الولايات المتحدة دائماً هي السعي ودعم نمو الحركات والمؤسسات الديمقراطية في كل دولة وداخل كل ثقافة ،مع هدف أسمى هو إنهاء الظلم في عالمنا.

* * *

قمت بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر بتطوير استراتيجيةٍ لحماية الدولة، وهي ما يُعرف باسم «عقيدة بوش»: أولاً ليس هناك فرق بين الإرهابيين والدول التي تدعمهم، ويجب أخذ الاثنين في الاعتبار. ثانياً فلنهاجم أعداءنا خارج البلاد قبل أن يهاجموننا هم مرةً ثانية في بلادنا. ثالثاً، مواجهة التهديد قبل أن يصبح حقيقةً واقعة. ورابعاً، تطوير الحرية مع رجاء أن تكون بديلاً لمذهب العدو من الكبت والخوف.

كان برنامج الحرية، وهو ما أسميه العمود الرابع، مثالياً وواقعياً. كان مثالياً لأن الحرية هدية للعالم من الرب القدير. وكان واقعياً لأن الحرية هي أفضل الحلول العملية لحماية بلادنا على المدى البعيد. وكما قلت في خطاب مراسم تنصيبي للمرة الثانية: لقد التقت الاهتمامات الأساسية للولايات المتحدة مع إيماننا العميق ليصيرا شيئاً واحداً.

تم إثبات مدى كفاءة القدرة التغييرية للحرية في كثيرٍ من مناطق العالم مثل كوريا الجنوبية، وألمانيا، ودول أوروبا الشرقية. وبالنسبة لي، كان أفضل مثالٍ لقوة الحرية هو علاقتي الوثيقة مع رئيس الوزراء الياباني جونبتشيرو كويزومي. فلقد كان كويزومي من أوائل قادة العالم في تقديم الدعم بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. ومما يدعو للسخرية، أنه قبل ستين سنة، قاتل أبي اليابانيين كطيارٍ حربي. حينما كان والد كويزومي يعمل في حكومة إمبراطورية اليابان. والآن يعمل أبناؤهما معاً للحفاظ على السلام. فما هو مؤكد، أن تغييراً كبيراً حدث منذ الحرب العالمية الثانية: مع إقرار نظام الديمقراطية الياباني، أصبح العدو حليفاً.

* * *

كان إعلان برنامج الحرية خطوةً أولى؛ وكان تنفيذه خطوةً أخرى. ففي بعض المناطق مثل أفغانستان والعراق، تحمّلنا مسؤوليةً فريدةً من نوعها في إعطاء الذين حرّرناهم الفرصة لبناء مجتمعات حرة. إلا أن هذه الأمثلة تعتبر الاستثناء وليس القاعدة. فلقد أوضحت أن برنامج الحرية ليس في الأصل مهمة عسكرية. فسبيلنا لتطوير الحرية هو دعم الحكومات الديمقراطية الجديدة في كثيرٍ من المناطق مثل المقاطعات الباكستانية، ولبنان، وجورجيا، وأوكرانيا. ونحن نعمل على تشجيع المعارضين والمصلحين الديمقراطيين، الذين يعانون من قمع الأنظمة الحكومية في إيران، وسورية، وكوريا الشمالية، وفنزويلا. كما نعمل على الدفاع عن الحريات مع الحفاظ على العلاقات الاستراتيجية مع دولٍ كثيرةٍ مثل المملكة العربية السعودية، ومصر، وروسيا، والصين.

وكانت الانتقادات التي واجهت برنامج الحرية ،هو أنه يخدم الولايات المتحدة لفرض قيمها على الآخرين؛ إلا أن الحرية ليست قيمة أميركية، بل قيمة عالمية؛ فلا يتم فرض الحرية؛ بل يتم اختيارها. وحين تعطي الناس حق الاختيار، فإنهم يختارون الحرية. مع نهاية الحرب العالمية الثانية كان في العالم حوالي عشرين نظاماً

ديمقراطياً. وحينما توليتُ الرئاسة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ كان في العالم١٢٠ نظاماً ديمقراطياً.

وبعد فترة قصيرة من الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٤، قرأت كتاب «قضية الديمقراطية» للكاتب ناتان شارانسكي، وهو معارض قضى تسع سنوات في المعتقل السوفييتي. يصف شارانسكي في كتابه مدى إلهامه هو ورفقاء المعتقل عند سماع القادة الكبار مثل رونالد ريجان يتحدّثون بوضوح أخلاقي ويدعون إلى الحرية.

وفي إحدى فقرات الكتاب الجديرة بالذكر، يصف شارانسكي رفيقاً له من المعارضين للنظام السوفييتي؛ كان يشبّه الحكومة الظالمة بالجندي الذي دائماً ما يشير بسلاحه نحو السجين. إلا أنه في آخر الأمر ستكلّ ذراعاه وسيهرب السجين. ولهذا اعتبرت مسؤولية الولايات المتحدة هي الضغط على أيدي طغاة العالم حتى تكلّ. ومن أهم القرارات الرئاسية التي حرصتُ على اتّخاذها كان تحويل هذا الهدف إلى جزء لا يتجزأ من سياستنا الخارجية.

* * *

كان ملاحَظاً أن هذا التيار العالي من الحرية التي غمرت مناطق كثيرة من العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، على الأغلب قد تجنّب منطقةً واحدةً هي: الشرق الأوسط.

ويكشف لنا تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية العربية، الصادر عام ٢٠٠٢، الحالة البائسة للمنطقة: حيث أن معدلات الأمية تصل إلى الثلث، ونسبة البطالة تصل إلى ١٥ في المئة، ونسبة مستخدمي الإنترنت لا تتعدّى ١ في المئة. كما تخطّت معدلات وفيات الأمهات المعدل الموجود في البلدان الأقل نموّاً. والناتج الاقتصادي لكل فردٍ كان صغيراً جداً.

عزا واضعو تقرير الأمم المتحدة، وهم مجموعة من علماء العرب الموقّرين،

النتائج المحزنة بالتقرير إلى ثلاث نقاط نقصٍ وهي: نقص في المعرفة، ونقص في دعم المرأة، والأهم نقص في الحرية.

وخلال الحرب الباردة كانت الأولوية الأميركية هي تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط. فلقد كان توجّه حلفائنا هو مقاومة الشيوعية، وتلك كانت الاستراتيجية الفاعلة آنذاك. ولكن ما لم يظهر للعلن هو ارتفاع حالة الاستياء والغضب. ولذا توجّه كثير من الأشخاص إلى أهل الدين المتطرّفين بحثاً عن الراحة. ووسط كل هذه الظروف وجد الإرهابيون بيئةً خصبةً لتجنيد الأفراد، وهو ما كانت نتيجته أن استقل تسعة عشر إرهابياً من الشرق الأوسط الطائرات ونفذوا مهمتهم في الولايات المتحدة الأميركية. فلقد تأكد لي بعد أحداث١١ / ٩ أن الاستقرار الذي كنا ندعمه لم يكن سوى أوهامٍ محضة. سينصب اهتمام برنامج الحرية على منطقة الشرق الأوسط.

* * *

قبل أن أتولّى الرئاسة بستة أشهر، فشلت محادثات السلام في كامب دايفيد بين الإسرائيليين والفلسطينيين. فلقد عمل الرئيس كلينتون بلا كللٍ من أجل تنظيم لقاء بين رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك ورئيس السلطة الوطنية الفلسطينية ياسر عرفات. وقدم باراك عرضاً سخياً يقضي بإعادة أغلب أراضي الضفة الغربية وغزة، وهما المنطقتان اللتان يقطنهما أغلبية السكان الفلسطينيين، واحتلتهما إسرائيل وأقامت المستوطنات فيهما. إلا أن عرفات رفض هذا العرض.

وبعد مرور شهرين، ومع القلق من فشل مساعي السلام في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، قام رئيس الوزراء الإسرائيلي ذائع الصيت آرييل شارون بزيارة استفزازية إلى جبل المعبد Mount Temple بالقدس، وهو ما أشعل فتيل الانتفاضة الثانية. شنّت بعض المجموعات الإرهابية الفلسطينية، الذين تدعم أغلبهم الجماعة الإرهابية حماس، موجة من الهجمات الإرهابية على المواطنين الأبرياء في إسرائيل.

ولم أَلُمْ الرئيس كلينتون على فشل محادثات كامب دايفيد، أو العنف الذي تلاها، بل لمت عرفات. فدائماً ما قدمت الولايات المتحدة وأوروبا والأمم المتحدة الدعم التنموي للمقاطعات الفلسطينية. ولكن جزءاً كبيراً من هذا الدعم كان يتوجّه مباشرة إلى الحساب المصرفي التابع لعرفات. وهو ما جعله يدخل في قائمة مجلة فوربس Forbes لأغنى الشخصيات العالمية من الملوك والملكات والطغاة. وترك خلفه شعبه محاصراً في الفقر واليأس والتطرّف إلى يومنا هذا. وبرغم تسلمه لجائزة نوبل للسلام، إلا أن من المؤكد أنه لم يكن يولي السلام الاهتمام اللازم.

وكان رد الشعب الإسرائيلي على هذا العنف الضاري بالطريقة التي يرغب فيها أي نظامٍ ديمقراطي: فلقد قاموا بانتخاب الرئيس الذي وعد بحمايتهم، وهو آرييل شارون. وكان أول لقاء لي مع شارون عام ١٩٩٨، عندما ذهبنا في رحلة أنا ولورا مع ثلاثة من زملائي المحافظين[1] إلى إسرائيل برعاية التحالف اليهودي الجمهوري Republican Jewish Coalition.

وكانت تلك أول زيارة لي إلى الأراضي المقدسة. وأهم ذكرى علقت في ذهني من الرحلة، عندما قدم لنا آرييل شارون، ثم أحد الوزراء في حكومة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو جولة بالهليكوبتر في البلاد. كان شارون رجلاً قوي العزيمة، في السبعين من عمره، وهو قائد ميداني سابق شارك في كل الحروب الإسرائيلية. وبعد قليل من انطلاق الهليكوبتر أشار إلى إحدى المناطق قائلاً بصوت أجش يعلوه الفخر: لقد حاربتُ هنا. وعندما اتجهت المروحية ناحية الضفة الغربية أشار إلى مجموعة معزولة من المنازل قائلاً: وأنا من بنى هذه المستوطنة.

ومضى شارون مع خطة تأسيس إسرائيل الكبرى، والتي تقتضي برفض رد

(١) المحافظ مايك ليفيت عن ولاية يوتاه، والذي أصبح مدير وكالة حماية البيئة (EPA) ووزير الصحة والخدمات البشرية الأميركية (Health and Human of Department .S.U). والمحافظ باول سيلّوكسي عن ولاية ماساتشوستس ،وقد عمل سفيراً في دولة كندا. والمحافظ مارك راسيكوت عن ولاية مونتانا ،وهو من قاد اللجنة الوطنية للجمهوريين (RNC) ما بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣.

المقاطعات المحتلة. كان يعرف كل شبر في الأراضي المحتلة، ولم يبدُ أنه ينوي رد أي منها.

ثم قال شارون عن نقطةٍ أخرى توضّح المسافة بين حدود عام ١٩٦٧ والبحر: هنا كان عرض بلادنا تسعة أميال فقط ،فرددت ُممازحاً: لدينا في تكساس طرق أطول منها. ولقد صُدِمت بضعف الإسرائيلون تجاه الهجمات المعادية من جيرانهم الفلسطينيين. ومذ أعلن الرئيس هاري ترومان عن طريق وزارة الخارجية عام ١٩٤٨ صداقته لإسرائيل، وأميركا تُعتَبر منذ ذلك الحين الصديق الأكبر للدولة اليهودية.

وبعد مرور عامين اتصلت بآرييل شارون من مكتب الرئاسة البيضاوي لأهنئه بفوزه في انتخابات رئاسة مجلس الوزراء. فقال لي: ربما بعد كثيرٍ من السنوات والحروب التي شاركت فيها ،سنصل إلى السلام في المنطقة.

وفي ١ حزيران/يونيو ٢٠٠١، قتل تفجير انتحاري واحداً وعشرين إسرائيلياً في النادي الليلي دولفيناريوم في تل أبيب. ثم وقعت هجمات أخرى استهدفت الحافلات، ومحطات القطار، والمراكز التجارية الإسرائيلية. ومن ثم قامت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي بشن هجماتٍ على معاقل جماعة حماس، إلا أن التوابع كانت مقتل الفلسطينيين الأبرياء، بمن فيهم خمسة أطفال كانوا في طريقهم إلى المدرسة قتلوا خلال الهجمات.

ولقد أفزعني هذا العنف وخسارة الأرواح عند كلا الطرفين. ولكنني رفضت قبول هذه المساواة الأخلاقية بين الهجمات الانتحارية الفلسطينية على المواطنين الأبرياء وبين الهجمات العسكرية الإسرائيلية التي تهدف إلى حماية الشعب الإسرائيلي. ثم تأكدت لي الرؤى بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر. فإذا كان للولايات المتحدة الحق في الدفاع عن نفسها ومنع الهجمات المستقبلية، فإن الأنظمة الديمقراطية الأخرى لها الحق نفسه أيضاً.

تحدّثتُ إلى ياسر عرفات ثلاث مرات خلال العام الأول لي في الرئاسة. كان

دمثاً وكنت أنا أيضاً لطيفاً معه. ولكني أوضحت له أننا نتوقع منه اتخاذ إجراءات صارمة ضد أعمال التطرّف. وقلت له في شباط/فبراير ٢٠٠١: أعلم أن هذه القضايا صعبة عليك وعلى شعبك، ولكنها أفضل طريقة لاستقرار الأمور والبدء في حل القضية، هو إيقاف العنف في المنطقة.

واعترضت قوات البحرية الإسرائيلية في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ سفينةً تُدعى (A Karine) في البحر الأحمر، وعلى متنها ترسانة من الأسلحة الفتّاكة. وتأكد الإسرائيليون أن هذه السفينة قادمة من إيران وفي اتجاهها إلى مدينة غزة الفلسطينية. ثم أرسل لي عرفات خطاباً يدّعي فيه البراءة. كتب في الخطاب: تتناقض عمليات تهريب الأسلحة بشكلٍ كاملٍ مع التزام السلطة الفلسطينية بعملية السلام. إلا أننا والإسرائيليين كان لدينا الدليل الداحض لادعاء الرئيس الفلسطيني. لقد كذب عليّ عرفات، وهو ما جعلني لا أصدقه مرة أخرى. في الحقيقة لم أتحدث إليه بعدها مرةً أخرى. وخلصت في ربيع عام ٢٠٠٢ إلى أن السلام لن يكون ممكناً وعرفات في السلطة.

* * *

سألني ولي العهد السعودي عبدالله: «متى سيترك هذا الخنزير رام الله؟». كان ذلك في ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وبدا واضحاً أن ملك السعودية غير راضٍ عن آرييل شارون.

ومنذ لقاء الرئيس فرانكلين روزفلت مع مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة الملك عبد العزيز على متن سفن البحرية الأميركية عام ١٩٤٥، والولايات المتحدة تعتبر علاقتها مع المملكة العربية السعودية من أكثر الأمور أهمية. فالمملكة العربية السُنيّة تمتلك خمس النفط العالمي، ولها تأثير كبير على المسلمين كونها الحارس الأمين على المساجد المقدسة في مكة والمدينة المنورة.

دعوت ولي العهد السعودي عبدالله[1] ـ أحد أبناء الملك عبد العزيز الستة وثلاثين ـ إلى المزرعة في كراوفورد بغرض دعم العلاقات الشخصية بيننا. وكما كان متوقعاً في اجتماع القمة العربية ببيروت في آذار/مارس ٢٠٠٢، فلقد أظهر ولي العهد دوراً قيادياً كبيراً بإعلانه خطة سلام جديدة. فوفقاً لرؤيته، سيعيد الإسرائيليون بعض المناطق إلى الفلسطينيين ليتمكّنوا من تأسيس دولتهم المستقلة التي لا تعترف بالإرهاب، مع الإقرار بدولة إسرائيل. كان هناك المزيد من التفاصيل التي سيتوجّب التفاوض عليها، ولكني كنت موافقاً على المبدأ في حد ذاته.

وفي عشية يوم اجتماع القمة العربية، قام انتحاري من جماعة حماس بتفجير نفسه في مطعم مكتظ بالأشخاص في أحد الفنادق، كانوا يحتفلون بعيد الفصح اليهودي في المدينة الإسرائيلية نتانيا. يقول أحد الحاضرين للحفل: فجأة تحوّل الأمر وكأننا في الجحيم؛ امتلأ فمي برائحة الدخان والغبار، مع طنين يملأ أذنيّ. واعتبرت تلك الهجمة من أخطر الهجمات الدموية للانتفاضة الثانية، حيث أن ضحايا التفجير كانوا ٣٠ قتيلاً و١٤٠ جريحاً.

ورداً على ذلك الهجوم، أمر رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون بهجوم إسرائيلي عنيف على الضفة الغربية. ألقت القوات الإسرائيلية القبض على المئات من المناضلين المُشتَبه فيهم، وحاصرت مقر ياسر عرفات في رام الله. ثم أعلن شارون أنه سيقوم ببناء جدارٍ أمني عازلٍ ليفصل المستوطنات الإسرائيلية عن الفلسطينيين المقيمين بالضفة الغربية. ولقد كان هناك تنديد بالجدار بشكلٍ كبير. وكان أملي في أن يوفر هذا الجدار الأمان اللازم للإسرائيليين من أجل اتخاذ قرارات السلام الصعبة.

كما ألححت على شارون بشكلٍ شخصي لإيقاف عمليات العنف، تلك العمليات التي عادت بنتائج سلبية. ثم أقام عرفات لقاءً تلفزيونياً على أضواء الشموع وظهر فيه بمظهر الشهيد. كل ذلك مع استمرار التحرك السريع لشارون. ومن ثم قمت

(١) حكم الملك عبدالله المملكة العربية السعودية كوصيّ على العرش منذ معاناة أخيه غير الشقيق الملك فهد من السكتة في عام ١٩٩٥.

بإلقاء خطاب عام في ساحة روز جاردن Rose Garden أدعوه فيها لبدء الانسحاب. فحينها قلت: كفىً!. لكن ذلك لم يزحزح شارون عن موقفه.

ولما وصل ولي العهد السعودي عبدالله إلى المزرعة كانت خطة السلام التي اقترحها قد أهملت. فلقد كان غاضباً من أعمال العنف ومستاء من شارون. وعلمت لاحقاً أن أمله بي قد خاب.

ولي العهد رجل معتدل، ومتواضع، وعلى ما أعتقد رجل حييّ. فهو يتكلم بهدوء، ولا يشرب الخمور، كما يصلي الصلوات الخمس يومياً. وعلى مدى ثماني سنوات لم أره إلا بعباءاته التقليدية.

وبعد نقاشٍ موجز، طلب مني عبدالله الانفراد بوزير خارجيته وسفيره لبعض الوقت. وبعد دقائق أتاني المترجم الخاص بوزراة الخارجية الأمريكية جمال هلال وعلى وجهه نظرة محبطة. وقال لي: سيدي الرئيس؛ أظن أن الوفد السعودي على وشك المغادرة.

وهنا كانت المفاجئة. فلقد ظننت بأن اللقاء يسير على ما يرام. إلا أن جمال أوضح لي أن الوفد السعودي كان يتوقّع مني أن أضغط على شارون للانسحاب من رام الله قبل وصول ولي العهد السعودي. وها هم يصرّون الآن أن أضع رئيس الوزراء الإسرائيلي في موقفٍ محرج. ولم يكن في نيتي بذل المساعي الدبلوماسية على هذا النحو. ولذا أرسلت كولين إلى غرفة الضيوف ليرى ما يحدث. لكنه عاد ليؤكد لي أن الضيوف على وشك المغادرة. وحينها أدركت أن العلاقات المحورية بين حكومة الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية على وشك التمزّق على نحوٍ خطير.

ولذا قمت بالتوجّه إلى غرفة الضيوف مع جمال وطلبت دقيقة على انفراد مع ولي العهد السعودي. ومن خلال المعلومات الواردة عن ولي العهد، علمت أمرين مهمين في شخصيته؛ الأمر الأول أنه رجل مؤمن ومخلص، والأمر الثاني أنه يحب مزرعته.

ولذا قلت له: يا صاحب السمو الملكي؛ لكم أود مناقشة بعض الأمور الدينية معك. ثم تحدثت عن إيماني بالمسيحية والدور الذي يلعبه الدين في حياتي. وكنت أتمنى أن يتبادل معي الحوار بالحديث عن إيمانه؛ إلا أنه لم يكن في مزاجٍ جيدٍ لتبادل أطراف الحديث.

وكآخر محاولة بذلتها، قلت له: أيمكنني أن أريك مزرعتي قبل أن تغادر؟ فأومأ برأسه موافقاً. وبعد دقائق عدة كان ولي العهد السعودي يركب في شاحنة فورد F-250. ثم بدأنا جولتنا في المزرعة، أنا وهو وجمال. وطوال الجولة كنت أشير إلى الأنواع المختلفة من أشجار الخشب الصلب، وحشائش المرج الطبيبعية التي زرعتها لورا، ومراعي الماشية. وظل ولي العهد السعودي صامتاً. بمعنى أني لم أحرز تقدماً كبيراً.

ثم وصلنا إلى منطقةٍ بعيدةٍ في المزرعة؛ وفي وسط الطريق وقفت دجاجة رومية. فأوقفت السيارة؛ إلا أن الطائر ظل واقفاً مكانه. فسألني ولي العهد السعودي: ما هذا؟

فأجبته بأنه ديك رومي. ثم عقبت قائلاً: لقد أحب بنجامين فرانكلين الديوك الرومية لدرجة أنه أراد أن تكون هي الطائر القومي للولايات المتحدة.

وفجأة وجدت يد ولي العهد السعودي تمسك بذراعي؛ ثم قال: يا أخي ،تلك إشارة من الله، هذا بشير خير.

لم أفهم أبداً المغزى من الطائر كبشير خير، إلا أني أحسست بأن التوتر بدأ يزول. وحين عدنا إلى البيت ،بدت علامات الدهشة على وجه المعاونين حين سمعونا نقول بأننا مستعدون لتناول الغداء. وفي اليوم التالي جاءني اتصال من أمي وأبي، حيث أن ولي العهد السعودي قد توقف في هيوستن لزيارتهما. وقالت لي أمي إنها رأت الدموع في عينيه بينما كان يحكي عما حدث بيننا في كراوفورد، وتحدث عما يمكننا تحقيقه سوية. وللمدة المتبقية من فترة رئاستي ظلت علاقتي مع ولي العهد

- الذي أوشك أن يكون ملكاً - علاقة وطيدة على أعلى درجة. وكل ما أستطيع قوله بأني لم أر ديكاً رومياً في هذا الجزء من المزرعة، قبل هذا اليوم ولا بعده.

* * *

وعندما أمعنت التفكير في الاضطرابات القائمة في الشرق الأوسط، توصلت إلى أن المشكلة الأساسية هي نقص الحرية في المقاطعات الفلسطينية. فبسبب عدم وجود دولةٍ ذات كيان، افتقر الفلسطينيون إلى مكانهم الشرعي في العالم. وبدون أمل في مستقبلهم، صار الفلسطينيون فريسةً سهلةً لتجنيدهم من قِبَل الجماعات المتطرفة. وبدون رئيس فلسطيني شرعي مُنتخَب ومُلتزِم بمحاربة الإرهاب، فلن يكون لدى الإسرائيليين شريك مناسب لإتمام عملية السلام. وهنا تيقنت بأن الحل هو دولة فلسطينية ديمقراطية تقودها حكومة مُنتخَبة؛ حكومة تجيب على تساؤلات شعبها، وتمنع الإرهاب، وتسعى إلى السلام مع إسرائيل.

ومع ارتفاع معدلات العنف داخل الأراضي المقدسة في خريف ٢٠٠٢، تيقنت بأننا نحتاج إلى من يغيّر الأوضاع. فخطر في ذهني أن أضع خطوطاً عريضة لالتزامي تجاه تحقيق الديمقراطية للفلسطينيين من خلال خطاب مهم ألقيه في ساحة روز جاردنRose Garden . فبهذا الخطاب سأصبح أول رئيس أميركي يطالب علناً بقيام الدولة الفلسطينية كجزء من سياسته في إدارة الشؤون الدولية. وكل أملي أن يعمل وضع هذه الرؤية الواضحة على مساعدة كلا الطرفين في اتخاذ القرارات الصعبة فيما يخص قضية السلام.

ولكن الفكرة أثارت جدلاً، وأول ما بدأ الجدل كان في حكومتي. فعلى الرغم من دعم كوندي وستيف هادلي للفكرة، إلا أن ديك تشيني ودون رامسفيلد وكولين باول نصحوني بألاّ ألقي هذا الخطاب. فلقد كان رأي ديك ودون أن دعم الدولة الفلسطينية في وسط الانتفاضة القائمة سيبدو وكأننا نكافئ الأعمال الإرهابية. كان

كولين قلقاً من أن الدعوة لتولية رئيس جديد للسلطة الفلسطينية سيكون محرجاً لعرفات، وسيحد من فرص المفاوضات الرامية للوصول إلى تسوية.

كنت متيقناً من أن الأمر محفوف بالمخاطر، إلا أني كنت على اقتناع بأن دولة فلسطينية ديمقراطية ورئيساً جديداً للسلطة الفلسطينية هما السبيل الوحيد لإحقاق سلام دائم بالمنطقة. فكان مما قلته في خطابي بساحة روز جاردن في ٢٤ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢: «إنّ رؤيتي هي دولتان تعيشان جنباً إلى جنب في سلام وأمان. ولن تكون هناك طريقة سهلة لتحقيق هذا السلام دون أن يقاوم الطرفان الإرهاب. إنني أدعو الشعب الفلسطيني إلى انتخاب حكومة جديدة؛ حكومة لا علاقة لها بالإرهاب. فأنا أدعوهم لبناء دولة ديمقراطية حقيقية، قائمة على التسامح والحرية. فلو سعى الفلسطينيون بحق لتحقيق هذه الأهداف، حينها سيجدون الولايات المتحدة والعالم بأسره خلفهم لدعم جهودهم».

لكن دعوتي إلى حكومةٍ جديدةٍ لفتت الأنظار بعيداً عن قضية دعم الدولة الفلسطينية. فلقد قرأت أحد العناوين: بوش يطالب عرفات بالتخلي عن السلطة. وبعد إلقاء الخطاب بوقتٍ قصيرٍ اتصلت بي أمي لتسألني: كيف حال أول رئيس يهودي للولايات المتحدة؟ وعندها أحسست من روح الدعابة التي حدثتني بها أنها تعارض سياستي. وهو ما يعني على الأرجح أن والدي هو الآخر على نفس الحال. ولم يفاجئني الأمر. بينما اعتبرت أنا عرفات رئيساً فاشلاً، اعتبره كثيرون من أهل السياسات الخارجية أفضل أملٍ لإحلال السلام في المنطقة. تغاضيت عن دعابة أمي، إلا أني فهمت مغزى رسالتها، ورددت عليها: «تواجهني بعض المعارضات الصعبة».

سافرت في اليوم التالي للخطاب إلى مدينة كاناناسكيس في كندا لحضور القمة السنوية لمجموعة الثماني. كان من المفترض أن تدور القمة حول موضوع الدعم الخارجي، إلا أن خطابي حول الشرق الأوسط كان في بال جميع الحاضرين. وبالمصادفة التقيت مع توني بلير في صالة الرياضة صباح يوم الاجتماع الأول. فقال لي والابتسامة على وجهه: لقد أثرت عاصفة يا جورج.

لكن الآخرين لم يتقبلوا الأمر كما ينبغي. فلقد استنكر الأمر كلٌّ من جاك شيراك، ورئيس المفوضية الأوروبية رومانو برودي، ووزير الخارجية الكندي جين كريتي، فبرفضي لعرفات الحائز على جائزة نوبل للسلام، كنت بنظرهم مغايراً لرؤيتهم للعالم. أخبرتهم باقتناعي بأن عرفات لن يكون الشريك المناسب في عملية السلام.

حمل كولين على عاتقه وضع خطة مفصلة لتحويل خطابي إلى دولة فلسطينية. وهو ما تم تسميته خريطة الطريق، التي شملت ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى، سيتوجّب على الفلسطينيين إيقاف الهجمات الإرهابية، ومحاربة الفساد، وإعادة تشكيل الهيكل السياسي، وإقامة انتخابات ديمقراطية. وفي المقابل، ستنسحب إسرائيل من المستوطنات غير قانونية. في المرحلة الثانية، سيبدأ الجانبان المفاوضات المباشرة، للتوصل إلى تأسيس دولة فلسطينية وفق شروط. في المرحلة الثالثة، سيتوجب على الفلسطينيين والإسرائيليين حل القضايا المعقدة بينهم لتشمل قضية القدس، وحقوق اللاجئين الفلسطينيين، والحدود الدائمة. كما سنطلب من الدول العربية دعم المفاوضات والمساعدة في تكوين العلاقات التقليدية مع إسرائيل.

وقررتُ مع تشجيع توني بلير لي أن أعلن عن خريطة الطريق في ربيع عام ٢٠٠٣ ، بعد فترة قصيرة من إطاحة صدّام حسين في العراق. وأيّد كلٌّ من الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني تلك الخطة. والتقيت في بداية حزيران/يونيو من نفس العام مع قادة الدول العربية في شرم الشيخ بمصر للتأكيد على مدى التزامي بتحقيق السلام ولحثهم على المشاركة الدائمة في العملية السلمية. ثم سافرت إلى العقبة بالأردن لحضور لقاء مع ممثلي السلطتين الفلسطينية والإسرائيلية.

وبالنظر إلى كل الأحداث الدامية الأخيرة، توقعت أن أحضر لقاءً مشحوناً بالتوتر. ولكن الذي فاجأني أن جو اللقاء كان ودوداً وهادئاً. وكان واضحاً أن كثيراً من القادة يعرفون بعضهم بعضاً من مساعي السلام السابقة. ولكني كنت على علمٍ أن هناك تاريخاً طويلاً سيتوجب علينا تخطيه. فمثلاً أحب محمد دحلان رئيس قوة

الأمن الوقائي الفلسطيني أن يذكّر الحاضرين أنه تحدث اللغة العبرية بطلاقة داخل السجون الإسرائيلية.

اتّخذ الفلسطينيون خطوةً مهمة بتعيين رئيس وزراء لتمثيلهم في اللقاء، وهو محمود عباس. بدا على عباس أنه رجل ودود، ويسعى بإخلاص نحو السلام. لم تبدِ عليه الثقة في نفسه، ويعزو ذلك إلى كونه غير مُنتخَب، ولكونه يحاول الخروج من تحت عباءة عرفات. ولقد أعرب عن استعداده لمواجهة الإرهاب. ولكن لتنفيذ ذلك، يحتاج الأمر منه إلى المال وقوات الأمن القوية.

قمت بعد انتهاء اللقاء الرسمي بدعوة كلّ من شارون وعباس للسير في الحديقة. أخبرتهما ونحن نسير تحت النخيل أننا بصدد فرصة تاريخية لتحقيق السلام. ولقد أوضح شارون ـ في خطابه في العقبة ولاحقاً في خطابه عند المدينة الحدودية هرتسليا ـ عن تخليه عن خطة تأسيس إسرائيل الكبرى، وهو ما أعتبره تقدماً كبيراً. فمما قاله شارون في خطابه في العقبة: ليس هدف إسرائيل حكم الفلسطينيين، ولكن حكم الفلسطينيين لأنفسهم في دولتهم المستقلة. كما أعلن عباس: يجب أن تنتهي الانتفاضة المسلحة، ويجب أن نستخدم الطرق السلمية ونتجه نحوها خلال سعينا لإنهاء الاحتلال ومعاناة كلّ من الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. أمامنا طريق طويل، ولكنها كانت لحظة واعدة في الشرق الأوسط.

* * *

حضر آرييل شارون في أبريل/نيسان ٢٠٠٤، إلى واشنطن ليخبرني بقرار تاريخي: لقد قرر الانسحاب من المستوطنات الإسرائيلية في غزة وأجزاء من الضفة الغربية. ولكونه الأب الروحي لحركة الاستيطان، كان أمراً شاقاً عليه أن يخبر المستوطنين الإسرائيليين أن عليهم مغادرة المستوطنات. إلا أن خطوته الجريئة حققت هدفين مهمين هما: خلاص إسرائيل من الاحتلال المكلف مادياً لقطاع غزة، وإعادة المنطقة إلى الحكم الفلسطيني، وهو ما شكّل خطوةً نحو تأسيس دولةٍ مستقبليةٍ للفلسطينيين.

ولكم كنت آمل أن تكون لعباس خطوة إيجابية في مقابل القرار القوي لشارون. إلا أن رئيس الوزراء الفلسطيني عباس استقال في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ بسبب تقويض عرفات الدائم لمساعيه. وبعد عام توفي عرفات. وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥ اتجه الفلسطينيون إلى مراكز الاقتراع للتصويت لأول مرة خلال عقد من الزمان. وكانت حملة عباس الانتخابية حول نبذ العنف ومواصلة جهود تأسيس الدولة الفلسطينية. ومن ثم كان انتصاره في الانتخابات بأغلبيةٍ ساحقة. ثم بدأ عمله في تطوير المؤسسات الديمقراطية، ودعا إلى انتخابات تشريعية.

لكن حركة فتح التي ينتمي إليها عباس كانت ما تزال ملوّثة بالفساد منذ عهد عرفات. وكان البديل الرئيسي هو حركة حماس، وهي منظمة لها كيان سياسي منظم على أعلى مستوى. ولقد أقلقت الإسرائيليين فكرة انتصار حركة حماس في الانتخابات.

دعمتُ الانتخابات. ولم يكن للولايات المتحدة من هدفٍ سوى دعم الانتخابات الوشيكة طالما أن النتائج مُرْضية. كنت أعلم أن الانتخابات هي خطوة واحدة نخطوها في رحلتنا نحو الديمقراطية. فإن من سيفوز في الانتخابات ستقع على عاتقه المسؤوليات الحكومية، من إنشاء طرق ومدارس، إلى فرض سلطة القانون، وتطوير مؤسسات المجتمع المدني. فمن سيعمل جيداً، فبالتأكيد سيُعاد انتخابه. ومن لا يعمل، سيكون لدى الشعب فرصة لاختيار غيره. فأيا كانت النتائج، فالحقيقة لا تظهر سوى في انتخابات حرة وعادلة.

بدا جليّاً في ٢٥ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٦، أن الفلسطينيين قد ملّوا من فساد حركة فتح. وفازت حركة حماس بعدد ٧٤ مقعداً من أصل ١٣٢ مقعداً. وعلق بعضهم على هذا الأمر بأنه عائق أمام عملية السلام. ولم أكن متأكداً تماماً. فبرنامج عمل حركة حماس يقوم على تكوين حكومة صالحة مع تقديم خدمات عامة بشكل فاعل، وليس الحرب مع إسرائيل.

استفادت حركة حماس من الحملة الانتخابية الهزيلة لحركة فتح. فعادة ما كان يترشح كثير من أعضاء حركة فتح على المقعد نفسه، وهو ما يعمل على تقسيم الأصوات الانتخابية بينهم. وظهر جلياً خلال الانتخابات أن حركة فتح تحتاج إلى موجز المنظومة الحزبية لديها. وهذا الأمر دفع حركة حماس لاتخاذ قرار داخل الحركة: هل ستنفذ الحركة وعودها بالحكم كحزبٍ شرعي، أم ستعود إلى سابق عهدها من استخدام العنف؟

* * *

توجّه الناخبون في مارس/آذار ٢٠٠٦، إلى صناديق الاقتراع للإدلاء بأصواتهم في انتخابات أخرى؛ ولكن هذه المرة في إسرائيل. وقبل ذلك بشهرين كان أرييل شارون قد تعرّض لأزمة صحية. ودائماً ما كنت أتخيل ما يمكن حدوثه لو ظل آرييل في الحكومة. لقد أثبت صدقيته في توفير الأمن، واكتسب ثقة الشعب الإسرائيلي، وأنا على يقين بأنه لو استمر لكان جزءاً من عملية سلام تاريخية.

وعليه أصبح التصويت لاختيار رئيس وزراء جديد اختباراً لمدى التزام إسرائيل بحل وجود الدولتين. وعمل نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت في حملته الانتخابية على التأكيد على دعم هذا الحل. وأذكر حينما التقيت إيهود في رحلتي إلى إسرائيل عام ١٩٩٨، وكان عمدة مدينة القدس، أنه كان رجلاً ذا شخصيةٍ هادئةٍ وواثقاً من نفسه، إضافة إلى كونه اجتماعياً وذا طباع مرحة. وكان مما قاله خلال حملته الانتخابية: الحل الوحيد الآن هو دولتان دولة يهودية والأخرى فلسطينية. وفي وقت من الأوقات، أشار إلى أنه سيعمل على تأسيس دولة فلسطينية من جانبٍ واحدٍ إذا لزم الأمر. وكانت المكافأة من الناخبين الإسرائيليين منحه أصواتهم في صناديق الاقتراع.

قام أولمرت وعباس ـ الذي احتفظ بمركزه الرئاسي على الرغم من فوز حركة

حماس في الانتخابات التشريعية ـ بتطوير علاقات فاعلة فيما بينهما. فلقد اتفقا على بعض الأمور مثل نقاط التفتيش الأمنية والإفراج عن بعض المعتقلين. وبعد ذلك في حزيران/يونيو ٢٠٠٧، كانت هناك اعتراضات من الجناح العسكري لحركة حماس. وكما اعتدنا على النمط المألوف للنضال العقائدي، كان رد المتطرفين على الحرية المقترحة بالعنف. قامت حركة حماس التي تدعمها إيران وسورية بشن هجومٍ مفاجئ على قطاع غزة والسيطرة عليه. وقام مقاتلون بأقنعة سوداء بمهاجمة المقر الرئيسي لحركة فتح، وإلقاء أعضاء الحركة من أعلى المبنى ،كما استهدفوا الأعضاء المعتدلين في الجناح السياسي لحركة حماس.

وكان رد الرئيس الفلسطيني عباس هو طرد أعضاء حركة حماس من حكومته، وتعزيز سلطته على الضفة الغربية. وقد أخبرني الرئيس الفلسطيني عباس على الهاتف: هذا بالتأكيد انقلاب على الديمقراطية نفسها؛ فهناك محاولات إيرانية سورية لإشعال الأحداث في منطقة الشرق الأوسط. وعليه قمنا بمتابعة دعمنا الاقتصادي والأمني لحكومة الرئيس الفلسطيني عباس في الضفة الغربية، وكذا دعم الحصار البحري الإسرائيلي على قطاع غزة. وبينما كنا نرسل المساعدات الإنسانية لمنع حدوث مجاعةٍ في القطاع، رأى قاطنو قطاع غزة الفارق الشاسع ما بين ظروفهم المعيشية في ظل حكومة حماس وفي ظل الرئيس الديمقراطي عباس. وكنت مقتنعاً أنه مع مرور الوقت سيطالبون بالتغيير.

تحدثت أنا وكوندي عن إيجاد طريقةٍ لإعادة المحادثات حول إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية. فاقترحتْ عليّ إقامة مؤتمرٍ دولي لوضع أسسٍ للمفاوضات بين حكومة الرئيس الفلسطيني عباس والإسرائيليين. ساورتني الشكوك في بادئ الأمر؛ فبعد أحداث العملية الإرهابية لم يبدُ لي أنه الوقت المناسب لعقد قمة للسلام، ثم أعجبتني الفكرة. فلو رأى الفلسطينيون الحائرون أن هناك فرصةً حقيقيةً لإقامة دولةٍ فلسطينيةٍ، فعندها سيكون لديهم الدافع لنبذ العنف ودعم الإصلاح.

حدّدنا موعداً للمؤتمر في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧ في الأكاديمية البحرية

الأميركية في مدينة أنابوليس بولاية ماريلاند. ثم قمنا أنا وكوندي بإقناع خمس عشرة دولة عربية لإرسال مبعوثيها لحضور المؤتمر، بما فيها المملكة العربية السعودية. فحضور مشاركات عربية في بدايات العملية سيزيد من ثقة الفلسطينيين ويجعل الأمر صعباً عليهم في رفض أي اتفاقات سلام قادمة، كما فعل عرفات من قبل في كامب دايفيد.

وكانت أولى مهام المؤتمر هي جسّ النبض ما إذا كان عباس و أولمرت سيقبلان بالبيان المشترك الهادف إلى إعادة فتح باب المفاوضات. وبعد أن استقلينا الهليكوبتر في طريقنا إلى أنابوليس، طلبتُ من كوندي أن أرى البيان. فردت علي بأنهم قد حققوا تقدماً كبيراً ولكنهم لم ينتهوا منه بعد. ثم قالت: سيتوجّب عليك إلقاء هذا البيان بنفسك.

توجّهت إلى عباس وأولمرت بكلمةٍ على انفراد. فأخبرتهما بأن القمة ستبدو كما لو كانت قمةً فاشلةً وداعمةً للتطرّف ما لم نتّفق على بيانٍ موحّد. وعندها أعطيا الأوامر لمفاوضيهما في التعاون مع كوندي. وقبل دقائق من وقوفنا أمام الكاميرات أتتني كوندي بورقة البيان. ولم يكن هناك وقت لأطلب منهم تكبير خط الكتابة، ولذا قمت بإخراج نظارة القراءة وقرأت ما في الورقة: نوافق فوراً على انطلاق المفاوضات الثنائية الداعية إلى إقرار معاهدة سلام... كما سنبذل أقصى ما بوسعنا للتوصّل إلى اتفاقيةٍ قبل نهاية عام ٢٠٠٨.

وانطلقت موجة من التصفيق في القاعة. وألقى كلٌّ من عباس و أولمرت الخطاب الخاص به. فكان مما قاله الرئيس الفلسطيني عباس: الحرية هي الكلمة الوحيدة التي تمثل مستقبل الفلسطينيين. كما قال رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت: ليس أمامنا طريق سوى السلام.... وأظن بأن الوقت قد حان. ونحن مستعدون للمضيّ قُدُماً.

كانت لحظةً تاريخيةً أرى فيها وزير الخارجية السعودي يستمع باحترامٍ لكلمة رئيس الوزراء الإسرائيلي ويعبر عن استحسانه بالتصفيق لكلمته. رحّبتُ جميع

الأوساط بمؤتمر أنابوليس ووصفته بالنجاح غير المتوقع. فكان مما كتبته جريدة لوس أنجلس تايمز: ينبغي ألا تلقي التعبيرات الساخرة من محادثات أنابوليس بظلالها على الأمل المنبثق من الجهود المبذولة.

وبعد وقتٍ قليلٍ من مؤتمر أنابوليس، قام كلّ من الجانبين بفتح باب المفاوضات للتوصل إلى اتفاقية سلام؛ وكان ممثّلاً الجانبين هما أحمد قريع من الجانب الفلسطيني ووزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني من الجانب الإسرائيلي. قام رئيس الوزراء الفلسطيني سلام فيّاض، وهو عالم في مجال الاقتصاد وحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة تكساس، ببدء أعمال الإصلاح الواجبة منذ زمن للنظام الاقتصادي الفلسطيني وقوات الأمن الفلسطينية. ومن جانبنا، قمنا بتوفير المساعدات المالية وإرسال جنرال رفيع المقام للمساعدة في تدريب قوات الأمن الفلسطينية. وبعد خروج توني بلير من منصبه كرئيسٍ للوزراء، قِبَل منصب مبعوث خاص لمساعدة الفلسطينيين في بناء مؤسسات الدولة الديمقراطية. ولم يكن عمله رائعاً، ولكنه كان ضرورياً. فلقد قال لي مازحاً: إذا فزت بجائزة نوبل للسلام، فاعلم أني فشلت.

كان للمفاوضات أثر في حل بعض القضايا المهمة، ولكن ما كان واضحاً أن إقرار اتفاقيةٍ سيستلزم مشاركةً أكبر من القادة. وبعد الحصول على موافقتي، قامت كوندي بفتح قناة منفصلة للمحادثات بشكلٍ غير معلن بين عباس وأولمرت. وكان فتح باب الحوار من خلال عرض سري للمحادثات قدمه أولمرت للرئيس عباس. فلقد احتوى عرضه على إعادة الغالبية العظمى من أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الفلسطينيين، وقبول بناء نفق للربط بين كلا المقاطعتين الفلسطينيتين، والسماح لعدد محدود من اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى إسرائيل، وإقرار القدس عاصمةً مشتركةً لإسرائيل وفلسطين، ووضع الجهاز التنظيمي للأماكن المقدسة في أيدي مجموعة من الشخصيات غير السياسية.

وتم وضع خطة لتحويل العرض الخاص إلى اتفاقية عامة، حيث سيأتي أولمرت

إلى واشنطن ويقدّم عرضه لي؛ ومن ثم يعلن عباس أن الخطة في صالح الجانب الفلسطيني. وبعدها أقوم بدعوة القادة لإتمام الاتفاقية.

رأيت في هذا الإعداد أملاً حقيقياً في إتمام عملية السلام. ولكن مرةً أخرى حدث ما لم نكن نتوقعه؛ إذ طُلِب أولمرت للمثول أمام التحقيق في قضايا كسبٍ غير مشروع خلال فترة عمله عمدةً لمدينة القدس. ومع نهاية الصيف، كان لدى خصمه السياسي ما يكفي للإطاحة به؛ وهو ما دفعه لإعلان استقالته في أيلول/سبتمبر.

ورفض عباس عقد اتفاقية مع رئيس وزراء على وشك الخروج من السلطة. وتوقفت المحادثات قبل أسابيع من انتهاء فترتي الرئاسية بعد قيام القوات الإسرائيلية بشن هجوم على قطاع غزة رداً على هجمات صاروخية لحركة حماس.

وعلى الرغم من خيبة أملي بسبب الفشل في إتمام اتفاقية بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني، إلا أن سعادتي كانت غامرة نتيجة للتقدم الذي حققناه. فعندما توليت الرئاسة منذ ثماني سنوات كانت الانتفاضة في أوجها، وعرفات كان ما يزال في رئاسة السلطة الفلسطينية، مع التزام القادة في إسرائيل بخطة تأسيس إسرائيل الكبرى، وشكوى الدول العربية من المواقف الدولية. ولكن مع انتهاء مدة رئاستي كان في السلطة الفلسطينية رئيس ورئيس وزراء ينبذان الإرهاب؛ وكذا انسحاب الإسرائيليين من بعض المستوطنات ودعم حل وجود الدولتين؛ وكانت الدول العربية تؤدي دوراً مهماً في عملية السلام.

لم يعد الصراع في الأرض المقدسة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أو بين المسلمين واليهود؛ ولكن بين من يسعى نحو السلام، والمتطرّفين الذين ينشرون الإرهاب. وكان هناك إجماع بأن الديمقراطية هي الأساس لإقرار سلام دائمٍ وعادل. ويحتاج إدراك هذه الرؤية إلى قيادات جريئة من كلا الجانبين ومن الولايات المتحدة.

* * *

لم نكن دائماً على اتفاق أنا و جاك شيراك. فلقد اعترض الرئيس الفرنسي على إطاحة صدّام حسين. وأطلق على ياسر عرفات لقب «الرجل الشجاع». وقال لي في أحد اللقاءات: أوكرانيا جزء من روسيا.

وكانت مفاجأةً لي حين وجدت أنا وجاك مساحة اتفاق عند لقائنا في باريس في مطلع حزيران/يونيو ٢٠٠٤. حيث قام شيراك بوضع أسس الديمقراطية في الشرق الأوسط بينما كنت أنا مشغولاً في قضية أخرى. لكنه أكمل كلامه قائلاً: في هذه المنطقة هناك نوعان فقط من الديمقراطية، الأولى قوية وهي إسرائيل، والأخرى هشّة وهي لبنان. ولم أذكر له أنه قد أهمل ديمقراطيةً جديدةً هي العراق.

لقد وصف المعاناة اللبنانية تحت الاحتلال السوري، فهو الاحتلال الذي جلب مئات الآلاف من القوات إلى داخل البلاد، ونهب أموال الاقتصاد اللبناني، وعطّل كل محاولات نشر الديمقراطية. وعليه اقترح أن نتعاون لمنع سورية من السيطرة على لبنان؛ وهو الأمر الذي وافقت عليه دون تردّد. ثم اتّخذنا قراراً بالبحث عن فرصة لتقديم مشروع قرارٍ إلى مجلس الأمن.

وواتتنا الفرصة في آب/أغسطس ٢٠٠٤ من خلال الرئيس اللبناني إميل لحود، والذي كان يُعتبر دمية السوريين. حيث أعلن أنه سيمدد لفترة جديدة في الرئاسة، وهو ما يخالف الدستور اللبناني. وعندها قمت أنا وشيراك بتقديم مشروع قرار الأمم المتحدة رقم ١٥٥٩ اعتراضاً على قرار الرئيس اللبناني لحود ولطلب انسحاب القوات السورية من لبنان. وتمت الموافقة على القرار في ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤.

وظلت الحكومة السورية على رفضها للقرار لمدة ستة أشهر. وفي ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥ استهدفت سيارة مفخّخة في بيروت موكب رجل الأعمال ورئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري. وأشارت كل الأدلة إلى تورط سورية. وكان رد فعلنا هو سحب السفير من دمشق ودعم فتح باب التحقيقات في مجلس الأمن.

وبعد أسبوع من مقتل الحريري، كان هناك موعد عشاء بيني وبين شيراك

في بروكسل. وصرّحنا ببيان مشترك أطلقنا فيه على العملية التفجيرية اسم «العمل الإرهابي»، وكرّرنا القول بدعمنا لوضع أسس دولة لبنانية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة. وطلبت أنا وشيراك من الدول العربية أن تقوم بالضغط على الرئيس السوري بشار الأسد للانصياع لقرار مجلس الأمن. وبعد شهر من مقتل الحريري خرج حوالي مليون لبناني ـ أي حوالي ربع سكان لبنان ـ إلى ميدان الشهداء في بيروت في مظاهراتٍ مطالبين بإنهاء الاحتلال السوري. وبدأ الشعب اللبناني يتحدث عن قيام ثورة الأرز، وهي الشجرة الموجودة في وسط العلم اللبناني.

ووصلت رسالة الشعب اللبناني إلى الحكومة السورية. ومع الضغط المشترك من المجتمع الدولي والشعب اللبناني، انسحبت قوات الاحتلال السوري من لبنان مع نهاية آذار/مارس من نفس العام. ومع نهاية نيسان/أبريل كان الاحتلال السوري قد انتهى بالكامل. وكما أخبر أحد المواطنين اللبنانيين أحد الصحفيين: لقد اعتاد شعبنا على الخوف من قول أي شيء، ولكن يبدو أن وقت الحرية قد حان ليتحدثوا بما يجول في خاطرهم.

وفي الربيع من العام نفسه، فاز تحالف ١٤ آذار/مارس المناوئ لسوريا بأغلبية في مقاعد البرلمان اللبناني. وتم إعلان فؤاد السنيورة مستشار رئيس الوزراء المقتول الحريري رئيساً للوزراء.

وبذلك حقّقت ثورة الأرز أحد أكبر النجاحات لأجندة الحرية؛ فقد تحققت الحريّة في دولة متعدّدة الأديان ذات أغلبية مسلمة. تحققت تلك الحرية من خلال الضغط الدبلوماسي القوي من العالم الحر ودون أي تدخّلٍ عسكري من الولايات المتحدة. وحصل الشعب اللبناني على استقلاله من أجل أبسط الأسباب: الحرية.

جاء انتصار الديمقراطية في لبنان بعد شهرين من إجراء الانتخابات الحرة في العراق، وانتخاب الرئيس الفلسطيني عباس في المقاطعات الفلسطينية. ولم يسبق

من قبل أن حققت ثلاث مجتمعات عربية هذا التقدم في سبيل الديمقراطية. ويمكن اعتبار لبنان والعراق وفلسطين، حجر الأساس لمنطقةٍ حرةٍ يعمّها السلام.

وكان مما قاله الزعيم السياسي اللبناني وليد جنبلاط: أعلم أن من الغريب هذا الكلام، ولكن حركة التغيير هذه بدأت بسبب الغزو الأميركي للعراق. كما أضاف: لقد كنتُ متشائماً من الأحوال في العراق، ولكن منذ أسابيع، عندما رأيت ثمانية ملايين من الشعب العراقي متوجّهين للتصويت في الانتخابات، تيقنت بأنها بداية لعالمٍ عربي جديد. فلقد أكد الشعبان السوري والمصري أن شيئاً ما يتغير في المنطقة. فما هو واضح، أن سور برلين قد سقط.

ولم يكن الوحيد الذي لاحظ هذا التوجّه أو تعرّف إلى نتائجه. وكانت تلك هي الضربة التي وجهها التيار العالي للديمقراطية في الشرق الأوسط إلى التطرّف في عام ٢٠٠٥. ولكن في عام ٢٠٠٦ عادت أعمال التطرّف مرة أخرى.

* * *

توقفت أنا و لورا في ألمانيا في ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦، ونحن في طريقنا لحضور قمة الثماني في مدينة سانت بطرسبرج في روسيا، حيث دعتنا المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل وزوجها البروفسور يواخيم زاور إلى مدينة شترالسوند، مسقط رأس المستشارة. وانبهرت أنا ولورا بوصف المستشارة ميركل لمدى ازدهار ألمانيا الشرقية الشيوعية. أخبرتنا ميركل بمدى سعادتها في طفولتها، ولكن مع تنبيهات أمها الدائمة لها بكتم النقاشات العائلية وتحذيرها لها بأن البوليس السري Stasi موجود في كل مكان. جال في خاطري أنا ولورا موقف أنجيلا من معاهدة كامب دايفيد عندما شاهدنا فيلم حياة الآخرين The Others of Lives وهو فيلم يحكي عن حياة الألمان في عهد البوليس السري Stasi. وكان صعباً تصديق أن أقل من عشرين عاماً فقط مضت منذ أن كان عشرات الملايين من الأوروبيين يعيشون تلك الحياة. فتلك كانت لمحة عن مدى إمكانية تغيير الحرية للمجتمع.

وبالإضافة إلى دفاعها القوي عن الحرية، فإن أنجيلا شخصيةً جديرةً بالثقة، ورائعةً وودودة. وسرعان ما أصبحت أحد الأصدقاء المقربين لي على الصعيد الدولي.

بينما كنا في طريقنا إلى ألمانيا، قام حزب الله في جنوب لبنان بشن غاراتٍ على طول الحدود الإسرائيلية واختطاف جنديين إسرائيليين، ليتسبّب في اندلاع أزمةٍ أخرى في السياسة الخارجية. وكان رد إسرائيل هو مهاجمة أهدافٍ لحزب الله في جنوب لبنان وتفجير مطار بيروت، الذي كان يُستخدم كموقعٍ لنقل الأسلحة. وكان رد حزب الله إطلاق الصواريخ باتجاه المدن الإسرائيلية، وهو ما أدى إلى مقتل وجرح مئات المدنيين.

ويشبه حزب الله في تكوينه حركة حماس، بكونه حزباً سياسياً شرعياً له جناح عسكري يتم تسليحه وتمويله من قِبَل إيران، ودعمه من قِبَل سورية. وكان حزب الله متهماً بأنه وراء تفجير مقر قوات مشاة البحرية الأميركية في لبنان عام ١٩٨٣، وقتل غواصٍ بالبحرية الأميركية كان على متن الطائرة المختطفة التابعة للخطوط الجوية ترانس وورلد إيرلاينز TWA عام ١٩٨٥، وتنفيذ الهجمات على السفارة الإسرائيلية ومركز الجالية اليهودية في الأرجنتين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٤، وتفجير أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦.

والآن يتجه حزب الله ناحية إسرائيل مباشرة. وكان رد الفعل الأولي واحداً لدى كل القادة في قمة الثماني: لقد أثار حزب الله الصراع، وإسرائيل لديها الحق في الدفاع عن نفسها. ولذا قمنا بإصدار بيانٍ مشتركٍ مفاده: لا يمكن السماح لتلك العناصر والجهات الداعمة لها أن تجر الشرق الأوسط إلى الفوضى وتوسيع دائرة الصراع.

وكانت لدى إسرائيل الفرصة في تنفيذ ضربةٍ قويةٍ ضد حزب الله وداعميه في إيران وسورية؛ ولكنهم للأسف أساءوا التعامل مع هذه الفرصة. فلقد ضربت حملة القصف الإسرائيلية أهدافاً مشكوكاً في كونها أهدافاً عسكرية، حيث شمل القصف

مواقع في شمال لبنان بعيدةً عن قاعدة حزب الله. وتم عرض هذه الخسائر على شاشة التليفزيون ليراها الجميع. وفي تصاعد للأحداث، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت أن سورية لن تكون هدفاً للقصف الإسرائيلي. وفي رأيي كان هذا خاطئاً؛ فاستبعاد سورية من العمليات الإسرائيلية، سيطلق لها العنان ويشجّعها على الاستمرار في دعم حزب الله.

ومع دخول أعمال العنف أسبوعها الثاني، دعا قادة دول قمة الثماني ممن كانوا يدعمون الموقف الإسرائيلي في بادئ الأمر إلى وقف إطلاق النار؛ لكنني لم أشاركهم في ما دعوا إليه. فوقف إطلاق النار ليس سوى مُسكّن، ولن يكون هو الحل الجذري للمشكلة التي على إثرها اندلع الصراع. فلو استمر حزب الله المسلّح في تهديد إسرائيل على الحدود الجنوبية للبنان، فلن تكون سوى مسأله وقت قبل عودة اندلاع القتال مرةً أخرى. حاولت كسب الوقت لإسرائيل بغرض إضعاف قوة حزب الله. وأردت أيضاً أن أوصل رسالة إلى إيران وسورية مغزاها أني لن أسمح لهم باستخدام المنظمات الإرهابية كذراعٍ عسكريةٍ لمهاجمة الديمقراطية والإفلات دون عقاب.

ولكن للأسف، جعلت إسرائيل من الأمر أسوأ وأسوأ. ففي الأسبوع الثالث ضربت الطائرات الإسرائيلية مجمعاً سكنياً في مدينة قانا اللبنانية؛ ما أدى إلى مقتل ثمانية وعشرين مدنياً، أكثر من نصفهم كانوا من الأطفال. وهو ما أثار غضب رئيس الوزراء اللبناني السنيورة. أدان القادة العرب التفجيرات على جميع الأصعدة، كما كان يتم عرض المذبحة على شاشات القنوات العربية ليل نهار. وبدأت مخاوفي تتزايد في احتمال أن تطيح أعمال العنف الإسرائيلية بالحكومة الديمقراطية لرئيس الوزراء السنيورة.

وعليه قمت بعقد اجتماع مع مجلس الأمن القومي الأمريكي NSC لمناقشة استراتيجيتنا تجاه الأحداث الجارية. وارتفعت حدة الخلاف بين أعضاء المجلس. فقال ديك تشيني: ينبغي علينا أن نترك إسرائيل تقضي على حزب الله. فأجابته كوندي: لو فعلنا ذلك، ستكون نهاية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وأوصت

بأن نقترح مشروع قرارٍ للأمم المتحدة يقضي بوقف إطلاق النار، ونشر قوات حفظ السلام متعددة الجنسيات.

لم أرَ في الرأيين ما يناسب الموقف. فعلى المدى القصير، أردت إلحاق الضرر بحزب الله وداعميه بشكل كبير. وعلى المدى البعيد، كانت استراتيجيتنا هي عزل إيران وسورية كسبيل للتقليل من نفوذهم، ولتعزيز حركة التغيير الداخلي في كلا البلدين. لو استمررنا في دعم العنف الإسرائيلي، فحينها سنضطر إلى استخدام حق الفيتو في رفض القرارات المتتالية للأمم المتحدة. وفي نهاية الأمر، سنجد أننا بدلاً من أن نعزل إيران وسورية قد عزلنا أنفسنا.

كان واضحاً أن المنافع بعيدة المدى بإبقاء الضغط على سورية وإيران أفضل كثيراً من المكاسب قصيرة المدى المتمثلة في توجيه ضربات أكثر ضد حزب الله. ولذا أرسلت كوندي إلى الأمم المتحدة؛ وهناك قامت بمناقشة قرار الأمم المتحدة رقم ١٧٠١، والداعي إلى الوقف الفوري لأعمال العنف، ونزع سلاح حزب الله والميليشيات الأخرى في لبنان، وفرض الحظر على شحنات الأسلحة، ونشر قوات حفظ السلام الدولية في جنوب لبنان. ووافقت الحكومة اللبنانية، وحزب الله، وإسرائيل على القرار. وتم تفعيل وقف إطلاق النار في صباح يوم ١٤ آب/أغسطس.

يمكن اعتبار الحرب الإسرائيلية على حزب الله اللبناني لحظةً فاصلةً أخرى في الصراع المذهبي في الشرق الأوسط. على الرغم من كون لبنان هشّاً وما زال يواجه الضغط السوري، إلا أن بذرة الديمقراطية في لبنان صارت أقوى بمرورها بهذه التجربة. لكن النتائج بالنسبة لإسرائيل كانت متفاوتة. فحملتها العسكرية أضعفت حزب الله وساعدت في تأمين الحدود الإسرائيلية؛ ولكن في الوقت نفسه، كلّف الموقف العسكري المتداعي للإسرائيليين خسارة الصدقيّة الدولية.

ولكون حزب الله ومع سورية وإيران هم المحرّضون على القتال، فلقد تحمّلوا مسؤولية الدم الذي أُريق. والشعب اللبناني يعلم ذلك. ومع التحليل الفاضح لمن هم

وراء الحرب، قدّم حسن نصر الله زعيم حزب الله اعتذاراً إلى الشعب اللبناني بعد أسبوعين من وقف إطلاق النار. وكان مما قاله نصر الله: لو كنا نعلم أن أسر الجنديين الإسرائيليين سيؤدي إلى كل هذا، لما كنا فعلنا ذلك بكل تأكيد.

* * *

وقبل أن تتوجّه كوندي إلى أوروبا في رحلتها الأولى كوزيرة خارجية في مطلع عام ٢٠٠٥، أخبرتني أنها تتوقع أن يكون موضع النقاش هو الخلافات حول موضوع العراق. وبعد أسبوع ،رفعت تقريرها إليّ مع رسالةٍ مدهشةٍ من حلفائنا الذين التقت بهم. فلقد قالت لي: لم يدُرْ أي حوار حول العراق، ولكن قلقهم الأكبر هو إيران.

عندما توليتُ رئاسة الولايات المتحدة كان النظام الديني الحاكم في إيران يمثل تحدياً لكل رؤساء الولايات المتحدة لأكثر من عشرين عاماً. وتعتبر إيران من أوائل الدول الداعمة للإرهاب بسبب الحكومة المُكوّنة من رجال الدين المتطرّفين الذين استولوا على السلطة في ثورة عام ١٩٧٩. وفي الوقت ذاته كان المجتمع الإيراني مجتمعاً متحضراً نسبياً، مع وجود حركة حرية في مهدها.

قدمت مجموعة معارضة للنظام الإيراني في آب/أغسطس ٢٠٠٢ أدلةً على أن الحكومة الإيرانية تبني منشأةً سرية لتخصيب اليورانيوم في مدينة ناتنز الإيرانية، وعلى وجود مصنعٍ سري لإنتاج الماء الثقيل في مدينة آراك الإيرانية، وهو ما يعتبر علامتين واضحتين على وجود برنامج نووي. وأقر الإيرانيون بعمليات التخصيب ولكنهم ادّعوا أنها لأغراض توليد الكهرباء فقط. وإذا كان هذا صحيحاً، فلماذا أخفت الحكومة الإيرانية الأمر؟ ولماذا ستحتاج إيران إلى تخصيب اليورانيوم وهي لا تمتلك أي محطة لإنتاج الطاقة النووية يمكن استخدامها؟ وبشكل مفاجئ لم تكن هناك أي اعتراضات على ضم إيران إلى دول محور الشر.

تعهّدت إيران في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣ بعد سبعة أشهر من إطاحة صدّام حسين، بإيقاف كل أنشطة التخصيب وإعادة المعالجة لليورانيوم. وفي المقابل،

وافقت بريطانيا وألمانيا وفرنسا على تقديم المساعدات المالية والاقتصادية لإيران، كالتعاون في مجالات التكنولوجيا والتجارة. أدى الأوروبيون دورهم، وأدينا نحن دورنا.

كانت الاتفاقية خطوةً للأمام نحو الهدف الأكبر، وهو إيقاف إيران عن أنشطة تخصيب اليورانيوم ومنع وقوع سباق للتسلح النووي في الشرق الأوسط.

تغيّر كل شيء في حزيران/يونيو ٢٠٠٥. فلقد أقيمت انتخابات الرئاسة الإيرانية؛ وأقل ما يُقال إن العملية الانتخابية كانت مريبة. فلقد قرر مجلس صيانة الدستور Council of Guardians وهو عبارة عن مجموعة من رجال الدين الإسلامي الكبار، من سيكون اسمه على أوراق الاقتراع. استخدم رجال الدين وحدات قوات التعبئة الشعبية «الباسيج»، وهي قوات شبه عسكرية تابعة للحرس الثوري الإيراني، بغرض تحويل دفة الانتخابات والتأثير على عملية التصويت. وتم إعلان عمدة طهران محمود أحمدي نجاد فائزاً بالانتخابات الرئاسية. ولم أستغرب ذلك، فلقد كانت تدعمه بقوة قوات الباسيج.

قاد أحمدي نجاد إيران في اتجاهٍ عدواني جديد. وأصبح النظام الحاكمة أكثر قمعاً للشعب الإيراني، وأكثر عدائية للعراق، وأكثر نشاطاً في زعزعة استقرار لبنان والمقاطعات الفلسطينية وأفغانستان. فلقد أَطلق على اسم إسرائيل: الجثة العفنة التي يجب أن تُمحى عن الخريطة. ووصف محرقة الهولوكوست بأنها خرافة. استخدم خطاب الأمم المتحدة ليتكهّن بأن المهدي المُنتظَر سيظهر من جديد لينقذ العالم. وبدأت مخاوفي تزيد من أننا نتعامل مع أكثر من مجرد رئيس خطير. فهذا الرجل قد يكون مجنوناً.

وكانت أولى قرارات أحمدي نجاد أن إيران ستواصل عمليات تخصيب اليورانيوم؛ حيث أعلن أن عملية التخصيب جزء من برنامج إيران للأغراض السلمية لإنتاج الطاقة النووية، ولكن العالم كله كان يعلم أن هذا التخصيب للأغراض العسكرية.

عرض فلاديمير بوتين على الإيرانيين، بدعم مني، أن يمدّهم بالوقود المخصّب في روسيا للمفاعلات السلمية الإيرانية بمجرد بنائها، حتى لا تحتاج إيران إلى منشآت تخصيب خاصة بها. ولكن أحمدي نجاد رفض هذا العرض. وعرض الأوروبيون أيضاً أن يدعموا البرنامج النووي الإيراني السلمي في مقابل أن تُوقف إيران كل أنشطة التسليح النووي. ولكن أحمدي نجاد رفض هذا العرض أيضاً. وكان هناك تفسير منطقي واحد: وهو أن إيران تقوم بتخصيب اليورانيوم بغرض استخدامه في صنع القنابل النووية.

وهنا كان يتوجّب عليّ اتخاذ قرارٍ حاسم. فلم يكن للولايات المتحدة أن تسمح لإيران بحيازة سلاحٍ نووي. فهذا معناه أن النظام الديني الحاكمة لإيران سيمكنه السيطرة على الشرق الأوسط، أو ابتزاز العالم، أو تمرير تقنية صناعة الأسلحة النووية إلى المؤسسات الإرهابية التابعة له، أو استخدام القنبلة النووية ضد إسرائيل. وكان تفكيري في المشكلة يدور وفق مؤشّرين مهمّين؛ الأول مدى التقدم الإيراني في مجال صناعة القنبلة النووية، والثاني مدى قدرة الإصلاحيين في الحث على التغيير. وكان هدفي إبطاء الأمر الأول وتعجيل الثاني.

توجّب علي وضع ثلاثة خيارات في الاعتبار. الخيار الأول هو اقتراح بعض رجال الدولة في واشنطن ببدء المفاوضات المباشرة مع إيران. ولكنني كنت مقتنعاً بأن التفاوض مع أحمدي نجاد سيكون مفاده إقرار شرعية أعماله ورؤيته، وسيوهن حركة الحرية في إيران وهو ما سيبطئ مؤشر التغيير. كما شكّكتُ أيضاً في أن الولايات المتحدة سيمكنها إحداث تقدم أكبر من خلال المحادثات الثنائية مع الحكومة الإيرانية. فنادراً ما ينتج عن المفاوضات الثنائية مع طاغية أي منفعة للديمقراطية؛ وذلك لأن تلك الحكومات نادراً ما تتعرّض للمساءلة، كما أنه لا يوجد ما يجبر الحكومات الديكتاتورية على الوفاء بوعودها. فلديهم الحرية الكاملة في نقض أي اتفاقيات، ثم رفع سقف المطالب. فالديمقراطية عليها الاختيار: إما الاستسلام وإما المواجهة.

الخيار الثاني هو الدبلوماسية متعدّدة الأطراف مع سياسة الثواب والعقاب. فيمكننا الانضمام إلى الأوروبيين في منح إيران مجموعةً من المقوّمات في مقابل التخلّي عن أنشطتها النووية المشبوهة. وإذا رفضت الحكومة الإيرانية التعاون، فعندها سيقوم هذا الائتلاف بفرض عقوبات قاسية على إيران من خلال الأمم المتحدة. سيكون صعباً على إيران مع وجود تلك العقبات الحصول على التقنيات المطلوبة لصناعة السلاح النووي، وهو ما يبطئ مؤشر صناعة القنبلة النووية. كما سيجعل الأمر صعباً على أحمدي نجاد في تنفيذ التزاماته المالية للشعب، وهو ما قد يعزّز حركة التغيير الداخلية.

الخيار الأخير هو أن نقوم بتوجيه ضربةٍ عسكريةٍ إلى المنشآت النووية الإيرانية. وهذا الخيار هدفه إيقاف مؤشر صناعة القنبلة النووية بشكلٍ مؤقتٍ على الأقل. لكننا لا نعلم ما مدى تأثيره على مؤشر التغيير. يظن بعضهم أن تدمير المشروع الثمين لدى الحكومة الإيرانية سيشجع المعارضة داخل إيران؛ ولكن المخاوف ساورت بعضهم الآخر من أن تقوم العملية العسكرية الأجنبية بإثارة النزعة الوطنية الإيرانية وتوحّد الشعب الإيراني ضدنا. ومن ثم أصدرت أوامري إلى وزارة الدفاع الأميركية «البنتاجون» لدراسة الأمور اللازمة لتوجيه ضربة عسكريةٍ إلى إيران. سيظل الخيار العسكري مطروحاً، ولكنه سيكون الخيار الأخير.

ناقشتُ تلك الخيارات بشكلٍ موسعٍ مع قيادات مجلس الأمن القومي في ربيع عام ٢٠٠٦. وتشاورتُ عن كثب مع فلاديمير بوتين، وأنجيلا ميركل، وتوني بلير؛ حيث أكدوا لي جميعاً أنهم سيدعمون فرض عقوبات صارمة على إيران إن لم تتنازل عن موقفها. وفي أيار/مايو من العام نفسه، أعلنت كوندي أننا على استعداد أن ننضم إلى الأوروبيين في المفاوضات مع إيران، ولكن بشرط أن تعلّق الحكومة الإيرانية أنشطة تخصيب اليورانيوم بشكلٍ مؤكد. ثم كان التعاون بينها وبين مجلس الأمن في وضع موعدٍ نهائي للرد الإيراني: وهو ٣١ آب/أغسطس. ومرّ فصل الصيف ولم ترد الحكومة الإيرانية.

ثم انتقلنا للتحدي الجديد، وهو كيفية فرض عقوبات صارمة على إيران. ولم يكن في إمكان الولايات المتحدة تحمّل هذا الأمر بمفردها. فلطالما فرضنا عقوبات على إيران لعقود من الزمن. أصدرتُ أوامري إلى وزارة الخزانة الأميركية للعمل مع نظيراتها الأوروبية لتصعيب الأمور على المصارف والمؤسسات الإيرانية في الحركات المالية. كما تم تصنيف جيش القدس التابع للحرس الثوري الإيراني منظمةً إرهابية، وهو ما سمح لنا تجميد أصولهم المالية. وقام حلفاؤنا في الائتلاف الدبلوماسي بفرض أنواعٍ خاصةٍ بهم من العقوبات. كما عملنا مع مجلس الأمن لإصدار القرارين رقم ١٧٣٧ و١٧٤٧، واللذين يقضيان بحظر تصدير الأسلحة الإيرانية، وتجميد الأصول المالية الأساسية لإيران، ومنع أي دولة من تزويد إيران بأي أسلحة نووية، أو أي معدّات ذات صلة.

يمكن اعتبار اقتناع الأوروبيين، والروس، والصينيين بالموافقة على فرض العقوبات على إيران إنجازاً دبلوماسياً؛ ولكن واجهت كل طرف إغراءات الانفصال وتحصيل الفوائد التجارية، وهو ما دعاني إلى تكرير تذكير الأطراف المشاركة بمدى خطورة وجود دولة إيرانية مسلّحة نووياً. في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ سألني أحد المراسلين ونحن في مؤتمر صحفي عن إيران. فرددت عليه قائلاً: لقد أخبرت الجميع بأننا لو كنا مهتمين بتجنّب وقوع حرب عالمية ثالثة، فينبغي أن تتوجّه تلك الاهتمامات نحو منع إيران من الحصول على المعرفة اللازمة لصنع السلاح النووي.

أثارت مقولة الحرب العالمية الثالثة الذعر بين أفراد الشعب؛ وهو ما دعا المحتجين إلى حضور خطاباتي مع لافتاتٍ مكتوب عليها «أبقنا بعيداً عن إيران». ثم صار الأمر مادة إعلاميةً للصحفيين ليكتبوا القصص التي تصوّر الولايات المتحدة على مشارف الدخول في حرب. ولقد ذهب الجميع بفكرهم بعيداً عن النقطة الأساسية. لم أكن أرغب في إشعال فتيل الحرب؛ بل كنت أحاول الحفاظ على ائتلافنا مع الأوروبيين لتجنّب وقوع الحرب.

في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧، قدّمت الأجهزة الاستخباراتية تقرير الاستخبارات

القومية NIE عن البرنامج النووي الإيراني. وكما ظننا، فلقد أكد التقرير أن إيران تقوم بإدارة برنامج سري للتسليح النووي بما يتعارض مع الالتزامات المفروضة في المعاهدة. كما جاء في التقرير أنه في عام ٢٠٠٣، علّقت إيران جهودها السرية في تصميم الرؤوس الحربية، وهو ما يُعتبر الجزء الأقل خطراً في عملية تصنيع الأسلحة. وعلى الرغم من قيام إيران باختبار الصواريخ التي يمكن استخدامها كنظامٍ حاملٍ للرؤوس النووية، وإعلانها استئناف عمليات تخصيب اليورانيوم، إلا أن تقرير الاستخبارات القومية يفتح أعيننا على أمرٍ ما: نرى بشكلٍ مؤكد أن طهران علّقت برنامج التسليح النووي الإيراني في خريف ٢٠٠٣.

كانت نتيجة تقرير الاستخبارات القومية مذهلة، وهو ما جعلني أشعر بأنه يجب تسريب تلك المعلومات للصحافة على الفور. وعلى الرغم من رفضي للفكرة إلا أن قراري كان إفشاء هذه المعلومات القيّمة حتى يمكننا توجيه الأخبار الصحفية إلى الحقيقة. وكان رد الفعل آنيّاً. رحّب أحمدي نجاد بتقرير الاستخبارات القومية واعتبره انتصاراً كبيراً. ثم بدأ يتلاشى عند الأوروبيين، والروس، والصينيين الحافز لفرض عقوباتٍ جديدة. وكما كتب دايفيد سانجر الصفحي بجريدة نيويورك تايمز: رفع التقرير الاستخباراتي الجديد الضغط الدولي عن إيران، ونجح الضغط نفسه الذي ادعته الوثيقة في إرغام إيران على تعليق طموحاتها المتعلقة بالأسلحة.

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، ذهبت في رحلة إلى الشرق الأوسط، حيث أكدت للقادة أننا مازلنا ملتزمين بسياستنا في التعامل مع إيران. وجدت إسرائيل والدول العربية الحليفة نفسها في اتفاقٍ غير مسبوق. فكلا الجانبين كان اهتمامهما كبيراً بإيران مع وجود مخاوف من موقف الولايات المتحدة بعد تقرير الاستخبارات القومية. وفي المملكة العربية السعودية التقيت الملك عبدالله وبعضاً من السديريين السبعة، وهم مجموعة الإخوة ذوو النفوذ للملك الراحل فهد.

سألت الملك عبدالله: «جلالتكم، أيمكننا بدء اللقاء؟». ثم أضفت: «أنا متأكد

أن كل الحاضرين مقتنعون بأني من كتب تقرير الاستخبارات القومية كسبيلٍ لتجنب اتخاذ موقف ضد إيران».

ولم ينبس أحدهم ببنت شفة. فالسعوديون من الأدب بحيث أنهم لا يفصحون عن شكوكهم.

ثم قلت: «عليكم أن تستوعبوا نظامنا الحكومي؛ فتقرير الاستخبارات القومية تكتبه أجهزة الاستخبارات بشكل منفرد؛ وأنا غاضب مثلكم مما جاء في التقرير».

لم يقوّض تقرير الاستخبارات القومية المساعي الدبلوماسية فقط؛ بل قيّدني من الناحية العسكرية أيضاً. فلقد كانت لدي أسباب كثيرة تدفعني إلى توجيه ضربةٍ عسكريةٍ إلى إيران، بما في ذلك التزامها غير المضمون والمشاكل الكبيرة التي يمكن أن تتسبب بها للنظام الديمقراطي الهشّ في العراق. ولكن بعد صدور تقرير الاستخبارات القومية، هل من المعقول أن أستخدم القوة العسكرية في تدمير منشآتٍ نوويةٍ لدولةٍ أكدَت لنا أجهزة الاستخبارات أن ليس لديها أي برنامج تسليح نووي نشط؟

ولا أعلم لماذا صدر تقرير الاستخبارات القومية بهذا الشكل. وتساءلت ما إذا كانت أجهزة الاستخبارات تحاول جاهدةً عدم تكرار الخطأ العراقي، ولذا قاموا بتخفيف وطأة الخطر الإيراني. وبالتأكيد كنت آمل ألا يكون محللو جهاز الاستخبارات يحاولون خرق سياسة الولايات المتحدة. ومهما حاولت أن أوضح فلتقرير الاستخبارات القومية الانطباع الأقوى، وللأسف ليس الانطباع الأفضل.

قضيت معظم عام ٢٠٠٨ محاولاً إعادة تكوين الائتلاف الدبلوماسي ضد إيران. وحانت الفرصة في آذار/مارس أن نفرض عقوباتٍ جديدةً طالبت بها الأمم المتحدة، تلك العقوبات التي تقضي بمنع الدول من المعاملات التجارية مع إيران في مجالات تبادل تقنيات الاستخدام الثنائي التي يمكن استخدامها في برامج التسليح النووي.

كما قمنا بتوسيع مدى الدرع الصاروخية الأميركية، ليشمل نظاماً جديداً قاعدته في بولندا وتشيكيا لحماية أوروبا من أي هجوم إيراني.

وفي الوقت نفسه، عملت جاهداً على تسريع مؤشر التغيير من خلال عقد لقاءات مع المعارضين الإيرانيين، والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، وتمويل الأنشطة المدنية والاجتماعية الإيرانية، واستخدام تقنيات الراديو والإنترنت لبث رسائل الحرية إلى الشعب الإيراني. كما بحثنا أشكالاً متنوعة من البرامج الاستخباراتية والتدابير المالية التي يمكنها إبطاء سير برنامج التسليح النووي الإيراني أو رفع تكلفته.

وللأسف فلقد انتهت رئاستي مع بقاء القضية الإيرانية عالقةً كما هي. تولى خليفتي الرئاسة الأميركية وحكومة إيران تعاني من العزل، والعالم مع عقوبات مفروضة بشكلٍ لم يسبق له مثيل. وكانت ثقتي عالية في أن نجاح تكوين عراق حر وبزوغه على الحدود الإيرانية سيكون مصدر الإلهام للمعارضين الإيرانيين، وسيساعد في تحفيز عملية التغيير. ولكم أسعدني أن أرى حركة الحرية في إيران تعبّر عن نفسها في مظاهراتٍ حاشدة في جميع أنحاء إيران بعد نجاح أحمدي نجاد في الانتخابات الرئاسية المزوّرة في يونيو/حزيران ٢٠٠٩. وأنا مؤمن بأن ما رأيته في وجوه المعارضين الشجعان هو مستقبل إيران. فلو وقفت الولايات المتحدة والمجتمع الدولي معهم في مواجهة الحكومة الإيرانية مع استمرار الضغط عليها، أظن بأن الحكومة الإيرانية وسياساتها ستتغير. ولكنْ هناك شيء واحد مؤكد: وهو أن الولايات المتحدة يجب ألا تسمح لإيران بتهديد العالم بالقنبلة النووية.

* * *

لم تكن إيران هي الدولة الوحيدة التي تهدّد برنامج الحرية بالسعي نحو التسلّح النووي. ففي ربيع عام ٢٠٠٧، وصلني تقرير عالي السريّة من مصدر استخباراتي أجنبي؛ احتوى على صورٍ لمنشآت سرية مريبة في الصحراء الشرقية لسورية.

بدا جليّاً في الصور أن التصميم يتشابه بشكلٍ كبيرٍ مع المنشأة النووية في إقليم يونج بيون بكوريا الشمالية. وانتهينا إلى أن هذا التصميم يشير إلى وجود مفاعلٍ مُهدّأ بالغرافيت بنظام التبريد بالغاز، ويمكنه إنتاج البلوتونيوم المُستخدَم في التسلّح. ولما كانت كوريا الشمالية هي الدولة الوحيدة التي قامت ببناء مفاعلٍ من هذا النوع خلال الخمسة وثلاثين عاماً المنصرمة، فكان شكّنا الأكبر في أننا قد أمسكنا بدليلٍ على سورية وهي تحاول تطوير قدرات التسليح النووي بمساعدة كوريا الشمالية.

وكان ذلك بالتأكيد هو استنتاج رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت؛ فلقد قال لي في إحدى المحادثات الهاتفية بعد فترةٍ قصيرةٍ من استلامي للتقرير: جورج، ألتمس منك أن تقوم بتفجير هذه المنشأة.

وكان ردي عليه: شكراً لك على إثارة هذا الأمر؛ ولكن أعطِني بعض الوقت لأراجع الأمر مع أجهزة الاستخبارات قبل أن أرد على طلبك هذا. وقمت بعقد كثيرٍ من اللقاءات مع أعضاء مجلس الأمن في سلسلةٍ من المحادثات القوية. فالمهمة التفجيرية ستكون صريحةً لكونها أمراً عسكرياً. والقوات الجوية سيمكنها تدمير المنشأة دونما عناء. ولكن القيام بعملية داخل دولة ذات سيادة بدون إنذارٍ أو تبريرٍ مُعلنٍ سيكون له ردود فعلٍ عنيفة.

والخيار الآخر كان القيام بعملية تفجيرٍ سرية. وقد ناقشنا هذه الفكرة بشكلٍ جدّي، إلا أن وكالة المخابرات المركزية CIA والجيش كان رأيهم أنه سيكون خطيراً جداً أن يتسلّل فريق مهمات إلى داخل سورية والخروج منها ومعه كمية كافية من المتفجرات لنسف المنشأة.

والخيار الثالث كان إطلاع حلفائنا على المعلومات الاستخباراتية، ونقوم بفضح أمر المنشأة بشكلٍ مشترك، ثم مطالبة سورية بإغلاق المنشأة وتفكيكها تحت إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA. وسيمكننا عند كشف ازدواجية الوجه للحكومة السورية أن نستخدم نفوذنا للضغط على سورية لإنهاء دعمها للإرهاب، وإيقاف

التدخل في الشؤون اللبنانية والعراقية. ولو رفضت سورية تفكيك المنشأة فحينها ستكون لدينا المبررات العلنية للقيام بعملٍ عسكري.

وقبل اتخاذ أي قرار، طلبتُ من مدير وكالة المخابرات المركزية مايكل هايدن وضع تقييم استخباراتي.

أوضح لي أن المحلّلين على ثقةٍ تامةٍ بأن المنشأة تحتوي على مفاعلٍ نووي؛ ولكن لأنهم لا يستطيعون الجزم بموقع المنشآت الضرورية لتحويل البلوتونيوم إلى سلاح، فإنهم غير متيقنين تماماً من مدى وجود برنامجٍ سوري للتسلّح النووي.

واتضحت الرؤية لاتخاذ قرارٍ بعد تقرير مايكل. وكان ردي على رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت : «لا يمكنني تنفيذ ضربةٍ عسكريةٍ تجاه دولة ذات سيادة دون إقرار الوكالات الاستخباراتية بوجود برنامجٍ تسلحٍ نووي في سورية». وأخبرته أن قراري هو الحل الدبلوماسي مدعوماً بالتهديد باستخدام القوة. وقلت له: «أظن أن هذه الاستراتيجية ستحمي مصالحك ودولتك، وستعمل على تحقيق مصالحنا نحن أيضاً».

فرد عليّ أولمرت وهو مُحبط: هذا الأمر سيصيب الدولة الإسرائيلية في مقتل. أخبرني أن التهديدات بوجود برنامج للتسلح النووي السوري يعتبر قضية حياتية بالنسبة لإسرائيل، وتلك الجهود الدبلوماسية المضطربة قد تتعطّل وتفشل. وفي نهاية المكالمة قال لي: يجب أن أكون صريحاً معك، استراتيجيتك تقلقني بشكلٍ كبير.

تم تدمير تلك المنشأة في ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧.

كانت تجربةً فاضحةً على مستويات عدّة؛ فلقد أكدت نوايا سورية في تطوير الأسلحة النووية، كما وضعت في الاعتبار أن الأجهزة الاستخباراتية ليست بالمصدر الذي يُعوّل عليه. فعلى الرغم من قول المحلّلين إنهم ليسوا على ثقةٍ تامةٍ ما إذا كانت تلك المنشأة ضمن برنامج تسلّح نووي سوري، إلا أن عمليات المراقبة بعد التفجير ظهر فيها المسؤولون السوريون وهم يشرفون بدقة على عمليات إخفاء بقايا المنشأة.

فلو كانت المنشأة مجرد معمل أبحاثٍ سلمي، لندّد الرئيس السوري بشار الأسد بالفعلة الإسرائيلية لدى الأمم المتحدة. وهذا كان رأيي الذي أقوله وأنا مقتنع به تمام الاقتناع.

أعاد لي رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت الثقة بتوجيهه تلك الضربة، تلك الثقة التي كنت فقدتها في الإسرائيليين خلال الحرب على لبنان. واقترحت على إيهود أن نترك بعض الوقت يمر قبل الإعلان عن تلك العملية كسبيلٍ لعزل الحكومة السورية. ولكن أولمرت أراد السرية التامة حول هذه العملية؛ فلقد أراد تجنّب وقوع أي أمرٍ قد يضع سورية في مأزقٍ ويجبر الرئيس الأسد على الانتقام. تلك الضربة العسكرية ضربته، وأحسست بأن الواجب عليّ احترام رغبته؛ ولذا ظللت صامتاً على الرغم من إحساسي بأن الفرصة تضيع من أيدينا.

وبدا لنا جلياً بعد هذا التفجير مدى رغبة إسرائيل في معالجة الأمور بمفردها. فرئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت لم يطلب الإذن في القيام بالعملية، ونحن لم نعطِه هذا الإذن. لقد فعل ما يراه ضرورياً لأمن إسرائيل.

* * *

من أكثر الكتب التي أثّرت فيّ خلال مدة رئاستي كان كتاب «أحواض الأسماك في بيونج يانج» Aquariums of Pyongyang للكاتب كانج تشول هوان، وهو أحد المعارضين في كوريا الشمالية. وقد أوصى لي بهذا الكتاب صديقي هنري كيسنجر، والكتاب عبارة عن مذكّرات تروي قصة اعتقال كانج لمدة عشر سنوات والعذاب الذي تعرض له في معتقلات كوريا الشمالية. قمت بدعوة كانج إلى المكتب البيضاوي في البيت الأبيض، حيث روى لي المعاناة والتعذيب اللذين تعرّض لهما في وطنه، بما في ذلك الأعمال الفظيعة مثل التجويع والتعذيب.

أثارت روايات كانج اشمئزازي من ذلك الظالم الذي دمر الكثير من الحيوات،

ذلك الظالم هو رئيس كوريا الشمالية كيم جونج إيل. في مستهل رئاستي عرض علي دون رامسفيلد صور القمر الصناعي لشبه الجزيرة الكورية في الليل.

بدت كوريا الجنوبية في الصور مضاءةً ومفعمةً بالحياة، بينما بدت كوريا الشمالية مظلمةً تماماً. لقد أوضحت التقارير الاستخباراتية أن هناك فرقاً شاسعاً في معدلات نقص الغذاء بين الكوريتين الجنوبية والشمالية، حيث ارتفعت المعدلات بشكل كبير في كوريا الشمالية. عندما توليت رئاسة الولايات المتحدة في ٢٠٠١، كانت التقارير تشير إلى أن معدلات الوفيات نتيجة نقص الغذاء في كوريا الشمالية قد وصلت إلى مليون كوري خلال الأعوام الستة السابقة لولايتي.

وفي الوقت ذاته كان الرئيس كيم جونج إيل مشغولاً بإشباع رغباته من أفخر أنواع الكونياك، وسيارات مرسيدس الفاخرة، والأفلام الأجنبية. فلقد كوّن لنفسه شخصيةً جعلت شعب كوريا الشمالية يرون فيه زعيماً إلهياً. وادّعى في حملته الدعائية أنه يمكنه التحكّم في الطقس، وقد ألّف ست مسرحيات أوبرالية شهيرة ،كما يمكنه إسقاط الكرة في خمس حفرات من أول جولة في مباراة الجولف.

عكف كيم على تطوير برنامج التسلح النووي وامتلاك الصواريخ البالستية التي تهدد حليفين مهمين للولايات المتحدة، هما كوريا الجنوبية واليابان. كما تشكّل خطراً كبيراً على الساحل الغربي للولايات المتحدة. وكما بدا من حادثة المفاعل السوري فإن خطر انتشار الأسلحة النووية صار من أولوياتنا. ففي الدول المفتقرة للعملة الصعبة تصير المواد النووية ونظام التسلح النووي مصدر جذب لعمليات التصدير.

كانت محاولة التعرّف أكثر على كوريا الشمالية هي مدار الحديث في أحد لقاءاتي الأولى مع مجلس الأمن القومي الأمريكي، وذلك قبل يوم من زيارة رئيس كوريا الجنوبية كيم داي جونج. لقد توصلت مفاوضات الإدارة الأميركية السابقة مع كوريا الشمالية إلى الإطار المتفق عليه Agreed Framework، والذي كان يقضي بدعم كيم جونج إيل اقتصادياً في مقابل تجميد برنامجه للتسلح النووي. ولكن بدا

واضحاً أنه غير راضٍ عن هذا الأمر. ففي عام ١٩٩٨ أطلقت حكومة كوريا الشمالية صاروخاً من طراز تايبودونج على اليابان. وفي عام ١٩٩٩ فتحت سفنها النار على سفنٍ تابعةٍ لكوريا الجنوبية في البحر الأصفر. وبعد أن توليت الرئاسة بشهر هدّدت حكومة كوريا الشمالية بأنها ستعيد تجارب الصواريخ بعيدة المدى مرةً أخرى، ما لم نستمر في المفاوضات الرامية إلى تسوية الخلافات.

أخبرت فريق الأمن القومي الأميركي بأن التعامل مع كيم جونج إيل يشبه تربية الأطفال؛ فحينما كانت باربرا وجينا طفلتين وأرادتا لفت الأنظار كانتا تلقيان الطعام على الأرض؛ وهو ما كان يدفعني أنا و لورا للإسراع والتقاطه عن الأرض. وكلما أرادتا لفت الأنظار ألقتا الطعام مرةً أخرى على الأرض. ثم قلت لهما: الولايات المتحدة على وشك التقاط طعامها عن الأرض.

وفي العام التالي جاءتني تقارير استخباراتية مفادها أن كوريا الشمالية، على ما يبدو، تدير برنامجاً عالي السرية لتخصيب اليورانيوم، وهو الطريق الآخر لصنع القنبلة النووية. وهذا كان تحدياً سافراً؛ فبهذه الطريقة يعتبر كيم متحايلاً على الإطار المتفق عليه. وهو ما جعلني أتخذ قراراً: إن الولايات المتحدة قد أغلقت باب المفاوضات الثنائية مع كوريا الشمالية؛ وبدلاً من ذلك، سنقوم بتوحيد جهود الصين ،وكوريا الجنوبية، وروسيا، واليابان للوقوف صفاً واحداً أمام حكومة كوريا الشمالية.

وكان السبيل لتنفيذ الدبلوماسية متعدّدة الجوانب مع كوريا الشمالية هي الصين، والتي تربطها علاقات وطيدة مع نظيرتها الشيوعية. وكان التحدي القائم هو اختلاف المصالح المرجوّة في شبه الجزيرة الكورية ما بين الصين والولايات المتحدة؛ فالصينيّون أرادوا الاستقرار، بينما أردنا الحرية. والصينيّون كانت لديهم مخاوف من تدفق اللاجئين عبر الحدود، بينما كانت مخاوفنا من المجاعات وانتهاك حقوق الإنسان. ولكن كانت هناك نقطة اتفاق بيننا: وهي أنه ليس في مصلحة أيّ منا امتلاك كيم جونج إيل سلاحاً نووياً.

دعوت الرئيس الصيني جيانج زيمين في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ إلى المزرعة في كراوفورد؛ ثم ذكرت له كوريا الشمالية. فقلت له: «لا تُعتبر كوريا الشمالية تهديداً للولايات المتحدة فقط، بل وللصين أيضاً». ولقد ألححت عليه في مشاركتنا لنواجه كيم على الصعيد الدبلوماسي. ثم أضفت قائلاً: «لكلّ من الولايات المتحدة والصين تأثير مختلف على كوريا الشمالية؛ فتأثيرنا على الأغلب سلبي بينما تأثيركم إيجابي. ولو اتّحدنا سوياً سنكوّن فريقاً ذا تأثيرٍ عالٍ».

على الرغم من الاحترام الذي أبداه الرئيس جيانج، إلا أنه أخبرني أن كوريا الشمالية مشكلتي وليست مشكلته، وقال لي: ممارسة التأثير على كوريا الشمالية أمر معقّد جداً.

وبعد مُضيّ شهور عدة دون تقدّم، سلكت طريقاً آخر. ففي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، أخبرت الرئيس جيانج أنه لو استمر برنامج التسلح النووي لكوريا الشمالية فلن يمكنني إيقاف اليابان ـ وهي المنافس التاريخي للصين في قارة آسيا ـ من تطوير نظام التسلح النووي. وقلت له: أنا وأنت في موقف يستلزم منا أن نعمل سوياً لنتأكد أن سباق التسلح النووي لن يبدأ في آسيا. وفي شباط/فبراير تقدمت خطوةً أخرى. أخبرت الرئيس الصيني جيانج لو أننا لم نجد حلاً دبلوماسياً للمشكلة فحينها سأضطر للتفكير في توجيه ضربةٍ عسكريةٍ ضد كوريا الشمالية.

أدى ذلك إلى إقامة اللقاء الأول للمحادثات السداسية لمناقشة البرنامج النووي الكوري بعد ستة أشهر في بكين. ولأول مرة يجلس مسؤولو كوريا الشمالية على طاولة المحادثات ليروا ممثلي الصين، واليابان، وروسيا، وكوريا الجنوبية، والولايات المتحدة في مواجهتهم. وكان التقدم في المحادثات تدريجياً. لقد قضيت الساعات في التحدث على الهاتف مع شركائنا لأذكّرهم بالمخاطر والحاجة إلى المحافظة على الاتحاد القائم.

في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥ تم تتويج مجهوداتنا وصبرنا. فلقد وافقت كوريا الشمالية

على إيقاف كل أنشطتها النووية والعودة إلى الالتزام بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية Nuclear Nonproliferation Treaty، وهذا أثار شكوكي. فلقد خرق كيم جونج إيل التزاماته سابقاً. ولو فعل ذلك مجدداً فلن يكون ذلك نقضاً للعهد مع الولايات المتحدة فحسب، بل ومع كل جيرانه أيضاً بمن فيهم الصين.

* * *

في الرابع من تموز/يوليو ٢٠٠٦ ألقى كيم جونج إيل بطعامه على الأرض. فقد أطلق وابلاً من الصواريخ على بحر اليابان. وعلى الرغم من كون هذه التجارب فشلاً عسكرياً إلا أنها كانت استفزازاً حقيقياً. وفي اعتقادي أن كيم رأى أنظار العالم متجهة نحو إيران فحاول جذب الأنظار إليه. كما كان يحاول اختبار ائتلافنا ليرى إن كان سينجو بأفعاله أم لا.

وعليه اتصلت بالرئيس الصيني هو جين تاو لأخبره أن هذه الفعلة تُعتبر إهانةً للصين وحثثته على التنديد بالفعلة على الصعيد الرسمي. وقام بإصدار بيان يؤكد فيه على التزامه بالسلام والاستقرار، ونبذ أي أفعال يمكنها أن تزيد من حدة الموقف. كانت كلماته ليّنة بعض الشئ، ولكنها كانت خطوةً في الاتجاه الصحيح.

بعد مرور ثلاثة أشهر، تحدّت كوريا الشمالية العالم مرةً أخرى بتنفيذها أول تجربةٍ نوويةٍ على مستوى كبير. ولكن رد فعل الرئيس الصيني هو كان أقسى هذه المرة. فلقد قال: الحكومة الصينية تشجب هذه التجارب على كل المستويات؛ ولقد دخلنا في محادثات ندعو فيها كوريا الشمالية إلى ضبط النفس. إلا أن جارتنا ضربت بالنصيحة عرض الحائط.

تبنّى مجلس الأمن بالإجماع، بدعمٍ من أعضاء المحادثات السداسية لمناقشة البرنامج النووي الكوري، مشروع القرار رقم ١٧١٨. وانطوى القرار على فرض أقصى العقوبات على كوريا الشمالية، والتي لم تختبرها كوريا الشمالية منذ نهاية الحرب الكورية. ومن ناحيتنا، قامت الولايات المتحدة بتشديد العقوبات على

النظام المصرفي لكوريا الشمالية، وفعلنا ما بوسعنا لنحرم كيم جونج إيل من وسائل الرفاهية المفضّلة لديه.

وأتى الضغط بنتائجه. ففي شباط/فبراير ٢٠٠٧، وافقت كوريا الشمالية على إغلاق مفاعلها النووي، والسماح لمفتشي الأمم المتحدة بالعودة لمتابعة عمليات التفتيش مرةً أخرى. وفي المقابل، قمنا نحن وأعضاء المحادثات السداسية بتقديم مساعدات الطاقة، ووافقت الولايات المتحدة على حذف كوريا الشمالية عن قائمة الدول الداعمة للإرهاب. في حزيران/يونيو ٢٠٠٨، قامت كوريا الشمالية بتفجير برج التبريد في بيونج يانج، وتم عرض التفجير على القنوات الدولية. وفي هذه الحالة ليست هناك حاجة لتأكيدات إضافية.

وعلى الرغم من ذلك لم يتم حل المسألة؛ فشعب كوريا الشمالية ما زال يعاني من الجوع والمعاناة. وقد ورد في التقارير الاستخباراتية دليل كبير على استمرار كوريا الشمالية في البرنامج الكبير لتخصيب اليورانيوم، حتى مع ادعائها إيقاف البرنامج لإعادة معالجة البلوتونيوم.

فعلى المدى القصير، بدا لي أن المحادثات السداسية تمثّل الحل الأفضل لإبقاء نفوذنا على كيم جونج إيل، وتخليص شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية. وعلى المدى الطويل، فأنا مقتنع بأن السبيل الوحيد للتغيير الحقيقي هو حصول شعب كوريا الشمالية على الحرية.

* * *

لقد كانت أجندة الحرية أمراً حساساً مع الجانب الصيني. فالهدف من سياستي هو حث الصينيين على المشاركة في الأمور المتّفق عليها، واستخدام هذا التعاون لبناء الثقة والصدقيّة اللازمة للتحدث بصراحة عن اختلافاتنا.

انصب اهتمامي على تكوين علاقات وطيدة مع الرئيسيين الصينيين جيانج زيمين وهو جين تاو. البداية مع الرئيس جيانج كانت صعبة جداً. ففي ١ نيسان/

أبريل ٢٠٠١ اصطدمت طائرة مراقبة أميركية من طراز EP-3 مع طائرة صينية، وهو ما اضطرها للقيام بهبوطٍ اضطراري على جزيرة هينان. قفز الطيار الصيني من الطائرة ليسقط ميتاً. وتم احتجاز طاقم الطائرة الأربعة وعشرين في إحدى الثكنات العسكرية على الجزيرة، وتم التحقيق معهم. ودائماً ما كان يتبادر إلى الذهن أزمة الرهائن الأميركيين في إيران. ولم تكن تلك هي الطريقة التي أرغب بها لبدء علاقتي مع الصين.

بعد مرور كثيرٍ من الأيام المريرة في محاولة الوصول للصينيين، أمكنني الوصول إلى الرئيس جيانغ الذي كان في زيارة لتشيلي. وبعد فترة وافق الجانب الصيني على إطلاق سراح طاقم الطائرة EP-3. وفي المقابل، قمت بكتابة خطاب تعزيةٍ لمقتل الطيار الصيني ولهبوطنا على جزيرة هينان دون الحصول على الإذن بالهبوط. وعلمت لاحقاً أن تعامل الصينيين بهذه الطريقة مع أزمة الطائرة، كان بسبب اقتناع الحكومة الصينية أن الشعب الصيني قد رأى تقصيراً في ردنا على القصف الأميركي العارض للسفارة الصينية في بلجراد عام ١٩٩٩. وبعد حادثة الطائرة EP-3 أرسل لنا الصينيون فاتورة بمليون دولار كمساعدة في المأكل والمسكن للطاقم الأمريكي. ونحن عرضنا عليهم ٣٤ ألف دولار.

قمت أنا ولورا في شباط/فبراير ٢٠٠٢، برحلتنا الأولى إلى بكين. واستقبلنا الرئيس الصيني جيانغ بغاية الود والترحيب. وبعد تناول مأدبة على شرفنا في قاعة الشعب الكبرى، قام بإمتاع الحاضرين بأدائه لأغنية O Sole Mio مع فتاتين صينيتين جميلتين في زيهما العسكري. شكّل غناؤه لديّ فارقاً كبيراً عن العام الماضي حينما كنت أحاول جاهداً التحدث إليه عبر الهاتف. وتلك كانت علامة على تطور الثقة بيننا.

تلك الثقة التي ازدادت من خلال التفاهم حول موقف تايوان، تلك الجزيرة الديمقراطية التي انفصلت عن الصين بعد الصدام بين شيانج كاي شيك مع ماو تسي تونج خلال الحرب الأهلية الصينية عام ١٩٤٩. وكان يتأكد لي مع كل لقاء برئيس

صيني أن السياسة الأميركية القديمة «الصين الواحدة» لن تتغير. كما أوضحت بأني أرفض أي تغيير أحادي الجانب للوضع الراهن، بما في ذلك إعلان الاستقلال من الجانب التايواني أو التحرك العسكري من الجانب الصيني.

عندما تولى هو جينتاو رئاسة الصين، عقدت نيتي على أن أوطّد العلاقات معه. ولكون الرئيس هو جينتاو صغيراً عن سلفه بستة عشر عاماً، فلقد كان ذا سلوكٍ جاف وتفكيرٍ تحليلي حادّ. وكانت دراسته الهندسة كأغلب الجيل الجديد من رؤساء الصين. التفت إليه ونحن نتناول الغداء في الجناح الشرقي لأوجّه إليه سؤالاً وددت أن أسأله لأحد قادة العالم: ما الذي يقلق راحتك في نومك؟

وأخبرته بأن ما يقلقني هو وقوع أي هجماتٍ إرهابيةٍ أخرى على الولايات المتحدة. فأجابني بسرعة بأن اهتمامه الأكبر هو توفير خمسة وعشرين مليون وظيفة سنوياً. أعجبتني إجابته جداً؛ فلقد كانت إجابة صادقة. بدا لي من إجابته مدى قلقه من جموع الشعب العاطلة، والساخطة في الوقت ذاته. فلقد أوضحت سياسات حكومته في الدول الغنية بالموارد مثل إيران وإفريقيا؛ وكانت تلك إشارة على أنه رئيس واقعي يهتم بشؤونه الداخلية، وليس بالرئيس الذي يسعى خلف المشاكل الخارجية. ووجدت أنا والرئيس الصيني هو أرضية مشتركة في بحث الكثير من القضايا مثل كوريا الشمالية، وتغير المناخ، والتجارة. وكان اهتمامي كبيراً بتوسيع السوق الأميركية لتصل إلى مستهلكي الصين البالغ عددهم مليار نسمة، تماماً كما كان مهماً بالنسبة للصينيين دخول الأسواق الأميركية. نظرت إلى التجارة كوسيلةٍ لدعم برنامج الحرية. وكان اقتناعي بأن وجود الحرية لفترةٍ كبيرةٍ في الأسواق سيقود الشعوب إلى المطالبة بالحرية على المستوى المدني. وكان من بين قراراتي، متابعة الدعم الذي تبنّاه الرئيس الأميركي كلينتون من أجل دخول الصين إلى منظمة التجارة العالمية (WTO). وبغرض تقوية علاقاتنا الاقتصادية مع الصين ،وطلبت من وزير الخزانة الأميركية هانك بولسون و كوندي تأسيس الحوار الاستراتيجي والاقتصادي بين الصين والولايات المتحدةStrategic Economic Dialogue.

وكانت نقطة الخلاف مع الرئيس الصيني هي حقوق الإنسان. كان اهتمامي ينصب على الحرية الدينية، فلقد كنت مقتنعاً بأن اختيار الشعب للعبادة التي يمارسها هو حجر الزاوية لأجندة الحرية. وفي لقاءاتي الأولى مع الرئيس الصيني جيانج، أوضحت له أن الإيمان أمر أساسي في حياتي، ولا يمر يوم دون أن أقرأ الكتاب المقدس. كما أخبرته بأني صمّمت أن أذكر حرية العبادة في محادثاتنا. فرد علي قائلاً: أنا أقرأ الإنجيل، ولكني لا أصدق المذكور فيه.

أخبرت كُلاً من الرئيسين الصينيين جيانج وهو أن معتنقي الأديان دائماً ما يكونون مواطنين مسالمين ومنتجين، فهم من الأشخاص الذين يجعلون من بلادهم أقوى. كما أخبرتهما أنه، لكي تصل الصين إلى أقصى إمكانياتها ،فعليهما أن يثقا في شعبهما بمنحه حرية أكبر. لم أقضِ الوقت في إلقاء محاضرات؛ ولكني تركت الأفعال تتحدث. ذهبت أنا و لورا إلى كنيسة في بكين، والتقينا بعض رجال الدين مثل كاردينال هونج كونج جوزيف تسين ،وعبّروا عن مطالبتهم بحقوق رجال الدين من الكهنة والعُبّاد، والمدوّنين ،والمعارضين، والمُعتقَلين السياسيين.

بعد قمة منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادي (APEC) في سيدني عام ٢٠٠٧، أخبرت الرئيس الصيني هو أني سأحضر مراسم تسليم القائد الديني الأعلى للبوذيين في التيبت دالاي لاما ميدالية الكونغرس الذهبية. فلقد كان زعيم البوذيين مصدراً للإزعاج لدى الحكومة الصينية ،وهو ما دعاهم لاتهامه بتحريض المنشقين في منطقة التيبت. التقيت مع القائد الديني الأعلى للبوذيين في التيبت خمس مرات خلال مدة رئاستي، ووجدته شخصيةً لطيفةً ومسالمة؛ ما جعلني أخبر القادة الصينيين بألاّ يخافوا منه. وقلت لهم: لا تعتبروا رأيي إهانة للصينيين، ولكن اعتبروه تقديراً مني للقائد الديني الأعلى للبوذيين في التيبت وللكونجرس الأميركي. فأنتم تعلمون مدى إيماني بالحرية الدينية.

وردّ علي الرئيس الصيني هو قائلاً: هذه قضية سياسية حسّاسة في الصين.... وسيكون لحضورك المراسم رد فعل قوي من الشعب الصيني. وما أراد قوله هو أن

حضوري سيكون له رد فعل عند الحكومة الصينية، التي لم ترغب في رؤية أول رئيس أميركي يظهر مع القائد الديني الأعلى للبوذيين في التيبت أمام الجمهور.

رددت عليه: «أعتقد أني مصمم على حضور المراسم».

وكان لدي بعض الأخبار السارة. فسألته: كيف حال ترتيباتكم للأوليمبياد؟ مشيراً إلى دورة الألعاب الأوليمبية صيف ٢٠٠٨؛ والتي تم اختيار الصين لاستضافتها.

فأطلعني على آخر مستجدات عملية الإنشاءات. ثم أخبرته أني سأحضر دورة الألعاب. وكنت أعلم بأني سأواجه ضغوطاً قوية لمنعي من الحضور، كما أن كثيراً من الأشخاص سيحاولون تسييس حضوري للأوليمبياد، ولكني وعدته بأني سأحضر. وقلت له مازحاً: لقد حجزت في الفندق بالفعل. وبدت على وجه نظرة الارتياح.

كان أوليمبياد بكين من العلامات البارزة في العام الأخير من فترتي الرئاسية. سافرنا أنا ولورا وباربرا وأخي مارفن، وزوجة أخي مارجريت، وأصدقاؤنا رولاند بتس وزوجته لوا بتس، وبراد فريمان على متن طائرة الرئاسة الأميركية. وقابلنا في الصين أبي وأمي ودورو. وقمت أنا وأبي والسفير الأميركي لدى الصين ساندي رانت، الذي خدم في الصين طوال الثمانية أعوام، بافتتاح المبنى الجديد والضخم للسفارة الأمريكية. فلقد كان ذلك تغييراً كاملاً للتوجّه الدبلوماسي البسيط الذي قاده أبي منذ ثلاثة وثلاثين عاماً. وفي شكلٍ رائعٍ من أشكال الكرم، استضاف الرئيس الصيني هو على الغداء جميع من كانوا في المجمع السكني الحكومي بمنطقة تشونغنانهاي ببكين ،وهو ما كان اجتماعاً لعائلة بوش لم يحدث من قبل، ولم يحدث بعد ذلك.

يمكن اعتبار أوليمبياد بكين نجاحاً كبيراً، مع كثيرٍ من المتعة. كنا في مركز السباحة الوطني، حينما استعاد فريق السباحة للرجال مركزه بهزيمة فرنسا والفوز بالميدالية الذهبية في مسابقات السباحة الحرة. ثم ذهبت لأرى الفريق الأميركي المذهل بلاعبيه المشهورين ميستي ماي ترينور وكيري والش في تدريباتهم من أجل مباراة الكرة الطائرة الشاطئية. وكانت حديث وكالات الأنباء العالمية حينما مازحت

ميستي بضربة في اللعبة لتشجيعه، وكانت إلى الشمال قليلاً من المكان المقصود. زرتُ غرفة تغيير الملابس لفريق السلة الأميركي قبل نزوله إلى أرض الملعب لملاقاة الفريق الصيني في واحدة من أقوى مباريات كرة السلة في التاريخ. ولم أرَ اللاعبين ودودين ولا مثيرين للإعجاب هكذا من قبل. وكان ليبورن جيمس يصيح: هيا يا شباب! عندما دخل أبي إلى الغرفة.

لقد شاهد العالم من خلال الأوليمبياد مدى جمال وإبداع الصين. وكان أملي أن تكون دورة الألعاب قد أعطت للشعب الصيني لمحةً عن العالم خارج الصين، من خلال الصحافة المستقلة، والإنترنت المنفتح على العالم، وحرية الرأي والتعبير. وسنعلم مع الوقت مدى تأثير أوليمبياد بكين على المدى الطويل. ولكن ما يظهره التاريخ دائماً، هو أن الشعوب عندما تذوق طعم الحرية فإنها تطلب المزيد دائماً.

* * *

٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، كان يومًا ممطراً ملبّداً بالغيوم، ومع ذلك فقد هناك عشرات الآلاف الذين خرجوا إلى ساحة الثورة احتفالاً منهم بانضمام رومانيا إلى حلف الناتو، حيث اعتُبِر هذا الانضمام أحد التطورات التاريخية للدولة بعد مرور خمسة عشر عامًا على كونها إحدى دول الاتحاد السوفييتي وعضوًا في حلف وارسو. عندما اقتربت من المنصة، لاحظت وجود شرفةٍ مضاءةٍ بطريقةٍ لافتةٍ للنظر، فسألت الشخص الواقف أمامي ما هذا؟ فأخبرني قائلاً إن هذا هو المكان الذي ألقى فيه الديكتاتور الشيوعي الروماني نيكولاي تشاوسيسكو خطابه الأخير قبل إطاحته في عام ١٩٨٩.

عندما قام الرئيس إيون أليسكو بتقديمي، توقّفت الأمطار عن الهطول وظهر قوس قزح في السماء بشكله المميز. وقد تمدّد قوس قزح في السماء إلى ما وراء هذه الشرفة المضيئة كنصبٍ تذكاري للحرية. كانت لحظة لا تُمحى من الذاكرة. ثم بدأت كلامي بشكل ارتجالي قائلاً: إن الله ينظر إلينا مبتسمًا اليوم.

لم تكن رومانيا بمفردها من تحتفل بالديمقراطية هذا اليوم، فقد كنت أيضاً ممن تبنّوا تصويت أميركا على انضمام بلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا إلى حلف الناتو. رأيت في توسّع حلف الناتو أداةً قويةً لدفع عجلة الحرية إلى الأمام، حيث أن الانضمام إلى حلف الناتو يتطلب الإيفاء بمعايير عالية المستوى، وتتعلق هذه المعايير بالانفتاح الاقتصادي والسياسي، مع إمكانية الحصول على عضوية في الحلف، مما يُعد أمرًا دافعًا إلى تنفيذ كثيرٍ من الإصلاحات.

بعد مرور عام من إلقاء خطابي في بوخارست، اقتحم أحد الشباب الديمقراطيين، ويسمى ميخائيلٌ ساكاشفيلي، الجلسة الافتتاحية لبرلمان جمهورية جورجيا التابعة سابقًا للاتحاد السوفييتي، حيث تحدّث إلى آلاف المتظاهرين الجورجيين، وندّد بالنتيجة غير الشرعية للانتخابات الفاسدة. وقد شعر الرئيس إدوارد شيفرنادزة بأن الأمور لا تسير في صالحه وقام بتقديم استقالته. وقد أصبح هذا الانقلاب غير الدموي معروفًا فيما بعد باسم ثورة الورود. وبعد مرور ستة أسابيع أخرى، تم إجراء الانتخابات حيث توجّه الشعب الجورجي إلى صناديق الاقتراع وتم اختيار ساكاشفيلي رئيسًا للبلاد.

في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠٠٤، اندلعت موجة من الاحتجاجات المماثلة بعد الانتخابات الرئاسية المزوّرة في أوكرانيا. حيث تحدّى مئات الآلاف درجات الحرارة المنخفضة وخرجوا لمؤازرة مرشح المعارضة فيكتور يوشينكو. وفي إحدى مراحل الحملة الانتخابية تعرّض يوشينكو لحالة تسمّم غامضة تسبّبت في تشوّه وجهه، إلا أنه رفض الانسحاب من سباق الرئاسة. وقد قامٌ مؤيدوه بارتداء أوشحة وشرائط برتقالية كل يوم حتى أصدرت المحكمة الأوكرانية حكماً بإعادة الانتخابات الفاسدة مرةً أخرى، وقد فاز يوشينكو وقام بحلف اليمين الدستورية في ٢٣ كانون الثاني/يناير من عام ٢٠٠٥، مستكملاً بذلك الثورة البرتقالية.

في قمة حلف الناتو التي تم عقدها في بوخارست في عام ٢٠٠٨، تقدّمت كلٌّ من جورجيا وأوكرانيا للحصول على خطط عمل عضوية (MAPs)، حيث تعتبر

الخطوة الأخيرة قبل النظر في منح العضوية الكاملة. ولقد كنت من أقوى المؤيدين لهما في طلبهما، إلا أن الأمر كان يستلزم الموافقة بالإجماع. وقد كانت المستشارة أنجيلا ميركل والرئيس الفرنسي الجديد نيكولا ساركوزي مرتابين بعض الشيء حيال هذا الأمر. لأنهما كانا يدركان مدى التوتر الذي يشوب علاقة جورجيا وأوكرانيا مع موسكو، الأمر الذي كان مصدرًا للقلق لديهما من احتمالي تورّط حلف الناتو في حربٍ ضد روسيا. كما كانت تساورهما الشكوك حول مدى الفساد المستشري في هاتين الدولتين.

من جانبي أعتقدتُ أن تهديداً من جانب روسيا يعزّز فكرة اتساع خطط عمل العضوية لتضم كلاً من جورجيا وأوكرانيا. وبالتالي ستكون روسيا أكثر حرصاً على عدم التورّط في أي عدوان في حال انضمام هاتين الدولتين إلى حلف الناتو. أما في ما يتعلق بمشكلات الحوكمة، فقد يكون اتخاذ خطوة لحصولهما على العضوية عاملاً مشجعًا لهما على التخلّص من الفساد. ولقد استطعنا التوصّل إلى حلّ وسط: لن نقوم بمنح جورجيا وأوكرانيا خطة عمل الحصول على العضوية في بوخارست، لكننا بصدد إصدار بيانٍ حول إمكانية انضمامهما وحصولهما على عضوية في حلف الناتو مستقبلاً. وفي نهاية النقاش، مال رئيس الوزراء البريطاني جوردن براون نحوي قائلاً: ربما لم نمنحهما خطط عمل عضوية، إلا أننا قد جعلنا منهما أعضاءً بالفعل!.

* * *

أبرزت مناقشات حلف الناتو قوة التأثير الذي تمتلكه روسيا. وفي أول لقاء لي مع فلاديمير بوتين في ربيع ٢٠٠١، تذمّر من الديون التي تعود إلى فترة حكم الاتحاد السوفييتي، حيث ترهق هذه الديون عاتق روسيا. وفي هذا التوقيت، كان يتم بيع النفط بسعر ٢٦ دولاراً أميركياً للبرميل. وفي الوقت الذي رأيت فيه بوتين في قمة أبيك في مدينة سيدني في سبتمبر من عام ٢٠٠٧، كان سعر النفط قد وصل إلى ٧١ دولاراً، وكان في طريقه ليصل إلى ١٧٣ دولارًا في صيف ٢٠٠٨. وقد مال

في المقعد الجالس عليه وتساءل عن السندات المالية العقارية المدعومة المملوكة لروسيا.

وكان التعليق على كلامه «بوتين الممتاز». لقد كان مغرورًا في بعض الأحيان وساحرًا في أوقاتٍ أخرى، إلا أنه كان صارمًا دومًا. طوال فترة رئاستي التي امتدت ثماني سنوات، التقيت فلاديمير بوتين وجهاً لوجه ما يزيد على أربعين مرة. وتبادلت أنا وزجتي لورا الزيارات معه ومع زوجته لودميلا في منزلنا الموجود في كراوفورد وفي منزله الريفي الواقع خارج موسكو، حيث أرانا كنيسته الخاصة، بل تركني أقود سيارته الفولجا التي تعود إلى عام ١٩٥٦. كما اصطحبنا في رحلةٍ بالقارب عبر سانت بطرسبرج أثناء إقامة احتفال الليالي البيضاء، وبدعوته إلى كينيبونكبورت حيث ذهبنا إلى الصيد بصحبة والدي. لن أنسى مطلقاً رد فعل بوتين عند دخوله إلى المكتب البيضاوي لأول مرة. لقد كنا في الصباح الباكر، وكان الضوء يتدفّق بانسيابيةٍ من النوافذ الجنوبية. وما أن قام بالعبور من الباب حتى انبهر قائلا يا إلهي... رائع! لقد كانت استجابةً هادئةً من أحد العملاء السابقين لجهاز المخابرات في الاتحاد السوفييتي الملحد.

وأثناء تجوالنا صعودًا وهبوطاً داخل المبنى، كان النقاش بيني وبين بوتين يتّسم بالصراحة والنزاهة. وتعاونّا، أنا وهو، في الكثير من المجالات المهمة، ومنها مكافحة الإرهاب والتخلّص من نظام طالبان في أفغانستان وتأمين الحماية للمواد النووية.

وكان أحد أكبر الإنجازات التي تحقّقت من لقائنا الأول، في سلوفينيا عام ٢٠٠١، حيث أخبرت فلادمير أنني خطّطتُ لمنحه إشعارًا لمدة ستة أشهر، حول نية أميركا الانسحاب من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية، ومن ثم نستطيع معًا تطوير نظام دفاع صاروخي فاعل. وأوضح لي أن هذا لن يجعلني ذا شعبية في أوروبا. وأخبرته أن حملتي الانتخابية تقوم على ذلك وأن الشعب الأميركي يتوقّع مني الاستمرار في هذا الأمر. ثم قلت له: «لقد انتهت الحرب الباردة. نحن لم نعد أعداء».

كما أخبرته أيضاً أن أميركا ستقوم من جانبها بتخفيض ترسانتها من الرؤوس النووية بمقدار الثلثين. ووافق بوتين على التخفيض بالمقدار نفسه. وفي أقل من عام، تم توقيع اتفاقية موسكو ، حيث تعهدت كلتا الدولتين بتخفيض عدد الرؤوس الحربية المنتشرة بحلول عام ٢٠١٢ من ٦٦٠٠ إلى ما يتراوح بين ١٧٠٠ و٢٢٠٠. وكانت هذه الاتفاقية صاحبة أكبر تخفيضٍ للأسلحة النووية في التاريخ، حيث تمت الموافقة عليها دون الدخول في مفاوضات لا تنتهي، والتي عادةً ما تصاحب مثل هذا النوع من الاتفاقيات المعنية بالحدّ من التسلّح.

وعلى مدار ثماني سنوات، كان لثورة روسيا الجديدة أثر على بوتين، حيث كان عدوانياً في الخارج ودفاعيًا بصورة مبالغ فيها حول ما حققه في وطنه. وفي أول لقاء معه في فترة ولايتي الثانية، في براتيسلافا، كان هناك الكثير من المخاوف التي انتابتني حول عدم إحراز روسيا أي تقدم ديمقراطي. لقد كنت قلقًا بشكلٍ خاص من اعتقاله لرجال الأعمال الروس وحملته الشرسة على الصحافة الحرة. وقد توجّه بالكلام إليّ قائلاً: لا تقُمْ بإلقاء محاضرةٍ عليّ حول حرية الصحافة، بعد أن قمتَ بطرد ذلك المراسل.

ثم اتضح ما كان يرمي إليه. فسألته: «فلاديمير، هل تعني دان راذر؟» فأجاب بما يؤكد ذلك. فقلت له: «لا تتحدّثْ عن هذا الأمر أمام العامّة، فسيعتقد الشعب الأميركي بأنك لا تفهم النظام الذي نتّبعه هنا».

وفي المؤتمر الصحفي الذي تم عقده عقب الاجتماع، قمتُ بدعوة اثنين من الصحفيين الأميركيين بينما قبل فلاديمير بدعوة اثنين من الصحفيين الروس. وكان السؤال الأخير مطروحاً من أليكسي ميشكوف من وكالة أنباء إنترفاكس، وقد كان السؤال موجّهًا إلى بوتين: لقد صرح الرئيس بوش مؤخّراً بأن الصحافة في روسيا ليست حرة. وما الذي ينقص من حرية الصحافة؟... لماذا لا نتحدث كثيراً عن الانتهاكات التي تحدث في حق الصحافيين في الولايات المتحدة، وعن حقيقة

الصحفيين الذين تم طردهم من العمل؟ يا لها من مصادفة! لقد كانت هذه الصحافة التي تصف نفسها بأنها حرة تردّد مثل الببغاء ما يقوله فلاديمير من كلمات.

كنت أنا وبوتين نهتم باللياقة البدنية. كان فلاديمير يتمرّن بقوة ويمارس السباحة بانتظام ويتدرب على رياضة الجودو. وكنت أنا وإياه صاحبيْ طابع يغلب عليه التنافس.

أثناء زيارته إلى كامب دايفيد، قمت بتقديمه إلى كلب الصيد الخاص بنا والذي نطلق عليه اسم بارني، ولكنه لم يكن معجبًا كثيراً بهذا الأمر. وفي رحلتي الثانية إلى روسيا، سألني فلاديمير إذا كنت أرغب في مقابلة الكلب الخاص به كوني، فرددت عليه بالفعل. أثناء سيرنا في حدائق منزله الريفي الذي توجد على جانبيه نباتات البتولا، كان هناك كلب لابرادور أسود كبير يجري في جميع أنحاء الحديقة. وبإيماءةٍ من عينه، قال فلاديمير: إنه أكبر وأقوى وأسرع من بارني. وقد قمت فيما بعد بسرد القصة إلى صديقي ستيفن هاربر رئيس وزراء كندا، فكان جوابه: أنت محظوظ أنه أراك كلبه فقط.

كانت قصة بارني ذات مغزى توجيهي بالنسبة لي. لقد كان بوتين شخصاً فخوراً بنفسه ومحباً لبلده. أراد أن تصبح روسيا ذات نفوذٍ قوي مرةً أخرى، وتمّ وضعه على الدرب الذي سيوصله إلى زيادة هذا النفوذ والتأثير. شكّل تهديداً للديموقراطية على الحدود، واستخدم الطاقة سلاحاً اقتصادياً عن طريق قطع الغاز الطبيعي عن أجزاء عدة في أوروبا الشرقية.

كان بوتين شخصاً ماكراً ومخادعاً، حيث أنه، نظير دعمه لكلّ من جاك شيراك وجيرهارد شرودر في جهودهما الرامية إلى التأثير على النفوذ الأميركي، استطاع إقناعهما بالدفاع عن تعزيز نفوذه في روسيا. أثناء تناول العشاء على هامش قمة مجموعة الثماني في سانت بطرسبرج، تحدّى معظم القادة بوتين في ما يتعلق بسجله الديموقراطي، إلا أن جاك شيراك كان له رأي آخر، حيث أعلن أمام الجميع أن ما

يفعله بوتين هو أمر جيد لروسيا، ولا يحق لنا التدخّل في كيفية إدارته للأمور هناك. لكن هذا لم يكن شيئاً يُذكر مقارنةً بما فعله شرودر. بعد مرور فترةٍ وجيزةٍ على استقالة رئيسة الوزراء الألمانيةِ من منصبها، أصبح هو رئيس إحدى الشركات التابعة لشركة جازبروم العملاقة في مجال الطاقة، والمملوكة لروسيا.

كان بوتين ممن يحبون السلطة، وكان الشعب الروسي يحبه. مع العلم أن فائض الميزانية القائمة على النفط لم يتأثر. وقد استغل مكانته لاختيار خليفته ديمتري ميدفيديف، ثم قام بتعيين نفسه رئيساً للوزراء.

كانت بداية الخلافات بيننا في آب/أغسطس من عام ٢٠٠٨، عندما أرسلت روسيا الدبابات التابعة لها عبر الحدود إلى جورجيا لاحتلال منطقة أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، بالإضافة إلى مقاطعتين تابعتين لجورجيا لكنهما ترتبطان بعلاقاتٍ قويةٍ مع روسيا. وكنت في هذا الوقت في بكين لحضور حفل افتتاح دورة الألعاب الأوليمبية. وكنت أقف أنا وزوجتي لورا لتحية الرئيس الصيني هو جين تاو عندما همس نائب مستشار الأمن القومي جيم جيفري في أذني بنبأ الهجوم الروسي، فقمت حينها بإمعان النظر في الأماكن الموجودة أمامي في الصف نفسه، حيث كان فلاديمير متواجدًا هناك وفكّرتُ بأن هذا ليس هو المكان المناسب لمناقشة القضايا الدبلوماسية الساخنة.

واعتقدتُ أيضًا أنه من المناسب أن أنقل مخاوفي مباشرةً إلى الرئيس ميدفيديف، ولكنني لم أكن أعرفه جيدًا. في نيسان/أبريل من عام ٢٠٠٨، وقبل تغيير السلطة، قام فلاديمير بدعوة ميدفيديف لزيارة سوتشي بصحبتنا، وهي تعادل كامب دايفيد ولكن في روسيا. وكانت الأجواء احتفالية وتسودها البهجة. استضافنا بوتين على عشاءٍ رائع، تلاه رقص فولكلوري شعبي. وفي وقت من الأوقات، كنت أنا وأعضاء الوفد المرافق لي، مرغمين على القيام من مقاعدنا والمشاركة على المنصة. كان الرقص وكأنه مزيج من الرقص الرباعي والبهلواني. وأنا متأكد من أنه يمكن أن يكون لدي الكثير من السوائل والطاقة إذا تناولت بعضاً من الفودكا. كان الأمر مثيراً للفضول بما

فيه الكفاية. فنادراً ما كنت أرى الفودكا أثناء رحلاتي إلى روسيا، خلاف أيام حكم الشيوعية.

أود أن أعرب عن تقديري للفرصة التي سنحت لي لقضاء بعض الوقت مع ميدفيديف، أول رئيس روسي غير شيوعي منذ الثورة البلشفية في عام ١٩١٧. وقام ميدفيديف بإلقاء خطابٍ رائع أعرب فيه عن التزامه بسيادة القانون وتحرير الاقتصاد الروسي والحد من الفساد. أخبرته بأنني أتطلع للتعامل معه، كرئيسٍ إلى رئيس، والسؤال الأهم الذي كان يجول في خاطري بالطبع: هل هو من يقوم بإدارة البلاد بالفعل أم لا؟ وكوسيلةٍ لاكتشاف الأمر، سألتُ فلاديمير إذا كان لا يزال يستخدم مجمع سوتشي بعد تولي ميدفيديف، فأجابني بدون تردد لا ثم أضاف: هذا هو القصر الصيفي للرئيس.

قمت بالاتصال بميدفيديف فور عودتي إلى الفندق في بكين. لقد كان غاضباً وكذلك الحال بالنسبة لي. قلت له: نصيحتي لك هي الحد من تصاعد هذا الأمر الآن. إن عدم الاتزان في الإجراءات التي تقوم بها سيؤدي إلى انقلاب العالم ضدك. نحن في طريقنا لنكون معهم.

وقد أخبرني ميدفيديف أن ساكاشفيلي كان مثل صدّام حسين. وادّعى أن ساكاشفيلي شنّ هجومًا بربريًا استفزازياً تسبّب في مقتل ١٥٠٠ شخص من المدنيين.

وقد رددت عليه بقولي أتمنى ألا تكون مزمعاً على قتل ١٥٠٠ شخص أنت الآخر كرد فعل لذلك. ثم أكملت كلامي: لقد أوضحت وجهة نظرك بشكل واضحٍ وصريح. وآمل أن تفكر في ما طلبته منك على محمل الجد. كان أكبر مخاوفي هو احتمال اقتحام كل الطرق المؤدية إلى تبليسي وإطاحة ساكاشفيلي الذي تم انتخابه بطريقة ديموقراطية. وكان الأمر واضحاً بأن الروس لن يقفوا إلى جانب جورجيا الديمقراطية في ظل وجود رئيسٍ موالٍ للغرب. وتساءلت في قرارة نفسي: هل كانوا سيتخذون

الموقف العدواني نفسه لو قام حلف الناتو باعتماد طلب خطة عمل العضوية المقدمة من جورجيا.

اتصلت بساكاشفيلي بعد ذلك، كان واضحًا عليه الارتباك. ثم قام بوصف الهجوم الروسي، وحثني على عدم التخلي عن جورجيا في هذه الظروف، فقلت له: «كلي آذان صاغية. فنحن لا نرغب في انهيار جورجيا». في الأيام التالية، ألقيت خطاباً مدافعاً فيه عن سلامة الأراضي الجورجية، وقد تعاونت مع الرئيس ساركوزي، الذي كان يشغل في هذه الفترة منصب رئيس الاتحاد الأوروبي، لتجميع الدول الأعضاء ومطالبة روسيا بالانسحاب، وإرسال مساعدات إغاثةٍ إلى جورجيا على متن طائراتٍ حربيةٍ تابعةٍ للجيش الأميركي، مع تقديم وعدٍ بإعادة بناء الجيش الجورجي.

وفي حفل افتتاح دورة الألعاب الأوليمبية، كنت أجلس أنا وزوجتي لورا في الصف نفسه الذي يوجد فيه فلاديمير والمترجم المرافق له. كانت هذه هي الفرصة لاستكمال المحادثة التي قمت بتأجيلها في القاعة الكبيرة. ومن ثم قامت لورا والرجل الجالس بجوارها، ملك كمبوديا ، بطي بعض المقاعد. ومن ثم تحرّك بوتين بالقرب مني.

كنت أدرك تماماً أن الكاميرات التلفزيونية مسلّطة علينا، لذا حاولت عدم التحرك بصورة مبالغ فيها. ثم أخبرته أن ما قام به خطأ كبير وأن ذلك قد يتسبّب في عزلة روسيا في حال عدم انسحابها من جورجيا. فرد عليّ بقوله إن ساكاشفيلي مجرم حرب - الكلمة نفسها التي كان يستخدمها ميدفيديف - وهو من قام باستفزاز روسيا.

فقلت له: «لقد حذّرتك، ساكاشفيلي من الأشخاص ذوي الحَميّة». فرد عليّ بوتين بقوله: وأنا كذلك. فحدّقت، وقلت: «لا يا فلاديمير، أنت شخص بارد المشاعر».

* * *

بعد مرور أسابيع من الدبلوماسية المكثّفة، قامت روسيا بسحب معظم قواتها الغازية، إلا أنها احتفظت بوجودٍ عسكري غير قانوني لها في أوسيتيا الجنوبية

وأبخازيا. وقام فلاديمير بوتين بالاتصال بي في آخر أسبوع لي في المكتب البيضاوي ليتمنى لي التوفيق، وكانت هذه إشارة لها دلالات عميقة. وما زال يراودني ما كنت أستطيع تحقيقه أنا وبوتين في الماضي زمن الحرب الباردة، حيث وقفت روسيا تدافع عن خيبة أملها في أجندة الأعمال الخاصة بالحرية.

ولم تكن روسيا بمفردها. كنت آمل أن تكون مصر راعيةً للسلام والإصلاح في العالم العربي، تماماً مثلما كانت في عهد الرئيس أنور السادات. ولكن للأسف، بعد إجراء انتخابات رئاسية واعدة في ٢٠٠٥، اشتملت على مرشحين للمعارضة، اتخذت الحكومة الكثير من الإجراءات القاسية خلال الانتخابات التشريعية بعد مرور عام واحد من الانتخابات الرئاسية، حيث قامت بسجن المعارضين والمدوّنين الذي دافعوا عن وجود بديلٍ ديموقراطي.

وكانت فنزويلا من الدول التي تراجعت عن الديموقراطية أيضاً. حيث قام الرئيس هوجو تشافيز ببث خطبٍ متشدّدةٍ مناهضةٍ للولايات المتحدة أثناء محاولته توسيع الشعبية السياسية الزائفة التي أطلق عليها اسم «ثورة بوليفار». ولكنه للأسف أهدر أموال الشعب الفنزويلي وساهم في تدمير بلده. هو الآن على وشك أن يصبح روبرت موجابي لأميركا الجنوبية. ومن الأشياء المحزنة أيضاً أن هناك الكثير من القادة الذي انتهجوا الطريق ذاته مثل قادة نيكاراغوا وبوليفيا والإكوادور.

كما يوجد هناك أنظمة استبدادية أخرى ولكنها معزولة، مثل الأنظمة في بيلاروسيا وبورما وكوبا والسودان. وأملي هو أن تستمر أميركا في الوقوف إلى جانب المعارضين والمدافعين عن الحرية في هذه المناطق. لقد التقيت مع أكثر من مئة شخصٍ من المعارضين طوال فترة رئاستي. وعلى الرغم من أن محنتهم تبدو عصيبة إلا أنها غير ميئوسٍ منها. وكما قلت في خطابي الافتتاحي الثاني، إن متطلبّات أجندة الحرية هي العملُ المتواصل للأجيال. وفور حدوث مثل هذا التغيير، يكون التحوّل سريعًا في كثيرٍ من الأحيان، تماماً مثلما شهد العالم الثورات الأوروبية في عام ١٩٨٩ والانتقال السريع إلى شرق آسيا بعد الحرب العالمية الثانية. عندما تنال الشعوب

حريتها، يتقدم المعارضون والسجناء، مثل فاتسلاف هافيل ونيلسون مانديلا لقيادة بلادهم الحرة.

* * *

على الرغم من وجود كثير من العقبات التي تعوق عمل أجندة الأعمال الخاصة بالحريات، هناك كثير من الأمثلة المبشّرة بالأمل والتقدم. انضم الجورجيون والأوكرانيون إلى مصاف الشعوب الحرة، كما أصبحت كوسوفو دولةً مستقلة، وتوسّع حلف الناتو ليشمل ستة وعشرين عضواً بدلاً من تسعة عشر عضواً. وبفضل القيادة الشجاعة والحكيمة للرئيس ألفارو أوريبي، استعادت كولومبيا سيادتها على أراضيها من تجار المخدرات. وبدعم من الولايات المتحدة الأميركية، أصبح الكثير من الديموقراطيات متعددة الأعراق بدءاً من الهند وأندونيسيا ووصولاً إلى البرازيل، زعماء في هذه المناطق ومثالاً حيًا على تطوّر المجتمعات الحرة حول العالم.

وكانت التحركات الأكثر إثارة سعياً إلى الحرية تلك التي جرت في الشرق الأوسط. ففي عام ٢٠٠١، شهدت المنطقة تزايداً كبيراً للإرهاب تمثل في العنف المتصاعد بين الفلسطينيين والإسرائيليين وعدم استقرار نظام صدّام حسين، وقيام ليبيا بتطوير أسلحة دمارٍ شامل، فضلاً عن احتلال عشرات الآلاف من القوات السورية للبنان، بينما تمضي إيران في برنامجها النووي دون أن تجد من يعترض طريقها. علاوة على الركود الاقتصادي على مدى واسع وتقدّمٍ ضئيلٍ نحو الإصلاح الاقتصادي.

وبحلول عام ٢٠٠٩، كانت الدول في الشرق الأوسط تعمل بفاعلية على مكافحة الإرهاب بدلاً من سلوك طريق آخر. كانت العراق دولة متعدّدة الأديان ذات ديموقراطية متعددة الأعراق وحليفاً للولايات المتحدة. وكانت ليبيا قد تخلّت عن برنامجها الخاص بأسلحة الدمار الشامل واستأنفت علاقاتها الطبيعية مع العالم. وقد استطاع الشعب اللبناني طرد القوات السورية واستعادة الديموقراطية، وأصبح لدى الشعب الفلسطيني حكومة سلمية بشكلٍ متزايدٍ في الضفة الغربية، مع وجود

رغبةٍ لإنشاء دولة ديمقراطية تعيش جنباً إلى جنب مع إسرائيل. وقد كانت حركة الحرية في إيران ذات نشاط فاعلٍ خلال الانتخابات الرئاسية التي تم إجراؤها في صيف ٢٠٠٩. وفي جميع أنحاء المنطقة، كانت هناك مؤشرات واعدة للإصلاح الاقتصادي، والانفتاح الاقتصادي. حيث قامت الكويت بإجراء أول انتخابات يتم السماح فيها للنساء بالاقتراع واحتلال المناصب السياسية. وفي عام ٢٠٠٩، حصلت المرأة على كثيرٍ من المقاعد.

كما احتلت النساء كثيراً من المناصب الحكومية في عُمان وقطر والإمارات العربية المتحدة واليمن. بينما قامت البحرين بتعيين امرأةٍ يهوديةٍ سفيرةً لها في الولايات المتحدة. وأجرى الأردن والمغرب والبحرين انتخاباتٍ برلمانيةً تنافسية. وعلى الرغم من كون المملكة العربية السعودية ذات نظام ملكي، إلا أنها قامت بعقد أول انتخابات بلدية، كما قام الملك عبد الله بتأسيس أول جامعةٍ من نوعها في المملكة للرجال والنساء. واتسع نظام التجارة والاستثمار في جميع أنحاء المنطقة، وارتفع استخدام الإنترنت بشكلٍ كبير. كما زادت المحادثات التي تدور حول الديموقراطية والإصلاح، خاصة بين النساء، وإنني على يقين من أنهن سيقدن دفّة الحريات في الشرق الأوسط.

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، سافرت إلى أبو ظبي ودبي وهما إمارتان عربيتان تبنّتا التجارة الحرة والمجتمعات المفتوحة. وتفتخر المراكز الموجودة في وسط المدينة بناطحات السحاب المتلألئة والتي تعج بالمتعهّدين ورجال الأعمال المحترفين، من الرجال والنساء على حد سواء. في دبي، قمت بزيارة كثيرٍ من طلاب الجامعات الذين يدرسون في مجالاتٍ متنوعةٍ مثل الأعمال التجارية والعلوم والتاريخ.

وفي آخر ليلة من زيارتي، قام صديقي ولي عهد أبو ظبي المستقبلي الشيخ محمد بن زايد بدعوتي إلى تناول عشاء تقليدي في الصحراء. وأثناء حديثنا أخبرني بأنه سينضم إلينا بعض المسؤولين الحكوميين، وقد كنت أتوقّع رجالاً في منتصف العمر، إلا أنني كنت مخطئاً.

كانت حكومة ولي العهد تضم نساءً مسلماتٍ شاباتٍ يتّسمن بالذكاء. وتحدّث الجميع عن عزمهم على متابعة الإصلاح والتقدم وتعزيز علاقاتهم مع الولايات المتحدة.

كانت رمال أبو ظبي ممتدة على مدى البصر، من المنصة الافتتاحية التي وقفت عليها في كانون الثاني/يناير من عام ٢٠٠٥. ولكن أثناء وجودي في الصحراء في هذه الليلة، كان بازغاً أمامي مستقبل الشرق الأوسط منطقةً تحترم ثقافتها القديمة وتقدّرها وتحتضن العالم المفتوح بأذرع مفتوحة. سيستغرق الأمر عقوداً لهذه التغييرات التي بدأت في السنوات القليلة الماضية إلى أن تتحقق بالكامل، وستكون هناك عقبات مع سلوك هذا الدرب. لكنني على يقين من الغاية التي يُراد الوصول إليها: سينعم الأشخاص في الشرق الأوسط بالحرية، بينما ستنعم أميركا بالأمان نتيجة لذلك.

* * *

١٤

الأزمة المالية

«سيدي الرئيس، نحن نشهد حالةً من الذعر المالي». كانت تلك الكلمات المقلقة الصادرة عن بن برنانكي، رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي الدمث، الذي كان جالساً مقابل مكتبي في غرفة روزفلت. على مدى الأسبوعين الماضيين، وضعت الحكومة يدها على فاني ماي وفريدي ماك، وهما كيانان عملاقان للإسكان. وكان إفلاس ليمان براذر أكبر إفلاس في تاريخ أميركا. وقد تم بيع شركة ميريل لينش تحت الإكراه. ومُنح بنك الاحتياطي الفيدرالي قرضاً بقيمة ٨٥ مليار دولار لإنقاذ AIG. والآن واتشوفيا وواشنطن ميوتشوال كانا يترنّحان على حافة الانهيار.

مع الكثير من الاضطراب في المؤسسات المالية، تقلّصت أسواق الائتمان. لا يمكن للمستهلكين الحصول على قروض للمنازل أو للسيارات، والشركات الصغيرة لا تستطيع الاقتراض لتمويل عملياتها. وكان سوق الأوراق المالية انخفض أشد انخفاض له منذ اليوم الأول من التداول بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

أدركنا جميعنا، بينما كنا جالسين تحت الصورة الزيتية للرئيس تيدي روزفلت،

وهو جالس على ظهر الحصان، أن أميركا تواجه تحدياً اقتصادياً رهيباً كانت قد واجهته على مرّ عقود من الزمن.

توجّهت نحو زعيم فريقي المالي، أمين سر الخزينة هانك باولسون، وهو قائد بالفطرة يتمتع بعقودٍ طويلةٍ من الخبرة في التمويل العالمي.

قال هانك: الموقف خطير للغاية.. ثم قدم لي مع فريق العمل لديه، ملخّصاً سريعاً يتمثل بثلاثة إجراءات لاحتواء الأزمة. الإجراء الأول، أن تضمن الخزينة مبلغ ٣,٥ تريليون دولار في سوق أموال صناديق الاستثمار، التي كانت تواجه ضربات المودعين. الإجراء الثاني، أن يطلق الاحتياطي الفدرالي برنامجاً لكسر الجمود الذي يعتري سوق الأوراق التجارية، وهو المصدر الأساسي لتمويل المشاريع عبر البلاد. والإجراء الثالث، أن تصدر هيئة الأوراق المالية قانوناً مؤقتاً يمنع بيع الأسهم المالية على المكشوف. «إنها خطوات دراماتيكية، ولكن النظام المالي الأميركي على المحك»، قال هانك.

ليس هذا فحسب، بل قام هانك بوضع الخطوط العريضة لاقتراح أكثر جرأة؛ إذ قال: «نحن نحتاج إلى نفوذٍ واسع لشراء الأوراق المالية المدعومة من قبل الرهن العقاري». لقد فقدت تلك الأسهم المالية المعقّدة قيمتها عند انفجار فقاعة الإسكان، مزعزعةً استقرار الشركات المالية حول العالم. نصحنا هانك أن نطلب من الكونغرس مئات المليارات لشراء هذه الأصول المسمومة واسترجاع الثقة في النظام المصرفي.

سألت بدوري: «هل هذه الأزمة هي الأسوأ منذ الكساد الكبير؟»

أجاب بن: نعم؛ إذا تحدّثنا بلغة النظام المالي، لم نرَ شيئاً مماثلاً منذ الثلاثينيات من القرن الماضي، ويمكن أن يغدو الوضع أسوأ.

لقد وضّحت إجابته القرار الذي كنت أواجهه: هل كنتُ أريد أن أكون الرئيس المشرف على الكارثة الاقتصادية التي قد تكون أسوأ من الكساد الكبير؟

كنت في قمة غيظي من وصول الوضع إلى هذه المرحلة. وقد راهنت مجموعة

صغيرة نسبياً من الناس – كثيرون منهم من وول ستريت ـ على استمرار تفاقم سوق الإسكان إلى الأبد. ولكنها لم تفعل. في الظروف الطبيعية، قد تصدر السوق الحرة حكمها ومن الممكن أن يخسروا. وكنت سأسعد بذلك.

ولكن الظروف لم تكن طبيعية، فقد توقفت السوق عن أداء وظائفها، وكما شرح لنا بن فإن عواقب الركود سوف تكون وخيمة. بقدر ما كان الأمر يبدو جائراً، أن نستخدم أموال الشعب الأميركي لمنع الانهيار الذي لا يتحملون مسؤوليته، لكنه سيبدو أكثر جوراً في حال لم نفعل شيئاً وتركنا الشعب الأمريكي يتحمّل العواقب. وقلت: «هيا إلى العمل، سوف نحل هذه المسألة». مؤيداً بذلك خطة هانك.

قمت بتأجيل الاجتماع، ومشيتُ في الرواق إلى المكتب البيضاوي، وقد تبعني كل من جوش بولتن، والمستشار إيد جيلليبس، ودانا بيرينو عضوي مكتبي الصحفي المتميزين بالموهبة والفاعلية. ولا يزال صدى المقارنة التاريخية التي قدمها بن يصدح في ذهني.

قلت: «إذا كنّا بالفعل أمام كسادٍ كبيرٍ آخر، فمن المؤكد أنني سوف أكون روزفلت وليس هوفر».

* * *

قبل خمسة وعشرين عاماً بالضبط، في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٣، كنت أشرب القهوة في ميدلاند مع زميلٍ لي في كلية إدارة الأعمال في جامعة هارفارد، توم كانيب. وكنا قد سمعنا أحدهم يذكر أن طوابير من الناس تقف على أبواب المصرف الوطني الأول في ميدلاند. لقد كان المصرف الوطني الأول هو المصرف المستقل الأكبر في تكساس، وكان راسخاً في ميدلاند لمدة ثلاثة وتسعين عاماً.

سرت شائعات مؤخراً حول موقع المصرف المالي المتزعزع. أولاً قام المصرف الوطني بتوزيع الكثير من ديونه أثناء ارتفاع أسعار النفط. ثم في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، هبط سعر النفط الخام من أربعين دولاراً تقريباً للبرميل إلى أقل من

ثلاثين دولاراً. لقد تباطأت سرعة الحفر، وتعثّرت القروض، وقام المودعون بسحب أموالهم النقدية. كما قمت بنقل الحساب المصرفي لشركة التنقيب إلى مصرفٍ كبيرٍ في نيويورك. لم أكن عازماً على المراهنة على مقدرة المصرف الوطني الأول على الوفاء بديونه.

أسرعنا أنا وتوم إلى المصرف. واستطعنا أن نرى الناس، من الشرفة في الطابق الثاني، يصطفون في الردهة لكي يصلوا إلى نوافذ أمناء الصناديق. كان بعضهم يحمل أكياساً ورقية. وكان ضمن الجموع مربي أبقارٍ قديم ومعروف، فرانك كوودن. كان السيد كوودن محظوظاً، مثل بقية مربي الأبقار في غربي تكساس، فكانت أرضه تعوم على النفط. وكان من حاملي الأسهم الكبار في المصرف الوطني الأول، وكان يخبر الناس أن الحكومة الفدرالية قد ضمنت كل وديعة بمبالغ تصل إلى ١٠٠ ألف دولار. كان الناس يحدّقون إليه، لكنهم كانوا يريدون نقودهم فحسب.

حجزت مؤسسة ضمان الودائع الفدرالية FDIC، في الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٣، على المصرف الوطني الأول وقامت ببيعه إلى المصرف الجمهوري الأول في دالاس.لقد تمت حماية المودعين، ولكن تمت تصفية كل حاملي الأسهم، وذهبت مؤسسة ميدلاند مع الريح. تحدّث المحافظ ثين أتكينز بلسان الكثير من الناس حين قال: أشعر كأنني أعلّق إكليلاً أسود على عتبة بابي.

قرأت عن حالات الذعر المالي عامي ١٩٨٣ و١٩٢٩، أما الآن فقد شهدت مباشرة انفجار فقّاعة المضاربة. اعتمد المصرف الوطني الأول، مثل بقية المؤسسات المالية، على ثقة زبائنه، وحالما فُقِدت هذه الثقة لم تبقَ لديه فرصة للاستمرار.

* * *

بعد ستة عشر عاماً ترشحت للرئاسة. وعلى كل المقاييس تقريباً كان الاقتصاد مستمراً بالازدهار. ازداد الناتج المحلي الإجمالي الأميركي بأكثر من ٢,٥ تريليون دولار أميركي منذ الركود الذي كلّف والدي الانتخابات، ولكنه انتهى قبل أن يغادر

منصبه. ارتفع مؤشر ناسداك، الذي استمد قوته من أوراق الإنترنت المالية الجديدة، ارتفاعاً جنونياً من أقل من ٥٠٠ إلى أكثر من ٤٠٠٠ وقال بعض علماء الاقتصاد، إن عصر الإنترنت أعاد تعريف دورة الأعمال.

لم أكن واثقاً إلى هذه الدرجة، قد يكون علماء الاقتصاد مخطئين أحياناً على حد قولي في خطاب ألقيته مقدماً سياستي الاقتصادية في شهر كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩٩. يمكنني أن أتذكر المبالغ المستردة التي كان من المتوقع فقدانها، ولكنها لم تُفقد. وحالات الركود التي لم يكن من المفروض وقوعها، ولكنها وقعت. آمل باستمرار النمو، ولكنه غير مضمون. يجب أن يعمل الرئيس لأجل الحالة الأفضل، وأن يتحضّر للأسوأ.

كان محور خطتي هو خفض الضرائب، وكنت أعتقد أن الحكومة تأخذ الكثير من أموال الشعب. بحلول نهاية العام ١٩٩٩، شكلت الضرائب نسبة أعلى من الناتج الإجمالي المحلي GDP مما وصلت إليه في أي مرحلة منذ الحرب العالمية الثانية. وكان من المفترض أن الحكومة تدير فائضاً كبيراً. كنت أعلم إلى أين يمكن أن تذهب تلك الأموال، وسوف تجد الحكومة طريقةً ما لإنفاقها. في النهاية، وافق كلٌّ من الكونغرس والرئيس كلينتون على زيادة الإنفاق التقديري غير الدفاعي منفقين أكثر من ١٦ في المئة في السنة المالية ٢٠٠١.

كان لدي سبب آخر لدعم خفض الضرائب، حيث كنت قلقاً من إمكانية مواجهتنا فقّاعة أخرى، وهذه المرة في قطاع التكنولوجيا. اعتقد كبير المستشارين الاقتصاديين لدي لاري لندسي أن البلاد متجهة نحو ركودٍ جديد. وفي حال كان كلامه صحيحاً، سوف يكون تأثير خفض الضرائب محفّزاً حيوياً.

من المؤكد أن الركود بدأ رسمياً في شهر آذار/مارس عام ٢٠٠١. اعتبرت صحيفة نيويورك تايمز أن هذا الانكماش هو تطور إيجابي بالنسبة لي. وكان عنوان إحدى المقالات «بالنسبة للرئيس، أفضل وقتٍ للركود». ولكن بالتأكيد لم أكن أشعر على

هذا النحو، ولم يسعني إلا ملاحظة السخرية الغريبة للتاريخ. ففي عام ١٩٩٣، ترك والدي اقتصاداً أفضل بكثيرٍ مما كان يتوقّعه الشعب. أما الآن فقد ورثت اقتصاداً أسوأ بكثير.

ومع اقتصادٍ مُثْقَلٍ كهذا، بدأت مسألة خفض الضرائب تأخذ طابعاً ملحاً جديداً. كنت أضغط على الكونغرس لكي يتحرك بسرعة. فقمت في شهر حزيران/يونيو عام ٢٠٠١ بتوقيع خفض للضرائب بقيمة ١,٣٥ تريليون دولار، وهو الخفض الأكبر منذ الخفض الذي وقّعه الرئيس رونالد ريغان خلال فترته الرئاسية الأولى. قلّص مشروع القانون معدلات الضريبة الهامشية لدخل كل دافع ضرائب، شاملاً ملايين المالكين للمشاريع الصغيرة[1]؛ وضاعف الائتمان الضريبي للأطفال من قيمة ٥٠٠ دولار إلى ١٠٠٠ دولار؛ وقلّص غرامة الزواج، وألغى الشريحة الأدنى للضرائب الذي أدى بدوره إلى إزالة خمسة ملايين عائلة من ذوي الدخل المحدود من قوائم الضرائب. كما ألغى مشروع القانون تدريجياً رسم الوفاة، وقد كان عبئاً غير منصف لمالكي المشاريع الصغيرة، والمزارعين، ومربي الأبقار. تخيّلتُ الأميركيين الذين دفعوا ما يكفي من الضرائب خلال حياتهم؛ ويجب ألا تفرض عليهم ضرائب بعد مماتهم.

كنت متفائلاً من أن المستهلكين والمشاريع الصغيرة سوف تنفق الإعفاء الضريبي للمساعدة في دفع الاقتصاد خارج حالة الركود. ولكننا كنا أمام ضربةٍ اقتصاديةٍ هائلةٍ لم يتوقّعها أحد.

* * *

سوف يتم قياس حصيلة أحداث ٩/١١ بإزهاق أرواح ٢٩٧٣ شخصاً، وتدمير حياة كثيرٍ من الآخرين، ولكن الكلفة الاقتصادية كانت كارثية أيضاً. لقد تم إيقاف عمل سوق الأوراق المالية في نيويورك لمدة أربعة أيام، وهي أطول فترة تعليق

(١) كان الكثيرون من مالكي المشاريع الصغيرة أصحاب ملكيات فردية، أو شراكات محدودة،أو شركات فصول فرعية، وهذا يعني أنهم يدفعون ضرائب أعمالهم عند معدلات ضريبة الدخل الفردي.

للتجارة منذ الكساد الكبير. وعند إعادة فتح الأسواق المالية، انخفض مؤشر داو جونز ٦٨٤ نقطة، وهو الهبوط الأكبر في يوم واحدٍ في التاريخ حتى ذلك اليوم.

ارتدّ تأثير الهجمات على كل مناحي الاقتصاد، وانخفضت السياحة، واتّجه كثير من شركات الطيران نحو الإفلاس، وأكثر المطاعم كانت شبه خاوية. أبلغت بعض الفنادق بانخفاض العمل لديها بنسبة تصل إلى تسعين في المئة، وسرّح المصنّعون وأصحاب المشاريع الصغيرة العمال بسبب إلغاء الطلبات من قِبَل المشترين الخائفين. وبحلول نهاية العام فَقَدَ أكثر من مليون مواطن أميركي عمله. وكما تنبّأ أحد علماء الاقتصاد يبدو أن الولايات المتحدة والعالم بأجمعه سوف يشهدان ركوداً كاملاً الآن.

كان هذا هدف الإرهابيين بالضبط، كما تفاخر أسامة بن لادن فيما بعد بقوله «أنفق تنظيم القاعدة مبلغ ٥٠٠ ألف دولار على هذا الحدث، بينما فقدت أميركا ما يقارب من ٥٠٠ مليار دولار على أقل تقدير». وقد لخّص ما يُسمّى استراتيجية النزيف حتى الإفلاس: «وأضاف من المهم جداً التركيز على ضرب الاقتصاد الأميركي عبر كل الوسائل الممكنة».

رأيت أن مسؤوليتي هي تحدي القاعدة بتشجيع الأميركيين على استمرار تحرك الاقتصاد. في أواخر أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، طرت إلى مطار أوهير في شيكاغو لتعزيز انتعاش صناعة الطيران. مشيت على السلالم أمام طائرات البوينغ ٧٣٧ التابعة للخطوط الجوية الأميركية والمتحدة مع وجود ستة آلاف عامل ضمن الجمهور. قلت حينها: «إن أحد أهم أهداف حرب هذه الأمة، هو استعادة الثقة العامة في صناعة الطيران. هيا بنا نقول إلى جمهور الطيران: استقلوا الطائرة واقضوا أعمالكم في كل أنحاء البلاد».

فيما بعد، تعرّضتُ للنقد والسخرية، لإخباري الأميركيين بأن يذهبوا للتسوّق بعد أحداث ٩/١١، على الرغم من أنني لم أستخدم فعلياً تلك العبارة ولكن هذا خارج

عن موضوعنا. فخلال الأشهر التالية المليئة بالتهديد، بعد أحداث ٩/١١، كان السفر بالطائرات، وزيارة المعالم السياحية، والذهاب إلى الأسواق التجارية نشاطاتٍ تدل على التحدي والوطنية. لقد ساعدت تلك النشاطات الأعمال على النهوض وعلى تثبيت العمال المجدّين في وظائفهم.

فوجئتُ ببعض النقاد الذين رأوا أنه كان يجب علي أن أطلب المزيد من التضحيات بعد أحداث ٩/١١. أعتقد أنه من السهل على البعض النسيان، ولكن الناس كانوا يقدمون تضحيات. تزايدت الأرقام القياسية للمتطوعين لمساعدة جيرانهم، وبدأ المواطنون الأصغر سناً العمل، وتبرع التلاميذ في جميع أنحاء البلاد بمبلغ ١٠ ملايين دولار ـ غالباً دولار واحد في وقتٍ واحد ـ لصندوق قمنا بإنشائه لمساعدة أطفال أفغانستان. قمت بإطلاق مبادرةٍ وطنيةٍ جديدةٍ للخدمة، في أثناء تصريحي عام ٢٠٠٢ الموجّه للاتحاد، وهي فيالق الحرية الأميركية، وقمتُ بدعوة كل الأميركيين لتكريس أربعة آلاف ساعة لخدمة الآخرين على مدى الحياة.

كان المتطوعون الأكثر شجاعةً هم هؤلاء الذين انضموا أو أعادوا إدراج أنفسهم في الجيش، في مكتب التحقيقات الفدرالي FBI، أو وكالة الاستخبارات المركزية CIA، وتبنى مئات الآلاف من المواطنين هذا الخيار النبيل على مدى سنوات بعد أحداث ٩/١١. خدم كثيرون منهم في جولات عمل متعددة بعيداً عن عائلاتهم، وضحى الآلاف من خيرة مواطنينا بأرواحهم. لذلك من الخطأ والمهين جداً افتراض أن هذه البلاد لم تقدم تضحيات كافية بعد أحداث ٩/١١.

لقد عارضتُ بشدةٍ خطوة خفض مشروع التجنيد، ولا أدري ماذا كان بإمكاني أن أفعل أيضاً للتشجيع على التضحية. كان هذا نوعاً مختلفاً من الحروب، ولم نكن نحتاج إلى حدائق للنصر كما كان الوضع أثناء الحرب العالمية الثانية، بل كنا بحاجةٍ إلى شعب ينكر للعدو وجود الذعر الذي كان هذا العدو يسعى إلى خلقه.

اعتقدت دوماً أن النقاد الذين زعموا بأنني لم أكن أطلب التضحية من الشعب، كانوا في الحقيقة يشتكون من عدم زيادة الضرائب. كتب أحد الصحفيين في عمود في صحيفة واشنطن بوست «الضرائب أكثر من مجرد أداةٍ لرفع الإيرادات، بل هي حالة من الإجماع على هدف وطني». وكما أنني أرفض الافتراض الأساسي بأن الضرائب الأعلى كانت ستقود إلى غاية وطنية أقوى، كذلك فإنني مقتنع تماماً أن رفع الضرائب بعد الخراب الناتج عن أحداث ٩/١١. كان سيدمر اقتصادنا ويكون له تأثير معاكس.

* * *

غيّر تاريخ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ الحياة الأميركية، وقلب الميزانية الفدرالية. كان الفائض المتوقع في أوائل عام ٢٠٠١ مبنياً على تنبؤاتٍ متصاعدةٍ لنمو اقتصادي قوي. وقد خفّض انفجار فقاعة التقنية والركود اللاحق تلك التوقعات بشكلٍ كبير. وخفّضها الدمار الاقتصادي الذي سببته الهجمات الإرهابية أكثر بكثير. بعد ذلك واجهنا التكلفة الأساسية لتأمين البلاد ومقاومة الحرب على الإرهاب. سلّم ميتش دانيلز، الصقر المالي من إنديانا، الذي قاد باقتدار مكتب الإدارة والميزانية، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ التقرير النهائي: لقد تلاشى ما يُسمّى الفائض خلال عشرة أشهر.

استمعت لسنواتٍ طويلة إلى سياسيين من كلا جانبي الزعم القائل إنني أهدرت الفائض الهائل الذي ورثته، ولم يكن هذا منطقياً أبداً. كان معظم هذا الفائض وهماً مبنياً على الافتراض الخاطئ أن الازدهار الذي بدأ في التسعينيات سوف يستمر. ولم يتبقَّ إلا القليل من هذا الفائض بعد حالة الركود وهجمات ٩/١١.

مع نهاية عام ٢٠٠٢، انتهى الركود تقنياً ولكن الاقتصاد بقي خاملاً. دعوتُ الكونغرس، في بداية شهر كانون الثاني/يناير عام ٢٠٠٣، إلى تسريع خفض الضرائب

منذ عام ٢٠٠١، التي لم تؤثر كثيراً، ومن أجل تمرير خفضٍ إضافي للضرائب، سوف يؤدي بدوره إلى مزيدٍ من الاستثمار ومزيدٍ من فرص العمل.

مع تمرير قرار خفض الضرائب وموافقة الأغلبية من كلا الحزبين – كما حدث مع خفض الضرائب البسيط عام ٢٠٠٢ المركّز على المشاريع الصغيرة – واجه هذا القرار عام ٢٠٠٣ معارضةً جدية. استنكرت البقية هذه الخطة بكونها «خفض ضرائب للأغنياء»، وكان ذلك الاتهام زائفاً. زاد خفض الضرائب التي أقرها بوش، عند تنفيذها بالشكل الكامل، فعلياً عبء ضريبة الدخل التي وقعت على عاتق الأميركيين الأغنياء[1].

وعارض نقاد آخرون خفض الضرائب لأنها قد ترفع العجز. صحيح أن خفض الضرائب سوف يرفع العجز على المدى القصير، ولكنني كنت أعتقد أن خفض الضرائب على المدى الطويل سوف يحفّز النمو الاقتصادي، وبخاصةٍ تلك الضرائب المطبّقة على الأرباح وأرباح رأس المال. سوف تساعد عائدات الضرائب من ذلك النمو، جنباً إلى جنب مع ضبط الإنفاق، على خفض العجز.

قدم مشروع قانون تخفيف الضرائب عن طريق مجلس النواب بأغلبية أصوات من ٢٣١ إلى ٢٠٠، ووصل الرصيد في مجلس الشيوخ إلى طريقٍ مسدودٍ عند ٥٠. اتجه ديك تشيني إلى كابيتول هيل لكسر التعادل في دوره الدستوري كرئيسٍ لمجلس الشيوخ. ولحسن الحظ، صوّت بنعم، ومازحني قائلاً إنه لم يحظَ بالكثير من الأصوات في منصب نائب الرئيس، ولكن عندما كان يدلي بصوته كان يقف دوماً إلى الجانب المنتصر.

لقد وقّعت على التخفيضات الضريبية في القانون في أواخر شهر أيار/مايو عام

(١) اتجهت نخبة دافعي الضرائب التي تشكل ١% من دفع نسبة ٣٨,٤ في المئة من إجمالي الضرائب إلى النسبة ٣٩,١ في المئة، بينما انخفضت حصة ضرائب ٥٠ في المئة من هم في أسفل القائمة من النسبة ٣,٤ في المئة إلى النسبة ٣,١ في المئة.

٢٠٠٣. وبحلول شهر أيلول/سبتمبر، بدأ الاقتصاد إضافة فرص العمل مرة أخرى، ولم يتوقف على مدى ٤٦ شهراً متتالياً. انخفضت نسبة البطالة، بعد أن وصلت إلى أعلى ذروة لها بنسبة ٦,٣ في شهر حزيران/يونيو، إلى نسبة ٥ بالمائة للأشهر الستة التالية وقد بلغ معدلها بنسبة ٥,٣ خلال فترة رئاستي، وقيمة هذا المعدل أقل من مثيله خلال السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي. ويقول بعضهم إن توقيت الانتعاش مباشرةً بعد تطبيق التخفيضات الضريبية هو مجرد مصادفة، إلا أنني لا أظن ذلك.

* * *

كنت مدركاً، وسط هذا النمو الاقتصادي، أن البلاد تعاني من العجز، لذلك أخذت على عاتقي مسؤولية جدية بأن أكون موظفاً مالياً جيداً، كما نهج هذا النهج مديرو الميزانية الأربعة لدي: ميتش دانيلز، جوش بولتن، روب بورتمان، وجيم ناسل. ولمّا كانت فترتي الرئاسية تشهد حرباً، فقد أخبرتهم عن أهم أولوياتي: حماية الوطن ودعم قواتنا، سواء كانوا في الجبهة أو محاربين قدماء.

قمنا خارج تلك المجالات، بتقديم ميزانيات بطّأت نمو الإنفاق التقديري خلال فترتي الرئاسية. وحافظت هذه الميزانيات، خلال السنوات الخمس الماضية، على نمو الإنفاق تحت نسبة التضخم المالي. وإذا تحدثنا بلغة المصطلحات الحقيقية، نسمي هذا خفضاً.

عملت جنباً إلى جنب مع الكونغرس لتحقيق أهدافي في ما يخص الإنفاق، أو ما كنتُ أسميه: الحجم الكلي للكعكة، لأنني لم أكن على اتفاقٍ دائم مع الكونغرس حول كيفية تقسيم قطع الكعكة. كنت أعارض الإسراف في التخصّصات التي تدخل ضمن مشاريع قوانين الإنفاق، ولكنني لم أكن أتمتّع بحق النقد الدائم بحيث أتمكن من استئصال برميلٍ من لحم الخنزير من مشاريع الإنفاق. كان خياري محدوداً بقبول مشاريع قوانين الإنفاق أو رفضها بالكامل. ولما كان الكونغرس يلبي محصلتي

النهائية سنةً تلو أخرى، شعرت أنه عليّ التمسك بموقفي من الصفقة والتوقيع على مشاريع القوانين.

كانت النتائج موضوعاً لمناقشة ساخنة، حيث اشتكى بعض اليساريين من أن التخفيضات الضريبية زادت العجز، بينما جادل بعض اليمينيين في أنه لم يكن عليّ توقيع الإعانة الطبية الخاصة بالوصفات الطبية المكلفة. من العدل مناقشة مثل هذه الخيارات في السياسة، ولكن إليك الحقائق التالية: ساعد هذا الاندماج للميزانيات الصارمة والعائدات الضريبية الآخذة بالارتفاع نتيجة النمو الاقتصادي على خفض العجز من نسبة ٣,٥ في المئة للناتج الإجمالي المحلي في عام ٢٠٠٤، إلى النسبة ٢,٦ في المئة عام ٢٠٠٥، والنسبة ١,٩ في المئة عام ٢٠٠٦، وأخيراً النسبة ١,٢ في المئة عام ٢٠٠٧.

بلغ متوسط العجز إلى الناتج الإجمالي المحلي، خلال فترتي الرئاسية، النسبة ٢ في المئة وهي دون متوسط العجز خلال الخمسين سنة الفائتة والتي بلغت نسبتها ٣ في المئة. لقد بلغت نسب الإنفاق إلى الناتج الإجمالي المحلي، والضرائب إلى الناتج الإجمالي المحلي، العجز إلى الناتج الإجمالي المحل، والدين إلى الناتج الإجمالي المحلي، قيماً أدنى من المتوسط خلال العقود الثلاثة الماضية، وفي معظم الحالات أدنى من المتوسط خلال فترات رئاسة الرؤساء السابقين. وعلى الرغم من تكلفة الركودين الاقتصاديين، ومن الكارثة الطبيعية الأكثر تكلفة في التاريخ، ومن الحرب على جبهتين، فلا يزال سجلنا المالي قوياً.

جدول مقارنة الميزانية[1]

الفترة الرئاسية	نسبة الإنفاق إلى الناتج الإجمالي المحلي	نسبة الضرائب إلى الناتج الإجمالي المحلي	نسبة العجز إلى الناتج الإجمالي المحلي	نسبة الدين إلى الناتج الإجمالي المحلي
ريغان (٨١-٨٨)	٪ ٢٢,٤	٪ ١٨,٢	٪ ٤,٢	٪٣٤,٩
بوش ٤١ (٨٩-٩٢)	٪ ٢١,٩	٪ ١٧,٩	٪ ٤,٠	٪٤٤,٠
كلينتون (٩٣-٠٠)	٪١٩,٨	٪ ١٩,٠	٪ ٠,٨	٪٤٤,٩
بوش ٤٣ (٠١-٠٨)	٪ ١٩,٦	٪١٧,٦	٪ ٢,٠	٪٣٦,٠

وفي الوقت نفسه، أدركت أنني خلّفت ورائي مشكلةً ماليةً جديةً على المدى الطويل: النمو غير المستدام في استحقاق الإنفاق الذي يمثل الأغلبية العظمى من الدين الفدرالي المستقبلي. لقد حاولت جاهداً إصلاح صيغ التمويل المتعلقة بالأمن الاجتماعي والرعاية الطبية، إلا أن أعضاء الحزب الديمقراطي عارضوا جهودي، وكان دعم ما أسعى إليه يتّسم بالفتور.

---

(١) نسبة الدين إلى الناتج الإجمالي المحلي GDP: هو المتوسط المحسوب في نهاية كل سنة تقويمية. يتم حساب متوسط ضرائب الإنفاق والعجز للسنوات المالية التي تنتهي في الثلاثين من أيلول/سبتمبر. وبالتالي يستبعد متوسط أربع أو ثماني سنوات مالية تأثيرات أي سياسات تم تقديمها خلال آخر ثلاثة أشهر وعشرين يوماً من الفترة الرئاسية. إذا تم تضمين أرقام السنة الكاملة ضمن قيم المتوسط أثناء رئاستي، سوف تكون هذه القيم: الإنفاق = ٢٠,٢ في المئة؛ الضرائب = ١٧,٥ في المئة؛ العجز = ٢,٧ في المئة. وسوف يؤدي هذا إلى اتحاد الإنفاق من أجل برنامج إنقاذ الأصول المضطربة (TARP) والقروض الأوتوماتيكية الأولية كما قام مكتب الميزانية في الكونغرس بالتخطيط له في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٩. هذه الأرقام تبالغ في قيمة الإنفاق الإضافي، بما أنه سوف يتم إعادة دفع الأغلبية العظمى من تمويل برنامج إغاثة الأصول المالية المتعثر.

تمثّل جزء من المشكلة في أن الأزمة المالية كانت تتخذ طريقها إلى الفرع التشريعي بينما كنت لا أزال الرئيس. قدّر مكتب الميزانية في الكونغرس، في أوائل عام ٢٠٠٨، أن الدين لن يتجاوز ٦٠ في المئة من قيمة الناتج الإجمالي المحلي بحلول عام ٢٠٢٣. ولكن بسبب استمرار الأزمة المالية، وخيارات الإنفاق التي تم اتخاذها بعد انتهاء فترتي الرئاسية، سوف يتجاوز الدين ذلك الحد بنهاية عام ٢٠١٠. هذه الأزمة المالية التي رآها كثيرون بعيدةً عنا، أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

* * *

«وول ستريت أصابها السكري، ونحن أصابنا الدوار من بعدها».

كانت تلك طريقة مبسّطة باعتراف الجميع لوصف أصول الأزمة المالية الأكبر منذ الكساد الكبير. حيث تعود تواريخ الشرح الأكثر تفصيلاً إلى فترة الازدهار في التسعينيات. بينما كان الاقتصاد الأمريكي ينمو بمعدل ٣,٨٪ سنوياً، بلغت معدلات الدول النامية مثل الصين والهند وكوريا الجنوبية الضعف تقريباً، حيث خزّن كثير من نظم الاقتصاد تلك احتياطياً نقدياً كبيراً. كما قامت الدول المصدّرة للنفط بمثل هذا التخزين الاحتياطي النقدي الكبير مستفيدةً من ارتفاع أسعار النفط عشر مرات في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٨. أطلق بن برنارك على هذه الظاهرة اسم «تخمة الادّخار العالمي»، بينما اعتبرها آخرون بركة أموالٍ ضخمة.

تدفّق قسم كبير من رأس المال الأجنبي هذا عائداً إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث تتمتع أميركا بسمعةٍ طيبةٍ من حيث الاستثمار، فضلاً عن أسواق رأس المال القوية لدينا، والنظام القضائي الموثوق به، والقوى العاملة المنتجة. وابتاع المستثمرون الأجانب أعداداً كبيرة من سندات الخزينة الأميركية، مما أدى إلى تقليص إنتاجهم. ومن الطبيعي أن يبدأ المستثمرون البحث عن عائدات أعلى، وكان أحد المجالات هو سوق الإسكان الأميركي المزدهرة.

تضاعف متوسط سعر المنزل الأميركي تقريباً بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٧. وكان عمال البناء يبنون المنازل بوتيرةٍ سريعة، وانخفضت معدلات الفائدة وكان الحصول على الائتمان سهلاً. كان المقرضون يمنحون الرهن العقاري لأي شخصٍ تقريباً، بمن فيهم المقترضون الذين جعلت نقاط ائتمانهم المنخفضة المخاطرة أكبر.

رصدت وول ستريت هذه الفرصة، وقامت مصارف الاستثمار بشراء أعدادٍ كبيرةٍ من الرهون من المقرضين، وقامت بتقطيعها وأعادت ترتيبها، ثم حوّلتها إلى أوراقٍ ماليةٍ معقّدة. وقد باركت وكالات التصنيف الائتماني، التي تلقت رسوماً مربحةً من المصارف الائتمانية، الكثير من هذه الأصول بتقييمات مرتفعة. باعت الشركات المالية أعداداً ضخمة من مقايضات الائتمان الافتراضية، مراهنةً على تخلّف الرهون العقارية التي تقوم عليها الأوراق المالية عن الدفع. وظهرت نتائج التجارة تحت أسماء فاخرة مثل التزامات الديون المضمونة والمنتجات الجديدة القائمة على الرهون العقارية، متمثلةً بالعائدات التي كان يرجوها المستثمرون. وقد باعتهم وول ستريت كثيراً منها.

قامت الشركتان فاني ماي وفريدي ماك من القطاع الخاص، صاحبتا تعهدات الكونغرس والتنظيمات المتراخية، بتغذية السوق بالأوراق المالية المدعومة من قبل الرهون العقارية. ابتاعت الشركتان اللتان تدعمهما الحكومة نصف الرهون العقارية في الولايات المتحدة، وقامتا بتأمين الكثير من القروض، ثم باعتاها في جميع أرجاء العالم. وقد قام المستثمرون بشرائها بنهمٍ لاعتقادهم أن أوراق الشركتين فاني وفريدي تحمل ضمانة الحكومة الأمريكية.

لم يكن المستثمرون الأجانب الوحيدين المنجذبين إلى العائدات المرتفعة، حيث قامت المصارف الأميركية باقتراض مبالغ ماليةٍ ضخمةٍ مقابل رأسمالهم، وتسمّى هذه العملية بتطبيق النفوذ، وحمّلت أيضاً الأوراق المالية المدعومة من قِبَل الرهن العقاري. كان معظم المستثمرين المتصفين بالهجومية هم عبارة عن شركات خدماتٍ ماليةٍ جديدةٍ ضخمة. وقد استفاد الكثير منهم، عام ١٩٩٩، من إبطال قانون

غلاس ستيغال المُقَرّ عام ١٩٣٢، والذي كان يمنع المصارف التجارية من التورّط في مشاريع الاستثمار.

وصلت الملكية العقارية في قمة ازدهار قطاع الإسكان، إلى ارتفاع يقارب ٧٠ في المئة، وقمتُ بدعم سياسات توسيع الملكية العقارية، بما في ذلك مساعدات الدفعة الأولى لذوي الدخل المحدود والمشترين للمرة الأولى. لقد سررت بمشاهدة نمو مجتمع الملاكين، ولكن فرحة اللحظة كانت قد أخفت الخطر المحدِق. وقد خلقت بعض العوامل مجتمعةً وهي الرهن النقدي العالمي المشترك، والسياسة النقدية السهلة، وسوق الإسكان المزدهرة، والشهية النهمة للأصول المدعومة من قبل الرهون العقارية، وتعقيد الهندسة المالية لوول ستريت، ونفوذ المؤسسات المالية، بيتاً من ورق.

وفي حال سحب بطاقة النمو المطّرد لأسعار المنازل، كان انهيار هذه البنية الهشّة. لقد كان هذا واضحاً بأثرٍ رجعي، ولكن أقليةً فقط استطاعت رؤية ذلك في حينه، بمن فيهم أنا.

* * *

دخل جوش بولتن في شهر أيار/مايو عام ٢٠٠٦، إلى غرفة المعاهدة برفقة ضيفٍ كان يحاول ضمه إلى الإدارة، وكان هذا الضيف هو هنري باولسون الرئيس التنفيذي لغولدمان ساكس، ولقد أملت أن أقنع هانك بخلافة جون سنوو وزير الخزينة. كان جون مدافعاً جيداً عن أجندتي الاقتصادية ابتداءً من الاقتطاعات الضريبية، إلى إصلاحات الضمان الاجتماعي ثم إلى التجارة الحرة. لقد أبلى بلاءً حسناً في إدارة هذا القسم وتركه بأفضل حال مما كان عليه حين تسلّمه. كان قد شغل المنصب لأكثر من ثلاث سنوات، وشعرنا، جون وأنا، أن الوقت قد حان لوجهٍ جديد.

أخبرني جوش أن هانك يتمتع بالإبداع والذكاء، وهو مفعم بالطاقة ويتمتع بصدقيةٍ في الأسواق المالية. لكن هانك لم يكن متحمّساً لفكرة الانضمام إلى

طاقمي، فقد كانت لديه وظيفة مميزة في وول ستريت، وكان يشك في قدرته على تحقيق شيء في السنوات الأخيرة لإدارتي. كان يتمتع بسمعةٍ حسنةٍ ولم يكن يرغب بتمريغ اسمه في وحل السياسة. وكان شخصاً متعطشاً للحفاظ على البيئة، ويحب صيد سمك الطربون ومشاهدة الطيور مع زوجته ويندي، وكان متخوفاً ألاّ يتمكّن من متابعة هذه النشاطات. لقد كان هانك جمهورياً مدى الحياة، وكان هذا الحزب الوحيد في عائلته، وكانت ويندي صديقة هيلاري كلينتون من أيام الجامعة وداعمةً لها، وقد خاب أمل ولديهما في الحزب الجمهوري. وعلمت لاحقاً أن والدة هانك ذرفت الدموع حين علمت أن ولدها انضمّ إلى طاقمي.

استطاع جوش أخيراً بثباته وإصراره إقناع هانك بزيارتي في البيت الأبيض. كان هانك يشع طاقةً وثقةً، وكانت يداه تتحركان وكأنه قائد أوركسترا، كما كان له أسلوب مميز في الحديث يصعب متابعته. وقال بعضهم إن دماغه يتحرك بسرعةٍ فلا يستطيع فمه موازاته، ولم يكن ذلك ليزعجني حيث اتهمني بعضهم بالمشكلة نفسها.

فهم هانك عولمة النقد، وحظي اسمه بالاحترام في الداخل والخارج، وقد قبل عرضي عندما أكدت له أنه سيكون مستشاري الاقتصادي الأول وسيتمتع بصلاحياتٍ غير محدودة. كنت شاكراً لعائلة ويندي وهانك لدعمه. في ذلك الوقت، لم يدرك أحد منّا أن تجاربه في منصب وزير الخزانة سوف تجاري تجارب هنري مورغنثاو في عهد فرانكلين روزفلت أو ألكسندر هاملتون أثناء تأسيس البلاد.

عندما تسلّمت منصبي الرئاسي، كنت الرئيس الرابع الذي يعمل مع رئيس الاحتياطي الفدرالي ألان غرينسبان. يحدد النظام الاحتياطي الفدرالي، الذي تم إنشاؤه عام ١٩١٣ تحت رئاسة وودرو ويلسون، سياسة أميركا النقدية وينسق مع المصارف المركزية الأخرى حول العالم. وكان للقرارات الصادرة عن النظام الاحتياطي الفدرالي تأثيرات واسعة النطاق، ابتداءً من قوة الدولار وصولاً إلى نسبة الفائدة للقرض المحلي. يحدد النظام الاحتياطي الفدرالي السياسة النقدية بصورة مستقلة عن البيت الأبيض والكونغرس، مادام رئيس الولايات المتحدة الأميركية

هو الذي يقوم بتعيين رئيس النظام ومجلس المحافظين، ويتم التأكيد عليه من قِبَل مجلس الشيوخ. وعلى هذا النحو يجب أن يتم الأمر، حيث يمثل النظام الاحتياطي الفدرالي المستقل علامةً حاسمةً للاستقرار في الأسواق المالية وللمستثمرين في جميع أنحاء العالم.

قمت بدعوة غرينسبان إلى البيت الأبيض على مائدة الغداء الدورية، وقد هممت أنا وديك تشيني وأندي كارد بتناول وجبتنا إلا أن ألان لم يبدأ بتناول طعامه، لأنه قضى كل الوقت في الإجابة عن أسئلتنا، حيث كان يتمتع بكمّ مذهلٍ من المعلومات. كنت أسأله عن رؤيته حول اتجاه الاقتصاد في البلاد خلال الأشهر القادمة، فكان يقتبس من مخزونات النفط، التغيرات في أميال الشحن في صناعة السكك الحديدية، وإحصائياتٍ أخرى مثيرة للاهتمام. وبعد أن انتهى من الخشخشة بالأرقام، ضرب يده اليسرى بقبضة يده اليمنى، كما لو أنه يحاول إضافة مزيدٍ من المعلومات. عندما حان الوقت لتجديد منصبه، عام ٢٠٠٤، لم أفكر قط في تعيين أي شخصٍ آخر.

عندما أبلغنا ألان أنه سوف يتقاعد في بداية عام ٢٠٠٦، بدأنا البحث عن خلفٍ له. وظل اسم بن برنانك يتكرّر أمامنا. خدم بن ثلاث سنوات ضمن مجلس النظام الاحتياطي الفدرالي، وانضمّ إلى طاقمي بصفته رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين في شهر حزيران/يونيو عام ٢٠٠٥. وكان بن يحظى باحترام العاملين واحترامي. نشأ بن في بلدةٍ صغيرةٍ في ولاية كارولينا الجنوبية، وكان يتصف بالتواضع وبالحديث البسيط، وكان مولعاً بلعبة البيسبول مثلي. وعلى عكسي، كان فريقه ريد سوكس بوستن. كان يتمتع بالقدرة على تقطير المواضيع المعقّدة إلى كلماتٍ مفهومة. وعلى عكس بعض من هم في واشنطن، لم يكن الأستاذ مدمناً على صدى صوته الخاص.

كنت أحب أن أخِزُ بن بين الحين والآخر بقولي أنت عالم اقتصاد، لذلك كل جملة لديك تبدأ بـ«من جهة..... ومن جهة أخرى»، حمداً لله أن ليس هناك جهة

ثالثة. في أحد الأيام أثناء اجتماعنا في المكتب البيضاوي، وجّهت ملاحظة إلى بن لارتدائه جوارب مدبوغةً مع بذلةٍ داكنة. وعند اجتماعنا التالي، ارتدي كل الفريق الاقتصادي جوارب مدبوغةً تضامناً معه. «انظر إليهم ماذا فعلوا»، قلت لديك تشيني، فرفع نائبي ثنية بنطاله ببطء، فقلت: «كلا، وأنت أيضاً!».

الأمر الذي دافع عن بن هو حسه التاريخي، فقد كان خبيراً أكاديمياً معروفاً في مسألة الكساد الكبير. اختبأ تحت سلوكه اللطيف إصرار قوي على اجتناب أخطاء الثلاثينيات من القرن الماضي. آمل ألا تواجه أميركا سيناريو آخر مثل ذلك، ولكن في حال وقع هذا فإنني أريد بن على رأس الاحتياطي الفدرالي.

بصفته رئيس النظام الاحتياطي الفدرالي، طوّر بن علاقة قريبة مع الأفراد الآخرين في طاقمي الاقتصادي، وبخاصةٍ مع هانك باولسون. كان كلٌّ من بن و هانك يشبهان شخصيات فيلم «الزوجان الغريبان». كان هانك منفعلاً، وكان بن هادئاً. كان هانك قائداً اقتصادياً حازماً، وكان بن محللاً محنكاً قضى معظم حياته في الجامعات. كان هانك متحدثاً بالفطرة، وكان بن يجيد الإصغاء.

كان يمكن لشخصيتيهما المتناقضتين أن تخلق توتّراً، لكن هانك وبن شكّلا ثنائياً رائعاً. في خضم هذه الأزمة، كان تعيين مسؤول مصرفي على مستوى عالمي، مع خبير بالكساد الكبير، وهو من أهم المناصب الاقتصادية في الأمة، من أهم القرارات التي اتخذتها في فترة رئاستي.

* * *

تابعت عملي الرئاسي خلال السنة الأخيرة في المكتب كالسنة التي بدأت فيها، مهتماً بالفقّاعة المتفجرة، ودافعاً باتجاه الإعفاءات الضريبية.

هبطت أسعار المنازل في أواسط عام ٢٠٠٧ للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً، وتزايدت أعداد المتخلّفين من أصحاب المنازل عن سداد أقساط رهونهم العقارية، ودوّنت الشركات المالية مليارات الدولارات كأصولٍ مرتبطةٍ برهون عقارية. ذكر

رئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين إدي لايزر ، وهو أستاذ محترم وذكي، خريج جامعة ستانفورد، أن الاقتصاد كان في حالة تباطؤ، واعتقد هو والفريق الاقتصادي أن بإمكاننا التخفيف من أثر هذا التراجع من خلال إعفاءات ضريبية تقر في الوقت المناسب.

أرسلت هانك باولسون في شهر كانون الثاني/يناير من عام ٢٠٠٨ لمناقشة مشروع قانون، مع الناطقة باسم البيت الأبيض نانسي بيلوسي، وزعيم الأقليات في البيت الأبيض جون بونير. وقد أعدّوا خطةً تؤمّن تحفيزاً ضريبياً للأعمال لخلق فرصٍ للعمل، وحسماً ضريبياً فورياً للعائلات لزيادة الإنفاق الاستهلاكي.

أُقر مشروع القانون في غضون شهرٍ واحدٍ بأغلبيةٍ واسعةٍ من الحزبين، وبحلول شهر أيار/مايو، تم إرسال شيكات تصل قيمتها إلى ١٢٠٠ دولار للعائلة الواحدة بالبريد.

أعطى الاقتصاد إشاراتٍ بالتعافي، وكانت التقارير الاقتصادية إيجابية، وبلغت نسبة البطالة ٤,٩ في المئة، وسجلت الصادرات ارتفاعاً، وكان التضخّم تحت السيطرة، وكنت على أمل بتفادي الركود. لكنني كنت مخطئاً، فالمؤسسة النقدية كانت تضعف، والاقتصاد يتهاوى.

* * *

علمنا ظهر يوم الخميس الثالث عشر من آذار/مارس، أن بنك بير ستيرنس أحد أكبر بنوك الاستثمار الأميريكية كان يواجه أزمة سيولة، وكباقي مؤسسات وول ستريت، كان بير ستيرنس مُثقَلاً بالديون، وكان قد اقترض في مقابل كل دولارٍ مسجلٍ في رأس ماله ما قيمته ثلاثة وثلاثين دولاراً بغية الاستثمار، ومعظمها أوراق مالية مدعومة بالرهن العقاري. ومع ظهور فقّاعة الإسكان، كان بنك بير ستيرنس مكشوفاً بشكلٍ كبير، ونقل المستثمرون حساباتهم منه، وعلى عكس المجريات في بنك أميركا الأول في ميدلاند، لم تكن هناك محافظ أوراق مالية.

صُدِمت بالأزمة المفاجئة، وكان تركيزي على «اقتصاد طاولة المطبخ» أي خلق فرصٍ للعمل، والتضخّم. افترضت أن أي مشاكل حقيقية في الائتمان كانت شركات التقييم والتنظيم ستشير إليها. في النهاية، دعمت الإصلاح الاقتصادي بتوقيع قانون ساربينيز أوكسلي Sarbanes-Oxley Act، في رد فعلٍ على احتيال شركة إنرون للمحاسبة وفضائح الشركات الأخرى. ومع ذلك، وضعت قرارات بنك بير ستيرنس الاستثمارية السيئة البنك على حافة الانهيار، وفي هذه الحالة لم تكن المشكلة ضعفاً في الإصلاحات من جانب الحكومة، بل كانت قصر نظرٍ من مديري بنك بير ستيرنس.

لم أكن متحمّساً لإنقاذ بير ستيرنس، ففي الاقتصاد الحر للسوق، على الشركات التي تتعرض للانهيار أن تخرج من السوق. وإذا ما تدخلت الحكومة فسوف تتسبّب بمشكلةٍ تُدعى «الخطر الأخلاقي»، وستعتقد بقية الشركات أننا سننقذها أيضاً، مما سيزيد من جرأتهم على المخاطر.

شاركني هانك ميولي تجاه تدخل الحكومة. ولكنه شرح لي أنه سوف يكون لانهيار بنك بير ستيرنس تداعيات واسعة الأثر على النظام المالي الذي كان يعاني منذ بداية أزمة الإسكان في عام ٢٠٠٧. يتمتع بنك بير ستيرنس بعلاقات مالية مع مئات المصارف والمستثمرين والحكومات، فإذا ما انهار فجأةً، سوف تضعف الثقة في المؤسسات المالية الأخرى.

وقد يكون بنك بير ستيرنس حجر الدومينو الأول في سلسلة الشركات المنهارة. وبينما كنت قلقاً من التسبّب بالخطر الأخلاقي، كنت أشد قلقاً منن الانهيار الاقتصادي.

«هل من مشترٍ لبير ستيرنس؟» سألت هانك .

وصلنا الرد في صباح اليوم التالي. كان المديرون التنفيذيون في بنك جي بي

مورغان تشيس مهتمين بالاستحواذ على بير ستيرنس، ولكنهم كانوا قلقين من وراثة الصورة السيئة لمخاطر أوراق بير ستيرنس المالية المدعومة بالرهون العقارية.

مع موافقة بن، ابتكر كل من هانك و تيم غايثنر مدير البنك الاحتياطي الفدرالي في نيويورك خطةً لمعالجة مخاوف جي بي مورغان. سوف يقرض البنك الاحتياطي الفدرالي ٣٠ مليار دولار مقابل سندات رهون بير ستيرنس غير المرغوب فيها، وهو ما مهّد الطريق أمام جي بي مورغان لشراء بير ستيرنس مقابل دولارين للسهم الواحد[1].

* * *

ندّد الكثيرون في واشنطن بهذه الخطوة معتبرينها إنقاذاً. وعلى الأرجح لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لموظفي بير ستيرنس الذين خسروا وظائفهم أو لحاملي الأسهم الذين راقبوا أسهمهم تهوي بنسبة ٩٧ في المئة في أقل من أسبوعين. لم يكن هدفنا مكافأة بير ستيرنس على قراراته السيئة، بل كان الهدف حماية الشعب الأميركي من ضربةٍ اقتصاديةٍ حادة. وعلى مدى خمسة شهور مضت، بدا وكأننا قد نجحنا.

«هل يعلمون بما هو قادم يا هانك؟».

أجاب: سيدي الرئيس، سوف نتحرك بسرعة ونأخذهم بغتة. وأول صوتٍ سوف يسمعونه هو صوت ارتطام رؤوسهم بالأرض.

حدث ذلك في الأسبوع الأول من أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٨، كان هانك باولسون قد وضع خطةً لوضع كل من فاني ماي وفريدي ماك، الشركتين العملاقتين المدعومتين من الحكومة، تحت وصاية الحكومة.

لم يكن من بين كل الإجراءات التي توجّب على الحكومة اتخاذها في العام ٢٠٠٨ قرار أكثر إحباطاً من إنقاذ فاني وفريدي، لقد كانت المشكلة في تينك الشركتين الكبيرتين المدعومتين من الحكومة واضحةً للعيان منذ سنوات. توسّعت

(١) تمت لاحقاً إعادة التفاوض حول السعر ليصبح عشرة دولارات للسهم الواحد.

كلٌّ من فاني وفريدي إلى أبعد من مهمتهما في تسويق الملكية السكنية، وعملتا كصندوقٍ وقائي وتصرّفتا بمبالغ كبيرة جداً مجازفتين بمخاطر كبيرة. لقد حذّرتُ في ميزانيتي الأولى من أن كلاً من فاني وفريدي قد تضخّمتا بشكلٍ كبير وأصبحتا تشكلان مشكلةً مُحتمَلة، مما قد يؤدي إلى تداعيات شديدةٍ على الأسواق المالية .

تقدّمتُ في عام ٢٠٠٣ بمشروع قرارٍ سيقوي تنظيم الشركات الحكومية الكبيرة، ولكنه جوبِه بالرفض من أصدقائهم المقربين في واشنطن. كان الكثير من مديري فاني وفريدي التنفيذيين موظفين حكوميين سابقين. وكان لهم صلات وثيقة جداً في الكونغرس، وبخاصة الديمقراطيين النافذين مثل عضو الكونغرس بارني فرانك من ماساتشوستس والسيناتور كريس دوود من كونيتيكيت. قال بارني فرانك في ذلك الوقت: لا تواجه الشركتان فاني ماي و فريدي ماك أيّ نوعٍ من الأزمات المالية.

بدا ذاك الادّعاء غير قابلٍ للتصديق أكثر بمرور السنين، وفي ميزانية العام ٢٠٠٥ أطلقت تحذيراً أشد لهجة: «إن الشركات الحكومية مُثقَلة بالديون بشكل كبير بحملها أسهماً لرأس المال أقل ارتباطاً بأصولها، مقارنة بقريناتها من الشركات المالية». كما ذُكر في الميزانية: بالنظر إلى حجمها الكبير جداً، فإن أي خطأ صغيرٍ من الشركات الحكومية سيكون له انعكاسات على الاقتصاد كله.

في ذلك الصيف، ناقشنا عدداً آخر من التشريعات، وعمل جون سنوو برفقة ريتشارد شلبي، رئيس مجلس إدارة لجنة المصارف في مجلس الشيوخ، على مشروعٍ إصلاحي سوف يخلق تنظيماً تشريعياً جديداً لتقليص حجم محافظ استثمار الشركات الحكومية. ودفع السيناتور شلبي، هذا المشرّع الذكي من ولاية ألاباما، بمشروع القانون إلى لجنته على الرغم من إجماع الديمقراطيين على المعارضة، لكن الديمقراطيين وقفوا ضد المشروع في مجلس الشيوخ. أتعجّب دائماً عندما أسمع الديمقراطيين يقولون إن الأزمة المالية حدثت بسبب دفع الجمهوريين نحو التحرّر.

وبحلول صيف العام ٢٠٠٨، كنت قد دعوت علناً لإصلاح الشركات الحكومية

سبع عشرة مرة، واتضح أن السحر يكمن في المرة الثامنة عشرة، فكل ما تطلّبه الأمر هو وجود إمكانية انهيار الاقتصاد العالمي. أقر الكونغرس، في شهر تموز/يوليو، مشروعاً إصلاحياً بوجود عنصر أساسي هو نفسه الذي تقدمنا به قبل خمس سنوات: تنظيم مُحْكَم للشركات الحكومية. ومنح مشروع القانون أيضاً صلاحيات مؤقتة لوزير الخزانة لضخ الأسهم في كل من شركتيْ فاني وفريدي إذا ما تعرّضت ملاءة الشركتين للمساءلة.

قامت الوكالة المعنية بالتنظيم، سريعاً بعد إقرار القانون، بقيادة جيم لوكهارت رجل الأعمال والصديق، بتقويم سريع لسجلات فاني وفريدي، وبمساعدة قسم الخزينة استنتج المدقّقون أن لدىً الشركتين الحكوميتين ما يكفي من رأس المال تقريباً. وأعلنت فريدي وفاني، في بدايات شهر آب/أغسطس، خسائر ربعية كبيرة.

وكان الأثر مروّعاً، من بنوك المدن الصغيرة إلى المستثمرين العالميين الرئيسيين كالصين وروسيا. فقد افترض عملياً كل من يملك أسهماً في الشركات الحكومية أنها مدعومة من حكومة الولايات المتحدة. فإذا ما تعثّرت الشركات الحكومية، فإن تأثيراً عالمياً كأحجار الدومينو سوف يتبع ذلك، وستهتز صدقيّة البلاد المالية.

ومع نصيحة هانك السديدة، قررت أن الأسلوب الوحيد لمنع وقوع الكارثة هو وضع كلّ من فاني وفريدي تحت الوصاية الحكومية، وكان الأمر عائداً لهانك وجيم لإقناع رجال إدارة فاني وفريدي بابتلاع الدواء، وكنت أشك بقدرتهم على ذلك دون إثارة مجموعة من الدعاوى القضائية. لكن في يوم الأحد السابع من أيلول/ سبتمبر، اتصل هانك بي في البيت الأبيض ليخبرني أن الأمر قد تم. وارتفعت الأسواق الآسيوية عشية الأحد وارتفع مؤشر داو جونز ٢٨٩ نقطة يوم الاثنين.

* * *

أمضيت عطلة نهاية الأسبوع التالية، الثالث عشر والرابع عشر من شهر أيلول/ سبتمبر، أدير استجابة الحكومة لإعصار ليك. ضربت العاصفة سواحل خليج تكساس.

وفي صباح السبت الباكر، غمرت أمواج الإعصار، الذي هب بسرعة ١١٠ أميال في الساعة، ورفع الأمواج ٢٠ قدماً في ميناء غلافيستون، وحطّم النوافذ في هيوستن وقتل أكثر من مئة شخص. كانت تلك أسوأ عاصفة تضرب تكساس منذ إعصار غلافيستون عام ١٩٠٠، وبلغت الخسائر الناجمة عن إعصار ليك أكثر من ٢٤ مليار دولار.

وفي نهاية الأسبوع نفسه، كانت عاصفة من نوع آخر تضرب مدينة نيويورك، فقد كانت شركة ليمان براذرز مثل كثيرٍ من شركات وول ستريت مُثْقَلَةً بالديون ومكشوفةً على سوق الإسكان المتعثّرة. أعلنت الشركة، في العاشر من أيلول/سبتمبر، أسوأ خسائر لها على الإطلاق وبلغت ٩,٣ مليارات دولار في ربع واحد، وتلاشت الثقة في شركة ليمان براذرز. كما ساهمت الصفقات القصيرة من تجار يسعون إلى الربح السريع بتقليص سعر سهم الشركة من ١٦,٢ دولاراً إلى ٣,٦٥ دولارات للسهم الواحد، ولم يكن هناك أمل بتجاوز الشركة نهاية هذا الأسبوع.

كان السؤال المطروح، ما هو الدور الذي يتوجّب على الحكومة لعبه إنْ وُجِد لمنع غرق ليمان براذرز. وكان الحل الأفضل هو إيجاد مشترٍ للشركة، كما فعلنا سابقاً مع مصرف بير ستيرنس، وكان أمامنا يومان.

طار هانك إلى نيويورك للإشراف على المفاوضات، وأخبرني وجود مشتريْن مُحتمَلَيْن هما بنك أميركا وباركيليز وهو مصرف بريطاني. ولم يرغب كلاهما بالحصول على الأصول غير الثابتة لشركة ليمان براذرز. ابتكر هانك و تيم غايتنر طريقةً لهيكلة صفقةٍ دون المساس بأموال دافعي الضرائب، فقد أقنعوا شركات حكوميةً أساسيةً في وول ستريت بالانضمام إلى صندوق لامتصاص أصول ليمان براذرز المسمومة. وبشكلٍ أساسي فإن تنافسية ليمان براذرز ستنقذها من الوقوع في الإفلاس. وكان هانك على أمل أن أحد المشتريْن سوف يتمّم الصفقة.

وسرعان ما تبين أن بنك أميركا كان يضع نصب عينيه شراء شركةٍ أخرى هي مرلي لينش مما جعل باركيليز الأمل الأخير لشركة ليمان براذرز. لكن يوم الأحد، وقبل أقل

من اثنتي عشرة ساعة لموعد افتتاح الأسواق الآسيوية ليوم الاثنين، أبلغ المسؤولون الماليون في لندن الاحتياطي الفدرالي عدم نيتهم الموافقة على الشراء من قِبَل بنك بريطاني.

سألت هانك: «ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ اعتقدت أننا على وشك إتمام الصفقة».

فأجابني: لم يكن البريطانيون مستعدين للموافقة.

بينما كنا، أنا وهانك نتبادل هذا الحديث طوال الوقت يوم الأحد – الذي يفترض أنه يوم للراحة – توقعنا أنه الأسوأ، ثم تبين أننا نتبادل الحديث نفسه مرات ومرات، والمتغير الوحيد كان أسماء الشركات المنهارة، وفي هذا الحين لم يكن باستطاعتنا إيقاف أحجار الدومينو تلك عن التساقط تباعاً.

سألت هانك: «هل بإمكاننا فهم الاختلاف بين ليمان براذرز وبير ستيرنس؟».

فأجابني: لو لم يشترِ جي بي مورغان بنك بير ستيرنس لكان قد انهار، والفرق أننا لم نجد مشترياً لشركة ليمان براذرز.

شعرت أننا بذلنا قصارى ما نملك، لكن الوقت قد فات لشركة ليمان براذرز، ووقع بيت الاستثمار، الذي يبلغ من العمر ١٥٨ عاماً، في الإفلاس بعد منتصف ليلة الاثنين الخامس عشر من أيلول/سبتمبر.

* * *

فُتِحت كل أبواب الجحيم في الصباح. أشاد المشرّعون بقرارنا عدم التدخل، وعنونت الواشنطن بوست افتتاحيتها بالقول: كانت الحكومة الأميركية على حق عندما سمحت بضرب ليمان. لم تكن سوق الأوراق المالية إيجابيةً جداً، وانخفض مؤشر داو جونز أكثر من خمسة آلاف نقطة.

سادت عقلية الذعر، حيث بدأ المستثمرون ببيع السندات المالية وشراء أذون

الخزينة والذهب، وسحب العملاء حساباتهم من مصارف الاستثمار. كما قامت أسواق الائتمان بالتشدّد لإبقاء المقرضين على أموالهم. وكانت نقلات النظام المالي، التي تعتمد على السيولة كأنها وقود، توشك على التوقف.

وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد واجهت المجموعة الدولية الأميركية AIG، شركة التأمين الضخمة، أزمةً خاصةً بها. قدت AIG بوالص تأمين على الحياة وعلى الأملاك الخاصة، كما قدمت بوالص تأمين للبلديات وصناديق المعاشات التقاعدية، وأشكالاً أخرى من التأمين تؤثر على الحياة اليومية للمواطن الأمريكي. كانت كل تلك الأعمال صحيحة، ومع ذلك وصلت الشركة إلى حافة الانهيار.

«كيف حصل هذا؟» سألت هانك .

وكانت الإجابة أن أحد أقسام الشركة وهو «المنتجات المالية»، قام بضمان كمياتٍ كبيرةٍ من الالتزامات التي تدعمها الرهون العقارية، وقام باستثمار أكثر من ذلك. وبالإضافة إلى الرهون العقارية المتعثّرة بأعداد قياسية، كانت الشركة تواجه سحوباتٍ نقدية تصل قيمتها إلى ٨٥ مليار دولار لم تكن بحوزتها. إذا لم تأتِ الشركة بالمال حالاً، فإنها لن تفشل لوحدها فقط بل ستجر وراءها المؤسسات المالية الرئيسة، والمستثمرين الدوليين أيضاً.

حاول البنك الاحتياطي الفدرالي وضع حلّ مستخدماً القطاع الخاص. ولم يتمكّن أي مصرف من تقديم هذا الكم من المال الذي كانت تحتاجه المجموعة الدولية الأميركية خلال هذا الوقت القصير. بقيت طريقة واحدة فقط لإبقاء الشركة على قيد الحياة: تدخل الحكومة الفدرالية. قدم بن برنانك تقريراً عن المجموعة الدولية الأميركية، على عكس ليمان، بأنها قد تحمّلت ما يكفي من الضمانات من مشاريع التأمين الثابتة، لتتأهل لمواجهة أي قرضٍ طارئ للبنك الاحتياطي الفدرالي. ثم قام بترتيب المصطلحات: سوف يقوم البنك الاحتياطي الفدرالي في نيويورك بإقراض المجموعة الدولية المتحدة ٨٥ مليار دولار مضمونةً من قِبَل شركات التأمين

القيّمة والثابتة التابعة لها. وفي المقابل سوف تتلقى الحكومة مذكرةً بنسبة ٩,٧٩ من أسهم المجموعة الدولية المتحدة.

لم يكن هناك أي شيء جذّاب في هذه الصفقة، لأنها كانت بصورةٍ أساسيةٍ عبارةً عن تأميم لأكبر شركة تأمين أميركية. بعد مرور أقل من ثماني وأربعين ساعة، بعد أن صرح ليمان بالإفلاس، سوف يبدو إنقاذ المجموعة الدولية الأميركية وكأنه تناقض صارخ. ولكن هذا الجحيم أفضل بكثيرٍ من جحيم الانهيار الاقتصادي.

* * *

مررنا بعذاب مالي على مدى ثلاثة أسابيع. بإنقاذ المجموعة الدولية الأمريكية، كانت الأخبار تسوء يوماً بعد يوم، وكنت أدخل إلى اجتماع حين يكون مؤشر داو جونز مرتفعاً بمئتي نقطة وحين أخرج يكون قد انخفض ثلاثمئة نقطة. وكانت الأسواق في حالة تلهّف، وكذلك كنت أنا. شعرت بأنني قبطان سفينة تغرق. وكان فريق البيت الأبيض، والخزينة، والبنك الاحتياطي الفدرالي يعملون على مدار الساعة، ولكن كل ما كنا نفعله كان يضيع هباء. رأيت أنه لا يمكننا الاستمرار بهذا الشكل، وكان علينا إنقاذ السفينة.

عقد الفريق الاقتصادي اجتماعاً في قاعة روزفلت، يوم الخميس في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر، بعد مرور ثلاثة أيام من إعلان ليمان الإفلاس. قدّم بن احتمال بداية كسادٍ كبيرٍ آخر. ثم قدّم كلٌّ من هانك و كريس كوكس رئيس المجلس الأعلى للتعليم الخطة التالية: ضمان كل ودائع السوق المالية، وإطلاق آلية إقراض جديدة من أجل إعادة تشغيل سوق الأوراق المالية، وفرض حظرٍ مؤقتٍ على البيع العلني للأسهم المالية الرائدة، وشراء مئات المليارات من الدولارات على شكل أوراق مالية مدعومة من قبل الرهون العقارية، وهي المبادرة التي سوف تُسمّى فيما بعد برنامج إنقاذ الأصول المضطربة TARP.

كانت هذه الاستراتيجية تدخلاً آخذاً للأنفاس في السوق الحرة. فقد كانت تتقدم عكس كل غرائزي، ولكن كان ضرورياً سحب البلاد من هذا الذعر. رأيت أن الطريقة الوحيدة للحفاظ على السوق على المدى الطويل، هو التدخل على المدى القصير. «إنني أقدم لكم دعمي بالكامل» أخبرت فريقي. هذه ليست صفقة كل حالةٍ على حدة. لقد حاولنا وقف المد، ولكن المشكلة أعمق مما ظننا. هذا الأمر يقع بشكلٍ دوري.

انتقل الحديث إلى جدال حول الصعوبات التي سوف تواجهنا في كابيتول هيل. قلت: «ليس لدينا الوقت كي نقلق من السياسة، دعونا نكتشف الأمر الصحيح كي نقوم به ونطبّقه».

كنت قد اتخذت قراري: «سوف تدخل الحكومة الأميركية كلها إلى الحلبة».

قمت بعكس كل أمر كنا بصدد مواجهته. شهدنا على مدى الأسبوعين الفائتين سقوط أكبر كيانين للرهن العقاري في أميركا، إعلان إفلاس مصرف استثمار رئيسي، وبيع واحدٍ آخر، وتأميم أكبر شركة تأمين في العالم، والآن التدخل الجذري الأوسع في السوق الحرة منذ رئاسة فرانكلين روزفلت. وفي الوقت نفسه، اجتاحت روسيا جورجيا واحتلتها، وضرب إعصار ولاية تكساس، وكانت أميركا تقاتل في جبهتين أماميتين في العراق وأفغانستان. لقد كانت طريقةً قبيحةً جداً لإنهاء فترتي الرئاسية.

لم أكن أشعر بالأسى على نفسي، وكنت أعلم أنه سوف تكون هناك أيام عصيبة. الرثاء هو ميزة مثيرة للشفقة قد يتّصف بها قائد، وترسل إشاراتٍ سلبيةً جداً للفريق وللبلد. كما أنني كنت مرتاحاً جداً لإيماني بأن الله قد يحمّل المؤمن عبأً لا يستطيع التعامل معه.

بعد انتهاء الاجتماع مشيت عبر قاعة روزفلت، وشكرت كل شخص على جهوده الجبارة، وأكّدت لهم أن بلادهم محظوظة باختيارهم هم بالذات لخدمة الوطن. يجب أن يكون دورك في الرئاسة تماماً مثل دورك في الحياة، عليك لعب الدور الذي قمت

باختياره. لم يكن هذا الدور هو الذي كنا نأمل أن نلعبه، ولكننا كنا واثقين من أننا سوف نكون أفضل من يلعبه.

* * *

قام هانك والفريق التابع له في الخزينة بلوم الكونغرس بشدّة على حزمة الإنقاذ المالي. وقمنا باقتراح اعتمادٍ قيمته ٧٠٠ مليار دولار، أي حوالى ٥ في المئة من سوق الرهون العقارية، وقد اعتقدنا أنه كبير بما يكفي لكي يحدث فرقاً. اعترف الكثير من المشرّعين بحاجتهم لإجراءٍ حاسم وفاصل، ولكن هذا لم ينهِ صدمتهم أو غضبهم. واشتكى الحزب الديمقراطي من أن الفرع التنفيذي كان يستحوذ على قدرٍ كبيرٍ من السلطة، وصرّح أحد أعضاء مجلس الشيوخ من الحزب الجمهوري بأن خطتنا سوف تسلب السوق الحرة وتقيم الاشتراكية في أميركا.

كنت بطريقةٍ ما أتعاطف مع النقّاد. لقد كان آخر شيء كنت أود القيام به هو إنقاذ وول ستريت، وكما أخبرت جوش بولتن، سوف يسألني أصدقائي العائدون من ميدلاند عمّا حدث للشخص الذي يعرفونه في السوق الحرة. سوف يتساءلون لماذا نقوم بإنفاق أموالهم لإنقاذ الشركات التي خلقت الأزمة منذ البداية.

تمنّيت أن تكون هناك طريقة ما لمحاسبة شركات فردية، من أجل تجنيب البلاد، ولكن كل عالم اقتصاد أثق به أخبرني أن هذا الأمر مستحيل، حيث أن رفاهية وول ستريت مرتبطة بمصيرها.

إذا بقيت أسواق الائتمان مجمّدة، فسوف تقع أثقل الأعباء على العائلات الأميركية: انخفاضات حادة في قيمة حسابات التقاعد، وفقدان عددٍ كبيرٍ من الأميركيين وظائفهم، ومزيد من الانخفاض لقيمة المنازل. في الرابع والعشرين من أيلول/سبتمبر، وجّهت خطاباً مباشراً للأمة لكي أوضح الحاجة إلى حزمة الإنقاذ. قلت إنني أتفهم إحباط المواطن الأميركي المسؤول الذي يدفع رهنه في الوقت المحدد، ويرسل العائدات الضريبية في ١٥ نيسان/أبريل، والمترددين في دفع ثمن

التجاوزات في وول ستريت. ولكن نظراً للموقف الذي نتعرّض له حالياً، فإن عدم الموافقة على مشروع القانون الآن سوف يكلف هؤلاء الأميركيين أكثر بكثيرٍ لاحقاً.

قبل بضع ساعات من توجهي لإلقاء الخطاب على الهواء، أخبرتني مساعدتي الشخصية جريد وينستين أن جون ماكين يريد مكالمتي على الفور. سألته كيف كان شعوره حول حملته الانتخابية، إلا أنه دخل مباشرةً في سبب اتصاله. أرادني أن أعقد اجتماعاً في البيت الأبيض حول حزمة الإنقاذ.

قلت له: «امنحني بعض الوقت كي أتكلم مع هانك». أردت التأكد من أن اجتماع البيت الأبيض لن يضعف جهود وزير الخزينة لديّ لعقد صفقةٍ مع الكونغرس. قال جون إنه سوف يصدر بياناً، وبعد دقائق كان جون على شاشات التلفزة، حيث دعا إلى الاجتماع وأعلن أنه سوف يعلّق حملته الانتخابية ليعمل على تشريع القانون بدوامٍ كامل.

كنت أعلم أن جون يواجه موقفاً صعباً، فقد كان متأخراً في استطلاعات الرأي عن السيناتور باراك أوباما من ولاية إيلينويز، الذي كان قد هزم هيلاري كلنتون في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي. لا شك أن المشكلة الاقتصادية كانت تضر بجون، وكان حزبنا هو المسؤول عن البيت الأبيض، لذلك كنا هدفاً أساسياً لتوجيه أصابع الاتهام نحونا. ومع ذلك كنت أظن أن الأزمة المالية منحت جون بعض الانتعاش، حيث يقدّر المصوّتون، في فترات الأزمات، الخبرة والرأي أكثر من الشباب والكاريزما. من خلال معالجته التحدي كرجل دولة، كان بإمكان جون أن يقدم نفسه كي يكون المرشح الأفضل للرئاسة في ذلك الوقت.

اتجهت نحو المكتب البيضاوي حيث كان جوش بولتن ونائبته جويل كابلان والمستشار إيد جيليسبي بانتظاري. لم يكن أحد متحمساً لفكرة الاجتماع، وقال جوش إن هانك عارضه. ولكن كيف يمكن أن أرفض طلب جون؟ كان بإمكاني رؤية عناوين الصحف: حتى بوش يعتبر أن فكرة ماكين سيئة.

أخبرنا المتحدثة نانسي بيلوسي وزعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ هاري ريد أن الاجتماع سوف يُعقد بعد ظهر اليوم التالي، يوم الخميس في ٢٥ أيلول/سبتمبر. اتصلت بالسيناتور باراك أوباما وأخبرته أنني أقدر مقاطعته جدول حملته الانتخابية، فأجابني بلطف: «في أي وقت يستدعيني الرئيس، سوف أكون موجوداً». لقد وسّعت الدعوة إلى الاجتماع وأوضحت أنه لم يكن فخاً سياسياً، ووافق على الحضور.

بدأ المشاركون الوصول إلى الاجتماع في اليوم التالي حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. وعلى الرغم من أني لم أجازف بشريط وقوف السيارات بين البيت الأبيض وبناء المكتب التنفيذي إيزينهاور، قيل لي أنه يبدو مثل اتفاقية SUV. قبل أن يبدأ الاجتماع، أجريت نقاشاً سريعاً مع زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ميتش مكونل وزعيم الأقلية في مجلس النواب جون بوهنر . قضينا معظم الوقت نتحدث عن صعوبة إنشاء صفقةٍ قد تكدّس أصواتاً من الحزب الجمهوري في البيت الأبيض. وأخبرتهم أنه سوف يكون أمراً كارثياً إذا قام الجمهوريون بقتل مشروع قانون برنامج إنقاذ الأصول المضطربة وبالتالي انهار الاقتصاد.

قبل أن آخذ مكاني في غرفة مجلس الوزراء، تكلمت للحظة مع المتحدثة بيلوسي. وأخبرتها إنني أريد الاتصال بها بعدما ننهي أنا و هانك كلمات الافتتاح. لقد اشتبهت أن دافعي كان التخريب على الديمقراطيين، وأجابتني والغضب يتملّكها وكأنها بركان مستعد للانفجار: سوف يكون باراك أوباما هو المتحدث باسمنا.

أخذت مكاني في مركز الطاولة الخشبية الكبيرة التي وهبها ريتشارد نيكسون للبيت الأبيض. مثّل الإدارة كل من هانك باولسون، ديك تشيني، جوش بولتن، وأنا. ومثّل زعماء الأحزاب ورؤساء اللجان الرئيسة الكونغرس. وجلس المرشحان للرئاسة جون ماكين وباراك أوباما عند الطرفين المتقابلين من الطاولة. ازدحم الأعضاء العاملون لدينا في القاعة، ولم يكن أحد يريد تفويت سرادق الحدث على المسرح السياسي في واشنطن.

افتتحت الاجتماع من خلال التأكيد على ضرورة الاستعجال في إصدار التشريعات في أقرب وقتٍ ممكن. كان العالم بأسره يراقب إذا كانت أميركا ستتحرك، وكان على كلا الحزبين الارتقاء إلى مستوى هذا التحدي. وضع هانك أعضاء الاجتماع في صورة الموجز الخاص بالأسواق المتقلّبة وردّد دعوتي لإقرار القانون سريعاً.

التفتت إلى المتحدثة، ووفقاً لكلمتها، فإنها أجلتها لكي يتحدث السيناتور أوباما. كان سلوكه هادئاً، وتحدث حول الخطوط العريضة للحزمة، اعتقدت أنه من الذكاء من قبل أن يخبر الحاضرين أنه كان على تواصلٍ مستمرٍ مع هانك. كانت غايته أن يظهر للحاضرين أنه كان مدركاً، ومتابعاً، ومستعداً للمساعدة على تمرير مشروع القانون.

عندما انتهى أوباما من كلمته، التفتت إلى ماكين إلا أنه تجاوز دوره. لقد صُعِقت لأنه دعا إلى هذا الاجتماع، وقد افترضت أنه كان قد حضّر نفسه لاستعراض طريقةٍ للمساعدة على تمرير مشروع القانون.

بعد ذلك بدأت دراما سرعان ما انحدرت إلى مهزلة، حيث التهبت المشاعر وارتفعت الأصوات ورُميت انتقادات لاذعة. كنت أراقب حرباً كلامية كادت أن تكون هزلية، إلا أن الرهانات كانت عالية جداً.

وحين شارف الاجتماع على نهايته، تحدّث جون أخيراً. كان يتحدّث بشكلٍ عام حول صعوبة تصويت أعضاء الحزب الجمهوري، وأمله بإمكانية وصولنا إلى إجماع بالرأي.

بعد أن أخذ كل شخصٍ دوره للتنفيس عما في داخله، رأيت أنه لا يمكننا تحقيق أي شيء آخر من هذا الاجتماع. كنت قد طلبت من المرشحيْن للرئاسة ألا يستخدما البيت الأبيض ومنصةً لإصدار تصريحات سياسية، وطلبت من أعضاء الكونغرس أن يتذكّروا بأنّ علينا أن نظهر جبهةً موحدةً لكي نتجنّب ترويع الأسواق. ثم غادرت القاعة.

* * *

ظهر يوم الاثنين ٢٩ أيلول/سبتمبر، أجرى مجلس النواب تصويتاً على مشروع قانون الإنقاذ المالي. وكان اليومان السابقان مثقلَيْن بالمفاوضات، وهي عطلة نهاية الأسبوع الخامسة التي نقضيها في التعامل مع الأزمة المالية. كان هانك وعاملو الخزانة يتنقلون جيئة وذهاباً إلى الكابيتول هيل، ومعهم دان ماير رئيس الشؤون التشريعية الذي يتصف بالهدوء، وكيث هينيسي المدير الدؤوب للمجلس الاقتصادي القومي، وكانوا جميعهم يعملون على حل المشاكل المتبقية المتعلقة ببرنامج إنقاذ الأصول المضطربة.

في وقتٍ متأخرٍ من ليلة السبت، أخبرني كل من المتحدثة بيلوسي وجون بوهنر أن بحوزتهما الخطوط العريضة لصفقة. وفي صباح الاثنين، اتجهت إلى الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض لكي أهنئ الكونغرس وأحثه على تمريرٍ سريعٍ لمشروع القانون.

عند عودتي إلى المكتب البيضاوي، بدأت أجري اتصالاتي بأعضاء مجلس النواب الجمهوري من أجل تأمين الأصوات.

أخبرت كل عضوٍ في الكونغرس اتصلت به: «نحن نحتاج بالفعل إلى هذه الحزمة.. ولكنهم جميعاً كانت لهم أسباب لعدم قدرتهم على الموافقة. كانت بطاقة الأسعار مرتفعة جداً حيث أن الناخبين التابعين لهم كانوا يعارضونها.

قال لي أحدهم: لا أظنني أستطيع إنقاذ وول ستريت وأكون جزءاً من تدمير السوق الحرة.

صرخت بدوري: «هل تعتقد أنني أحب هذه الفكرة؟ صدّقني سوف أكون مسروراً جداً إذا سقطت هذه الشركات، ولكن الاقتصاد بأكمله على المحك، وسوف ينهار بالكامل إذا لم نتدخّل».

في الثانية وسبع دقائق بعد الظهر، تم إلقاء الصوت الأخير على مشروع القانون، وكان مصيره الفشل، ٢٢٨ صوتاً معارضاً مقابل ٢٠٥ أصوات موافقة. صوّت

الديمقراطيون لصالح التشريع ١٤٠ صوتاً مقابل ٩٥، بينما رفضه الجمهوريون ٦٥ صوتاً لصالح التشريع مقابل ١٣٣ صوتاً رافضاً. كنت أعلم أن التصويت سوف يكون كارثةً حقيقية. لقد لعب حزبي دوراً مهماً في قتل برنامج الإنقاذ، والآن سوف يكون الحزب الجمهوري هو الملام على العواقب.

وفي غضون دقائق، سقط سوق الأسهم بسرعة. انخفض مؤشر داو جونز ٧٧٧ نقطة، وهي أكبر خسارة للنقاط في يومٍ واحدٍ خلال تاريخه الممتد على مدى ١٢٢ عاماً. وسقط مؤشر S&P ٥٠٠ نقطة بنسبة ٨,٨ بالمئة، وهي أكبر خسارة مئوية منذ الانهيار المفاجئ عام ١٩٨٧ المسمى بانهيار الاثنين الأسود. «إنه ذعر... لقد امتلأت الأرض بالفساد، نحن نعيش حالياً لحظةً تقليديةً من الانهيار المالي». قال أحد المحللين لقناة CNBC.

بعد مرور وقتٍ قصيرٍ من انتهاء التصويت، اجتمعت مع هانك، وبن، وباقي فريقي الاقتصادي في قاعة روزفلت لكي نحدد خطوتنا التالية. لم يبقَ لدينا في الحقيقة سوى خيار واحد، كان علينا إجراء تصويتٍ آخر على التشريع.

كنت آمل أن يؤثر رد الفعل الحاد للأسواق على تصويت الكونغرس، حيث بنى كثير من الذين صوتوا ضد مشروع القانون معارضتهم على بطاقة السعر التي تبلغ ٧٠٠ مليار دولار، وبعد ذلك راقبوا نزف الأسواق بما يقارب ١,٢ تريليون دولار في أقل من ثلاث ساعات. سوف يثور غضباً كل مشترك في حساب التقاعد الشخصي IRA، أو من له معاش، أو من له حساب E*Trade.

قمنا باختراع استراتيجية، يقودها جوش بولتن ، من أجل رفع مشروع القانون إلى مجلس الشيوخ أولاً، ومن ثم إجراء ترشيح آخر ضمن مجلس النواب. حرّك كل من هاري ريد وميتش ماكونل مشروع القانون بسرعة مع إضافة بنود أخرى بهدف جذب دعمٍ أكبر، من بينها زيادة مؤقتة لتأمين شركة التأمين على الودائع الاتحادية للمودعين، وحماية العائلات ذوات الدخل المتوسط من الحد الأدنى من الضرائب

البديلة. بينما بقي جوهر التشريع، مبلغ ٧٠٠ مليار دولار لتقوية المصارف وفك جمود أسواق الائتمان، دون تغيير.

قام مجلس الشيوخ بالتصويت ليلة الأربعاء، وقد مرّر مشروع القانون بـ٧٤ صوتاً مقابل ٢٥. وقام مجلس النواب بالتصويت بعد يومين. يوم الجمعة في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر، أجريت عدداً من الاتصالات بالأعضاء المتردّدين بشأن التصويت، وكانت تنبيهاتي حول سقوط النظام المالي أكثر صدقيّةً هذه المرة. تم تمرير مشروع القانون هذه المرة بفضل القيادة القوية لعضو الحزب الجمهوري ويب روي بلانت وزعيم الأغلبية الديمقراطية ستيني هوير، بـ٢٦٣ صوتاً مقابل ١٧١ صوتاً. قال لي أحد الأعضاء الذي غيّر موقفه: أدليت يوم الاثنين بصوتٍ ذي طوقٍ أزرق، أما اليوم فسوف أدلي بصوتٍ ذي طوقٍ أحمر وأبيض وأزرق.

* * *

بعد أيام من توقيعي برنامج إنقاذ الأصول المضطربة، اقترح هانك تغيير الطريقة التي نشرنا فيها ٧٠٠ مليار دولار. واقترح، بدلاً من شراء الأصول المسمومة، أن تقوم الخزينة بإدخال رأس المال مباشرة إلى المصارف المكافحة، من خلال شراء الأسهم الممتازة غير الداخلة في التصويت.

كرهت فكرة أن تمتلك الحكومة أجزاء من المصارف، وكنت قلقاً من أن يعتبر الكونغرس ذلك طعماً، ويغيّر قراره بإنفاق الأموال على شراء الأصول المسمومة، ولكن كان علينا المجازفة بذلك. اضطررنا إلى تغيير خطة برنامج إنقاذ الأصول المضطربة بسبب التدهور السريع للموقف المالي. إن تصميم نظام لشراء الأوراق المالية المدعومة من قبل الرهون العقارية سوف يستغرق وقتاً لم يكن بحوزتنا، لذلك كان شراء الأسهم من البنوك أسلوباً أسرع وأكثر فعالية. سوف يؤدي شراء الأسهم إلى إدخال رأس المال ـ شريان حياة التمويل ـ إلى النظام المصرفي غير الممول.

وسوف يقلّص هذا الإجراء خطر الفشل المفاجئ ويحرّر المزيد من أموال القروض للمصارف.

وسوف يقدم أيضاً إدخال رأس المال شروطاً أكثر ملاءمة لدافعي الضرائب في أميركا. وسوف تدفع البنوك نسبة ٥ في المئة أرباحاً للسنوات الخمس الأولى.

وسوف تزيد الأرباح إلى ٩ في المئة مع مرور الوقت، مما يعطي حافزاً للمؤسسات المالية لرفع رأس المال الخاص الأقل تكلفة وإعادة شراء الأسهم الممتازة. وسوف تتلقى الحكومة أيضاً مذكرات الأسهم وهو ما يمنحنا حق شراء الأسهم بأسعار منخفضة في المستقبل. كل هذا قرّب احتمال استعادة دافعي الضرائب أموالهم.

في الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر، يوم كولومبوس، كشف كل من هانك، وتيم غايثنر، وبن خطةً لشراء رأس المال بشكلٍ دراماتيكي. استدعوا الرؤساء التنفيذيين لتسع شركات مالية رئيسة إلى قسم الخزينة، وأخبروهم أنه من أجل مصلحة الوطن، يتوجّب على كل شركة أن تأخذ عدة مليارات من الدولارات. كنا قلقين أن تقوم بعض المصارف الأفضل حالاً برفض رأس المال وتندّد بتلك التي قبلت به. ولكن هانك كان مقنعاً ووافق الجميع على أخذ المال.

لقد أتى نشر برنامج إنقاذ الأصول المضطربة بالآثار النفسية التي كنا ننتظرها. حيث أرسل البرنامج إشارةً صائبةً بأننا لن نسمح بفشل النظام المالي الأميركي، بالاتفاق مع ضمانة شركة التأمين على الودائع الاتحادية الخاصة بالديون المصرفية. ارتفع مؤشر داو جونز ٩٣٦ نقطة، وهي الزيادة اليومية الأكبر في تاريخ سوق الأسهم.

لم يقضِ برنامج إنقاذ الأصول المضطربة على المشاكل المالية. حيث احتاج سيتي غروب وبنك أميركا، على مدى الأشهر الثلاثة التالية، موارد ماليةً حكوميةً جديدة. واستمرت المجموعة الدولية الأميركية بالتدهور واحتاجت في النهاية مبلغ ١٠٠ مليار دولار إضافي. وبقي سوق الأسهم متقلباً جداً.

ولكن مع استمرار تطبيق البرنامج استأنفت المصارف عمليات الإقراض ببطء،

وبالتالي وجدت الشركات السيولة اللازمة لتمويل عملياتها، كما انحسر الذعر الذي كان سائداً في الأسواق. مع إنني كنت أعلم بقدوم ركود صعب قريباً، إلا أنني شعرت بأن الضغط قد خفّ قليلاً. قضيت أول عطلة نهاية الأسبوع من شهور دون اتصالات مسعورةٍ حول الأزمة، كما عادت الثقة في تأسيس اقتصادٍ قوي.

* * *

امتدّت الأزمة المالية، وكان أحد القرارات الأساسية التي ينبغي اتخاذها هو كيفية التعامل معها على المستوى الدولي. وقع الاضطراب خلال تسلم فرنسا دورها في قيادة الاتحاد الأوروبي، وشجعني نيكولا ساركوزي، الرئيس الفرنسي الديناميكي الذي كان يعمل على الجبهة الموالية للولايات المتحدة الأمريكية، على استضافة قمة دولية، وقد أحببت الفكرة. كان السؤال يكمن في الدول التي ينبغي استضافتها. سمعت أن بعض القادة في أوروبا يفضلون أن ندعو المجموعة G-7[1]، ولكن هذه المجموعة تشمل ثلثين فقط من الاقتصاد العالمي، لذلك قررت أن تكون القمة تجمعاً لمجموعة الدول العشرين G-20، وتشمل هذه المجموعة كلاً من الصين، روسيا، البرازيل، المكسيك، الهند، أستراليا، كوريا الجنوبية، المملكة العربية السعودية، ودولاً اقتصاديةً ديناميكيةً أخرى.

كنت أعلم أنه لن يكون سهلاً التوصّل إلى اتفاق بين الزعماء العشرين. ولكننا حققنا ذلك بالعمل الدؤوب وليّ ذراع بعضهم بلطف[2]. في الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، وقّع كل رئيس في القمة تصريحاً مشتركاً مفاده أن عملنا سوف يسترشد باعتقادٍ مشتركٍ في أن مبادئ السوق، وأنظمة الاستثمار، والتجارة المفتوحة، والأسواق المالية المنظّمة بشكلٍ فاعل، جميعها تعزز الديناميكية، والابتكار، وروح المبادرة الضرورية للنمو الاقتصادي، والتوظيف، والحد من الفقر.

---

(١) الولايات المتحدة، اليابان، ألمانيا، بريطانيا العظمى، فرنسا، إيطاليا، وكندا.

(٢) يعود الفضل في إبرام الصفقة إلى دان برايس وهو محام صلب من طاقم مجلس الأمن القومي، وديف مكورميك الوكيل القدير لوزارة الخزينة للشؤون الدولية.

إن موافقة البلاد التي تمثل ٩٠ في المئة تقريباً من الاقتصاد العالمي على مبادئ حل الأزمة، يرسل إشارةً قوية، على خلاف فترة الكساد، بأن دول العالم لن تغلق على نفسها. ويستمر إطار العمل الذي قمنا بتأسيسه خلال قمة واشنطن بتوجيه التعاون الاقتصادي العالمي.

* * *

لم تكن القمة الاقتصادية هي الحدث الأضخم في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ففي يوم الثلاثاء الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، انتُخِب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة الأميركية.

كنت أفضّل انتخاب جون ماكين. واعتقدت أنه كان مهيأً بشكلٍ أفضل لتولي المكتب البيضاوي في خضم الحرب العالمية والأزمة المالية. لم أدعم حملته الانتخابية، جزئياً بسبب انشغالي بالوضع الاقتصادي، ولكن في الغالب لأنه لم يطلب مني ذلك. كنت متفهماً حاجته لتأسيس استقلاليته، وكنت أظن أنه قلق من استطلاعات الرأي. كنت أعتقد أن جون كان دفاعياً في النأي بنفسه عني. وكنت واثقاً من أنني أستطيع مساعدته على بناء قضيته، لكن القرار كان عائداً له. وقد خاب أملي لأنني لم أستطع تقديم أكثر من ذلك لمساعدته.

لم يكن الاقتصاد هو العامل الوحيد الذي وقف في وجه المرشح الجمهوري. كان جون ماكين على الجانب الخاطئ من سياسة الأجيال، تماماً كما حدث مع والدي عام ١٩٩٢ ومع بوب دوول عام ١٩٩٦. كان في الثانية والسبعين من عمره، وكان أكبر مني بعقدٍ كاملٍ، وهو أحد أكبر المرشحين السياسيين في التاريخ. لذلك فإن انتخابه يعني تخطي جيلٍ كاملٍ إلى الوراء. وفي المقابل، كان باراك أوباما البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً يمثل خطوةً أماميةً للأجيال. كان لديه نداء هائل للناخبين تحت سن الخمسين، وكان قد أدار حملةً انتخابيةً ذكيةً، ومنظّمةً، وذات تقنيةٍ عاليةٍ لسحب الشباب الداعمين له في استطلاعات الرأي.

في اللحظة التي فاز فيها أوباما بمنصبه الرئاسي، بدأت أفكر ملياً ماذا يعني لمواطن أميركي من أصل أفريقي أن يفوز بالانتخابات الرئاسية. قبل أيام من الانتخابات، لمحت مشهداً لمواطن أميركي من أصل أفريقي وهو أحد العاملين في مقر البيت الأبيض، يجلب طفليه التوأم ذويْ الأعوام الستة إلى المكتب البيضاوي لالتقاط صورة وداع. نظر أحدهم في أرجاء الغرفة وقال فجأة: أين باراك أوباما؟ فأجبته بأسى: «لم يصل بعد».

عشية الانتخابات، أثّر بي مشهد رجلٍ وامرأةٍ أسودين يبكيان على شاشة التلفاز، وقال الكثيرون: لم أتخيّل أنني سأعيش لأرى يوماً كهذا.

اتصلت بالرئيس المُنتخَب لتهنئته، كما اتصلت بجون ماكين لأخبره أنه رجل جيد وبذل ما بوسعه، وكان الاثنان شاكرين. وأخبرت الرئيس المُنتخَب أنني أتطلع للترحيب به في البيت الأبيض.

عندما أغلقت سماعة الهاتف صلّيت كي تمضي الأمور بخيرٍ خلال فترة رئاسة خلفي. وفكرت في اقتباس رئاسي مفضّل لديّ من رسالةٍ كتبها الرئيس السابق جون أدامس إلى زوجته أبيغيل: «أسأل الله أن ينزل بركاته على هذا المكان، على وكل من سيسكنه في الآخرة. وأتمنى ألا يحكم تحت سقف هذا المكان سوى رجالٍ يتمتعون بالشرف والحكمة». كانت تلك الكلمات منحوتةً على شكل قوسٍ فوق الموقد في غرفة الطعام الرئاسية.

* * *

كنت قد قررت قبل انتخابات عام ٢٠٠٨ بأشهر، أن أجعل من أولوياتي إتمام عملية انتقالٍ منظمٍ وسلسٍ للسلطة. فأول عملية انتقال للسلطة بعد أحداث ٩/١١ ستكون فترة بالغةً الحساسية، وشعرت أنه يقع على عاتقي أن أمنح خليفتي شرف الدخول بسلاسة إلى البيت الأبيض. أشرف على عملية الانتقال جوش بولتن وأحد

نوابه، وهو مساعدي الخاص السابق الموهوب بليك غوتسمان، وقد تأكّد كل منهما من حصول الرئيس الجديد المُنتخَب وفريقه على إحاطة بطبيعة الموظفين الرفيعين في الإدارة وأماكن مكاتبهم في أقسامهم الجديدة.

وتضّمنت عملية الانتقال جانباً اقتصادياً، فقد تطلّبت الأزمة الاقتصادية اتخاذ قرارٍ أخير: ماذا نفعل بتجارة السيارات الأميركية المترنّحة. فقد كانت الشركات الثلاث الكبرى فورد وكرايزلر وجنرال موتورز تعاني من مشاكل منذ سنوات. إن عقوداً من الإدارة السيئة جعلت صانعي السيارات يعانون تحت وطأة تكاليف باهظة للرواتب التقاعدية والعناية الصحية. لقد كانوا بطيئين في استيعاب تغيرات السوق، ونتيجة لذلك أطاح بهم منافسوهم من المصنّعين الأجانب من حيث نوعية الإنتاج والسعر.

وعندما تعرّض الاقتصاد إلى ضربةٍ هبطت مبيعات السيارات، وأوقف الجمود في سوق الائتمان معظم قروض السيارات تقريباً. وأضيفت أسهم شركات السيارات إلى مجموعة الأسهم المنهارة في شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر، وهبطت أرصدتهم النقدية إلى مستوياتٍ متدنية خطيرة، وكان أملهم ضئيلاً في جني الأموال من الأسواق الخاصة.

بدأ الرئيس التنفيذي لجنرال موتورز ريك واغونير في خريف عام ٢٠٠٨ يطالب بدعمٍ فدرالي، وحذّر من أن جنرال موتورز سوف تنهار ثم ستتبعها بقية شركات السيارات. لم أقتنع بأن هذا التحذير أتى مصادفةً قبل الانتخابات المزمعة، ورفضت اتخاذ قرارٍ بخصوص صناعة السيارات قبل نهاية الانتخابات.

التقيت الرئيس المُنتخَب باراك أوباما بعد الانتخابات بستة أيام في المكتب البيضاوي، كان باراك شاكراً ويبدو أنه شعر بشعور الدهشة نفسه الذي شعرت به قبل ثماني سنوات عندما استقبلني بيل كلنتون في المكتب البيضاوي كرئيس مُنتخَب، وتمكّنت من مشاهدة الشعور بالمسؤولية يحيط به أيضاً. سألني كيف أنظّم

يومي وأشيائي وتحدّثنا عن السياسة الخارجية بما في ذلك علاقة أميركا مع الصين والمملكة العربية السعودية وبقية القوى الأساسية، كما تناقشنا في الاقتصاد بما في ذلك مشاكل شركات السيارات.

عقدت لاحقاً في ذلك الأسبوع اجتماعاً مع الفريق الاقتصادي قائلاً: «أخبرت باراك أوباما أنني لن أسمح بانهيار صناعة السيارات ولن ألقي بهذا العبء على كاهله».

عارضت إنقاذ جيمي كارتر لشركة كرايزلر عام ١٩٧٩، واعتبرت أن على الحكومة أن تنأى بنفسها عن تجارة السيارات. كان الاقتصاد لا يزال شديد الهشاشة وحذرني مستشاريّ الاقتصاديون من أن الإفلاس الحالي للشركات الكبيرة الثلاث سيكلفنا ما يقارب مليون فرصة عمل وانخفاضاً في عائدات الضرائب بنحو ١٥٠ مليار دولار، وسيؤدي إلى تراجع الناتج الإجمالي المحلي بمليارات الدولارات.

أقر الكونغرس مشروع قانون يقدم ٢٥ مليار دولار على شكل قروضٍ لشركات السيارات لقاء تحسين أداء سياراتها في استهلاك الوقود وجعلها أكثر فعاليةً، ورجوت أن نستطيع إقناع الكونغرس بالصرف الفوري لتلك القروض، بحيث تتمكّن شركات السيارات من النجاة في وقتٍ يكون كافياً للرئيس المُنتخَب وإدارته لمعالجة هذه الحالة.

اخترت لهذا الموضوع كارلوس غوتيريز وزير التجارة، وهو من مواليد كوبا، وكان قد هاجر إلى فلوريدا صبياً وانتقل أبواه إلى المكسيك عندما عمل كارلوس سائقاً لشاحنة بضائع تابعة لشركة كيلوج. وبعد ذلك بأربعة وعشرين عاماً أصبح كارلوس أصغر رئيسٍ تنفيذي في تاريخ الشركة، والمدير التنفيذي الوحيد من أصول لاتينية في شركة من أهم ٥٠٠ شركة في البلاد.

انضمّ كارلوس إلى إدارتي في عام ٢٠٠٥، وقام بدورٍ رائعٍ في دعم التجارة ودعم الإعفاءات الضريبية والحرية في كوبا.

دفع كارلوس والفريق الاقتصادي الكونغرس لصرف قروض شركات السيارات، وحققنا نجاحاً في البيت الأبيض، لكن مجلس الشيوخ لم يتزحزح. ولم يكن أمامنا من خيار سوى تمويل القروض من برنامج إنقاذ الأصول المضطربة. أخبرت الفريق أنني أريد استخدام هذه القروض للضغط على شركات السيارات لتطوير خطط لتنمية أعمالها، فتحت شروط القروض الصارمة، أمام شركات السيارات فرصة حتى نيسان/أبريل عام ٢٠٠٩ لتكون قادرة على النمو والاستمرار لوحدها، من خلال إعادة هيكلة عملياتها وإعادة صياغة عقود العمل والتوصل إلى اتفاقياتٍ جديدة مع حملة السندات، وفي حال عدم تمكّنها من تنفيذ تلك الشروط، ستُسحب القروض في الحال وستُجبر على إعلان الإفلاس.

واجه الاتفاق انتقادات من كلا الطرفين، فرئيس اتحاد عمال السيارات اشتكى من قساوة الشروط. كتب لي غروفر نوركويست وهو محامٍ مؤثّر في السياسات المالية المحافظة: «عزيزي الرئيس بوش: لا».

لم يكن أحد محبطاً بقدر إحباطي، ففي حين كانت القروض المقيّدة قصيرة الأمد أفضل من الإنقاذ الصريح، كان محبطاً لي أن يكون إنقاذ صناعة السيارات آخر قرار اقتصادي مهم أتّخذه. ولكن مع عدم دخول الأسواق في العمل بعد، توجّب علي حماية العمال الأميركيين وعائلاتهم من انتشار الانهيار. كما أن الرئيس القادم لم يغب عن بالي، وقررت معاملته بالطريقة التي كنت أتمنى أن أُعامَل بها لو كنتُ مكانه.

* * *

كان من أفضل الكتب التي قرأتها خلال فترة رئاستي كتاب «تيودور ريكس» سيرة حياة تيدي روزفلت لإدمون موريس. ففي موقف في فترة نهاية حكمه الحافلة بالأحداث، صاح روزفلت: «كنت أعلم أن عاصفةً ثلجيةً ستهب عندما أخرج».

عرفت ماذا كان يقصد. فقد كانت الفترة ما بين شهر أيلول/سبتمبر، وكانون

الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٨ هي الأشد كثافةً، واضطراباً، ومليئة بالقرارات مقارنة بالأشهر نفسها من عام ٢٠٠١. ولما كانت الأزمة قد بدأت في وقتٍ متأخرٍ من إدارتي، لذلك فلن أشهد آثار معظم القرارات التي اتخذتها. لحسن الحظ، في الوقت الذي غادرت فيه البيت الأبيض في شهر كانون الثاني/يناير عام ٢٠٠٩، وازنت الإجراءات التي اتخذناها لحماية النظام المالي، وقد تجاوزنا تهديد الانهيار الشامل. بدأت أسواق الائتمان بالعمل ثانيةً بعد تجميدها مرة. كان العالم لا يزال يواجه عدم استقرار اقتصادي خطير، لكن عقلية الذعر كانت قد ولّت.

جلب لنا العام التالي صورة مركبة. انخفضت سوق الأسهم خلال الشهرين الأول والثاني من عام ٢٠٠٩، ولكن بنهاية العام حقّقت أرباحاً بأكثر من ١٩ في المئة. وبعد أن بدأت المصارف بإعادة بناء ميزانياتها العامة، قامت بتخليص الأسهم التي تملكها الحكومة. بحلول خريف عام ٢٠١٠، تم رد الأغلبية العظمى من رأس المال الذي قامت الخزينة بإدخاله إلى المصارف. عندما يستعيد الاقتصاد قوته، سوف يتم رد معظم تلك الأموال بالإضافة إلى أرباح.

إن هذا البرنامج الذي تمت السخرية منه بسبب تكاليفه، قد ينتهي به الأمر أن يدر مالاً لدافعي الضرائب الأميركيين.

كنت دائماً أفكر ملياً في ما إذا كنا نستطيع التنبؤ بقدوم الأزمة المالية، وقد فعلنا ذلك في بعض المجالات. أدركنا الخطر المحدق من شركتيْ فاني وفريدي، ودعونا الكونغرس مراراً وتكراراً لتفويض رقابة أقوى عليهما والحد من حجم سنداتهما التجارية. كما أدركنا الحاجة إلى طرائق جديدة للتشريع. وفي أوائل عام ٢٠٠٨، اقترح هانك مخططاً لهيكل تنظيمي حديث يعزز الرقابة على القطاع المالي ومنح الحكومة سلطة أكبر لتقليص الشركات المنهارة. ومع ذلك، استخفت إدارتي والمشرّعون بحجم المخاطر المحدقة بوول ستريت. خلقت وكالات التصنيف حساً زائفاً بالأمان من خلال الموافقة على الأصول الهشّة. وبنت الشركات المالية نفوذاً

ضخماً، وأخفت تعرضها لخسائر من خلال حسابٍ خارج عن الميزانية العمومية. كانت غالبية المنتجات الجديدة معقدة جداً، لدرجة أن مصنعي هذه المنتجات لا يفهمون تماماً ما هي. وساهمت هذه الأسباب كلها في أن نكون مصدومين بالأزمة المالية التي كانت تلوح منذ أكثر من عقد.

من أكثر الأسئلة الشائعة التي تطرح علي: «كيف يمكننا تجنب أزمةٍ ماليةٍ أخرى». كان ردي الأول هو، أني لست متأكداً من أننا قد تجاوزنا الأزمة الحالية بعد. فلا تزال المؤسسات المالية حول العالم تفكك نفوذها، وتنوء الحكومات تحت وطأة هذا الكم الهائل من الديون. يجب على الحكومة الفدرالية أن تحسّن موقعها المالي على المدى الطويل، لكي تنتعش بالكامل، وذلك من خلال تخفيض الإنفاق، ومعالجة الالتزامات غير المموّلة في مجال الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية، وخلق الظروف المناسبة للقطاع الخاص – وخاصة المشاريع الصغيرة – بهدف خلق مزيدٍ من فرص العمل.

حالما يقف الاقتصاد على قدمين ثابتتين، يجب تحويل فاني وفريدي إلى شركتين خاصتين تتنافسان في سوق الرهنِ العقاري على فرص متكافئة مع الشركات الأخرى. ويجب أن تلتزم المصارف بمتطلبات معقولة من رأس المال لمنع تشكّل ضغطٍ زائد. تحتاج وكالات التصنيف الائتماني إلى إعادة تقييم النموذج الخاص بتحليل الأصول المالية المعقّدة. ويجب على مجلس الإدارة إنهاء حزم التعويض التي تخلق حوافز مزوّرة وتكافئ المديرين التنفيذيين على فشلهم.

وفي الوقت نفسه يجب أن نحذّر من عدم المبالغة في التصحيح. يؤدي فرض التنظيم إلى تباطؤ الاستثمار، وخنق الابتكار، والإثناء عن روح المبادرة.

من واجب الحكومة فك ارتباطها بالنظام المصرفي، وصناعة السيارات، وقطاعات التأمين. ولما كانت الحكومة تعالج التنظيم المالي، فيجب ألا يتعدى الكونغرس على استقلالية الاحتياطي الفدرالي في إدارة السياسة النقدية. ويجب ألاّ

تتحول الأزمة المالية إلى عذرٍ لرفع الضرائب، التي سوف تؤدي إلى تقويض النمو الاقتصادي المطلوب لإعادة تجميع قوتنا.

قبل كل شيء، يجب أن تحافظ بلادنا على إيماننا في الأسواق الحرة، والمشاريع الحرة، والتجارة الحرة. لقد حولت الأسواق الحرة أميركا إلى أرضٍ للفرص، وساعدت مع مرور الوقت على رفع مستوى المعيشة للأجيال المتلاحقة. حوّلت الأسواق الحرة في الخارج الدول المكافحة إلى قوى اقتصادية وسحبت مئات الملايين من الناس خارج حد الفقر. تشكل الديمقراطية الرأسمالية، مع أنها ناقصة وبحاجةٍ إلى رقابة رشيدة، النموذج الاقتصادي المبتكر الأكثر نجاحاً من أي وقت مضى.

تكمن طبيعة أن تكون رئيساً في أنك لا تختار التحديات التي قد تأتي إلى مكتبك، ولكنك تقرّر كيف تستجيب لها. دعوت، في الأيام الأخيرة من إدارتي، مستشاريّ الاقتصاديين إلى اجتماع قصير في المكتب البيضاوي. كنت قد جمعت فريقاً خبيراً وقوياً قادراً على التكيفً مع كل جديد ومفاجئ وإصدار توصيات مسموعة.

لقد قمنا بكل ما اعتقدنا أنه ضروري، مدركين أنه لن يكون شائعاً طوال الوقت. أصبح برنامج إنقاذ الأصول المضطربة TARP للبعض أمراً مكروهاً، إلا أنني اعتقدت أنه ساعد على تجنيب الشعب الأميركي الكارثة الاقتصادية ذات الأبعاد التاريخية. لقد أوضحت الحكومة أنها لن تدع الاقتصاد ينهار، والكساد الكبير الثاني الذي حذر منه بن برنارك لم يحدث.

عندما نظرت إلى الوجوه المتعبة للرجال والنساء من فريقي الاقتصادي، فكّرت بكل ما مرت به إدارتي من صعوبات.

كل يوم على مدى ثماني سنوات بذلنا أفضل ما لدينا، ومنحنا عملنا كل ما لدينا. وخلال كل محنة مرّت علينا، كان لنا الشرف في خدمة الشعب الذي نحب.

الخاتمة

بدأت يوم الثلاثاء ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، بالطريقة نفسها التي كنت قد بدأتها كلّ يوم على مدى السنوات الثماني الماضية: قرأت الكتاب المقدّس. أحد المقاطع في ذلك اليوم كان المزمور ١٨:٢ «الربّ صخرتي وحصني ومنقذي. إلهي صخرتي ألجأ إليه». آمين.

قبل الساعة السابعة صباحاً بقليل، استقليت المصعد إلى الطابق الأرضي في البيت الأبيض، وسرت في الرواق، وفتحت باب المكتب البيضاوي المزيّن بالزجاج للمرّة الأخيرة. كان جوش بولتن ينتظر في الداخل. استقبلني بالكلمات نفسها التي استخدمها كلّ يوم ككبير الموظّفين: «سيّدي الرئيس، أشكركم على شرف العمل معكم».

في صباح يوم عاديّ، يكون الجناح الغربي صاخباً بالمساعدين، وفي ذلك اليوم الأخير، كان ًالمبنى هادئا بشكلٍ مخيف. لم ترنّ الهواتف، ولم تضبط أجهزة التلفزيون على الأخبار، ولم يكن هناك أيّ اجتماعات في الممرّات. وكان الصوت الوحيد هو ضجة الحفر لتهيئة المكاتب للفريق الجديد.

تركت رسالة على مكتب Resolute، محافظاً على تقليدٍ رئاسي، كنت قد كتبت

مهنّئا خلفي ومتمنّيا له التوفيق. وضعت الرسالة في مغلّف مانيلا ووجّهتها إلى «٤٤».

قلت لجوش: «يا له من شرف أن آتي للعمل في هذا المكتب كلّ يوم». ثمّ لبست معطفي، وخرجت من الباب، وقمت بلفّة أخيرة حول مضمار الجري في الحديقة الجنوبيّة، حيث مشيت برفقة سبوت صباح يوم إعطائي الأمر بتحرير العراق.

كانت المحطّة التالية الغرفة الشرقيّة، حيث تجمّع موظّفو مقرّ الإقامة في البيت الأبيض. كانت الغرفة المليئة بالأشخاص تتناقض بقوّة مع الفراغ في الجناح الغربي. وكان كلّ موظّف تقريباً في مقرّ الإقامة موجوداً هناك : الذين يضعون باقاتٍ جديدةً من الأزهار في المكتب البيضاوي في كلّ صباح، والخدم الذين جعلوا حياتنا مريحة جدّاً، والنجّارون والمهندسون الذين يحافظون على البيت الأبيض في حالة جيّدة، والطهاة الذين يحضّرون الوجبات اللذيذة لنا، وبطبيعة الحال، طاهي الحلويات الذي كان يشبع شهيّتي للحلويات.

كان كثير من الموظّفين في مقرّ الإقامة قد خدموا، ليس فقط خلال السنوات الثماني الماضية، ولكن أيضاً خلال الوقت الذي أمضاه والداي في البيت الأبيض. قلتُ للجميع: «لقد كنتم مثل عائلتنا» فيما وقفت لورا وباربرا وجينا إلى جانبي. «هناك بعض الأشياء التي لن أشتاق إليها في واشنطن، ولكنّني سأفتقدكم كثيرا. نشكركم من أعماق قلوبنا».

* * *

وصل باراك وميشيل أوباما إلى الرواق الشمالي قبل الساعة العاشرة. وكنت أنا ولورا قد دعوناهما لتناول فنجانٍ من القهوة في الغرفة الزرقاء، مثلما فعل بيل وهيلاري كلينتون معنا قبل ثماني سنوات. كانا في حالةٍ معنويّةٍ جيّدةٍ ومتحمّسين لرحلة الرئاسة. في الوقت نفسه، وفي غرفة العمليّات، قام المعاونون في فريق الأمن القومي عندنا بمراقبة التهديد الإرهابي لحفل التنصيب. كان تذكيراً صاعقاً بأنّ

رجالاً أشراراً لا يزالون يريدون إلحاق الضرر ببلادنا بغضّ النظر عمّن يشغل منصب الرئيس.

بعد الزيارة، التحقنا بالموكب للرحلة على بنسلفانيا أفنيو. تذكّرت الرحلة التي قمت بها مع بيل كلينتون قبل ثماني سنوات. في ذلك اليوم من كانون الثاني/يناير سنة ٢٠٠١، لم يكن بإمكاني أن أتصوّر أبداً ماذا يمكن أن يحصل مع مرور الوقت خلال رئاستي. كنت أعرف أنّ بعض القرارات التي اتّخذتها لم تلقَ قبولاً عند كثيرٍ من المواطنين. ولكنّني شعرت بالرضا لأنّني كنت مستعدّاً لاتّخاذ القرارات الصعبة، ولأنّني فعلت دائماً ما اعتقدت أنّه حق. في مبنى الكابيتول، جلست أنا ولورا في مقعديْنا لحضور حفل التنصيب. اندهشت دائما بظاهرة التداول السلمي للسلطة، وهي احدى ميّزات ديمقراطيّتنا. وتركّز اهتمام الجمهور على ترقّب أداء اليمين. وكان باراك أوباما قد بنى حملته الانتخابيّة على الأمل، وكان ذلك ما قدّمه إلى كثير من الأميركيّين.

بالنسبة إلى رئيسنا الجديد، كان التنصيب بدايةً مثيرة. أمّا بالنسبة إليّ وإلى لورا، فقد شكّل ذلك نهايةً لمرحلة. كان الدور قد انتقل الى رئيسٍ آخر، وكنت على استعدادٍ للرحيل. بعد حفل وداعٍ مؤثّرٍ في قاعدة أندروز للقوّات الجوّيّة، ركبنا، أنا ولورا، طائرة الرئيس التي سمِّيت عندها البعثة الخاصّة للطيران رقم ٢٨٠٠٠. هبطنا في ميدلاند في وقتٍ متأخّرٍ من بعد ظهر يومٍ جميلٍ من فصل الشتاء في ولاية تكساس. انتقلنا بالسيّارة إلى اجتماعٍ حاشد في سنتنيال بلازا، حيث كنّا قد حضرنا مراسم الوداع قبل ثماني سنوات. كان كثير من الوجوه في الحشد لم يتغيّر، تذكيراً بالأصدقاء الحقيقيّين الذين كانوا معنا قبل السياسة، وخلال السياسة، وبعد السياسة.

قلت: «إنّه لأمر جيّد أن نعود الى موطننا. قد نكون تركنا تكساس، ولكنّ تكساس لم تتركنا... عندما غادرت البيت الابيض صباح هذا اليوم، رحلت مع القيم نفسها التي أحضرتها قبل ثماني سنوات. وعندما أنظر في المرآة هذا المساء في المنزل، لن أشعر بأيّ ندم على ما أراه، ربّما ما عدا الشعر الرمادي».

سافرنا إلى كراوفورد في تلك الليلة، واستيقظنا عند فجر صباح اليوم التالي، وكان ذلك أوّل أيّام ما أطلقت عليه لورا اسم الحياة الثانية. أدهشني الهدوء. لم يكن عليّ أن أتلقّى موجز وكالة المخابرات المركزيّة، ولا الورقة الزرقاء من غرفة العمليّات. شعرت وكأنّني كنت قد أبطأت سرعتي من مئة ميل في الساعة إلى حوالي عشرة أميال. اضطررت الى إجبار نفسي على الاسترخاء. وكنت أقرأ الأخبار وأفكّر بكيفيّة الردّ، ثمّ تذكّرت أنّ شخصا آخر يتّخذ القرارات.

كان لديّ كثير من الانشغالات لأملأ وقتي. ذهبت إلى العمل لبناء مركز بوش الرئاسي في حرم الجامعة الميثوديّة الجنوبيّة، والذي سوف يشتمل على أرشيف الحكومة ومتحفٍ ومعهدٍ سياسي مكرّسٍ لتعزيز إصلاح التعليم والصحة العالميّة والنموّ الاقتصادي وحرّيّة الإنسان، مع التركيز بشكلٍ خاص على خلق فرصٍ جديدة للمرأة في جميع أنحاء العالم.

أنا محظوظ لكوني الرئيس الوحيد الذي يغادر المنصب بوجود كلّ من الوالدين على قيد الحياة، وأنا ممتنّ للحصول على فرصة لقضاء مزيد من الوقت معهما. في حزيران/يونيو سنة ٢٠٠٩ انضممت إلى عائلتنا الموسّعة في كينيبانكبورت للاحتفال بعيد ميلاد والدي الخامس والثمانين، الذي احتفل به بقفزةٍ أخرى بالمظلّة. قالت والدتي ساخرة إنّ اختياره لمنطقة الهبوط، وهي أسقفيّة سانت آن الأبيسكوباليّة هو خيار استراتيجيّ. إذا لم تجرِ القفزة بشكلٍ جيّد، فعلى الأقل سيسقط بالقرب من مقبرة.

بين الحين والآخر، أجد تذكيراً بمدى تغيّر الحياة. بعد أن انتقلنا إلى دالاس بوقتٍ قصير، أخذت بارني إلى جولةٍ في الجوار. لم أكن قد فعلت شيئاً كهذا منذ أكثر من عقدٍ من الزمان. كذلك الأمر بالنسبة لبارني، فقد أمضى حياته كلّها في البيت الأبيض وكامب دايفيد وكراوفورد. رصد بارني حديقة الجيران، حيث قام على الفور بفعلته. هناك كنت، الرئيس السابق للولايات المتّحدة، أحمل كيساً من البلاستيك في يدي، وألتقط ما كنت قد تفاديته على مدى السنوات الثماني الماضية.

* * *

بدأت كتابة هذا الكتاب في اليوم الذي تلى مغادرتي لمنصبي. العمل عليه أعطاني فرصةً عظيمةً للتأمّل، وآمل أن تكونوا قد استمتعتم بقراءة هذه الأفكار بقدر ما استمتعت بكتابتها. عندما اخترت أن أنظّم هذا الكتاب حول محطّات القرار الكبرى، كنت أعرف أنّ ذلك سيعني عدم تغطية بعض جوانب رئاستي. أنا لا أغطّي الإنجازات على مستوى السياسة الخارجيّة بشكلٍ كامل بما في ذلك الاتّفاقيّة التاريخيّة مع الهند بشأن الطاقة النووية المدنية أو مبادرة «ميريدا» لمكافحة المخدرات في المكسيك. كرّستُ بضع كلمات فقط لسجلّي في مجال الطاقة والبيئة، وأنا لا أصف قراري بإنشاء أكبر مساحاتٍ للمحافظة على البيئة البحرية في العالم. كذلك لم أسرد جهودنا الناجحة لتحسين الخدمات لقدامى المحاربين، والحد من تعاطي المخدرات في سنّ المراهقة، والتشرّد المزمن. كلّ هذه الإنجازات هي مصدر فخر، وأنا ممتنّ لأولئك الذين ساهموا في جعل ذلك ممكناً.

حاولت، بدلاً من تغطية كلّ قضية، أن أعطي القارئ نبذةً عن القرارات الأكثر أهمّيّة التي وصلت إلى مكتبي. أرجو أن أكون قد أوضحت اقتناعي بأنّ بعض تلك القرارات صحيح، وبعضها الآخر خاطئ. ولكن بالنسبة لكلّ منها، لقد فعلت ما اعتقدت أنّه في مصلحة بلدنا.

من المبكر جدّا القول كيف سيتبلور معظم قراراتي مستقبلا. كرئيسٍ للولايات المتّحدة، كان لي شرف رثاء جيرالد فورد ورونالد ريغان. إنّ عفو الرئيس فورد عن ريتشارد نيكسون، الذي اعتُبِر في السابق من أسوأ الأخطاء في التاريخ الرئاسي، يعتبر الآن عملاً غيريّاً للقائد. وكان مهمّاً سماع المعلّقين الذين ندّدوا بالرئيس ريغان ذات مرّة، معتبرين أنه غبي ومحبّذ للحرب، يتكلمون عن طريقة تحقيق المتحدّث العظيم النصر في الحرب الباردة.

بعد عقود؛ آمل أن يعتبرني الناس رئيساً أدرك التحدّي الأساسي في عصرنا، وحافظ على عهده بأن يبقي البلد آمناً، وتبع قناعاته دون تردّد، ولكنه غيّر مساره عندما كان ذلك ضروريّاً، ووثق بقدرة الأفراد على اتّخاذ القرارات الخاصة بهم في

حياتهم، واستخدم نفوذ أميركا لدفع عجلة الحرّيّة.. وآمل أن يستنتجوا أنّني حافظتُ على شرف وكرامة المنصب الذي خُوّلت أن أشغله.

أيّاً كان الحكم على رئاستي، فأنا أشعر بالراحة وأنا أعلم أنّني لن أكون موجوداً للاستماع إليه. فهذه محطّة اتّخاذ قرارٍ بإمكان التاريخ وحده الوصول إليها.

شكر وتقدير

أنا محظوظ لكوني أنتمي إلى عائلة مكوّنة من مؤلّفي الكتب الأكثر مبيعاً. ألّفت أمي وأبي كتباً ممتازة، كما فعلت أختي دورو. ضمن عائلتي الخاصّة، ألّفت لورا كتاباً عالي المبيعات، وكذلك فعلت جينا، كما أنّهما قامتا بتأليف كتابٍ معاً. حتى كلبا والدي، سي فريد وميلي، قاما بتأليف أعمالٍ خاصّة بهما.

استوحيت من نجاح أفراد عائلتي، والأهمّ من ذلك، أنّني تغذّيت من حبّهم. أشكر لورا على حبّها المستمر وتقاسم التجارب التي جعلت هذا الكتاب ممكناً. وأشكر باربرا وجينا، على العناق والضحك. ويسرّني أن يكون هنري هاغر صهراً لي. إنّني أقدّر الدعم الثابت من أمّي وأبي، وأشكر جيب ونيل ومارفين ودورو على التخفيف عن أخيهم.

عندما فكّرت في تأليف هذا الكتاب، كنت أعرف أنّ المهمّة ستكون تحدّياً. لم أكن أدرك كم ستكون ممتعة، والسبب الرئيسي لذلك هو أنّني عملت مع كريس ميشل. في المرحلة الأخيرة من رئاستي، كان كريس الكاتب الرئيسي لخطاباتي. كان يعرف كيف أتحدّث، وشهد الكثير من المراحل التاريخيّة التي عشناها. المجموعة الواسعة من المواهب التي يملكها، من البحوث الى التحرير، جعلت مشروع الكتاب

يتقدّم بسلاسة. كانت شخصيّته المتفائلة مصدر فرحٍ ثابت، وسوف أفتقد إليه وهو يتّجه إلى كلّيّة الحقوق في جامعة ييل.

بدأ هذا الكتاب أوّل خطواته باتّجاه مرحلة النشر عندما وكّلت بوب بارنيت. بوب محام موهوب، حكمه سليم وخبرته لا تُضاهى، وصبره عظيم، وقد أظهره من خلال التغاضي عن الشكاوى المتكرّرة التي أطلقتها متذمّراً من كلفة ساعات عمله. الحقيقة هي أنّ بوب هو الأفضل في مجاله، وكان يستحق كل بنس.

لا أستطيع تصوّر محرّرٍ أفضل من شون ديزموند. شون أصله من دالاس، في تكساس وتخرّج من هارفرد. عرف شون أين يجب إضافة تفصيل، ومتى يجب تقليل الكلمات، وكيف يمكن جعل قراراتي حيّة عند القارئ. فعل ذلك باحترافٍ وصبرٍ وروح دعابة.

أنا ممتنّ للفريق الرائع في دار كراون للنشر. ستيف روبن وجيني فروست أظهرا ثقتهما في هذا المشروع منذ البداية. مايا مافجي وتينا كونستابل واكبتاه باقتدار حتى النهاية. أنا أقدّر مديرة التحرير إيمي بورستاين والمحرّرة جينا دولان ومدير الإبداع ويتني كوكمان ومساعدة التحرير ستيفاني تشان ومدير الدعاية دايفيد درايك ومدير الإنتاج لينيا نولمولر ومديرة التصميم الداخلي اليزابيث رندفلايش، وكثيرون غيرهم في كراون وراندم هاوس، ساعدوا في جعل هذا الكتاب حقيقةً واقعة.

أجرى بيتر راف، الرائع والدؤوب، الكثير من البحوث لهذا الكتاب. قضى بيتر الأشهر الثمانية عشر الماضية يبحث في المحفوظات والإنترنت ورزمات من الورق. حسّنت رؤيته وذكاؤه هذا الكتاب بطرائق لا تُعدّ ولا تُحصى، وفحص كلّ كلمةٍ منه، بمساعدة أربعة أعضاء سابقين في فريق كتابة خطبي: ستاسي ويلر ومايك روبينز ومايك هاسون ومات لاركن. غابرييل جيليت وبول لانغدايل وكريس باباجانس وسارة كاترين بيرو وكيري راشتون وسارة سندك وجوش سيلفرشتاين وغيرهم أضافوا البحوث القيّمة.

إنني مدين للمهنيّين في الأرشيف الوطني وادارة السجلاّت لما قدّموه من مساعدةٍ لإنجاز هذا الكتاب. وأنا ممتنّ لآلان لو، مدير مكتبة جورج بوش الرئاسية، والمشرفة على المحفوظات شانون جاريت لجعلها هذا المشروع على رأس الأولويّات.

تعقّب مسؤولو المحفوظات بروك كليمانت وماثيو لو وجودي ستك الآلاف من الوثائق والصور الفوتوغرافية التي ساعدت على إنعاش ذاكرتي وتأكيد تفاصيل في قصّتي. وكذلك سارة بركا وتالي فيوغايت وبيتر هاليغاس ونيلي هولم وبوبي هولت واليزابيث لانير ودايفيد سابو وكتينا تايلور أيضاً. وأشكر موظفي دائرة المحفوظات الوطنية المسؤولين عن الموادّ المتعلّقة بالرئاسة في واشنطن، وبالأخصّ نانسي سميث وجون لاستر وستيفاني أوريابيور، الذين وفّروا لي الكثير من الوثائق السرّيّة المهمّة.

ساهم كثير من الأصدقاء الموثوق بهم في هذا الكتاب. إنّني ممتنّ بشكل خاص لأولئك الذين راجعوا المخطوطة الكاملة: ستيف هادلي وجوش بولتن وأندي كارد وبليك غوتسمان وكارين هيوز وكوندوليزا رايس ودانا بيرينو التي قدّمت أيضاً مشورةً لا تقدّر بثمن بالنسبة للدعاية. بيت وينر قام بقراءة قسم كبير من الكتاب في مراحله المبكرة وأعطى تعليقات ثاقبة. برنت ماكينتوش وراؤول يانز راجعا بعناية المخطوطة النهائيّة. وقدّم آخرون الكثير من الاقتراحات بشأن فصول رئيسيّة، من ضمنهم دان بارتليت وريان كروكر ومارك ديبول وغاري إيدسون وبيتر فيفر وجو هايغن ومايك هايدن وكيث هينيسي وجويل كابلان وإدي لازير وجاي لفكوفيتز وبريت مكغرك وهانك بولسون. إنهم مسؤولون عن كثيرٍ من نقاط القوّة في الكتاب وغير مسؤولين عن أيّ من الأخطاء.

يتضمّن جزء من نشر كتاب لرئيس سابق مراجعة إمكانيّة رفع السرّيّة عن بعض الملفّات. لقد كنت محظوظاً لحصولي على مساعدة ثلاثة محامين قادرين في العمليّة: بيل برك ومايك سكادر وتوبي يونغ. أنا ممتنّ لبيل ليري وموظّفيه في جهاز الأمن الوطني الذين ساعدوا في تسريع عملية المراجعة. وأشكر أيضاً الرجال والنساء

المتفانين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين ساعدوا في التدقيق في الحقائق الرئيسية.

من أُعجب بالقسم الذي يتضمّن الصور عليه أن يشكر إميلي كروب ميشل التي ـ جنباً إلى جنب مع فريق نارا ـ فرزت صوراً كثيرةً من بين الأربعة ملايين صورة فوتوغرافيّة في الأرشيف في مكتبة بوش الرئاسية. وهم تلقّوا توجيهاتٍ قيّمةً من أريك درايبر، وهو كان المصوّر الرئيسي على مدى سنوات الرئاسة، ومصوّر البيت الأبيض السابق بول مورس.

إنّ القرارات التي أصفها في هذا الكتاب لم تكن ممكنةً بدون الخدمة والدعم الذي قدّمه كثير من الأشخاص المتفانين عبر السنوات الخمس عشرة التي قضيتها في الخدمة العامة. أشكر ديك ولين تشيني على ثماني سنوات من الصداقة. وأنا أقدّر الرجال والنساء العظيمين والغيريّين الذين خدموا في مجلس الوزراء وضمن فريق موظّفي البيت الأبيض، فضلاً عن الذين عملوا في الحملات وفي مكتبي كحاكم تكساس. أنا ولورا سوف نكون دائما ممتنّين للعملاء في جهاز الخدمة السرية، والمساعدين العسكريّين الذين كانوا دائماً إلى جانبي، وموظّفي مركز الإقامة في البيت الأبيض الذين يتّسمون بسخاءٍ غير معقول، والأطباء والممرضات في وحدة البيت الابيض الطبّيّة، وطواقم طائرة ومروحيّة الرئيس، والفريق الرائع في كامب دايفيد. نيابةً عن بارني، وسبوت، وميس بيزلي، أتقدّم بالشكر الخاص لديل هاني وسام ساتون وروبرت فافيلا وسندي رايت وروبرت بلوسمان وماريا غالفان.

أنا محظوظ لكوني محاطاً بفريقٍ عظيم في دالاس بقيادة كبير الموظّفين الموهوب والقادر مايك ميس. وأنا ممتنّ لبلايك غوتسمان وجاريد واينستين، وهما من مساعديّ السابقين الذين كرّسوا أشهراً من حياتهم لمساعدتي في إعداد مكتبي. الجميع في مكتب جورج دبليو بوش ساهموا في هذا الكتاب: مايك ميس وبريان كوسيبوم ولوغان درايدن وفريدي فورد وأشلي هيكي وكارولين هيكي وكارولين

نوجنت ودايفيد شرزر وجوستين سترلينغ. وأشكر أيضاً تشاريتي والاس ومولي سوبر وكاتي هاربر لاعتنائهن بلورا.

بالإضافة إلى إعداد هذا الكتاب، قضيت الأشهر الثمانية عشر الماضية في العمل على بناء مركزي الرئاسي في الجامعة الميثودية الجنوبية في دالاس. أشكر مارك على الإشراف على هذا المسعى، ورئيس الجامعة جيرالد تيرنر لشراكته وجيم غلاسمان وستايسي سيناتل لقيادتهما في معهد جورج دبليو بوش. أنا ممتنّ بشكلٍ خاص لدون إيفانز وراي هنت وجين جونسون فيليبس على كلّ ما قاموا به لجعل المشروع ناجحاً.

غالباً ما أقول للناس إنني لا أشتاق إلى السياسة في واشنطن، لكنني أشتاق للناس. أنا ممتن لأصدقائي الكثيرين في الكونغرس، وزملائي بين زعماء العالم، وحتى لأعضاء السلك الصحفي.

أخيراً، أشكر الرجال والنساء في القوات العسكرية للولايات المتحدة. بينما أهديت هذا الكتاب للورا وباربرا وجينا، فلا أحد ألهمني أكثر من أولئك الذين يرتدون الزي العسكري في هذا البلد وأسرهم. سوف تُصنّف إنجازاتهم جنباً إلى جنب مع تلك التي حقّقها أعظم الأجيال في التاريخ، وأعلى شرفٍ في حياتي كان خدمتي كقائدهم الأعلى.







الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: ٣٠٠/٩٩٦٢٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**

قرارات مصيرية

لا تكفي سطور لاختصار كتاب بهذا الحجم.. يُغطّي ٢٦٨٥ يوماً، وهي الفترة التي حكم بها جورج بوش الابن الولايات المتحدة الأميركية وتحكّم بمصائر دول وشعوب، والتي كانت الأغنى بالأحداث والحوادث والكوارث في العالم.. كما يُغطّي الكتاب حيّزاً كبيراً من حياة بوش، كوّن شخصيته وشكّل عقيدته وأفكاره، وسلّط الضوء على علاقته بأبويه وزوجته، عاداته والتغيُّرات التي طرأت عليها، التحاقه بمدرسة داخلية، شغفه بدراسة التاريخ، إقلاعه عن التبغ والكحول، زواجه ومحاولة تبنّيه لطفل بعد أن تأخّرت زوجته كثيراً لتحمل وتنجب.

تحدّث بوش عن نجاحاته وإخفاقاته على الصعيدين الداخلي والخارجي مدعّماً حديثه بوثائق حكومية ومقابلات شخصية وتقارير إخبارية ومصادر أخرى لم تُرفع عنها السرّية بعد.

- تأثّره بريغان وبأبيه.
- القرارات المصيرية التي اتّخذها.
- حقيقة صناعة القرار في الولايات المتحدة وعلاقة الرئيس بها.
- أسرار اختياره لمستشاريه.
- تفاصيل يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بنهاره وليله، تحرُّكاته في هذا اليوم وتحرُّكات كل أفراد الإدارة الأميركية وردود أفعال كل منهم.
- تفاصيل حربه على أفغانستان وكيفية تلقّيه لتقارير الاستخبارات الواردة من هناك.
- تفاصيل حربه على صدّام حسين وشعب العراق وملابسات أسلحة الدمار الشامل، وتعاطيه مع تصرُّفات الجنود الأميركيين هناك ولا سيما في سجن أبو غريب.
- المشاكل والانتقادات التي تعرّض لها خلال فترة حكمه.

ISBN 978-9953-88-629-9



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٧٢٢ ٩٦١١٣٥٠+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر